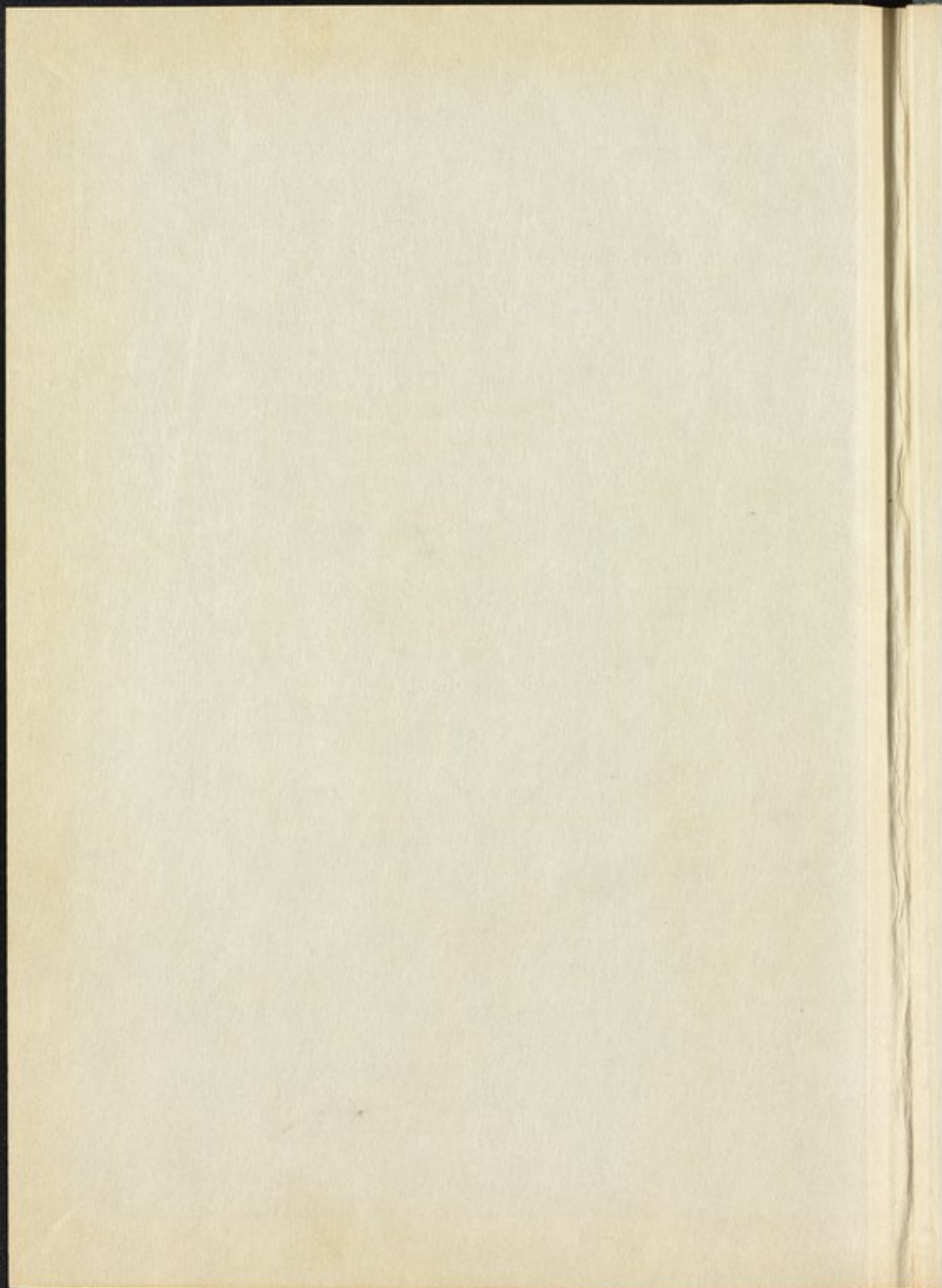
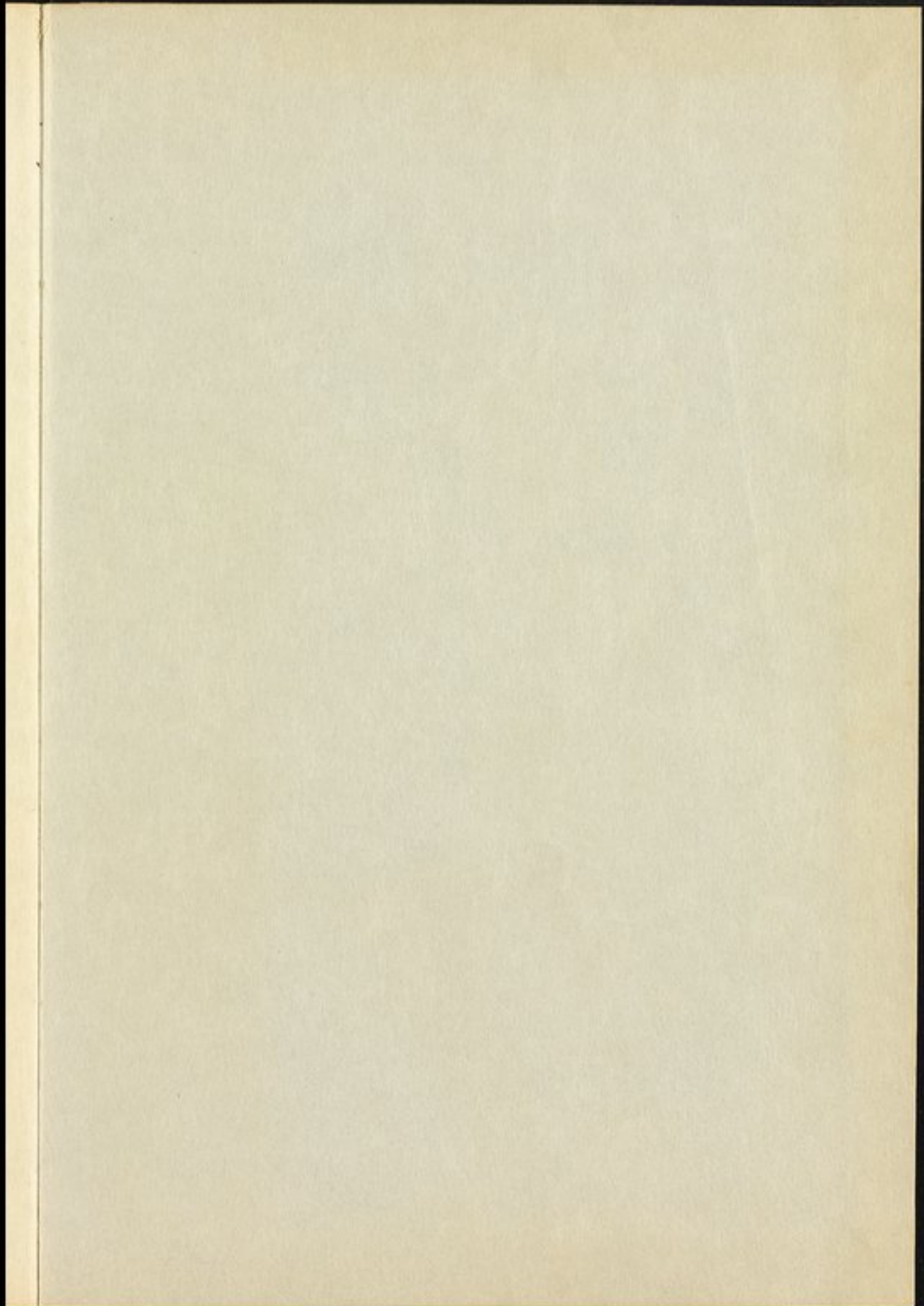


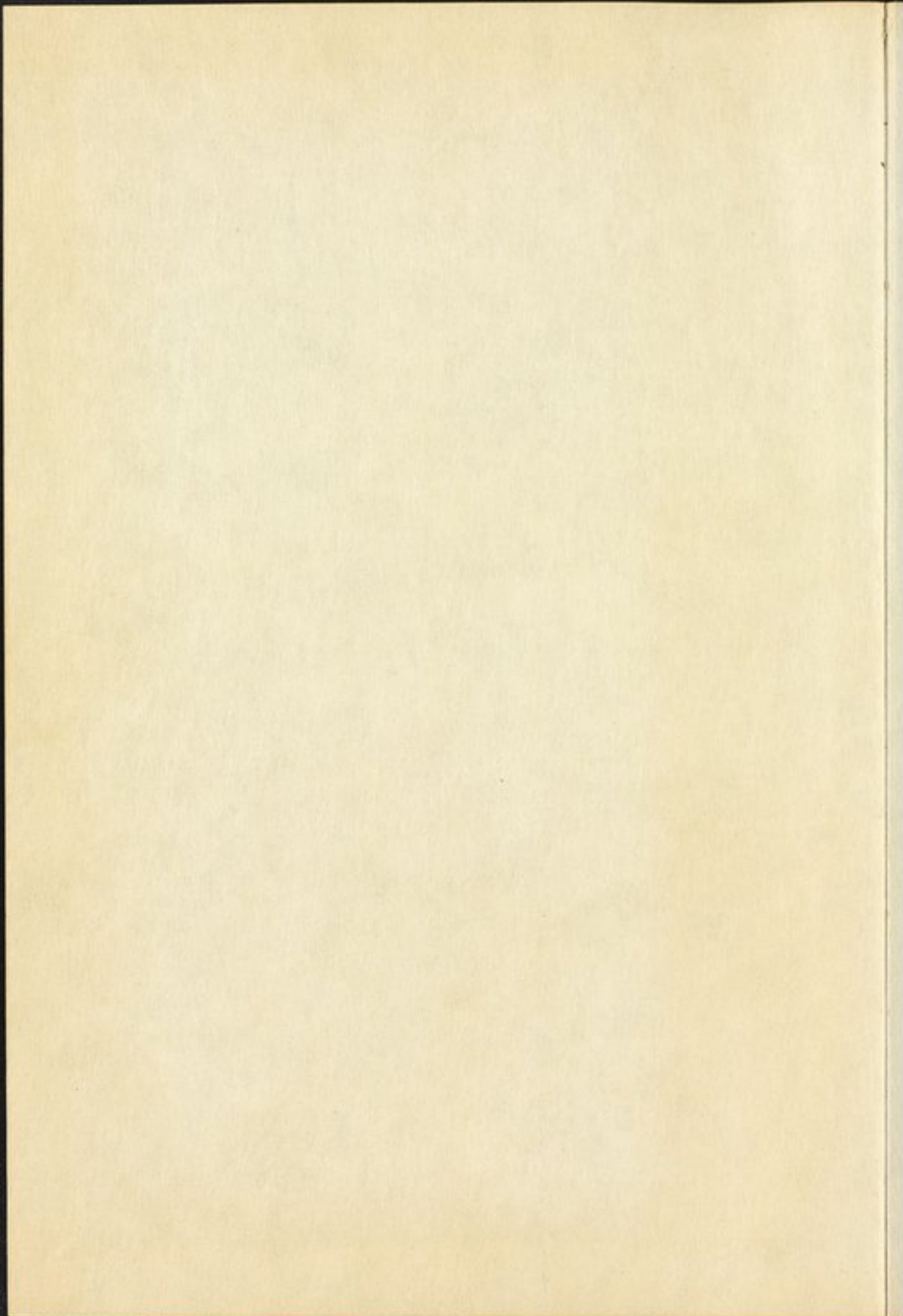
Columbia University
in the City of New York

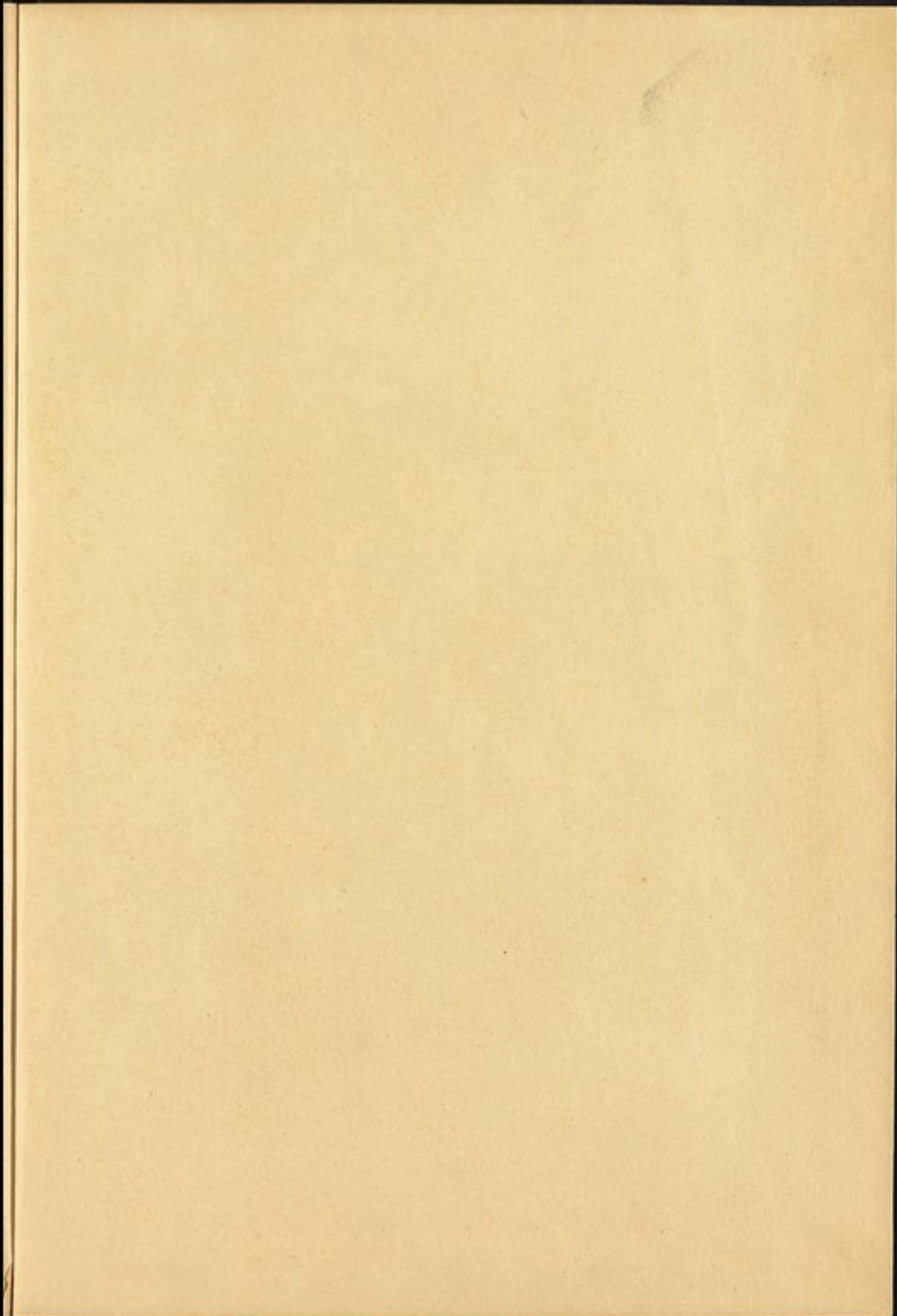
THE LIBRARIES











مُصْطَفَى كَامِلًا

باعت الحركة الوطنية

(تاريخ مصر القومي من سنة ١٨٩٢ الى سنة ١٩٠٨)

بقلم

عبد الرحمن الراغبى بك

الطبعة الثالثة [مزيدة ومكبرة]

١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م

الثمن ٣٥

الناشر

مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى - اشرف العاصم

مطبعة السعادة بمصر

962
R124

(The first of the series is 1000000)

26688F

1000

The first of the series is 1000000

1000000

1871

1871

1871

1871

1871



المصطفى كامران

باعت الحركة الوطنية

١٨٧٤-١٩٠٨

إهداء الكتاب

إلى مَنْ كانت حياته للامة بَعثًا وطنيًّا . من كان لي أبًا روحيًا . وسأبقى
له تلميذًا وفتيًا . من علمني أن الحياة بغير المثل العليا عرضٌ زائل . وعبثٌ
ضائع . إلى « مصطفى كامل » أهدى كتاب « مصطفى كامل » . هدية الوفاء
إلى روحه العظيمة

عبد الرحمن الراجحي

يناير سنة ١٩٣٩

مقدمة الطبعة الثالثة

ظهرت الطبعة الأولى لكتاب «مصطفى كامل» سنة ١٩٣٩ ، والطبعة الثانية سنة ١٩٤٥ ، واليوم تظهر الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٠

لئن كان «مصطفى كامل» قد انتقلت روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى سنة ١٩٠٨ ، فإن تاريخه لا يقف عند هذه السنة ، بل انه مستمر إلى اليوم وإلى غد وإلى ما شاء الله ، وإذا كانت الأعوام والأيام من شأنها أن تجر على الحوادث والأشخاص ذبول النسيان ، فإن هذا ليس شأن العظام والعباقرة ، بل ان مرور السنين والأجيال تزيدهم رفعة وخلوداً ، ولا غرو فهم قطعة من عمر الزمان ، وهم بناء الإنسانية ودعائمها ، فكل مرحلة من عمر الزمان وتطور الإنسانية تجد من ذكراهم ، فهم لا يزالون أحياء في كل عصر وفي كل عام ، وإذا كان مصطفى كامل قد فارق هذه الدنيا منذ اثنتين وأربعين سنة ، فإن دعوة الجلاء التي كانت أساس رسالته الوطنية ، والتي دعا إليها منذ ستين سنة ، وناضل من أجلها ، وفتى في سبيلها ، قد استقرت في النفوس ، وصارت مع الزمن عقيدة الأمة وموضع الإجماع من المواطنين جميعاً ، وصارت علم الجهاد وقوامه ، في شمال الوادي وجنوبه ، وهذا هو الخلود الذي يجعل مصطفى كامل حياً في نفوسنا ، وكأنه لا يزال يعيش بيننا

لم تكن الدعوة إلى الجلاء أمراً مبسوراً في العصر الذي نشأ فيه مصطفى كامل ، فلقد ظهرت دعوته سنة ١٨٩٠ في وقت خيم اليأس فيه على نفوس المصريين ، فبدت غير معقولة ولا مقبولة ، وعدّها الناس وهماً من الأوهام ، أو حُلماً من الأحلام ، ولكن مصطفى كامل كان مؤمناً برسالته ، فنهض بها ، وشق لها طريقها وسط العقبات والعراقيل ، والآن شهدت البلاد منذ وضعت الحرب العالمية الأخيرة أوزارها سنة ١٩٤٥ استقراراً لهذه الدعوة وإيماناً بها في نفوس سكان الوادي ، فصارت شعارهم ، وصارت عقيدتهم ، واحتلت مكان الصدارة في أهداف البلاد الوطنية ، فأيمان الأمة برسالة مصطفى كامل هو بعث وإحياء لتاريخه ، وهو استمرار لهذا التاريخ

والطبعة الثالثة من هذا الكتاب تزيد على الطبعة الأولى بما جاء فيها عن إزاحة الستار عن تمثال الفقيه سنة ١٩٤٠ (ص ٢٩٣ وما بعدها) ، وقد وردت هذه الزيادة في الطبعة الثانية ، ثم إقامة الضريح الجديد لمصطفى وفريد (ص ٣٠٩ وما بعدها) ، وهي زيادة جديدة ، إذ تم في العام الماضي (١٩٤٩) تشييد الضريح الجديد ، و صدر قرار الحكومة بنقل رفات المرحوم محمد فريد إلى جوار مصطفى كامل ، وهكذا يتاح للزعيمين العظميين ، والصديقين الوفيين ، أن يلتقيا بعد طول النوى ، ويضمهما قبر واحد ، بعد أن فرق الزمن بينهما نيفاً وأربعين سنة

والله أسأل أن يجعل لنا من حقائق التاريخ ما يزيدنا علماً وبصيرة وإيماناً

عبد الرحمن الرفاعي

أبريل سنة ١٩٥٠

مقدمة الطبعة الثانية

ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب سنة ١٩٣٩ ، وهاهي الطبعة الثانية بين أيدي القارئين والقارئات

ليس تاريخ العظاء مجرد سرد وقائع لحياتهم وأعمالهم ، بل أهم من ذلك أن تبرز فيه صورة واضحة لمبادئهم التي نشروها ، والرسالة التي أدوها ، وبذلك يكون تاريخهم مرآة لهذه الرسالة وهاتيك المبادئ .

إن رسالة مصطفى كامل التي تخلد على الزمن هي رسالة الاستقلال الحقيقي لمصر والسودان ، الاستقلال الذي لا يتحقق إلا بجلاء كل قوة أجنبية عن البلاد ، فالجلاء في نظر مصطفى كامل هو الرمز الصحيح ، للاستقلال الصحيح ، هو جوهر الاستقلال ومعناه ، وهو أساسه ومبناه ، ولذلك جاهد الاحتلال الأجنبي طول حياته ، ودعا قومه إلى مجاهدته وعدم الاعتراف به ، وعدم التعاون وإياه ، وكان ينادي طول حياته أن « كل احتلال أجنبي هو عار على الوطن وبنيه » ، ذلك هو شعاره ، وتلك هي رسالته ، لم يقبل فيها هوادة ، ولم يتراجع أمام العقبات أو المغريات ، وهذا هو السر في نجاحها واستمرارها من بعده ، لأنها الرسالة الطبيعية لسكل شعب يفهم معنى الاستقلال ، ويتمسك به ويناضل من أجله ، ولا يرضى عنه بديلا ، وفي ذلك يقول رحمه الله في محاجة خصومه سنة ١٩٠٠ : « يمكنني اليوم أن أقول أمام الملاّك أنه لا يستطيع إنسان أن يدعي أنني خالفت مبدأ من مبادئ لحظة واحدة ، مع تغير الظروف وتقلبات الأحوال ، وموت الآمال عند كثير من الرجال ، ولا يوجد من يقول إنني عملت طمعاً في عز أو ثروة ، لأن الطامع فيهما لا يقف موقفي ولا يجاهد ضد الاحتلال ،

إن رسالة مصطفى كامل يجب أن تبقى ، وعلينا أن نحافظ عليها ، علينا أن لانقبل التعاون مع الاحتلال ما بقي الاحتلال في هذه البلاده - مصر والسودان - تحت أي شكل وبأي اسم كان ، ولقد بقيت هذه الرسالة ما بقي خلفاؤه يحملونها ويناضلون عنها ، وفي ذلك يقول محمد فريد - رمز الإخلاص والتضحية - حين عرض عليه الاشتراك في الوزارة سنة ١٩١٠ : « كيف تطلب مني الاشتراك في حكم البلاد في ظل الاحتلال وأنا أجاهد الاحتلال ، وكيف يتفق النقيضان ،

ظلت هذه الرسالة قائمة في عهد الاحتلال وفي عهد الحماية ، ثم في ظل معاهدة ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ ، التي رفضها الحزب الوطني ، وما كان له أن يقبلها أو يقرها ، وهي تناقض رسالته التي حملها في مختلف العهود ، وما كان لهذه الرسالة أن تتغير أو تتبدل ، سواء بعد إعلان الاستقلال الإسمي في ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ ، أو بعد إبرام معاهدة سنة ١٩٣٦ ، فإن الاحتلال الأجنبي قد بقي قائماً في ظلها

بقيت هذه الرسالة سليمة وبرزت واضحة جلية في سياسة الحزب الوطني وموقفه إلى بضع سنوات مضت ، وفي ذلك قال الأستاذ مصطفى الشوربجي بك في خطبته التي ألقاها باسم الحزب الوطني سنة ١٩٢٣ في إحدى الأزمات الوزارية : « تريدون أن تسمعوا كلمة الحزب الوطني في الوزارتين الماضية والحاضرة ، إنها كلمة مختصرة ، فنحن نرى أن كل وزارة تتألف في عهد الاحتلال لا تستطيع أن تفيد الأمة بقدر فائدتها للسياسة الانجليزية ، بل إن أية وزارة تتألف في هذا الجو لا يمكن لها أن تقدم للبلاد إلا فائدة ظاهرية ،

وعندما اتلف الحزب الوطني مع الأحزاب السياسية لإعادة الحياة الدستورية وعادت سنة ١٩٢٦ بفضل دعوته وجهاده مع الأحزاب المؤتلفة ، امتنع عن الاشتراك في الوزارة التي تألفت في أعقاب الانتخابات لقيامها على أوضاع سياسية تخالف مبادئه ، وفي ذلك أعلن (اللواء المصري) لسان حال الحزب الوطني وقتئذ « أن الحزب الوطني لم يكن في أي وقت من الأوقات سواء قبل الحرب أو بعد الحرب يرمى إلى تملك ناصية الحكم ، وهو زاهد في هذا الأمر مادام الاحتلال قائماً في البلاد ، لأنه على يقين بأن حكومة ما لا تستطيع أن تخدم الأمة خدمة صادقة نافعة في حرية واختيار وإلا اصطدمت به صدمة تكشف عن ضعف غالبية البلاد وهنا تكون الطامة الكبرى سواء كان الموقف شريفاً بترك الحكم أو ذليلاً بالرضوخ والعدول عن خدمة البلاد إلا وفق مراعى الغاصب ، ، وأيد الأستاذ حافظ رمضان باشا هذا المعنى في حديثه بجريدة الأنفور ماسيون إذ سأله محدثه : « هل يمكنكم أن تحدثوني عن موقف الحزب الوطني إزاء تطور الأزمة الحاضرة وهل تقبلون الدخول في وزارة ، فأجابه على الفور : « يمكنني أن أصرح لك في غير موارد أن الحزب

الوطني الذي أتشرف برآسته بعد كبار الرجال الذين ذاع صيتهم ليس له مطمع وزارى في النظام الحاضر ، إن برنامجنا واضح جداً ، وهو يفرض علينا خطة صريحة جلية ، ولكن في انتظار حوادث جديدة تنشئ لنا أمراً جديداً قد رأينا أن لانضع أية عقبة في سبيل وزارة تعمل على إعادة الحياة الدستورية وتبذل الجهد في إدارة أعمال البلاد في طريق الرقي ، فالحزب الوطني هو وطنى قبل أن يكون سياسياً ،

ولم يتبدل أساس الوضع السيامى القائم في البلاد بعد إبرام معاهدة ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ . بل إن هذه المعاهدة قد أقرت ما أقرت من أوضاع نهض الحزب الوطنى لمقاومتها على تعاقب السنين ، وأخصها الاحتلال الأجنبى وفصم عرى الوحدة بين مصر والسودان

وما كان للحزب الوطنى وقد ارتبط ماضيه ووجوده بمقاومة هذه الأوضاع التى تناقض الاستقلال الصحيح أن ينفصل عن ماضيه لمجرد إبرام معاهدة رفضها وأنكرها استمسا كما بمبادئه ، ولكن فريقاً من أعضائه قد تسلكوا منذ بضع سنوات طريقاً يتعارض مع هذا الماضى المجيد فوافقوا على اشتراك الحزب فى الوزارة فى ظل هذه المعاهدة وعلى أساس تنفيذها بروح الود والإخلاص ، وبذلك أقروا التعاون الودى مع الاحتلال الأجنبى ، ولم يكن التعاون مع الاحتلال مبدأ ولا شعاراً لحزب الجلاء ، وليس هو التراث الوطنى الذى خلفه لنا مصطفى كامل ومحمد فريد

ولعل فى كتاب (مصطفى كامل) ما يبصرنا برسالة (مصطفى كامل) ويحييها فى نفوسنا ، ويجلوها على وجهها الصحيح ، فنعرف منها كيف يكون الجهاد الخالص لله والوطن

والله أسأل أن يهدينا سواء السبيل ؟

عبد الرحمن الرافعى

يناير سنة ١٩٤٥

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

هذا هو الكتاب الذي اعزمتُ وضعه عن مصطفى كامل، منذ سنوات عدة، وقد تأخرتُ في إخراجه عن الموعد الذي كنت قدرته، لأنني إذ بدأت في كتابة فصوله الأولى استوقفني البحث في مبدأ ظهور الحركة القومية في تاريخ مصر الحديثة، فبدأ لي أن أرجع إلى الأدوار التي سبقت عهد مصطفى كامل؛ لكي أقف عند حد يصح اعتباره مبدأ الحركة القومية. فانهى بي البحث إلى اعتبار المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر أول دور من أدوارها. ومن ثم اتجهت نيتي إلى دراسة تلك الأدوار على التعاقب، قبل الكتابة عن مصطفى كامل، فامتطرت حتى أتمت المجلدات السبعة التي وضعتها في تاريخ الحركة القومية وأدوارها، من عهد ظهورها في إبان الحملة الفرنسية، وتطورها بعد انتهاء تلك الحملة، إلى اكتمالها في عصر محمد علي، ثم تجددتها في عهد سعيد وإسماعيل، إلى الثورة العرابية ثم الانحلال الوطني العام في السنوات الأولى للاحتلال

واليوم أكتب عن مصطفى كامل، باعث الحركة الوطنية الحديثة، وغرضي من دراسة تاريخه أن أطالع الجيل بصفحة من الجهاد القومي، تصل حاضرنا بماضينا، وتبهر لنا السبيل في جهادنا الحالي، وجهادنا في المستقبل. أريد بدراسة هذه الصفحة من تاريخنا القومي أن أدون وقائعها، وأسجل حقائقها، لأن حوادث التاريخ وأعمال الرجال إذا انقضت عليها السنون ولم يسجلها القلم يخشى أن يجر عليها الزمان ذبول الإهمال والنسيان

° ° °

من أراد أن يعرف فضل مصطفى كامل على الحركة الوطنية ويستخلص من تاريخه

صورة عامة لشخصيته، فليرجع ببصره إلى العصر الذي ظهر فيه، فلقد ظهر سنة ١٨٩٠ على حين فترة من الحركة الوطنية، وهجعة من الكفاح القومي، وانحلال في الروح المعنوية، ظهر والنفوس قد استحوذ عليها اليأس والقنوط على أثر إخفاق الثورة العراقية واحتلال إنجلترا مصر سنة ١٨٨٢، ظهر حين خيم على البلاد جو من الخضوع والاستسلام، بقى مضروباً نالها نحو عشر سنوات، فهض يدعو إلى الحرية والاستقلال، في وقت تحالفت فيه عوامل اليأس، وتضافرت أسباب الجود والضعف، دعا دعوته، فبدأت غريبة عن الأذهان، بعيدة عن الأفهام، وتساءل معاصروه كيف تقوم حركة وطنية لاستخلاص الاستقلال من يد أقوى الدول نفوذاً وأوسعها سلطاناً؟ والسكن وطنية مصطفى كامل كانت أقوى من الجيل الذي ظهر فيه. وأقوى من العوامل المثبطة، فأخذ يثار على دعوته، ويناضل عنها، حتى استجابت الأمة لندائه، فكانت نهضة، وكانت حياة، وكان شعور، وكان جهاد، كانت رسالته إلى مصر كصرخة الحياة الداوية في سكوت النوم العميق، كانت رسالة الأمل بعد اليأس، والحياة بعد الخمود، والكرامة بعد الهوان، والجهاد للحرية والاستقلال، بعد الاستسلام للاحتلال والاستعباد، وإذا كانت الدعوة الوطنية التي دعا إليها وناضل من أجلها قد صارت بعد ثمانية عشر عاماً من جهاده الطبيعية محببة إلى النفوس، فإن الطريق إليها كان شائكاً، ولقد كانت في حاجة إلى إقدامه وعبقريته وإيمانه، فهي كحادث اكتشاف القارة الأمريكية، ظهر طبيعياً ومعقولا بعد تمام الاكتشاف، ولكنه كان في حاجة إلى إقدام كريستوف كولومبوس وعبقريته.

o o o

ولد مصطفى كامل سنة ١٨٧٤، وظهرت وطنيته أول ما ظهرت سنة ١٨٩٠ حين كان لا يزال طالباً بالمدرسة الثانوية، إذ شعر بهاتف الوطنية يهتف بين جنبيه، يناديه بأن عليه واجباً نحو مصر يجب أن يؤديه، ويدعوه إلى الجهاد لتحرير الوطن من الاحتلال الأجنبي، وعرف فيه على باشا مبارك وزير المعارف وقتئذ أنه الشاب الذي سيكون له شأن كبير، فقال له: «إنك امرؤ القيس»، وبشره بأن

سيكون عظيماً ، وقد تحققت نبوءته ، فصار الفقيه عظيمًا بوطنيته وجهاده ، ثم دخل مدرسة الحقوق سنة ١٨٩١ ، واختارها ، لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأمم والأفراد ، كما قال في كتاب له إلى شقيقه على فهمي كامل (بك) في ١٢ يولييه سنة ١٨٩١ . دخلها لكي يعد نفسه لأداء مهمته الوطنية . وقد راسل الصحف وهو بعد طالب ، وأنشأ مجلة (المدرسة) سنة ١٨٩٣ وهو طالب ، واتخذ شعارها (جيك مدرستك جيك أهلك ووطنك) . فالوطنية كانت عقيدته وشعاره وهو في تلك السن المبكرة ، نشأت فيه دون أن يتلقاها عن معلم . أو يقتبسها من العصر الذي ظهر فيه ؛ لم تكن نتيجة درس أو تعليم ؛ بل كانت وحي الإلهام والعبقرية ؛ ثم نال شهادة الحقوق سنة ١٨٩٤ ؛ فلم يتبع ما درج عليه معاصروه من اختيار منصب في الحكومة ؛ أو الانتظام في سلك المحاماة ؛ بل وقف حياته على ما عاهد عليه الوطن ؛ من المحاماة عن الأمة ؛ العمل لاستقلالها وحريتها وكرامتها ؛ وقد صدق وعد ؛ إذ كانت سنو حياته وقفًا على الجهاد ؛ فكان لا يفتأ يعمل ، ويكتب ، ويخطب ؛ ويؤلف ، ويجوب البلاد متنقلاً ، رافعاً صوت مصر في الداخل والخارج ، ينادي بحريتها واستقلالها ، مستحثاً مواطنيه على الالتفاف حول راية الجهاد والأمل ، حتى تفتحت الأذهان على توالي السنين إلى قبول دعوته ، ثم جاءت سنة ١٨٩٨ ، ووقعت فيها حادثة فاشودة . فصدمت الحركة الوطنية صدمة زلزلت الأمل الذي أحياه مصطفى في النفوس ، بدأت تلك الحادثة بتنازع فرنسا وإنجلترا على المسألة المصرية ، وكان الظن أنها تنهى بجلاء الإنجليز عن مصر ، ولكنها انتهت على العكس بتراجع فرنسا ، ورسوخ أقدام الاحتلال في وادي النيل ، وأعقبها إبرام اتفاق السودان بين مصر وإنجلترا في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ ، ذلك الاتفاق الذي قضى على مركز مصر في السودان ، فينس المصريون وانصرفت نفوسهم وقتاً ما عن الاستماع إلى النداء الوطني ، ولكن مصطفى كامل لم ييأس ولم يتراجع ، بل استمر ماضياً في جهاده ، وعول من ذلك الحين على عدم الاعتماد على فرنسا ، وفتدأ له في عدالة أوروبا عامة ، منذ رأى جهودها أمام مأساة (البوير) سنة ١٩٠٠ وتركها إليهم يسحقون أمام القوات الإنجليزية ، دون أن تأبه لهم ، فدعا الأمة إلى الاعتماد على النفس ، ومتابعة الجهاد ، وكان هو المثل الأعلى في الثبات والمثابرة ، والشجاعة والإقدام ، وأنشأ اللواء سنة ١٩٠٠ ، فكان مدرسة تعلم المصريين

حقوقهم وواجباتهم ، وتبث فيهم روح الوطنية الصادقة ، والأخلاق الفاضلة ، واستمر يناضل عن مصر على صفحات اللواء ، وفوق أعواد المنابر ، وفي صحف أوروبا وأمريكا ، إلى أن جاءت سنة ١٩٠٤ ، فصدت الحركة الوطنية صدمة جديدة ، إذ أبرم العهد المعروف « بالاتفاق الودي » بين فرنسا وإنجلترا ، وبمقتضاه أقرت فرنسا الاحتلال الإنجليزي في مصر ، وتعهدت بالاعتزال عن إنجلترا فيها ، فكان لهذا الاتفاق أسوأ الأثر في نفوس كبراء مصر وعظماؤها ، ورجالها المعدودين . ورأى أكثرهم أن الخير لهم في مسالمة الاحتلال ، والانضواء تحت لوائه ، واكتساب رضاه ، واسكن مصطفى كامل خالفهم ، واستمر في طريقه يحمل علم الجهاد ، لا يني ولا يثني ، منادياً بالجلاد ، وتجلت وطنيته في روعتها حين عظمت هموم الوطن ، وقل المعين والناصر فقد ضاعف جهوده وصمد للعقبات والعراقيل ، يتغلب عليها بقوة العزيمة والإيمان ، وتأثير دعوته ووطنيته ومثله الأعلى نشأ جيل من المصريين أشربت نفوسهم الوطنية الحققة وحب الحرية والاستقلال ، ودرجوا على الأمل والحياة ، وتعددت مظاهر هذه الحياة الجديدة ، وأهمها تأسيس بادي المدارس العليا سنة ١٩٠٦ إذ اجتمعت فيه صفوة الشيبية المصرية المثقفة ، وتشبعت بتعاليم الفقيه ومبادئه ، متعاهدة على الإخلاص في خدمة الوطن ، وبذلك سرت روحه إلى الطبقة المثقفة من الأمة ، ثم كانت حادثة دنشواي في يونيو سنة ١٩٠٦ ، فحمل فيها الفقيه على الاحتلال وشيأته الحملات الصادقة ، وجاءت محققة لصدق نظاره في أن لا حياة للأمة ولا كرامة لها بغير الاستقلال ، ومن ثم انتشرت تعاليمه ومبادئه حتى سرت إلى طبقات الشعب كافة ، وضاعف الفقيه جهاده ، وظل يخطب ويكتب ويعمل في أوروبا وفي مصر داعياً إلى الاستقلال ، وأنشأ سنة ١٩٠٧ جريدتين يوميتين ، أحدهما بالفرنسية (ليتندار اجبسيان) ، وأخرى بالإنجليزية (ذي اجبسيان استاندارد) ، تدافعان عن حقوق مصر في العالم الأوربي ، إلى جانب (اللواء) في العالم الشرقي ، وهكذا كان الفقيه يصدر ثلاث صحف يومية كبرى ، بثلاث لغات مختلفة ، للدفاع عن مصر ، وهي مهمة تنوء بها العصابة أولو القوة من الرجال والجماعات ، وقد تأثرت صحته من هذه الجهود المضنية المتواصلة ، وشعر بديب المرض في سنة ١٩٠٦ ، حيث كان يباريس صحبة صديقه وزميله في الجهاد محمد بك فريد ، لاختيار محرري جريدتي

ليتنا داراجبسيان وذى اجبسيان استاندارد ، وهناك عاده طيب عالمي مشهور ، وبعد أن فُحص عن مرضه نصحه بحضور فريد بك أن يترفق بصحته ولا يحملها فوق طاقتها ، ولكنه لم يستمع لنصح الناصحين ، وشارع الخطى في تنفيذ مهمته ، لكي يتم رسالته قبل أن يدركه الأجل ، فكانت سنوات ١٩٠٦ و ١٩٠٧ و أوائل سنة ١٩٠٨ حافلة بعظام الأعمال ، وما زال يجاهد ويناضل ، حتى ذوت زهرة شبابه في ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ وهو في الرابعة والثلاثين من عمره .

إن الثماني عشرة سنة التي قضاها الفقيه في الجهاد هي أساس الحركة الوطنية الحديثة ، فهو باعثها ومحياها وبانيها وسط الشدائد والعقبات ، ومدعها بالإيمان والشجاعة والثبات ، ومغذيها بالإخلاص والتضحية ، مات في ميدان الجهاد كقائد الجيش في ساحة الوغى ، يرى الخطر محققاً به ، فلا يسكت أثر له ، ويتقدم الصفوف حتى يستشهد في سبيل الواجب ، أو كما قال فريد بك ، مات رئيسنا في ساحة الوغى كالقائد يعاني سكرات الموت ويده تشير إلى جنده بالتقدم إلى الأمام ،

فالروح التي بعثها مصطفى كامل في الأمة هي التي صارت على مر السنين غذاء الحركة الوطنية ، وهي التي مهدت السبيل لثورة سنة ١٩١٩ التي اعتاد الكثير من الكتاب أن يعلوها مبدأ الحركة الوطنية ، وهم في ذلك مخطئون ، لأن الثورات ليست حركات ميكانيكية تبدو فجأة للناظرين ، بل هي حوادث اجتماعية ، تتمخض عنها حياة الشعوب تبعاً لدرجة استعدادها ، ونتيجة لسريان روح الوطنية في نفوس أبنائها ، فلولا الوطنية التي بثها مصطفى كامل في نفوس المصريين خلال الثمانية عشر عاماً التي قضاها في الكفاح ، لمرت سنة ١٩١٩ كما تمر غيرها من السنين ، دون أن تتجلى فيها روح الثورة ، فالثورة هي غرس الوطنية ، والوطنية هي نتيجة جهاد مصطفى كامل المتواصل طوال هذه السنين ، ولهذا الصفحة من الجهاد قد خصصت هذا الكتاب ، فالיום أورخ ، مصطفى كامل ، وغداً بمشيئة الله سأورخ ، محمد فريد ، وبذلك أكون قد أدبت واجبي نحو عباقرة الوطنية الذين رسموا للأمة طريق الجهاد الخالص لله والوطن .

أقسام الكتاب

أفردت الفصل الأول من الكتاب لدراسة نشأة الفقيه والعصر الذى ظهر فيه . وتناولت الكلام عن نشأته العائلية والمدرسية ، ثم الأخلاقية والوطنية ، يليه الفصل الثانى وفيه بيان المرحلة الأولى من جهاده فى عهد التلذذ ، والفصل الثالث عن المرحلة الثانية ، بعد حصوله على شهادة الحقوق ، ثم الفصول الثلاثة التالية عن جهاده من سنة ١٨٩٤ حتى سنة ١٨٩٧ ، والفصل السابع عن حادثة فاشودة وجهاده سنة ١٨٩٨ . والذى يليه عن جهاده عام ١٨٩٩ ، يتبع ذلك الكلام عن ظهوره اللواء سنة ١٩٠٠ والجهاد الأكبر ، ثم الاتفاق الودى الانجليزى الفرنسى سنة ١٩٠٤ وأثره فى الحركة الوطنية وموقف الفقيه منه ، ومضاغفة جهوده بإزائه ، ثم تأسيس نادى المدارس العليا ، ثم حادثة دنشواى واستقالة اللورد كرومر . فظهور جريدتى ليتندار اجبسيان وذى اجبسيان استاندرد ، يلى ذلك تأسيس الحزب الوطنى وخطبة الفقيه الكبرى بالاسكندرية ، يليه الفصل الخامس عشر عن وفاة الزعيم وجنازته ، ومرأى الشعراء والكتاب فيه ، ثم الفصل السادس عشر عن الخديو عباس الثانى وتاريخ مصر السياسى فى عهده ، يلى ذلك فصول تحليلية عن مصطفى كامل والخديو ، ومصطفى كامل وتركيا ، ثم مجلس شورى القوانين ، ثم مصطفى كامل ومعاصريه ، يليه الفصل الحادى والعشرون وفيه دراسة لشخصية الزعيم وصفاته وأخلاقه ومقدرته السياسية والخطابية والصحفية وتضحياته فى الجهاد ، وفضله فى بعث الحركة القومية وتأسيس الوحدة الوطنية ، ثم الفصل الأخير (الثانى والعشرون) وفيه نماذج من حياته الخطابية وبه ختام الكتاب

• • •

إن الحديث عن مصطفى كامل يتجدد كلما تعاقبت الحوادث وكرت الأعوام ، إذ من الحق علينا للزعماء الراحلين أن نذكر على الدوام فضلهم ولا ننساهم . فالوفاء ركن من أركان الوطنية ، بل هو ركن الفضائل وقوامها ، والامم الحية هى التى تعرف أقدار بنها الذين أفنوا حياتهم فى سبيل مجدها وعظمتها ، وإنى ياخراج هذا

الكتاب لا أنشد الوفاء فحسب ، بل أقصد المساهمة العملية في النهضة القومية ، لأنه مهما تعددت نواحي النهضة وسبلها ، فمن الواجب لكي تؤتي ثمرها أن تتركز على أساس ثابت من الروح الوطنية العامة التي تضع مصالح الوطن فوق المطامع الشخصية والمنافع الذاتية ، وليس أدعى إلى بث هذه الروح في النفوس من الرجوع إلى تاريخ الزعماء والمجاهدين الذين كانت حياتهم رمزاً للاخلاص والتضحية ، فمن ذكرياتهم نستروح نسيم الوطنية الصادقة ، وسبقني سيرة عم علي مر الزمان مثالا يقتدى به في العمل لإحياء الوطن ، هذا ما أنشد وإليه أقصد ، وإن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ،

عبد الرحمن الرفاعي

يناير سنة ١٩٣٩

الفصل الأول

نشأة الفقيه والعصر الذي ظهر فيه

نشأته العائلية

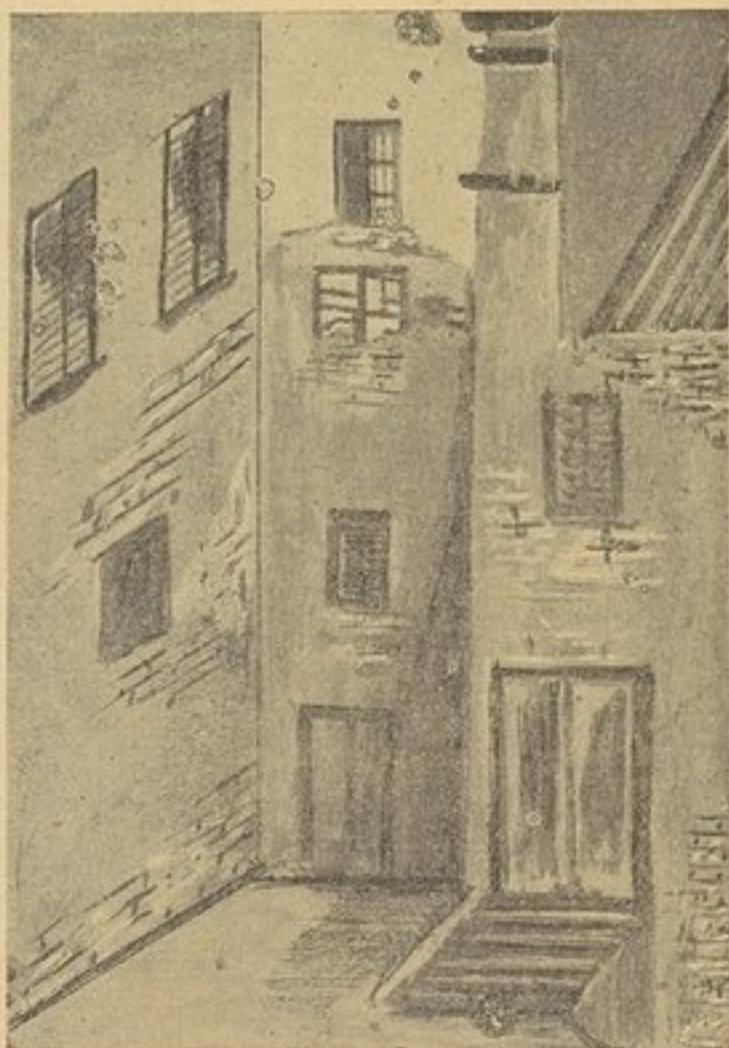
ولد مصطفى كامل بمدينة القاهرة بحى (الصليبية) بقسم الخليفة يوم ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ (أول رجب سنة ١٢٩١ هـ) ، وهو ابن (على افندى محمد) أحد خيار المهندسين الضباط

والد المترجم

نشأ (على افندى محمد) في بلدة كتامة الغاب من أعمال مركز طنطا عاصمة الغربية ، إذ كان والده من تجارها ، ودخل فيمن دخل من أبناء التجار مدرسة طره سنة ١٢٤١ هـ (١٨٢٥ م) ، ومكث بها خمس سنوات ، ثم انتقل إلى مدرسة (الخانكة) وبقي بها أربع سنوات كان فيها مثال الجهد والاستقامة ، وكان أول أقرانه ، وفي سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م) نال رتبة الملازم الثانى مهندساً طوبجياً وعين معيداً فى المدرسة ، ثم نقل إلى بلوكات المهندسين التى كانت تعمل فى إقامة الكبارى وبناء الشككات فى عهد محمد على باشا ، ثم رقى إلى رتبة الملازم الأول فى عهده أيضاً ، وإلى رتبة اليوزباشى فى عهد عباس باشا الأول ، وعين قومنداناً لآحد بلوكات المهندسين وفى سنة ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣ م) شيد منزلاً بحارة درب الميضأة بشارع شيخون ، وهو المنزل الذى ولد فيه المترجم ، وفى عهد سعيد باشا عين ضمن أركان حرب معيته . ثم أحيل إلى الاستيداع فى عهد اسماعيل ، ثم عين مهندساً ملكياً بوزارة الأشغال حتى أحيل إلى المعاش سنة ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧ م) (١)

(١) هذه البيانات الأولى عن كتاب (سيرة مصطفى كامل) تأليف على فهمى كامل بك

وقد أنجب من البنين سبعة ، ومن البنات اثنتين ، فأبناؤه هم المرحوم محمد أفندي
على الذى كان صيدليا بطنطا وتوفى سنة ١٢٢٠هـ (وهو والد الأستاذ أحمد زكى القاضى
بالمحاكم الأهلية الآن) ثم المرحوم سليمان أفندي علوى الذى تخرج من مدرسة



المنزل الذى ولد فيه الفقيد سنة ١٨٧٤

بدرج الميضة بشارع شيخون بالصليبية

الحقوق وعين بالمحاكم المختلطة وتوفى فى التاسعة والعشرين من عمره ، ثم المرحوم
حسين بك (باشا) واصف وزير الأشغال الأسبق ، ثم المرحوم الدكتور عبدالفتاح
فتحي من نوابغ خريجي مدرسة الطب (وقد توفى سنة ١٨٩٤) ، وأنجب من السيدة

«حفيظة» المرحوم على بك فهمى كامل ، ثم المترجم ، ثم السيدة عائشة حرم المرحوم عثمان افندى صبرى (والد ابراهيم افندى صبرى من نوابغ خريجي كلية الحقوق سنة ١٩٢٧) ، ثم الأستاذ حسن حسنى كامل أمد الله فى حياته ، ثم المرحومة السيدة نفيسة وهى آخر خلف له

كان والد الفقيد ضابطا ومهندسا ، جمع بين الصبغة الحربية والصبغة الملكية ، إذ كان فى أواخر عهده بالحكومة مهندسا ملكيا ، وكان معروفا بالاستقامة والشهامة وطيب العنصر والأخلاق الكريمة ، وكان له من غير شك فضل كبير فى ظهور مصطفى كامل ، إذ كان يعنى بتربية أولاده وتنشئتهم النشأة الصالحة ، فكان إذا بلغ الخامسة من عمره دعا أحد الفقهاء إلى منزله لتلقينه مبادئ القراءة والكتابة ، فإذا شب أرسله إلى الكتّاب ليحفظ ما تيسر من القرآن الكريم ، ثم يدخله المدرسة . وكان من ناحية أخرى يجمع أولاده حوله فى معظم الليالى ويقص عليهم أحاديث الشهامة والنجدة ، ويعلمهم الصدق والإخلاص ؛ كما كان يتفقد أحوالهم فى المدرسة ، هذا فضلا عن أنه هو بذاته وبأخلاقه الطيبة كان قدوة لأولاده

فعلى افندى محمد كانت له يد طويلة فى نشأة الفقيد وتربيته الحسنة ، وهذه التربية قد مهدت السبيل للنشأة الوطنية التى نشأها الفقيد

والدة المترجم

وكذلك كان لوالدته السيدة حفيظة كريمة المرحوم اليوزباشى محمد افندى فهمى فضل كبير فى نشأته ، وهى سيدة من فضليات النساء من جهة المحجر بالقاهرة (بشارع السكوى) ، وكانت على جانب كبير من مكارم الأخلاق ، وكان الفقيد يعزها ويحلمها ويشيد بذكرها طول حياته ، وحزن أشد الحزن على وفاتها سنة ١٩٠٧ ، وقد انطبعت فيه أخلاقها من صفاء النفس وحب الخير ، والصبر والجلد ، مرضت بالقلب فى آخر حياتها عدة أشهر ، وكانت وطأة المرض تشتد عليها بين حين وآخر ، ولكنها كانت تقابل آلام المرض بالصبر والجلد ، وظلت كذلك حتى أسلمت الروح ، فهذا صبر على احتمال الآلام والمتاعب قد ورثه الفقيد عن والدته الفاضلة

نشأة الفقيه المدرسية

بدأت على مصطفى كامل مخايل الذكاء والنجابة وقوة الذاكرة في طفولته ، وكان كثير الاهتمام بما يحدثه أبوه من القصص على عاداته مع أولاده ، ويعني هذه القصص ويدركها تمام الإدراك وهو بعد لما يتجاوز الخامسة من عمره ، وقد عهد أبوه وهو في هذه السن إلى فقيه يدعى الشيخ احمد السيد أن يعلمه في المنزل مبادئ القراءة والكتابة ، ويحفظه القرآن الكريم ؛ ولما أتم السادسة أدخله مدرسة (والدة عباس الأول) الابتدائية بالصليبية ، وهي القائمة إلى الآن ، فهذه المدرسة تفخر بحق بانها أول معهد علمي تخرج فيه نابغة مصر العظيم

وبدا على مصطفى أول ما بدا في أول عهده بالحياة المدرسية تعلقه بعلم الحساب وميله إليه أكثر من ميله إلى أي علم آخر ، ولاغرو فأبوه كان مهندسا ، فورث عنه الميل إلى العلوم الحسابية ، وظهرت عليه أيضا علائم الشمم والإباء والشجاعة ، فمن ذلك أنه بعد أن مكث بمدرسة والدة عباس سنتين حدث أن تلميذاً معه في الفرقة سأله الأستاذ سؤالاً لم يجب عليه فأجاب بدلاً منه ، فسبه الأستاذ وعاقبه بالحبس ساعتين ، فعافت نفسه هذا الظلم ، وطلب إلى أبيه أن يلحقه بمدرسة أخرى لأنه لم يستطع أن يتحمل هذه الإهانة ، فذهب والده في اليوم التالي وحقق الحادثة وتبين أن ابنه محق في شكواه ، فأخرجه من المدرسة وأدخله مدرسة (السيدة زينب) الابتدائية التابعة لوزارة الأوقاف وأكب على الدرس في تلك المدرسة كما كان دأبه في مدرسة والدة عباس إذ كان شديد الإقبال على الدرس والمذاكرة وبدأ منه الميل الكبير إلى دروس التاريخ ، وظهر ذكاؤه الفائق واستعداده الكبير فصار أول أقرانه

وفاة والده

أدركت والده الوفاة يوم ٢٣ جمادى الثانية سنة ١٣٠٣ هـ (١٨٨٦ م) والفقيه في مدرسة السيدة زينب ، فحزن لوفاته حزناً شديداً وأثر فيه الحزن تأثيراً عميقاً ،

وقد كفله من بعده أخوه الأكبر حسين بك (باشا) واصف (وزير الأشغال
الاسبق) فطلب إليه أن ينقله إلى مدرسة (القريبة) لأنها أقرب إلى منزل جده لأمه
الذي أقام فيه وإخوته ، فأجابه أخوه إلى طلبه ونقله إليها

حصوله على الشهادة الابتدائية

وفي هذه المدرسة تجلت في الفقيد مواهبه في الذكاء والعزيمة والجد والاجتهاد
فتفوق أيضاً على أقرانه بها ، ونال شهادة الدراسة الابتدائية في احتفال فخم حضره
الخديو الأسبق توفيق باشا سنة ١٨٨٧

في المدرسة الثانوية

دخل المترجم المدرسة التجهيزية (الخديوية) سنة ١٨٨٧ ، وكان من أساتذته فيها
الدكتور محمود بك فوزى الحكيم ، وأحمد بك كمال ، وأحمد بك حمدي . وعثمان بك أنور
ومحمد بك إدريس ، وإسماعيل أفندي فهمي ، والدكتور محمد بك كامل الكفراوي وغيرهم ،
وقد ظل الفقيد على صفاته التي لازمتها في التعليم الابتدائي من الجد والإكباب على الدرس
والعمل ، وظهرت مواهبه من الشجاعة والجرأة والذكاء وقوة الذاكرة واستقلال
الفكر وعلو النفس والصراحة في القول ، وحسن الإلقاء ، فنال احترام الأساتذة
والتلاميذ جميعاً ، وكان موضع إعجابهم . وقد عرفه في ذلك الحين علي باشا مبارك ،
وكان وزيراً للمعارف العمومية فأعجب بفصاحته وشجاعته وقوة عارضته ، وقال له
مرة « انك امرؤ القيس » ، وبشره بأن سيكون عظيماً ، وأعجب به إعجاباً كبيراً ،
وقابله يوماً في سراي الوزارة وشكى إليه حيف نظام الامتحان إذ أدى إلى رسوبه
ورسوب زملائه ، فأعجب بجرأته واقتنع بشكواه وحجته ، فعدل عن هذا النظام بما
أدى إلى نجاح مصطفى وكثير من زملائه ، وكان الفقيد على حداثة سنه موضع
احترامه ، فكان الوزير ينشطه ويدعوه إلى منزله ويناقشه في المسائل العلية
والاجتماعية ، ويقدمه إلى جلساته من العلماء والكبراء ، ويثني عليه أمامهم

في مدرسة الحقوق

ونال شهادة الدراسة الثانوية (البكالوريا) صيف سنة ١٨٩١ ودخل مدرسة الحقوق الخديوية في أكتوبر من تلك السنة ، ونجح في امتحان السنة الأولى ، ثم التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية في أكتوبر سنة ١٨٩٢ ، وجمع بين المدرستين ، وحصل على شهادة الحقوق من كلية تولوز في نوفمبر سنة ١٨٩٤

نشأته الأخلاقية

إن الأخلاق هي مهد الوطنية وقوامها ، فالأمم التي يتحصن أفرادها بالأخلاق هي التي تنمو فيها الوطنية وتتأصل في نفوس أبنائها ، ولا غرو فالوطنية الصادقة لا تسكن إلا النفس المتحصنة بالأخلاق القويمة ، ولقد كان مصطفى كامل زعيما أخلاقيا كما كان زعيما وطنياً ، وكانت نشأته الوطنية متابعة لنشأته الأخلاقية ، لأن الأخلاق أساس الوطنية الصادقة

بدأت نشأته الأخلاقية في البيت ، من حسن تربية والده إياه ، وقدمته الحسنة ، ثم استمرت في المدرسة الابتدائية ، ثم الثانوية والعالية ، ودخل ميدان الجهاد الوطني متميزاً بالأخلاق التي اكتسبها طفلاً وتليداً وشاباً ، ولازمته طوال حياته ، وأبرز الجوانب في حياته الأخلاقية الصدق والإخلاص ، وقوة العزيمة ، والصراحة والشهامة ، وعلو النفس . ولقد كانت هذه الأخلاق خير أساس لوطنيته كما كانت عده في الجهاد وسيله إلى الفوز في أداء رسالته القومية

ظهرت هذه الأخلاق للعيان أثناء دراسته بالمدرسة الثانوية ، ذكر المرحوم الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد أنه دخل ذات ليلة على علي باشا مبارك في منزله أوائل سنة ١٨٩٠ وهو يومئذ وزير المعارف ، ومجلسه حافل بالفضلاء والأدباء ، وإذا بمصطفى كامل وكان وقتئذ تليداً بالمدرسة الثانوية يجادل الباشا في أمره ويقول إنني لا أطلب منك إلا ما وجدت أنت من مثلك يوم كنت تليداً مثلي ، وما يدريك



مصطفى كامل

في السابعة عشرة من عمره

ألا أكون عظيماً أخدم وطني غداً بأكثر مما تخدمه أنت اليوم، قال هذا ثم خرج غاضباً، وكأنه ليس بتلميذ، وكانما الباشا الذي يخاطبه ليس وزير المعارف العمومية، وبعد ما خرج ابتسم الباشا وقال إنني أعجب كثيراً بشجاعة هذا التلميذ، ويلذ لي أن يتكلم أمامي كثيراً بمثل هذه الشجاعة النفسية، ولذلك لم أخبره بما أمرت اليوم لأجله، وكان قد أصدر أمره بما طالب منه من قبل وتركه يخاطبه بمثل هذه اللهجة متلذذاً بما كان يعجبه من كلامه وجداله، قال الشيخ علي يوسف: «من تلك اللحظة عرفت (مصطفى كامل) وكانما عرفت رجلاً لا تلميذاً في المدرسة،

نشأته الوطنية - سنة ١٨٩٠

تدل الشواهد والبيانات على أن نشأة مصطفى كامل الوطنية بدأت وهو بعد في المدرسة الثانوية، ونقصد بالنشأة الوطنية اتجاهاً إلى العمل والجهاد في سبيل حرية

مصر واستقلالها ، بدأ يشعر وهو بعد في السادسة عشرة من عمره أن عليه واجباً نحو وطنه يجب أن يؤديه ، ظهر هذا الشعور أول ما بدا وهو في المدرسة الخديوية إذ أسس جمعية أدبية وطنية أسماها (جمعية الصليبية الأدبية) واختار لها أعضاء من بين أصدقائه في التلييزة بمن توسم فيهم الفضل والذكاء والكفاية ، وكانت ثمة جمعية أخرى تسمى (جمعية الاعتدال) تعقد جلساتها الأسبوعية في مدرسة الأمريكان ، فكان المترجم يزورها ليتعرف إلى من فيها من الأفاضل والأدباء فيجب إليهم زيارة جمعيته ، وقد نمت الجمعية ولم يمض على تأسيسها أكثر من ثلاثة أشهر حتى كان فيها نحو سبعين عضواً

ومن ذلك الحين تعلقت نفسه بالوطنية والخطابة ، فكان يقف في الجمعية خطيباً مساء كل جمعة مرتجلاً ما تملئ عليه البديهة من الخطب ، وتجلت مواهبه الخطابية وهو بعد في هذه السن المبكرة ، وأول خطبة ألقاها كانت في (فضل الجمعيات في العالم) ، وأخذ يرسل الصحف في ذلك الحين ، ويتجلى تعلقه بالوطنية منذ كان بالمدرسة الثانوية من خطابه الذي أرسله إلى شقيقه على فهمي (بك) في ١٢ يولييه سنة ١٨٩١ لمناسبة حصوله على شهادة الدراسة الثانوية ، واعتزاه دخول مدرسة الحقوق الخديوية ، إذ يقول فيه مخاطباً أخاه (الذي كان وقتئذ ضابطاً بالسودان) :

« السلام عليك أيها الأخ الحبيب ، اليوم أبشرك أن العقبة الكؤود التي أمامي وهي شهادة الدراسة الثانوية قد زالت من أمامي ، فقد نلتها بعد أن أضنت جسمي فأصبح نحيلاً ، لا صحيحاً ولا عليلاً ، ولكنني أومل أن تعود إلى القوى لأدخل مدرسة الحقوق الخديوية ، فقد عزمتم على الانضمام إلى صفوف طلابها . لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم ، وأنت تعلم أنني أميل إليها كثيراً ، وعزمتم كذلك على تأسيس جمعية أسميتها جمعية « إحياء الوطن » ، وربما دهشت من إقدامي هذا لضعفي الذي تعلمه في اللغة الفرنسية ولكن اعتمادى على الله وعلى نفسي أكبر ضامن لنجاحي والله الموفق إلى أقوم سبيل ،

نشرنا هذا الخطاب بالزيمكوغراف (ص ٢٦) لأنه أول رسالة بخط المترجم (١) ولأنه أول وثيقة تلقى الضوء على نشأة مصطفى كامل الوطنية ، فالكتاب مؤرخ في ١٢ يولييه سنة ١٨٩١ ، وهو يصف اتجاه المترجم إلى الانتظام في سلك مدرسة الحقوق ، لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم ، وهذا الاتجاه ليس وليد اليوم الذي كتب فيه الخطاب ، بل هو وصف لشعور

بأستنبه من ١٥ يولييه ١٨٩١

بنى نضج على انفسهم مما هو

بهدوء عبيد أيل الأوغع جيب هيمع أبشرك ان بعقبة اليهود من طاعت أمي وحرشوة
الدراسة الثانوية قد زالت من أساس فقد نزل بعد ان أنشئت ليس فأصبح تيمارا لوصفا
ووعدهم بكنز أو من أن تعود إلى القوس لأدخول مدرسة الحقوق الخديوية فقد
عزمت على الانتظام في الصفوف طرابلس لأني مدرسة إنسانه والخطابة ومعرفة حقوق
الأفراد والأمم

وأنت تعلم ان أمير اليل كيترا وعزمت لذلك على تأسيس جمعية اسمها
"جمعية إحياء الوطن" وبجاءت من أساس هذا الضمعي الذي تعلم في
اللغة الفرنسية كمن اهتمامي على مع رعي نفسي كره خاص من لبحاصي
والع الموقن لا أفهم سبيل

بنت ابراهيم بعزيرة (عمرها ١٤) و الأستفارة عمدا رني مقدرتهم سيننا
الأوغع البار جبهة قندي يهدوك السلام
ورادني حليم رجوعك انه لا تكون سديلا على بهار السود فانهم أفضل عهد
ويجملون الضمينة وأنا خبر من يحسن معاملة بناس خفطك مع
رحمك
من طوعك

خطاب الفقيه إلى شقيقه على فهمي بك كامل

عقب حصوله على الشهادة الثانوية - ١٢ يولييه سنة ١٨٩١

(١) نشرت صورته لأول مرة في كتاب (سيرة مصطفى كامل في أربعة وثلاثين ريعاً)

لعل فهمي كامل بك

تفسانى خاليج المترجم منذ كان طالبا بالمدرسة الثانوية ، وقبل أن يتخطى تلك العقبة
الكثود ، وقوله مخاطبا أخاه ، وأنت تعلم أنى أميل إليها كثيرا ، مشيرا إلى مدرسة
الحقوق ، يدل على أن هذا الميل كان معروفا عنه قبل كتابته هذا الجواب ، واعتزاه
تأسيس جمعية اختار لها اسم (إحياء الوطن) دليل آخر على شعوره بالعمل لإحياء
الوطن ، وأن هذا الشعور ليس وليد الساعة التى كتب فيها الخطاب ، بل هو نتيجة
تفكير طويل وشعور عميق اطمأنت نفسه إليه

لذلك يمكننا أن نحدد مبدأ نشأة الفقيه الوطنية بسنة ١٨٩٠ ، وهو أصح السنين
لتأريخ ظهور تلك العبقرية الوطنية التى سطع نورها فى أرجاء وادى النيل وبعثت
النهضة القومية من مرقدتها

ويبدو من هذا الخطاب ضوء آخر تجتلى به أخلاق الفقيه التى لها صلة وثيقة
بوطنيته ، فن خلال سطورهِ وكلماته تلمع معانى العزيمة الماضيه ، التى كانت من أخص
صفاته ، فهو قد أجد نفسه لينال شهادة الدراسة الثانوية حتى أصبح جسمه نحىلا
« لا صحيحا ولا عيلا ، وهذا يدل على مبالغ قوة إرادته ، وتبدو صورة نفسه
المتوثبة إلى عظام الأمور من اعتزاه تأسيس جمعية لإحياء الوطن وهو منك
القوى من الجهد الذى بذله فى الدرس والامتحان ، فهذا الجهد الذى كان فى حاجة إلى
الراحة بعد العناء لم يصرف الفقيه عن متابعة الجهد والعمل لإحياء الوطن

العصر الذى ظهر فيه مصطفى كامل

لا تكمل دراسة شخصية المترجم دون أن ندرس العصر الذى ظهر فيه ، لى
تبيين مبالغ تأثير العصر فى شخصيته ، وتأثير شخصيته فى عصره
قلنا إن ظهور مصطفى كامل فى ميدان الجهاد الوطنى قد بدأ سنة ١٨٩٠ ، فلنقف
قليلاً لى نصف حالة مصر السياسية فى ذلك العصر

مضى على الاحتلال البريطانى نحو تسع سنوات كانت سنوات يأس وقنوط
واستسلام من جانب الأمة ، كما كانت عهد طغيان وجبروت من جانب الاحتلال البريطانى

فالثورة العراقية بما انتهت إليه من الإخفاق والهزيمة سنة ١٨٨٢ قد أثرت في حالة الأمة المعنوية تأثيراً سيئاً ، لأن إخفاق الثورات في ذاته يبعث اليأس في النفوس ، هذا إلى أن الخاتمة التي انتهت بها الثورة وما أفضت إليه من الاحتلال هي مظهر بارز لخيبة الأمل في الثورات ، إذ أن الثورة التي قامت في الأصل لإزالة البلاد حريتها السياسية قد انتهت بالعكس يفقدان هذه الحرية ، ثم يفقدان الاستقلال الذي كانت تتمتع به من قبل ، فقلما يوجد من الثورات ما انتهت بخيبة الأمل مثلما انتهت به الثورة العراقية

أضف إلى ذلك ما بدا من زعماء الثورة العراقية من ضعف وتسليم في ميدان الجهاد ، وخضوع ومذلة بعد الهزيمة ، وفي أثناء المحاكمة ، وتنصلهم من تبعات الثورة التي افتادوا زمامها ، والتجاء معظمهم إلى الإنجليز يستجدون منهم الصفح والمعونة ، وما انتهى إليه أمرهم من النقي والنسيان ، كل ذلك قد أدى إلى تسرب اليأس في النفوس ، فنهاية الثورة العراقية كانت من أسباب انحلال المقاومة الأهلية في أوائل عهد الاحتلال البريطاني ، فان روح الخضوع والامتثال قد تسربت من نفوس الزعماء إلى صفوف الأمة ، فركبت إلى الأذعان ، وظلت هذه الروح غالبية على الأمة سنوات عديدة ، إذ ليس من السهل أن تتخلص الأمم من أمثال هذه الحالة المعنوية ، بل قد تمر عليها أجيال ثم أجيال وهي تراها حالة عادية لا غضاضة منها ولا غرابة فيها ، حتى يظهر فيها الزعماء المخلصون ، ينفضون عنها غبار اليأس والذل ويبعثون فيها روح الحياة والكرامة ، فلا تتغير نفسية الأمة إلا بتأثير عوامل وشخصيات قوية تبعث فيها دماً جديداً قوياً ، من أجل ذلك قلنا في كتابنا عن (الثورة العراقية) إن هزيمة الثورة العراقية لم تقتصر نتائجها على احتلال الإنجليز أرض مصر دون أية مقاومة تذكر ، بل كان من آثارها سريان روح الخضوع واليأس في نفوس المصريين ، ومن هنا جاء الانحلال الوطني العام الذي أصاب البلاد عقب إخماد الثورة العراقية وبقى مخيماً عليها نحو عشر سنوات ، ولا غرابة في ذلك فإن البلاد التي تشهد خيبة الأمل في ثورتها القومية ، مثلما رأته مصر من الثورة العراقية تبقى تحت تأثير اليأس والقنوط إلى أن يقيض لها الله زعامة جديدة تسلك بها سبيل

الجهاد من جديد ، وهذا هو فضل مصطنق كامل في جهاده ، فلقد ظهر في وقت كان اليأس مستحوذاً على النفوس ، فبعث في الأمة روحاً جديدة ، فهو بحق موجد الحركة الوطنية ومنشئها ، لا يمثلها ونائبها ، وفرق بين الزعيم الذي يخلق حركة من العدم ، ويستبدل من اليأس أملاً ، ومن الجمود حياة وجهاداً ، وبين الزعيم الذي تدفعه الحركة الوطنية وتخلقه خلقاً جديداً ، ولا يكون له من العمل إلا أن يمثلها أو يستغلها

لم يكن إخفاق الثورة العرابية هو العامل الوحيد لسريان روح اليأس والامتسلا م، بل اجتمعت إليه تلك الحوادث التي تعاقبت على البلاد في السنوات العشر الأولى من الاحتلال ، فكانت أيضاً من بواعث القنوط وانقطاع الأمل

في هذه السنوات شهدت البلاد التواء السياسة الانجليزية ، ونقضها مواعيدها في الجلاء ، شهدت جمود الدول الأوروبية إزاء المسألة المصرية وتركها إنجلترا تعبت ما تشاء باستقلال مصر وحقوقها ، شهدت تدمر صرح الامبراطورية المصرية الواسعة الأرجاء التي أسستها في السودان ، ورأت السكوارث والهزائم تصيب جيشها في أصفاعه ، وعواصمه ومديرياته تسقط واحدة بعد أخرى في أيدي الثوار ، شهدت خضوع الحكومة المصرية لأوامر القنصل البريطاني العام ، شهدت إلغاء الجيش المصري وتأليف جيش جديد هزيل ، قائده وكبار ضباطه من البريطانيين ، شهدت النفوذ البريطاني يتغلغل في شؤون الحكومة بكافة ، من سياسية وحرية ومالية وتشريعية وإدارية ، شهدت إلغاء الدستور الذي نالته سنة ١٨٨٢ وتأليف هيئة شورية لا حول لها ولا قوة ، شهدت نوعاً من الحماية مضروبا على مصر ، دون أن تعرف له أساساً ولا حدوداً ، ولا قواعد ولا وقتاً محدوداً ، ثم شهدت فوق ذلك امتسلا م رجالات مصر لإرادة العميد البريطاني ، وتقرب أكثرهم إليه ، والتماسهم الزلني لديه كان الخديو توفيق باشا يتولى مسند الخديوية ، مدعنا للسيطرة البريطانية ، لا يرد للعميد الانجليزي (اللورد كرومر) طلباً ، وقد أضفى على الأداة الحكومية روح الاستسلا م لإرادة الانجليز ، واللورد كرومر هو صاحب الأمر والنهي في شؤون الحكومة ، يتدخل في كل وزارة بواسطة الموظفين الانجليز الذين كانوا على رأس المصالح المهمة ، فالسردار والضباط البريطانيون على رأس الجيش ، والبوليس تحت

لمرة المفتش البريطاني العام ، والمالية في يد المستشار المالي ، والأشغال في يد وكيل
الوزارة البريطاني ، والحقانية منذ سنة ١٨٩١ في يد المستشار القضائي ، وكان يتولى
الوزارة في ذلك الحين (سنة ١٨٩٠) رياض باشا ، وفي عهده استمر النفوذ البريطاني
يتغلغل في دوائر الحكومة ، ثم استقال في مايو سنة ١٨٩١ ، وخلفه في رئاسة
الوزارة مصطفى فهمي باشا ، وهو أكثر الوزراء خضوعا للاحتلال الإنجليزي
واستسلاما له ، وليس في البلاد هيئة نياية تمثل سلطة الأمة ، بل كان بهاذلك المجلس
المعروف بمجلس شورى القوانين ، ولم يكن يسمع له صوت في الشؤون العامة ،
والصحافة إما موالية للحكومة ، أو ضعيفة فائرة يازاء السيطرة البريطانية ، وجمهرة
الأمة تحت تأثير هزيمة الثورة العراقية وخضوع الحكومة للسياسة الإنجليزية ،
منصرفه عن الكفاح والجهاد

وكان الرجال البارزون في مصر إما منزوين في دواوين الحكومة ، متربعين في
المناصب ، وبعضهم أعوان الغاصب ، وإما منصرفين لأعمالهم الخاصة في المحاماة أو
الطب والزراعة والتجارة ، والذين أدركوا منهم الثورة العراقية أو كانوا من رجالها
قد انصرفوا عنها ، وحل اليأس في نفوسهم ، والذين لم يشتركوا فيها كانوا متأثرين
بالروح العامة التي خيمت على البلاد ، روح الخضوع والاستسلام ، ويكفيك لكي
تتمثل صورة من الروح العامة للطبقة الممتازة من المجتمع أن تذكر أن المغفور له
سعد باشا زغلول (الذي نولى قيادة الحركة الوطنية سنة ١٩١٩) كان وقتئذ المحامي
النابه (سعد افندي زغلول) ، ومع أنه كان منصرفا للمحاماة ولم يضطلع بعد بأعباء
الجهاد القومي ، فإنه آثر المنصب الحكومي على الحياة الحرة ، فعين سنة ١٨٩٢ قاضيا
(مستشاراً) بمحكمة الاستئناف ، وأقر لزملائه المحامين في حفلة تكريمهم إياه أنه
اختار القضاء ، ليستريح بعد العناء^(١) ، ففي الوقت الذي ضرب فيه اليأس رواقه على
الطبقة الممتازة من المجتمع خاصة ، وعلى الأمة عامة ، بدأ مصطفى كامل حياة العناء والجهاد
في سبيل مصر واستقلالها ، من هذه الناحية تستطيع أن تقدر فضل المترجم ، إذ

(١) المؤيد عدد ٢٩ يونيو سنة ١٨٩٢

أنشأ الحركة الوطنية في عصر تغلبت فيه عوامل اليأس والجمود ، وتظاهرت أسباب الضعف والخذلان

والآن يجدر بنا أن نتساءل من أين جاءت مصطفى كامل هذه الروح الوطنية في عصر اكتنفته عوامل اليأس والقنوط ، وكيف نهض وحده وهو في هذه السن المبكرة ، إذ كان لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره ؟

لم يقل أحد إن أباه (على ما كان عليه من الفضائل) هو الذي غرس في نفسه عقيدة الوطنية . لأن (على افندى محمد) لم يكن فذاً في الآباء ، بل كان كغيره من خيار الرجال الذين لم يكونوا يعنون بتنشئة أبنائهم النشأة الوطنية ، ولم يكن في المدارس كذلك دروس في الوطنية يتلقاها تلاميذها ، كما أن العصر الذي ظهر فيه مصطفى لم يكن مستعداً لأن تكتسب فيه الوطنية بطريق القدوة ، وإذا قلنا إن أخلاق مصطفى كامل هي التي أوحى إليه العقيدة الوطنية ، فإن كثيراً من الشبان والتلاميذ كانوا على مثل أخلاقه الفاضلة ، ومع ذلك لم ينشأوا على غراره في العقيدة الوطنية ، وإذا أردنا أن نعلل هذه النشأة بأنها كانت نتيجة ما كانت مصر تعانيه من احتلال يعبت باستقلالها ويتغلغل في شؤونها ، وأن مصائب الوطن كانت كافية لتحريك نزعة الوطنية في نفوس المصريين ، فإن هذه المصائب لم تحرك في نفوس الناس ما حركت من نفس مصطفى ، بل إن المصائب كان لها تأثير عكسي في ذلك العصر ، إذ بعثت اليأس في النفوس ، وجنحت بالامة للاستسلام ، هذا إلى أن فريقاً من المصريين كانوا يستفيدون من مصائب الوطن ، ويعدها قوم من الفوائد والحسنات !

ففي الحق إنه لا تعليل لهذه النشأة إلا أنها قبس من نور العبقرية ، فالعبقرية هي مصدر هذه النشأة ، وقوامها قوة الإرادة والإيمان ، ولا غرو فهذه القوة تذلل الصعاب وتأتي بالمعجزات ، وهذا هو سر العبقرية ، لا تجد له تعليلاً دقيقاً ، فإذا علته بتأثير البيئة أو الوراثة كما يقولون اعترضك في هذا أن العبقري قد ينشأ وغيره من الناس في بيئة واحدة ، ومن أب واحد ، وأم واحدة ، ومع ذلك ينفرد بالنبوغ دون أقرانه وإخوانه ، فنشأة مصطفى كامل الوطنية ، ثم حياته الوطنية كلها ، هي قبس من

عبقريته ، وقد اتجهت هذه العبقرية إلى احياء الوطن وبعث الحركة القومية من مرقدها ، ومن مداد هذه العبقرية خط التاريخ دوراً عظيماً من أدوارها ، ولقد كان مصطفى منشىء هذا الدور ، إذ نفخ في الأمة من روحه ، في وقت كانت الملابس والظروف تجعل الدعوة الوطنية من أشق المهام وأبعدها عن النجاح ، وكانت موضع الزراية والاستخفاف من سواد الأمة ، بل من الطبقة الممتازة من المجتمع ، وهذا ولا ريب مما يظهر فضل مصطفى كامل في بعثه الحركة الوطنية

الفصل الثاني

المرحلة الأولى من الجهاد

في المدرسة الثانوية وفي مدرسة الحقوق

قلنا إن نشأة الفقيه الوطنية بدأت سنة ١٨٩٠ ، وهو طالب في المدرسة الثانوية ، وقد أسس أول ما أسس (جمعية الصليبية الأدبية) ، وتعلقت نفسه من ذلك الحين بالخطابة والكتابة والأدب ، فكان يقف في الجمعية خطيباً في مساء كل جمعة مرتجلاً ما تملى عليه البديهة ، وكان يسترعى الأنظار ويملك الأسماع بمواهبه الخطابية

دخل مدرسة الحقوق الخديوية في أكتوبر سنة ١٨٩١ ، وهو في السابعة عشرة من عمره ، وكان قلبه يتقد ووطنية وإخلاصاً لمصر ، فلم يستطع أن يصبر حتى ينال شهادة الليسانس لكي يبدأ الجهاد ، بل بدأ جهاده وهو في مهد التعليم ، في المدرسة الثانوية ، ثم في مدرسة الحقوق

كان رفيقه وزميله في دراسة الحقوق فؤاد سليم (باشا) ، وقد تلاقيا لأول مرة في المدرسة المذكورة ، فتعارفت روحاهما ، واثلتفا اثتلافاً قلبياً وروحياً ، وقويت بينهما من ذلك الحين أواصر الصداقة ، وتعرف الفقيه بواسطته إلى والده لطيف باشا سليم ، فكان له خير مرشد ومشير ، كما كان له حين عظم شأنه نعم العضد والنصير ، كان الفقيه يسبق عصره في النضج وقوة الوجدان والشعور ، كان وهو في مدرسة الحقوق يتعرف إلى الرجال البارزين في ذلك العصر ، ويتصل بهم ويناقشهم ، ويتبادل وإياهم الآراء والأفكار ، نذكر منهم الشيخ علي اللبني الشاعر والأديب الكبير ، ولطيف باشا سليم ، وإسماعيل باشا صبرى الشاعر المشهور ، وعلى بك نغرى ، وأمين باشا فكرى ، ومحمود بك سالم ، وإسماعيل بك شيمي وآخرين من أعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية

وقد حدث يوماً وهو في مدرسة الحقوق أن جرت بينه وبين صديقه فؤاد تسليم مناقشة حادة أصدرت المدرسة على أثرها أمراً بجرمانها دخولها أسبوعاً ، فاستاء كلاهما من هذا القرار ولم يرد فؤاد بك أن يعود إلى المدرسة بعد انتهاء الأسبوع بل التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية التي تأسست في ذلك العهد ، أمام مصطفى فعاد إلى مدرسته واستمر فيها حتى انتهاء السنة الأولى

انتقل المترجم من السنة الأولى إلى السنة الثانية بنجاح ، وفي صيف ذلك العام (١٨٩٢) قصد إلى مدينة الإسكندرية لتبديل الهواء ، فاجتمع هناك بصاحب الأهرام بشارة باشا تقياً ، وكان واسطة التعارف بينهما صديقه الحميم الأستاذ خليل بك مطران ، فأعجب به وأجله وأفسح جريدته ينشر فيها ما يبعث إليه من الرسائل الوطنية وفي شهر أكتوبر سنة ١٨٩٢ رغب إليه صديقه فؤاد بك سليم أن يتم دراسته في مدرسة الحقوق الفرنسية ، ليسكونا بها معاً ، فمالت نفسه إلى العمل بهذا الرأي لسببين ، أحدهما أنه يجد في هذه المدرسة الحرية التي تصبو إليها نفسه ، فلا يتقيد بالنظم المتبعة في مدرسة الحقوق الخديوية ، والثاني أن يسئز يد من دراسة اللغة الفرنسية فيجيد الكتابة والخطابة بها ويدافع بها عن قضية الوطن أمام الرأي العام الأوروبي ، وقد جمع وقتاً ما بين المدرستين ، فكان يقضى سحابة النهار في المدرسة الأميرية ، والمساء في المدرسة الفرنسية ، إذ كانت الدراسة فيها تبدأ قبل الغروب ، ويبدو لك من جمعه بين المدرستين ما فطر عليه من الإباء وعلو النفس والتعلق بالحرية ، بله الجدة والمثابرة على الدرس ، فقد أراد أن يكون المجال فسحاً أمامه لينصرف من إحداها إلى الأخرى إذا ما ضيق على ضميره نظام أو إنسان ، وفي تلك السنة المكتنية ١٨٩٢ - ١٨٩٣ أكثر من الكتابة في جريدتي الأهرام والمؤيد وكان وهو يخطب بين إخوانه الطلبة يثير حماسهم الوطنية لمقاومة الاحتلال ، فأكبروا فيه وطنيته ومواهبه الخطابية ، واجتمعت قلوبهم على محبته والإعجاب به وفي نوفمبر سنة ١٨٩٢ زار الخديو عباس الثاني مدرسة الحقوق الأميرية ، فكان التليذ ومصطفى كامل ، من الطلبة النجباء الذين رحبوا به ، ألقى بين يديه قصيدة مطلعها :

بشرى الحقوق بسيد الأمرام ككنز العلا عباس ذو النعماء
بشراك يا دار العدالة والهدى بمليك مصر وأوحد العظام
وفي يناير سنة ١٨٩٣ مناسبة أزمة إقالة الوزارة الفهمية (١) قامت مظاهرة وطنية
من طلاب المدارس العالية وفي مقدمتهم طلبة الحقوق لتأييد الخديو في خلافه مع
اللورد كرومر ، وكان الفقيه في طليعة هذه المظاهرة .
وفي أوائل تلك السنة ألف رسالة (أعجب ما كان في الرق عند الرومان) ، وهذه
الرسالة على صغر حجمها أوضحت حقيقة الاستعباد الروماني المتنافي لأحكام الرق
في الشريعة الإسلامية .

إنشاء مجلة المدرسة

وفي تلك السنة أيضاً أنشأ مجلة أسماها (المدرسة) ، صدر العدد الأول منها يوم
السبت ١٨ فبراير سنة ١٨٩٣ - غرة شعبان سنة ١٣١٠ ؛ وهي مجلة وطنية
أدبية تهذيبية علمية تصدر في غرة كل شهر عربي ، وجعل شعارها المطبوع في صدر
كل عدد (حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك)

كان المترجم مدير المجلة ومحررها ، وتطوع بعض الكتاب المجيدين لكتابة
المقالات والرسائل فيها ، وقد رحب بها السيد عبد الله نديم (خطيب الثورة العراقية) ،
وكان قد ظهر بعد اختفائه وأصدر مجلته (الأستاذ) فنوه فيها بظهور مجلة الفقيه (٢)
وتبدو في مجلة (المدرسة) روحه الوطنية ، فالروح التي أملت عليه إصدارها وهو
بعد في التاسعة عشرة من عمره هي ذات الروح التي أوحى إليه إصدار اللواء حين
بلغ السادسة والعشرين ، فالنبوع واحد ، وهو ينبوع الوطنية الفيض
إن ظهور مجلة (المدرسة) يعطيك فكرة عن شخصية المترجم ، فهي أول مجلة

(١) راجع تفصيل هذه الأزمة في الفصل السادس عشر

(٢) مجلة (الأستاذ) للسيد عبد الله نديم عدد ٢٨ فبراير سنة ١٨٩٣

مدرسية أصدرها طالب مصري ، وفي إقدامه على إصدارها وهو بعد في التاسعة عشرة من عمره ما يدل على عظيم همته ومضاء عزيمته وقوة وطنيته ، فليس من السهل على طالب في مثل سنه أن يصدر مجلة يتولى تحريرها وإدارتها والإيفاق على تكاليفها ، بل هو عمل قد تنوء به الجماعة من الرجال ، ولكن عبقرية المترجم كانت تذلل الصعاب ، ويدل إصدارها كذلك على ميله للصحافة منذ نشأته الوطنية ، ولا غرو فالصحافة كانت أداة كبرى لجهاده وكفاحه ، ويكشف أيضاً هذا العمل عن قوة وطنيته المغروسة في فؤاده ، فهو يفتطع من وقته لإصدار مجلة يبث فيها بين الشباب روح الوطنية والتهديب

كتب إلى أخيه علي بك فهمي كامل في ١٩ فبراير سنة ١٨٩٣ كتاباً يقول فيه : «أبعث إليك في هذا البريد بمجلة المدرسة التي أنشأتها لخدمة الناشئين للريح والشهرة ، وهذا الكتاب يدل على الفكرة التي صدرت عنها المجلة ، فهو لا يقصد منها الربح والمنفعة ، بل يرمى إلى أداء الواجب الوطني نحو بلاده وكان عمداً إصداره مجلة المدرسة ينشر بين حين وآخر المقالات في جريدتي الأهرام والمؤيد

اتصاله بعبد الله نديم

عاد السيد عبد الله نديم إلى مصر من منفاه سنة ١٨٩٢ ، فاتصل به الفقيد ، وعرف من أحاديثه أسرار الثورة العراقية ، إذ كان النديم خطيبها وأحد كبار زعمائها (١) ، عرف منه حوادث الثورة على حقيقتها ، وأدرك أسباب إخفاقها وهزيمتها ، وإذ كان يعد نفسه لزعامة الحركة الاستقلالية ، فإن أحاديث عبد الله نديم قد أفادته كثيراً في تعرف مواطن الخطأ وأسباب الإخفاق في الثورة العراقية ، فتجنّبها في جهاده ، كما عرف شيئاً كثيراً من دهائس السياسة الانجليزية ، تلك الدهائس التي كان لها دخل كبير في إخفاق الثورة ووقوع الاحتلال ، وانك لتلمح

(١) ترجمناه له في كتابنا (الثورة العربية) ص ٥٣١

في حياة مصطفى كامل الوطنية والسياسية مبلغ تجنبيه أخطاء العراقيين ، فهو لم يشكر في اتخاذ الجيش أداة للحركة السياسية ، بل كان يعتمد على قوة الرأي العام وتربية الشعب التربية الوطنية والأخلاقية الكفيلة بتوطيد دعائم الحرية والديمقراطية ، وإذ علم أن اصطدام العراقيين بالخدوي توفيق باشا قد مكن للدسائس الانجليزية من أن توقع الفرقة والانقسام في مصر ، فإنه نأى عن هذه السياسة الخرقاء ، وسلك بالحركة الوطنية سبيل التفاهم مع الخديو عباس الثاني ، وتفادى الاصطدام به برغم ما شجر بينهما من خلاف كما سيحىء بيانه ، وكان ينقم من عرابي استسلامه للانجليز ، وأدرك مبلغ تأثير هذا الاستسلام في حالة الأمة المعنوية ، فرسم لنفسه خطة المقاومة المستمرة للاحتلال مقاومة لاضعف فيها ولاهودة ولا تراجع ، وهكذا كانت أخطاء الثورة العربية درسا لباعث الحركة الوطنية ، جنبه مواضع الخيبة والإخفاق في الجهاد ، والزعامة الحققة هي التي تستفيد من تجارب الماضي ، وتعتبر بمصائب الوطن ، فتقيه مواطن الزلل ، وتسلك بالأمة سبيل الحكمة والرشاد

سفره الى باريس

لأداء امتحان الحقوق

سافر الفقيد لأول مرة إلى أوروبا يوم الجمعة ٢٣ يونيه سنة ١٨٩٣ ، ليؤدي امتحان السنة الأولى بكلية الحقوق بباريس فأداه بنجاح (١) ، وقد كانت هذه الرحلة فرصة منحت له ليستزيد من معارفه ويكتسب من مشاهداته في بلاد الحضارة والوطنية ، وكان أثناء مقامه بباريس مشال الجد والاستقامة ، منصرفا عن اللهو واللعب ، ولم يكن همه بعد أن يفرغ من دراسته كل يوم إلا أن يزور المسكاتب والمعاهد ، أو يحادث ذوي الرأي فيما يتعلق بشئون مصر وما يجيش به صدره نحوها من العواطف والآمال ، وكان في خلال رحلاته هذه لا يفتأ يذكر مصر ومجدها ،

(١) ذكرت جريدة المؤيد نجاحه في عدد ٣٠ يولييه سنة ١٨٩٣

كتب إلى أخيه على بك فهمى كامل خطابا من باريس في ٢٩ يولييه سنة ١٨٩٣ يقول فيه :

« لقد تعرفت هنا بطالاب روسيين وبولونيين وبابانيين فرأيتهم جميعا منكبين على العلم ، ولكنى أؤكد لك أن المصرى أقواهم عارضة وأعلام ذكاه ولا ينقصه إلا الإرادة التى هى أس النجاح ،

ولقد أفاد المترجم كثيرا من ذهابه إلى أوروبا عامة وفرنسا خاصة ، فإن هذه السياحة التعليمية قد فتقت ذهنه وعلته من شؤون الأمم والمجاعات مالم يكن يعلم ، وعرف فيها أوساطا لم يكن يعرفها ، واتصل بشخصيات لم يكن ليتصل بها لوبقى فى مصر ، وكانت هذه الرحلة با كورة سياحاته فى أوروبا التى رفعت شأنه فى ميدان الجهاد القومى وجعلت اسمه عالميا ، وخدم بها القضية المصرية أعظم الخدمات ، إذ نقلها إلى أذهان وهيئات كانت مجهولة فيها ، ولا شك أن اتصاله بالأساتذة والصحفيين الفرنسيين قد أفاده كثيرا من الوجهة العلمية والمعنوية ، فإن وطنية الشعب الفرنسى هى بلا مرأ قدوة للشعوب التى تريد أن تحيا حياة الحرية والكرامة

عاد من أوروبا فى أغسطس سنة ١٨٩٣ ، ووالى دراسة الحقوق وإصدار مجلة المدرسة وقد زادت أواصر الود بينه وبين لطيف باشا سليم (والد فؤاد بك سليم) إذ كان يرى تأليف هيئة تضم صفوف المعارضة ، فانضم إلى هذه الهيئة ، وكانت تضم الصحفى والخطيب والقاضى والضابط ، وكلهم من خيار الرجال

رواية فتح (الأندلس)

وفى ريسمبى سنة ١٨٩٣ أخرج رواية (فتح الأندلس) ضمنها حوادث فتح العرب للأندلس (١) وأظهر فيها فضل الصدق والأمانة والثبات وقوة العزم والإرادة ، وهى الصفات التى كانت أكبر عضد للفتح العربى ، وقصد إلى تربية الأمة على الفضائل الوطنية .

(١) المؤيد عدد ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٣

امتحان السنة الثانية

ثم قصد إلى فرنسا في صيف سنة ١٨٩٤ وأدى بنجاح امتحان السنة الثانية ، وزار



مصطفى كامل

في التاسعة عشرة من عمره

باريس وبروكسل ، ثم أخذ بعد نجاحه براسل الأهرام ، فنشر بهائنت مقالات عن معارض ليون وأنفوس ، وعاد إلى مصر في سبتمبر ، واعتزم أن يؤدي امتحان السنة الثالثة حيث ينال الليسانس في نوفمبر من تلك السنة

حصوله على شهادة الحقوق — نوفمبر سنة ١٨٩٤

وعلى ما في هذا العزم من الإجهاد فإن قوة إرادته كفلت له تحقيق أمنيته ، فسافر إلى باريس في أكتوبر سنة ١٨٩٤ ، ووجد صعوبة في أداء الامتحان النهائي في كلية باريس ، إذ لا يتفق ونظامها أن يؤدي الطالب امتحانين في سنة واحدة ، فاستعان بأستاذه في مدرسة الحقوق الفرنسية ، وهما المسيو ديروزاس ناظر المدرسة والمسيو مولر استاذ الاقتصاد السياسي بها ، فنصحاه بأن يعدل عما اعتبره إشفاقا على صحته ، ولكنه أصر على عزمه ، ولما لم تقبل مدرسة باريس أداء امتحانين في سنة واحدة ساعدها لدى كلية (تولوز) في أن يؤدي أمامها الامتحان النهائي ، فقبل طلبه بوساطة ذينك الاستاذين ، وانتقل المترجم إلى تولوز ، وهناك أكب على الدرس لكي يتم علوم السنة الثالثة ، ودخل الامتحان ، فنجح فيه ونال شهادة ليسانس الحقوق في نوفمبر سنة ١٨٩٤ وله من العمر عشرون سنة

الفصل الثالث

المرحلة الثانية من الجهاد

بعد نيته شهادة الحقوق

شعوره بواجبه نحو مصر

كان أول شعور المترجم عقب نجاحه أن اتجه إلى استمرار الجهاد في سبيل الوطن ، قال في كتاب له إلى أخيه على بك بتاريخ ١٨ نوفمبر سنة ١٨٩٤ :

« واليوم أحمد الله حمداً كبيراً ، وأشكره شكراً جزيلاً على فك قيد أسرى والمن بإطلاقي في ميدان الحرية ، فقد أصبحت حاملاً شهادة الحقوق ، وعولت بمشيئة الله على الانتظام في سلك رجال المحاماة ، لأدافع عن حقوق الأفراد ، ولو أتيسح لي الخير وبلغت ما أتمنى لكنت المدافع عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم أجمع ، لأن مصر وهي جنة الدنيا لا تستحق أن يداس شرفها بالأقدام ، ونصبح فيها نحن أبناءها الأعمى بمقوتين غرباء ،

لم يفكر الفقيد في مستقبله حين نال إجازة الحقوق ، بل فكّر في واجبه نحو مصر ، وهذا يدل على قوة وطنيته التي لم تكن عليه شاعره ، فقد عزم على الانتظام في سلك المحاماة لأنها ميدان الحرية والدفاع عن الحقوق ، ولأنها السبيل إلى الدفاع عن حقوق الوطن ، ولم يفكر في الانتظام في سلك المناصب لأن لها قيوداً لا يستطيع معها أن يؤدي واجب الجهاد لمصر ولأن الحكومة في ذلك العصر كانت خاضعة لسيطرة الاحتلال وهو لا يقبل هذا الخضوع ، بل هو نازع على الاحتلال

حديثه في جريدة (جازيت دي تولوز)

نوفمبر سنة ١٨٩٤

ويبدو لك مبالغ يقينه برسائلته وتاهفه على نشرها انه لم يكدينال شهادة الحقوق حتى كان له حديث في جريدة (جازيت دي تولوز) التي تصدر في تولوز حيث نال إجازة الحقوق قال فيه :

• أما السبب في تمضيقي سنتين في سنة واحدة فهو أني وعدت شخصا أحترمه (١) بذلك ، ولأن إرادتي رغبت في هذا العمل حتى أخرج من قيد الطلب إلى ميدان العمل والدأب ، ومتى عدت إلى مصر أنضم في الحال إلى صفوف المحامين لأن من يزدرون الحكومة المصرية الحاضرة ولا يرون التوظيف فيها أو الاستغلال بظلمها ، وكيف لا يكون الأمر كذلك والموظف منفذ لإرادة من اغتصب أئمن وأقدس شيء لديكم وهو الدستور ،

وقد علقت جريدة (جازيت دي تولوز) على هذا الحديث بقولها :

• هذا كلام مصطفى كامل المصري الذي ألقاه بترو وتبصر ، ولو أنه تحمس في الجزء الأخير حماسة تدل على قوة الوطنية عند المصريين وأنهم استفادوا كثيراً من الدروس التي تلقوها على أساتذة منا ،

نشرت جريدة دي تولوز حديث الفقيد ، وكان وقتئذ قد أتم العشرين من عمره ، وظهر من حديثه أنه أعد نفسه للدفاع عن مصر أمام الرأي العام الأوروبي ، وأنه سيوجه نصيباً من جهوده للدعاية لمصر في الخارج ، لأن هذا النوع من الجهاد فضلاً عما له من الأثر البعيد في أوروبا وفي مصر ، فإنه يرفع من شأن مصر أمام العالم الأوروبي ، ولا غرو فقد كان الفقيد بوطنيته وكفائته خير من يمثل الأمة المصرية ، وترى بداية هذا الأثر فيما نشرته جريدة دي تولوز عنه وعن مصر يوم أن نشرت حديثه ، إذ قالت :

• بين الذين نجحوا في كليتنا الحقوقية شاب مصري هو مصطفى كامل ، وهذا الشاب لم يكن من الذين قيدوا في الكلية من مبدأ دراسة الحقوق ، بل هذه أول مرة له فيها ، ومن يعلم أنه أمضى في شهر يولييه الماضي امتحان السنة الثانية أمام كلية باريس بنجاح باهر ، فإنه يدهش دهشاً كبيراً لهذا الذكاء النادر ، ومع ذلك فلا يعجب قراؤنا ، فإن تاريخ مصر يحوى الكثير من النظريات العلية الكبيرة التي تدل على مبلغ تقدم العلوم والمعارف عند المصريين وسمو مداركهم من زمن بعيد ، وهؤلاء

(١) يقصد أخاه حسين واصف باشا

مواطنونا الفرنسيون الذين عاشوا في مصر واختلطوا بأهلها وأبنائها بصفتهم أساتذة في مدارسها قد صنفوا التأليف الكثيرة في دفتان الذكاء المصرى ، حتى رفعوه فوق كل ذكاء ، والظاهر أن اعتدال الإقليم سبب من الأسباب التي أوجدت في المصريين هذا الذكاء النادر ، فأمة كهذه الأمة لها شهرة تاريخية كبيرة ، فضلا عن ميل أبنائها إلى فرنسا ورغبتهم الأكيدة في الحصول على العلوم الحديثة من منابعها الفياضة لا بد أن تسترجع مجدها بفضل هؤلاء الأبناء الذين نعجب بهم كثيراً ونجلهم إجلالاً كبيراً ، وليس في وسعنا بعد الذي شاهدناه من ذكاء مصطفى كامل ، إلا أن ننهي مصر به ، ونرجو له النجاح التام في العمل الذي يريد به خدمة بلاده ، لأن الغيرة التي شاهدناها على مجيئه ، والطلاقة التي تشير إلى مستقبله الباهر ، والتي تدل بأوضح بيان على أنه من الذين هموا قوة الخطابة ، لا بد أن ترفعه إلى مصاف مشاهير الرجال ، ثم لا ينسى القارىء أنه يبدو على سيما مصطفى كامل الصفاء التام في القول والفعل ، وأن قلبه لا يزال طاهر أكرباً ، وفوق ذلك فإن آدابه الشرقية الجميلة وتحيات نظراته الساحرة قد هذبت علمه الغربي تهذيباً لم نره في حياتنا إلا قليلاً ، وإن مدينة تولوز لتفخر بأن تسجل في عداد الذين تخرجوا من كلياتها شاباً كهذا الشاب نقي الفؤاد ، متصفاً بكل ما يزين المرء من علم وأدب ورأى صائب ،

جهاده بعد عودته إلى مصر

عاد الفقيد إلى مصر في ديسمبر سنة ١٨٩٤ معتزماً أن يهب حياته كلها للجهاد في سبيل مصر ، ولئن قيد اسمه في جدول المحامين (١) فإنه لم يترافع في قضية لفر دقط ، ولم يحترف المحاماة أمام المحاكم ، بل شغلته رسالته القومية عنها ، إذ انصرفت جهوده للمحاماة عن القضية الوطنية ، وقد كانت هذه نيته التي عقد عليها عزمه منذ حصوله على شهادة الحقوق ، قال في هذا الصدد من كتاب له إلى محمود بك أبو النصر بتاريخ ٤ فبراير سنة ١٨٩٥ ، أى عقب حصوله على شهادة الحقوق ببضعة أشهر : « لعلك

(١) جاء في « المؤيد » عدد ٣١ ديسمبر سنة ١٨٩٤ ما يأتى : « قررت لجنة انتخاب المحامين قبول حضرة الفاضل الأديب مصطفى أفندى كامل صاحب جريدة (المدرسة) والحائز للشهادة النهائية في الحقوق محامياً أمام المحاكم الابتدائية وهو من نخبة الشبان الأذكياء النجباء »

تسألني عن أخباري الخصوصية ، فأقول إنى تقرررت من نحو شهر محاميا ولكن لم أترافع إلى الآن ولن أترافع ، ولست أدري أيحقق الله لي آمالا نخالج فؤادى ليلا ونهاراً ، أعتقد أنها إن تحققت أنقذت الوطن من الخطر واعادته إلى منشأه الأول وأحسن ، وسوف تعلمون كنه هذه الآمال ،

دراسته المسألة المصرية

حدثنا على بك فهمى كامل شقيق الفقيد في كتابه أنه لما استقبله في الاسكندرية عند رجوعه وجد معه ضمن متاعه صندوقين كبيرين مملوئين بالكتب القديمة والحديثة في تاريخ المسألة المصرية وسياسة الأمم ، وفيهما مذكرات بعضها لسكبار السياسيين وبعضها من مكتبة باريس وبعضها من وزارة الخارجية الفرنسية ، وبعد أن استقر به المقام في القاهرة وانتقل إلى منزل استأجرته العائلة خلف قسم المنشية (بعمارة خليل أغا) كان لا يفتأ يدرس الكتب والمذكرات التي أحضرها معه وقد أكب على هذه الدراسات ، كأنه لا يزال في دور الدراسة ، ولا غرو فإنه قد أعد نفسه ليسكون باعث الحركة الوطنية والمحامى عن القضية المصرية ، فلا بد أن يدرس كل ما كتب عن هذه القضية ، شأن المحامى النزبه الذى يعنى بدرس قضيته ليحيد الدفاع عنها ، ولم يكن للفقيد سوى قضية واحدة شغلته طول حياته ، بل قضت على زهرة شبابه ، تلك هى قضية مصر الكبرى

أكب الفقيد على هذه الكتب يدرسها ويستوعب ما بين دفتها بنكائه النادر وقوة عزمته ، ووضع لنفسه برنامجا للعمل سار عليه ، فكان يعمل يومياً ثمانى ساعات في مكتبه ، ذلك أنه يستيقظ في الساعة السادسة صباحاً فيؤدى صلاة الصبح ، ثم يتناول الفطور ، ويقصد كوبرى قصر النيل للرياضة ، ثم يعود في الساعة السابعة ويأخذ في المطالعة والعمل ، فيستمر بين قراءة وكتابة وتدوين مذكرات إلى الظهر ، ثم يتناول الغداء ، وينام إلى الساعة الثالثة ، ثم يستأنف المطالعة حتى الساعة الخامسة ، وبعدئذ يزور إخوانه واصدقائه ، ويعود في الساعة السابعة مساءً ليعاود القراءة مرة أخرى إلى الساعة التاسعة ، ثم يتناول مع افراد الأسرة طعام العشاء ، ويقضى السهرة معهم ومع الزائرين حتى منتصف الليل ، ثم يأوى إلى فراشه وقد نضج فكره من هذه الدراسات العميقة ، فكانت عدة له في الكفاح ، إلى جانب إخلاصه وقوة يقينه . ومواهبه الخطابية والصحافية

الفصل الرابع

جهاده سنة ١٨٩٥

كانت سنة ١٨٩٥ من أهم سني جهاد الفقيد في مرحلته الثانية ، وعلى أنها أولى سنوات هذه المرحلة الكبيرة فإنها حفلت بأعمال جليلة دلت على مبلغ إيمانه واضطلاع بهيمته السامية

حديثه مع الكولونيل بارنج

بدأ أعماله في تلك السنة بنشر حديث له مع شقيق اللورد كرومر وهو الكولونيل بارنج على ظهر الباخرة التي أقلته عند عودته إلى مصر ، إذ التقى به وانتهاز فرصة مقابلته إياه ليرفع صوته بالدفاع عن استقلال مصر ، ونشر هذا الحديث بعد عودته إلى مصر (١) ، وخلاصته أن الكولونيل بارنج يرى ضرورة بقاء الاحتلال ، وأن الفقيد يرى ضرورة الجلاء ، وأنه حق لمصر وواجب على إنجلترا ، وفاقا لعهودها واحتراما لمواثيقها ، وقد سأله الكولونيل بارنج خلال الحديث من المصريين من الأنصار أو السفراء في أوروبا يعتمدون عليهم في قرب تحقيق الجلاء ؟ فقال الفقيد :

«لنا أوروبا بأسرها التي تناديها صواحبها العديدة بأن تنصرنا بنصرة تلك الصواحب التي سعيتم من يوم احتلالكم البلاد في تقويض أركانها ، على أنها إن لم تنصرنا فإن لنا من حقنا واتحادنا بوصف أننا أمة عظيمة ذات حضارة قائمة ماثوره ما يبلغ بهما

إلى ما نصبو من حرية استقلال ،

وقد نشر هذا الحديث في الأهرام ، فكان لنشره دوى كبير في المحافل الوطنية.

(١) الأهرام عدد ٢٨ يناير سنة ١٨٩٥

نشر الدعوة الوطنية

وقد استمر الفقيد في دراسة الكتب التي وضعت في المسألة المصرية ، وأخذ يرسل الأهرام والمؤيد وينشر فيهما المقالات الوطنية ، وكثر معارفه من المعجبين بذكائه ووطنيته ، وأخذ يتصل بهم ويباحثهم في شؤون مصر ، ويحثهم على مقاومة الاحتلال ، فاتسع نطاق المعارضة ، وتعرف إلى كثير من الأشخاص البارزين في المجتمع من الكتاب والأدباء وأعضاء مجلس شورى القوانين والأعيان ، وكان يسافر كل أسبوع أو أسبوعين إلى الأقاليم تلبية لنداء مواطنيه ويبحث دعايته بين الأعيان ، فكان لجولاته هذه أثر كبير في ازدياد أنصاره

احتجازه على تأليف المحكمة المخصصة

وفي ٢٥ فبراير من تلك السنة استصدر اللورد كرومر من الحكومة المصرية مرسوماً بإنشاء (المحكمة المخصصة) لمحكمة من يتهم من الأهالي بالتعدى على ضباط وجنود جيش الاحتلال بمصر ، وهي المحكمة التي صار لها شأن كبير في حادثة دنشواي المشهورة كما سيجيء بيانه ، وينص المرسوم على تأليفها برئاسة وزير الحقانية ، وعضوية المستشار القضائي (الإنجليزي) ، وقاض إنجليزي من محكمة الاستئناف الأهلية ، والقائم بأعمال المحاماة والقضاء في جيش الاحتلال البريطاني بالقاهرة أو الإسكندرية ، ومن يختاره وزير الحقانية من رئيسي محكمة مصر أو الإسكندرية الابتدائيتين ، أي أن الغالبية فيها للانجليز ، وقد جعلوا لها نظاماً خاصاً ، فلا تنقيد بأحكام قانون العقوبات

• كان إنشاء هذه المحكمة بمثابة انتقاص لسلطة القضاء المصري وتثبيت لأقدام الاحتلال ، فتقدم الفقيد جميع المصريين بالاحتجاج على تأليف هذه المحكمة الشاذة التي أثار سخط الأمة ، ونشر احتجاجه في جريدة الأهرام (١) تحت عنوان (صواعق الاحتلال)

حضور النائب الفرنسي دلونسكل - مارس سنة ١٨٩٥

وفي مارس من تلك السنة جاء مصر نائب شهير من أعضاء البرلمان الفرنسي وهو المسيو فرانسوا دلونسكل، للاطلاع على حالة مصر السياسية، وكان الفقيه قد تعرف به بباريس في صيف سنة ١٨٩٤، إذ كان يؤدي امتحان الحقوق، وعرف عنه معارضته للسياسة الإنجليزية وبخاصة في الشرق، وقرأ مقالاته في الصحف الفرنسية ومناقشاته المهمة في مجلس النواب الفرنسي عن المسألة المصرية، فعنى بإحاطته بكل صنوف الحفاوة ليكون في حضوره والحفاوة به مظاهرة قومية ضد الاحتلال الأجنبي، فسافر إلى الاسكندرية مساء الخميس ٢١ مارس سنة ١٨٩٥ لاستقباله، والتقى به على رصيف البحر في صبيحة اليوم التالي يصحبه كثير من الوطنيين، وقدم له ولقرينته جميع اخوانه المصريين، وكان للنائب القادم مكانة رفيعة في نفوس الفرنسيين فكان في استقباله قنصل فرنسا في الثغر مع موظفي القنصلية وكثير من النزلاء الفرنسيين، وقد رافقه الفقيه في كل روحاته وغدواته بمصر، وكان يقدم له إخوانه ومعارفه من الوطنيين

وقد أقيمت الحفلات والولائم للمسيو دلونسكل ومكث بمصر زهاء عشرين يوماً التقى في خلالها عددة خطب طعنا في السياسة البريطانية، وأقام بالقاهرة وليمة بفسق (نيو أو تيل) قبيل رحيله إلى فرنسا دعا إليها لفيماً من الصحفيين الوطنيين، ألقى فيها الفقيه خطبة بالفرنسية شكره فيها على دفاعه عن القضية المصرية، وبارح النائب الفرنسي الاسكندرية قاصداً فرنسا يوم السبت ١٣ أبريل سنة ١٨٩٥

سفر المترجم الى باريس - مايو سنة ١٨٩٥

ودعايته للقضية المصرية في أوروبا

رأى مصطفى أن الدعاية للقضية المصرية في الخارج من أمضى الأسلحة في مجاهدة الاحتلال، لأن المسألة المصرية كانت مجهولة للرأي العام الأوروبي، بل كانت الفكرة الذائعة عن المصريين أنهم راضون عن الاحتلال، وأنهم أمة قانعة بالحكم الإنجليزي،

ليست لها آمال ولا حقوق تطالب بها ، فنشط إلى تعريف الرأى العام الأوروبى بحق مصر فى الاستقلال ، وبأن الأمة المصرية تذكره الاحتلال ، ولا ترضى به بحال ، وأن بقاءه لا يضر بمصر فحسب ، بل يضر أيضاً بالمصالح الأوروية عامة ، وقد كان لدعايته أثر كبير فى إحراج مركز الاحتلال ، وإبراز عدم مشروعيتها ، كما كان لها صداها فى مصر ذاتها ، إذ كانت وسيلة لنشر الحركة الوطنية ، لذلك كانت دعايته فى أوروبا من أهم صفحات جهاده الوطنى ، وكانت فى الوقت نفسه من دلائل عبقريته ، لأن اتصال شاب فى سنه بأقطاب السياسة فى أوروبا من كتاب وسياسيين وأدباء وصحفيين ، واشتطاعته الدفاع عن القضية المصرية على صفحات الجرائد الأوروية ، كل ذلك ليس من المهام السهلة التى يضطلع بها كل من يريد ، وإنما هو عمل شاق يتطلب استعداداً وكفايات متعددة ، وجهوداً هائلة ، إذا اجتمعت فى شخص واحد كان ذلك آية عبقريته ، ولا غرو فهو أول مصرى أسمع العالم صوت مصر وعرف الرأى العام الأوروبى من مقالته وأحاديثه وخطبه أن على ضفاف النيل أمة تشكو الاحتلال وتطلب الحرية والاستقلال

كان الفقيد أول من فكر فى وجوب الدعاية لمصر فى الخارج ، وأول من أدى هذا الواجب الكبير ، قال فى هذا الصدد فى كتاب له بشر بجزيرة المؤيد (١) :

« إن عقلاء الانجليز شعروا بخطر احتلال مصر على دولتهم ولا ينقصهم غير معرفة إحساسات الأمة المصرية وحقيقة آلامها وآمالها وحقائق الأمور حتى يقيموا القيامة على حكومتهم ويسألوها الجلاء عن وادى النيل ، فأجل عمل يأتبه المصريون اليوم هو نشر الحقائق فى أوروبا بأكثر اللغات انتشاراً خصوصاً باللغتين الإنجليزية والفرنسية حتى يتيسر لنا خدمة الوطن العزيز الذى فى خدمته خدمة الحق ، وفى نصرته الفضيلة والحقيقة والسعادة القومية ،

سافر المترجم إلى فرنسا فى مايو سنة ١٨٩٥ ، وقصد إلى باريس ليرفع فيها صوت الوطن ، وهناك اتصل بكثير من رجال السياسة والصحفيين ليعاونوه فى أداء

رسالته ، كتب في هذا الصدد إلى شقيقه على بك كتاباً من باريس قال فيه : «إني الآن أقضى ليلي ونهارى في مخالطة كبار السياسيين لا تتفع منهم بخدمة مصر المحبوبة والحمد لله قد تشرفت بمعرفة الكثيرين ورأيت من الجميع استعداداً للمعاونة وتناوتحريك المسألة المصرية وطرحها على بساط المناقشة من جديد ، وإني أجد من نفسى قوة فى هذه الأيام ما وجدتها فى حياتى ، كأن الله يريد أن يكون العامل لبلاده قويا حتى يقاوم هذه الحركة الهائلة ، بيد أنى أشعر من جهة أخرى بأن البلاد فى حاجة لرؤوس وألسنة وأقلام مصرية كثيرة حتى يقرب البعيد بما تحدثه فى العالم من تأثير ، ولى الأمل أن ينتشر الشعور فى البلاد بسرعة ، فانه هو وحده رأس مال محررى الأمم والشعوب ، وبدونه لا يستطيع خادماً مهما كانت أماته وقوته أن يصل إلى الغرض المرجو ، ولذلك يجب على أغنياء البلاد الذين هم مدينون لمصر بما لديهم من ضياع شاسعة وأراض واسعة أن يؤسسوا المدارس العديدة على أساس متين من الدين القويم والتربية السليمة ، وأن يقوم كبار العلماء بنشر الكتب المفيدة ، ومهرة الكتاب بإنشاء الصحف الصادقة فى خدمة قطر هو أئمن وأغلى الأقطار ،

وكانت مهمة مصطفى فى رحلته شاقة ، لأن صغر سنه وتقدمه أعلام مصر البارزين وقتئذ فى حمل علم الجهاد بأوروبا ، جعل الكثيرين منهم يحيطون مهمته بالتشكيك فى نتيجتها والتهوين من شأنها ، كتب صديقه فؤاد بك سليم (باشا) يصف موقفه وقتئذ بقوله (١) : «إنما الأعمال بالنيات ، حياة طيبة أو موت شريف ، هذه كانت إحساسات الشاب مصطفى كامل ودواعى سفره ، بارح القطر المصرى فى أول شهر مايو لمناضى (سنة ١٨٩٥) قاصداً أوروبا ، نائياً عن أهله وأحبابه ، مضحياً نفسه وكل ممتلك يده فى سبيل خدمة وطنه والمدافعة عن حقوق أمته ، فإن كان صغر السن كل ما يؤخذ عليه ، فليس ذلك ذنبه ، وإن لم يكن من الطبقة الأولى فى مصاف الأمة فأنما نهضته تشرفه ،

نداؤه الى مجلس نواب فرنسا - يونيه سنة ١٨٩٥

ابتكر مصطفى طريقة للدعاية للقضية المصرية كانت أقوى أثرًا من مقالات
يكتبها في الصحف أو عشرات الخطب يلقيها في المحافل، وكانت مادة لنشر المقالات
الجمّة عن المسألة المصرية، ذلك أنه وضع نداء إلى فرنسا في شكل صورة رمزية
سياسية قدمها إلى مجلس نوابها تمثل مصر ترسّف في قيود الاحتلال وتستصرخ
فرنسا لتعاونها على تحريرها، كما عاونت أمريكا وإيطاليا واليونان وبلجيكا على نيل
حريتها من قبل، وجعل في ذيلها ثلاثة أبيات كتبت بالعربية وكتبت أمامها ترجمتها
بالفرنسية، ولم يكن الفقيه شاعرا يقرض النظم، والسكن وطنيته ألهمته وضع هذه
الآيات التي تبدو عليها الفطرة وعدم التكلف وهي:

أفرنسا يا من رفعت البلايا عن شعوب تهزها ذكراك
انصرى مصر إن مصر بسوء واحفظى النيل من مهاوى الهلاك
وانشرى في الورى الحقائق حتى تجتلى الخبير أمة تهواك

وضع مصطفى الصورة وطبع منها عدة آلاف من النسخ، وذهب هو وستة
من إخوانه المصريين الذين كانوا مقيمين بباريس إلى سراى مجلس النواب يوم
الأربعاء ٤ يونيه سنة ١٨٩٥ لتقديم الصورة والكتاب المتصل بها، فقابلهم المسيو
پريسون رئيس مجلس النواب، وتسلم منه الكتاب والصورة، وأبدى عطفه على
الأماني القومية المصرية، وأرسل مصطفى عقب المقابلة نسخا من الصورة وللكتاب
إلى جميع صحف العالم، كما وزعها على جميع النواب والصحفيين والسياسيين في فرنسا،
وأرسل الآلاف منها لتوزيعها في مصر، وهذا نص الكتاب:

« يا حضرة الرئيس

« إنى بأشد انفعال يخالج القلب تأثيره أشرف بأن أقدم لمجلس النواب الذى
أنت له نعم الرئيس هذا اللوح الذى يمثل مصر طالبة من فرنسا أن تكون لها خير
عضد يساعدها على استرجاع حريتها واستقلالها، وإن هذا اللوح ليمثل لدى مجلس
النواب حالة أمة ناشئة غيور على حريتها المسلوبة بغير حق منذ ثلاثة عشر عاما، ولقد

برهنت الأمة المصرية يا حضرة الرئيس مع ما يعثورها من المصائب الشديدة على
سكينة وصبر عجيبيين استمالت بهما قلوب الأمم الأوروبية ، ولكن لما اعتراها
النصب جاءت مستغيثة بفرنسا . هذه الدولة العظيمة التي أعلنت حقوق الإنسان ،
والتي سارت به منذ قرن في سبيل التقدم والمدنية ، جاءت الأمة المصرية تستغيث
بهذه الأمة الكريمة التي حررت عدة من الأمم ، فهل تجاب الى استغاثتها وتضرعها ؟



الصورة الرمزية التي قدمها مصطفى كامل
الى مجلس نواب فرنسا — يونيو سنة ١٨٩٤

وهل لفرنسا أن تزيد بهذا العمل الجليل مكانتها في العالم الإسلامي الواثق بها؟ على أن ذكر اسم مصر عند ما تكون حرة مستقلة بجانب أسماء الأمم العديدة التي حررتها فرنسا ليس بالفخر القليل لها ، فلتحى فرنسا محررة الأمم ،

كان لهذا العمل ذي هائل في أوروبا وفي مصر ، لأنه نداء غير مألوف من أمة كان الظن الغالب أنها راضية بالاحتلال وقتئذ - فوهت بذلك جميع الصحف الفرنسية وكثير من الصحف في أوروبا وأمريكا ، فكان هذا النشر أكبر دعابة للقضية المصرية

وأهمية هذا العمل أنه لفت أنظار العالم إلى المسألة المصرية ، وفي الحق إن هذا النداء كان أول صوت للشعب المصري دوى في أوروبا عقب الاحتلال ، مطالباً باستقلال مصر وحررتها ، ولم يكن يمكننا أن يرتفع صوت مصر بأكثر ولا أقوى مما ارتفع وقتئذ بهذا النداء ، وتناقل صدهاء في الصحف إلى جميع الآفاق ، فإذ كان استصراخاً للإنسانية يشبه استصراخ بولونيا للعالم إبان محنتها القومية ، وإن دعابة الفقيد للقضية المصرية في أوروبا بهذه المهمة وهذا الإقدام ، وهو بعد في الحادية والعشرين من عمره ، لا أكبر مظهر من مظاهر عبقريته ، فإن العمل الذي اضطلع به وحده قد تنوع به الجماعات والأحزاب ، وقد لفت هذا العمل أنظار المصريين إلى شجاعة هذا الشاب وعلو همته ، ودهشوا لجرأته ، إذ نهض لمقاومة الدولة المحتلة في وقت كان أغلب كراء مصر وعظماؤها خاضعين للقنصل البريطاني العام ، فهذه الشجاعة التي بدت من مصطفى قد حبيته إلى نفوس المصريين ، وأخذ نداء الوطنية والاستقلال يلقى فيهم ملياً وسميعاً

حديثه في جريدة الجورنال - يولييه سنة ١٨٩٥

وقد نشرت له جريدة (الجورنال) الفرنسية وهي من أوسع الصحف انتشاراً حديثاً سياسياً عن مصر والمسألة المصرية كان له تأثير كبير في تبصير الرأي العام بمساوئ الاحتلال البريطاني ، وعلقت عليه جريدة (الإكبر) الفرنسية بقولها : ولا بد أن سيكون لمصطفى كامل المصري دور مهم في المسألة المصرية لأن أسلوبه

السياسى قائم على الصراحة والحق ، فهو يذكر بشجاعة وجلالة تلك المظالم الواقعة على المصريين من جراء الاحتلال الاجلمبى الذى كلما مرت عليه السنون تجسمت فيه صروف الاعتداء على حقوق الناس .



مصطفى كامل فى الحادية والعشرين من عمره

خطبته فى تولوز

أول خطبة سياسية له فى أوروبا (يوليه سنة ١٨٩٥)

لم يكنف الفقيد بجماده بقله فى الصحف ، بل عمد إلى الخطابة فى المحافل ، فأقام اجتماعا يوم ٤ يوليه سنة ١٨٩٥ مـ.رج كلية الآداب فى تولوز (١) التى نال منها شهادة الحقوق ، دعا إليه بعض أساتذة الحقوق وكبار الصحفيين والكتتاب وذوى الرأى

(١) بشارع ريموزا

فيها ، وألقى بالفرنسية خطبة مسهبة ، هي أول خطبة سياحية لمصرى في أوروبا ، ذكر فيها اعتداء الاحتلال على حقوق مصر واستقلالها ، وأبان مبلغ نقض إنجلترا لعهودها في الجلاء ، وتغلغلها في شؤون مصر الداخلية في مختلف الوزارات ، واستنجد بأوروبا وفرنسا لمعاونة مصر في استرداد استقلالها ، وشكر المدعويين على عطفهم على القضية المصرية (١) ، فأعربوا له عن عواطفهم نحوه ونحو مصر ، قال رئيس تحرير جريدة (الديش) التي تصدر في تولوز في هذا الصدد :

« إنى واثق كل الثقة بأن هذا المدافع عن حقوق مصر المسلوبة سيغرس لاحتلاله بعمله بذور الوطنية الصالحة حتى يعضى الشعب المصرى لبائته ويسمع يوماً للحكم له على إنجلترا ، ولذلك أدعوز ملائى أصحاب الصحف إلى تهته زميلة الشباب الغيور منذ الآن ، ولقد كان لهذه الخطبة أثر كبير في فرنسا لأنها جاءت صدى للوطنية الصادقة التي يحترمها الجميع في فرنسا

في فيينا - يوليه سنة ١٨٩٥

لم يقتصر مصطفى على الدعاية للقضية المصرية في فرنسا بل قصد إلى النمسا ونزل بفيينا عاصمتها في يوليه سنة ١٨٩٥ ، واتصل بكبار الصحفيين والسياسيين ، وأخذ ينادى بحق مصر في الاستقلال ويدافع عن كرامتها وحريتها
كتبت جريدة (اكسترا بلاط) في عددها الصادر بتاريخ ٢٨ يوليه سنة ١٨٩٥ تقول :

« إن في فيينا اليوم ضيفاً كريماً هو مصطفى كامل ، أحد كتاب مصر الفضلاء ، وهو شاب حاد الفكر بعيد النظر اشتهر اسمه في وطنه وفي أوروبا أخيراً ، وهو الآن يحوب القارة الأوروبية مطالباً باسم الوطنيين المصريين بتحرير بلاده من ربة الاحتلال الانجلىزى ، وبدعى أن الأمة التي ينتسب إليها هذا الكاتب الشرقى قد

(١) نشر المؤيد خلاصتها - عدد ١٠ و ١٣ يوليه سنة ١٨٩٥ ، وطعت بالفرنسية في رسالة مستقلة في عشرين صفحة

استحقت بما أفادته من معاهد المدنية وبما لها من الذكاء الفطري النادر المثال أن تعد في مصاف الأمم المتقدمة فهي بذلك لا ترضى أن تكون تحت سيطرة حكومة أجنبية تعمل في مصر كل ما تريد ،

وكتب عنه مراسل جريدة (الستاندر د) الانجليزية في فيينا ما يأتي : وجاء مصطفى أفندي كامل وهو قانوني ومحرر جريدة الي فيينا وأقام فيها عدة أيام ، وقد جال في كثير من أنحاء أوروبا نائباً عن جمعية وطنية في مصر تسعى لتحرير بلادها من نير الانجائز وبذل جهده في استمالة الدوائر الرسمية إلى آراء وأفكار هذه الجمعية الوطنية ،

رسالته في أخطار الاحتلال البريطاني

عاد الفقيه إلى باريس في ٨ أغسطس سنة ١٨٩٥ ونشر رسالة بالفرنسية بتاريخ ١٤ أغسطس عن (أخطار الاحتلال البريطاني) أبان فيها خطر الاحتلال على حقوق مصر ثم على المصالح الأوروبية عامة ، وقد وجه فيها الخطاب إلى الرأي العام الأوروبي ليكسب تأييده للقضية المصرية (١) ، وقد طبع هذه الرسالة وبعث بها إلى جميع رجال السياسة والصحف الشهيرة في أوروبا ، فكان لها دوى كبير ، وجاءه نحو مائة جراب من مشاهير السياسيين في فرنسا وغيرها يعلنون له فيها شكرهم وتهنئتهم

أحرار في بلادنا ، كرماء لضيوفنا

وفي هذه الرسالة قال كلمته الخالدة عن شعار مصر ومعاملتها لنزلائها الأجانب (أحرار في بلادنا ، كرماء لضيوفنا)

والرسالة تتضمن شرحاً وافياً للسؤال المصرية ، وتدلل على وانبسح اطلاعه على تاريخها ودقائقتها ، كما تدلل على نضجه الفكري وبعد نظره السيامي ، وحسبك دليلاً على قيمتها ما كتبه عنها مدام جوليت آدم ، فقد قدمها إليها عند ما تعرف بها ،

(١) نشر المؤيد تعريبها في عدد ٢٨ أغسطس سنة ١٨٢٩

فشرت عنها في جريدة (البتي مرسلية) الفرنسية بتاريخ ١٧ سبتمبر سنة ١٨٩٥ كلمة ثناء قالت فيها : « إن هذا العنوان (أخطار الاحتلال البريطاني) علم على رسالة صغيرة الحجم لا يتجاوز عدد صفحاتها الإثنتي عشرة صفحة ، كتبها مصري وطني يحب بلاده حبا شديدا ، وقد جاء ليدافع عنها إذ رآها فريسة أغراض الأجنبي ، وأودع هذه الرسالة كل ما ينتجه الفكر السليم والتبصر القائم على أدلة وحجج تفحم الذين جعلوا العمى مذهبا لهم أو تنير ما أشكل عليهم ، وللعنوان الثاني لهذه الرسالة الصغيرة الحجم الكبيرة الأهمية هو (نتائج الاحتلال الإنجليزي لمصر) ، وهو لا يلم بموضوع إلا وفاء حقه وزيادة ، وقد قرأت منذ واقعة (التل الكبير) ما كتب عن مصر في إنجلترا وفرنسا ومصر نفسها ، فلم أرقط المسألة المصرية موضوعا أحسن من هذا اوضع ولا مستنتجة نتائجها أحسن من هذا الاستنتاج ولا مرتبة أجمل من هذا الترتيب ولا منسوجة بتعقل وتدبر مثلما بسطت في هذه الرسالة ،

تعرفه الى مدام جوليت آدم

سبتمبر سنة ١٨٩٥

إن تعرف المترجم إلى مدام جوليت آدم هو حادث مهم في حياته السياسية والقومية ، فإن مدام آدم هي من أعظم شخصيات فرنسا في عالم الوطنية والسياسة والأدب ، وهي الكاتبة الكبيرة ذات الشهرة العظيمة والنفوذ الأدبي في فرنسا ، وكان مشاهير الرجال من نواحي الأرض يرحلون إليها ويجتمع بدارها العلماء والأدباء وكبار القوم وملوك الشعر والأدب والسياسة

ولدت مدام آدم سنة ١٨٣٦ ، وتوفيت عام ١٩٣٦ ، أي أنها عمرت مائة عام ، وهي من أعظم من أنجبهم فرنسا علما وأدبا ووطنية ومكانة سامية ، وظلت موضع احترام مواطنيها طول سني حياتها ، وقد وضعت سنة ١٩٢٢ كتابا قيما عن مصر اسمته (إنجلترا في مصر) ، وهو من خير ما ألف في المسألة المصرية



مدام جوليت آدم

وقد سعى الفقيه سنة ١٨٩٥ إلى التعرف إليها ، إذ أرسل إليها من تولوز أول كتاب له في ١٢ سبتمبر سنة ١٨٩٥ ، نشره هنا لأنه يصور لنا مقداز وطنيته ويصف مبلغ إيمانه برسالته القومية الكبرى ، في أفصح عبارة وأبلغ بيان ، قال :

« سيدتي

« إنني لا أزال صغيراً ، ولكن لي آمالا كباراً ، فإني أريد أن أوقف في مصر

الهرمة مصر الفتاة ، هم يقولون إن وطني لا وجود له ، وأنا أقول ياسيدتي إنه موجود
وأشعر بوجوده بما آنس له في نفسي من الحب الشديد الذي سوف يتغلب على
كل حب سواه ، وسأجود في سبيله بجميع قواي ، وأفديه بشبابي ، وأجعل حياتي
وفقاً عليه .

« إنني أبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة ، وقد نلت إجازة الحقوق من تولوز
قبل سنة ، وأريد أن أكتب وأخطب وأنشر الحمية والإخلاص اللذين أشعر بهما
في سبيل رفعة الوطن العزيز . وقد قيل لي أكثر من مرة إنني أحاول محالاً ، وحقيقة
تصبو نفسي إلى هذا المحال ، فأعينيني ياسيدتي . فانك من الوطنية بمكان يفردك بمزية
تقدير قولي وتقوية عزمي وشد أزري ، وتقبلي تحية واحترام

مصطفى كامل^(١)

وأرسل لها ضمن كتابه رسالته عن (أخطار الاحتلال البريطاني على مصر) ،
فلبت مدام آدم نداءه ، وكتبت إليه ترحب بدعوته ، فجاء وقابلها ، وما ان عرفته
وأدركت سمو آماله في تحرير بلاده حتى ازدادت به إعجاباً ، وتوثقت بينهما من ذلك
الحين أو اصر الاتصال الروحي . إذ كان الفقيه يعدها أما روحية له ، وقد عرفته
بكبار السياسيين وأصحاب الصحف والمجلات في فرنسا ، قالت تصف تعرفابه :
« أعجبتني كثيراً هذه الرسالة (أخطار الاحتلال البريطاني) فأنشأت في الخامس
عشر من شهر سبتمبر سنة ١٨٩٥ مقالة عنها ، واقتبست منها أسانيد جديدة في المسألة
المصرية ، وقد سبق لي الخوض فيها كثيراً ، وأثنت على المؤلف في مقالتي ، فورد
إلي منه خطاب شكر جليل ، ومن ورائه خطاب آخر من باريس يسألني فيه أن
أضرب موعداً للقائه ، فسرعان ما أجبته إلى ذلك ، وواعدته دار « لانوفل ريفو »^(٢)
(المجلة الحديثة) ، فأقبل علي شاب خلته ابن ثمان عشرة سنة ، فقلت له ضاحكاً
ما صدقتني سنك فانك لم تبلغ الحادية والعشرين ، فقال : « قد بلغتها ياسيدتي وأكملتها .

(١) رسائل مصطفى كامل إلى مدام جوليت آدم ص ٧

(٢) المجلة التي كانت تديرها مدام جوليت آدم

وبعد أن تجاذبنا أطراف الحديث رأيت أن عقل هذا الشاب قد بلغ أشده وتضح
قبل أوانه ، ورأيت أنه قد أطال التدبر والتروى في إمكان مصيره ، كما يقول خطيب
مصر ، ورأيت أغراضه الجسام محالة ، وممكنة معاً ، فانه مع انقطاع المعين له حقيقة
وحكماً ، لأنه غير معول الا على شبان مثله لا مال لهم ، كان يحدث نفسه بإنشاء
جريدة ومدرسة ولا أدري بماذا كان يحدث نفسه أيضاً ، وربما لاح لغيري أن هذا
الشباب إنما كل زاد ، أو هام وأحلام ، ولكن جاء كتيبه دالاً على أنه حقيقة ، هذا
ولشدة بغضى لانجلترا وحبى لمصر كنت أرتقب وأتوقع منذ سنين قومة قائم في
وادي النيل ، وكانت ثقتى دائماً بنوى القول السيد الذي يرسلهم الله في الوقت
المناسب ليزرعوا الحب الصالح في النفوس التي ظلت زمنا طويلا بورا ، لقد فتمه
مصطفى كامل وأدرك بواطن الإطماع والذمائن الانجليزية ، وكان يتكلم عنها
كأنه سياسي مسن متعود البحث عن أسباب الأمور ، كفاء لأن يحل بيطه ولكن
بدون أن يخطئ . العقد التي أحكمت عقدها مهارة عاقدتها ، أو ليست مساعدة
وطنى شاب على أن يجاهد ويؤدى مهمة عالية أحد الأغراض التي التزمت توخيها
منذ أنشأت جريدتي (لانوفل ريفو) ؟ فقلت لمصطفى كامل : « ضع يا ولدي مقالة
في إحدى المسائل الخاصة بمصر وامض فيها واسترسل استرسالاً بغير تفيد ، فإنه
لا يضرني منك سورة الشباب ولا حدة اليقين ،

« ومن عهد تلك المحادثة أخذت أؤدى لمصطفى كامل وظيفة الام ، فعرفته
بجميع الرجال الأكار الذين قد يعينهم شأن مصر ، وأوليته من حب الام جميع
منازل أبنائى المتقدمين عليه الذين كان يختص بالمعزة منهم بييرلوتى والسكرولونل
مارشان ، وارنست جوديه ، وأوجدت له في آن واحد علاقات نفيسة في عالم
الصحافة الفرنسية ، تلك العلاقات التي عرف كيف يستخدمها بأحسن سياسة في
دعواه الشريفة ، وأمكنه فيما بعد أن يستفيد من هذا المركز بكل مهارة في جميع
البلدان الأخر حتى في انجلترا نفسها ،

واستمرت الصلة بين الفقيد ومدام جوليت آدم تقوى على مر السنين ، وبذلك
على مبلغ تقديره إياها ما كتبه عنها في ٢٠ أغسطس سنة ١٩٠٢ حين أهدته كتابها
(طفولتى وشبابى) إذ قال :

• إذا كان يحق لكل إنسان محب لبلاده أن يحيى هذه السيدة تحية الإعظام والإعجاب ، فمن الواجب الحتم على وأنا من خدمة بلادى العريضة أن أعرب لها عن مزيد إعجابى بعملها وبكتابها ، وأن أشرك الجمهور معى ليشكرها على حبها لمصر وثقتها بوصول أمتنا المحبوبة فى مستقبل الأيام إلى ما تبتغى من سؤدد وحرية واستقلال (١) .

وقد زارت مدام آدم مصر سنة ١٩٠٤ مليية دعوة الفقيه ، فاستقبلها بالحفاوة والإكرام كما سيحى . بيانه فى الفصل التاسع

حديثه فى جريدة (الاكبير) الفرنسية

اتصل المترجم وهو فى باريس بكثير من السياسيين والصحفيين الفرنسيين ليضمهم إلى صف القضية المصرية ، وقد حدث أن قررت الحكومة المصرية فى أواخر أغسطس سنة ١٨٩٥ إلغاء البعثة المصرية إلى فرنسا ، فقصدت إليه جريدة (الإكبير) الفرنسية الكبيرة ونشرت له حديثاً بالعدد الصادر فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٩٥ حمل فيه على الاجتلال وسياسته وبخاصة فى التعليم ، قدمت له بقولها :

• ورد علينا فى الأسبوع الماضى تلغراف من الإسكندرية يفيد أن وزارة المعارف فى مصر قررت إلغاء الإرسالية المصرية فى فرنسا ، ولما كان لهذا القرار مساس عظيم بنفوذنا فى مصر فقد رأينا من المفيد أن نقصد من أجله إلى (مصطفى كامل) وهو الكاتب والخطيب المصرى الذى اشتهر اسمه فى باريس ، لأن آراءه فى مثل هذه المسألة يعول عليها ، (٢)

وقد كان لهذا الحديث تأثير كبير فى فرنسا ، وتناولته الصحف الفرنسية وكان موضع اهتمامها ، ونشرت له جريدة (الجولوا) حديثاً له فى شؤون مصر السياحية ، وأخذ يشر المقالات فى مجلة لانوفل ريفو ، وهى مجلة مدام جوليت آدم

(١) اللواء عدد ٢ سبتمبر ١٩٠٢

(٢) المؤيد عدد ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٩٥

خطبته في الجمعية الجغرافية بباريس

ديسمبر سنة ١٨٩٥

وألقى في الجمعية الجغرافية بباريس يوم ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٥ خطبة كبرى بالفرنسية موضوعها (الاحتلال الإنجليزي في مصر) ، وذلك في اجتماع حافل حضره مشاهير السياسيين والكتاب والعلماء والنواب في فرنسا ، وكثير من نزلاء باريس ، فقبولت بالتصفيق والاستحسان ، واقتبست الصحف الباريسية كثيراً من فقراتها ، وبما يذكر عن هذا الاجتماع أن مصطفى كامل دعا إليه ضمن من دعاهم الفيلسوف الفرنسي الشهير (جول شيمون) وكان يبلغ وقتئذ الحادية والثمانين من عمره (١) ، فأرسل إليه كتاب اعتذار قال فيه : « إن كبر سنه وهو في الحادية والثمانين يمنعه عن الحضور ولسكنه لا يمنعه من أن يقول إنه أكثر الناس حباً لمصر واهتماماً بشأنها ،

(١) ولد سنة ١٨١٤ وتوفي سنة ١٨٩٦

الفصل الخامس

جهاده سنة ١٨٩٦

استمر الفقيه ماضيا في جهاده ، فحفل عام ١٨٩٦ بمثل ما حفل به عام ١٨٩٥ من الجهود الجبارة في بعث الحركة الوطنية

خطابه إلى جلادستون

في شأن الجلاء - يناير سنة ١٨٩٦

فكر وهو في باريس أن يواجه المستر جلادستون شيخ الأحرار في إنجلترا - وكان قد اعتزل الوزارة - ويذكره بأرائه في الجلاء ، حين كان رئيس الوزارة البريطانية سنة ١٨٨٢ وأدلى بتصريحات عدة في البرلمان الإنجليزي بأن إنجلترا لا تنوى نقض عهدها في الجلاء ، فأرسل إليه الخطاب الآت تعريبه :

• باريس في ٢ يناير سنة ١٨٩٦

• سيدي المبجل

• اسمحوا لأحد أبناء وادي النيل ، لوطني لا أمنية له إلا تحرير بلاده ، أن يقصدكم اليوم ليسألكم رأيكم عن حل مسألة مصر ، فقد كنتم منذ احتلت إنجلترا وطننا أشد نصراء الجلاء ، وجاهرتم مرارا عديدة بأعلى صوتكم أنه لا يليق ببريطانيا العظمى أن تحتل مصر إلى أجل غير محدود ، فإن عملا كهذا يمس شرفها أشد المساس

• لقد سجلنا كل تصريحاتكم في هذا الصدد ، ولو أنكم لم تستطيعوا الوفاء بوعدكم عند ما كانت السلطة في يديكم لأسباب نجهلها جهلا تاما ، فأننا لا نزال نظن أن اعتقادكم الآن كاعتقادكم في سالف الزمن ، أي أنه ليس لمسألة مصر إلا حل واحد وهو الجلاء

« ولهذا رأيت من المفيد أن أرجو منكم في هذا الوقت الذي اضطرت فيه
أحوال المسألة الشرقية أن تعرفونا حقيقة إحساسكم نحو بلادنا
« فان كنتم لاتزالون من نصراء الجلاء كما نظن ذلك فمتى تظنون أنه يمكن تحقيق
هذا الجلاء المنتظر من عهد بعيد ؟
« فضلا عن ذلك فان تصريحنا منكم في مسألة مصر يكون له أعظم قيمة في
هذه الأيام التي يحسب فيها الجرم الغفير من أبناء ديننا المسلمين أنكم أكبر عدو رآه
الإسلام ، واني مع انتظاري الجواب على كتابي هذا أرجو منكم أيها السيد المبجل
أن تفضلوا بقبول عظيم احترامي ،
« مصطفى كامل »

رد جلا دستون

« وقد أرسل المستر جلا دستون إلى الفقيد على غير تعارف بينهما جوابا رقيقا
ردا على كتابه ، أقر فيه بأن زمن الجلاء عن مصر قد وافي منذ سنين ، فكان جوابه
وثيقة هامة في المسألة المصرية سجلت على انجلترا مركزها غير المشروع في مصر ،
كما سجلت لمصر حقها في الجلاء وهذا تعريب الخطاب :

« سيدى العزيز

« إنى أستحسن ما فهمته من إحساساتكم نحو بلادكم باعتبار كونكم مصرياً ،
ولكننى مجرد بالمره من كل سلطة
« أما آرائى فانها لم تتغير قط ، وهى دائماً أنه يجب علينا أن نترك مصر بعد أن
تتم فيها بكل شرف وفى فائدة مصر نفسها العمل الذى من أجله دخلناها
« وإن زمن الجلاء على ما أعلم قد وافي منذ سنين

« ولما كنت فى منصبى اخيراً رجوت مساعدة الحكومات الأخرى توصلوا إلى
تسوية هذه المسألة المهمة ، والسلوك الذى اتبعه مسيو واد نجتون^(١) فى عام ١٨٩٢
شجع أملى ، غير أن المخبرات لم تحظ خطوة واحدة مع عظم ما أملنا إذ ذلك ،
ولست أدرى لآى سبب

(١) سفير فرنسا فى لندن وقتئذ

« ولقد جاهرت بكل تصريحاتي في مجلس النواب سنة ١٨٩٣ ، ولم يبق عندي شيء أضيفه عليها ، وقد كنت مستعداً لعمل كل ما هو حسن في سبيل إعطاء آرائى تأثيرها ، إلا أنى تركت المنصب بالمرّة ، ولست الآن إلا أحد أبناء بلادى الخصوصيين ، وإنى أشرف بأن أكون لك الخاضع الصادق ،
بيارتز في ١٤ يناير سنة ١٨٩٦
« و . جلادستون ،

كان لخطاب مصطفى ورد جلادستون دورى كبير في الدوائر السياسية ، إذ جاء حجة على إنجلترا في اخلافها عهدوها في الجلاء . وجاء شهادة قيمة من كبير الأحرار الإنجليز ، الذى وقع الاحتلال في عهد وزارته ، بأن لا مسوغ لبقاء الاحتلال ، فكان الرد انتصاراً كبيراً لجهاد مصطفى كامل ، وقد تناولت الصحف الأوروبية الخطابين بالتعليق ، وعلا شأن الفقيه إذ ظهر في أوروبا بأنه ترجمان مصر المعبر عن آمالها ومطالبها

نشرت جريدة (الإكلير) الفرنسية في عدد ٣ فبراير سنة ١٨٩٦ مقالة للسيو الفونس همبير نائب باريس في مجلس نواب فرنسا قال فيها :

« تبودلت مكاتبة مهمة بين مصطفى كامل والمستر جلادستون ، ومصطفى كامل هو شاب مصرى متعلق أشد التعلق بتحرير بلاده ، وقد أقام في باريس وعرفه فيها معرفة جيدة كل الكتاب المشتغلين بمسألة وادى النيل ، ، وأنى على خلاصة الخطابين وكتبت جريدة (الفيجارو) الباريسية مقالا جاء فيه :

« لقد أصبح المستر جلادستون أحد أبناء بلاده البعيدين عن السلطة كما ينادى بذلك ، وسهل عليه أن يعترف بتصريح ربما ضايق للورد سلسبرى (رئيس الوزارة البريطانية) في المفاوضات الجارية دائماً في شأن الجلاء عن مصر ، فقد كتب إلى زعيم الأحرار ذلك الشاب المصرى مصطفى كامل يذكره بأرائه القديمة التى كان مغزها دائماً أنه لا حل للمسألة المصرية إلا بالجلاء .

وكتبت الصحف الأخرى في فرنسا وأوروبا المقالات الضافية عن الخطابين والتعليق عليهما ، ونوهت بفضل مصطفى كامل في الحصول على هذه الحجة القوية

من شيخ الأحرار الإنجليز ضد الاحتلال ، وصار اسم الفقيه في الصحف الأوروبية
علماً على الحركة الوطنية المصرية

خطابه الثاني إلى جلا دستون

أراد المترجم أن يسجل على المستر جلا دستون تصريحه بأن الجلاء قد حان منذ
سنتين ، ويطلب إليه أن يعمل على تحقيق ما وعد ، فأرسل إليه الكتاب الآتي ، وقد
بعث به إليه بعد عودته إلى مصر :

• مصر في ٢٧ فبراير سنة ١٨٩٦ .

• أيها السيد المبجل

• أعذرنى إذا كنت أكتب إليك مرة ثانية ، فإن عدداً عظيماً من أبناء وطني لما
رأوا أن زمن الجلاء على ما ترى قد حان منذ سنتين ، كلفوني أن أرجوك التكرم
على مصر بإحداث حركة في الرأي العام الإنجليزي لمصلحة الجلاء

• وإن الحركة الكبيرة العديمة المثال التي أحدثتها في انكلترا لمصلحة الأرمن
بعض عبارات لكم في شأنهم — حيث لم تكن وقتئذ إلا أحد أبناء بلادك
الخصوصيين كما تقول لى أعظم كفيل لنا بأن مساعدتك لمصر يكون لها أعظم فائدة
• وإلا فهل مسلمو مصر أقل استحقاقاً لرعايتك العالية من مسيحي الأرمن ،
أو هل أنت كما أشاعوا في بلاد الشرق عدو للإسلام ؟ ذلك ما لا تتجاسر على ظنه
• ولقد قلت في خطبتك التي أقيمتها في شهر أغسطس الماضي : « انك لا تبغض
المسلمين ألبتة » ، فهام المسلمون يأتونك اليوم حيث جاءهم الدور يسألونك أن
تدافع عن مصر

• ومع ذلك أفليس من الواجب على انكلترا أن تحترم هي نفسها اليهود العلنية
والمعاهدات الدولية الضامنة لمصر حريتها قبل أن توحى تركيا — التي تعتبرها أقل
بلاد أوروبا مدنية — باحترام فقرة من معاهدة برلين مختصة بالأرمن ؟
• هذا واننى أرجوك أيها السيد المبجل أن تتفضل بقبول عظيم احترامى ،

مصطفى كامل

لم يتلق المترجم من المستر جلا دستون رداً على هذا الخطاب ، وإنما تلقى منه كتاباً ثانياً رداً على خطاب ثالث أرسله إليه في سبتمبر سنة ١٨٩٦ كما سيجيء بيانه

عودته إلى مصر - يناير سنة ١٨٩٦

بقى المترجم في باريس يدافع عن القضية المصرية بقلبه ولسانه حتى أوائل يناير سنة ١٨٩٦ ، وقد قدر لمدام آدم فضلها ومعاونتها إياه في جهاده ، فبقى على وده لها طول حياته ، وظلت هي على إعجابها به وبوطنيته طول حياتها ، وقد أبحر من مرسلية قاصداً مصر فوصل الإسكندرية يوم ١٤ يناير سنة ١٨٩٦

كتابه إلى مدام آدم

وقبل أن يبارح فرنسا بعث إليها في ٩ يناير سنة ١٨٩٦ بكتاب من مرسلية يدل على مبلغ تقديره لما أسدته إليه من المعونة الأدبية ، نال فيه :

« سيدتي المديرة المبهجة

« قبل أن أبرح هذه الأرض العزيزة أرض فرنسا أعرب لك من صميم فؤادي عن جزيل الثناء على المساعدة النفيسة جداً ، تلك المساعدة التي أوليتني إياها ، وإنه لواجب واجب الأداء أن أشكر بكل إخلاص عملك العظيم لوطني التعس الحزين ولشخصي المتواضع ، ولا شيء يؤلمني أكثر من عجزى في الكلمات ، ولولا ذلك لكنت أصف لك مقدار التأثير الذي وقع في نفسي من حسن لقائك إياي وما نلته من هذه المقابلة ، وبالجملة فأنك أعلم بشعوري نحوك

« بعد ساعة أبرح فرنسا حاملاً تذكارات متين الدعائم ، وأملى أن أعود إليها بعد أن أتم عملي في مصر ، وإني أعتمد دائماً عليك أيتها السيدة الوطنية الكبيرة

« وأرجو منك أن تتكرمى بقبول أجل إكبار واعظم اعتبار من يعترف لك بالجميل ،

« مصطفى كامل »

أول خطبه وطنية له بالإسكندرية

٣ مارس سنة ١٨٩٦

لما عاد مصطفى كامل إلى مصر عقب جهاده في أوروبا سنة ١٨٩٥ اتجهت إليه أنظار المصريين وتعلقت به آمالهم ، وفتحت بتأثير جهاده عواطف الوطنية في قلوبهم ، وتردد صدى خطبه ومقالاته في أرجاء البلاد ، فأخذت القلوب تلتف حوله كزعيم للحركة الوطنية ومحرر للبلاد ، ومناد بالجللاء ، وقد اعتزم عند عودته إلقاء خطبة وطنية كبرى في مدينة الإسكندرية ليتصل بقلوب الجماهير مباشرة ، ولعله اختار إلقاءها هناك لما كان يأنسه في أهلها من الحماسة والوطنية

ذهب المترجم إلى الإسكندرية يوم ٢٨ فبراير سنة ١٨٩٦ لإلقاء خطبته ، ونزل بأوتيل (آبات) بالمنشية ، ولكن صديقه اسماعيل بك شيمي ، وكان وقتئذ قاضيا بمحكمة الإسكندرية المختلطة ، أتي إلا أن يستضيفه بمنزله على شاطئ البحر (بجدة الانفوشي) ، فقبل الدعوة ، ونزل ضيفا كريما بداره ، وما ان علم أعيان الإسكندرية وأهلها بمقدمه حتى أخذوا يتوافدون على دار شيمي بك ليظهروا للفقيد إعجابهم به ، وتقديرهم لجهاده في سبيل مصر ، وليعربوا له عن تأييده والالتفاف حوله ، فكانت الدار مدة اقامته بها مهوى أفئدة الوطنيين ، وقد ألقى خطبته يوم الثلاثاء ٣ مارس في المسرح العباسي ، وكان الاجتماع حافلا بالمستمعين من صفوف القوم ، وقد حضره بعض النزلاء الأجانب ، كان الزحام شديدا إذ لم يبق مكان في التياترو خاليا ، وارتد المئات من الناس عن بابه من كثرة الزحام ، وقوبلت الخطبة بالتصفيق والحماسة والاستحسان ، وكان موضوعها حث المصريين على النمسك بحقوقهم في الاستقلال والمطالبة بالجللاء ، واستثارة روح الكرامة والأمل في قلوبهم ، وقد طلب الخطيب من الحاضرين في نهاية خطبته أن يقرروا نداءه بالجللاء برفع أيديهم ، فأقروا بالاجماع نداءه ، فكانت مظاهرة قومية رائعة

قال المؤيد ، في وصف الاجتماع (١) : « وبالجملة فان جميع الذين سمعوا هذه

الخطبة الشائفة أجمعوا على أن حضرة الخطيب الفاضل قد استهوى المسامح بحسن
القائه وبلاغة منطقته وغزارة مادته واطيف اعتداله ، ، وقال أيضا : « إنها الخطبة
الأولى التي أودم على إلقاءها شاب مصري غيور عرف واجب الوطن وضرورة
التفاني في حبه المقدس بعد أن مر على الاحتلال الأجنبي أربعة عشر عاما ،
وأطنبت جريدة (الفارد الكسندري) التي تصدر بالثغر في مدح الخطيب ،
ونوهت بفضله في تأييف قلوب الوطنيين والنزلاء ، قالت : « وهو الأمر الذي كان
له أحسن وقع في النفوس الحرة لا سيما من شباب لا يتجاوز عمره اثنتين وعشرين
سنة قام نائبا عن أبناء وطنه في الدفاع عن حقوقهم ،
كان لخطبة المترجم دوى عظيم في الاسكندرية ، تردد صداه في أرجاء مصر ،
وظهر تأثيرها في نفوس الاسكندريين يوم عودته إلى العاصمة ، فكان توديعه
بمحطة الاسكندرية مظاهرة وطنية ، إذ اجتمع على رصيف المحطة جمع كبير من
الاسكندريين وفي مقدمتهم أعيان المدينة وفضلاؤها لتوديع الضيف الكريم

هدية الثغر الى المترجم

وقدموا له وساما من الفضة رسم على أحد وجهيه صورة السعف المصري ومسلة
الثغر وكتب على الوجه الآخر هذه الجملة :

برهان الاخلاص من أهالي الاسكندرية

للوطني الغيور مصطفى كامل

فتقبل الهدية شاكرا ، وأمطرت عليه باقات الازهار والرياحين ، وما كاد القطار
يتحرك حتى هتف له الجمع الحاشد هتاف الاخلاص والحب وهو يرد التحية شاكرا

كتاب المترجم الى أهالي الاسكندرية

أثرت مظاهر الحفاوة التي لقيها الفقيه من أهالي الاسكندرية في نفسه تأثيرا
كبيرا ، وأدرك منها أن دعوة الوطنية تلتقي من الشعب استعدادا لقبولها ، فنشر في
المؤيد كتاب شكر لهم اعرب فيه عن اغتباطه لتليبتهم داعي الوطنية قال :

الى أهالى الاسكندرية

و أبناء وطنى الأعزاء

• يعجز قلبى واسانى أن يؤديا لكم واجب الشكر على ما أظهرتموه نحوى من العواطف الشريفة ، وما أبدتموه لى من علامات الود والإكرام ، ولولا أنى معتقد أنكم لم تقصدوا بمظاهرتكم نحو أضعف خدمة الوطن إلا إعلاء منار الوطنية ورفع شأن الوطن العزيز لكانت أخجل أن أمسك القلم وأسطر هذه السطور

• وإن الأمة المصرية لذاكرة كلها مظاهرة ٣ مارس ، الشريفة التى أظهرتم فيها رغائبكم وطالبتكم بحريتكم وسعادتكم الاجتماعية ، وبرهنتم على أنكم تقدرون الوطنية الصادقة حق قدرها وتعرفون مزية السكينة والاعتدال فى خدمة الأوطان فاعملوا دائماً بهذه المبادئ السامية لتبلغ الآمال وتشرق لنا شمس السعادة والإقبال

• وما مثلى أمامكم ومثلنا جميعاً أمام الوطن العزيز الأكمثل رجل وجد أمه عليلة سقيمة فأحس من نفسه الخنو والشفقة عليها فقام منادياً إخوته للعمل معه لشفاء عنها حيث وجدهم جميعاً يحسون نفس احساسه ويشعرون شعوره ، ففرح بهم وفرحوا به واجتمعوا على خير أهمهم المحبوبة

• فليت لنا هذا الاجتماع المرغوب حتى يبرأ الوطن من عاتيه ويسلم من دائه العضال ، دتم له يا أعز بنيه وأصدق حماته ،

مصر فى ١٠ مارس سنة ١٨٩٦

مصطفى كامل

إضطهاد الانجليز شقيقه

نقم الانجليز من الفقيده مجاهدته إياهم فى أوروبا ، لأن الدعاية فى الخارج تززع مركزهم المعنوى الذى يعتمدون عليه كثيراً فى تثبيت سلطانهم فى مصر ، وقد غضبوا عليه لحملاته عليهم فى الصحف الأوروية عام ١٨٩٥ ، وبدأ أثر هذا الغضب فى معاملتهم لشقيقه على (بك) فهمى كامل ، وكان وقتئذ ضابطاً بالجيش المصرى

بالأورطة الأولى من المشاة المرابطة بسواكن ، فتشدد رؤساؤه الانجليز في معاملته
فقدم استقالته من خدمة الجيش في أكتوبر سنة ١٨٩٥ ، ولكن قومندان
الأورطة الانجليزي رفض استقالته وطلب اليه استردادها متهدداً متوعداً ، فاسترد
على بك الاستقالة ، ثم صدر الأمر بإحالة إلى الاستيداع في شهر نوفمبر ، وسافر
الى مصر فوصلها في ٥ ديسمبر سنة ١٨٩٥

وقد رافق على بك شقيقه حين خطب بالإسكندرية ، ولما عاد معه إلى العاصمة
قدم استقالته من الجيش في مارس سنة ١٨٩٦ ، ليكون بجانب أخيه في ميدان
الجهاد ، وكان الإنجليز قد ساءمهم النجاح الذي لقيه المترجم في خطبته ، والخفاوة التي
قوبل بها في الإسكندرية ، فاعتزموا أن ينتقموا منه في شخص أخيه ، فاعتبروا
استقالته من الجيش في الوقت الذي كانت تعد الحكومة فيه الحملة لاسترداد دنقلة
مخالفة للواجب العسكري تستوجب محاكمته ، ومع أنه حين علم بنبأ هذه الحملة استرد
استقالته بخطاب مسجل ووضع نفسه تحت تصرف وزارة الحربية ، وألحق فعلا
بالأورطة الخامسة عشرة ، فإن وزارة الحربية أمرت بوقفه ، واعتقاله ومحاكمته ،
وحوكم على الفور أمام مجلس عسكري ، فتمضى بتجربته من رتبته العسكرية (وكان
ملازماً أول) ، وتنزله إلى درجة (نقر) ، أي جندي بسيط ، ونزعوا عنه علامة
هذه الرتبة ، وساروا به إلى الثكنة التي بها أورطته (بالعباسية) فقوبل هذا الظلم
بالألم الشديد من زملائه الضباط ، وأعربوا له عن صادق عواطفهم نحوه ، فشكروهم
على إحساسهم ، ونصح لهم أن يتبعوا الحكمة والروية ، حتى يقضى الله أمراً كان
مفعولاً ، وقد أودع السجن ، وعمول بغلظة وشدة ، وألحق (نقرأ) بتجريدة
دنقلة ، فكان ذلك منتهى العسف والتنكيل ، وحضر واقعة (فاركه) وواقعة (الحفير)
وهو جندي بسيط

كان لهذا الظلم الصارخ أثر سيء في النفوس ، وبخاصة بعد أن تناقلت الصحف
والألسنة تفاصيله ، وانتقل صدهاء إلى الصحف الخارجية ، واستفاضت الأنباء بأن
المقصود بهذا الانتقام هو مصطفى كامل

وقد جعل المترجم لمسألة أخيه صبغة رسمية ، فطلب مقابلة الخديو ليرفع إليه ظلامته من هذا الاضطهاد ، فأجيب إلى طلبه ، وقابل الخديو لهذا الغرض يوم الخميس ٩ يولييه سنة ١٨٩٦ ، فكان لهذه المقابلة ضجة في المحافل السياسية ، وبخاصة الانجليزية ، لأن الانجليز عدوا مقابلة الخديو لزعم حركة الجلاء مظاهرة ضد الاحتلال ، وقابل اللورد كرومر الخديو في هذا الشأن ، وأظهر له استياء الدوائر الانجليزية من استقباله مصطفى كامل ، فأجابه الخديو انه ككل المصريين نه الحق في أن يشكو اليه مظلمته ، واخيراً صدر العفو عن علي بك في اغسطس سنة ١٨٩٦ ، وقد استاء اللورد كنشتر سردار الجيش المصرى وقتئذ من امر العفو ، فلم ينفذه إلا في اكتوبر ، اى بعد شهرين من صدوره

خطبته بالفرنسية في الاسكندرية

١٣ ابريل سنة ١٨٩٦

لم يجزع مصطفى لاضطهاد شقيقه ، وكان الظن أنه يتراجع خوفاً عليه ، ولكنه ألقى وأخوه يتلظى في محنته خطبة دلت على أنه مهما حورب في شخصه أو شخص أقرب الناس إليه ، فلا يحول حائل دون جهاده ، ذلك أنه في أبريل سنة ١٨٩٦ طلب منه لفييف من الأوروبيين المقيمين بمصر أن يلقي خطبة يشرح لهم فيها القضية المصرية وموقف المصريين من الجاليات الأجنبية . فلبى الدعوة ، وألقى بمسرح زيزينيا بالإسكندرية يوم ١٣ ابريل خطبة بالفرنسية ، كانت فوزاً كبيراً له وللقضية الوطنية ، فقد ازدحم المسرح بالحاضرين ، وكانوا نحو ألف من خيار النزلاء مختلفي الأجناس رجالاً ونساء ، ومنهم بعض الإنجليز ، وفي مقدمتهم بعض القناصل والشخصيات البارزة من الجاليات الأجنبية وأعيان التجار ، وجموع كثيرة من صفوة الوطنيين الذين يعرفون اللغات الأجنبية ، وألقى المترجم خطبته بلغة فرنسية فصيحة ، وصوت رنان ، ولقد هاجر فيها بأن اضطهاد شقيقه لا يثنيه عن جهاده ، وسيظل مدافعاً عن وطنه طول حياته ، واستمر يخطب ساعة ونصفاً ، كان في خلالها يقابل بالتصفيق والاستحسان والإعجاب ، مما دل على مبلغ تأثيره في نفوس السامعين ، ومعظمهم من الأوروبيين

وكان الموقف يدعو حقاً للإعجاب ، لأن تلك أول مرة بعد الاحتلال يلقى فيها خطيب مصري على جمع من الأورويين في مصر خطبة بلغة أوروية . مدافعاً عن القضية الوطنية ، منادياً بالجلال ، وقد ظهر هذا الإعجاب فيما كتبه الصحف الأوروية عن الاجتماع ، قالت جريدة (الفارد الكسندري) : « عندما ظهر الخطيب على مسرح الخطابة قدم له جماعة من أبناء وطنه باقات كثيرة من الزهور دليلاً على حبهم له وتأيدهم لخطته ؛ فكان يتكلم وسط الزهور والرياحين بلسان بديع في الفرنسية ، وبأسلوب خطابي ، وصوت جهوري ، مما أثر تأثيراً قوياً في السامعين ، ، وقالت جريدة الريفورم : « إن هذا الجهاد الذي يقوم به مصطفى كامل لجدير بالفخر ، فنقد أمكنه أن يتكلم فوق ساعة ونصف بلسان أجنبي عنه ، دون أن يمل سامعوه ، ودون أن يستعمل ألفاظاً بايعة عن الذوق ، ورعاية وتحفظ تامين ، ومن البديهي أن الذي يبلغ درجة كهذه لا بد أن يكون له شأن كبير ، ولقد سمعت بنفسى خصوصاً مجاهرين بمعارضتهم لآراء مصفى كامل يعترفون بفضله وكماليته ،

مجموعة أعمال المترجم في عام

حفل عام ١٨٩٥ - ١٨٩٦ بما رأيت من جلائل الأعمال والجهود الجبارة في بعث الحركة الوطنية ، وقد فكر بعض أصدقائي في طبع مجموعة أعماله في ذلك العام ، تخليداً وتكريماً لجهاده ، فنشر الاستاذ العالم محمد بك مسعود (صاحب جريدة منفيس وقتئذ) هذه المجموعة بعنوان (مصر والاحتلال الانجليزى) ، وتمهد لها بمقدمة بليغة تدل على المكانة التي نالها مصطفى كامل في النفوس والاعتراف له من ذلك الحين بأنه باعث الحركة الوطنية

ظهرت هذه المجموعة في مايو سنة ١٨٩٦ ، وانتشرت انتشاراً كبيراً ، وأقبل الناس على اقتنائها اقبالا عظيماً ، وأنا مقتبسون هنا بعض فقرات من مقدمة الأستاذ مسعود بك لأنها تحتوى على وصف لشخصية مصطفى كامل في بداية حياته الوطنية الكبرى ، قال :

« نبغ هذا الهام من مدارس مصر ، وتوج ما اكتسبه فيها من المعلومات الجليلة

بمتابعة الدراسة في فرنسا ، حتى نال الشهادة الناطقة بفضله وقوة ادراكه وشدة ذكائه وحدة فهمه ، وقد كان كافة أساتذته وأقرانه يعترفون له بهذه النعوت الكاملة ، وبما وهب من طلاقة اللسان وقوة البيان ، وأنه الذي إذا ارتقى منبر الخطابة ذلل له القول وسخر له الخطاب ، وتابعه الكلام متفق القرائن مطرد السياق ، حتى يستميل إليه القلوب النافرة ، ويرد الأهواء الشاردة ،

إلى أن قال :

« يعترف القارىء المنصف اعترافاً لا تشوبه مداراة أو مواربة بأن الموجد لهذه الحركة العسكرية القوية إنما هو ذلك الذى ينبغى أن يكافئه كل وطنى بالافتداء به وسلوك منهجه القويم ، وما هذا المنهج القويم ؟ هو صراط مستقيم يهتدى إليه كل من اجتمعت فيه مزية الإقدام واشتعال العواطف بالوطنية الصادقة ، فإن هاتين الصفتين الجليلتين متى منح الإنسان التوفيق بتوافرهما فيه أوصلتاه إلى سدرة منتهى الغايات المحمودة والمقاصد السنية ، وسخرت له كل الوسائط لتذليل الصعاب وتمهيد العقبات ، إلى أن قال :

« علم بما سلف أن الإقدام والوطنية الصادقة شرطان لازمان للبصريين ، إذ بهما يقاومون جميع الصعوبات السياسية كما قاوم بهما من قبل فحول الرجال الذين أنقذوا أوطانهم من ربة الاستعباد ، نخلدوا فى تاريخ أمهم وتاريخ الحرية الذكرى الحسنة ، وتركوا للأعقاب أثراً جميلاً ومثلاً يقتدون به ، ولا بدع إذا كان المصريون الصادقون يؤملون لوطنهم وخطيبهم المصقع منزلة فى تاريخ مصر ، كمنزلة أولئك العظام فى تواريخ بلادهم ، فكلهم ابتدأوا كما ابتدأ ، وربما كان عملهم فى المبدأ لم يصادف من النجاح والفوز ما صادفه مصطفى كامل فى فاتحة أعماله الجليلة التى تقدمها اليوم للقراء متضمنة كل آثاره الوطنية فى عامه السياسى الأول ،^(١)

(١) كتاب (مصر والاحتلال الإنجليزى) أو مجموعة أعمال مصطفى كامل مدة عام من

مايو سنة ١٨٩٥ إلى مايو سنة ١٨٩٦ ص ٤

استئناف الجهاد في أوروبا

أغسطس سنة ١٨٩٦ - نوفمبر سنة ١٨٩٦

أبحر المترجم من الإسكندرية يوم السبت أول أغسطس سنة ١٨٩٦ قاصداً فرنسا ليستأنف جهاده في أوروبا ، فودعه على رصيف الميناء جمع كبير من ذوي المكانة ، وقدم له الوطنيون الاسكندريون باقات الأزهار داعين له بالنجاح في جهاده (١) ، وما ان وصل إلى باريس حتى بادر إلى العمل والجهاد في سبيل مصر فنشرت له جريدة (ليبر بارول) الفرنسية حديثاً بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٨٩٦ عن الحركة الوطنية ، قال فيه :

« إن كراهية المصريين للاحتلال تزداد من يوم لآخر ، وقد علمنا الآن حق العزم أن إنجلترا تستعمل كل الوسائط بما فيها الشرف البريطاني للوصول إلى غايتها في مصر ، وليس لها من غاية هناك سوى الاستيلاء عليها ، وأنه إذا كانت الأمة المصرية ساكتة اليوم سكوتاً تاماً وصاروا صبراً جميلاً فإنها لا تستطيع التسكّن بما يمكن أن ينجم عن حقدها الشديد على الاحتلال والمحتلين ،

ذكرى ١٤ سبتمبر

واتهز المترجم يوم ١٤ سبتمبر وهو ذكرى احتلال الانجليز عاصمة البلاد في سنة ١٨٨٢ فنشر في جريدة (الإكلير) الفرنسية بعدد ١٥ سبتمبر سنة ١٨٩٦ حديثاً ضمنه التنويه بهذه الذكرى ، وقد مهدت له الجريدة الباريسية بقولها :

« أي تذكّر محزن وأية ذكرى تعسة مؤلمة ؟

(١) جاء في المؤيد عدد ٢ أغسطس سنة ١٨٩٦ ما يأتي : « كان من جملة الذين بارحوا نهر الاسكندرية أمس إلى أوروبا حضرة الكاتب الفاضل والخطيب الوطني البليغ مصطفى أفندي كامل فودعه على ظهر البحر كثير من أصدقائه وإخوانه كما ودعه الكثير منهم بعد ظهر يوم الخميس الماضي على محطة القاهرة رافقته السلامة والنجاح أينما توجه »



مصطفى كامل

في الثالثة والعشرين من عمره

« لقد مضى على مصر أربعة عشر عاماً وهي مقهورة مضغوط عليها من قوم
يلقبون أنفسهم بمدني العالم ! وإن الانسان عند ما يفكر أن الانجليز مضى عليهم
هذا الزمن وهم يهدمون كل بنيان في مصر ، ويحاربون أوروبا والمدنية الأوروبية
على شواطئ نهر النيل ويقوضون أركان نفوذ فرنسا واحترامها ، ويقهرون المصريين ،
كل ذلك ودول أوروبا لم تعمل شيئاً ما ضد الاحتلال ، يظن أن أوروبا هذه
تلاشت وأنها لا وجود لها اليوم ! وليس تذكاري ١٤ سبتمبر تذكاري حداد للأمم
المصرية فقط ، بل هو أيضاً - وأسمح لنفسى أن أقول ذلك - تذكاري عار وخجل على
سياسة أوروبا ومدنيتها عامة وعلى فرنسا خاصة ،

خطاب ثالث إلى جلاستون

كانت المسألة الأرمنية في صيف سنة ١٨٩٦ مثار الأحدث في الصحف الأوروبية والدوائر السياسية ، وكانت الصحف الأوروبية عامة تدافع عن الأرمن وتحمل على الحكومة التركية من أجلهم حملات شديدة ، وكان المستر جلاستون من أشد السياسيين انتصاراً لهم ، فكتب إليه المترجم من باريس خطاباً ثالثاً نوه فيه بخطابه الثاني الذي لم يتلق عنه رداً ، وأمع إلى دفاع المستر جلاستون عن الأرمن ضد الحكومة التركية ، وسكوته عن المسألة المصرية ، على ما يقع فيها من عدوان السياسة الانجليزية ، ونقضها لعهودها في الجلاء ، وأعرب عن أمله في أن يكون عادلاً في موقفه حيال المسألة المصرية ، وهذا تعريب خطابه :

• باريس في ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٩٦

• أيها السيد المبجل

• إن الذي يخاطبكم اليوم هو مصري تشرف من قبل بمراسلتكم ، ولما شرفتموني في شهر يناير الماضي بجوابكم الذي صرحتم فيه ، أن وقت الجلاء عن مصر قد حان منذ أعوام ، كتبت إليكم راجياً باسم الانسانية والشرف البريطاني أن تلقوا خطبة تذكر فيها حكومة الملكة بأن هناك معاهدات خاصة بمصر يجب احترامها ، فلم يصلني جواب ما ، وحسبت أن رجائي لم يؤثر أي تأثير في روحكم الشريفة الكريمة ، واليوم أرى مع الأسف أنكم لا تميأون إلا إلى المسيحيين من بني الانسان ، أو ليس لنا حق كذلك نحن معشر المصريين المسلمين في دعواكم المؤثرة وندائكم القوي ؟ أما أنا فأظن ذلك ، وخصوصاً لأنكم بدعوتكم للجلاء عن مصر لا تدافعون عن حقوق أمة متمدنة معتدلة فقط ، بل تدافعون كذلك عن مقام بريطانيا وشرفها ، وإن اليوم الذي تدافعون فيه عن مصر تستهيلون إليكم لا محالة كل المسلمين الذين يعتقدون الآن أن دفاعكم عن الأرمن إنما هو تمييز للمسيحية ودفاع عنها لا عن الانسانية ، وعلى هذا أو مل أن تعيروا رجائي التفاتكم ورعايتكم ، ومع انتظارى لجوابكم أرجو منكم أيها السيد العظيم المقام أن تفضلوا بقبول صادق اعتباري وعظيم احترامي

« مصطفى كامل »

رد جلا دستون

فاجابه المستر جلا دستون بالكتاب الآتى تعريبيه :

« السبت ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٩٦ »

« سيدى العزيز »

إني لا أظن أنه قد وصلنى منكم كتاب من غير أن أجيب عنه ، أما إحساسى ورأى فى مسألة الجلاء عن مصر فقد صرحت بهما لجناب المسيو وادنجتو — سفير فرنسا فى لندن إذ ذاك — إذ قلت له إن حكومة سنة ١٨٩٢ (أى الحكومة الانجليزية التى كان يرأسها مستر جلا دستون نفسه) مستعدة للمناقشة فى هذه المسألة ، ولكن الحكومة الفرنسية لم تجب أى جواب مدة وجودى فى الحكومة ، والآن باعتبارى أحد الأفراد أرانى مجردا من كل سلطة تتيح لى التدخل فى هذه المسألة « وفى الختام أتشرف بأن أكون لكم العظيم الإخلاص الخاضع

« و. جلا دستون »

كان لهذين الكتابين صداهما فى الصحف إذ اتخذت منهما مادة لمناقشة المسألة المصرية وإلزام السياسة البريطانية الحجة

كتبت جريدة (الديبا) الفرنسية مقالا جاء فيه ما يأتى :

« إن المستر جلا دستون الذى كتب أخيراً كتابا يدعو فيه الأمة الفرنسية إلى التظاهر بغيرة أشد مما هى عليه انتصاراً للمسيحي الأرمن دعاه بدوره رجل مصرى للدفاع عن أمة أخرى مقهورة ، وبيان ذلك أن مصطفى كامل المصرى الوطنى كتب إليه كتابا يقول فيه انه يحذر بشيخوخته الشبيطة أن تعمل لتحرير مصر وردها إلى أهلها من أيدى الإنجليز محتلبها بلا حق ، وإن تسكن المشابهة بين المسألة المصرية والمسألة الأرمنية طريفة أكثر مما هى صحيحة ، ولقد أجاب المستر جلا دستون مصطفى كامل بأنه لما كان رئيس حكومة الأحرار سنة ١٨٩٢ فاوض فرنسا فى هذا الشأن وأنه عرض على المسيو وادنجتو المباحثة فى المسألة المصرية ولكن الحكومة

الفرنسية هي التي أغفلت هذا الطلب ولم تجبه ، وإننا نعلم كيف كان عرض هذه المناقشة يومئذ ، ولكن الخطبة التي ألقاها المستر جلادستون نفسه في البرلمان البريطاني باعتباره إذ ذاك الوزير الأول لانجلترا تجعلنا نحكم الآن بأن حكومتنا كانت تضيع وقتها سدى لو فاوضت المستر جلادستون في هذه المسألة ، ومع هذا فإذا كان المستر جلادستون لا يزال يعتبر لزوم المفاوضات ويرغب في أن تحافظ إنجلترا على عهودها وتقوم بوفائها فلماذا نراه لا يقبل رجاء مصطفى كامل بل يعتذر عن نفسه بأنه فرد من أمته مجرد عن كل سلطة كسكل أفراد الإنجليز؟ نعم إن هذا القول يعد تواضعا ممدوحا ، ولكن هل الصوت الذي ارتفع للدفاع عن الأرمن فبيح خواطر الإنجليز غير قادر على أن يقول الحقيقة في شأن مصر؟

دعايته في ألمانيا

سافر المترجم من باريس في أكتوبر سنة ١٨٩٦ قاصدا برلين ليرفع صوت مصر في ألمانيا ويكسب لها الأنصار ، وهناك تعرف بكثير من رجال السياسة والصحافة ، ورحبت به الصحف الألمانية واستقبلته بالحفاوة ، فكتبت عنه جريدة (برلينر ناخبلاط) قائلة :

« وفد على برلين في هذه الأيام أكبر المشتغلين بأمر تحرير مصر من الاحتلال الأجنبي وهو الوطني الشهير ، مصطفى كامل ، الذي يكتب ويخطب في أوروبا منذ عامين نائب السير والعمل والجهاد في سبيل مشروعه الشريف ، والآن قد جاء برلين لاستمالة شعبها إلى وطنه الأسياف ، ومصطفى كامل هذا ، هو شاب فصيح جذاب ، اجتمع به أحد محرري جريدتنا وتحدث وإياه في المسألة المصرية وكان الحديث باللغة الفرنسية التي يتقنها كل الاتقان ،

وقد نشرت الحديث ، وهو دفاع مجيد عن حق مصر في الاستقلال وعدم مشروعية الاحتلال ، وتألم المصريين منه

ونشرت جريدة (ذى بوست) كبرى جرائد المحافظين حديثا آخر له في هذا

الشان ، وقد نوه في كلا الحديتين بان الاحتلال لا يضر بحقوق مصر فحسب بل يعارض المصالح الأوروبية عامة ، قالت جريدة (ذى بوست) في هذا الصدد :

« لقد تكلمنا في جريدتنا منذ بضعة أشهر عن رسالتين مهمتين تتعلقان بالجللاء عن مصر ، وقلنا إنهما من قلم الوطنى المصرى الشهير (مصطفى كامل) ذلك الذى وهب حياته ونفيس عمره لتحرير وطنه وتحرير بلاده ، ولما كان يطوف أوروبا داتبا فى عمله فقد جاء برلين ليتعرف فيها إلى رجال القلم والسياسة حتى يطالعهم بحالة بلاده الحاضرة ، لكي يقتنعوا بضرورة العمل ضد بقاء إنجلترا فى مصر ، وقد فعل ذلك فى الممالك والعواصم الأخرى ، إلى أن قالت : « لقد تعودنا أن نعتقد دائما أن نصراء الآراء العظيمة وزعماء المذاهب ودعاة الأغراض الكبيرة يكونون من الشيوخ الكبار السن ، ولذلك دهشنا أول الأمر إذ شاهدنا مصطفى كامل المصرى المتجول فى أوروبا طلباً لتحرير بلاده من نير الاحتلال الأجنبى شاباً فى غضاضة العمر ، ولكن لا يابث الانسان هنية حتى ينسى أنه أمام شاب ، بل يحسب نفسه مع شيخ كبير حنكته التجارب والسنون الطوال ، ويجده محدثه فضلا عن ذلك فى كل كلمة من كلماته شغوفاً بوطنه مملوفاً غيرة عجيبة وحباً للعمل الذى هو قائم به ، وحركات رأسه المملوء نشاطاً وكفاية ، وبريق عينيه ، كل ذلك يدل على قوة إيمانه وأنه مستعد لعمل عظيم يحقق فيه القول بالعمل ، وهو يؤدى الأحاديث مع محادثيه بحرارة ما عهدت فى غيره من رجال الشرق ، ويجيب مخاطبه بصراحة تامة عن كل سؤال ، وهو معتقد تمام الاعتقاد أنه يعمل عملاً شريفاً طاهراً ، وأنه واثق تمام الثقة بأن آماله لا بد أن تتحقق ، وثقته بنفسه وبشعبه واطمئنان خاطره يظهران جليسا من جوابه عن هذا السؤال :

« أى مهمة سياسية أنت مكلف إياها فى حضورك إلى برلين؟
« إني مكلف من تلقاء نفسى وبواجبى الوطنى بمهمة وطنية محضنة يدفعنى إليها الإحساس النفسانى ، فانى لما فكرت فى الحالة التعسة التى فيها وطنى وشعرت من نفسى بأننى إنسان عليه واجبات لأرض آباءه وأجداده رأيت بعد التروى مع أصدقائى الوطنيين أن آتى إلى أوروبا ، وقد مضى على عامان وأنا مشغول بعملى هذا مدافعا

عن قضية بلادى ضد الانجليز المحتلين لها برغم المعاهدات الصريحة القطعية ، وأعظم التعهدات العلنية ، ولقد وجدت أننا كنت معاضدة بحى الحق والعدل ، وهم والحمد لله ليسوا بالقليل العدد فى أوروبا ، وإنى أخطب الأمم والحكومات ، وسواء سمع صوتى الآن أو بعد الآن ، حتى لو كان سماعه بعد موتى ، فانى عامل ما عشت لأداء واجباتى نحو وطنى ، وأنادى كل ذوى الضمائر الحرة من جميع الأمم للعمل لإفناذ مصره

فى النمسا

ثم ذهب إلى النمسا ليواصل دعايته للقضية المصرية ، فوصل عاصمتها فيينا يوم ١٩ أكتوبر سنة ١٨٩٦ ، (١) وكان وهو فى باريس قد دارت بينه وبين المسيو (جوزيف بويوسكى) أحد كبار أعضاء مجلس النواب النمساوى مكاتبة فى صدد المسألة المصرية أراد بها أن يجتذب النائب الكبير إلى جانب مصر ، فكتب إليه كتابا فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٩٦ يشبه من بعض الوجوه كتابه إلى المستر جلادستون قال فيه :

« باريس فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٩٦ »

« جناب المحترم المسيو جوزيف بويوسكى »

« لم أتشرف بمعرفتك من قبل ، ولستكنى وطنى مصرى أعمل لجلاء الاحتلال الانجليزى ، لذلك أجد من الشرف أن أسأل بلا معرفة رجلا حرا مثلك اشتهر بسعة علمه وعظيم استقلاله وتمكنه من معرفة السياسة الخارجية بخزافيرها ليشرح لى رأيه هل هو نصير الاحتلال أم الجلاء ؟ وما هى السياسة التى يجب أن يتبعها التحالف الثلاثى ؟ »

« ورجائى ألا تعتبروا سؤالى هذا عملا أو مهما ، فان الوطنية قوة قاهرة تدفع المرء إلى مخاطبة من لا يعرفه أو الخروج أحيانا عن حد اللياقات ، وإنكم وأنتم

(١) المؤيد عدد ٣١ أكتوبر سنة ١٨٩٦

الذين علمتم الأمم ماهى حدود الوطنية لا بد أن تعطفوا على الوطنين المصريين وتمدوا
إليهم يد المعونة فى سبيل تخليص وطن حكم عليه بالأسر والذل كاد يذهب ضحية
طمع بريطانيا وتهاون أوروبا

• وتقبل أيها العضو المبجل أجل تحيات وعظيم احترامات المصرى المخلص

مصطفى كامل

فأجابه النائب بويوسكى بالكتاب الآتى :

• فيينا فى ١٥ أكتوبر سنة ١٨٩٦

• سبىدى

• تسألنى فى كتابك المؤرخ ٢٤ سبتمبر الماضى إذا كنت نصيراً للاحتلال أو
الجلام ، فجواباً عن هذا السؤال أقول لك إنى أفهم جيداً أنك باعتبارك مصرياً وطنياً لا بد
أن تنألم لضباغ استقلال بلادك ، وإن كان يعزبك ويخفف آلامك الاعتقاد بأن
الاحتلال الإجملىزى فى مصر ليس إلا مؤقتاً ، وأن اجملىترا لا تتعدى على القومية
المصرية ، وإن لكم استقلال داخلياً تاماً وأن لكم أميراً حازماً وإدارة منتظمة .
ولكن لىكى تنال أمة من الأمم حرىتها يلزم أن يكون عندها بعض صفات معنوية
خاصة . وأولى هذا الصفات أن تكون مستعدة لأن تضحى بنفسها فى سبيل الوطن
• وقد أرشدنى التاريخ إلى أن روسيا قضت أربعين عاماً حتى استطاعت أن
تملك القوقاز ، وأن فرنسا جاربت فى الجزائر حرباً طويلة حتى استطاعت أن تقف
مقاومة «عبدالقادر» لها . ولا يزال من الصعب على هاتين الدولتين تجنيد الجنود من القوقاز
والجزائر . ومن جهة أخرى فليس لانجملىترا فى مصر غير ثلاثة آلاف جندى مع
أن للخديو جيشاً منظمًا عدته ثلاثة عشر ألف جندى ، ولديه خمسة آلاف رجل
فى بوليس منظم تنظيمًا عسكرياً . فهذه الأرقام تدل على أن أغلب المصريين راضون
عن الاحتلال الإجملىزى !

• وأنا أعتقد أن الحرب السودانية لا بد أن ترفع من شأن الجنود المصرية

فتكسبهم ملكة عسكرية أهلية تساعد — وذلك مالا شك فيه — على استكمال الصفات
الضرورية لمصر حتى تنال استقلالها يوماً ما

• وإنك تسألني أيضاً في كتابك عن رأيي في السياسة التي يجب أن يتبعها التحالف
الثلاثي تجاه المسألة المصرية . وجواباً عن هذا السؤال أقول لك إنني أفكر أن المسألة
المصرية لا تهم دول التحالف مباشرة بل إن سياستها تتوقف على ما تحظه إنجلترا في المستقبل
• هذا وإنني أرجو أن تفضل بقبول عظيم احترامي ومزيد اعتباري

هوزيف بوبوسكى

وقد قابل مصطفى كامل بعض كبار رجال السياسة في النمسا ، وفي مقدمتهم المسيو
شلومكى رئيس مجلس النواب النمساوى وكبار الصحفيين وشرح لهم المسألة المصرية
وجهاد مصر في سبيل استقلالها . فاكتسب عطف الكثيرين منهم نحو مصر
ونشرت له جريدة (اكتسر ناجبلاط) حديثاً قال فيه :

• إننا متألمون من الاحتلال الإنجليزي لأنه مسقط لكرامتنا باعتبارنا أمة ،
فضلاً عن كونه جارحاً لعزة بلادنا حساً ومعنى ، فاننا أمة نقدر محبة الوطن حق
قدرها ، ونعلم أن بلادنا مادامت تحت النير الأجنبي وما دمنا لاندير شؤوننا بأيدينا
فلا حق لنا في أن نحسب أنفسنا أمة من الأمم التي لها حقوق محترمة ، ولهذا نرغب
من صميم أفئدتنا التحرر من الاحتلال الإنجليزي ،
وقال عن سبيل مصر إلى الاستقلال :

• لما كانت الأمة المصرية متألمة ولها حق التحرر من النير الإنجليزي فترى
للوصول إلى غرضها سبيلين ، سبيل الثورة والسبيل السلمى ، فأما سبيل الثورة فنحن لانريده
لأننا قبل كل شيء قوم مشهورون بالدعة وحب السكينة ؛ ونبغض المذابح والجرائم ،
ومن جهة أخرى فان لاوروبا عندنا مصالح تضر بها الثورة . وإذا كنا نحترم حقوق
أوروبا ومصالحها في مصر فمن المحتمل أن الأمة إذا تأثرت ضلت سبيل الرشاد فلا تميز
بين الإنجليز وغيرهم من الأوروبيين إذ تقول وقتئذ : • لقد تظاهرت أوروبا ضدنا

بموافقتها على الاحتلال فمن الواجب إذأ العمل ضدها ، — لذلك أعرضنا عن سبيل الثورة الذي نكرهه بفطرتنا . وعلى ذلك قد اخترنا السبيل السلمي ورفعنا صوتنا إلى مسامع أوروبا المتمدنة بمطالبنا الحقيقية . وإن الساعة قد آذنت لاحالة وتحتم على أوروبا أن تعمل لجلاء الإنجليز عن مصر ،

ذهابه الى الاستانة

اكتوبر سنة ١٨٩٦

لم يكن معقولا أن يطوف المترجم عواصم أوروبا باليسكسب الأناضارو الأعوان لقضية مصر ، ولا يذهب إلى الاستانة عاصمة تركيا ، لأن تركيا كانت في عهد الاحتلال الإنجليزي الدولة الوحيدة التي كانت لا تفنأ تطالب انجلترا رسميا بالجلاء عن مصر ، وقد أنفذت إلى مصر مندوبا ساميا عنها وهو (أحمد مختار باشا الغازي) مهمته مطالبة الإنجليز بالجلاء ، وكان مختار باشا يعلن بأنه احتجاج حتى على الاحتلال ، فلاغرابة أن يستعين زعيم الجلاء بتركيا ، كما أراد أن يستعين بفرنسا وغيرها من الدول الأوروبية على إخراج مركز الاحتلال

قصد إذن الاستانة لأول مرة عن طريق فيينا وبواديست ، فوصلها صبيحة الثلاثاء ٢٧ أكتوبر سنة ١٨٩٦ ، ونزل بفندق (بيرابالاس) وحضر بدعوة من باشكاتب المايين الهايوني حفلة (السلامك) ، وهي حفلة صلاة الجمعة في الجامع الحميدى حيث يصلى السلطان ، وفي ذلك اليوم قابل السلطان ، فلاطفه في الحديث وأعرب له عن إعجاب به وحسن تمنياته ، وفي خلال إقامته بالاستانة أهداه هدية ثمينة وهي علبة سجائر من الذهب مرصعة بالماس والأحجار الكريمة وموضوعة داخل صندوق صغير من الذهب والفضة ، وأبدى رغبته في أن يمنحه رتبة أو نيشاناً ، ولكنه اعتذر عن عدم قبولها حتى لاينهمه خصومه ، وكانوا في مصر كثيرين ، بأنه يعمل حياً في الظهور ونيل الرتب والأوسمة ، وقد لاهه أصدقاؤه على هذا الاعتذار بعد عودته إلى مصر ، وأقنعوه بالأى رفض رتبة تمنح له من السلطان ، لأنهم عالمون بأن الألقاب في مصر والشرق تعظم من شأن الرجل في نظر الناس وتعالى من قدرة ويزداد بها الزعيم مكانة عند العامة والخاصة ، فاقنع المترجم بهذه الحجة كما سيجىء بيانه

أقام في الأستانة بضعة أيام من ٢٧ أكتوبر حتى ١١ نوفمبر اتصل في خلالها بكثير من رجال الدولة ومكاتب الصحف الأوروبية والأمريكية الشهيرة ، إذ وفدوا عليه ليحادثوه في شأن مصر والمسألة المصرية ، فأفاض لهم بما لديه من المعلومات الجمة ، وكان في أحاديثه الترجمان الصادق للآماني القومية

كتب مكاتب جريدة (فرنسكفور تركوريه) الألمانية بعنوان (حديث عن المسألة المصرية - مصطفى كامل في الأستانة) ما تعريبه :

الاستانة في ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦

تشتغل دوائر الأستانة السياسية الآن بمسألة تحرير مصر ، وهي المسألة الخطيرة التي لا يبعد أن تظهر قريباً في مقدمة المسائل الدولية العظيمة الشأن ، وفضلاً عما لهذه المسألة من الأهمية في أوروبا فإن الوطنيين الصادقين من المصريين قد أخذوا على أنفسهم المناداة بحقوقهم وإظهارها دائماً على المسرح السياسي ، وذلك مما زاد قيمتها ولقد حضر إلى الأستانة منذ أيام ذلك الخطيب المصري الشهير الناطق بلسان المصريين والمترجم عن رغائبهم ، وهو (مصطفى كامل) ذلك الشاب الذي خلق ليسكون خطيب قومه ، لما وهبه الله من القوة والغيرة العجيبين ، ولما هو عليه ، من الفصاحة المتدفقة وملسكة التأثير في النفوس ، وما في نفسه الشريفة من المحبة الشديدة لوطنه ، لم يكذب على الأستانة ويزور فيها رجال السياسة حتى قبل من كل الدوائر السياسية بغاية الحفاوة والإكرام ، وعلى الأخص في المابين السلطاني ، فانه قبل بأجمل ما يقابل به سياسي من الحفاوة والتكريم ، ومن الصعب أن يتكهن الإنسان في هذا الحين بالنتائج التي تنتج عاجلاً عن عمل (مصطفى كامل) ، ولكن مقابلته لرجال السياسة ذوى الحكمة والشأن في العواصم الثلاث (باريس وبرلين وفيينا) ومحادثاته لسائر الصحف الشهيرة وحضوره بعد ذلك لعاصمة الدولة العثمانية لمن الأمور التي يدرك قيمتها كل إنسان ، ولقد قابلت هذا الضيف الجميل وتحادثت معه طويلاً في أحوال مصر والشرق فوجدته على جانب عظيم من اللطف والدعة وسعة الفكر والخبرة بكل مشكلات السياسة ، وهو يتكلم باللغة الفرنسية كأحد نجباء الفرنسيين النابغين تحت سماء باريس ، كل ذلك فضلاً عن إحاطته التامة بالاعادات

الأوروبية الحميدة وعدم إهماله العادات الشرقية السكرية، وهو يقابل زأربه ببشاشة تسلب القلوب وتستميل نحوه ونحو بلاده كل إنسان، وإني أقول بكل صراحة ودهشة إن لمحادثة هذا الرجل الشهير والخطيب المؤثر لذة مخصوصة تبقى حلاوتها زمناً طويلاً، ولا يزول تذكراها، أما حرارته في حديثه فهي حرارة غريبة صادقة يمتاز بها سكان الجنوب من بلاد أوروبا، وهي حرارة كلها وطنية صادقة واحساسات عالية،

ونشرت جريدة (النيويورك هرالد) الأمريكية الشهيرة حديثاً آخر له عن المسألة المصرية والمسألة الشرقية سأله فيه المكاتب — ماهي إحساسات المصريين نحو الإنجليز؟ فأجاب المترجم: «إن جميع المصريين كارهون للاحتلال الإنجليزي وهم يعتقدون اليوم أن غاية السياسة البريطانية امتلاك كل وادي النيل، ولذلك نزعوا الآن ما كان لديهم من الثقة في وعود الإنجليز، وبالاختصار فقد تعلمنا أن نعتقد بأن لاشرف ولا ذمة في السياسة،

وسأله المكاتب:

— ماهي رغائب الوطنيين المصريين أو الحزب الوطني في مصر؟ فقال: إن الحزب الوطني في مصر هو عبارة عن الأمة بأسرها تجاه الاحتلال، فرغائبه هي رغائبها، وأهم هذه الرغائب تحقيق الجلاء عن مصر من غير إحداث اضطراب أو أمر من شأنه تكدير الأمن العام،

ثم سأله المكاتب:

— لماذا يرغب المصريون في الجلاء والإنجليز يشيعون أنكم في أرغد عيش تحت سلطتهم؟ فقال:

«إننا نعمل للجلاء أو تحرير وطننا أولاً لأننا نشعر بواجباتنا وحقوقنا، ونعتقد أن من واجباتنا القيام بهذا العمل الشريف، وأن فينا من الحياة ما يكفي لتمتعنا بكل حقوقنا، أما ما يشيعه الإنجليز من أننا سعداء تحت سلطتهم فهذا كذب محض يدحضه البرهان، إذ الحقيقة أن المحتلين فرقوا مصر أحزاباً حساً ومعنى،

أحدث هذان الحديثان تأثيراً كبيراً في المحيط السياسي، وذاع اسم الفقيد في

أوروبا كزعيم لحركة الاستقلال المصري ، وجاءته كتب كثيرة من مختلف النواحي والشخصيات البارزة إعجاباً بجهاده ، وتقديراً لفضله ، فمن ذلك ما بعث به إليه الدكتور هفان زنيفر رئيس حزب الشمال بالبرلمان الألماني إذ قال في كتابه إليه (١٨ نوفمبر سنة ١٨٩٦) :

« سيدى

« انى قرأت أعمالك الأخيرة وتبعت كل خطواتك السياسية دفاعاً عن بلدك العزيز ، فوجدتها لم تصدر إلا عن وطني مخلص ذكى نشيط ، فأهنتك هذه المسكينة التي تدهش كل من وقف عليها وعرف أن سنك هي سنك (كانت سن الفقيد وقتئذ اثنين وعشرين عاماً) ، وانى أوافقك على وجوب جلاء الانجليز عن مصر ، لا لأن الألمان يكرهونهم كما يشاع عنا لاحقاً ، ولكن لتحقيق مسألة التوازن الدولي العام ولمصلحة قناة السويس بل لمصلحة انجلترا نفسها

« انا مستعدون لمساعدتكم متى كنتم عقلاء ، فادأبوا على الدفاع من سيده الشرعية فكل من سار على الدرب وصل ، وتقبل ياسيدى خالص احترام

الصادق المخلص

هـ . زنيفر

وكتب إليه كذلك المسيو كافي فورشلا النائب الايطالى المتطرف الشهير كتاباً هذا تعريبه :

« ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٦

« أيها المصري المحترم

« إنك بأعمالك تلفت من جديد نظر العالم إلى تاريخ مصر القديم والجديد ، وتعيد ذكرى الفراعنة الذين حملوا قبل بنى البشر تاج العلم ودخلوا اجنة الصناعة . إنك لا تقل فى نظرى عن أوروبى ذى رأس كبير محنك ، وربما فضلت عليه بنشاطك الفائق الذى لا يقل عن نشاط البخار ، فمن باريس نسمعك وكذلك من برلين وفيينا والاسنانة نسمعك يذكرك بلادك ، حتى خيل إلينا أن العالم كله معك نعم إن العالم كله معك لأن مسألة مصر

هي مسألة العالم كله ، وخصوصاً مسألة إيطاليا التي اعتمد ملوككم الحديثون على
أبنائها في الرسم والبناء وتنظيم الجند والبوليس

و فلا تحرم إيطاليا زيارتك ، فان الأحرار يحبون على الدوام رؤية الأحرار
من أي جنس كانوا ، واعتقد أيها الوطني الغيور أن أبناء إيطاليا الذين درسوا
الوطنية على جريبالدي وكافور ومازيني لني أتم استعداد لمعاورتكم على حل مسألة
مصر ، إن لم يكن اليوم فغداً ، وليس الغد بعيد ، وتقبل عظيم اخلاصي

ك . فورستال

وكتبت جريدة (الاندبندنس بلج) البلجيكية الشهيرة فصلاً مطولاً بعددها
الصادر في ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦ عن المسألة المصرية لمناسبة زيارة المترجم للاستانة
أيدت فيها مطالب المصريين في الجلاء

عودته الى مصر

نوفمبر سنة ١٨٩٦

مكث المترجم بالاستانة حتى ١١ نوفمبر سنة ١٨٩٦ ثم برحها عائداً إلى مصر
فوصل العاصمة يوم ١٥ نوفمبر (١) ، فاستقبله الجُم الغفير من أصدقائه والمعجبين
بجهاده على المحطة مهنيين اياه بسلامة الوصول ، شاكرين له حسن بلائه في الدفاع
عن قضية الوطن

مكيدة المترجم

الشروع في تجنيده

كانت أنباء جهاد المترجم في أوروبا ترد تباعاً إلى مصر وتُنشر الصحف خلاصتها
فيغتنبها المصريون ، أما الاحتلال وصنائه فكانوا ينقمون منه رفع صوته في

(١) المؤيد عدد ١٦ نوفمبر سنة ١٨٩٦

أوروبا ضد السياسة البريطانية ، وقد دبروا له في غيبته مكيدة حاولوا بها إسكات
صوته ، ذلك أنهم أوعزوا إلى مجلس قرعة القاهرة بطلبه للتجنيد في غيابه ، وكان
يبلغ وقتئذ الثانية والعشرين من عمره ، وطلب المجلس من مأمور قسم الخليفة الذي
كان المترجم يقيم في دائرة اختصاصه تبليغ اعلان الاقتراع لأحد أفراد بيته ، حتى
إذا مضت ثلاثة أشهر على هذا الاعلان دون معارضة يكون اقتراع المترجم واجباً ،
وقد سلم المأمور الاعلان إلى شيخ الحارة الذي كان منزل المترجم في دائرة عمله ،
وذهب هذا إلى منزله فعلم أنه غائب في أوروبا (وكان يحمل أمر المكيدة) ، فأثر
أن يستبقى الاعلان لديه حتى يسلمه إلى صاحب الشأن عند عودته من أوروبا . ولما
عاد إلى مصر تسلم اعلاننا من القسم بأن يذهب إلى مجلس القرعة بحجة أنه أصبح
مفروضاً عليه الاقتراع اذ لم يبد معارضة بعد الاعلان الأول ، فلما فطن للمكيدة
دعا شيخ الحارة واسمه الشيخ محمد زيدان واستكتبه إقراراً بأنه لم يسلم الاعلان
الأول إلى أحد من ذويه . ثم دعاه رئيس مجلس القرعة ، فصارحه بأن لا حق لهم
في اقتراعه لأنه من حملة الشهادات العليا فضلاً عن استعداده لدفع البديل العسكرى
فلم يقتنع رئيس المجلس وكتب إلى وزارة الحربية ، وهذه كتبت إلى المحافظة لتجنيد
بحجة أنه لم يبد معارضة في اقتراعه في الميعاد ، فأبرز شهادة شيخ الحارة التي كانت
القول الفصل في عدم اتباع الاجراءات التي يقضى بها قانون القرعة

كان لهذه الحادثة ضجة كبيرة في مصر ، وترامت أنباؤها إلى الدوائر الأوروبية ،
فأرسل مكاتب شركة هافاس تلغرافاً مفصلاً عنها إلى مركز الشركة في باريس
هذا تعريه :

« إن المحتلين يريدون تجنيد مصطفي كامل ، السياسي الشهير مع أن قوانين البلاد
تستثنى من القرعة حاملي شهادة الحقوق والقادرين على دفع البديل العسكرى ، وهو متمتع
بالصفتين ، وإن ما ينتحلونه من أعذار كاعلانه في غيابه واتمام الاجراءات القانونية
ليس بصحيح ، وإنى أؤكد للرأى العام الاوروبى أن هذه المسألة لو تمت على رغبة
الانجليز لاثارت في مصر حركة تكون نتيجتها وبالاعلى مصالح دول أوروبا ،
لان هذا الرجل من أكبر زعماء الحزب الوطنى الذين وقفوا أنفسهم لتحرير مصر

واخوانه في هذا العهد أقوياء ، وغداً سيقابل محافظ العاصمة الذي شدد في طلبه ليرافع أمامه في قضيته بل في قضية مصر الوطنية بأسرها ،
وظهرت جريدة (الجورنال اجبسيان) في صباح اليوم التالي مصدرة بمقالة في هذا الموضوع ، حذرت فيها الحكومة والاحتلال مغبة هذا العمل ، وقد تراجعت الحكومة أمام هذه الفضيحة ، وقابل الفقيد المحافظ وأزمه الحجج وأثبت نه بشهادة (شيخ الحارة) عدم صحة إعلانه في غيابه ، فانتهد الحادثة بالعدول عن اقتراح الفقيد ، وكان للشيخ محمد زايد شيخ الحارة الفضل الكبير في إحباط مكيدة الحكومة .

الفصل السادس

جهاده سنة ١٨٩٧

مرضه ثم إبلاله

أنهك المترجم نفسه في الجهاد خلال سنة ١٨٩٦ ، فاستقبل عام ١٨٩٧ وهو على فراش المرض ، من كثرة أعماله ورحلاته ، وقد أبل من مرضه في منتصف يناير من تلك السنة ، فوصف له الأطباء مدينة حلوان التماسا للراحة وتبديلا للهواء ، فقضى بها مدة أسبوعين استجم فيهما صحته ، وما ان عادت إليه قواه حتى عاد إلى ميدان الجهاد والنضال

ندائه الى ألمانيا

فقد وجه نداء مؤثرا إلى الأمة الألمانية بتاريخ ٢٧ يناير سنة ١٨٩٧ نشرته جريدة (برلينر تاجبلاط) من كبريات صحف ألمانيا ولسان حال وزارة الخارجية الألمانية ، شرح فيه القضية المصرية وطلب إلى ألمانيا أن تخرج من حيدتها وتناصر مصر في نضالها ، وعلقت عليه الجريدة بقولها :

إن هذه الدعوة الصادرة عن مصرى وطنى غيور ستزيد بلاشك في ميل ألمانيا إلى الأمة المصرية وعطفها عليها ، نعم إن هناك فرقا بين ميل أمة إلى أخرى وبين مساعدتها لها مساعدة فعلية ، ولكن إذا لوحظ أن رجال السياسة البريطانية لا يخشون المجاهرة الآن برغبتهم في امتصام حقوق البوير (سكان الترنسفال) الذين هم أقرب الناس إلينا ، فيفهم جيدا كيف أن مديرى السياسة الألمانية يرون ضرورة طرح المسألة المصرية في ميدان الحل ليفهموا الإنجليز أن في استطاعة ألمانيا القصاص

من يتجاسر على إهانة كرامتها والمساس بشعورها واعتبار مصالحها السياسية وغير السياسية عديمة الأهمية قليلة الاحترام ، ولذلك نعتقد أن دعوة مصطفى كامل للأمة الألمانية جاءت في حينها وصدرت في أحسن وقت سياسي مناسب لها ،

رحلته في أوروبا

مارس سنة ١٨٩٧

واعترم السفر إلى أوروبا في مارس سنة ١٨٩٧ ليطوف أعواصمها ويرفع فيها صوت مصر ، متابعا جهاده في سبيلها ، فبرح العاصمة يوم الجمعة ١٢ مارس وأبحر من الإسكندرية في اليوم التالي (١) ، وودعه الكثيرون من أصدقائه وأنصاره ، وكان من بين المودعين أمريكي اسمه المستر (جولديك) جاء خصيصا ليتعرف به لما سمعه عنه من جهاده في سبيل حرية بلاده ، وكان واسطة التعارف بينهما أحد كبار الموظفين الوطنيين بالإسكندرية ، فاتهز الأمريكي فرصة تعرفه به وألقى عليه الأسئلة الآتية :-
أولا - هل لك أن تتكرم على بإجمال السبب الذي دفعك إلى المناداة بحرية مصر
ثانيا - إذا لم تستطيع فرنسا خاصة وأوروبا عامة أن تجبر بريطانيا على الجلاء
فإذا تكون خطتك وخطة مواطنك العاملين

ثالثا - هل لك من حاجة في أمريكا لأقوم بها خدمة لهذا البلد الكبير المظلوم
فأجابه المترجم بإسهاب على أسئلته الثلاثة بما نوجزه فيما يلي (٢) :
قال في رده على السؤال الأول :

« لما كنت مصريا صمما رأيت من واجبي أن أقف قلبي ولساني على الدفاع عن أم حنون لا حياة لنا إلا بوجودها عالية الشأن سامية المقام ، وإنى سأبقى ابنها البار الوفي حتى آخر نفس أردده في هذا العالم ،

(١) ذكرت (الأهرام) ما يلي بعددها الصادر في ١٣ مارس سنة ١٨٩٧ : « سافر اليوم على الباخرة التمسوية حضرة الوطني مصطفى افندي كامل وهو مسافر توا إلى فيينا وسيذهب منها إلى بودابست وبرلين وباريس جريا على خطته في خدمة القطر فترجو له كل نجاح وتوفيق في هذه الخدمة الجليلة »

(٢) نقلا عن كتاب (سيرة مصطفى كامل) لعلي بك فهمي كامل ٣١٧

وقال رداً على السؤال الثاني :

« إننا نبنى نجاحنا في عملنا على أمرين، الأول خارجي وهو انتهاز الحوادث الدولية، والثاني داخلي وهو نشر العلوم والمعارف بين إخواننا المصريين والنشهر بأخطاء الاحتلال الإنجليزي لترقى بالعقول ونبغض الغاصبين إلى القلوب ، وبذلك تقرب الأمة شيئاً فشيئاً من الوطن حتى تلتف حوله وتصير وإياه جسماً واحداً لا قدرة لأية طائفة من الناس أو أية حكومة مهما كانت قوتها أن تعبت بكيانه أو تفصل أجزائه ،

وقال جواباً على السؤال الثالث :

« أشكر لك كثيراً الخدمة التي عرضتها عليّ بأمريكا ، وأمل أن تحلوا تلك العقدة العتيقة التي حرمت العالم صوتكم في المسائل الأوروبية^(١) حتى نسمعكم صوتنا في دياركم بنفس النغمة التي أسمعتم العالم صوتكم يوم كنتم مثلنا ترزحون تحت النير الإنجليزي ، وكذلك أؤمل ألا تشهد السماء مرة أخرى دماء البشر تجري في سبيل الخلاص من ظلم بريطانيا ، وأن يكون الإنجليز أبقى على كرامتهم من أن تلوثها بعد تلك الإيمان والعهود الكبيرة أيدي بعض سياستهم الذين يريدون أن يسطر لهم التاريخ ما ليسوا أهلاً لعشر معشاره ،

فأعجب الأمر يكافئ بهذه الأجوبة السديدة وقال للفقيد : « بارك الله في شعب أنت منه ، وانرق أمه هذه مبادئها وهذا صراطها ، فاعمل ودع غيرك يعمل ، فإن ما أخذ لا يرد التماساً ، ولكن بالصوت العالي والنخوة التي تغلق الظالم في غدوه ورواحه ، واعتقد أن الإنجليز أسهل الأمم في رد الحقوق متى وجدوا من ذوي الإباء والكرامة والشمم ،

قصد المترجم إلى تريستا ومنها إلى فيينا ، ومكث بها سبعة أيام اتصل في خلالها بكبار السياسيين ، والصحفيين ، ومن هناك أرسل إلى مدام جوليت آدم كتاباً قال فيه :

« فيينا في ٢٠ مارس سنة ١٨٩٧

« سيدتي المديرة المبيجلة

« أستميحك الإذن أن أكتب إليك بعد سكوت طويل ، وصلت إلى هنا من

(١) يقصد مبدأ منرو الذي يقضى بعدم التدخل في المسائل الأوروبية

مصر وفي عزمي أن أكون بباريس بعد جولة في بودابست وبرلين - في منتصف شهر ابريل - وليس لدى وقت يسمح لي أن أجادل في حالة وطني العزيز التعسة إلى آخر درجات التعس ، والتي ما كنا نظن أنه واصل اليها ، إن الإنجليز يعملون في وادي النيل كل ما يريدون ، ويرتكبون أفظع الجرائم على الإنسانية والعدل ، ويستخرون أكبر سخيرية من أوروبا ، وعلى الخصوص وأسفاه من فرنسا، لأن خطة فرنسا في هذه الأيام قد دفعت بلا جدال الإنجليز الى ظلمنا ظلماً أشد مما كان ، والذي زاد الطين بلة أن هذه الخطة التي كلها إخفاق وخيبة قد أضعفت عزيمته أشد الناس حباً لبلدكم الجميل الكريم ،

حديثه مع الدكتور رزني

قابل الفقيد أثناء مقامه بفيينا الدكتور (رزني) النائب النمسي والطبيب الشهير ، وحادثه حديثاً نشرته جرائد فيينا وتناقلته شركات البرق الى أنحاء العالم ، وكان الحديث بمثابة أسئلة ألقاها الفقيد على النائب النمسي ، وأجاب عليها النائب في حديثه ، وقد دلت الأسئلة وطريقة القائها على كياسة الفقيد في الدعاية للقضية المصرية وعمق أفكاره وإحاطته بالسياسة العالمية

سأله المترجم : ماذا تكون خطتكم اذا عرضت مسألة مصر على بساط البحث ؟ فأجابه النائب النمسي بما خلاصته ان الكثيرين من زملائه اعضاء البرلمان يميلون الى طرح المسألة المصرية على بساط البحث رغم العلائق الودية التي بين الحكومة النمسية وحكومة الملكة فيكتوريا ، ومتى طرحت نكون في جانب العدل الذي يقضي بحرية مصر ووضعها تحت ضمان الدول اجمع ، لأن اهمية مصر بالنسبة لأوروبا ماثلة في قناة السويس التي تربط مصالح أوروبا بالصناعية بآسيا المحتاجة لصناعتها ، وليس لأوروبا عامة والنساء خاصة طريقة للشرق الاقناة السويس ، وعدا ذلك فانه لا يصح ان تمتلك القناة دولة بحرية لأنها تخيف العالم اجمع وتصبح سيده

عليه تفعل ما تشاء وخصوصاً الدولة الإنجليزية فإنه فضلاً عن كونها أقوى دولة بحرية فإنها كذلك أكبر دول العالم التجارية

وانساق الحديث إلى اشتداد النزاحم بين ألمانيا وانجلترا فسأله الفقيه :

« هل يكون لمصر حظ يذكر عند قيام النزاع بين ألمانيا وانجلترا في يوم من الأيام ؟ »

فأجابه النائب النموي :

« إنى لا أعرف درجة الأمة المصرية من الاستعداد حتى أحكم لها أو عليها، ولسكنى أوكد لك أنها إذا استمرت على ما نسمعه عنها من السير في طريق الاستنارة بضوء العلم واتحادها كتلة واحدة كان لها على كل حال الفوز المأمول سواء حدثت بين الدول حوادث أم لم تحدث ،

وليمة المترجم في فيينا

٢٤ مارس سنة ١٨٩٧

أراد مصطفى أن يسمع صوته أكثر عدد ممكن من رجال السياسة في النمسا ، فأقام وليمة كبرى في فندق (متروبول) مساء الأربعاء ٢٤ مارس سنة ١٨٩٧ ، دعا إليها نيفا وثمانين مدعوا من النواب والصحفيين ، ومنهم الدكتور رزق المتقدم ذكره ، وبعد أن تناولوا العشاء وقف الداعي وألقى فيهم الخطبة الآتية :

« إن مصر أيها السادة تشكر لكم من صميم أفئدة أبنائها إجابتم دعوة مصرى منهم جاء بلادكم العزيزة أكثر من مرة واتصل برجالكم المعدودين الذين أتم من صفوتهم سائلا بكل إلحاح وحق نصرة مسألتنا التي تنحصر في كلمتين « احتلال مؤقت لا يمكث إلا ستة أشهر وله اليوم خمسة عشر عاما أى ثلاثون ستة أشهر ، ، إذا كان أيها السادة جبل الكذب طويلا فلا بد أن يكون لهذا الطول حد ، وإذا كان الكذب شعار المتمدنين فماذا يكون شعار المتوحشين المتعصبين كما يهمننا الإنجليز ، إن لي الحق أيها السادة إذا قلت إن العصر الحاضر عصر ظلم واقنيات على الحقوق

لا عصر عدل وإنصاف ورد الحقوق إلى أهلها ، إن المصريين مشهورون من قديم الزمان بالدعوة والاعتدال ، ولهم مآثر على العالم أجمع إن أنكرها الإنجليز فلا ينكرها التاريخ الذي هو عدل شاهد يحكم بيننا وبين أمة ظلمت رايتها التي أقسمت بشرفها ، والتأج الذي يجب احترامه ، فقد متهما ضمانا على صدقها عندما دخلت بلادنا و وعدت بالجلاء عنها عندما يتوطد عرش الخديوية ويستتب الأمن ، فها هو ذا الأمن مستتب والأمة بأسرها ملتفة حول أميرها ، إنى لا أطيل شرح عيوب الاحتلال فقد شرحت ذلك مرارا ، ولكننى أسأل ضمائكم الحرة أن تكونوا أصوات عدل فى المسألة المصرية ، فإننا نعرف على الدوام بالجميل لمن يؤيدنا ، كما تجدون منا إلى أبد الأبدى أصدقاء أوفياء يذكرونكم بكل خير ويمجدون فيكم تلك الروح الشريفة التى أودعتموها نفس أمير مصر (١) ، ألا وهى روح الحرية واحترام إرادة الشعب ، وفى الختام أكرر لكم بلسان الوطن والأمة عظيم الشكر على الود الذى أظهرتموه نحونا لتكون مصر للمصريين ،

وقد رد عليه المسيو رزق بخطبة كلها عطف وتأييد للقضية المصرية ختمها بالتأمين على كلمات المترجم ، وأمل لمصر مستقبلا عظيما

رحلته الى بودابست

مارس وأبريل سنة ١٨٩٧

سافر المترجم من فيينا إلى بودابست عاصمة المجر يوم الجمعة ٢٦ مارس وودعه على المحطة جميع أصدقائه ومعارفه النمسيين ممن ضمهم إلى صف المسألة المصرية ، وما إن وصل إلى بودابست حتى وجد فى انتظاره أفراد عائلة كبيرة من العائلات المجرية النبيلة ، وهى عائلة الكونت (كرونزوت) ، وكانت مدام جوليت آدم واسطة التعارف بينهما ، فلما نزل بالفندق استضافته هذه العائلة فى دارها بضواحي بودابست ، وعرفته بعدد كبير من خاصة عائلات المجر وأشرفها ونبلائها ، فأتصل بكثير من السياسيين والصحفيين فى هذه العاصمة الكبيرة ، وأوجد بها جواً من التأييد والحب لمصر ، وقد أعجب بوطنية الأمة المجرية التى يضرب بها الأمثال فى

(١) يشير بذلك إلى أن الخديو عباس تلقى علومه فى النمسا

قوة العقيدة والثبات في الجهاد ورحبت الصحف بمقدمه وحبته بكل مظاهر الحفاوة والتكريم ، ومجدت في شخصيته الوطنية المصرية

في برلين

أبريل سنة ١٨٩٧

ثم سافر إلى برلين في ٥ أبريل سنة ١٨٩٧ ، وأقابل بها لفيقا من الصحفيين والسياسيين ممن تعرف بهم من قبل أو عرفهم في هذه المرة ودار بينه وبين جريدة (برلنر تاجبلاط) الشهيرة في ٧ أبريل حديث عن شؤون مصر إذ سأله المكاتب عن الحالة السياسية الحقيقية في مصر

فأجابه المترجم : « إنها حالة فوضى عامة في إدارة البلاد وقلق شديد في نفوس الشعب المصري ، فقد أصبح بين المصريين وحكومتهم — كما يوجد بينهم وبين الإنجليز — هاوية عميقة جدا ، فإن حكومة بلادنا — ورجالها من صنائع الإنجليز — تعمل في مصر كل ما ينافي رغبة الأمة ، فأكثر من مرة طلب مجلس شورى القوانين وهو الهيئة النيابية في مصر إجراء إصلاحات في الإدارة والتعليم ، والحكومة بدلا من أن تدعن لرغبة الشعب كجميع الحكومات المتمدنة كانت تقابل المجلس باللوم وبكل خشونة وتجري ضدرغائبه ومطالبه ، والعامل المؤثر في ذلك معاضدة الإنجليز ، فأصبحت الأمة المصرية اليوم لا تحترم حكومتها ،

وأفاض في دسائس السياسة الإنجليزية منذ الثورة العرابية إلى ما بعد الاحتلال ، وكانت الحرب التركية اليونانية قائمة في ذلك الحين وجرى اكتتاب للجيش العثماني في مصر ، فسأله المكاتب في ذلك فقال :

« إنه وإن كان المصري لا يعرف إلا وطننا واحدا وهو مصر فمن الأمور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون دولة الخلافة ويظهروا بذلك امتنانهم لها لأنها لم ترد أن تكون آلة في يد الإنجليز ،

وشرح هذه الفكرة بإسهاب في مقالة نشرتها له جريدة (برلنر بوست نخرختن)

الألمانية قال فيها : « إن أهم معنى سياسى لا يكتب المصريين لإعانة الجيش العثمانى هو القيام بمظاهرة من الأمة بأسرها ضد الاحتلال الانجليزى ، فإن المصريين يعلمون علم اليقين أن كل دسائس إنجلترا فى الشرق ترمى إلى امتلاك وادى النيل ، وأن الإنجليز لما لم يستطيعوا استمالة السلطان إليهم ضد مصر والحديو ، أخذوا يعملون لتقسيم الدولة العثمانية آمليين أخذ مصر وبلاد العرب وإعلان سيطرتهم على الإسلام كله ، وسواس أوروبا لا يجهلون مطلقا أنه يصبح من العسير علينا حل المسألة المصرية إذا اتفقت تركيا مع الإنجليز على احتلالهم وادى النيل ،

فى باريس

ثم ذهب إلى باريس فى ابريل سنة ١٨٩٧ . فألقى فى صحافتها حركة معادية لمصر بمناسبة الحرب بين تركيا واليونان ، وذلك على أثر مقالة نشرتها جريدة (الاجيشيان جازيت) ونقلتها عنها جريدة (الليرتية) كلها طعن فى الفقيه وفى الحزب الوطنى ، وقد عزت إليه وإلى سائر أعضاء حزبه السعى فى إثارة الخواطر فى مصر ضد الأوروبيين والتحريض على إحداث ثورة

فبادر إلى إحباط هذه الحركة بكتاب نشره فى جريدة الليرتية ذاتها ، كذب فيه مزاعم الاجيشيان جازيت ، ونفى عن المصريين تهمة التحريض على إحداث قلاقل واضطرابات ضد الأوروبيين ، وقد علقته جريدة الليرتية على هذا الكتاب بقولها :

« نشرنا هذه الكتاب ليقف قراؤنا على الحقيقة التى شوهاها الإنجليز والتى تنطق بها كلمات هذا الوطنى المضرى الكبير الذى نرحب به ونفسح صحائف جريدتنا له ولسكل غيور على الحق الذى نحن من أنصاره ،

عودته الى مصر

ثم عاد إلى مصر يوم ١٢ مايو سنة ١٨٩٧ ووافقت عودته يوم عيد الأضحى وانتصار الجنود العثمانية فى الحرب اليونانية

اقتراحه على تركيا

اشترط الجلاء عن مصر مقابل الجلاء عن اليونان

وقد أرسل إلى باشكاتب المابين السلطاني تلغرافا بالنهنته بعيد الأضحى وبانتصار الجيش العثماني ، وأعرب فيه عن رجائه أن يشترط السلطان على دول أوروبا لعقد الصلح بجلاء الإنجليز عن مصر ، مقابل جلاء الجيش العثماني عن بلاد اليونان ، وقد كان هذا الاقتراح آية في الوطنية ، إذ دل على أن قضية استقلال مصر كانت تشغل فؤاده طول حياته ، وقد هاج اليونانيون القاطنون بمصر لهذا التلغراف ، وكتبت جريدة (الفارد الكسندرى) اليونانية ، تعليقا عليه اتهمت فيه الفقييد بكرهية الشديدة لليونان ، واستندت إلى أنه يطلب من السلطان بقاء الجنود التركية في تساليا ما دام الانجليز في مصر ، فأرسل إلى جريدة (الفارد الكسندرى) ردأ على مقالها كتابا بتاريخ ١٦ مايو سنة ١٨٩٧ نشرته جريدة (الريفورم) دافع فيه عن موقفه وتساءل لماذا تدخل أوروبا في المشكلة التركية اليونانية ولا تتدخل في المسألة المصرية؟ وقال إن الدول الأوروبية التي تريد أن تجبر تركيا على احترام رغبتها وسحب جنودها من بلاد اليونان يجب عليها أيضا أن تجبر إنجلترا على الجلاء عن مصر ، وعقب على ذلك بقوله مخاطبا مدير جريدة الفارد الكسندرى (وهو من كبار اليونانيين) قائلا : « هذا هو رأى وهذا هو فكرى ، ولعله لا يرضيك ، ولعلك يا حضرة المدير لا توافق على آرائنا وأفكارنا ، ولكن يجب عليك أن تحترمها كما أننا نحترم إحساساتك وآراءك . فانت ترى الأشياء من وجهة المصلحة اليونانية ، وأنا أراها من ناحية المصلحة المصرية ، ومن العدل أن يكون كل منا لوطنه ، لا لغير وطنه ،

خطبته بالإسكندرية

٨ يونيو سنة ١٨٩٧

وقد رأى من الصحف الأوروبية المحلية حملة شعواء على الأمة المصرية لما أبدته من العطف على تركيا في الحرب اليونانية ، فاعتزم القيام بخطبة في الإسكندرية

دفاعا عن موقف الأمة من هذه المسئلة وتوضيحا لعلاقة مصر بتركيا

ألقى هذه الخطبة يوم ٨ يونيه سنة ١٨٩٧^(١) بمسرح زينيسا في اجتماع حافل حضره ألقان من صفوة القوم من الاسكندرية والأقاليم ، وبعض النزلاء الأجانب ، وقوبل أثناء خطبته وبعد انتهائها بالتصفيق والتهتاف ، وكان موضوع الخطبة حث المصريين على التواصى بالوطنية والاخلاص لمصر ، ومحاربة اليأس ، واستثارة روح الكرامة والإباء في نفوسهم ، ودعا إلى البذل والتضحية في سبيل مصر ، وحض على دوام الاتحاد بين المسلمين والأقباط ، وحبب إلى الشباب الإقبال على الحياة الحرة ، والإعراض عن الوظائف ، وأهاب بسرارة البلاد وأعيانها أن يبذلوا من أموالهم وجهودهم لنشر التعليم القومي في أرجاء مصر ، ونفى تهمة التعصب الديني الذي نسبه خصوم مصر إلى المصريين بسبب أكتسابهم للجيش العثماني في الحرب اليونانية التركية ، وسوغ موقف مصر نحو تركيا قائلا :

« إن مظاهرة الأمة المصرية نحو الدولة العلية هي مظاهرة قوية ضد الاحتلال الانجليزي ، واشترك أفراد الأمة على اختلافهم في الاكتاب للجيش العثماني هو اقتراح عام ضد الانجليز في مصر ،

الى أن قال :

« نحن نسأل الذين ينتقدون اكتابنا للدولة العلية لماذا غير الانجائز سياستهم نحو تركيا من سنة ١٨٩٣ ، لماذا قاموا من ذلك الحين ضدها بعد أن كانوا يعلنون للبلا كلهم أنهم أصدقاؤها وأحباء السلطان ؟ أليس ذلك لأن السلطان لم يرض العمل معهم ضد مصر وضد أميرها ؟ أليس لأنه قدر آمال المصريين ورغائبهم حق قدرها ؟ هبوا أن لا علاقة بين مصر والدولة العلية غير العلائق العادية بين الأمم ، أليس من واجباتنا الوطنية أن نعترف بالجميل لدولة رفضت القضاء على حياتنا ومساعدة أعدائنا ضدها ؟ ثم ضرب مثلا بصداقة الأمة المجرية للأتراك وحبها إياهم لمجرد إيواء تركيا أحرار المجر في بلادها

(١) المؤيد عدد ٩ يونيه سنة ١٨٩٧

وبعد أن انتهى الخطيب من خطبته اقترح على الحاضرين إصدار قرار بالاحتجاج على الاحتلال الإنجليزي أشد الاحتجاج وبالإعراب للنزلاء الأجانب عن عواطفهم الودية نحوهم وأنهم لا يرغبون إلا أن يعيشوا معهم في سلام ، ويسألون سلطان تركيا أن يطلب من الدول الأوروبية الاتفاق على حل المسألة المصرية وتحقيق حرية مصر واستقلالها ، فوافق الحاضرون بالاجماع على هذا القرار

وقد كانت هذه الخطبة فوزاً كبيراً للفقيد ، وأسهمت الصحف الوطنية والأوروبية في وصف الاجتماع ، وطيرت الشركات البرقية نبأ الخطبة إلى الخارج ، قالت جريدة (الفار دالكسندري) في هذا الصدد ما يأتي : « قد اندفع الناس أفراداً وجماعات لسماع الخطبة التي ألقاها حضرة الفاضل مصطفى افندي كامل في مسرح زيزنيا عن المسألة المصرية ، فكنت ترى هذا الملهى الجميل السكائن بشارع باب شرقى يموج بالآهالى من لابسى الطرابيش وحملة العمام مزدهمين فى المقاعد والألواج أو وقوا على الأقدام . جائلين بين المنافذ والأبواب ، حتى كان الزحام شديداً ، فلم يدخل منه مدخل التياترو ، وعند الساعة التاسعة مساء حضر مصطفى افندي كامل ووقف على المسرح ، فقوبل بتصفيق شديد ، وقدمت له عدة باقات من الأزهار ، وشاهدنا على الأخص باقة من الزهور بديعة الشكل تدل على حسن ذوق صانعيها ، قدمت له باسم أهل الإسكندرية ، ثم افتتح الخطيب موضوعه وظل يخطب ساعة ونصفاً بين تصفيق شديد كان يدوى فى نهاية كل جملة ، وكان التصفيق يمتد فى بعض الأحيان حتى يضطر الخطيب إلى الانقطاع عن الكلام ، أما صوته فحسن جهورى ، ذورنة قوية ، لذلك كان يسمع من كل أرجاء الملهى ، حتى أن كل من فى هذا الجمع العظيم على كثرته استطاع أن يرمى كل أقوال الخطيب التى كان يلقيها بعبارة فصيحة خالية من شوائب التعقيد ، ثم أتت الجريدة على خلاصة الخطبة وكتبت جريدة (الوطن)^(١) تحت عنوان (الخطباء فى مصر) مقالة طويلة جاء فيها : « وقد انشرح كل من سمع خطاب حضرة الوطنى الماهر مصطفى افندي كامل

(١) لصاحبها المرحوم ميخائيل عبد السيد . عدد ١١ يونيه سنة ١٨٩٧

لأنه ظهر في المصريين من هو مقتدر على الإعراب عن نوايا الأمة المصرية بالاعتدال والرزانة والحض على مكارم الاخلاق والحث على المحبة والمسالمة ، ونقلت قول الفقيه : « إن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد »

وقال المؤيد تعليقا على تقرير الوطن : « قد نشرنا أيضا ما كتبه جريدة الوطن الغراء في هذا الصدد ، وهو ليس من قبيل تقرير الخطيب بل هو إعراب حق عن حكم عقلاء الأقباط على تلك الخطبة الوطنية »

وكتب الفقيه إلى مدام جوليت آدم يصف النجاح الذي لقيه في هذا الاجتماع ويدافع عن خطته وخطة الحركة الوطنية حيال تركيا ، قال :

« الإسكندرية في ١٢ يونيو سنة ١٨٩٧ »

« سيدتي المديرية المبهجة »

« لا بد أن تكون تلغرافات هافاس قد أنبأتك بهذه المظاهرة الوطنية الكبرى التي كانت يوم الثلاثاء الماضي والتي ما كنت أنتظر وقوعها من مواطني لعظيم جلالها ، ذلك أنه لم تكذ الصحف نعلن عن الخطبة التي أقيمتها حتى جاءت الوفود من أنحاء الأقاليم للاشتراك في هذه المظاهرة التي حضرها أكثر من ألفي مصري ، وقد وافقوا بكل سرور ، وهم محقون في هذه الموافقة ، على ما عرضته عليهم أخيراً من عدم الرضا بالاحتلال وطلب الجلاء ، وإن الأوروبيين حتى اليونانيين منهم لم يراجعوا إلى تلك المظاهرة وهذا القرار ، أنك تعلين خطتي نحو تركيا ، وما أراه واجبا نحوها ، فقد أفصحت عن ذلك في خطبتي ، واعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأنه من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلاقات مع تركيا مادام الإنجليز محتلين وطننا العزيز »

« واني لا أرتاب في أن حياة الأمة المصرية النضرة التي تجلت للعيان ستملوك سروراً ، ولذلك كتبت اليك هذه الكلمة ، وأنا أومل أن تتفضلني بإفراد مقالة في المجلة أو في غيرها للوطنية المصرية ، »

سفره الى أوروبا

يونيه سنة ١٨٩٧

ثم سافر من الإسكندرية يوم ٢٦ يونيه إلى أوروبا ليواصل جهاده بها ، فوصل إلى الاستانة يوم ٢٩ يونيه ، ونزل بفندق (سمر بالاس) بترابيا على البوسفور ، وقصد إليه كثيرون من رجال السياسة الأورويين ، وفي مقدمتهم مراسلو الصحف الأوروية والإنجليزية ، وأخذوا يستوضحون آراءه في المسألة المصرية ، وبعد أن قضى أسبوعا في الاستانة سافر إلى بودابست فواصلها في ٧ يوليه ، ورحبت به صحفها أحسن ترحيب

ذكرى ضرب الاسكندرية

وقد صادف وجوده بها ذكرى ضرب الاسكندرية بمدافع الاسطول الانجليزي (١١ يوليه سنة ١٨٨٢) ، فأرسل تلغراف احتجاج على الاحتلال إلى اللورد سلسيري رئيس الوزارة البريطانية في ذلك الحين ، قال فيه :

« بودابست في ١١ يوليه سنة ١٨٩٧ »

« جناب رئيس الوزارة الإنجليزية »

« إنى في هذا اليوم ١١ يوليه الذى هو التذكار الخامس عشر لضرب الاسكندرية أرى من الواجب على تذكير جنابكم بالوعود التى قدمت باسم التساج الإنجليزي والشرف البريطانى للجلاء عن وطننا ، وإذ كانت مصر محتملة ظلها وعدوانا ضد رغبتها وضد مصالحها الحيوية فهى تعتبر يوم ١١ يوليه هذا تذكار حديد لها وتذكار عار لانجلترا ، وما دام الاحتلال الانجليزي باقيا فهذا العار يحمله كل فرد من الانجليز أمام المدنية والتاريخ والعالم أجمع ،

مصطفى كامل^(١)

(١) المؤيد عدد ١٩ يوليه سنة ١٨٩٧

وقد أبلغ نص هذا التلغراف إلى الصحف المصرية ، مع شرح وإيضاح للسألة المصرية ، وكتبت الفصول الإضافية دفاعاً عن مصر وتعريفاً بشأنها في العالم كتبت جريدة (بسترلويد) في هذا الصدد :

« إننا نحن المصريين الذين توارثنا في دمائنا أبناء عن آباء حب الوطن وتمجيد الوطنية لنعطف بكل جوارحنا على مطالب المصريين ، ونهنتهم بوجود رجال بينهم مثل (مصطفى كامل) الذي نسميه بحق (كوشوت مصر) ، ونسأل دول أوروبا كافة أن تؤازر المصريين مؤازرة فعلية بإجبار الإنجليز على الجلاء عن مصر وتركها لأهلها ، لأنه من العار أن تظهر أوروبا المتمدنة مظهر الكاذب في سياستها أمام الشرق إن مركز مصر ليس كمركز أي بلد شرقي آخر ، فهي مصدر فوائد كثيرة للعالم ، ولها مزايا فوق كل مزايا أخرى ،

وقالت جريدة (ماجيانوك لاجا) :

« إننا نرحب بعمل مصطفى كامل صديق المجر ترحيب الوطني بالوطني ، ونقول للإنجليز إنكم تحسنون كثيراً إلى أنفسكم بالجلاء عن مصر قبل أن توغروا صدور الدول عليكم إذا استرسلتم في البقاء فيها ، وإن بلداً مركزه كمصر لا يصح أن يكون في يد دولة واحدة ، وأملنا كبير في أن مصلحة الدول المشتركة في مصر تحمل الحكومة الإنجليزية على الوفاء بوعودها ، وإننا نعتقد أنه مهما طال الزمن على هذا الاحتلال المضرب بالعالم أجمع فلا بد من جلائه يوماً من الأيام ، ولذلك لا يصح أن يئأس المصريون من تحرير بلادهم ، ما دام فيهم مثل (مصطفى كامل) الوطني المشتعل وطينة وحباً لبلاد الفراغة العظيمة ،

وكذلك كتبت الصحف النمساوية تؤيد مطالب المصريين

صدي جهاده في أمريكا

تردد صدي جهاد الفقيد في الصحف الأمريكية ، فنشرت جريدة (نيويورك هزالد) رسالة للمسيو سيمون المعروف بمبادئه الديمقراطية قال فيها :

« إن العالم المتمدن يسمع في هذه السنين الأخيرة صوتاً رناناً وطنياً من الشرق ، وهو صوت سليل الفراعنة (مصطفى كامل) ، هذا الصوت الذي أسمع به بكل انشراح وأقرؤه بكل إمعان ، وبما يدهش أن الصحافة الأوروبية عامة والانجليزية خاصة لا تعبر هذا النداء الحق ما يستحقه من التشجيع ، بل بالعكس نرى أكثرها يتهمه شخصياً بمآرب غير وطنية ، وقد أردت بما أكتبه في جريدتكم المحترمة أن أكون أحد المشجعين لهذا الوطني المحبوب ، وأقدم للعالم مناقشة بسيطة في المسألة المصرية ، يقول مصطفى كامل إنه مصري ، ونحن لا ننكر عليه ذلك ، ويقول إنه يدافع عن بلاده طالباً وفاء الانجليز بعودهم سائلاً وأوروباً أن تساعد على تحقيق أماني مواطنيه ، ونحن يازاء هذا القول يجب علينا أن نقول (إنك صادق في دعواك ولا نسألك إلا انتظاراً) ، لأن انجلترا بمهارتها تخلق كل يوم ما يبعد عنها المناقشة في المسألة المصرية التي ليست في الحقيقة إلا مسألة الهند أولاً ومسألة الشرق ثانياً ، فهذا الطريق أو بعبارة أخرى قناة السويس لم تحفر لتسكون وفقاً على الانجليز ، بل لتسكون طريق رحمة تجارية للعالم كله

« خلقت انجلترا مسألة الترنسفال لتشغل ألمانيا ، وخلقت مسألة الأرمن واليونان لتشغل تركيا ، كما تسعى لحفر بئر للروسيا في الشرق الأقصى ، وكل هذه المسائل تعطل كثيراً عرض مسألة مصر على بساط البحث وإعطاها حقها بين الأمم الحرة التي تتقلب في نعيم بينما هي تعاني آلاماً جساماً

« إن مصطفى كامل قائد حركة وطنية في مصر ، فبقدر سرعة هذه الحركة من العلم والعرفان وتمثيل حالي الوطن للناشئين (حالة الشقاء وحالة الرخاء) تقرب ساعة تحرير ذلك الوطن الجليل

« وإذا سأل الانجليز (مصطفى كامل) أين أسلحة مصر وبواخرها وذهبها لتتغلب أمته على انجلترا وتملك مصر

« فالجواب عندي عن ذلك : أن بواخر مصر هي نبلها ، وأسلحتها إرادة أبنائها ، وذهبها جمال وضعها ، فليخذ أبنائها فوق هذه الأزايا من العلم دروعاً ، ولينازلوا الانجليز بثبات الساكن الصابر ، فإن قائد السفينة في حاجة لعقل سليم وجسم سليم

ليقود سفينته ، وإلا فهي بغيرهما غارقة ، إن الوطن بيننا نحن الأوروبيين الراقيين
عظيم جليل محترم ، مفضل على الحياة والولد والمال ، فما بالنا نحتقره عند غيرنا
ولا نود إلا أن نحتكر العواطف الشريفة لأنفسنا ،

وقد علقت جريدة (نيويورك هرالد) على هذه الرسالة بقولها : « إن غرض
مصطفى كامل شريف ، وقد قدمناه لقرائنا بلسان جريدتنا ، فهو رجل إذا تكلم
أسمع العالم صوته ، ومن عرف أنه ليس بغنى كبير ، ولا وزير حكومة ذات سلطان ،
قال معنا إنه نابغة كمثل عطاء الرجال الذين يهيم التاريخ من حين إلى حين إلى
الأمم المضطهدة المظاومة لهدوها طريق السداد ، وأنه إذا كان المصريون إلى اليوم
في نظر بعض الساسة لا يستحقون ما يبتغونه من سعادة لانحطاط مستواهم العلى
فانا نؤكد من جديد أن مصطفى كامل الذى حادته مراسلتنا بالآستانة فى العام
الماضى لا يقل علماً عن أعظم سياسى من سياسة أمريكا وأوروبا ، ولكن لسوء حظ
مصر جاء فى الزمن الذى بلغ فيه حب الحياة المادية مبالغاً عظيماً فأصبحت المدافع
والمدمرات تستخدم لاغتيال الحقوق لا لنصرة أمة مظلومة على أمة ظالمة ، ولكننا
مع ذلك نقول له ما قاله المسيو سيمون : « إن خطوة إلى الأمام ولو كل قرن فى سبيل
تحرير الوطن خير من لا شئ » ، فليس مصطفى كامل ومواطنوه إلى حيث يجدون
بعون الله « مصر رمسيس » سيدة مهيبة ،

هذا بعض نتائج جهاد مصطفى كامل وصداه فى أوروبا وأمريكا ، ولا شك أن
تعريف أوروبا بمصر الحديثة يرجع أول الفضل فيه إلى جهاده بقلبه ولسانه فى الصحافة
والمحافل الأوروبية ، ومن يقرأ هذه النماذج من أقوال الصحف عن مصر والمسألة
المصرية تعليقاً على دعاية الفقيد يدرك مبلغ الاحترام الذى نالته مصر بفضل هذه
الدعاية الكبيرة التى قام بها ذلك الرجل العظيم

فى فيينا وباريس

مكث المترجم فى مدينة بودابست حتى ٢٣ يولييه سنة ١٨٩٧ ، وسافر منها إلى
فيينا ، وهناك واصل دعايته للقضية المصرية ، ثم برحها إلى باريس ، فجاءها فى أغسطس

وبادر بامداد الصحف والأندية بآرائه في الشؤون المصرية ودفاعه عن قضية مصر،
فبدأ حملته بحديث مستفيض في جريدة (الإكابر) الباريسية حمل فيه على السياسة
الإنجليزية وتصرفاتها في مصر

كان لهذا الحديث صدهاء في النفوس ، فانبرى أحد كبار الكتاب الفرنسيين
وهو المسيو (ادوار فلدتوفل) ينتقد السياسة البريطانية في مقالة نشرها بجريدة
(لايه) تعليقا على حديث مصطفى كامل ، وأيده في آرائه ، وكذلك كتبت جريدة
(الديش كولونيال) مقالة في هذا المعنى

خطبته بباريس

ذكرى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢

ألقى الفقيد بباريس يوم أول سبتمبر سنة ١٨٩٧ خطبة من أقوى خطبه الوطنية
في حفلة أقامها في الفندق النازل به ، دعا إليها المصريين والعثمانيين الذين كانوا وقتئذ
بباريس ، بدأها بالتنويه بانتصار الجيش العثماني في الحرب اليونانية ، ثم عرج بذكرى
١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، وهو يوم دخول الإنجليز القاهرة ، فقال مشيراً إلى هذه
الذكرى مستحثاً المصريين على الجهاد الوطني :

هناك تذكاري آخر أراه قريباً منا وأشخصه أمام عيني مكتوباً بحروف الحداد ،
ألا وهو يوم ١٤ سبتمبر المقبل ، التذكاري الخامس عشر لدخول الإنجليز مدينة
القاهرة عاصمة مصر العسة ، نعم أرى هذا التذكاري وأحس آلاماً شديدة لذكراه ،
آلاماً تتخلج الفؤاد وتزاحم الفرح والسرور ، فالبسوا ثياب الحداد في ذلك اليوم ،
واندبوا حظ بلادكم العسة ، وخففوا من آلامها بالعمل لخدمتها والتفاني في
سبيل خلاصها ،

الدعوة الى الجهاد الوطني

هفن كان وطنه وادي النيل عار عليه أن يسلمه لسواه ، ويعيش حقيراً ذليلاً
غريباً في بلاده ، أجنبياً في ربوعه وربوع آبائه وأجداده ، ولطالما ردد الفلاسفة أن

كلبة الحق تصل إلى آذان الأفراد والأمم وتبلغ أعماق القلوب ولو بعد قرون ،
فنادوا إذن بتحرير الوطن المصرى ، فإن لم يسمع صوتكم اليوم فهو مسموع غداً
بمشيئة الله

• ولا تظنوا أيها الاخوان أنكم تسكرونون أبرياء من إثم ضياع مصر إذا سكتم
عن المطالبة بحقوقها ولم تعملوا لإخراج الأجنبي من ديارها ، فقد يظن الكثيرون
في مصر أن الذى لا يخون وطنه ولا يخدمه ولا يدافع عنه يكون بريئاً من مصائبه
غير مسؤول عن الأخطار التى تساقط عليه ، كلا ! إن الذى يرى النار بعينه ويقف
عند حد المشاهدة فلا يعمل لإطفائها هو شريك فى الإثم لمن سورها ، فكيف بنا
ونحن نرى الأجنبي يعتدى على حياة أمتنا ووطننا ويهتك عرض بلادنا ويسلبنا
أموالنا وحقوقنا ويستذلنا ويحسن للحيوان الأعجم أكثر من إحسانه إلينا ، ألا إن
الحياة الذليلة خير منها الموت ، والموت فى سبيل الحياة الشريفة خير من حياة ذليلة ،

الشباب والشيوخ فى الجهاد

ثم تكلم عن واجب الشباب فى الجهاد الوطنى فقال :

• وإذا كنا معشر الشباب لم نجر على بلادنا هذه المصائب الهمة فلا جرم أننا إذا
أهملنا الأمر كنا الجانين على أبنائنا من بعدنا ، فلقد سلنا آباؤنا مصر وفيها بقية من
حياة ، فهل يليق أن نسلها لأبنائنا ميتة لا حراك فيها ؟ إن مصر كعليل أتم تعرفون
دواءه ، فقد موه لها ولو قُطعت أيديكم بالسيوف ومُزقت أفئدتكم بالخنجر ، ولو
ناجيتهم سرائركم وتزلتم إلى أفئدتكم وتساءتم من المستول عن إحياء مصر ، أمم الشيوخ
أم الشباب ، أم الذين بلغوا غاية العمر وقضوا حياتهم ، أم الذين لهم الشبيبة والقوة
والحياة ونشأوا على مبادئ الوطنية السليمة وتربوا على محبة مصر العزيزة ، ورأوا
غيرهم من أبناء الأمم الحية يضحى فى سبيل بلاده بكل نفيس وعزيز ؟ لا ريب أن
ضمازكم تجيبكم أنكم وحدكم أتم ، أى كل رجال الشبيبة المصرية ، المستولون عن
إحياء مصر ، وكفاكم من الشيوخ رضاؤهم عنكم وعن أعمالكم ،

الإشادة بالوطنية

ثم أشاد بالوطنية ودعا إلى اعتبارها فرضاً على كل مصرى صغيراً كان أو كبيراً
وضرب الأمثلة التاريخية على تعلق الأمم بأوطانها فقال :

« ولا يرين أحدكم نفسه صغيراً فيقول ومن أنا حتى أدافع عن بلادى وأطالب
بحريتها وأسعى لسعادتها ، فذلك فكر خطأ ، فكل مصرى مسئول عن حالة مصر ،
ولكل مصرى الحق في خدمتها ، بل عليه واجب إنهاضها وإعلاء شأنها ، وجميع
المصريين أمام مصر سواء ، وحنانها لكل فرد من أبنائها لا ينقص عن حنانها
للآخرين ، وقد جاءنا التاريخ بالأمثال العديدة على قيام أفراد من آخر طبقات الشعب
بأكبر الأعمال وأشرفها ، وأرانا التاريخ فتاة (هي جان دارك) قد حررت فرنسا
وطنها وأخرجت الانجليز من ربوعه ، وهذا (كوشوت) محرر المجر بدأ صغيراً
لا مقام له في بلاده ولا مكانة ، ولكن وطنيته الطاهرة ، وفؤاده المتقد غيرة على
وطنه ، وخلوه من الغرض الشخصي ، جعلته في تاريخ بلاده وفي تاريخ الأمم رجلاً
من عظماء الرجال ، وقدوة كبيرة في تحرير الأوطان ، والتاريخ مملوء بذكر الرجال
الذين نهضوا من الطبقات الفقيرة إلى أسمى المراتب بوطينتهم الصادقة وإحساساتهم
السامية »

محاربة اليأس

« فاعملوا إذن والأمل ملء قلوبكم ، ولا تياسوا طرفة عين ، بل ليزدد عملكم
بازدياد الخطر ، شأن ذوى النفوس الشريفة والمقاصد العالية »

الوطنية والحياة في أوروبا

« وإني لست في حاجة لأن ألفت أنظاركم إلى ما ترونه في أوروبا من مظاهر
الوطنية الجليلة ، ومن معالم الحياة الحقيقية ، فهذا العمران العظيم ناطق بأبداع بيان
بأنه من ثمار الوطنية ، وكل ما في هذه الديار من عدل ونظام ، وحرية واستقلال ، ونعيم

عظيم ، وملك كبير ، هو ولا ريب من مبتدعات هذا الإحساس الشريف الذي يسوق أفراد أمة بأسرها إلى العمل لغرض مشترك ومطلب واحد ، ولا ريب عندي أنكم كلما دخلتم مدافن عظام الرجال وزرتم قبورهم أعجبتم بهذا الوطنية العالية التي رفعت مقام هؤلاء الرجال وخلدت لهم الذكر الجميل على تعاقب الأجيال ، لا ريب أنكم أعجبتم بهم وغبطتموهم ، فلقد عاشوا كرماء أوفياء لأوطانهم ، وماتوا مشرفين على الأقدار والمقامات ، وبقيت أعمالهم دروساً ومثلاً للأبناء والأعقاب ، ولا ريب أنكم أملت أن يظهر في المصريين كثير من أمثال هؤلاء الرجال ، حتى تبلغ مصر مبلغ تلك البلاد من عزة الكلمة وقوة البطش والسلطان

« ولا جرم أن أنفع درس يحتاج إليه المصري من أوروبا هو الوقوف على قوة الإحساس الوطني في البلاد على اختلافها ، فأهل هذه البلاد على تفرق مشاربهم وأهوائهم يحبون بلادهم حباً شديداً ، ويستقبل الفرد منهم الموت في سبيل خدمة بلاده راضياً مسروراً

« ومن أجل ما ذكره التاريخ عن إحساسات هؤلاء القوم نحو بلادهم أن قائداً فرنسياً أحس عام ١٨١٥ باقتراب منيته حينما هزم نابليون الهزيمة الأخيرة واحتلت عساكر الدول الأوروبية المتحدة أرض فرنسا ، فدعا إليه أحد أصدقائه وقال له : « إن لي عندك أمراً أسألك بجرمة فرنسا أن تؤديه بعد موتى ، فقال له صديقه : « وما ذلك ؟ ، فأجابته القائد : « إذا جلت العساكر الأجنبية عن أرض فرنسا العزيزة فزر قبري وناد بأعلى صوتك : « لقد جلا الأجانب عن بلادنا فم آمناً مطمئناً ، عندئذ تسكن روحي ويتم لي الموت بسلام ، ، هذا مثل صغير يكفى وحده لتعريفكم كيف قامت هذه البلاد وبماذا تقوم

« وإذا كانت فخامة تلك الأمم المتقدمة ورفعة مقامها وحرية أفرادها وسعادة أبنائها أموراً من شأنها أن تنشظنا على العمل لتحرير مصر وإبلاغها بهذا المبلغ البعيد ، فهناك أم أخرى نندرننا بسوء المصير إذا استسلمنا للحتلين ، وأهملنا أشرف واجب علينا في الحياة ، فالهند وراكم ، وإيرلندا أمامكم ، تندر كم حالتهما أثناء الليل وأطراف النهار بالخراب والدمار والمجاعة والعار والموت إذا رضيتم بالذل وسلمت

البلاد للمحتلين ، فحاسبوا أنفسكم واسألوها : أنفضل العار على الشرف ؟ والمذلة
والهوان على العز والرفعة ؟ والموت على الحياة ؟ ،

وقد نشرت الصحف الباريسية مقتطفات من هذه الخطبة العظيمة ، وكان لها
صدى كبير في مصر وأثر عميق في نفوس المصريين ، لما احتوت من آيات الوطنية
الصادقة ، وترجمت عن شعور النفس العالية التي تفيض بهذه المعاني الجليلة

سفره الى برلين ثم عودته الى باريس

وبعد أن كتب الفقيه عدة مقالات في صحف باريس سافر إلى برلين ، وأمد
الصحف الألمانية بقلمه بما يحتاج نشره إلى مجلدات ، ثم عاد إلى باريس ، وعاود الدعاية
للقضية المصرية في الصحف الفرنسية

اعتزازه بمصريته

في هذه الأثناء بعث أحد أنصار الاحتلال إلى الدكتور « شيونفرت » الرحالة
الألماني الشهير بكتاب زعم فيه أن الذين يطالبون بحقوق مصر وفي مقدمتهم مصطفى
كامل ليسوا من صميم المصريين ، وقد كتب العلامة شيونفرت كتابا بهذا المعنى
نشره في جريدة (فوسيشه زيتنغ) الألمانية في ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٩٧

فلم يكذب يطلع عليه المترجم حتى رد عليه لفقوره بالكتاب الآتي تعريبه :

« فيينا في ٥ أكتوبر سنة ١٨٩٧ »

« يا جناب المدير

« اسمح لي أن أرد على ما كتبه مسيو (شيونفرت) في جريدتكم ونشرتموه في
عدد ٣٠ سبتمبر الجاري في شأن الوطنية المصرية ، يدعي مسيو شيونفرت أن
المصريين القائمين بالدعوة إلى الوطنية هم من أصل أجنبي ، وليس لهم بالفلاحين
أدنى علاقة ، وقد تكلم حضرة بأن عدني من رجال الفئة المترفعة عن الأمة ،
البعيدة الأصل عنها ، أي بمن لا يجري في عروقهم الدم المصري الحقيقي ، وهي

دعوى باطلة كل البطلان ، لأن المصريين القائمين بالدعوة الوطنية . العاملين ضد الاحتلال الإنجليزي . الساعين في سبيل تحرير وطنهم مصريون من سلالة المصريين الحقيقيين ، وأغلبهم أبناء الفلاحين ، أما أنا فأفخر وأتشفق بأني ابن ضابط شهم آباؤه فلاحون مصريون ، يظهر إذن جليا أننا لسنا من تلك الفئة الغريبة الأصل عن الفلاحين ، ولسنا كذلك بظلمة الفلاحين في الماضي ، لأنهم إما إخوتنا وإما آباؤنا ، أما اكتابنا للجيش العثماني فها هو إلا ثمرة وطنية يانعة صادقة ، نعم هو ثمرة الوطنية الحقة ، لأننا نعلم علم اليقين أن إنجلترا لا ترمى بكل دسائسها ضد تركيا إلا إلى مصر ، واننا بسرورنا وباحتفالاتنا بالانتصارات التركية نسر ونحتفل بهزيمة السياسة الإنجليزية ، أى بأجمل وأبهى شيء يتمناه كل مصرى وطنى على الدوام ، وإني أختم كتابي للدكتور (شيو نفرت) بأني أجله أعظم اجلال ، غير أنى مندهش جدا من أن رجلا مثله يقول عن الفلاح المصرى إنه لا يعنى بشؤون بلاده ، فإذا كان الدكتور (شيو نفرت) يحكم علينا بأننا أجانب عن الفلاح لاندرك ما بفؤاده ، فكيف يستطيع هو أن يعرف هذا الفؤاد ويدرك ما به ويتكلم عن عدم عنايته بشؤون الوطن ، هذا وتفضل بقبول احترامى ،

مصطفى كامل

وقد علقت تلك الجريدة على الكتاب بما تعريبه :

« إن على هذا الكتاب طابع الحق والإخلاص ، ونحن لا نشك في أن المسيو (شيو نفرت) قد اقتنع بما فيه ، ولذلك نرجو من قرائنا أن يمحو ما علق بأذهانهم من كتابه ، فإن هذا الرد صادر من صاحب الدار ، وهو أدري بما فيها ، وعلى الأخص ما يخصه منها ،

عودته إلى مصر وهرضه

أكتوبر — نوفمبر سنة ١٨٩٧

عاد مصطفى إلى مصر ، فبلغ العاصمة يوم ١٠ أكتوبر ، واستقبله أصدقاؤه وأنصاره بالحفاوة والإعجاب

ولم يمض يومان على عودته حتى اعتراه مرض أصابه من إجهاد نفسه في العمل
والسكفاح ، فأهلك قواه ، وأقلق بال اخوانه وأنصاره ، فنصح له الاطباء أن يقضى
الشتاء في حلوان ، فعمل بمشورتهم وقصد اليها حتى أبل من مرضه في أواخر شهر
نوفمبر ، فعاد منها سليما معافى ، واستأنف جهاده الوطنى والسياسى ، وكتب إلى
شقيقه على بك كتابا يصف فيه مرضه ويقول فيه :

والجمعة ٣ ديسمبر سنة ١٨٩٧

أخى . لاشك أنك قلقت كثيرا حتى بعثت بثلاثة تليفونات بعد عدة خطابات
لتتفق على صحى ، لأنى منذ ثلاثة أشهر لم اكتب اليك كلمة ، انى كنت فى مرض
شديد ، بستت معه من حياتى ، وقد أصابنى بعد وصولى إلى العاصمة بيومين ، وهو
مسبب عن كثرة المتاعب التى صادفتها فى هذا العام ، التى أوامل أن تسكون ناجحة ،
لأنها كما تعلم صادرة بإخلاص ، ولا أواملى فى شىء من ورائها سوى عودة مصر
إلى زهوها ورجوع السيادة فيها لابنائها المخلصين ،

الفصل السابع

حادثة فاشودة

وجهاد الفقيده سنة ١٨٩٨

استهل الفقيده عام ١٨٩٨ وقد استرد صحته وكله أمل ونشاط في الجهاد ، وكان جهاده سنة ١٨٩٧ قد آتى ثمره ، إذ تحركت في النفوس فكرة الوطنية بتأثير دعوته الصادقة ومقالاته وكتباته وخطبه ورحلاته ورسائله في الدفاع عن القضية المصرية

خطبته في حديقة الأزبكية

يناير سنة ١٨٩٨

بدا أثر هذه الدعوة أوائل سنة ١٨٩٨ ، إذ اتفق الشباب المثقف من طلبة المدارس العليا على إقامة حفلة وطنية كبرى كان المترجم خطيبها ورئيسها ، واختاروا لها حديقة الأزبكية بالمطعم الذي كان مشهورا باسم (سانتى) ، وحددوا لها يوم ٨ يناير عيد جلوس الخديو عباس الثانى ، وألّفوا لجنة لتنظيم هذه الحفلة ، وقد أقيمت الحفلة ، فكانت آية في الجلال والبهاء ، وبمد أن تناول المدعوون الطعام وقف أحد أعضاء لجنة الاحتفال وهو أحمد افندى حافظ عوض (بك) ودعا للخديو ثم أثنى على الفقيده قائلا : « أشكر ضيفنا الكريم الذى رأيناه في شبابه الغض كثير الأعمال ، كبير الآمال ، وزى الليلة في وجوده بيننا شخص الوطنية الحقّة ، ومثال الإخلاص لمصرنا العزيزة ، (١) »

وما انتهى من كلامه حتى وقف الفقيده موقف الخطابة ، فقبل من جميع

(١) المؤيد عدد ٩ يناير سنة ١٨٩٨

الحاضرين بعاصفة من التصفيق، فشكرهم على احساساتهم، ثم ألقى خطبة مستفيضة من أعظم خطبه الوطنية، افتتحها قائلا:

« اخواني الأعزاء

« لقد شكرني حضرة زميلكم الفاضل علي حضورى بينكم الليلة وأجابتي دعوة الذين تفضلوا بها إلى هذه الحفلة الشائقة، على أن الشكر يجب أن يقدم منى إليكم لأنى أرى فى حضورى بينكم شرفا عظيما لى، وأقدر عنايتكم بدعوتى حق قدرها ولطالما تمتد أن أفضى بضع ساعات مع نخبة المدارس المصرية، وأناجى أولئك الذين خرجت من صفوفهم، وما نسيت عهدهم، وأتحدث معكم يامستقبل مصر ورجاءها المنتظر فى ذلك الواجب العظيم الذى يجب علينا جميعا أن نقوم به حق القيام، وأعنى به واجب خدمة الوطن العزيز،

تمجيد الوطنية

وبعد أن تكلم عن الحديد ونوه بتأييده ميول الشعب، عرج بالوطنية وأشاد بها قائلا:

« إن الوطنية هى أشرف الروابط للأفراد، والأساس المتين الذى تبنى عليه الدول القوية والممالك الشائخة، وكل ماترونه فى أوروبا من آثار العمران والمدنية، ما هو الا ثمار الوطنية، أصبح اليوم الوطن المصرى ينتظر منكم ومن بقية أبنائه عدلا وانصافا، أصبحت مصر تؤمل منكم أن ترفعوها إلى منصة الحرية والاستقلال وأن تردوا إليها حقوقا وهبها اياها الخالق عز وجل، ولا ريب أنكم معشر المتعلمين، معشر النابغين فى المعارف والآداب، أول من يسأل عن خدمة مصر وتأييد مبدأ الوطنية الحقيقية، فإنكم قرأتم فى التاريخ الامثال السكثيرة للوطنية، وعرفتم سير أناس عديدين ماتوا محبة لبلادهم وإخلاصا لأوطانهم، فخيوا بموتهم، وأدركتم أن الحياة سريعة الزوال، وأن لا شرف لها بغير الوطنية والعمل لإعلاء شأن الوطن وبنيه،

الوطنية والمال

إلى أن قال مستحثاً كل متعلم مهما يكن صغيراً على القيام بواجبه الوطني :
« إنكم إذا خرجتم من المدارس ودخلتم صفوف الرجال وشرع أحدكم في عمل
من الأعمال سمع لا محالة من قوم غايتهم تضييع الهمم وإقعاد العزائم : من أنت
حتى تعمل هذا العمل ؟ وإذا كان الأغنياء والكبراء لم يقدموا عليه ؟ فكيف تقدم
أنت عليه ؟ وهو قول فاسد لأن الوطنية لا تميز فيها بين الصغير والكبير ، والغني
والفقير ، بل كلنا سواء أمام مصر ، وكل واحد منا مسئول عن مصائبها مطالب
بخدمتها وإعلاء قدرها ،

وبعد أن ضرب الأمثلة بكبار الوطنيين الذين خرجوا من صفوف الفقراء
قال : « قد يكون الرجل الصادق الوطنية فقيراً في المال ، ولكنه يعيش ويبقى في
التاريخ من أكبر سراه الوطنية ، ودعا في خطبته إلى نشر العلوم والمعارف فأنها
الوسيلة إلى التمسك بالحقوق والكرامة

الدعوة إلى الحياة الحرة

ودعا الشباب إلى الحياة الحرة والإعراض عن المناصب الحكومية قال :
« لاشك أنه لا يمكنكم القيام بإدارة الأمة وإرشادها إلا إذا كنتم في الحياة
الحرة مجاهدين بأنفسكم في سبيل الحياة ، لا عمالاً في إدارة أو ديوان تنقدون في
آخر الشهر مرتباً معلوماً يقتل فيكم عواطف الاستقلال ويحبس في نفوسكم الحرية
الشخصية والميل إلى عظامم الأعمال ،

ثم نوه بالحياة الحرة في أوروبا وما أنتجته من جلائل الأعمال ، وختم خطبته بقوله :
« إن أئمن نصيحة تلقيتها في صغري وألقيا اليوم على أبناء بلادى المحبوبة
وأختم بها كلامي معكم الليلة هي : العمل بالاتحاد على خدمة الوطن العزيز ،
وقد قوبلت خطبة المترجم بتصفيق الإعجاب والحماسة والاستحسان ، وكان
لها الأثر الكبير في نفوس الشباب

الرد على الحملات الاحتلالية

كانت دعوة مصطفى كامل تقض مضاجع الاحتلال وصنائه ، لأن انتشار الدعوة الوطنية تزلزل مركز الاحتلال القائم على الغضب والعدوان ، فكانوا يعملون على إحباط دعوته بالصحف الموالية لهم في مصر ، وبالحملات الاحتلالية في الصحف الأوروبية ، وقد تردد في بعضها اتهامه بأنه يدعو إلى ثورة ، فكتبت إحدى الصحف الفرنسية وهي جريدة (لوريان) مقالا بهذا المعنى

فرد عليها الفقيه بكتاب في ٣ فبراير سنة ١٨٩٨ ، بدأه بقوله :

« قرأت في أحد الأعداد الأخيرة من جريدتك حملة على الوطنيين المصريين كتبت بتحيز للاحتلال الإنجليزي وأشياءه ، وليست عليها مسحة من الحق ، ولما كنت أعتقد أن مبادئكم حرة شريفة ، وأنكم تستظلون براية الحرية والإخاء والمساواة ، رأيت أن أرسل إليكم كتابي هذا خدمة للحقيقة راجيا نشره في المكان الذي نشرتم فيه مقالاتكم التي نسبتم إلي فيها أمور أنا أبعد الناس عنها وكذلك أبناء وطني جميعا ،

ثم فند مقالة (لوريان) تفنيدا مسهبا في رده عليها ، وقد نشرته الجريدة المذكورة وعلقت عليه بكلمة جاء فيها :

« إننا نحب المصريين كثيرا ونميل إلى خلاصهم وعودتهم إلى التحلى بتاج الملك وجواهر العلم ، ولكن لكي نصل إلى تحقيق هذا الحل يجب أن يساعدونا من جانبهم بالتؤدة والسكينة ، وإننا لا ننكر أن أعمال مصطفى كامل ، كلها رزينة حكيمة لا تقل عن جمال أي عظيم ذكره التاريخ في سبيل تحرير بلاده ، وإن له في بلاده عصية تذكر بالإعجاب والإعظام ، وأنه من أبناء فرنسا في العلم ، ولكننا ننكر على غيره الشدة في القول والحماقة في الرأي ،

ونشرت جريدة (لا كورييري) الإيطالية حديثا للمترجم بعددها الصادر في

١٥ مارس سنة ١٨٩٨ في شرح القضية المصرية والدفاع عنها

ظهور كتابه عن المسألة الشرقية

وفي أبريل من تلك السنة ظهر كتابه عن (المسألة الشرقية) ، وهو كتاب قيّم شرح فيه تطورات المسألة الشرقية وموقف الدول الأوروبية ، وبخاصة إنجلترا حيالها ، وأفاض في تعريف المسألة الشرقية وبيان حوادثها في القرن الثامن عشر ثم التاسع عشر ، مستطردا إلى ذكر استقلال اليونان ثم مسألة سورية بين محمد علي وتركيا ، وحرب القرم ، ومؤتمر برلين ، ثم شرح المسألة المصرية ، ثم المسائل البلغارية واليونانية ، ويرمى الكتاب إلى تحييب الاسـتقلال إلى الأمة وإحياء الشعور الوطني في نفوس قرائه

جهاده في أوروبا

يونيه - سبتمبر سنة ١٨٩٨

سافر مصطفى من الإسكندرية يوم الجمعة ٢٤ يونيه سنة ١٨٩٨ ليواصل جهاده في أوروبا (١) ، وما ان وصل إلى باريس حتى وقف على خطبة ألقاها اللورد سالسبرى رئيس الوزارة الإنجليزية بسبب اخفاق سياسة وزارته بالصين قال فيها تعريضا بالهند ومصر : « إن إنجلترا لم تعمل السيف في الصين كما عملته في الهند ومصر ، فانبرى للورد سالسبرى ورد عليه بالكتاب الآتي تعرييه ، وقد نشره بالفرنسية في جريدة (الاترانسيجان) ونشرته عدة صحف باريسية

« باريس في ٤ يوليه سنة ١٨٩٨ :

« جناب اللورد سالسبرى

« اطلعت في الجرائد على نص خطبة سياسية زعم جنابكم فيها أن إنجلترا قد فتحت مصر بالسيف ، والوجدان الآبي يتجافى عن زعم كهذا ، والوطنيون المصريون

(١) المؤيد عدد ٢٣ يونيه سنة ١٨٩٨

يقيمون الحججة عليه بأشد ما لديهم من الحزم والعزم ، فإن بلادكم لم تفتح بلادنا ،
وإني أستشهد الدنيا بأسرها على هذا الادعاء ، إن إنجلترا لم تكن في حرب مع مصر في
عام ١٨٨٢ ، بل هي تدخلت في حوادثها ودخلت وديا لتأييد عرش الخديوية ، فهل
يليق بها وهي على ما تدعى أمة متمدنة أن تقوم اليوم بعد أن حلفت حين حلولها
في مصر بأنها تتركها تحكم نفسها بنفسها ، فتصرح للعالم بالرغم من الشرف والوعد
الصريح أنها قد فتحت بلادنا بحد السيف ، وإلا كان معنى هذه الكلمات ، شرف وتمدن
وإنسانية ، في عرفك يا جناب اللورد استعباد الأمم الواثقة بالتمدن ، ألسنت القائل
في عام ١٨٨٦ : « لنحترم وعودنا المقدسة ولنجلو عن مصر ، ؟ ألسنت القائل في
شهر نوفمبر من عام ١٨٨٦ للسيو وادنجتون : « إن بني قومكم يكونون في ضلال
مبين إذا اعتقدوا أننا نريد أن نمسك في مصر إلى ما شاء الله ، فنحن لا نبحث
إلا عن الوسائل التي نخرج بها من مصر بشرف وكرامة ، أولستم أتم الذين قلتم
في البرلمان يوم ١٠ يونيه سنة ١٨٨٧ هذه العبارة : « لا يسوغ لنا أن نأخذ على
عاتقنا حماية مصر ، حتى على فرض أن عملا كهذا ينطبق على الشرائع الدولية
ومصالح بلادنا ، ؟ أولستم أتم الذين قلتم وكررت القول في شهر أغسطس
سنة ١٨٩٨ : « إن التصريح بإقامة إنجلترا في مصر دليل على قلة احترام العهود المقدمة
التي ارتبطت بها حكومة المملكة والتي يجب علينا الإذعان لها ، ؟

« فإذا كنتم يا جناب اللورد قد نسيتم أو ازدرتيم هذه التصريحات الشريفة فإنه
ينبغي لكم أن تذكروا بأنكم قلتم في إحدى خطبكم الأخيرة : « إن انحطاط الأمم
العظيمة قد كان سببه على الدوام طمعها وشراتها ،

« ولا يغيب عن البال أن مصر التي كانت في جميع عصور التاريخ سبب موت
الأمم الطاغية ، فإنها لا محالة ستكون كذلك في المستقبل ، ولا يمكن أن تنجو
إنجلترا من هذا المصير إذا أصرت على احتلال بلادنا ، لأنكم إذا كنتم تعتبرون
أن إرادة إنجلترا فوق إرادة أوروبا ، فإنه لا بد أن يأتي يوم تنصر فيه الوطنية
المصرية وحدها على إنجلترا العظيمة القادرة ، وربما هزرتكم كتحفيكم يا حضرة

اللورد حين قراءة هذا الكتاب ، ولكن كل انجليزى يضع شرف بلاده فوق
المصلحة الذاتية الحقيرة ينجمل ويستحي بعد قراءته ،

« مصطفى كامل »

وكتب الفقيه عدة مقالات في الصحف الأوروبية دفاعاً عن قضية مصر ، ونشر
حديثاً في جريدة (الإكلير) الباريسية عن يوم ١١ يولييه وهو ذكرى ضرب الاسكندرية
ثم ألقى بياريس خطبة سياسية في سبتمبر سنة ١٨٩٨ ، وعاد إلى مصر فوصلها
يوم ١٨ سبتمبر ، وله في المؤيد مقالات وطنية قيمة نشرها في سبتمبر وأكتوبر
من تلك السنة

حادثة فاشودة

وتأثيرها في الحركة الوطنية

وقعت في تلك السنة حادثة خطيرة كان لها وقع شديد في النفوس وأثر بالغ
في مصير المسألة المصرية ، ونعني بها حادثة (فاشودة) التي اهتزت لها أوروبا بأسرها
وكادت تؤدي إلى نشوب الحرب من أجلها بين فرنسا وانجلترا

كان السودان المصرى في عهد الخديو اسماعيل يصل جنوباً إلى خط الاستواء
وشرقاً إلى سواحل البحر الأحمر وخليج عدن ، ووصلت حدوده الجنوبية الشرقية
إلى المحيط الهندي ، وحدوده الغربية إلى (وادى) غربى دارفور (انظر الخريطة
ص ١٢١ وهى مقتبسة من كتابنا « عصر اسماعيل » ج ١ ص ١٢٤)

فلما شبت الثورة المهدية في السودان ثم اكرهت انجلترا الحكومة المصرية
على إخلائه سنة ١٨٨٤ ، اعتبرته انجلترا نهياً مقسماً بينها وبين الدول الاستعمارية ،
فاحتلت أوغنده ومنطقة البحيرات الاستوائية ، والجزء الجنوبي من مديرية خط الاستواء
المصرية ، ومحافظتى زيلع وبربره ، وأخذت ايطاليا مصوع والاريترية ورأس
جردفون (جردفوى) ، وفرنسا تاجورة وجيبوتى ، والحبشة بلاد هرر وبنى شنقول

وفي غضون ذلك النهب الاستعماري اشتد التنافس بين انجلترا وفرنسا على اقتسام مناطق النفوذ بينهما ، فاعتزمت فرنسا تجريد حملة لاحتلال مركز هام في أعالي النيل ، وكانت ترمى بهذه الحملة إلى صد التيار الانجليزي في باطن أفريقية ، ثم إلى فتح باب للمسألة المصرية برمتها وإجبار انجلترا على تنفيذ عهودها في الجلاء عن مصر ، ومن هنا جاءت أهمية حملة مارشان على فاشودة

ترددت فرنسا طويلا في إنفاذ هذه الحملة ، فقد فكرت فيها في أواخر سنة ١٨٩٣ ، وعهدت بها أولا إلى القومندان (موتي) ، ولكنها ما لبثت أن عدلت عنها ، ثم تجددت الفكرة في أواخر سنة ١٨٩٥ . ومن المؤلم أن الوزارات المصرية كانت خاضعة لأوامر السياسة الانجليزية ، فانجلترا هي التي أوعدت إليها بإخلاء السودان ففعلت ، ثم أوعدت إليها باسترجاعه فأعدت جيشها لتحقيق هذه الغاية ، على حين لم تكن مصر في حاجة إلى تجريد جيشها لاسترجاع السودان لو لم تقرر إخلاءه سنة ١٨٨٤ ، وهكذا كانت مصر ضحية السياسة الاستعمارية الانجليزية وضحية الوزارات التي تستسلم لها وتخضع لأوامرها

عهدت فرنسا في سنة ١٨٩٦ إلى الكابتن (مارشان) بالزحف على فاشودة الواقعة على النيل واحتلالها ، وقد اختارت هذه النقطة لأهميتها من الوجهة الحربية والجغرافية ، فهي تعد مفتاح النيل الأعلى ، إذ تقع على ملتقى الطرق المختلفة الواصلة من الخرطوم والحبشة إلى جنوبي السودان ، وعلى مقربة من ملتقى روافد النيل ، كنهري سوبات وبحر الغزال وبحر الزراف ، ومن يملكها يضمن النفوذ في شمالي السودان وجهات خط الاستواء (انظر موقعها على الخريطة ص ١٢١) .

صدع الكابتن (مارشان) بأمر حكومته ، وسار على رأس كتيبة من الجند قاصداً فاشودة ، ففضى عامين في طريقه إليها يعاني المشاق والمتاعب المضنية في مجاهل أفريقية ، حتى بانها واحتلها في يوم ١٠ يولييه سنة ١٨٩٨ ، وكان احتلالها إيذاناً بفتح باب المسألة المصرية

أدركت انجلترا غرض فرنسا من هذه الحملة ، فبادرت إلى العمل لإجلائها ،

وهنا ظهرت (مؤقتاً) بمظهر المدافع عن مصر المؤيد لها ، فاعتضت باسمها على هذه الحملة ، واحتجت عليها باعتبار أن فاشودة أرض مصرية ، وسار إليها اللورد كاتشنر سردار الجيش المصري وقتئذ على رأس قوة مؤلفة من ١٨٠٠ جندي مصري ومائة جندي بريطاني ، فوصلها في سبتمبر سنة ١٨٩٨ . وهناك التقى بالكابتن مارشان واحتج على احتلاله بلداً مصرياً ورفع العلم الفرنسي ، على أملاك سمو الخديو ، وأبلغه أن هذا الاحتلال بعد انتهاك حقوق مصر ، وأنه قد جاء ليرفع العلم المصري على فاشودة ، وكان مرشان يعلم أن لا قبل له بمقاومة القوة المصرية التي جاءت لإجلائه عنها ، إذ لم يكن لديه سوى تسعة ضباط فرنسيين ومائة وعشرين جندياً من أهالي السنغال ، فلم يقاوم ، ورفع المصريون عليها العلم المصري

اشتدت الأزمة السياسية بين إنجلترا وفرنسا على أثر هذه الحادثة ، وكان الظن أن تتمسك فرنسا بموقفها ، وتفتح باب المسألة المصرية ، وتضطر إنجلترا إلى الجلاء عن مصر ، مقابل جلاء الفرنسيين عن فاشودة ، وقد استيقن المصريون أن آمالهم في الجلاء ستتحقق ، إذ كانوا يعتقدون أن فرنسا لا تقدم على هذا التحدي لانجلترا إلا وهي مصرة على المضي في سياستها إلى النهاية ، وكاد الخلاف بين الدولتين يصل إلى امتشاق الحسام بينهما ، فعظم بذلك شأن المسألة المصرية ، وقويت آمال المصريين في الاستقلال ، ولكن فرنسا تخاذلت وتراجعت آخر الأمر . وخشيت مغبة الحرب ، إذ لم تقدم حليفها روسيا لمعاونتها ، فسلمت بوجهة نظر إنجلترا . وأمرت مارشان بالجلاء عن فاشودة ، وتم جلاؤه عنها يوم ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٨ ، فكان هذا التسليم أكبر صدمة سياسية أصابت الحركة الوطنية ، لأنه دل على أن فرنسا لا تنوي معارضة إنجلترا في احتلال مصر والتصرف فيها كما تشاء ، ودل على نية الإنجليز في دوام احتلالهم لمصر والسودان ، فزلزل هذا الحادث أمل المصريين في الاستقلال

ثبات مصطفى كامل في الجهاد

كان انسحاب مارشان من فاشودة انتصاراً كبيراً للسياسة الإنجليزية ، وإيداناً بإصرارها على البقاء في مصر والسودان ، وتجاهل عهودها في الجلاء ، فجنح معظم

رجالاً مصر إلى الولاة للاحتلال البريطاني واكتساب رضاه ، إذ رأوا في حادثة
فاشودة برهاناً جلياً على رسوخ أقدامه في البلاد
كتب مصطفى إلى أخيه على بك (وكان وقتئذ من ضباط حملة السودان)
كتاباً قال فيه :

« . . . ان الأحوال السياسية سيئة للغاية بعد مسألة فاشودة ، وقد أظهر بعض
الكبراء الجبن وكادوا يخونون بلاداً أحسنت اليهم بما لا يحلم به غيرهم ، ولكنني ثابت
على خطتي حتى الممات ، لأن اعتقادي أن ثمر الدفاع وان لم يجنه المدافع الأول أو
الثاني فلسوف يجنيه مصري على مدى الأيام ، واننا اذا لم نفتطف ثمر عملنا وجهادنا
في حياتنا فاننا على الأقل نضع الحجر الأول لمن يبني بعدنا ،

وكتبت مدام آدم كثيراً عن حادثة فاشودة ، ومنها قولها في مقالة لها في فبراير
سنة ١٩٠٤ عن أغلاط السياسة الفرنسية :

« فاشودة ! إنها الضربة القاضية ! لقد قلت في رسائلي قبلاً إن غير واحد من
ساسة فرنسا قد أفهم الخديو والوطنيين المصريين أن فرنسا ستتدخل لصالح مصر
سريعا وبصفة حاسمة وأباوا لهم أن بعثة مرشان هي الحاملة لراية استقلال مصر ،
فصاروا جميعا يعتقدون أن تحرير وطنهم سيأتي من السودان ، ولكن حادثة
فاشودة قضت على آمال الوطنيين المصريين ،

وقد كان لها كذلك تأثير كبير في موقف الخديو ، إذ أخذ يذعن للأمر الواقع
ويتودد إلى الاحتلال ، وكان أول مظهر لهذه السياسة الجديدة زيارته ل لندن سنة
١٩٠٠ ، وفي ذلك يقول مصطفى كامل في رسالته إلى مدام جوليت آدم في ٢ يونيو
سنة ١٩٠٠ : « أبعث اليك مع هذا بمقالة تفصح لك عن شعوري والشعور الأهلي
نحو سياحة الخديو في لندن ، تلك السياحة التي آلمتنا كثيرا ، وما ذلك وأسفاه
الا نتيجة فاشودة ،

والواقع أن حادثة فاشودة كانت فوزاً كبيراً للاحتلال وصنائه في مصر ،
وبعثت اليأس في نفوس الوطنيين ، واعتقدوا أن لا منجاة لمصر من الاحتلال بعد
أن أذعننت فرنسا للسياسة الإنجليزية في تلك الحادثة ، وخدمت جذوة الوطنية في

النفوس ، ولسكنها لم تخمد في نفس مصطفى كامل ، بل ضاعف جهاده وكفاحه ،
بمقدار ما ازدادت العقبات والمصاعب في طريقه ، وأخذ يفكر من ذلك الحين في
إنشاء صحيفة يومية تغذي النفوس والعقول بمبادئ الوطنية والكرامة والأمل والجهاد
وقد كان يتألم إذ يرى كبار المصريين وذوى الشخصيات البارزة منصرفين عن
الجهاد ، ويرى نفسه يكاد يكون وحيداً في الميدان ، ولكنه مع ذلك ظل يثابر في
جهاده بالرغم من العوامل المشبطة التي تسكتفه

أرسل في هذا الصدد إلى صديقه وزميله في الجهاد المرحوم محمد بك فريد كتاباً
من باريس بتاريخ ١٩ أغسطس سنة ١٨٩٨ (نشرنا صورته بالزئنجراف ص ١٢٥)
جاء فيه :

« وصلني خطابك الكريم المؤرخ ١٢ الجاري ، وإنه لا يسعني إلا أن أشكر
ودك الصادق النادر المثال في مصر ، فهو تعزيتي عن هموم بلادى ، وتسليتي على قعود
بنى وطنى عن إجابة ندائى والاجتماع حول راية الوطن لإنقاذه وإسعاده
« وانك لمصيب فى رأيك بشأن دعوة رجال القلم فى برلين ، وإنه ليحزنتى حقاً
أن أرى الفرص مناسبة لخدمة الوطن ، ولا أجد غيرك فى المصريين نصيراً يساعدى
على ذلك ، فتجدنى إن تكلمت أو دعوت أتكلم كثيراً أسيفاً ، وأدعو وأنا عارف
بأنه ليس فى مصر من يساعدى على القيام بالواجب وإكرام الضيف إن وافى ، فقل
لى بالله ما قيمتنا ونحن لا نضحى شيئاً لخدمة الوطن إذا قورن بيننا وبين الذين يضحون
أنفسهم وأرواحهم لخدمة أوطانهم

« أخى . سأسافر إلى برلين بالرغم عن شدة كبدى من عدم وجود إرادة
مشتركة بين من يريدون أو من يدعون لخدمة الوطن وعدم وجود خطة ثابتة يجرى
العمل عليها . وسأعمل كل ما فى جهدى لخدمة البلاد ، وما على إلا الامتثال لإرادة
الخالق جل شأنه الذى كأنه أراد أن أكون الوحيد فى خطى ، الفرد المطالب
بالاستقلال،

وأرسل إليه من برلين فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٩٨ كتاباً (صورته بالزئنجراف
ص ١٢٦) يقول فيه :

« وعلى أي حال فالمستقبل بيد الله يدبره كيف يشاء ، وما علينا إلا العمل
والمثابرة على المطالبة بحقوق بلادنا ، فاضاع حق لمطالب ، واني كلما زرت عواصم
أوروبا ازددت اعتقادا بأن الأمر بيدنا ، وأنه لو اتحد مائة منا لاهتزت الأرض
قاطبة لصوتهم ، فما بالك لو اتحدت كلمة الأمة المصرية كلها ، واني لأحسن بكتابة
(خطاب الفقيه إلى فريد بك في ١٩ أغسطس سنة ١٨٩٨)

باريس في ١٩ أغسطس ١٨٩٨

أخي العزيز فريد بك حفظه الله

عبد الحميد وتقبل رحمتك . وصلني فضلك . كرم المدرخ ١٠
البحر البحار وان لا يمشي إلا أنه أشكر وركن إصداقه لنادر
الذي في سر فهو قضيته مع صومعهم به رمي وسليته على قعود
بني وطنه منه إجابة نداءي والاجتماع حول راية الوطن لنقادة
والسعاد

وانك لمصيفك رايك بشأنه دعوتك جاك انقلني برلميه وان
لمزنته حقاً انه أدى الفرض من نسبة لخدمة الوطن ولا اهدى غيرك
في المعصية نصراً ساعداً على ذلك . فنجده انه فصلت أو دعوت
انقلكم كتباً سيفاً وأدعو وأنا عارف بأنه ليس في مصر ثم ساعد
على القيام بالواجب والكرام الضيف انه واني . حقك بالله عليه
ما قمنا ونحنه لوفضلي شيئاً لخدمة الوطن إذا قوربه بنينا وبه
الذين وصومعه أنفسهم وأرواحهم لخدمة أوطانهم .

أضی سأسا فرال برلیه بالرعیم عمره شدة کدری مه عدم وجود
 ارادة مستدک بیه مه بریدونه اومه برعوره خدمه الوضوح
 بوجود خطه ثابتة جیری اکل علیا وساعل اکل مانع جریه
 لخدمه البیلاز . ورا علی الا لامتنان

لا ارادة الخلقه من شأنه الذي كأنه أراد أنه انکره الوعدی
 نظمت الفرد المصلک بالاستفاد
 وغیر رجاءه مه کم - انه لم یسمع نداءنا وغیرنا اذ اننا انه یحفظ
 لی دکن ابعاده وبعک ابعاده
 ما بالشیخ الی انفسه ؟ لم یصل لى حرفنا واحدا مع انکنت

الیه

لنفسه وبقول أنت ألف سف سلامه مه
 صدیه لک ومه احنیک انکر العارف للجميل
 لصل

(خطاب الفقید الی فرید بک فی ۴ سبتمبر سنه ۱۸۹۸)

برلیه ۴ سبتمبر ۱۸۹۸

أخی الامیر

بعد کتبه والتسليم ، والعباب عه سقوه کما تعلم عظیم وعلی ختک الوعد
 بارس وانا علی وجهه اسف المبرلیه فضلت تأجيل الرد انا وبرا صدی

..... العادة الغضبية

وعلى أي حال فاستقبل بيدهم بدموع كثيرة وما علينا إلا لهمل المشاة
على الملاحمة بجموعهم بدونا فما ضاع حمد لطلبه

وإني كلما زرت عداهم أو روبا ازدرت افتقاراً بأدب الأثر بيننا وأنه لو أخذ
مائه لنا لأهزمت الأرض شامة لصورهم فما بالك لو أهدت كلمته الأمة
بالمصر كلها . وإني لأحس بكافة وحزن عظيمة لو لم يكن في هذه البلاد
وحدى وتعود القوم هنا على مقابلتهم بوجه غيري فغسى الله أمدني بمساعدته
وأجدت بنى الوطن أنصاراً يجاهدون معي علناً بأفعالهم وآمالهم وما كان
عليه بعزير

أسافر بعد قليله لفيينا ومنها لبودابست وأبارج بودابست يوم السبت
القادم مساءً الساعة الثانية بعليقة ما صلا بمسيرة الرحمن يوم ٢٠ سبتمبر
وأيضا في ألكة بحمد يومه بعد ٢٥ سبتمبر

ودى خطبه به (بوليس ليفي) الذي تعرفت به يقول لي فيه
أنه سافر قريبا إلى مصر ففرحت به بيننا الخبر لأنه هذا الرجل يحب
لنا ولا بد أنه سيهدى صنمات جديته بأعداء مصر وحقيقة الأمور الجارية فيها
أقبلت ألفا وأهدى أخانا الفضل ألف سدرم دمه
لوصفه افوتك على صهيل

وحزن عظيمين لوجودى في هذه البلاد وحدى وتعود القوم هنا على مقابلتى دون
غيري ، فعسى الله أن يمدني بمساعدته ، وأجد من بنى الوطن أنصاراً يجاهدون معي
علنا بأفكارهم وآمالهم ، وما ذلك على الله بعزير ،

خطبته بالقاهرة

٢٣ ديسمبر سنة ١٨٩٨

كان ختام جهاده عام ١٨٩٨ أن التى يوم ٢٣ ديسمبر خطبة وطنية بالتياترو
الطلياني بالأزبكية ، موضوعها (واجبات المصريين نحو وطنهم العزيز) ، وكان

الإقبال على سماعها عظيما ، والزحام شديداً ، وظل يخطب نحو ساعة ونصف ، وجاءت الخطبة بعد حادثة فاشودة ، فحمل على اليأس حملة صادقة ، واستثار في النفوس روح الأمل والواجب ، وفي هذه الخطبة قال كلمته المأثورة : (لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة) ، ويتبين لك من عباراته فيها مبلغ ألمه من روح النفعية والتردد والهزيمة التي كانت فاشية في المجتمع ، وفي ذلك يقول :

« يجب علينا أن نجتمع كثيرا ، ونتدبر في الأمر طويلا ، فقد توالى الحوادث الجسام ، وتعاقبت البلايا العظام ، وأنذرت الأيام مصر بسوء العاقبة وظلمة المستقبل إذ اذام المصريون رائد هم الشقاق والفراق ، ومنتهى آمالهم قضاء الحياة على أي حال تعيسة كانت أو سعيدة ، إلى أن قال :

« تنزلوا أيها المصريون إلى أعماق قلوبكم ، واسألوا سرائركم ، هل أنتم في شقاء أم هناء ؟ وهل بالاستسلام وتسليم الأوطان تقابلون نعمة الله عليكم بمصر وهي جنة الأرض وأبدع البلدان ؟ وهل يليق بكم وأنتم سلالة أشرف الأمم أن ترضوا بهذا الهوان وتقبلوا هذه المذلة وأنتم صاغرون ؟

« تمر الحادثات المزعجات علينا ، وتنفطر لها قلوبنا ، وتحزن منها أشد الحزن أفقدتنا ، ثم لانجد لسانا ينطق بما يختلج به الجنان ، بل نرى سكوتنا في سكوت واستسلاما في استسلام فيزداد البلاء ويتضاعف الشقاء ،

ثم تكلم عن استسلام الوزراء والحكام والكبراء للاحتلال ، وسكوتهم عن رفع العلم البريطاني في السودان بعد استرداده ، قال :

« لقد بالغنا في الاستسلام وأبدعنا فيه كل ابداع ، وما جنينا الا الحية والفضيحة والعار ، فهذه بلاد السودان قد فتحها مصر بأموالها وبدماء أبنائها الاعزاء ، أي راية تخفق اليوم عليها ؟ وأي شرع يقام اليوم فيها ؟ وأي حق يُعترف به للبصريين في نواحيها ؟ ألم تقض سياسة الاستسلام بأن تجاهد جنود مصر الأبطال أجمل وأشرف جهاد وتبذل حياتها رخيصة في سبيل استرداد السودان ثم تسلم إلى الدولة المحتلة هذه البلاد الزاهرة وهي من مضر الروح والفؤاد ؟ فأى فضيحة بعد هذه الفضيحة وأي عار بعد هذا العار ؟ أقام الإنجليز الأرض وأقعدوها بسبب غردون

وثأر غردون ، ونسفوا قبر المهدي نسفاً وأخرجوا رأسه بأشنع صفة وأقبح مثال ،
وعقدوا المجمع وألقوا الخطب تحية وسلاماً على روح هذا الفقيد ، ورفعوا رايات
الفرح والنصر للأخذ بثأره ، والمصريون ينظرون إلى هذه المناظر ويتساءلون :
أليس لدماء من مات منا ثمن ؟ أليس لرجالنا قيمة ؟ أليس المصري في شريعة الله
إنساناً ككل إنسان ؟ أتموت منا الجنود والأبطال قبل استرداد السودان وفي سنبل
استرداده ولا يذكر بشيء ، بل يقوم منا من يهني الإنجليز بأخذ ثأر غردون ؟
أيسكون دم فرد من الإنجليز غالى الثمن رفيع القدر ، ودماء الآلاف من المصريين
لا ثمن لها ولا تقابل بغير الذسيان ؟ لقد تعاضم الخطب وأصبحت الحياة مرة ، وبات
الوطن في أشد الأخطار ، وكل منا يهمل واجباته ويتحل لنفسه عذرا ، فمننا من يطمع
في الثروة والترقي ، ومننا من يخاف الذل والفقر ، ومننا من لا يشعر بالمسؤولية ، ومننا
من استولى على قلبه اليأس والقنوط ،

إلى أن قال :

« إذا ألقى الخطيب النصيحة على قومه ظن كل إنسان أن النصيحة موجهة لغيره
لا له ، فيقول : (لقد أصاب الخطيب ولكن الأمة ميتة) ، فمن هي الأمة ؟ أستم
من أعضائها وأهم أعضائها ، أو ليست الأمة الفرد متكررا ، فاذا قام كل واحد
بواجباته وأصلح المعوج من أموره صلحت أحوال المجموع ، ورُدت على الأمة
حررتها وسعادتها ، ولبس الوطن ثياب الحياة والقوة ،

ثم دعا في خطبته إلى قيام كل مصري بواجباته الوطنية ، وإلى نشر التعليم القومي
وتربية النشء تربية وطنية دينية ، وفي الجملة كانت هذه الخطبة من أقوى خطبه ودلت
على مبلغ ما كان يعانيه من المتاعب والآلام في بعث الحركة الوطنية في جو مشبع
بروح التخاذل والاستسلام وإثارة المصالح الشخصية على المصلحة القومية

الفصل الثاني

جهاده سنة ١٨٩٩

(اتفاقية السودان)

صدّمت الحركة الوطنية في مستهل سنة ١٨٩٩ صدمة جديدة بتوقيع اتفاقية السودان في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ ، تلك الاتفاقية المشهورة التي خولت إنجلترا رسمياً حق الاشتراك في إدارة شؤون الحكم في السودان ورفع العلم الإنجليزى إلى جانب العلم المصرى في أرجائه كافة ، وتعيين حاكم عام للسودان بناء على طلب الحكومة البريطانية ، ونتيجة ذلك ولا ريب هو سلب السودان فعلاً عن مصر ، واستئثار الحكومة الانجليزية بحكمه وإدارته ، وقد جاءت هذه الاتفاقية منافية للحجج التي كانت إنجلترا تتذرع بها في حادثة فاشودة ، فإن حجتها الظاهرة في تلك الحادثة أنه لا يحق لفرنسا احتلال فاشودة لأنها أرض مصرية . وهكذا أعلنت الحكومة الإنجليزية بين أرجاء العالم أن السودان جزء لا يتجزأ من مصر ، وصرح اللورد سالسبرى في هذا الصدد : « بأن وادى النيل كان ولا يزال ملكاً ثابتاً لمصر . وأن حجج الحكومة المصرية في ملكية مجرى النيل وإن أخفاها نجاح المهدي إلا أنها ليست محلاً للنزاع منذ انتصار الجنود المصرية على الدراويش ، ، وهكذا كانت إنجلترا تنادى باحترامها لحقوق مصر ، وتعلن أن السودان أرض مصرية وتنسك على فرنسا احتلالها فاشودة باعتبارها بقعة مصرية ، ولكنها ما لبثت أن تنكرت لهذه الحقوق بعد انسحاب فرنسا من أعالي النيل ، فكان أول اعتداء منها على هذه الحقوق إكراهها الحكومة المصرية على توقيع اتفاقية السودان في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ ، قبل أن تمضى أشهر معدودة على انسحاب الكابتن مارشان من فاشودة ، وليس يخفى أن هذه الاتفاقية فيها الاعتداء الصارخ على وحدة مصر والسودان ،

وفيها فصح لعري الارتباط الوثيق بين جزئين لا يتجزأان من أرض الوطن الواحد (١) ولكن استسلام وزارة مصطفى فهمي باشا جعلها تقبل كل ما أراده الإنجليز

فوجنت الأمة بإمضاء هذه الاتفاقية ، بعد أن وقع عليها بطرس باشا غالى بالنيابة عن الحكومة المصرية ، باعتباره وزير خارجيتها . واللورد كرومر بالنيابة عن الحكومة الإنجليزية ، ولم يذع أمرها إلا عقب إمضاءها ، وكانت الصحف تجهل أمرها ، ولم تنشر شيئاً عن مقدماتها ولا المفاوضات بشأنها ، بل لم تحصل مفاوضات مافي صدها ، وإنما هي إرادة اللورد كرومر أملاها على وزارة مصطفى فهمي باشا ، قبلتها بلا مناقشة ولا شعور بالواجب ، وكل ما حصل من المفاوضات بشأنها أن اللورد كرومر سلم بطرس باشا غالى مشروع الاتفاقية كما وضعته وزارة خارجية إنجلترا . فأخبر بطرس باشا الوزراء بالأمر ، فقبلوا المشروع دون أن يطلع أكثرهم عليه ، فكان عملهم أفضح تسليم في حقوق البلاد ، بعد تسليم وزارة نوبار في إخلاء السودان ، وكان مرقف وزارة مصطفى فهمي باشا إنما ساعد الإنجليز على الاقنيات والاعتماد على حقوق مصر وكرامتها ، فقد كانت مهمتها تنفيذ أوامر الإنجليز بلا مناقشة ولا ضمير

وقد سئل أحد أعضائها يوماً من صديق له : كيف تسكت الوزارة عن هذه الاعتداءات المتكررة ، فأجابه الوزير : « وهل تريد منا أن نفعل في نهاية المسألة السودانية ما فعلته الوزارة الشريفية في بدايتها ؟ وهب رئيسنا الآن أصبح شريفاً ثانياً ، أو لم يبق في الأمة نوبار آخر ؟ » ، فتأمل في روح الخضوع والاستسلام وانعدام الشعور بالواجب في هذا القول المخزي

(١) أراد الإنجليز كذلك أن يمحووا من الأذهان ذكرى فاشودة ، فان هذا الإسم أصبح بعد تلك الحادثة التاريخية التي اهتز لها العالم علماً على امتلاك مصر لوادي النيل ، فما زالوا به حتى غيروه ومحوه من خرائطهم ، وأطلقوا على (فاشودة) اسم (كودوك) ، وغيروا أيضاً اسم (مديرية فاشودة) فجعلوها مديرية (النيل الأعلى) ، وما يؤسف له أن الأطلال التي تظبعها الحكومة المصرية تحتوى على هذا الحو والتغيير

نص اتفاقية السودان

نشر هنا نص اتفاقية السودان لارتباطها بسياق الحديث

وفاق بين

حكومة جلالة ملكة الإنجليز

وحكومة الجناب العالي خديو مصر

بشأن إدارة السودان في المستقبل

و حيث أن بعض أقاليم السودان التي خرجت عن طاعة الحضرة الفخيمة الخديوية قد صار افتتاحها بالوسائل الحربية والمالية التي بذلتها بالاتحاد حكومتنا جلالة ملكة الإنجليز والجناب العالي الخديوي

و حيث قد أصبح من الضروري وضع نظام مخصوص لأجل إدارة الأقاليم المفتوحة المذكورة ومن القوانين اللازمة لها بمراعاة ما هو عليه الجناب العظيم من تلك الأقاليم من التأخر وعدم الاستقرار على حال إلى الآن ، وما تستلزمه حالة كل جهة من الاحتياجات المتنوعة

و حيث أنه من المقتضى التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المترتبة على ما لها من حق الفتح وذلك بأن تشترك في وضع النظام الإداري والقانوني الآنف ذكره وفي إجراء تنفيذ مفعوله وتوسيع نطاقه في المستقبل

و حيث أنه تراهى من جملة وجوه أصوبية إلحاق وادى حلقا وسوا كن إداريا بالأقاليم المفتوحة المجاورة لها

و فلذلك قد صار الاتفاق والإقرار فيما بين الموقعين على هذا بما لها من التفويض اللازم بهذا الشأن على ما يأتي وهو :

المادة الأولى

تطلق لفظة السودان في هذا الوفاق على جميع الأراضي الكائنة إلى جنوبي الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض وهي :

أولاً - الأراضي التي لم تخلها قط الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٢ ، أو
ثانياً - الأراضي التي كانت تحت إدارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان
الآخيرة وفقدت منها وقتياً ثم افتتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة
المصرية بالاتحاد ، أو

ثالثاً - الأراضي التي قد تفتتحتها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من
الآن فصاعداً

المادة الثانية

يستعمل العلم البريطاني والعلم المصري معا في البر والبحر بجميع أنحاء السودان
ما عدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها إلا العلم المصري فقط

المادة الثالثة

تفوض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية في السودان إلى موظف واحد يلقب
(حاكم عموم السودان) ويكون تعيينه بأمر عال خديوي بناء على طلب حكومة
جلالة الملكة ، ولا يفصل عن وظيفته إلا بأمر عال خديوي يصدر برضاء
الحكومة البريطانية

المادة الرابعة

القانون وكافة الأوامر واللوائح التي يكون لها قوة انقانون المعمول به والتي
من شأنها تحسين إدارة حكومة السودان أو تقرير حقوق الملكية فيه بجميع أنواعها
وكيفية أيلولتها والتصرف فيها يجوز سنها أو تحويلها أو نسخها من وقت إلى آخر
بمَشور من الحاكم العام ، وهذه القوانين والأوامر واللوائح يجوز أن يسرى

مفعولها على جميع أنحاء السودان أو على جزء معلوم منه ، ويجوز أن يترتب عليها صراحة أو ضمناً تحوير أو نسخ أى قانون أو أية لائحة من القوانين أو اللوائح الموجودة ، وعلى الحاكم العام أن يبلغ على الفور جميع المنشورات التى يصدرها من هذا القبيل إلى وكيل وقنصل جنرال الحكومة البريطانية ، بالقاهرة وإلى رئيس مجلس نظار الجناب العالى الخديوى

المادة الخامسة

لا يسرى على السودان أو على جزء منه شىء ما من القوانين أو الأوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التى تصدر من الآن فصاعداً إلا ما يصدر بإجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السالف بيانها

المادة السادسة

المنشور الذى يصدر من حاكم عموم السودان ببيان الشروط التى بموجبها يصرح للأوروبيين من أية جنسية كانت بحرية المتاجرة أو السكنى بالسودان أو تملك ملك كان ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا أية دولة أو دول

المادة السابعة

لا تدفع رسوم الواردات على البضائع الآتية من الأراضى المصرية حين دخولها إلى السودان ، ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع القادمة من غير الأراضى المصرية ، إلا أنه فى حالة ما إذا كانت تلك البضائع آتية إلى السودان عن طريق سواكن أو أية ميناء أخرى من موانئ ساحل البحر الأحمر لا يجوز أن تزيد الرسوم التى تحصل عليها عن القيمة الجارى تحصيلها حينئذ على مثلها من البضائع الواردة إلى البلاد المصرية من الخارج ، ويجوز أن تقرر عوائد على البضائع التى تخرج من السودان بحسب ما يقدره الحاكم العام من وقت إلى آخر بالمنشورات التى يصدرها بهذا الشأن

المادة الثامنة

فيما عدا مدينة سواكن لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة على أية جهة من جهات السودان ولا يعترف بها فيه بوجه من الوجوه

المادة التاسعة

يعتبر السودان بأجمعه ما عدا مدينة سواكن تحت الأحكام العرفية ويبقى كذلك إلى أن يتقرر خلاف ذلك بمنشور من الحاكم العام

المادة العاشرة

لا يجوز تعيين قناصل أو وكلاء قناصل أو مأموري قنصليات بالسودان ولا يصرح لهم بالإقامة به قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية

المادة الحادية عشرة

ممنوع منعا مطلقا إدخال الرقيق إلى السودان أو تصديره منه وسيصدر منشور بالإجراءات اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن

المادة الثانية عشرة

قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منهما على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٢ يولييه سنة ١٨٩٠ فيما يتعلق بإدخال الأسلحة النارية والذخائر الحربية والأشربة المقطرة أو الروحية وبيعها أو تشغيلها

الامضاءات

تحريرا بالقاهرة في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩

(كرومر) (بطرس غالى)

وقد احتج الفقيه على هذه الاتفاقية احتجاجاً شديداً ، وأسمع العالم الأوروبى
صوته الداوى كعادته فى الدفاع عن القضية الوطنية

نشرت جريدة (الجولوا) للفرنسية خطاباً للمترجم بالعدد الصادر فى ٦ فبراير
سنة ١٨٩٩ هذا تعريبه :

جناب المدير المحترم

إن اتفاقية السودان المزعومة بين مصر وإنجلترا قد جاءت برهاناً جديداً على
عدم مراعاة إنجلترا للعهود والمؤتمرات ، الشيء الذى يعتبره المصريون جميعاً باطلاً
لأنه مخالف للنظامات الأوروبية والقوانين الدولية ، فإنه أو لا ليس لحكومة مصر
أى حق فى عقد اتفاقية كهذه الاتفاقية ، لأنها تخالف نصوص فرمانات السلطانية
الصادرة إلى خديو مصر ، وإذا قال قائل إن السودان سلخ من مصر بقرار
وزارى أو بأمر عال فى سنة ١٨٨٤ . وأصبح السودان خارجاً عن أملاك مصر ولا
يصح أن تطبق عليه نصوص فرمانات السلطانية فإننا وكل رجال القانون نعتبر
هذا السلخ غير قانونى لأن نصوص فرمانات صريحة فى أن ليس لمصر الحق فى
التنزل أو استبعاد أى جزء من أجزائها عنها بإرادتها ، إذا فالسلخ غير جائز ، وعقد
الشركة عمل باطل ، وفيه اعتداء صريح من إنجلترا المحتملة للبلاد

ثم ألم يصرح ميثاق ترايبا ،^(١) الذى كانت إنجلترا فى مقدمة الدول الست
التي وقعت عليه بأنهن يتكاتفن فى المحافظة على أملاك مصر وألا يكون لإحدها
ميزة على الأخرى ، وأنه لا يجوز لأية واحدة منهن أن تبيع لنفسها امتلاك شبر
من الأراضى المصرية

(١) هو العهد المعروف بميثاق النزاهة ، وقد وقع عليه أعضاء مؤتمر الاستانة فى ترايبا
على شاطئ البوسفور فى إبان الحوادث العراقية وبمقتضاها تعهدت الدول الست بأنها فى كل
اتفاق يحصل بشأن تسوية المسألة المصرية لا تبحث عن احتلال أى جزء من أراضى مصر
ولا الحصول على امتياز خاص بها (راجع فى تفصيل ذلك كتابنا عن الثورة العراقية ص
٣٢٤ وما بعدها)

« عارضت الحكومة الفرنسية في قرض تجريدة السودان ، وقد كان حكم المحاكم المختلطة وهي الممثلة لجميع الدول موافقاً لرأيها ، فجاءت إنجلترا وأقرضت مصر ما احتاجت إليه من المال ، ثم ماذا جرى بعد ذلك ؟ أدخل الإنجليز أنفسهم ببعض جنود ليسوا في العير ولا في النفير ليسوغوا هذه النتيجة السيئة التي ليست في نظرنا إلا اغتيالاً للحقوق القومية في راحة النهار وسرقة على مشهد من الأمم جمعاء . إن الجنود الانجليزية اشتركت اسماً في حملة دنقلة ليسوغ الانجليز هذا العمل بعد أن صرح سؤاسهم أمام العالم كله بأنهم لا يقصدون بإرسال جنودهم إلى السودان صحبة الجنود المصرية إلا ليردوه إلى مصر تنفيذاً للخطة التي رسموها من احتلالهم مصر وإجابة لصوت شرفهم ، ألم يقل اللورد سالسبري بأعلى صوته : « إننا نعمل لرد السودان إلى مصر .

« انظرنا وانتظر العالم كله نتيجة هذا الاسترداد ، فكانت فظاعة انجليزية متناهية ، إذ نبشوا القبور وبعثروا الجثث وأهانوا الموتى وخالفوا في ذلك تاريخ المتقدمين والمتأخرين من المتحضرين ، ثم قامت معضلة فاشودة بين كاتشتر ومارشان أو بعبارة أخرى بين الحكومتين الانجليزية والفرنسية ، وانتهت بتقمقر فرنسا . فطمع الانجليز طمعاً كبيراً ورفعوا رأيهم على الخرطوم بجوار الراية المصرية ، وقد رفعوها سوداء ليوهموا أنها حداد على غردون ، وبذلك يكونون آمنين شر هياج الجنود المصرية ! ، أخذوا بعدئذ يوزعون الجنود المصرية هنا وهناك ، حتى إذا خلا لهم الجو ونضج الطعام بين كراسي الوزراء المصريين أكلوا اكلتهم وبدلوا الراية السوداء براية هذه الشركة المشثومة

« هذا ما جرى ، وانا ننتظر أن تعضد أوروبا الحكومة العثمانية التي لا بد أن تحتاج احتجاجاً شديداً على هذا العمل المخالف للعهود والمعاهدات والشرف كل المخالفة ، نعم ان أوروبا اذا لم تعمل ما تحتمه عليها واجباتها استهانت إنجلترا بأمرها وأتت من المنكرات في وادي النيل مالا يكون السودان بجانبه شيئاً مذكورا ، فإن المسألة لم تكن مسألة السودان فقط بل هي مسألة مصر نفسها ، بل مسألة افريقية أيضاً ، فإن مصر لا تسكون بلداً غنياً قادراً على القيام بدفع ديونه إلا اذا كان مالكا لينايبع

النيل التي هي في صميم السودان ، وإن مشاركة انجلترا لمصر في تملكه وهي الشرهة الطامعة التي لا يكفيها نصيب أو نصيبان ، لما يهدد المصالح الأوروبية ويجعل المستقبل مظلماً ، وتصيح الدول التي تظن بها اليوم خيراً في مقدمة الساخطين على جشعها ، كذلك فإن لكثير من الدول الأوروبية أملاكاً في أفريقيا ، وهذه الأملاك تصبح لا محالة تحت رحمة الدولة الإنجليزية التي لا تريد إلا أن تضع يدها على كل أفريقيا ليسكون لها منها هذبة ثانية ، وإن الحملات العديدة التي حملتها بواسطة رجالها السياسيين على حكومة الترنسفال والأورنج ليست الا دليلاً قوياً على حقيقة مظالمها الإفريقية

و أما فرنسا فإنها بسبب هذه السياسة قد أساءت الى نفسها كثيراً ، فبعد أن كان المصريون يعتمدون بعض الاعتماد عليها وكان الخديو يجدها الدولة الثانية بعد الدولة العثمانية للدفاع عن حقوقه وحقوق أمته ، أصبحوا اليوم وهي أمامهم من حيث التأثير في المسألة المصرية أقل من أضعف دولة أوروبية ، نعم اني أصرح بذلك جهاراً لأن السياسة القائمة على الجبن والخوف ليست إلا سياسة مضيعة للحقوق مبددة للنفوذ ، مزرية بكل كرامة ، وانى لا أتصد بذلك أنه كان يجب على فرنسا أن تحارب انجلترا بشأن فاشودة ، كلا ، ولكنى كنت أرى من الحكمة أن تقبل ترك فاشودة بشرط أن يعود كل شيء إلى مصر ، حتى إذا حانت ساعة الخلاص عادت مصر إلى قوتها وفي يدها كل أملاكها ، ولكن الحال كانت على الضد من ذلك ، اذ تظاهرت فرنسا بالرغبة في الدفاع عن عمل رجلها الكبير مارشان وشرف رايتهما . ثم في لحظة واحدة تنزلت عن هذا الدفاع بلائمن ، فأخجلتنا بالخط من كرامتها وبعثت اليأس من جهتها الى قلوب كثيرة كانت تراها من قبل دولة الهمة والكرامة ، أما من جهتي فإني لا أياس أبداً من مستقبل بلادى ، بل بالعكس أجد التمسك بالدفاع عنها في شدتها أوجب على منة في رغائها ، وأنه إذا كانت انجلترا تلعب بمصالح الدول فإنها لا تستطيع أبداً أن تلعب بقلوبنا التي تنمى فيها بعمامها الجائر الحقن عليها كل يوم ، واننا اذا كنا نحمل لها اليوم شيئاً كثيراً من الكره والحقن ، فإننا في مقتبل الأيام سنسكون ألد أعدائها العاملين على نكالتها اذا هي بقيت مصر

على مخالفة وعودها وعودها معنا ومضيها في هذه الشركة الباطلة

« وليعلم الفرنسيون الذين نجلهم ونحترمهم ونحفظ لهم جميلهم السابق أن عمل
سياستهم لا يمحو حسناتهم معنا ، واسكن ، وهو ما نأسف له ، لم يبق في قلوبنا ذرة
من الاعتماد عليهم بعد أن أعلنت الأيام خيبة سياستهم في وادي النيل ،

« مصطفى كامل »

دعوته إلى نشر التعليم القومي

انجبت عزيمة المترجم منذ سنة ١٨٩٩ إلى حث الأمة على نشر التعليم القومي في
أرجاء البلاد لكي تقوى الروح الوطنية في نفوس الجيل الجديد ويستعد الشباب
للاضطلاع بأعباء الجهاد ، وكان المرحوم حسين بك القرشولي أحد سعاة الأعيان
بالقاهرة أول من لبى دعوته وأسس مدرسة على نفقته بالحليسة ، وأقام لافتتاحها
احتفالاً فخماً في سراي الحلية يوم ٨ يناير سنة ١٨٩٩ عيد الجلوس الخديوي ،
وقد أمم جمع كبير من العطاء والكبراء وأساتذة المدارس والموظفين والأعيان ،
وكان المترجم خطيب هذا الاحتفال ، وقد شكر صاحب المدرسة الحاضرين على
تلبيةهم دعوته إلى حضور الحفلة ، ثم دعا المترجم إلى الخطابة ، فوقف وألقى خطبة
نفيسة في الحث على نشر التعليم القومي ، بدأها بشكر صاحب المدرسة على أريحيته ،
قال : « ولئن قصرنا في مديحه والثناء عليه ، فلسوف يذكره التاريخ بالحمد الجزيل
مادام هذا العمل المبارك قائماً يبعث النور إلى العقول وغذاء التربة السليمة إلى
النفوس » ، ونوه بالمعاهد والمدارس التي تأسست في مصر على عهد محمد علي الكبير ،
وكان لها الفضل في نهضة مصر العلمية ، ثم استحث أعيان البلاد وأغنياءها على البذل
في سبيل إقامة صرح العلوم والمعارف في البلاد

إنشاء مدرسة مصطفى كامل

(مارس سنة ١٨٩٩)

وكان من أثر دعوته إلى نشر التعليم القومي أن هزت الأريحية اثنين من الشباب
وهما محمد أفندي سعيد التومي وأحمد أفندي صادق ، فأسسا في جهة باب الشعريّة

مدرسة أهلية بسراى العزنى ، وطلبا من الفقيد أن يقبل تسميتها باسمه ، فقبل منهما طلبهما بكل ارتياح وأعلنا عن ذلك فى الصحف فى يناير سنة ١٨٩٩ (١)

سارت المدرسة بإدارة مؤسسها نحو ثلاثة أشهر ، ثم رأيا أن تكون ملكا للفقيد يتولى زمامها ويقوم بأعبائها ونفقاتها وإدارتها ، وأعلنا عن ذلك فى مارس سنة ١٨٩٩ ، فقبل الفقيد هذا العبء الى جانب أعبائه السياسية والوطنية ، لأنه رأى فى إنشاء هذه المدرسة وإدارتها توجيها للنشء الجديد الى التربية القومية التى تغرس فى نفوسهم الفضائل الوطنية والدينية ، ونشر بهذه المناسبة البيان الآتى :

« حضرة مدير جريدة المؤيد »

« علم قراء جريدتكم الغراء أن المدرسة المسماة باسمى بسباب الشعبية قد آل أمرها إلى وأصبح شقيقى هو المدير لها

« وإنى أعلم أن حمل المدرسة ثقيل وأتعبها كثيرة ونفقاتها طائلة ، ولكنى قبلتها بكل ارتياح أملانى فى خدمة أبناء الوطن العزيز وترقية مدارك الناشئين ، وإنى أتشرف اليوم بإعلان الجمهور أن التعليم فى هذه المدرسة مقرون بالتربية ، لانى أعتقد أن التعليم بلا تربية عديم الفائدة ، بل ربما كان كثير الأضرار ، وأقصد بالتربية التربية الإسلامية المحضة لأن أساس التربية الدين ، وكل أمة يتربى أبناؤها على غير قواعد الدين تكون عرضة للدمار والانحطاط

« وقد رأيت بنفسى فى أغلب مدارس أوروبا اهتماما فائقا بتعليم الدين المسيحى للناشئين ، لذلك عولت على جعل الغرض الأول من المدرسة ترقية الملكة الإسلامية عند التلاميذ ، وتمكين مبادئ محبة الوطن والانحاد والاتلاف من نفوسهم ، وتقديم اللغة العربية على كل لغة ، مع ترك الحرية لأبائهم فى الاختيار لهم بين اللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية ، ورغبة منى فى نفع أبناء الفقراء قررت قبول ثلاثين فى المائة منهم مجانا

« وإنى أسأل الحق سبحانه وتعالى أن يوفقنى وجميع المصريين لخدمة الوطن

العزیز الذی أرى السعادة الکبری فی التفانی لأجل سعادتہ ، هذا وأرجو منکم أن
تفضلوا بنشر هذه الکلمات فی محلیات جریدتکم وأن تقبلوا الخ

المخلص

مصر فی ٢٨ مارس سنة ١٨٩٩

« مصطفى كامل »

وقد انتقلت المدرسة فی يناير سنة ١٩٠٠ من سراى العزیز إلى سراى السلحدار
بشارع أمير الجیوش البرانی ، وعنى الفقید بأمر هذه المدرسة ووضع لها برنامجا
صالحا یجمع بین التعلیم وتهذیب الأخلاق ، وكان یقیم فی ختام کل عام دراسی
احتفالا سنویا لتوزیع الجوائز علی النابغین فی المدرسة تشجیعا لهم علی الاستزادة
من العلم ، وكانت هذه الاحتفالات تجتمع أكبر القوم ، وكان المترجم یتلقى فیها
خطبا جامعة تزيد من روعتها وتعلی من قدرها

سفره إلى أوروبا

ابريل سنة ١٨٩٩

برح مصطفى نجر الاسکندریة یوم ٤ ابریل سنة ١٨٩٩ قاصدا أوروبا لیستأنف
جهاده فی محافلها وأندیته وصحافتها ، فذهب إلى فیینا ثم إلى باریس فبرلین فبودابست ،
وفی کل عاصمة كان یرفع صوت مصر علی صفحات الجرائد الکبری ، ثم ذهب إلى
الاستانة وحادث مراسلی الصحف الأورویبة والأمریکیة عن المسألة المصریة

الإععام علیه برتبة المتمايز

وفی یونیة سنة ١٨٩٩ أنعم علیه السلطان برتبة المتمايز فصار (مصطفى بك كامل) ،
وما ذاع نبأ الإععام علیه فی مصر حتی ارتاحت له نفوس أصدقائه وأنصاره ،
ونفوس الوطنین عامة ، وعدوه تسکریما للحركة الوطنیة فی شخصه ، وتلقى النهائی
من الجهات كافة

وعاد إلى باریس فی یونیة سنة ١٨٩٩ ، وألقى فی قصر مدام جولیت آدم یوم ١٨
یونیة خطبا سیاسیا دافعا عن مصر ومطالبها ، سمعه الکثیرون من الکتاب والسیاسین
الذین كانوا یؤمنون دار هذه السیدة العظیمة

عودته الى مصر

وعاد إلى مصر معرجا على الاستانة ، فأنعم عليه في أغسطس بالرتبة الأولى من
الصف الثاني ، ثم بالوسام المجيدى الثانى

خطبته بالقاهرة

١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٩

ألقى يوم ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٩ خطبة رائعة بالتيارو الطليانى كان لها دوى
كبير فى جميع المحافل والدوائر ، افتتحها بالكلام عن مصر فى عهد الاحتلال قائلا :
« إنه كلما تقادم هذا العهد تضاعفت واجباتنا نحو الوطن العزيز ، فقد ظهر للعالم أجمع
أن إنجلترا تعمل للاستيلاء على مصر ووادى النيل ، وترمى إلى نزع كل سلطة من
أيدي المصريين ، وتحقق للعامة والخاصة أن المدنية الإنجليزية لا تعرف فى سياستها مع
الأمم الضعيفة معنى للوعود والعهود ، ولا ترعى حرمة للعادل والانصاف ،
وطعن فى سياسة أوروبا عامة قائلا :

« كنا نود من صميم أفئدتنا أن يقوم الإنجليز بوفاء وعودهم واحترام شرف
عهودهم ، وأن يبرهنوا للعالمين أن المدنية الصحيحة هى المدنية القائمة على الفضائل
الحقيقية ، المنافية لاغتتيال حقوق الأمم . ولكن من سوء حظ النوع البشرى أن
المدنية الحاضرة أبطلت الرق فى الأفراد وأعلنته فى الشعوب ، واستهجنّت مخالفة
الذمة والشرف فى المعاملات الشخصية وسمحت بها فى المعاملات الدولية ،

ثم انتقل إلى الكلام عن حالة الأمة المصرية وما هى عليه من التأخر قائلا :
« إن المسألة المصرية الحقيقية ليست هى مسألة الاحتلال ، ولكنها مسألة تأخر
الأمة المصرية ، واستحكام الشقاق بين أفرادها ، وما مسألة الاحتلال الإنجليزى
إلا مسألة فرعية بالنسبة لها ، فان بقاء الأمة متأخرة منحلّة الأعضاء يعرضها إلى كافة
الايخاطر فى سائر الازمان ، وتقدمها فى طريق العرفان وانفصاق بنيتها على خدمتها
وتعاوضهم على إسعادها يحميها من الطوارئ والنوازل ويقيها شر الأعداء ،
ودعا إلى تعميم التربية والتعليم وجعل الدين أساس التربية الصالحة

الفصل التاسع

ظهور اللواء

(يناير سنة ١٩٠٠)

والجهاد الأكبر

بدأ مصطفى كامل حياته الصحفية وهو بعد في مدرسة الحقوق ، إذ أصدر مجلة (المدرسة) في فبراير سنة ١٨٩٣ ، كما تقدم بيانه في الفصل الثاني (ص ٣٥) ، ثم أخذ يرسل مقالاته إلى الصحف من مصرية وأوروبية كما أسلفنا ، وكانت (الأهرام) أكثر الصحف ترحيباً بمقالاته ، يليها (المؤيد) ، وقد رأى الفقيد أن لا بد له من جريدة يومية يتصل بالرأي العام بواسطتها باستمرار ، ويغذى بها عقول القراء ونفوسهم ، ثم تكون علماً للحركة الوطنية التي بعثها واقتاد زمامها ، وقد اختار لهذه الجريدة اسم (اللواء) ، فكان اختياراً موفقاً ، إذ كان اللواء هو الراية التي التف حولها الوطنيون سنين عديدة طول حياته ، وبعد وفاته ، وكان ظهور اللواء من أبرز أعمال الفقيد وأكبرها أثراً في الشعب وفي الحركة الوطنية ، حتى صار أكبر تعريف له بين معاصريه أنه (صاحب اللواء) ، وعلت منزلة (اللواء) في نفوس الشعب ، وصار اسمه محبباً للنفوس ، حتى سمي باسمه كثير من محلات التجارة والمقاهي والمعاهد ، وإلى الآن لا يزال اسم (بار اللواء) علماً للبقية المعروف بهذا الإسم أمام دار الأهرام ، واسم (أجازخانة اللواء) علماً على الصيدلية الموجودة بباب اللوق الخ أعد المترجم معدات (اللواء) عام ١٨٩٩ ، وصدر العدد الأول منه يوم الثلاثاء ٢ يناير سنة ١٩٠٠ (غرة رمضان سنة ١٣١٧ هـ) ، وكانت داره الأولى بالمنزل رقم ١٣ بشارع فهمي بجوار محطة باب اللوق ، ثم انتقل بعد حوالي عامين إلى المنزل الفخم رقم ٢٩ بشارع الدواوين^(١) (نوبار باشا الآن) ، أمام وزارة الحفانية ، وهو المنزل

(١) الآن رقم ٣١ مكان مدرسة عابدين الابتدائية الأميرية

الذي عرف بدار اللواء ، وتوفي فيه الفقيد ، وقد علا شأن الجريدة في عالم الصحافة من أول ظهورها ، وأخذت مكائنها في نفوس الشعب ، ولا غرو فإن شخصية صاحبها قد حببتنا إلى القلوب ، وأضفت عليها روعة ومكانة سامية ، وكان المترجم لطول خبرته بالصحافة واتصاله المستمر بها سواء في مصر أو في أوروبا قد اكتمل نضجه الصحفي ، فضلا عن كفايته وذكائه ومقدرته الفطرية في التحرير والإدارة ، فظهر الفن الصحفي في اللواء كاملا ، بما كان له أثره في انتشاره وعلو مكانته ، وكان يصدر يوميا باستمرار حتى في يوم الجمعة ، ولا يحتاج عن القراء إلا في اليوم الأول من عيد الفطر وعيد الأضحى ، ثم أخذ يحتاج يوم الجمعة ابتداءً من شهر مايو سنة ١٩٠١ ، وكان يصدر في أربع صفحات ، ثم في ثمان صفحات باستمرار منذ أواخر سنة ١٩٠٦ ، بعد أن أحضر له آلة طباعة كبرى تطبع في الساعة الواحدة ١٢٠٠ نسخة

وكان الفقيد يكتب افتتاحية اللواء في أكثر الأيام ويوقع عليها بإمضائه ، وبمن كانوا يكتبون فيه المغفور له محمد بك فريد ، وشوقي بك أمير الشعراء ، وإسماعيل باشا صبري ، وخليل بك مطران ، ومصطفى بك نجيب مؤلف كتاب (حماة الإسلام) وإسماعيل بك شيمي ، والأستاذ ويصا واصف ، والأستاذ محمد فريد وجدي ، ومحمد بك لبيب البتانوني ، ومحمود بك سالم ، وفؤاد بك سليم (باشا) ، ومحمود بك أنيس ، ومحمود أفندي سلامة ، وأحمد أفندي حلمي ، والأستاذ عبد القادر حمزه ، والأستاذ محمد لطفى جمعة ، ثم عثمان أفندي صبري ، وسيد علي ، وأمين عمر (أبو حفص) ، ومحمد صادق عنبر ، ومحمد علام ، وغيرهم ، ثم أخذ تلاميذه يكتبون فيه منذ سنة ١٩٠٦ ، وصار اللواء شبه مدرسة تعلم المصريين حقوقهم وواجباتهم ، وتبث فيهم روح الوطنية والأخلاق ، وتبصرهم بحقائق بلادهم ومساوي الاحتلال وصنائعه ، وتستحثهم على الجهاد في سبيل الاستقلال ، وكان الفقيد لا يفتأ يذكرهم على صفحاته بعبء التاريخ ، ويحكي ذكريات الحوادث الماضية ، من مفاخر وهزائم ، كذكرى تنصيب محمد علي بإرادة الشعب ، وهزيمة الإنجليز في معركة رشيد سنة ١٨٠٧ ، ثم ذكريات ضرب الاسكندرية سنة ١٨٨٢ ، واحتلال الانجليز العاصمة ، وكان أيضاً يفسح صحائف اللواء لبيان جهاد الأمم في سبيل حريتها ، ويضرب الأمثال للامة

بما يجب أن يكون عليه الجهاد والعمل ، فضلا عن البحوث العلمية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية ، فغذى بذلك عقول المصريين ونفوسهم بروح الوطنية

وأصدر مجلة أسماها (مجلة اللواء) ، وهي مجلة شهرية تشتمل على أهم المقالات التي تنشر في جريدة اللواء اليومية ، وصدر العدد الأول منها في فبراير سنة ١٩٠٠ ، وفي ١٩٠٥ أصدر جريدة أسبوعية باسم (العالم الإسلامي) كان ينشر فيها المقالات والأنباء التي تهتم الأمم والدول الإسلامية ، وبخاصة تعريب ما تكتبه الصحف والمجلات الأوروبية عن العالم الإسلامي

ولقد كنت حينما ظهر اللواء سنة ١٩٠٠ لا أزال تلميذاً بالقسم الابتدائي بمدرسة رأس التين بالإسكندرية ، حيث كان والدي يتولى منصب الافتاء بمحكمة الشرعية ، ولم أكن قد فطنت بعد لقراءة الصحف ، وقضيت معظم القسم الثانوي أيضاً غير ملتفت إليها ، وبدأت خلال سنة ١٩٠٤ اذهب إلى قهوة بلدية أنيقة بشارع رأس التين ، تجاه سراي محسن باشا ، في كل أسبوع مرة ، وكان صاحبها الحاج احمد ، يقدم لنا شراب الليمون (الليموناده) وكان يتقنه كل الإتيقان ، حتى صار عالماً على قهوته ، ويطلعنا على بعض الصحف ، ومنها اللواء ، ولسكن لم أتبين بعد منهجه ، ولا منهج الصحف الأخرى ، ولم تسكن في ذهني أي صورة عن مصطفى كامل ، إذ لم أكن رأيت بعد أو سمعته ، وكنت وقتئذ في الخامسة عشرة من عمري ، ولما ذهبت إلى القاهرة ودخلت مدرسة الحقوق (أكتوبر سنة ١٩٠٤) لفت نظري اسم قهوة بجوار المدرسة تسمى (قهوة الحقوق) بشارع عابدين ، لصاحبها الخواجه (أندريا) ، فأعجب طلبة الحقوق وأنا منهم بهذا الاسم ، واخترناها لنقضي أوقات الفراغ والسمر بها ، وبدأت هناك أقرأ اللواء قراءة فهم وإدراك ، فتعجبنى روحه ومقالاته ، ثم صار بمثابة المدرسة التي تلقيت عنها مبادئ الوطنية ، كما أنه كان مدرسة للجيل كله

خطبة الفقيد بالإسكندرية

يونيه سنة ١٩٠٠

لم تصرف الفقيد أعماله في الصحافة عن توجيه الرأي العام بخطبه الوطنية التي كان لها من الوقع والأثر في النفوس أضعاف ما كان للقلم والكتابة ، فألقى مساء

٢ يونيو سنة ١٩٠٠ خطبة سياسية بتياترو زيزنيا بالإسكندرية ، في جمع كبير من الوطنيين ، وحضرها كثير من الأجانب ، وكان موضوعها شرح الحالة السياسية في ذلك الحين ، وشهد العزائم لمتابعة الجهاد والإشادة بالوطنية ، ثم الرد على حملات الصحف الأوروبية في ذلك الحين على الإسلام ، بدأ الخطبة بقوله :

« سادتي وأبناء وطني الأعزاء »

« كلما جئت الإسكندرية ، ورأيت هذه الحياة الحقيقية التي جعلت لكم مقاما محموداً بين بني مصر ، أعود شاعراً بأن لي في هذه المدينة الزاهرة أساتذة في الوطنية عنهم تؤخذ دروس محبة الأوطان ، ومنهم تعرف الأمة حقوقها وواجباتها ، وهذا ما أخرجني في السنين الأخيرة عن الوقوف أمامكم هذا الموقف ، ومناجاتكم في شؤون الوطن العزيز. ولسكني أشعر بأن تبادل الميول ، وانتقال العواطف الطاهرة من فؤاد إلى فؤاد ، واجتماع القلوب في وقت واحد حول آمال واحدة ، وسريان روح مشتركة في هذا المجموع العظيم ، مما يزيدنا اعتقاداً على اعتقاد ، وحباً للمديار على حب ، ويخفف عن الوطن المقدس آلام مصائبه العظام ،

وقال عن إيمانه بالمستقبل :

« إن أشد الناس أملاً في مستقبل أمتي وبلادي ، وأرى الشعب الذي أنامنه جديراً بالرفعة والسمو ، حقيقاً بالمجد والحرية والاستقلال ، ولولا هذا الأمل وهذا الاعتقاد لسكنت فارقت الحياة وتركت الدنيا غير آسف على أحد ، وكيف لا أكون ذا أمل وهذه أمتي أجد فيها روحاً جديدة وحياة صادقة ووطنية ناشئة قوية ، ومن منكم لا يرى ما أرى ؟ هل ينكر أحد شعور الأمة بحالتها وانتباهاها من رقتها وقيامها من هبتها وعملها خيراً وسعادتها ،

ومما قاله في الرد على حملات الصحف الأوروبية على الإسلام لمناسبة مقالات

المسيو هانوتو :

« قد يظن بعض الناس أن الدين ينافي الوطنية ، أو أن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية في شيء ، ولسكني أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان ، وأن الرجل

الذي يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حباً صادقاً ، وبفديه بروحه وما تملك يداه ، ولست فيما أقول معتمداً على أقوال السالفين الذين ربما اتهمهم أبناء العصر الحديث بالتعصب والجهالة ، ولسكني أستشهد على صحة هذا المبدأ بكلمة بسمارك أكبر ساسة هذا العصر وهو خير رجل خدم بلاده ورفع شأنها ، فقد قال هذا الرجل العظيم بأعلى صوته : « لو نزعتم العقيدة من فؤادي لنزعتم محبة الوطن معها ، وقال عن ارتباط المسلمين والاقباط :

« كيف يستطيع رجل وطني أن يدعو للشقان والبغضاء ، وهذه الدعوة مناقضة للوطنية الصحيحة ، فالأقباط إخوة لنا في الوطن تجمعنا بهم أشرف رابطة ، وقد عشنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق وأكمل اتفاق ، وكانت الخطبة من أبداع وأبلغ خطبه في الوطنية

سفره الى أوروبا

يونيه سنة ١٩٠٠

سافر الفقيه إلى أوروبا عن طريق الإسكندرية يوم ١٦ يونيه سنة ١٩٠٠ كعادته السنوية ، وعهد بإدارة اللواء في غيبته إلى شقيقه على بك فهمي كامل وكان لا يفتأ يرسل مقالاته الوطنية إلى اللواء في سياحته ، يناجى بها الوطن ويسدى إلى المصريين نصائح السامية ، فمن ذلك مقالته (صورة الوطن العزيز) كتبها على ظهر الباخرة سميراميس التي أقلته من الإسكندرية ونشرت في لواء ٢٨ يونيه سنة ١٩٠٠ ، ومقالة (وطن كوشوت) أرسلها من بودابست في ٣٠ يونيه سنة ١٩٠٠ عن جهاد كوشوت بطل المجر ، ومقالته (مظاهر المدنية الحقة) من فيينا في ٣١ يوليه سنة ١٩٠٠ عما يجب أن يفيد السائح المصري في أوروبا ، قال فيها : ولا يدرك الشرقى منا أسرار المدنية الغربية وأسباب قوة ممالكها إلا إذا زار المدارس والمعامل ، هنا وهناك ، ووقف على نظمات الحكومات ، وقرأ دستورها ، وأدرك أن كل جنس منها غيور على عاداته وأخلاقه ، حريص على دينه وأبعته ، وأن الفرد

يمثل في نفسه الأمة بأسرها . ويسير في كل حركاته وسكناته على ناموس ثابت
ودستور لا يتغير ،

وعاد إلى مصر في أغسطس سنة ١٩٠٠ ، واستأنف جهاده الصحفي في
اللواء ، وكتب في عدد ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٠ مقالة مهمة عن ذكرى احتلال
الإنجليز العاصمة

دعوة الأمة الى الاعتماد على نفسها

وأقام يوم أول أكتوبر سنة ١٩٠٠ احتفالاً فخماً في مدرسته لتوزيع الجوائز
على النابغين من تلاميذها ، وقد أمه جمع كبير من صفوة القوم دل على ما ناله في
نفوس المصريين من محبة واحترام وتقدير لجهاده في سبيل الوطن ، وكان في مقدمة
الحاضرين اسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شورى القوانين في ذلك العهد ، وألقى
على بك فهمى كامل خطبة شكر فيها الحاضرين وأفاض في بيان أعمال المدرسة ، ثم
وقف الفقيد وألقى خطبة نوى فيها بفضل العلم ، وجعل موضوعها وجوب اعتماد الأمة
على نفسها في نهضتها ، قال في هذا الصدد :

« لست الآن واقفاً أمامكم موقف المتباهي بعمله المعجب بصنعه ، ولكني
واقف موقف الخادم لأمتي ، المفدى نفعها براحتي ، فقد أسست هذه المدرسة غير
مفكر في صعوبة العمل وخطورة الأمر . غيز ملتفت إلى أقوال المشبطين للهمم ،
المميتين للعزائم ، وتهضت بها مدفوعاً باعتقاد تملك فؤادي وهو أن كل فرد في هذه
الأمة مطالب بخدمتها مهما قصر الآخرون وأهمل المهملون ؛ وسرت في طريق
هذا معتمداً على فاطر الأرض والسما ، نصير العاملين ، وعون المجتهدين ،

إلى أن قال :

« إن كل فرد مهما كان صغيراً مطالب بواجب يؤديه لبلاده ووطنه وأمتي ،
ولو ترك كل مصري لأبنائه من بعده حب العمل وعدم الاعتماد على الغير إرثاً ،
لأصبحنا وفينا حياة طيبة تحيي الآمال ، وتبعث العزائم عند الرجال ، وإني لست

أرى لبلادى آفة تهددها بالفناء مثل اعتقاد أبنائها أن الحكومة هي كل شىء ،
ويدها كل أمر وعليها كل واجب ، وأنهم لا يسألون عن هذا الوطن أبداً ، على
حين أن التاريخ ينطق بأفصح بيان أن الأمة التى تعتمد فى كل شؤونها على حكومتها
أمة منزلتها من الحكومة منزلة العبد من سيده ، أما الأمة التى تظهر فى ميدان الحياة
بنشاطها وجهادها وأعمالها ، متحدة مع الحكومة تارة ، عاملة وحدها تارة أخرى ،
هى الأمة التى منزلة الحكومة منها منزلة العبد من سيده ، وهامى ذى الأمم الغربية
نجدها تسبق حكوماتها فى فتح المدارس وإنشاء المكاتب وتأسيس المستشفيات والقيام
بكل عمل خطير ، مع أن حكوماتها من التروة وقوة السلطان بمكان ،

دعوته الى إحياء الصناعة

ودعا فى اللواء إلى إحياء الصناعة فى مصر ونشر التعليم الصناعى فى عدد ٢٥
أكتوبر سنة ١٩٠٠ ، قال فى هذا الصدد :

« فإيجاد روح الصناعة فى البلاد هو بلا مرأى أسمى خدمة تقدم إليها وأكبر
سعادة تجزى لرجال الغد ، وقد أدرك الكثير من فضلاء مصر هذه الحقيقة وهذا
الواجب ، فتبادلوا الحديث فى أمر تأسيس مدرسة صناعية ، ولكنهم لم يتعدوا ذلك
إلى العمل ، وأشد المصريين اهتماماً بهذا المشروع الجليل هم أعضاء جمعية العروة
الوثقى الذين برهنوا بأعمالهم المشهورة على أنهم رجال عمل ، يعرفون لمصر حقوقها
عليهم ولا يقصرون فى تأدية هذه الحقوق ، فوضع لهم صاحب الهمة الحديدية
« حسبو بك محمد ، مشروع تأسيس مدرسة صناعية لا يكلفهم من المال كثيراً ولكنه
يعود على البلاد وأبنائها بالخير الجزيل ،

إحياء ذكرى الرجال العاملين

كان الفقيد لا يفتأ يدعو الأمة إلى إحياء ذكرى العظماء والأفذاذ الذين خدموها
فى نهضتها ، ويرى فى ذلك دليلاً على حياة الأمة ، وقد كتب فى عدد ١٠ مارس
سنة ١٩٠١ يؤنب الأمة على إهمالها تخليد ذكرى فقيد المعارف على باشا مبارك ، قال :

« لاشئ يرفع مقام الوطنية في بلاد مثل إحياء ذكرى الرجال الذين أخلصوا في خدمتها ، وقضوا أعمارهم في العمل لإعلاء شأنها وتحقيق آمالها ، ولا شئ يبعث الوطن والوطنية مثل تمكّن داء النسيان في أمة وجهلها لتاريخها ، وعدم تقديرها للرجال المخلصين في خدمتها ، وقد بليت هذه الأمة المصرية العزيزة بذلك الداء العضال ، فتراها لانذكر الرجال إلا إذا كانوا القابضين على أزمة أمورها ، أو المحركين لحركة الرأي العام فيها ، ولا تهتم بالحوادث إلا عند حدوثها ، فليس للمصائب في نفوس أبنائها أثر يبقئ ، وليس كذلك للعظمة الماضية بقية باقية في الأفتدة والضمائر ، فلا غرابة إذا كان ذلك سدياً من أسباب تأخرها وعلة من علل انحطاطها ،

إلى أن قال :

« نهض المصريون عند وفاة المرحوم على باشا مبارك نهضة النار في الرياح ، ونادى كبير منهم بوجوب عمل اكتاب عام لإقامة أثر يخلد ذكرى هذا الشيخ الجليل الذى خدم العلم والأدب والوطن خدمة لا تنسى ، ولا يصح لأمة تريد أن تحيا أن تنساها ، فجمع شئ من المال ، ومضت الأيام والأعوام ، وهذا المشروع دفن لا يريد القوم أن يظهره للبلاء مرة ثانية ، أو يحدثوا الناس عنه حديثاً جديداً ، فإذا تم فيه ؟ وماذا قررت اللجنة المكلفة بإخراجه إلى الوجود ؟ هل ذهبت من النفوس محبة فقيد المعارف ؟ أم محت الأيام فضله وقضت على عمله حتى نسي ونسيت آثاره ؟ اللهم إن مصر لاتنال من السعادة نصيبها ، ولا تبلغ من الاستقلال مطلبها إلا إذا جعل أساس تربية أبنائها تخليد ذكرى النافعين من رجالها وبث في نفوس الناشئين الاقتداء بهم ومحبة الديار محبة المعارف بلماها المحيط بأسرار تاريخها الخبير بعلى تأخرها وأدواء انحطاطها ، وإلا فحال أن يبني على غير هذا الأساس بجد صحيح وعز دائم ،

هذا ما كتبه مصطفى كامل عن إهمال الأمة تخليد ذكرى على باشا مبارك ، فليت شعري ماذا هو قائل عن إهمال الأمة تخليد ذكراه هو ! لقد أفنى عمره في بعث الحركة الوطنية ، وضحي بحياته في سبيل مصر ، وذوت زهرة شبابه في فبراير

سنة ١٩٠٨ ، وصنع له تمثال لتخليد ذكراه ، وبقي التمثال أربعة وعشرين عاماً سجيناً ،
تضمن عليه الحكومة بإقامته في أحد الميادين العامة والأمة غافلة عن شأنه

• • •

(قد تفضل صاحب الجلالة الملك فاقترضت إرادته الإفراج عن تمثال الفقيد
واقامته في أحد الميادين السكبيرة العامة ، فقرر مجلس الوزراء بجلسة أول سبتمبر
سنة ١٩٣٨ اقامته في ميدان الملكة فريدة (العتبة الخضراء سابقاً) ، فجاء هذا القرار
من مآثر عهد جلالة الملك فاروق حفظه الله ، وأقيم التمثال في ميدان (مصطفى كامل)
كما تراه مفصلاً في الفصل الخامس عشر)

خطبته في افتتاح مدرسة الشوربجي ببريم

(ابريل سنة ١٩٠١)

كان مصطفى مشغوفاً بنشر التعليم القومي في البلاد ، داعياً إلى هذا الغرض . عاملاً
على تحقيقه . اعتبر ذلك في تشجيعه حسين بك القرشوللي على انشاء مدرسته ،
وخطبته في افتتاحها ، ثم انشائه مدرسة (مصطفى كامل) ، وقد أسس أحد خيار
الاعيان بمديرية البحيرة وهو المرحوم مصطفى بك الشوربجي سنة ١٩٠١ مدرسة
بجانية في بلدته (بريم) - قائمة حتى اليوم - وأقام احتفالاً فخماً بافتتاحها يوم ١٥
ابريل من تلك السنة حضره مدير البحيرة في ذلك الحين (أحمد فائق باشا) وكان
من خاصة أنصار الفقيد المعجبين بجهاده ، وحضرها جمع كبير من الأعيان والكبراء ،
وقد دعى مصطفى كامل إلى حضور الاحتفال ، فلبى الدعوة ، وكان موضع الاجلال
والاحترام من الحاضرين ، وألقى خطبة من خطبه العظيمة عن فضل العلم ، وأثنى
على منشىء المدرسة ، ونوه بحضور الناس أفواجا إلى هذا الاحتفال ، اجلالاً للعلم
واظهاراً لما في صدورهم من حب للوطن والميل لخيره ، وتكلم عن واجبات الأمة
أفراداً وجماعات نحو الوطن ، ودعا في خلال الخطبة دعوته الوطنية ، وبرهن على
أن في الأمة حياة حقيقية واستعداداً عظيماً للتقدم إذا وجد من يستحثها على
العمل ، وقال :

• سادتي الأعزاء

• إنني بكل ارتياح حضرت إلى هذا البلد الأمين ، وانتقلت من عاصمة الديار إلى هذه الجهة المباركة لمشاركة القوم في فرحهم واحتفالهم بما يصح أن نسميه عيد العلم والتربية ،

إلى أن قال :

• ليس في تشييد المدارس وإقامة المستشفيات والتنافس في الخيرات النافعة شيء يسر الوطن ويشرح صدره مثل نفى تهمة الموت الأدني عن المصريين ، قال القائلون وردد المرردون : « إن المصريين اتفقوا على ألا يتفقوا » ، ومرت هذه الكلمة في الأمة وتناقلها الصغير عن الكبير ، وشرحها فلاسفة السوء ، واعتقد الكثيرون صحتها حتى أخذ القوم يتساءلون عن مبلغ هذه الأمة من القوة والحياة ، يتساءلون هل هي إلى المجد والارتقاء سائرة ، أم إلى الموت والحياة والفناء هالوية

• فأجبههم بامن رفعت للعلم والوطن منارا عاليا ، أجبههم بأن المصريين اتفقوا على أن يتفقوا ، وأن جمعية العروة الوثقى في الإسكندرية ، وجمعية المساعي المشكورة في المنوفية ، والجمعية الخيرية الإسلامية في أنحاء القطر ، تنادي بأن في الأمة رجالا أحياء ذوي همم عالية ، وعزائم صادقة ، أجبههم بأن هذه المدارس الأهلية التي أنشئت في الديار بهمم الأفراد هي الحجج الدامغة على حياة الأمة ووجود من يهتم لأمر تقدمها ونهضتها .

• لاداء أضرار بالامة وأشد وبالا عليها مثل دام اعتقادها السوء في نفسها ، وبأسها من مستقبلها ، جاهدوا ضد هذا الداء ما استطعتم ، واعلنوا عليه حربا عوانا ، وبشوا في أبناء الأمة مبادئ الثقة بالنفس والاعتماد على المجموع ، وربوا البنين والبنات على محبة الوطن ،

• الوطن ! الوطن ! كلمة ترددها الألسنة وتكتبها الصحف ، وينطق بها الناس على اختلاف مراتبهم ، ويصيح بها كل إنسان ، فماذا للفرد الواحد في هذه الكلمة

بل ماذا له في الوطن نفسه ؟ ، له كل شيء ، ونصيبه من فخاره عظيم . كما أن مسؤوليته في مصائبه كبرى

• ألا يشعر الواحد منا بعظمة حقيقية وسمو كبير إذا قال (بلادي) وكانت بلاده عالية المقدر رفيعة الشأن والاعتبار ؟ ألا يجد في كلمة (بلادي) التصاقا بالوطن واشتركا في أفرحة وأحزانه بنصيب كبير ؟ ألا تدل هذه الكلمة وحدها على أن كل واحد منا مطالب بنصرة الوطن وإسعاده ؛ مسئول أمام الله وأمام الناس عما يناله من سوء وضر ؟

• ألا يكون المصري موضع الإكرام والإجلال بين شعوب الوري إذا قال (مصر بلادي) وكانت مصر مصدر العلم والنور ، ومقر التمدن والتقدم ، ومثال القوة والعظمة في الحرية والاستقلال ؟

• أجل . للصغير كما للكبير من المصريين نصيب في رفعة الوطن أو انحطاطه ، فلا يدعين أحد منكم أن غيره المسئول دونه عن القيام بخدمة البلاد وإعلاء شأنها . كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته ،

في باريس

سافر مصطفى إلى باريس في صيف سنة ١٩٠١ ، واتموز الفرصة لرفع صوت مصر في الصحافة الأوروبية ، وكانت حادثة فاشودة وما انتهت إليه من تراجع فرنسا وانصرافها عن فتح باب المسألة المصرية قد أوجدت جوا من اليأس من نجاح مصر في جهادها ، فرفع الفقيد صوتها من جديد ليعلن عن آماني قومه ومثابرتة على الجهاد

نشرت جريدة (الإكلير) الباريسية في عدد ٢٩ يولييه سنة ١٩٠١ مقالة في هذا الصدد قالت فيها :

• حضر أخيراً إلى باريس وطني مصري له في بلاده نفوذ عظيم ، ألا وهو مصطفى كامل بك صاحب جريدة (اللوام) التي تظهر في القاهرة ، وهو مشهور في

أوروبا ، ويعرف اسمه معرفة أكيدة كل المشتغلين بمسائل مصر ، وهو خطيب فصيح اللسان قوى الجنان ، طالما جمع صوته الصفوف وارتاح لسماع أقواله الكثيرون من أبناء وطنه وغيرهم ، وقد اهتم الإنجليز بالقضاء على هذا الاحتجاج الحى ضد احتلالهم مصر ، وحاولوا محو تلك الدعوة للاستقلال ، ولكنهم لم يفلحوا ، ولا سرا . في أن هذا الشاب المصرى هو من أهم أعلام العالم الإسلامى الذين يهمننا موقفهم ، فهو جذاب يستميل محدثيه بسهولة ، وآدابه عالية ، ويتكلم الفرنسية ببلاغة تامة ورقة سليمة .

وقد سأله محرر الجريدة عن شؤون مصر ، فأجابه بصراحة عن كل ما سأله ، وكان أهم سؤال وجهه إليه المحرر : هل المصريون يأنسون الآن من مستقبل بلادهم بعد حادثة فاشودة ؟ ،

فأجابه - كلا إننا لم نياس ، ولن نياس أبداً من مستقبل الوطن العزيز ، فإنا نعلم علم اليقين أن مصر مقبرة للأمم الطاغية ، ونعرف أن حظ إنجلترا فيها سيكون كحظ الدول المتقدمة عليها ، ولكننا إذا كنا غير يائسين من مستقبل بلادنا فإننا يأنسون كل اليأس من أى تعضيد يأتينا من أوروبا ، وأصبحنا نوجه هممتنا ونشاطنا لتعليم الأمة وتربيتها بإنشاء المدارس فى أنحاءها حيث ينشأ الشباب على أشرف مبادئ الوطنية والشهامة ويتعلمون من الصغر تاريخ العظمة السالفة ويربون على الثقة بالمستقبل والإيمان بأن لبلادهم فى الأيام الآتية مستقبلاً باهراً ومقاماً عالياً ،

احتفال مدرسة مصطفى كامل

(٢٧ فبراير سنة ١٩٠٢)

برئاسة الأمير محمد ابراهيم

علت منزلة المترجم فى نفوس المصريين لثباته فى مجاهدة الاحتلال ، وازداد إقبال القراء على اللواء ، وبدأت هذه المنزلة فى الاحتفال الذى أقامه لتوزيع الجوائز على النابغين من مدرسته يوم الخميس ٢٧ فبراير سنة ١٩٠٢ ، فقد حضر الاحتفال نحو أربعة آلاف مدعو ، حتى ضاقت بهم ساحة المدرسة ، واجتذبت وطنيته إلى

ميدان العمل أميراً من خيرة أمراء الأسرة العلوية ، وهو الأمير محمد إبراهيم (١) ليرأس الاحتفال ، فكان أول أمير رأس حفلة علمية أقامها زعيم الحركة الوطنية ، وهذا يدل على وطنية الأمير محمد إبراهيم ، كما يدل على قوة التأثير المعنوي للفقيد ، وهذا التأثير من خصائص الزعيم الوطني ، وقد حضر الاحتفال جمع كبير من الشخصيات الكبيرة في المجتمع ، نذكر منهم يحيى أفندي قاضي قضاة مصر ، الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الأزهر ، الشيخ محمد نجيب ، حسن باشا عاصم ، اسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شورى القوانين ، اسماعيل باشا صبرى الشاعر المشهور (وكيل وزارة الحفانية) ، محمود شكرى باشا ، فيضى باشا ، عبد الحيد باشا صادق ، عبد السلام باشا المويلحى ، وغيرهم ، وكانت لجنة الشرف التي تولت توزيع الجوائز مؤلفة من الأمير محمد إبراهيم رئيسها ، وحسن باشا عاصم ومحمود شكرى باشا عضويها

وقد خطب في الاحتفال على بك فهمى كامل شقيق الفقيد ومدير المدرسة عن اطراد سير التعليم فيها ونجاحها ونوره بالقسم المجانى فيها وألقى المترجم خطبة فياضة شكر فيها الأمير محمد إبراهيم والمدعويين على حضور الاحتفال بعبارة بليغة ، ثم عرج على دعوته الوطنية يبثها في النفوس ، وأشاد بنهضة مصر العلمية منذ عهد محمد على

محاربة اليأس والثقة في الأمة

ثم دعا إلى التضامن وتوحيد الكلمة والثقة في الأمة قائلاً : « عجبا وألف مرة عجبا ! كيف تسيء الظن بنفسها أمة تغلبت على الأيام والحوادث ، وقاتلت الليالي وما ولدت ، وقاومت تيارات الزمان أجيالا طوالا ، وأوقفتها وهى فى منتهى قوتها ، كيف يقول بعض أبناء هذه الأمة عنها إنها ماتت وزالت آثارها وأصبحت نسيا

(١) ابن الأمير إبراهيم باشا أحمد ابن الأمير أحمد رفعت بن إبراهيم باشا الكبير ، وقد توفى رحمه الله سنة ١٩٠٦ ، وهو والد الأميرين محمد على إبراهيم وعمرو إبراهيم

منسيا ، وهي التي اهتز مجدها الشرق والغرب ، وسارت الركبان بأحاديث مفاخرها؟
كيف يقضى اليائسون عليها وقد كانت قبل عهد محمد على أكثر أدواء وأقل أملا
في الشفاء من الآن ثم عادت لها الحياة والقوة والجاه والعز ورفعة الشأن ،

الثقافة الوطنية

ولست حاجة مصر إلى شيء في هذا الزمان مثل حاجتها إلى تخريج رجال متحدي
الكلمة ، مثقفي الرأي ، عارفين بتاريخها ، معتبرين بعبر حوادثها ، ناهضين بها مجدين
في سبيل إسعادها ، وليس لنا بإنشاء هذه المدرسة غاية غير هذه ، وإنما نحن لانزى
إلى تربية موظفين أو إعداد طلاب للشهادات ، وإن كان يسرنا على الدوام فوز
التلاميذ بين أقرانهم المتعلمين في المدارس الأخرى في الامتحانات العامة ، ولسكننا
نرمي إلى تخريج رجال خلافتهم محبة الوطن والتمسك بالفضيلة والارتباط بعضهم
ببعض والتفاني في خدمة هذه البلاد ، نرمي إلى تسكوي نفوس عالية تأبى الضيم والذل
وتهوى الشرف والمجد ، وترى الحياة بغير عز الأوطان وسعدها حياة شقاء وبلاء ،
ثم دعا إلى إحياء اللغة العربية لنشر الثقافة وإحياء الآداب وتقديم الأفكار ،
وضرب الأمثلة بنهضة اللغة القومية في بلاد المجر إذ كانت أداة للنهضة الوطنية فيها ،
وكانت خطبته تقاطع في معظم عباراتها بتصفيق الاستحسان

خطبة الأمير محمد ابراهيم

ونهض الأمير محمد ابراهيم ، وألقى بلغة عربية فصيحة خطبة قيمة موجزة كان
لها تأثير كبير في الحاضرين ، قال فيها :

• أيها السادة الكرام

• يسرني أن أراكم مجتمعين في هذا النادي ، نادي العلم والآداب ، فرحين بنجاح
أبنائكم نجاحا يبشر بخس مستقبلهم وفوز النابغين منهم بالجوائز التي أعدتها لهم
المدرسة ، وقد زرت هذه المدرسة منذ عامين ، وقضيت فيها زمنا تأكدت فيه أن



الأمير محمد إبراهيم

القائمين بأمرها والمدرسين لتلاميذها يقومون بواجباتهم حق قيام ، ولذلك تعلقت
بها وبمن فيها ، وما سمعت بهذا الاحتفال إلا وأتيت إليه مسروراً مرتاحاً
وإنسكم تعلمون جميعاً أن مصر كانت شمساً تضيء العالمين ، ومنبعاً غزيراً للعلوم
والمعارف ، ومنبتاً للفنائل ومكارم الأخلاق ، ثم قضى الجهل على ذلك كله حتى
تولى ملك مصر مولانا العباس الثاني ، وعمت روح العلوم أنحاء البلاد ، وأخذ
الجهل يتقلص عن هذه الديار العزيزة

وإني مسرور جداً بحضور هذا الاحتفال واشترأكي معكم في هذا العمل
الجليل ، وآمل أن هذه المدرسة تكون قدوة لكل راغب في بلوغ المراقي السامية ،

وأشكر سعادة مصطفى كامل بك لسكونه دعاني لرئاسة هذا المحفل ، وأسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى ما فيه الفائدة تحت رعاية أكبر نصير للعلوم والمعارف مولانا وليّ النعم الأفخم الحديو المعظم ،

وقد كانت هذه الحفلة وما حفّسها من المهابة والجلال ، ورياسة أمير من الأسرة العلوية لها ، وخطبته ، وخطبة الفقيد فيها ، وحضور جميع كبير من أعلام مصر وأقطابها ، كل أولئك كان مظهرآ واضحا بارزآ للمكانة العالية التي باغها مصطفى كامل بين الطبقة الممتازة من المجتمع ، وهذه المكانة كانت فوزآ له وفوزآ للحركة الوطنية التي صارت مرادفة لاسمه

الاحتفال بالعيد المئني لمحمد علي

٢١ مايو سنة ١٩٠٢

اقترح المترجم علي صفحات اللواء إقامة احتفال قومي كبير يوم ١٣ صفر سنة ١٣٢٠هـ (٢١ مايو سنة ١٩٠٢) تذكرا لمرور مائة عام هجري على اختيار زعماء الشعب محمد علي والياً على مصر ، قال في هذا الصدد تحت عنوان (العيد المئني لمؤسس العائلة الحديوية) :

« خير الأعياد عند الأمم عيد يذكرها بانتقالها من الظلمات إلى النور ، وخرورها من الجهالة إلى العلم والحضارة ، وارتقائها في سبيل الحياة العالية ، وارتباطها بعائلة مالكة أجلستها على العرش بإرادتها وصاغتها للنهوض إلى ذرى العلياء ونوال المنن والنعماء ، واعتمدت عليها في إرشادها إلى واجباتها وحقوقها والمقاصد السامية التي يجب أن ترمى إليها ،

وبعد أن أشاد بتاريخ محمد علي وما قام به من جلائل الأعمال في سبيل إنهاض مصر ، دعا إلى الاحتفال بالعيد المئني لولايته قائلا : « وهذا التذكار السامي يوافق ميعاده يوم ١٣ صفر سنة ١٣٢٠ ، أي لم يبق على حلوله إلا خمسة عشر شهراً (١) ،

(١) كتبت المقالة في عدد ١٣ شوال سنة ١٣١٨ - ٣ فبراير سنة ١٩٠١

فليفكر المفكرون فيما يجب على هذه الأمة عمله اعترافا بفضل مجيها ، وإجلالا للوطن نفسه ، الذي نهض في عهده نهضته الكبرى ، ووئب بين الأوطان وثبة الأسد القاهر ، فخير ما يحيي الوطنية في النفوس ويجمع جموع هذا الشعب العظيم الأسيف ذكرى العظمة الأهلية والمجد الوطني ، ولمثل هذا فليعمل العاملون ويتنافس المتنافسون ،

وفي الحق إن ابتكار الفقيدهذه الفكرة يدل على وطنية عالية ونظر صادق وفكر ناضج ، لأن خير ما يحفز الأمم إلى الجهاد في سبيل استقلالها المسلوب هو الاحتفال بذكريات مجدها وعظمتها ، ففي تلك الذكريات تقارن بين ماضيها وحاضرها ، وتدرك الفرق بينهما ، فتضاعف عزيمتها في الجهاد للتخلص من حاضرها المهين ، واستعادة مجدها التليد ، فلا غرو أن قوبل الاقتراح بالارتياح من الوطنيين ، كما قابله صنائع الاحتلال بالحققد والسخط ، لأن هذا الاحتفال هو في حقيقته مظاهرة تاريخية قومية ضد الاحتلال ، وقد تردد صدق الاقتراح في الصحف الأوروبية المحلية ، فكتبت عنه (الريفورم) مقالا جاء فيه :

« لقد اقترح رصيفنا وصديقنا مصطفى كامل بك في جريدته (اللواء) اقتراحا نوافقه عليه كل الموافقة ، وهو إقامة احتفال عظيم بتذكار مرور مائة عام على انتخاب أعيان المصريين للرجل العظيم واليا على مصر ، وان محمد علي هو مؤسس العائلة الحاكمة في مصر ، ومنشئ مصر الحديثة نفسها ، وقد أظهر مصطفى كامل في مقالته الجميلة العمل الكبير الذي قام به هذا الرجل العظيم وكيف أنه أنقذ هذه البلاد من الفوضى التي كانت تمزقها وأقام فيها نظاما محكما حتى صارت مصر في عهده من القوة والعظمة بمكان ،

وقد نجحت الفكرة نجاحا رائعا ، وألقى مصطفى بمسرح زيزنيا بالإسكندرية خطبة كبرى يوم ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ (١٣ صفر سنة ١٣٢٠) وهو يوم التذكار المثني لولاية محمد علي ، موضوعها (عمل محمد علي وواجبات المصريين نحو وطنهم) ، ضمنها ما عمله محمد علي لإحياء مصر ، وقارن بين مجدها في عهده ، وما صارت إليه من الذل والمهانة في عهد الاحتلال ، وناشد المصريين أن يهبوا لإحياء مجد مصر

واستقلالها ودستورها ، وقد كان الإقبال على سماع الخطيب عظيماً ، إذ حضر الاجتماع ثلاثة آلاف ونيّف من وجوه البلاد وأعيانها وفضلائها وموظفيها وشبابها ، وهرع إليه كثيرون من مختلف الأقاليم حتى من أسوان ، وقوبلت الخطبة في معظم مواضعها بالتصفيق والاستحسان ، وبخاصة عند ما ذكر الخطيب ضرورة إنشاء مجلس نيابي لمراقبة أعمال الحكومة وتمييد أعمالها ، فكانت دعوة الفقيد إلى المجلس النيابي في هذا الاحتفال الكبير أكبر دعاياه للدستور ، والخطبة طويلة ممتعة لاسيما إلى إيرادها أو تلخيصها هنا (١) ، وهي خلاصة تاريخية حليّة لأعمال محمد علي ، تتخللها استتارة النخوة الوطنية في النفوس ، وإثبات كفاية بيعة فقرات منها كنموذج لروح الخطابة وغرض الخطيب ، قال :

« من ذا الذي يذكر منا مجد مصر في عهد ذلك الأمير ، ولا يذكر أنه مسئول عن زواله مطالب باسترداده ،
وقال في موطن آخر :

« بأى قلب أم بأى ضمير أم بأى لسان أحدثكم اليوم معاشر المصريين عن حماية آبائنا للوطن ودفاعهم عنه ونضالهم عن حوزته أيام (محمد علي الكبير) ، وقد حاولت إنجلترا أن تقضى على هذا الملك الجديد ، وهذه الدولة الناشئة ، وتزيل من سماء المجد والإقبال هذه الشمس المشرقة ، فأراها يومئذ بنو مصر أي أمة هم ، وأراهم محمد علي أي أمير هو ، فتركت الثغور والبلاد ، آسفة على فشلها ، معجبة بهذا المجد الباهر والعزم القاهر والوطنية الحقة والهمة الحديدية ،

وقال أيضاً مشيراً إلى حالة اليابان حين نهضت مصر في عهد محمد علي :

« أين كانت اليابان يومئذ ؟ أين كانت هذه المملكة الناشئة ؟ كانت في دياجى الظلمات وغياب الجهل ، تعد إذا ذكرت في عداد الأموات ، فقّف أيها المصري فوق أطلال التاريخ وارقب الحوادث ، وانظر إلى أي حال صارت اليابان ، وإلى أي حال صرنا ، وماذا كنا نبلغ من الشأن والشأ ولو سلكنا ذلك السبيل الذي وجهنا إليه محمد علي الكبير ،

(١) نشرنا معظمها في الفصل الثاني والعشرين

وصف الخطبة وتأثيرها

كانت هذه الخطبة من أعظم خطب مصطفى كامل ، لجلال موضوعها ، وقد أحدثت في النفوس تأثيراً كبيراً تردد صداه في أرجاء البلاد وفي الدوائر الأوربية ، وكانت من أعظم دروس الوطنية التي ألقاها الفقيد في خطبه الكبرى ، ويبدو عظم تأثيرها مما كتبه الصحف في وصفها وما احتوى الوصف من إجلال للخطبة والخطيب كتب الشاعر الكبير خليل بك مطران يصف الاحتفال في الأهرام ، (١) بقوله :

« اكتب اليكم هذه السطور من موضع مشرف على البحر ، مجاور له ، أسمع منه مناداة حبابه ، ومناجاة نسائه ، وأرى من حركته الدائمة المستمرة ما يخيل لي أن على ظهر كل موجة مهداً ، يهز صعدا وخيبا ، وأن في المهد أمراً طفلاً ، سيكون بعد حين أمراً كهلاً ، فهل ذلك الأمر الذي تهزه الأمواج ، وتغذيه الشمس وتنميه الليالي ، سيكون أمنية مرجوة لمصر تنحقق ؟ وهل المناجاة اللتان أسمعهما أول أصوات البشرية التي ستعلو بعد حين ؟ ذلك ما أوهمتني إياه خطبة مصطفى بك كامل التي سمعتها البارحة بين جمهور لا يقل عن ثلاثة آلاف نفس مختلفي الجنس والدين ، أكثرهم من المصريين ، وغير قليل منهم الذين حضروا من القاهرة والريف ، وقف يتكلم في الساعة التاسعة ، وقد ضاق النادى على اتساعه بالناس ، عشرات عشرات في اللوجات ، جلوساً ووقوفاً في الكراسي وفيما بينها ، صامتين تشوقاً الى ما سيسمعون ، منتظمين انتظاماً طبيعياً ، ليس من عمل شرطى ولا ترتيب بواب ، بل من هيبه الموقف ورجاء ما يتوقع ،

وبعد أن أتى على ملخص الخطبة ختم رسالته بقوله :

« ولما فرغ الخطيب من التكلم صفق الناس حتى كلت الأيدي ، وخرجوا معجبين باقتداره وسعة صدره وشدة إخلاصه ، معتبرين بما سمعوه من مؤثر

العضات أعظم الاعتبار ، وأحاط بالخطيب جمهور من الأصدقاء فهناؤه أحسن تهته ، ولا غرو فإنه صوت مصر الحى ولسان ضميرها المجاهر ،

وقالت جريدة (البصير) :

• كان أمس موعد الخطابة التى ألقاها فى تياترو زيزينا حضرة الخطيب المقوه رصيفنا الفاضل سعادة مصطفى بك كامل صاحب اللواء الأغر ، فكان الملعب غاصاً بالحضور ، وما ساءنا انشغال المكان المعد لنا بقدر ما سرنا ما رأينا من الزحام الدال على إعجاب المصريين بالخطيب وتشوقهم الى سماع خطبته الوطنية ، فكان يندفع اندفاع السيل بما عرف به من طلاقة اللسان ، ويذكر من أعمال مؤسس البيت الخديوى الكريم وواجبات المصريين نحو وطنهم ما يثير الهمم فى النفوس الخامدة ، ويبعث روح الحياة الى المشاعر الميتة ، مذكراً المصريين أن كل أمة لاتعتمد على نفسها ولاثق بمجموعها فلا رجاء لها ولا تبلغ ما تبلغه الأمم المتمدنة فى سبيل الحضارة والعمران ، ثم أشار الى الفرق بين مصر اليوم وبينها فى عهد محمد على ، فأحاط بجميع أطراف هذا الموضوع بكلام كان غاية فى البلاغة ورشاقة التعبير ، حتى دوت جوانب المسرح بالتصفيق ، وتساقطت على الخطيب طاقات الزهر بالعثرات ، وفى الجملة فان الخطاب كان بديعاً من أكثر وجوهه . لو لم يرد فيه من التحامل على المحتلين وكبار رجال الحكومة ما تشارك فى الانتقاد عليه فريفاً ممن كان حاضراً من العقلاء ، لاسيما وأن الموقف لم يكن يحتمل مثل هذه الابحاث ، وفى كل حال فاننا نشئ على حضرة الخطيب ، وعلى ما رأينا من علائم الوطنية الصادقة التى كانت تبدو بين ثنايا الحضور ،

وتردد صدى الخطبة فى الصحف الاوروبية ووصفت الخطبة ونوهت بالمنزلة السامية التى نالها الفقيه فى اقياد الحركة الوطنية

قالت جريدة (الفارد الكسندرى) تحت عنوان (مصر للمصريين) ما يأتى :
• لخصنا فى عدد أمس الخطبة التى ألقاها أول البارحة بكل اقتدار ونجاح حضرة رصيفنا الفاضل مصطفى بك كامل ، وقد أبنا النجاح الذى ناله الخطيب والذى لم يكن ليشارك فيه أحد ، لأن صاحب (اللواء) الوطنى الشاب اعتاد مثل

هذا النجاح الخطابى الباهر ، ولكن ما منعنا ضيق الصحيفة عن ذكره البارحة والذي يجب علينا أن نقوله اليوم هو أن الجمهور العديد الذى حضر خطبة مصطفى بك كامل أظهر من العواطف والميول ما يعد استثنائيا بالنسبة لجمهور مصرى . فان الناس كانوا يعتقدون قبلا أن السواد الأعظم من المصريين لا يعرفون لكلمة (الوطنية) معنى ، وأن هذا الاعتقاد الذى كان أصحابه غير مخطئين فيه صار لا محل له الآن ، لأنه كان يكفى للانسان أن يرى أول البارحة تيار الوطنية الشديد الذى كان يخترق القاعة ويمر بين كل الصفوف ويشاهد التأثير القوى البادى على الوجوه كلما كان الخطيب يلقى عبارة وطنية ، ليعتقد أن المصريين يعرفون معنى الوطن والوطنية ، فأبناء مصر يظهرون الآن بمظهر الرجال العارفين لحقوقهم وواجباتهم وإخلاصهم نحو الوطن ، ولسنا بمبالغين إذا قلنا أن للخطيب الشاب الذى صفق له الجمهور أى تصفيق يدا قوية فى تغيير الميول المصرية ، وترقية العاطفة الوطنية ، فان مصطفى بك كامل أقام يجاهد بالرغم عن شبابه الغض نحو عشر سنوات لمصلحة وطنه ، واستخدم القلم واللسان والتعليم لهذا الغرض الشريف ، فهو يربى العاطفة الوطنية فى جريدته ، ويلقى الخطب عن الوطن وحقوقه ، ويعلم فى المدرسة التى أنشأها منذ ثلاث سنوات ٢٧٠ تلميذا ، فهو يعمل بهذه الأسلحة الثلاثة لإحياء الروح المصرية ،

وكتبت بهذه المعنى جريدة (الريفورم)

ووصفت جريدة (الكوريرى اجبسيانى) الإيطالية الخطبة بقولها :

« ازدحم الناس ازدحاما غريبا على تياترو (زيزنيا) حتى لم يبق مكان لجالس ولا محل لواقف ، وما خرج مصطفى بك كامل إلى منبر الخطابة حتى حياه هذا الجمهور الاستثنائى العدد بالتصفيق المستمر ، وقد ألقى الخطيب خطبته بقوة جنان وثبات واقتدار ، وكانت الوطنية بادية فى كل أقواله وإشاراته ، والحمة ظاهرة على وجهه ، وتأثير خطابته واصل إلى أعماق القلوب ، وإن النجاح الذى ناله عظيم ، ولا مرا. فى أنه يستحقه ،

ولم يفت جريدة (الاجبشيان جازيت) الانجليزية التي تعبر عن الاحتلال أن تنوه بجلال الاحتفال مع التحفظ في الوصف ، إذ قالت :

« ألقى مصطفى بك كامل خطبته البارحة على عمل محمد علي في تيانزو زيزنيا فازدحم المصريون لسماعها ، وبعد أن أثنى الخطيب على الباشا الكبير تكلم في الاحتلال البريطاني وذكر الموافقة بين تاريخي جلاء الانجليز عن الإسكندرية في ١٤ سبتمبر عام ١٨٠٧ ودخولهم مصر في ١٤ سبتمبر عام ١٨٨٢ ، وطلب من الحاضرين مساعدته على إخراجهم بالثاني ،

دعوته الى الدستور

كان مصطفى مع دعوته إلى الجلاء لا يفتأ يدعو إلى الدستور ليكون أداة الحكم الصالح في مصر ، كتب في عدد ٥ أكتوبر سنة ١٩٠٠ من (اللوام) مقالة بعنوان (الحكومة والأمة في مصر) ذكر فيها وعد اللورد دفرين باسم حكومته أن يؤسس في مصر مجلس نيابي وإخلاف الحكومة البريطانية هذا الوعد ، كإخلافها وعودها في الجلاء ، ثم قال :

« لعمرى إذا كان الانجليز يودون حقيقة أن يعيشوا مع هذا الشعب المصرى فى وفاق واتفاق ويسيروا به فى طريق السعادة كما يدعون ، فأول واجب نطالبهم به هو أن يحققوا وعد اللورد دفرين ويجعلوا للحرية والعدالة أساسات قوية متينة لا تستطيع يد بشرية ، انجليزية أو مصرية ، أن تمسها بسوء ،

وقد دعا إلى الدستور فى خطبته فى العيد المئتين لمحمد على يوم (٢١ مايو سنة ١٩٠٢) كما تقدم بيانه ، وكان على صفحات اللوام يدعو إلى المجلس النيابى كأداة لإصلاح عيوب الحكم ، كتب فى عدد ١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٢ مقالة تحت عنوان (إفلاس الاحتلال) أظهر فيها فساد الأداة الحكومية فى المعارف والداخلية ، وختمها بقوله :

« وعندى أن هذه الأدوار المختلفة والأدواء المتنوعة دالة كلها على شدة حاجة

هذه البلاد إلى مجلس نيابي تكون له السلطة التشريعية الكبرى ، فلا يسن قانون بغير إرادته ، ولا تحور مادة إلا بمشئته ، ولا يزعم نظام بغير أمره ، ولا تعلق كلمة على كلمته ، وإلا فإن بقاء السلطة المطلقة في يد رجل واحد سواء كان مصرياً أو أجنبياً يضر بالبلاد كثيراً ويجر عليها الوبال ،

وكتب تحت عنوان (إنشاء مجلس نيابي) في عدد ٩ مارس سنة ١٩٠٤ من اللواء ما يأتي :

« لعل قراء اللواء وغيرهم من أفراد الأمة المصرية يذكرون ما قلناه من فوق المنابر وكتبناه في هذه الجريدة وغيرها عن وجوب إنشاء مجلس نيابي منذ عشر سنوات كاملات ، ويسرهم كما سرنا أن هذا المطلب العزيز صار على ألسنة الكثيرين من أهل القطر ، لأنه الأناشود التي يجب أن يترنم بها المصريون بعد طلب الاستقلال ، وسواء كان سابقاً أو لاحقاً لتخلص البلاد من رق الاحتلال ، فإنه الضمانة الوحيدة والكفالة الصحيحة لسلامة القوانين والحرية الخاصة والعامة » ، إلى أن قال :

« ليس للاحتلال مصلحة في إيجاد مجلس نيابي لهذه البلاد ، ولكن صوت الأمة يعلو على صوته إذا تمسكت به ودعت إليه وطالبت وجاهدت بقوة الرأي والفكر والثبات التي هي أكبر القوى الفعالة في حياة الأمم ، فلتفعل فإنما هي تخطو بالوصول إليه أكبر خطوة في طريق الاستقلال ،

مجيء مدام آدم إلى مصر

(يناير سنة ١٩٠٤)

رغب مصطفى إلى مدام جوليت آدم المحي إلى مصر ليوطد علاقة الود والحب بينها وبين الوطن المصري ، فلبت الدعوة وجاءت في يناير سنة ١٩٠٤ ، واستقبلها استقبالاً حافلاً ، وقد استضافها عمر بك سلطان (باشا) بالمنيا ، وصحبها الفقيه في هذه الرحلة ومعها الأمير حيدر فاضل لمشاهدة آثار بني حسن ، وذهبوا إلى أسيوط حيث استقبلهم حسين بك فهمي المحامي وأحمد بك خشبه والسيد كامل بك خشبه ، وذهبوا

إلى البلينا ، حيث تناولوا الشاي بمنزل عبد اللطيف بك أبو ستيت ، ثم إلى الأقصر حيث استقبلهم بالحفاوة عبد الكريم بك العماري ويسى بك اندراوس ، وشاهدوا الآثار المصرية ، وذهبوا إلى إسنا ، فتناولوا الشاي بمنزل متولى بك حزين ومدني أفندي حزين ، ووصلوا في رحلتهم إلى أسوان فكانوا يقابلون في كل مكان بالحفاوة والإكرام

وقد حضرت احتفال توزيع الجوائز في مدرسة مصطفى كامل يوم ١٩ فبراير سنة ١٩٠٤ ، وكان احتفالا فخما حضره من شخصيات مصر البارزة يحي أفندي قاضي القضاة . والشيخ محمد بخيت . والسيد عمر مكرم . وحسين باشا واصف . واللواء بليغ باشا . ودانينوس باشا . وحضرت مدام آدم تصحبها مدام يونج زميلتها في السفر وبعض كبار الأوروبيين ، وألقى مصطفى كامل في هذا الاحتفال خطبة من خطبه الرنانة ، ضمنها وجوب تعليم النشء تاريخ بلاده والعناية بالتربية والأخلاق في المدارس وقصدت الفيوم في أواخر فبراير ، يصحبها مصطفى كامل ومحمد فريد وهدام يونج والسكونتس دي كولتور ودانينوس باشا ، ونزلوا ضيوفا على خالد باشا لطفى وقد رحب بها الفقيه ترحيباً عظيماً ، وكتب عنها مقالة بعنوان (ضيفة مصر) بعدد ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤ ، نوه فيها بشخصيتها الكبيرة قال :

« زارت مصر في هذه الأيام أميرة من أكبر أميرات الرأي والقلم والسياسة ، ألا وهي مدام جوليت آدم السكاتبة الفرنسية الطائفة الصيت ، زارت مصر وقد عشقتها من قديم ، وشغفت بها من عهد شبابها ، ودافعت عنها بقلها السيال السنوات الطوال ، فلذلك حق لمصر أن ترحب بها ، وللمصريين أن يقابلوها بالشكر والإعظام أتت ضيفتنا العزيزة في شهر أكتوبر الماضي (١٩٠٣) السنة السابعة والستين من عمرها ، ومضى عليها خمسون عاماً وهي السكوكب الساطع في سماء الأدب الرائع ، ونشرت إلى اليوم اثنين وعشرين مؤلفاً من أرقى المؤلفات وأسمائها ، وقد نفذت كلها لسكرة الراغبين في مطالعتها والمعجبين بها ،

إلى أن قال : « منحها الخالق كل مايرجوه الانسان في حياته ، من مال وجلال وعلم وأدب ، وسمعة طائفة ، ونفوذ كبير ، وقد استخدمت كل هذه المواهب في

خدمة وطنها ، فهو قبلتها ، وفي سبيله تضحي كل مرتخص وغال ، لم أر في رحلاتي
العديدة ومقابلاتي الكثيرة شخصاً أحب وطنه بهذا المقدار ، ولم أجد ثباتاً في الحب
كثباتها في حب بلادها ، وتفانيا في الخدمة كتفانيها ، وأملا قويا في المستقبل كأملها ،
ملا اليأس قلوب الكثيرين من الفرنسيين من رجوع الألبان واللورين لفرنسا
وبقيت هي قوية الآمال ، لا تعرف اليأس ولا اليأس يعرفها ، وهكذا الوطنية الحققة
تجعل الفؤاد راسخاً لا يتزعزع ، والعقيدة أقوى من الأطواد ، كان لضيفتنا الكريمة
الشأن الأعلى والدور المهم في تأسيس الجمهورية الفرنسية والتحالف الفرنسي الروسي
وكم تفررت أمور خطيرة في دارها ، لأن كبار الجمهورية وفي مقدمتهم «جمبتا» كانوا
يستترشدون بأفكارها ، ويعترفون بأنها صائبة الرأي ، لا تخطئ المرء ، وذلك فضلاً
عما كان لزوجها المأسوف عليه «إدمون آدم» من المقام العالی والكلمة المسموعة
والخدمات الباهرة ، ولولا ثروته الواسعة لما أفلح الحزب الجمهوري في ظروف
كثيرة ، أحبت مدام آدم ، بلادها ، فأحبت كل حب لبلادها ، وعرفت الوطنية
الراقية ، فأجنتها عند كل وطني ، ولذلك تجد اسمها محبوباً عند الأمم الناشئة المحتاجة
إلى المرشد والمعضد ، تجد دارها في باريس مزدحمة بالقصاد من أنحاء العالم . كلهم
يطلبون منها الإرشاد ، ويقدمون لها فرائض الشكر والإعجاب ، اعتقدت أن الحق
قاهر مهما قهر في بادئ الأمر ، وأنه ذو الكلمة الأخيرة في كل قضية ، فأبعدت
القنوط عن نفسها وعن حولها ، وكم سمعتها تذب الآمال في قلوب محبيها الكثيرين
بأقوالها الصادقة وعباراتها المؤثرة ، فمثل هذه الضيفة العزيزة من تكرم الدنيا ويعز
بنو الإنسان ، وإذا كان أكبر صفات المصريين إكرام الضيف وعدم نسيان المعروف
فلا بدع إذا رأيناهم يتسابقون لإكرامها وإعلان شكرهم لها على حبها لبلادهم ودفاعها
عنهم ، فإنما هم يثبتون بهذه المظاهرات الودية أنها لم تخطئ في قولها واعتقادها أن
المصريين أحياء وأنهم سيديرون العالم بحياتهم ومستقبلهم في القريب العاجل ،

وقد أولم الخديو عباس الثاني لمدام آدم وليلة عشاء فاخرة في قصر القبة مساء
٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤ ، حضرها ستة عشر مدعوا من الأمراء والكبراء وتناول
معها الخديو هو وضيوفه طعام العشاء تكريماً للضيفة العظيمة

وذهبت صحبة مدام يونج والمترجم وحسين باشا واصف إلى بور سعيد ، فأقيمت لهم حفلة فخمة في المدرسة الواصفية ، خطب فيها الفقيه خطبة شيقة ، وكان المجتمعون يبلغون عدة آلاف جاءوا تكريماً لضيافة مصطفى كامل وغادرت مصر يوم ٤ مارس سنة ١٩٠٤ ، بعد أن أقامت في مصر ستة أسابيع رأت فيها من الفقيه ومن أنصاره ومن الأمة المصرية غاية الحفاوة والإكرام ، وشاهدت مظاهر الحركة الوطنية التي بعثها مصطفى ، وقد تأثرت بما لقيه في مصر من الحفاوة ، وما شاهدته من عظمة آثارها القديمة ، وكتبت في جريدة (الجولوا) الفرنسية مقالة عن الأثر الأول لمشاهداتها قالت فيها :

« إن أرض مصر تضم كل المدن السابقة ، وسماها مصر هي أول سماها مزقت فيها السحب حيث سمح بذلك للإنسان أن يشعر بوجود الخالق ، ولم يعهد التاريخ أمة بلغت من القوة والعظمة ما بلغته الأمة المصرية حتى صبغت العناصر الأخرى بصبغتها ، وبقيت في آن واحد في حالة الفطرة الأولى ، مالمكة نفسها على مر الزمان ، ولم يتحكم الأجنبي في أمة كما تحكم فيها ، ولم تتخلص أمة من الأجنبي بصورة مستمرة كما تخلصت هي ، وإن استرداد مصر لنفسها أمر تكرر إلى حد أنه صار قانوناً في تاريخها ، وإنه يمكن للإنسان أن يؤكد أن مصر ستبقى إلى الأبد مصر ،

الانعام على الفقيه بالباشوية

أنعم السلطان على الفقيه برتبة الباشوية في مارس سنة ١٩٠٤ ، فصار يعرف بمصطفى كامل باشا ، وقد كان لهذا الانعام رنة فرح كبيرة في الأوساط الوطنية ، وزادت مكانته رفعة وعلو آ ، لما للقب الباشوية من التأثير في نفوس العامة والخاصة في بلادنا

الفصل العاشر

الاتفاق الودي

بين فرنسا وإنجلترا

(٨ أبريل سنة ١٩٠٤)

وقع في سنة ١٩٠٤ حادث سياسي خطير كان له أسوأ الأثر في اتجاه المسألة المصرية ؛ وكان بمثابة صدمة شديدة للحركة الوطنية ، ونعني به العهد المعروف « بالاتفاق الودي ، المبرم بين فرنسا وإنجلترا في ٨ أبريل سنة ١٩٠٤

كانت العلاقات بين الدولتين تزداد نجفاء على أثر انسحاب فرنسا من فاشودة ، فرأى بعض رجال السياسة في كاتسا الدولتين أن يسعوا في إزالة أوجه الخلاف بينهما ، لكي تقاوما نفوذ ألمانيا الآخذ في الازدياد في أوروبا والعالم ، والذي كان يهدد مصالح الدولتين ، وكان للملك ادوارد السابع الذي تولى عرش إنجلترا سنة ١٩٠١ دخل كبير في توجيه هذه السياسة . لما كان يشعر به من الميول نحو فرنسا ، واعتبرت زيارته لباريس سنة ١٩٠٣ فاتحة عهد الاتفاق بين الدولتين ، وأخذت الحكومتان في تسوية المسائل المختلف عليها بينهما ، وأسفرت مفاوضاتهما عن إبرام « الاتفاق الودي ، بينهما في ٨ أبريل سنة ١٩٠٤ ، وصار هذا الاتفاق عاملا مهما في اتجاه السياسة الدولية ، إذ كان تكلمة للمحالفة بين فرنسا وروسيا ، لمقاومة التحالف الثلاثي بين ألمانيا والنمسا وإيطاليا

وكان الجزء الخاص بمصر هو أهم نصوص هذا الاتفاق . فقد أعلنت إنجلترا في المادة الأولى منه بأنه « ليس في نيتها تغيير الحالة السياسية لمصر ، وتعدت الحكومة الفرنسية من جانبها ، بأن لا تعرقل عمل إنجلترا في هذه البلاد لا بطلب

تحديد أجل للاحتلال البريطاني ولا بأى صورة أخرى ، . وهذا الالتزام من جانب الحكومة الفرنسية مقابل التزام الحكومة البريطانية أن لا تعرقل عمل فرنسا في مراكش . وتعهدت الحكومة الفرنسية بأن توافق على مشروع الذكر بتواحدبوى المرافق للاتفاق . والمحتوى على الضمانات التي رويت ضرورة لصيانة مصالح حملة أسهم الدين المصرى . وأهم هذه الضمانات تخصيص ضرائب الأطنان لحزمة الدين العام بدلا من الإيرادات المختلفة التي كانت مخصصة لها من قبل وهي السكك الحديدية والتلغرافات وميناء الاسكندرية والجمارك وأربع مديريات . وتعهدت الحكومة المصرية بعدم تخفيض ضرائب الأطنان إلى ما دون أربعة ملايين جنيه في السنة إلا بعد موافقة الدول . وفي مقابل ذلك ترك للحكومة المصرية المال الاحتياطي المتوفر في صندوق الدين وقدره خمسة ملايين جنيه ونصف تنصرف فيه كما تشاء ، واتفقت الدولتان على بقاء إدارة الآثار المصرية مسندة إلى عالم فرنسى . وتمتع المدارس الفرنسية في مصر بنفس الحرية التي تمتعت بها في الماضي ، وصرحت الحكومة البريطانية في الاتفاق بأنها تستعمل نفوذها لكي لا تكون حالة الموظفين الفرنسيين الموجودين في خدمة الحكومة المصرية دون حالة الموظفين الانجليز بها

ومعنى هذا الاتفاق إقرار فرنسا للاحتلال البريطاني في مصر ، وعدولها عن مطالبتها بالجلء ، وتبدو من ثنايا نصوصه وعباراته روح الحماية التي اتحلتها إنجلترا على مصر ، لأنها تعاقبت عنها وعن شؤونها المهمة دون دخول لها ، واتفقت عليها دون رضاها أو عليها ، وهذا من أخص امتيازات الدولة الحامية

تأثير الاتفاق في مصر

كان هذا الاتفاق من المؤامرات الاستعمارية التي اتفقت عليها الدول الأوروبية لسلب الأمم واغتصاب استقلالها وحقوقها ، وكان من نتائجها أن قوى مركز إنجلترا في مصر ، وظهر تقرير اللورد كرومر في أبريل سنة ١٩٠٤ فبدت فيه روح السيطرة وتكلم فيه بلسان الحاكم المطلق التصرف ، وطعن في المصريين بأن رماهم بعدم الكفاية للحكم الذاتي ، وكان من نتائجها المعنوية أن رجح في نفوس الخاصة كفة

اليأس ، فتفشيت فيهم نزعة الضعف والتخاذل والنفعية ، والانصراف عن متابعة الحركة الوطنية ، إذ رأوا تتعثر في طريقها ولا تصادف نجاحاً ، ورأى أكثرهم أن الخير لهم في الانضواء تحت لواء الاحتلال ، فجنحوا لسياسة الخضوع والاستسلام وتمليق الانجليز ، وابتغاء الزلفى لديهم ، وسرت هذه الروح الهادمة للحركة الوطنية من صفوف الخاصة إلى طبقات العامة

أثر الاتفاق في نفس المترجم

أما مصطفى فلم يتراجع أمام الاتفاق ، ولم يتزعزع يقينه في الجهاد ، لأنه كان قد نفّض يده من مساعدة فرنسا منذ حادثة فاشودة سنة ١٨٩٨ ، تلك الحادثة التي أدت إلى انسحاب فرنسا فعلاً أمام إنجلترا وتركها تفعل ما تشاء في وادي النيل ، وما كان اتفاق سنة ١٩٠٤ الا تأكيداً رسمياً لما سارت عليه فرنسا فعلاً بعد حادثة فاشودة ، فلا غرو أن قابل الفقيه هذا الاتفاق بالثبات والجلد ، ومضى في جهاده لا يلوى على شيء . وقد كان هذا الحادث السياسي امتحاناً جديداً لعقيدته وثباته ، فبرهن على أن وطنيته راسخة كالطود ، ثابتة كالجبال ، وبلغ بذلك قمة الوطنية الصادقة ، واستثار في النفوس من جديد روح الأمل والجهاد

كتب في هذا الصدد (١) يقول مخاطباً المصري :

« انظر إلى الشعوب التي أصابها ما أصاب شعبك ، تجد البولوني وقد مزق وطنه وعالت فيه كلمة دول ثلاث ، يجد ويعمل مفكراً كل يوم بل كل لحظة في بولونيا ، يذكر تاريخها ويسكى أيامها الخالية ، ويربّي ابنه على حبها والتمسك بحقوقها ؛ والفنلندي وقد لبس هو وبقيّة أفراد أمته ثياب الحداد يوم قررت روسيا ضم جيش فنلندا لجيشها ومحو بقية استقلال هذه الأمة ، والاييرلندي وقد عارض إنجلترا في

(١) اللواء عدد ١٨ أبريل سنة ١٩٠٤

ضغطها على بلاده وسلبها حقوقه ، واستمر يعارض ويجاهد حتى حملها على تجريد اللوردات من أملاكهم بثمن بخس ورد الأراضى الأيرلندية إلى أصحابها الأصليين ، وانظر إلى غيرهم وغيرهم ، لتعلم أن الأمم كبيرة كانت أو صغيرة ، حاكمة أو محكومة ، لا تسمو فيها الاخلاق والصفات ولا ينشأ بينها رجال الفسك العالى والعمل السكبير الا بالشعور الوطنى ، فنكل عامل على اطفاله نوره محارب لأمته وقومه وذويه ، وكل داع إليه مجد في سبيل الحياة القومية الصحيحة والرقى الخالد ،

خطبة رياض باشا

في احتفال مدرسة محمد على الصناعية

قلنا عن نتائج الاتفاق الانجليزى الفرنسى إن طبقة الخاصة من الأمة قد ازداد فيها الضعف والتخاذل ، والانصراف إلى المنافع الشخصية ؛ وكان أول مظهر لبروز هذه الروح الهدامة للحركة الوطنية ، خطبة رياض باشا رئيس الوزراء الأستبق في الاحتفال بانشاء مدرسة محمد على الصناعية ، ذلك أن جمعية (العروة الوثقى) بالاسكندرية أقامت احتفالا كبيرا يوم ٢٣ مايو سنة ١٩٠٤ لوضع الحجر الأساس لهذه المدرسة ، وقد رأس الخديو عباس هذا الاحتفال ، فعظم شأنه ، وصارت له صبغة رسمية ، واتجهت أنظار الناس الى مايجرى فيه ، وألقى رياض باشا أمام الخديو خطبة امتدح فيها اللورد كرومر ، لغير مناسبة ، وقد كان معتذرا لعدم حضور الاحتفال ، كما امتدح الاحتلال ، بما كان له وقع أليم في النفوس ، إذ قال ضمن خطبته بين يدى الخديو ما يأتى :

« جناب المحترم اللورد كرومر اعتذر اليوم عن الحضور في هذا المحفل لتغيبه عن مصر ، كل يعلم ماله من المقام الأرفع والنفوذ الشامل في هذه البلاد ، وبالأخص ماله من اليد الطولى في كل ماله مساس بالمصالح والمنافع العمومية ، فهذه اليد الفعالة قد شملتنا ، وهى التى كانت لنا معواناً ، بل متما وهكلا لهذا المشروع ، فحق علينا أن نعرف له هذه المبرة ونقدم لجنابه واجب الشكر ونثنى عليه أطيب الثناء ، ولانبرح

أن نترجاه بالأبترك هذا المولود وهو في المهد صيباً ، بل يراعيه بعين عنايته ويواسيه ويواليه ، إلى أن يترن ويبلغ أشده ويصير رجلاً قوياً يقوم بأود نفسه

« مولاي ! اسبح لي أن أتكلم بما يخالج ضميري بحرية ، إذا نظرنا وتأملنا الآن إلى ماجريات الأحوال وطبقنا ماضيها على حاضرنا نجد أن الأحوال والأفكار قد تغيرت تغيراً كلياً ، واتخذت لها مجرى جديداً نحو التقدم والترقي وبث العلوم والمعارف وانتشارها في كل بقعة من بقاع البلاد ، وكل ما نراه أمام أعيننا من هذه المشروعات العلمية الأدبية والمؤسسات الخيرية الأهلية تتلو بعضها بعضاً لا نشك ولا نرتاب في أنها أثر من آثار هذا الانقلاب ، فلا حاجة بنا إلى أن ندخل في موضوع الشرح والتأويل ، ولا البحث والتدقيق في علل الأمور ومسبباتها ، بل نكتفي الآن بأن ننظر بعين البصيرة والاعتبار إلى ما كنا عليه بالأمس ، وما نحن عليه اليوم ، ونهني أنفسنا ونتهلل بشرا ونسجد لله شكراً على ما وصلنا إليه من التقدم الباهر مستبشرين بما تدلنا عليه قرائن الأحوال بمستقبل زاهر ،

قوبلت هذه الخطبة بالدهشة ، إذ دلت على روح الخضوع والزلفى والاستكانة التي تفشت بين طبقة الوزراء والكبراء في ذلك العصر ، وهي الروح التي ضربت الذلة والمسكنة على البلاد سنين عديدة ، وكانت أقوى سلاح استخدمه الاحتلال ، لرسوخ قدمه في البلاد ، هذه الروح التي كان يناهضها مصطفى كامل بكل قواه منذ قام يدعو إلى مقاومة الاحتلال ، فلا غرو إذ نارت نفسه لخطبة رياض باشا التي كانت إهانته كبرى للشرف القومي والحركة الوطنية ، وما كان يمكن لمصطفى وهو حامل لواء الوطنية أن يدع هذه الروح تنتشر في النفوس فتमित فيها الشعور الوطني وروح الجهاد ، فحمل على الخطبة حملة صادقة أيده فيها الرأي العام تأييداً قلبياً : وكتب عنها أول ما كتب مقالة تفيض وطنية وازتناً واعتدالاً في لهجتها ، قال فيها :

« يعرف قراء اللواء من أول نشأته أننا ضحينا في كل الحوادث ميولنا الشخصية خدمة للمنافع العمومية ، وأنبينا على أشخاص لا نميل إلى بعضهم ، واستحکم النفور بيننا وبين البعض الآخر ، وأطريناهم لأنهم قاموا للبلاد بخدمات مشكورة لا اعتقادنا أننا نخدم الوطن لا أنفسنا ، ونعمل لرفعة شأنه وإعلاء قدره لا للتشفي والانتقام ،

وأن الواجب الأول على كل قائم بعمل عام وكل كاتب يجرى قلبه لصالح الوطن أن يكون منصفاً عادلاً ، لا يبخس أحداً حقه ، لما في ذلك من التشجيع على الفضائل والأعمال النافعة والتنفير من الرذائل والنقص

« ويعرف أصدقاؤنا رأينا بشأن سياسة رياض باشا وأدواره وأطواره في حكومة البلاد ، وأتينا تناسينا ذلك لما رأيناه يساعد جمعية العروة الوثقى ويشترك معها في مساعيها الجليلة التي قوبلت بالارتياح العام والشكر التام من كافة المصريين ، ولكن لم يكن يدور في خلدنا أن دولته يتذرع بالعروة الوثقى ومساعيها الحسان ليتملق الاحتلال والمحتلين ويشهر هذا السلاح ليقتل به العواطف العالية ، لا يستخدمه لصالح البلاد كما شاء فضلاؤها الذين سلموه إياه

« إن دولة رياض باشا قال ما لم يقله مصري منذ اثنين وعشرين عاما ، وطعن الأمة طعنة قتالة وسخر من أبناء وطنه جهاراً ، واتهم فرصة هذا العيد الوطني المصري ليرينا ويشهد العالم كله كيف يتقلب رجال السياسة وكيف يكون التناهي في تمجيد المحكومين للحكام وعبادة الذين فقدوا استقلالهم لمضيئيه وساليه

« إذا كان دولة رياض باشا يريد أن يشرح الصفات الشخصية لجناب اللورد كرومر التي يعرفها محبوه وأعداؤه على السواء ، فاحتفال أول أمس لم يكن ميداناً لشرح صفات الرجال السياسيين وأعمالهم ، ولو كان يبتغي شكره على مائة جنيه التي تبرع بها لمدرسة محمد علي الصناعية ، فنحن أول من يعترف بالجميل ويعلمته ، ولكن ليست هذه الأقوال بما يقال للشكر والثناء ، وكم من الناس تبرعوا بمثل هذا المبلغ ، فلم لم يُذكروا مثل جنابه؟ وإذا كان المتبرع بمائة جنيه يستحق هذا الثناء الهائل ، فكيف نسي دولته من تبرع بمائة فدان (المنشاوي باشا) ولم يشر إلى عمله العظيم بكلمة واحدة؟ أليس هو الذي أحيا الجمعية حياة طيبة وسهل لها سبيل النجاح؟ لذلك لم يرتب أحد من الحاضرين والسامعين في أن رياض باشا تعمد انتهاز هذه الفرصة للتقرب من المحتلين والتملق لهم وإعلان السياسة التي طالما أنكرها وتبرأ منها ، وأجمع مريدوه قبل مبغضيه على أن حضوره في حفلة وداع السير للدون جورست أولاً ، وأقواله عن عميد الاحتلال في حفلة مدرسة محمد علي ثانياً ، وتجنبيه

ذكر المنشاوي باشاً لكرامة جناب اللورد له ثالثاً ، دلائل كافية على ما يريد من
التحجب إلى الإنجليز لتعود الوزارة إليه ،

وقد ثار الرأي العام على رياض باشا لخطبته ، وانها لت رسائل الاحتجاج ضده
في الصحف من مختلف الجهات ، من الإسكندرية حتى أسوان ، ودلت هذه الحركة
على يقظة الروح الوطنية في النفوس واستنكارها سياسة التملق للاحتلال وتمجيده

خطبة الفقيه بالإسكندرية

٧ يونيه سنة ١٩٠٤

كان الموقف السياسي يستدعي خطبة من خطب الفقيه يحيى فيها العزائم ويحفز النفوس
إلى الجهاد ، رغم الاتفاق الإنجليزي الفرنسي الذي فت في عضد الكثيرين وبخاصة بعد
خطبة رياض باشا التي أعلن فيها سياسة التملق للاحتلال

فألقي خطبة وطنية كبرى في الإسكندرية بمسرح (زيزنيا) مساء الثلاثاء ٧ يونيه
سنة ١٩٠٤ ، جعل موضوعها (الموقف السياسي لمصر . وواجبات المصريين)
بدأها بقوله :

« سادتي وأبناء وطني الأعزاء !

« لقد وقفت بينكم هذا الموقف مراراً ، وعرضت عليكم آرائتي في شؤون
الوطن ومصالحه تكررارا ، ولكنني لا أظن أن الحوادث دعت المصريين في وقت
من الأوقات للنظر في حاضرهم ومستقبلهم واستحثتهم لتبادل الأفكار فيما هم عليه
وما يصيرون إليه كما دعتهم في هذا الوقت الذي خاب فيه بعض الآمال ، وتساءل
الناس هل قضى علينا أم لا يزال لنا مخرج من هاتيك الظلمات ، وطريق للنجاة من
ذلك الحكم الأجنبي وتلك السيطرة الإنجليزية ، ثم تكلم عن « الاتفاق الودي ،
واتثار إنجلترا وفرنسا بمصر ومراكش ، وحمل على السياسة الاستعمارية الإنجليزية
والفرنسية ، ثم عرج على سياسة الاستسلام التي يسلكها وزراء مصر وكبرائها ،
وقال إن هذه السياسة كان لها دخل في التحريض على هذا الاتفاق ، لأنه لا يوجد

في العالم إنسان يخدم من لا يخدم نفسه ويدافع عن حق من تنازل عن حقه ، وقد استسلمت حكومتنا للاحتلال استسلاماً أبعد عنها كل محب لها ، يال لمساعدتها (١) ، فإذا لمنا الغير مرة على إغفاله حقوق الماضي وروابطه ، وجب علينا أن نلوم أنفسنا ألف مرة ، لأنه مهما كان ذلك الغير مقصراً في واجباته الأدبية ومخالفاً لتقاليد التاريخية فإنه دون رجالنا تفصيلاً ومخالفة ،

واتخذ من عقد الاتفاق الودي دليلاً ساقته الحوادث على دحض مزاعم من كانوا يدعون أن القائمين بالحركة الوطنية محرضون من حزب الاستعمار الفرنسي ، فقد بطلت هذه الدعوى بعد أن أصبحت فرنسا صديقة لإنجلترا ، ونحن نحن على حالنا ندافع عن المبادئ التي أعلنها للبلا كاه من أول عهدنا بالسياسة إلى اليوم ،

التضحية والثبات

ثم دعا إلى التضحية والثبات قائلاً :

« إن الذي يسمع صوت ضميره منادياً في كل لحظة وأن بوجود خدمة الوطن وإعلاء شأنه يشعر بأن دم آبائه الذي يجري في عروقه يطالبه بتضحية النفس لتلك الأرض الطاهرة التي لا شرف له إلا بها ولا حياة بغيرها ، ولا رفعة بدون رفعتها ، ولا مجد إذا زال مجدها ، إن الذي يسمع ذلك الصوت ويشعر بهذا الشعور لا يخاف العقبات والموانع ، ولا يخشى السباب والمطاعن ، بل يسير في طريقه ناظراً إلى الغاية التي طلبها والبغية التي تعلق بها ، واجداً من سهام الأعداء ما يجده الجندي في جراح الحرب من شرف ونخار ،

الوطنية لا تنتهي أمام العقبات

سخر أعداؤنا من الوطنية التي ننادى بها وندعو الأمة إليها ، وقالوا ما شاء

(١) كانت وزارة مصطفى باشا فهمي تتولى الحكم في ذلك العهد منذ نوفمبر سنة ١٨٩٥

الحقد والعداء ، ومن تخلى فؤاده عنها وجهل حقيقتها جازله أن يقول فيها ما قال مالك في
الخمر ، ولسكننا نرى أن محبة الأوطان ليست مما تمل النفس إليه ساعة ثم تنقر منه
ساعة ، أو وسيلة للكسب تنقضي بانقضائه ، إنما الوطنية شعور ينمو في النفس
ويزداد لهيبه في القلب ويرسخ في الفؤاد كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه
واشتدت كربه ، فإذا كنا افتخرنا بهذا الإحساس العالى وتباهينا به ورمينا كل من
جهله أو تجاهله أو خالفه بالخيانة أيام كنا نؤمل الخلاص القريب والجلاء العاجل ،
مخلفين بنا أن تتعلق به اليوم أضعاف تعلقنا به بالأمس ، ونقول لهذا الوطن
الأسيف : « كلما تمكن العدو منك تمكن حبك من القلوب وتعددت واجباتنا
نحورك واشتد تمسكنا بحقوقك ،

« أجل أيها السادة ! لا حياة لأمة من الأمم بغير الوطنية الحقة ، ولا معنى
للعيش بدونها ، ولا تتجدد الآمال وتقوم الأعمال إلا بها ، لقد كانت أمم أخرى
أنعس منا حالا ، ودوننا رقياً وتقدماً ، يحكمها الأجنبي بيد من حديد ، ولا نجد
من أفرادها عالماً يرشدها أو كاتباً ينصحها أو مريباً يقودها ، ثم ناداها منادى الوطنية
وظهر فيها من ينهبها إلى هذه القوة الكامنة وذلك السكز المدفون ، فقامت بعد
الرقاد الطويل ونهضت بعد السكون المديد ، وعملت بعد الكسل والخمول ،
وتخلصت من قيود الاستبداد والاستعباد بعد أن ذقت مرارة الظلم والاضطهاد
الأعوام والقرون ،

الاستقلال والاحتلال

« يسألنا أنصار الاحتلال في الصباح والمساء ، ماذا عملتم بوظنيتكم ، وأي فائدة
عادت على القطر منها ؟ وهل رددتم إليه حقا أو استرجعتم منصباً ، أو أوقفتم
الاحتلال في طريقه وحولتم تياره الجارف ؟

« يسألنا الاحتلاليون ذلك تغريراً بالأفهام ، وهم يعلمون أننا لم نسكن وزراء
للبلاد بأيدينا الحل والعقد ، أو ساسة في المناصب نناقش الاحتلال في مصالح الوطن

ومطالبه ، بل نحن قوم أحرار نخاطب الأمة ونوجه مساعينا اليها ، نقول لها على مسمع من العالم كله انها لا تكون حائزة لصفات الأمم الراقية والشعوب القادرة ، إلا إذا كان الشعور الوطني متمكنا من نفوس صغارها وكبارها ، لأنه أقوى الروابط وجامعة الجوامع ، نقول لها ونكرر القول إن مصدر المصائب التي حاقت بوادي النيل كان جهل أمته لحقوقها وواجباتها وانحلال أجزائها بموت الشعور الوطني فيها ، نقول لها ونقيم البراهين على صحة دعوانا إن الاستقلال وحده هو الذي يحمي البلاد والممالك من كل بلاء ، ويدفع عنها اعتداء الغير ويرقي ملكة الأفراد ويهب الشعوب الحرية والحكومة الدستورية والسيادة الداخلية والخارجية ، نقول لها إن الاحتلال عار على الأمة وشنار على كل واحد من أبنائها ، وإنه حجة على عدم كفاءتها ودليل على نقص مداركها وعدم استعدادها ، وإن الانجليز لا يعملون لصالحها مها ادعى المدعون ، لأننا لم نسمع ولم يرو التاريخ أن أمة قامت بخدمة أمة أخرى وأن مغتصبا لملك سعى لرده إلى صاحبه ،

ثم تكلم الخطيب عن ثمار الشعور الوطني الذي دب في الأمة وما ظهر من نتائجه في رقي الأمة وأخذها بأسباب النهوض واتساع حركة التعليم القومي وبذل الأفراد والجماعات أموالهم للنشئات العامة وظهور قوة الرأي العام في اتجاهه إلى التعلق بالاستقلال والسخط على الاحتلال

سياسة الاحتلال

وتكلم عن سياسة الاحتلال وما ترمى إليه من قتل الروح الاستقلالية في الأمة قال :

• إنما تتقدم الأمم وترقى بالتربية والتعليم وبوجود الرجال العقلاء الكبراء ذوي الأفكار الرشيدة الذين يقودونها ويدلونهم على منافعها وطرق الارتقاء ، فإذا عمل المحتلون لذلك ؟ هل يستطيعون أن يدعوا أنهم رقوا البلاد وأخرجوا لها رجالا قادرين على قيادة أمورها وإرشادها ؟

« أليسوا يحاربون فضلاءها وكل ذى استقلال فيها ويمسخون التعليم في مدارسها مسخاً ، ويمحون تربية النفس محوآ ، ويقتلون لغة البلاد قتلاً ، ويضطهدونها في شعورها وجدانها ؟ فماذا ينفع المال إذا بقيت الأمة متأخرة جاهلة قاصرة المدارك ؟

الوطنية والجهاد والدعوة الى الاتحاد

وختم خطبته بالدعوة إلى الاتحاد وبث روح الوطنية في النفوس والجهاد في سبيل الاستقلال ، قال :

« أيها السادة . إن ازدياد الثروة المصرية ، وانتشار التربية والتعليم ، وارتقاء الصحافة وغير ذلك من الأمور الحيوية التي ينشرح لها الخاطر وتنبسط لها النفس ، لا ترفع للأمة مقاماً ولا ترفع لها شأناً إذا لم تكن الوطنية نبراس الأفراد والجمهير ، وغذاء الأرواح والنفوس ، فليجعل كبيركم وصغيركم نصب عينيه الاستقلال ، لأن الحياة بغيره عناء وعذاب ، وانكم مهما بلغت من سعة العيش ووفرة في المال وارتقاء في المراتب لا ترى فيكم الأمم الرشيدة الا أمة قاصرة إذا دام الاحتلال ، فاعملوا للاستقلال واجعلوه أنشودتكم التي تترنمون بها على الدوام ، واركبوا محبته كأثمن وأقدس ميراث ، ولا تعدوا السنين عليه ، لأن ما تجدونه طويلاً في حياة الفرد منا ، يعد يوماً أو بعض يوم في حياة الشعوب ، وثقوا بأننا بالغوه ، لأن الله الذي يعاقب الشعوب المنقسمة على نفسها بسلبه ، يكافئها برده متى اتحدت واتبعت إرادته وعلمت أنه خير ما وهب الرحمن للإنسان ،

وقد قوبلت الخطبة بالتصفيق والإعجاب والحماسة والهنأف العالی من الحاضرين الذين كان يبلغ عددهم أربعة آلاف ، فتأثر الخطيب من هذه المظاهرة الرائعة ، وشكرهم شكراً مكرراً قائلاً لهم : « إني أعد التفاتكم الى وتعزيدكم لي ديناً على ، ربما أعجز عن الوفاء به ، واسكني أقابلكم على هذا الالتفات وهذه العناية بأن أكون في المستقبل كما كنت في الماضي : خادم الوطن الامين ،

وكان الاجتماع نجاحاً باهراً للفقيد ، كما كان لخطبته دوى كبير في المحافل والدوائر الوطنية والأوروبية ، لأنه كان أول صوت جهير لمصر ارتفع بعد الاتفاق الودى الانجليزى الفرنسى

وقد وصفت جريدة (البصير) التى تصدر بالثغر الاجتماع والخطبة بقولها :

« كانت ليلة أمس من الليالى المشهودة فى مدينة ان سكندرية ، وذلك للخطبة الغراء التى ألقاها سعادة رصيفنا الفاضل مصطفى باشا كامل ، ولقد كان حضورها عديدين جداً ، حتى لا موطىء لقدم ، ولسكن النظام كان شاملاً والسكوت تاماً ، وقد تكفل جمال الخطبة وحسن اتساقها بحفظ ذلك النظام ، ولعل هذا الوصف خير ما يقال فيها ، ثم جاءت على مشتملات الخطبة ، وختمت الكلام بقولها : « وعلى الجملة فإن الخطبة بمعناها كانت من خير ما يقال فى هذا العهد ، وهى جديرة بأن تقابل بمثلها من جهة الفعل ، فترى فى بلادنا أكثر من منشأوى باشا وأكثر من جمعية العروة الوثقى وأكثر من صاحب اللواء يقوم خطيباً ، وعند ذلك يتم كل مأمول بإذن الله وبشريعة التدريج ،

وتردد صدى الخطبة فى الخارج ، نشرت جريدة (الفيجارو) الفرنسية تلغرافاً من مراسلها بالاسكندرية جاء فيه :

الاسكندرية فى ٨ يونيه سنة ١٩٠٤

« ألقى مساء أمس مصطفى كامل باشا الخطيب المصرى وصاحب (اللواء) خطبة سياسية كبرى فى الاسكندرية أمام جمهور من المصريين يزيد على ثلاثة آلاف شخص وقد قوبلت هذه الخطبة بالتصفيق الشديد ، وأكد الخطيب أن المصريين متعلقون الآن بالاستقلال الأهلى أكثر من ذى قبل ، وقال : « إن مصر بالغة مكاتتها فى العالم عاجلاً أو آجلاً بفضل التعليم والتقدم الفسكرى ، ، وقد صفق الحاضرون تصفيقاً حاداً لمصطفى كامل باشا الذى يعتبره أبناء وطنه حامل لواء الوطنية المصرية ،

ظهور كتابه عن اليابان

(الشمس المشرقة)

وفي يونيه سنة ١٩٠٤ ظهر كتابه (الشمس المشرقة) عن اليابان ، وضعه لمناسبة الحرب الروسية اليابانية ، وما ظهر فيها من عظمة اليابان التي بهرت العالم بتقدمها ووطنيتها ، وقصد الفقيه من تأليف هذا الكتاب أن ينظر المصريون بعين الاعتبار إلى الأمة اليابانية التي لم تكن شيئاً مذكوراً أيام كانوا أصحاب الحول والطول ، ثم صارت بفضل اتحادها ووطنيتها موضع إعجاب العالم . ووثبت إلى الصف الأول من الأمم القوية العالية المقام ، وأراد أن يبين للشعب كيف ترقى الأمم المتمسكة بأهداب الوطنية

الاحتفال بعرض الجيش الانجليزى

في ميدان عابدين

كان من عادة الانجائز أن يحتفلوا بعيد مولد الملكة فيكتوريا ثم عيد الملك إدوارد السابع بعرض الجيش البريطانى بميدان عابدين برياسة اللورد كرومر ، ولم يكن الحديو عباس يحضر هذا الاحتفال ، ولكنه بدأ يحضره لأول مرة في عيد ميلاد الملك إدوارد السابع يوم ٩ نوفمبر سنة ١٩٠٤ ، إذ جاء الميدان مرتدياً بدلة التشريفة الكبرى يحيط به ياوراناه ، ووقف تحت العلم البريطانى بجوار اللورد كرومر ، وشهد العرض حتى نهايته ، فكان لحضوره هذا الاحتفال الذى يمثل الاحتلال الأجنبى تمثيلاً مهيناً للكرامة القومية أثار أليم فى النفوس . وكان موضع انتقاد الوطنيين فى مجالسهم وأحاديثهم ، مما اضطر المعية ،^(١) إلى إصدار بلاغ رسمى تنسب فيه حضوره إلى مصادفة وجوده بسرأى عابدين يوم العرض ، قالت فيه :

(١) كانت كلمة المعية تطلق وقتئذ على حاشية الحديو

« لما كان من المقرر أن يشرف الجناب العالي الخديوى فى صديحة أمس سراى عابدين العامرة حيث ينعقد مجلس النظار برئاسة سموه ويتناول حضرات العلماء الأعلام طعام الإفطار على المائدة ثم يتلو ذلك استقبال المهنيين بالمقدم السعيد وبحلول شهر رمضان المعظم ، وكان هذا اليوم مصادفة هو عيد ميلاد جلالة ملك الانجليز ، رأى الجناب العالي حفظه الله أن يحضر الاحتفال المعتاد إجراؤه سنوياً فى رحبة السراى لمناسبة هذا العيد ، كما كان ذلك من عادة المغفور له الخديو السابق ، وما وصلت هذه النية إلى علم جناب اللورد كرومر حتى بادر فدعا الجناب الخديوى ليستعرض الجنود الانجليزية فتلقى سموه هذه الدعوة بالقبول والارتياح الخ ،

والأمر الطريف فى اعتذار المعية أنها نسبت حضور الخديو الاحتفال إلى (المصادفة) ، كأنه لم يكن معلوماً من قبل أن هذا اليوم هو عيد ميلاد الملك ادوارد السابع وأن حفلة العرض ستحصل فيه ، وأضعف من ذلك فى الاعتذار أن البلاغ الرسمى يلبح إلى أن الخديو توفيق باشا كان يحضر العرض ، وهو عذر غير مقبول ، الآن الخديو عباس لم يتبع سياسة أبيه منذ ولايته العرش ، ولم يفكر فى اتباع عادته فى حضور العرض البريطانى إلا فى سنة ١٩٠٤ ، وهذا يدل على تغيير جوهرى فى سياسته عقب الاتفاق الانجليزى الفرنسى ، وجنوحه إلى الخضوع للاحتلال ، تلك السياسة التى بدأ يتبعها منذ وقعت حادثة فاشودة سنة ١٨٩٨ ، ثم ظهرت بظهورها العلنى فى حضوره استعراض جيش الاحتلال ، فكأنه أراد أن يعلن بحضوره ولائه للاحتلال وسياسته

ومما يدل على أن الاعتذار بالمصادفة فى بلاغ المعية لا صحة له أن الخديو قد حضر العرض البريطانى للمرة الثانية فى نوفمبر سنة ١٩٠٥ ، ووقف تحت العلم الانجليزى ، بين قائد جيش الاحتلال واللورد كرومر ، وشهد العرض حتى نهايته

قال اللواء فى هذا الصدد :

« وهذه هى المرة الثانية التى وقف فيها سمو الخديو هذا الموقف بصفة رسمية ، ولما جرى ذلك فى العام الماضى وشعرت « المعية » بدهشة الناس من هذه الحركة الجديدة فى سياسة مصر نشرت فى الصحف بلاغاً (وأتت على نصه) ، إلى أن قال :

هذا بلاغ السنة الماضية ، وإذا كان من الصعب تحميل ، المصادفة ، مسؤولية هذا الحادث مرتين ، فمن المرجح أن المعية لا تنشر بلاغاً في هذا العام وتفضل السكوت على الكلام

ثم وقعت حادثة دنشواي في يونية سنة ١٩٠٦ ، وأعقبها فوز الحركة الوطنية واشتداد السخط على سياسة الاحتلال بفضل حملات مصطفى كامل ، فكان من نتائج ذلك عدول الخديو عن حضور العرض في نوفمبر سنة ١٩٠٦ ونوفمبر سنة ١٩٠٧ ، وقد علقت الصحف الأوروبية على هذا العدول وفسرته بأنه وقع بتأثير الحركة الوطنية ، قالت جريدة (الامبرسيالي) الإيطالية في هذا الصدد : « ولعل سمو الخديو أراد بإطالة اقامته في الاسكندرية العدول عن الخطة التي اتبعها في عام ١٩٠٤ بعد أن لبث على عرش مصر اثني عشر عاماً ، فهل فازت الصحافة الوطنية بنصائحها واحتجاجاتها ،

زيارات اللورد كرومر للأقاليم

وكان من نتائج الاتفاق الانجليزي الفرنسي أن أخذ اللورد كرومر يظهر علناً بمظهر صاحب السيطرة والحكم النافذ في البلاد ، بعد أن كان يكتفى بتحريك الأداة الحكومية والسيطرة على البلاد من ورائها

ومن علامات هذا المظهر الجديد زيارته لعواصم المديرية ، فكان يقابل من المديرين وبعض كبار الأعيان بالحفاوة والإكرام ، مما يقابل به الملوك ورؤساء الدول زار الفيوم في فبراير سنة ١٩٠٥ ، فقابله المدير محمد بك محب والأعيان والعمد ، وخطب فيهم متكلماً عن مشروعات الحكومة وأعمالها باعتبارها صاحب النفوذ الفعلي فيها ، فتسكلم عما تبذله الحكومة في مكافحة الجراد ، وابتادة دودة القطن ، وإنشاء صناديق التوفير وما إلى ذلك من المسائل الداخلية الحكومية ، وشكره أحد الأعيان بالنيابة عن المديرية على زيارة الفيوم وعلى النصائح التي ألقاها عليهم ، وزار دور الحكومة كالمستشفى الأميرى ، والمدرسة الأميرية ، وامتنحن بعض تلاميذها ، ثم زار المركز والسجن والمجلس البلدى ؛ وكان في انتظاره أعيان المدينة ؛ ثم المحكمة

الأهلية حيث استقبله القضاة وأعضاء النيابة ، ثم شرب الشاي في دار المدير ، وكان الموظفون وكبار الأعيان في ركابه

وكان الأعيان الموالون للاحتلال يترددون من قبل في إظهار ولائهم له ، فلما أبرم الاتفاق الودى سفروا في ولائهم وتسابقوا في ابتغاء الزلفى لديه

وقد كان ظهور اللورد كرومر بهذا المظهر من الحوادث المؤلمة المهينة للكرامة الوطنية . المعرفة للحركة القومية ، كتب اللواء في هذا الصدد يقول (١) : « ظهر جناب اللورد كرومر اول الأمس بمظهر جديد لم يره فيه المصريون من أول عهد الاحتلال إلى اليوم ، حيث ترك تسيير السفينة المصرية من وراء الوزارة المصرية ، وتقدم بنفسه إلى الجماهير يخاطبهم في الشؤون العامة ويلقى عليهم النصائح والأوامر ويجمع العمدة والأعيان بين يديه ليسمعهم ما يريد ، فجناب اللورد كرومر أراد أن يفهم المصريين الآن أن سياسة التستر والانكماش والعمل وراء ستار قد انقضت عهدا ومضى زمانها ، وأن المحتلين يقدرون المسؤولية ويتحملونها جهارا ،

وكتب مصطفى في لواء ٧ فبراير سنة ١٩٠٥ ينمى هذه الحالة بقوله :

« لا يسع المصري المحب لبلاده ألا أن يحزن أشد الحزن على المركز التعيس الذى وصلت إليه البلاد ، ويندب استقلالاً مزقته يد الزمان ، وإنى لا أدري بأى آذان سمع القوم أقوال اللورد كرومر ، وماذا كان يختلج ضمائرهم إذ ذاك ؟ وهل شعروا بأنه محررته هذه أعان موت السلطة المصرية ؟ اللهم إني لو كنت بين تلك الجموع التى أصغت لأقواله لذبت أسى وكمدأ وقلت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسبياً منسياً ، لأن وقفته هذه ليست إلا إعلاناً قطعياً بأنه صار صاحب الحل والعقد والامر والنهى الذى لا يعارض فى شىء . »

واستمر اللورد كرومر فى رحلته الاحتلالية ، فزار المنيا فأسيوط فأبو تيج فنجع حمادى ، حيث كان يستقبله المديرون والأعيان بالحفاوة البالغة

تقارير اللورد كرومر

ولقد كان من نتائج الاتفاق الودي ، أن تقارير اللورد كرومر السنوية التي كان يرفعها إلى الحكومة البريطانية عن شؤون مصر والسودان أخذت تزداد منزلة ومكانة ، بحيث صارت من أهم الوثائق عن أحوال مصر السياسية والاجتماعية والإدارية ، وصار لها من الشأن ما لتقارير حكام المستعمرات الانجليزية ، وكان يخوض فيها في كل ماله مساس بشؤون الحكومة المصرية والبلاد ، مما لا يصدر إلا عن صاحب السيطرة والنفوذ الفعال في الحكومة ، وكتب في تقريره الذي ظهر في مارس سنة ١٩٠٥ أن وعد بريطانيا بالجلال عن مصر كان قبل أن تعلم الحالة في مصر تماما ، فلما عرفت ان وعدا كان في غير محله وأن تنفيذه يقضى إلى أضرار جسيمة

تعيين ياور انجليزى للخديو

وبلغ من تدخل الانجليز في المعية الخديوية واستسلام الخديو عباس لسياسة الاحتلال أن عين في تلك السنة (سنة ١٩٠٥) ياور انجليزى للخديو وهو الكولونل وطسن باشا

ظهور كتاب (المصريون والانجليز)

Egyptiens et Anglais

جمع الفقيد في صيف سنة ١٩٠٥ خطبه التي ألقاها عن المسألة المصرية ، والرسائل التي تبودلت بينه وبين كبار الساسة ، وترجمها الى الفرنسية ، وطبعها بباريس كتابا ظهر في ديسمبر سنة ١٩٠٥ بعنوان (المصريون والانجليز) في ثلثمائة وعشرين صفحة ، ثم وزعه في كل جهات العالم ، ليعرف الأمم كافة بالحركة الوطنية المصرية وميول المصريين ، وحقائقه مقاصد الحزب الوطنى ، فكان خير دعابة عالمية للمسألة المصرية ، وقد وضعت مدام جوليت آدم مقدمة هذا الكتاب ، وبما قالته عن الفقيد :

« إنه يجاهد بكل الصور والأشكال ضد اليأس والفتنوط ، و عدم الاكثرات
بشؤون البلاد ، و قلة الوطنية ، تلك الآفات الثلاث التي تهدد مصر كما تهدد
فرنسا نفسها ، والتي هي أشد خطراً على الأمم من المغيرين ،
وقالت في موضع آخر عن الحركة الوطنية :

« إنى أنا التي رأيت مصر وأدركت أسرارها وأحببتها وأعجبت بها ، أعتقد
بخصوبتها العقلية الأهلية الأبدية الخالدة كآثارها الفخمة ، تلك الخصوبة المستمدة
لأن نتج أكبر النتائج بفضل معارف الوطنيين من أبنائها ، كما يرى الإنسان
خصوبة أرضها ظاهرة ومحصولاتها ناضجة في أسابيع معدودة بفضل فلاحها ،

و كتبت الصحف الأوروبية نبذا كثيرة عن الكتاب ومناحيه ، ومن أبلغ ما نشر
في هذا الصدد مقالة طويلة بليغة بالفرنسية في جريدة (الجورنال دي كير) بدأها
كاتبها بشعار الفقيه (أحرار في بلادنا ، كرما لضيوفنا) ، وما قال فيها :

« لا أريد أن ألخص الكتاب أو انتقده اليوم ، وليست هذه مهمتى ، فاني
صانع أجوب هذه البلاد ، ولكن مصر ليست الديار التي يجوبها الإنسان دون أن
يتعلق بها ، ولقد أكد لي البعض أن من يرى مصر مرة لا بد أن يعود إليها ، فهل
سأكون أنا استثناء لهذه القاعدة ؟ ، إلى أن قال :

« قرأت هذه الخطب التي ألقيت الأولى منها عام ١٨٩٥ ، والأخيرة عام ١٩٠٤ ،
فهي عشر سنوات من حياة الخطيب ، جمعت واختصرت في هذه الصحائف ، وإن
عشر سنوات فضيت في العمل والسعي والجهاد بلا ملل ولا خور في العزيمة ، لجديرة
بأن يقف الإنسان أمامها ولقد وقفت بإزائها ، واختبرتها وقلبتها ، وما رأيت فيها
وما استطعت أن أرى إلا الإعراب عن أشرف وأطهر وطنية ، إن فيها قوة وحدة ،
وروح الشباب والأمل تملأ هذه الصحائف وتهزها ، وتشعر اليد بارتعاش عند
تقليبها ، وإن القارىء عند ما يطالع هذه الخطب لا يقرأها في الحقيقة ، بل يسمعها ،
لانها بالغة الغاية في الحياة ، ورغما عن هذه الحرارة وتلك النار المشتعلة ، ورغما من
الحدة التي تلازم كل حب شديد ، قد استطاع هذا الخطيب الشاب أن يحافظ دائماً

على الاعتدال ، ويقف عند الحد الواجب ، فهو حادّ اللهجة ، وفي عباراته حركة شديدة أحيانا ، بحيث يشعر بأنها تجرى وتعدو وتدوتى كالسيل الجارف وقت ذوبان الثلوج ، فيخيل إلى الإنسان أنها ستأخذ في طريقها كل شيء ، ولكن السد الذي أقامته نفس شريفة وفكر عال موجود ، فعبارات الخطيب تغلي كالسما ثم تجرى واضحة رانقة تطرب القلوب ، وتنزل برفق ويتسع مجراها وتروى وتلطف ما تمر عليه ، وهناك أمر آخر يستوجب دهشتي ، وهو أن هذه الحياة واحدة منسجمة متصلة ، فهي خط مستقيم لا انقطاع فيه ، فترى من أول خطبة إلى آخر خطبة ضمير واحد ، وروحا واحدة ، ليس فيها تناقض ولا خطوة واحدة في غير موضعها ، وإلى مثل هذا ينتهي التعقل والصرامة والطهارة ، وهو مثال يكاد يكون وحيداً ، وسيكون لهذا الكتاب في أوروبا رنة طويلة دائمة ، لأن كل ذي عاطفة وطنية يشعر بها ويقدرها هناك ، قد يختلف البعض مع الخطيب في أفكاره ويحكمون على هذه المسألة أو تلك حكماً مخالفاً لحكمه ، ولكن إذا كان هذا الرجل وطياً يقول وينادي بكل قوته بحبه لبلاده ، ويعلم الجميع أنه يهبها شبابه وحياته (١) فلا جدال في أن القوم في أوروبا يطأطئون له الرؤوس احتراماً له ولو كانوا خصومه أله أو أعداءه ، إلى أن قال :

« إن الوطني المصري إذا أفلح لا يفلح بغير تعريض نفسه للخطر ، فهو معرض له أكثر من الأوروبي لضعفه وقلة الشعور الوطني في بلاد لم تعود حكم نفسها بنفسها ، نعم هو معرض للخطر أكثر من الأوروبي ، وإن عمله أتعب وأصعب ، فهو لا يجب عليه فقط أن يتكلم أمام الجماهير كما يفعل الخطيب الأوروبي بل هو مضطر لتربية هذه الجماهير وتعليمها ، وتدريبها على الفكر والإحساس ، وهو مطالب أكثر من غيره باحتراس وحذر نحو بني وطنه ونحو الأجانب ، وإن أتوجع لعنائه بقدر إعجابي به ، ومهمته لا تعود عليه الآن بالفائدة ، فلا بد من نفس كبيرة امتلأت بحب الوطن ، وأخلاق قوية متينة ، ليستطيع شباب أن يكرس حياته كلها لبلاده غير طالب شيئاً آخر سوى عظمتها ومعادنها واستقلالها ! »

(١) نشرت هذه المقالة في يناير سنة ١٩٠٦ وتوفي الفقيه في فبراير سنة ١٩٠٨

الفصل الحادى عشر

نادى المدارس العليا

وتطور الأفكار سنة ١٩٠٥ و ١٩٠٦

تفتحت فى قلوب الشباب زهرة الوطنية التى أنبتتها دعوة مصطفى كامل ، وأخذت
بجيش بالشعور الوطنى وتتحرك نحو أغراضه وأهدافه ، وبدأت علامم اليقظة
والحياة تظهر فيهم بشكل عملى سنة ١٩٠٥ ، وكان أول مظهر لهذه الحياة الجديدة أن
فكر طائفة منهم فى إنشاء ناد للمدارس العليا ، يجمع بين طلبة هذه المدارس ومتخرجيها
كان هذا النادى من أعظم مظاهر الحركة الوطنية فى ذلك العصر ، وصار بمثابة
معهد وطنى علمى أخلاقى تسكون فيه جيل من خيرة الشباب المصرى ، وفيه ظهرت
حركة فكرية قومية أنتجت على توالى السنين عدة مشروعات جليلة كان لها فضل
كبير على النهضة الوطنية ، فقد ظهرت فيه قوة الشبية ووحدتها ، وامتزج الطلبة
بالمخرجين فكتسبوا بهذا الاتصال النضج الفكرى والمعنوى ، وفيه ألقى أعلام
الفكر والعلم المحاضرات القيمة فى مختلف العلوم والفنون ، وفيه تأسست جمعية
رعاية الأطفال ، وفى قاعانه اجتمعت وقتاً ما لجنة إنشاء الجامعة المصرية ، وفيه تأسست
مدارس الشعب فأنشئت عدة مدارس لتعليم العامة وقام أعضاء النادى بالتدريس
فيها ، وفيه نشأ مشروع النقابات الزراعية على يد المرحوم عمر بك لطفى ، وفيه أخذ
الطلبة يروضون أنفسهم على الأخلاق والفضائل والتضامن ، وكان فوق ذلك معهداً
قومياً لنشر المبادئ الوطنية الصادقة وبها فى نفوس الجيل

التفكير فى إنشاء النادى

(سنة ١٩٠٥)

بدأ التفكير فى إنشاء النادى سنة ١٩٠٥ ، وتألقت لجنة لتأسيسه فى أكتوبر
من تلك السنة برياسة الدكتور عبد العزيز نظمى بك ، فأخذت تجميع الاكتابات

لتكوين رأس ماله ، وعضدها (الواو) في مهمتها ، وحث الفقيد الأغنيا على المساهمة في الاكتاب فيه ، قال في عدد ١٩ أكتوبر سنة ١٩٠٥ :

، نرى من أوجب الواجبات إعانة هذا النادي ممن يقدرون العلم وذويه ، ولذلك نود أن يقتنى الكبراء والعظماء والوجهاء أثر الذين جادت نفوسهم بما تبرعوا به لهذه الغاية الشريفة حتى الآن ، ويقدر ما يتبرع الواحد لهذا النادي المحرومة منه هذه البلاد تعلم قيمة العلم عنده كثرة وقلة ، فنستنهض همم السراة لمد يد المعونة إلى هذا النادي الذي سيكون محط رحال أبنائهم ،

وقد باغ ما جمع لتأسيسه مع ربح ليلة تمثيلية أقامتها اللجنة بدار التمثيل العربي ٢٨١ جنينا ، وذلك إلى آخر نوفمبر سنة ١٩٠٥

أول جمعية عمومية للنادي

واجتمعت أول جمعية عمومية للنادي بهيئة جمعية تأسيسية يوم الجمعة ٨ ديسمبر سنة ١٩٠٥ بإحدى قاعات مدرسة الطب لانتخاب مجلس ادارة النادي ، وبلغ عدد الحاضرين من الطلبة مائتي طالب ، من مختلف المدارس العليا ، وكذلك حضره لفيف من المتخرجين ، وقد اشتركت في هذا الاجتماع إذ كنت طالبا بمدرسة الحقوق ومن المشتركين في تأسيس النادي ، وأسفرت عملية الانتخاب عن اختيار المرحوم عمر بك لطفي رئيسا للنادي ، وكان من خاصة أصدقاء الفقيد ، وموضع الاحترام بين مواطنيه ، فأسبغت رياسته على النادي مهابة واحتراما ، وانتخب هو وعبد الخالق بك ثروت (باشا) عضوين بالمجلس عن متخرجي مدرسة الحقوق ، وأمين سامي بك (باشا) وأحمد عزى بك عن متخرجي مدرسة المهندسخانة ، والدكتور عبد العزيز بك نظمي والدكتور عبد المجيد محمود عن متخرجي الطب ، ومحمد علي دلاور بك وتالي بك حسنى المصرى عن متخرجي مدرسة المعلمين والألسن ، واسماعيل أفندى زهدى (بك) وأحمد أفندى أمين (بك) عن طلبة الحقوق ، وحافظ أفندى عفيفى (باشا) وفؤاد أفندى صدق عن طلبة الطب ، وسامى أفندى عصمت (بك) ونجيب أفندى مرتضى عن طلبة المهندسخانة ،



حفلة افتتاح نادي المدارس العليا - ٥ ابريل سنة ١٩٠٦ (انظر ص ١٩١)
وترى في الصدر : الرحوم عمر بك لطفى رئيس النادي وعن يمينه الرحوم عبد الخالق ثروت باشا
وعن يساره الرحوم حسن بك رضا . والرحوم على بك حصى المصرى . الرحوم اسماعيل بك زهدى .
الرحوم احمد بك أمين الستار . سامى بك عصمت . ومن الجالسين في الصف الاول الدكتور عبد
العزیز نظفى بك . محمد بك على دلاور . ومن الجالسين في الصف الثانى الرحوم حارون سليم باشا الرحوم
الدكتور محمود تيمس الحامى - الاستاذ السيد حسين . ومن الجالسين في الصف الثالث عبد الرحمن
بك الرافعى . مصطفى بك الشوربجى الستار . الدكتور احمد بك سعيد . الدكتور سيد بك شكرى . هاشم
بك سفي . وهيب بك دوس . نبيه بك سلام . الخ

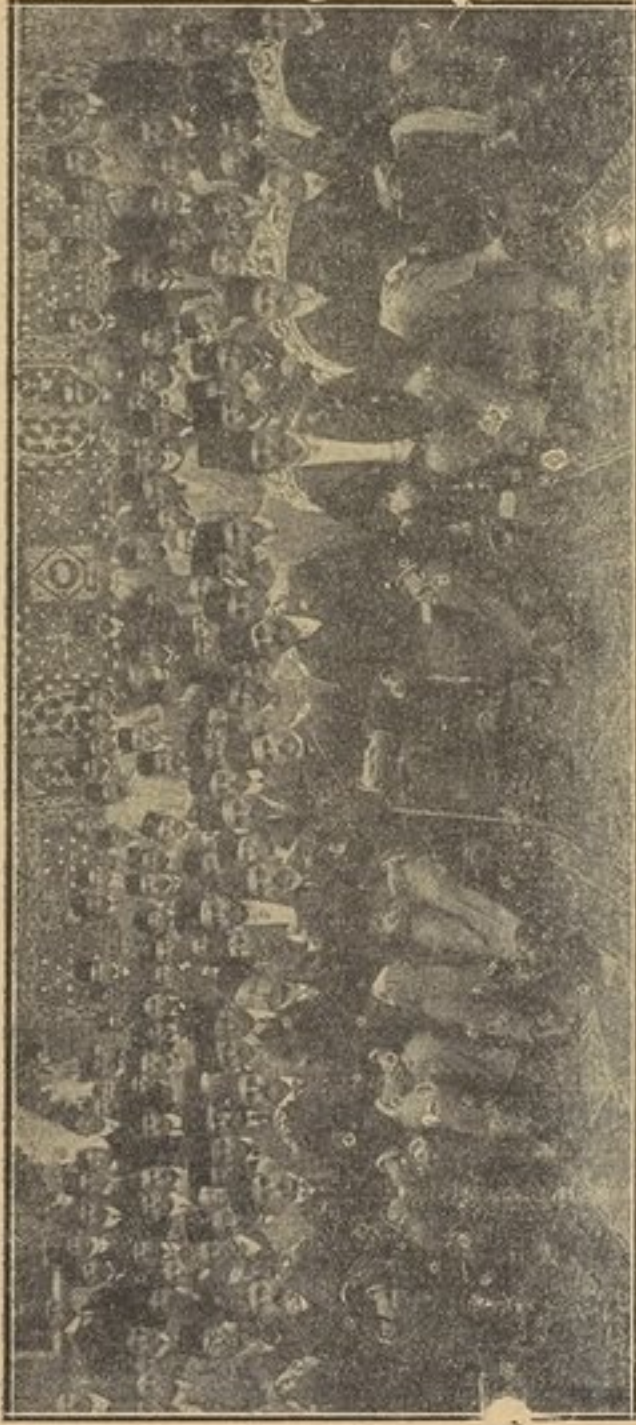
وأخذ مجلس الإدارة يوالى جمع الاكتتابات من الطلبة والمتخرجين ويعد معدات افتتاحه حتى اكتملت هذه المعدات فى مارس سنة ١٩٠٦

افتتاحه

وانخذ النادى داراً له بالمنزل رقم ٤ بشارع قصر النيل بالقرب من (ساقواى
أوتيل) القديمة ، وافتتح يوم الخميس ٥ أبريل سنة ١٩٠٦ ، وكان الاحتفال بافتتاحه
يوماً مشهوداً ، إذ حضره الأتضاء المشتركون فيه من الطلبة والمتخرجين ، وكان
الطلبة هم قوام النادى ، وحضر الاحتفال من رجال الحكومة حسين فخرى باشا
وزير المعارف وقتئذ ، ويعقوب ارئين باشا وكيلها ، والمستر دنلوب مستشارها ،
والمستر مئثل انيس وكيل وزارة المالية ، ومحمود صدق باشا محافظ العاصمة ، ونظار
المدارس العليا وكلاؤها ، وخطب فى الاحتفال عمر بك لطفى رئيس النادى معلناً
افتتاحه ، ثم أعقبه فخرى باشا وزير المعارف فألقى خطبة ترحيب بتأسيسه ، ولما
أنتم خطبته صدحت الموسيقى العسكرية ، وطاف المدعوون بغرف النادى وأبهائه ،
فأعجبوا بحسن تنسيقه ونظامه ، وكان بناء فخماً ، تحيط به حديقة غناء ، وبه غرف
واسعة . بعضها للجلوس ، وبعضها لتلاوة الصحف والمجلات ، وبعضها للبيارد
والآلات المباحة ، وفيه غرفة فسيحة للسكتبة جمعت عدداً كبيراً من السكتب العلية
النفيسة ، وكان من مبادئه منع الميسر والخمر منعا مطلقاً

واطرده الإقبال على النادى ، فكان عدد أعضائه حين تأسيسه ٢٤٠ عضواً بين
طلبة وخريجين ، فلم يأت آخر ديسمبر سنة ١٩٠٦ حتى بلغوا ٤٧١ ، وبلغوا ٥٤٩
فى آخر ديسمبر سنة ١٩٠٧ ، و ٦٨٥ فى آخر ديسمبر سنة ١٩٠٨ ، و ٧٧٣ فى آخر
ديسمبر سنة ١٩٠٩ ، أى زادوا على ثلاثة أمثال عددهم الأول

وقد بعث تأسيس هذا النادى روحاً جديدة من التضامن والود بين الطلبة ،
بقيت تجمع بينهم على مر السنين ، وكان ينظم رحلات رياضية يشترك فيها الطلبة
وبعض المتخرجين ، فتقويت روابط الألفة بينهم باجتماعهم اليومية فى النادى ورحلاتهم
الرياضية التى كانوا يقومون بها مجتمعين ، وظل النادى قائماً يؤدى مهمته خير الأداء ،
حتى أقفل بأمر السلطة العسكرية البريطانية فى أوائل الحرب العامة الأولى سنة ١٩١٤



افتتاح نادي المدارس العليا - ٥ ابريل سنة ١٩٠٦ (صورة أخرى للحفلة) انظر ص ١٩١

وترى من الجالسين في الصف الاول المرحوم عمر بك ادنى (في الصدر) . سامي بك عصمت . توفيق باشا رفعت . علي بك حسني المصري . محمد بك علي دلاور ، الدكتور عبد العزيز بك ظلي . الدكتور وجيه راشد . الدكتور علي بك حلمي . الدكتور حافظ عفيفي باشا . الاستاذ صالح جودت . الاستاذ بدیع قریة . ومن الجالسین فی الصف الثاني : الدكتور سالم هندواوی بك . الدكتور كامل سامي . نؤاد بك أنور السنتار . هارون سليم باشا . الدكتور الاستاذ محمود فتحي . الدكتور توفيق بك عمر . ومن الواقفين في الصف الثالث : أمين بك الزاقي . الصادق بك حسين . محمد بك فايز . الاستاذ حاتم يوسف العسكري . زيبه بك سلام . احمد بك عبد القادر . الاستاذ عبد القصود متولى . ابراهيم بك راتب . سعيد باشا الغزوي . محمد بك شترکس . حسن بك زكي السنتار . وفي الصف الرابع . الدكتور سيد كامل الخ

إضراب طلبة الحقوق

فبراير سنة ١٩٠٦

كان طلبة الحقوق أول من تشبعوا بالروح الوطنية التي بثها الفقيد في الشباب ، وظهرت هذه الروح في تبرمهم بالنظام الذي وضعته وزارة المعارف في يناير سنة ١٩٠٦ ، وكان الغرض منه استفزاز شعورهم والتصديق عليهم ومعاملتهم بنظام المدارس الابتدائية والثانوية ، فأضربوا عن الدراسة في فبراير سنة ١٩٠٦ احتجاجاً على هذا النظام ، وقد ساهمت في هذا الإضراب واشتركت فيه ، إذ كنت من طلبة الحقوق المتذمرين ، وكانت طالباتنا العمدول عن النظام الذي وضعته الوزارة والرجوع إلى النظام القديم ، وكنا على حق في تذرنا ومطالبنا ، وليس أدل على ذلك مما كتبه الأستاذ إدوار لامبير ناظر مدرسة الحقوق (١) في مقالته التي نشرها عقب استقالته سنة ١٩٠٧ ، وسيأتي بيانها بالفصل الثالث عشر ، إذ قال : « إن المستر دنلوب وضع لطلولاء الطلبة الذين بلغوا سن الرجال نظاماً من النظمات الموضوعية لصغار تلاميذ المدارس الابتدائية ، وأخذ يعاملهم بقسوة متناهية ، ويستعمل معهم سياسة وخز الإبر ، سياسة اضطهاد دنيء ، فكانت نتيجة ذلك أن انضم إلى الحزب المعارض للإنجليز فئة متعلبة راقية ، وأن يسود على أفئدة الشبيبة الحقد والبغض الإدارة الإنجليزية ، وأن يتحول مدرسة الحقوق معقلاً للوطنية المصرية بحيث لا تكاد ترى بين الأربعمئة التلميذ الموجودين بها الآن عشرة لا يؤمنون كل الإيمان بمبادئ مصطفى كامل باشا .

كان هذا الإضراب هو الأول من نوعه ، لأنه شمل مدرسة عالية بأسرها ، وكان موجهاً ضد سياسة التعليم التي وضعها الاحتلال ، وقد أجمع الطلبة جميعاً على الانقطاع عن الدراسة وأنفوا لجنة تمثل جميع فرق المدرسة لتنظيم حركة الإضراب ، وعقدوا

(١) عين ناظر مدرسة الحقوق الخديوية في أكتوبر سنة ١٩٠٦ خلفاً للأستاذ

جرانمولان الذي وقع الإضراب في عهده

اجتماعاً في حديقة الأزبكية يوم ٢٦ فبراير سنة ١٩٠٦ أقيمت فيه الخطب ، وناهدنا فيه على التضامن واستمرار الإضراب حتى تجاب مطالبنا ، فكان لهذا الإضراب ضجة في البلاد ، وتدخل اللورد كرومر في شأنه ، وأمر وزارة المعارف بأن تأخذ الطلبة بالشدة ، فأعلنت الوزارة تعطيل الدروس في المدرسة من يوم ٢٦ فبراير سنة ١٩٠٦ حتى يوم السبت ٣ مارس ، وأنذرت الطلبة بأن من يتأخر عن الحضور في ذلك اليوم يفصل من سلك التلاميذ ، وانتقد اللواء هذا القرار وقال : إنه قرار يوجب أشد الانتقاد لأنه يؤدي إلى إبطال تعليم الحقوق في مصر إذا أصر الطلبة على الإضراب

واتخذ الطلبة جريدة اللواء لسان حالهم في نشر ظلامتهم من معاملة الوزارة إياهم ، فكان هذا الإضراب هو المرحلة الأولى العملية لاتصال طلبة المدارس العالية بالحركة الوطنية ، وتشبعهم بالمبادئ الاستقلالية ، وتبعهم في هذا الاتصال طلبة المدارس العالية الأخرى ، لما أبدوه من العطف على طلبة الحقوق وتأبيرهم ، وقد أخذ الإضراب من هذه الناحية صبغة عامة ، إذ كان دليلاً عملياً على فساد نظام التعليم أدى إلى سحق الطلبة وضيق صدورهم من سوء معاملة الوزارة إياهم ، وكان بمثابة احتجاج على هذه المعاملة ، وقد قابلته الحكومة بالشدة لكي تقمع الروح الجديدة التي ظهرت في صفوف الطلبة ، وفي ذلك كتب الفقيد تحت عنوان (مسألة الطلبة) مقالة جاء فيها :

وقضت البلاد أسبوعاً كاملاً وهي شديدة الاهتمام بمسألة الطلبة ، وقد دل هذا الاهتمام العظيم على أن أمر التعليم أصبح عند الأمة المصرية في مقدمة أمورها الحيوية ، وان لناشئها المحل الأول من عنايتها ، وان رجال الغد هم موضع الآمال كلها ، لقد أظهر إضراب الطلبة أموراً جمّة وأنتج نتائج عدة ، أظهر خلل نظارة المعارف وفساد سياستها وسوء إدارتها وعدم كفاءة المديرين لها ، أظهر أن الطلبة وكلهم ولدوا في عهد الاحتلال وتربوا بمقتضى النظم التي وضعها ليسوا كما شاء أعداء مصر والمصريين جبناءً أذلاء ، بل إنهم ذوو إباء وشمم وعواطف راقية وإرادة حقيقية ، أظهر أن رجال الغدا متضامنون متكاتفون عارفون لمعنى الاتحاد

والاتفاق ، غيرون على حقوقهم ، محبون للعدالة ، متشربون بروح الاستقلال ، وقد انتهى الاضراب برجوع الطلبة إلى المدرسة يوم السبت ٣ مارس سنة ١٩٠٦ بناء على وعد المستشار القضائي بالنظر في طلباتهم ، وأراد الاحتلال تثبيت مركز المستر دنلوب وكان إلى ذلك الحين سكرتيراً عاماً لوزارة المعارف ، وعليه تقع مسئولية إخلال نظام التعليم الذي أدى إلى إضراب طلبة الحقوق ، فرق مستشاراً للوزارة في مارس سنة ١٩٠٦ مكافأة له على أخذ الطلبة بالشدّة

حادثة العقبة — مايو سنة ١٩٠٦

ظهرت في سنة ١٩٠٦ حادثة سياسية مهمة هزت أعصاب الأمة ووضعت من جديد مسألة الاحتلال والجلاء على بساط البحث والمناقشة ، ونعني بها حادثة العقبة وتسمى أيضاً حادثة (طابة) ، وبيانها أن تركيا اعترفت في تلك السنة مدسكة حديدية من معان إلى العقبة ، وهذه السكة تجعل لتركيا قوة جديدة على حدود مصر ، وتهدد مركز الاحتلال الانجليزي ، فاهتم الانجليز لهذا الحادث ، وأرسلوا ضابطاً كبيراً عهدوا إليه وضع نقط عسكرية على طول الخط من العريش إلى العقبة ، باعتبار أنها من أملاك مصر ، إذ هي جزء من طورسينا المعهودة إدارتها إلى مصر ، ولكن الجنود التركية احتلت موقع (طابة) على بعد ثمانية أميال غربي العقبة ، وقام لذلك خلاف شديد بين تركيا وانجلترا ، ظهرت فيه هذه بمظهر الدولة الحامية لمصر ، إذ طالبت تركيا باسم مصر أن تجلو عن طابة ، وتهددت وتوعدت كما لو كانت مصر جزءاً من أملاكها ، فكان هذا المظهر من علامات الحماية ، مما أثار سخط الفقيده ، فاستنكر موقف انجلترا من هذه الحادثة ، ودعا الانجليز إلى الجلاء عن مصر بدلا من أن يتظاهروا بالدفاع عن حقوقها ، وكانت تركيا ترمي بعملها هذا إلى فتح باب المسألة المصرية من جديد لإجبار انجلترا على الوفاء بعهودها في الجلاء ، ومن هنا جاء عطف الأمة المصرية على موقفها في هذه الحادثة ، إذ كان موقفها شديداً من بعض الوجوه بموقف فرنسا في حادثة فاشودة ، وقد كانت تركيا تتوقع أن تؤيدها بعض الدول الأوروبية في فتح باب المسألة المصرية ؛ ولكن فرنسا كانت بحكم الاتفاق

الودي ، مؤيدة لانجلترا ، وطلب سفيرها في الاستانة من الحكومة التركية الإذعان لمطالب إنجلترا ووقفت روسيا موقفاً يشبه موقف فرنسا . ولزمت ألمانيا الجمود حيال هذا الخلاف ، مما جعل تركيا تجنح للراجع ، وانتهت الحادثة بانسحاب الترك من طابفة في مايو سنة ١٩٠٦ ، وتأليف لجنة مصرية تركية لتسوية مسألة الحدود على قاعدة معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ وتلغراف ٨ ابريل سنة ١٨٩٢ المرسل إلى الخديو عباس الثاني والذي خول مصر إدارة شبه جزيرة طورسينا^(١) ، وانتهت اللجنة من عملها في أول اكتوبر سنة ١٩٠٦ ، إذ تم الاتفاق على الحدود الشرقية على أن تكون خطاً ممتداً من (رفح) على البحر الأبيض المتوسط إلى نقطة واقعة غرب العقبة بثلاثة أميال ، وبقيت طابفة ضمن أملاك مصر والعقبة من أملاك تركيا

وقد جاءت حادثة العقبة دليلاً ساطعاً على كراهة الأمة للاحتلال وللحماية المقنعة التي انتهلتها إنجلترا على مصر ، وبرهاناً جليلاً على انتشار التعاليم الوطنية التي بنها الفقيدي في النفوس

زيادة جيش الاحتلال

كان من نتائج شعور الكراهية الذي بدأ من المصريين حيال الاحتلال في حادثة العقبة أن قررت الحكومة البريطانية زيادة عدد جيش الاحتلال ، فزادته من ٢٩٠٦ جندياً إلى ٤٧٥٨ ، وزادت النفقات التي تتحملها مصر في هذا الصدد من ٩٧٥٠٠ جنيهه الى ١٤١٣٧٥ جنيهها ، وجاءت هذه الزيادة دليلاً على اتساع الهوة بين الأمة الاحتلال وتفنيدياً لمزاعم أنصاره الذين كانوا يرجفون بأن الأمة راضية عنه موالية لحكمه

(١) فصلنا الكلام عن هذا التلغراف وعن أزمة فرمان سنة ١٨٩٢ في الفصل السادس عشر

الفصل الثاني عشر

حادثة دنشواى

(١٣ يونيه ١٩٠٦)

لامراء فى أن حادثه دنشواى هى من حوادث مصر التاريخية التى لا تُنسى على مر السنين ، لما كان لها من الأثر البالغ فى تطور الحركة الوطنية ، وفى مركز الاحتلال الانجليزى ، فهى نهاية عهد كان الاحتلال يتمتع فيه بالاستقرار والطمأنينة ، وبداية مرحلة جديدة من مراحل الجهاد القومى عَمَّ فيها الشعور الوطنى بعد أن كان الظن أن سواد الأمة راض عن الاحتلال

تفاصيل الحادثة

ترجع هذه الحادثة إلى أن بعض الضباط من جيش الاحتلال وبعض الموظفين البريطانيين كانت لهم عادة أن يتجولوا فى بعض القرى والبلاد ليصطادوا الطيور بينادقهم ، وفى يوم الاثنين ١١ يونيه سنة ١٩٠٦ غادرت كتيبة من نحو ١٥٠ جنديا بريطانيا القاهرة متجهة بطريق البر إلى الاسكندرية ، وبعد مسيرة يومين وصلت يوم الأربعاء ١٣ يونيه إلى منوف ، فأبلغ خمسة من ضباطها مأمور المركز أنهم يرغبون الصيد فى بلدة (دنشواى) وهى بلدة صغيرة تابعة لنقطة بوايس الشهداء بمركز شبين الكوم ، ومشهورة بكثرة حمامها ، وهؤلاء الضباط هم الميجر بين كرفن قومندان الكتيبة ، والسكبن بول ، والملازمان بورثر وسميث ويك ، والطبيب البيطرى بوستك ، فطلب المأمور من عبد المجيد بك سلطان أحد أعيان بلدة (الواط) أن يعد لهم مركبات عند السكة الزراعية الموصلة لبلدة (دنشواى) ، ففعل ، فلما وصلوا إلى (كشوش) وقفوا هنيهة وعسكروا بها مع بقية الجنود ، ثم ركب الخمسة الضباط المركبات التى أعدها عبد المجيد بك سلطان مبتدئين من معدية الباجورية ، مارين على

ناحية سرسنا ، ومنها إلى (دنشواى) ، وكان يرافقهم أومباشى من بوليس نقطة الشهداء
وترجمان مصرى ، وذهب الأومباشى إلى العمدة ليبلغه خبر قدوم الضباط لكي يتخذ
التحركات التى تكفل عدم احتكاكهم بالاهلين ، ولكنه ألقى العمدة غائبا ، ولم
ينتظر الضباط حضوره ، ولا رجوع الأومباشى ، وانقسموا فريقين ، فريق وقف
على السكة الزراعية لصيد الحمام من خلال الأشجار الملتفة هناك ، وهؤلاء لم يصبهم
أحد بسوء ، والفريق الآخر جاس خلال أجران القمح فى دنشواى ليصطادوا
ما بها من الحمام ، فاتفق أن حمامتين كانتا واقفتين على جرن مملوك لمحمد عبدالنبي مؤذن
القرية ، وكان يشتغل به أخوه شحاته عبدالنبي ، فجاء أحد الضباط الانجليز وصوب
بندقيته على الحمام ، فصاح به شيخ طاعن فى السن يبلغ الخامسة والسبعين من العمر
اسمه حسن على محفوظ (وهو أول من حكمت عليهم المحكمة المخصوصة بالإعدام)
طالباً منه أن يكف عن إطلاق البندقية ، وإلا احترق الجرن ، وكذلك صاح به
شحاته عبدالنبي ، فلم يعبأ الضابط ، وأطلق العيار ، فاصداً إصابة الحمام ، فأخطأ
المرمى ، وأصاب امرأة تدعى أم محمد زوجة محمد عبدالنبي المؤذن ، كما أصاب الجرن ،
فسقطت المرأة جريحة تتخبط فى دمها ، واشتعلت النار فى الجرن ، فأخذ شحاته
يصيح ويستغيث ، وهجم على الضابط وتجادب وإياه بندقيته ، وأقبل الرجال والنسوة
والاطفال هائجين صائحين : « الخواجه قتل المرأة ! وحرق الجرن ! الخواجه قتل
المرأة وحرق الجرن ! » ، وأحاطوا بالضابط ، وجاء بقية الضباط الانجليز لإنقاذ
زميلهم ، فتكاثر جموع الاهلين ، ووصل فى الوقت نفسه شيخ الخفر ومعه الخفراء
لتفريق الجموع ، وإنقاذ الضابط ، فتوهم هؤلاء أنهم جاءوا يريدون بهم شرأ ، فأطلقوا
عليهم العيارات النارية ، فأصاب واحد منها شيخ الخفر فى فخذه فسقط على الأرض ،
وأصاب عيار آخر اثنين أحدهما من الخفراء ، فصاح الجميع : « شيخ الخفر قتل !
شيخ الخفر قتل ! » ، وحملوا على الضابط بالطوب والعصى الغليظة وأخذوا من لحقوا
بهم ضرباً ، فأصيب الماجور بين كوفين قومندان السكتية بكسر فى ذراعه ، وجرح
الملازمان سميت ويك وبورثجروحا خفيفة ، وأحاط بهم الخفراء مع زميل رابع لهم
وأخذوا منهم أسلحتهم وحجزوهم حتى جاء ملاحظ بوليس النقطة وأوصلهم إلى المعسكر
أما السكتين بول والطبيب البيطرى الانجليزى فتركا مكان الواقعة ، وكان الأول

منهما قد أصيب إصابة شديدة في رأسه ، وأخذا يعدوان حتى قطعنا نحو ثمانية كيلومترات في حمارة القبيظ ، إذ كانت الواقعة في صميم الصيف ، فلم يكذب الكبتن بول يصل إلى باب سوق (سرسنا) حتى سقط من الإعياء ، ومات بعد ذلك متأثراً من ضربة الشمس ، ولما سقط تركه زميله الطبيب البيطرى وأخذ يعدو حتى وصل معسكر السكتية بناحية كمشرش على ضفة الترعَة الباجورية

وماكاد نبأ الحادثة يصل إلى بقية جنود السكتية الانجليزية في كمشوش حتى سارع الجنود الراكبة إلى مكان الواقعة ، ولم يكادوا يقطعون بضعة كيلو مترات حتى بلغوا (سرسنا) وظنوا أنها دنشواى ، وهناك وجدوا ضابطهم ملقى على الثرى ، ورأوا فلاحاً مصرياً هو (سيد أحمد سعيد) يقدم إليه قدحاً من الماء ، فظنوه من الضاربين ، فأنحوا عليه بينادقهم طعناً ووخزاً حتى هشموا رأسه ، ومات بين أيديهم ، وذهب دمه هدراً ، ولم يحاكم أحد من قتلته ، وقد عرف هذا القتل بشهيد سرسنا

وصل نبأ هذه الحادثة يوم وقوعها إلى ولاية الامور في المنوفية والقاهرة ، وما أن علم بها رجال الاحتلال وعرفوا أن الكبتن (بول) قدم مات عقب الحادثة ، وأصيب الضباط الآخرون ؛ حتى تولاهم الغضب ، وعتلوا على الانتقام من أهل القرية التي وقعت فيها الحادثة انتقاماً ذريعاً شديداً

المحاكمة

ثارت ثائرة الاحتلال من وقوع الحادثة ، على أنها في الواقع راجعة أولاً إلى اقتحام الضباط البريطانيين بدون حق غيظان الأهالى وأجرانهم لاصطياد الحمام المملوك لهم ، وذهب المستر متشل مستشار وزارة الداخلية إلى مكان الحادثة يوم وقوعها ، وجرى التحقيق فيها بمتهى السرعة ، وأخذ ولاية الامور يقبضون على الأهلين جزافاً ، ونشرت صحيفة (المقطم) يوم ١٨ يونيه قبل أن ينتهى التحقيق أن الأوامر صدرت بإعداد المشائق وإرسالها إلى مكان الواقعة ، فدهش الجمهور

لهذا النبأ ، وتوقع أن أحكاما صارمة بالإعدام ستصدرها المحكمة المختصة ، وأن المحكمة إنما هي مهزلة صورية لا ظل فيها للعدل ، ولا حرمة للقانون

وكان الأمر العالى الصادر فى ٢٥ فبراير سنة ١٨٩٥ بتأليف المحكمة المختصة التى تحكم فيما يقع من الأهالى من الجنايات والجناح على عساكر أو ضباط جيش الاحتلال لا يزال قائما (راجع ص ٤٦) ، فى ٢٠ يونيه سنة ١٩٠٦ أى قبل انقضاء سبعة أيام على وقوع الحادثة ، أصدر بطرس باشا غالى وزير الحفانية بالنيابة قراراً بتشكيل المحكمة المختصة لمحاكمة المتهمين فيها برئاسة بطرس باشا غالى ذاته ، وعضوية كل من المستر هيتير نائب المستشار القضاى ، والمستر بوند وكيل محكمة الاستئناف الأهلية ، والقائم مقام لادلو القائم بأعمال المحاماة والقضاء بجيش الاحتلال ، وأحمد فتحى بك زغلول (باشا) رئيس محكمة مصر الابتدائية ، وأن يكون انعقادها فى شبين الكوم يوم الاحد ٢٤ يونيه ، وعين عثمان بك مرتضى رئيس أقلام وزارة الحفانية سكرتيراً للمحكمة ، وبلغ عدد من قدمتهم الإدارة لمحاكمتهم فى هذه الحادثة اثنين وخمسين متهما ، قدموا جميعاً مقبوضاً عليهم ، وسبعة من الغائبين وقد انعقدت المحكمة المختصة بهيئتها السالف ذكرها يوم الاحد ٢٤ يونيه بسراى المديرية بشبين الكوم الساعة العاشرة صباحاً ، وكان يحيط بها جو من الرهبة يملأ النفوس فرعاً ، والقلوب جزعاً ، والجنود الإنجليزية والمصرية ترابط حولها وعلى مقربة منها ، وأخذت فى سماع أقوال الشهود ، وقد ثبت من شهادة الدكتور نولن الطبيب الشرعى أمام المحكمة ، وكان إنجليزياً ، أن وفاة الكبتين بول راجعة مباشرة إلى ضربة الشمس ، وأنه لو لم يصب بها لما حدثت الوفاة من إصابة الرأس التى أصابته فى الحادثة

وكان تحامل المحكمة على المتهمين بادياً أثناء سماع الشهود ، حتى أنه حين كان أحد الشهود واسمه عبد العال صقر يروى الحادثة بما يدل على تحذيره الضباط الإنجليز من الصيد داخل القرية ، قال له المستر بوند : ه ألا تعرف أن هذه المحكمة تعاقب الشهود الزور ؟ ، قال (نعم) فقال المستر بوند : ه أنا أعرف المصريين أمثالك كيف تكون شهادتهم ، واستمرت المحكمة فى سماع الشهود والدفاع ثلاثة أيام حتى يوم ٢٦ يونيه

الحكم

وانعقدت المحكمة في صباح اليوم الرابع (الأربعاء ٢٧ يونيو) وتلا سكرتير الجلسة الحكم، وهو يقضى على كل من :

أولاً - حسن علي محفوظ، ويوسف حسن سليم، والسيد عيسى سالم، ومحمد درويش زهران . بالإعدام شنقاً في قرية دنشواي

ثانياً - محمد عبد النبي مؤذن القرية . وأحمد عبد العال محفوظ . بالأشغال الشاقة المؤبدة

ثالثاً - أحمد محمد السيبي . بالأشغال الشاقة خمس عشرة سنة

رابعاً - محمد علي أبو سمك . وعبد الباقلي . وعلى علي شعلان . ومحمد مصطفى محفوظ . ورسلان السيد علي . والعيسوي محمد محفوظ . بالأشغال الشاقة سبع سنين

خامساً - حسن اسماعيل السيبي . وإبراهيم حسنين السيبي . ومحمد الغباشي السيد علي . بالحبس مع التشغيل سنة واحدة . وبجلد كل واحد منهم خمسين جلدة وأن ينفذ الجلد أولاً بقرية دنشواي

سادساً - السيد العوفي . وعزب عمر محفوظ . والسيد سليمان خير الله . وعبد الهادي حسن شاهين . ومحمد أحمد السيبي . بجلد كل واحد خمسين جلدة بقرية دنشواي ، مع تكليف مدير المنوفية بتنفيذ الحكم فوراً

فيكون مجموع من حكم عليهم واحداً وعشرين متهماً، حكم بالإعدام على أربعة منهم، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين، وبها لمدة خمس عشرة سنة على واحد، وبالسجن سبع سنوات على ستة، وبالحبس مع التشغيل مدة سنة مع الجلد خمسين جلدة على ثلاثة، وبالجلد خمسين جلدة على خمسة

كيف قوبل الحكم

قوبل هذا الحكم بالدهشة لصرامته، ولأنه فاق كل ما كان يتوقعه المتشائمون،

وخلا من كل إنصاف وعدل ، إذ كانت الحادثة راجعة أصلاً إلى عدوان الضباط البريطانيين ، ولم يقع اعتداء من الأهلين إلا بعد أن أصيبت إحدى نسايتهم وحرقت جرن لهم ، ولم يمت من الضباط الانجليز سوى ضابط واحد ثبت من تقرير الطبيب الشرعي الإنجليزي أن السبب المباشر لوفاة هو ضربة الشمس التي أصابته من شدة الحر ، وقد دل هذا الحكم على أن العدل الإنجليزي لا يؤمن جانبه إذا كانت الخصومة تمس صالحاً انجليزياً

تنفيذ الحكم - ٢٨ يونيو سنة ١٩٠٦

كان تنفيذ الحكم بطريقة وحشية ، زادت فظاعة المحاكمة ، وفاقت كل ما يتصوره العقل . من وسائل الانتقام والتعذيب ، وكان التنفيذ في اليوم التالي لصدور الحكم ، في المكان الذي مات فيه السكبتن بول ، وفي مثل الساعة التي وقعت فيها الحادثة ، ففي الساعة الرابعة بعد منتصف الليل سيق المحكوم عليهم بالاعدام والمحكوم عليهم بالجلد إلى نقطة الشهداء ، على مسافة نحو عشرين كيلواً متراً من شين الكوم وأربعة كيلو مترات من قرية دنشواي ، وأنزلوا بها بحراسة الجنود البريطانية والمصرية ، حتى إذا اقتربت الساعة الأولى بعد الظهر جرى بهم إلى دنشواي ، وهناك نُصبت المشنقة وآلة الجلد ، ونفذ الحكم بقسوة وفظاعة ، فبدأ التنفيذ في منتصف الساعة الثانية بعد الظهر ، ونفذ الحكم في المشنوق الأول علناً ، على مرأى ومسمع من أهله وذويه ، وبين صياح النساء ونواحين ، وبقي معلقاً بينما نفذ حكم الجلد في اثنين ، ثم شق الثاني بهذه الطريقة ، يليه جلد اثنين آخرين ، وهكذا حتى تمت المجزرة في منتصف الساعة الثالثة مساءً ، قال المرحوم الأستاذ أحمد حلمي المحرر وقتئذ باللواء في ختام وصفه لمأساة التنفيذ :

كاد دمي يجمد في عروقي بعد تلك المناظر الفظيعة ، فلم أستطع الوقوف بعد الذي شاهدته ، فقفلت راجعاً وركبت عربتي ، وبينما كان السائق يلهب خيولها بسوطه كنت أسمع صياح ذلك الرجل يلهب الجلاذ جسمه بسوطه ، هذا ورجائي من القراء أن يقبلوا معذرتي في عدم وصف ما في البلدة من مآتم عامة . وكأية مادة رواقها على

كل بيت ، وحزن باسط ذراعيه حول الأهالي ، حتى أن أجران غلالهم كان يدوسها الذين حضروا لمشاهدة هذه المجزرة البشرية ، وتأكل فيها الأنعام والدواب بلامعارض ولا مانع ، كأن لا أصحاب لها ، ومعدرتي واضحة ، لأنى لم أتمالك نفسى وشعورى أمام البلاء الواقع الذى ليس له من دافع إلا بهذا المقدار من الوصف والإيضاح ، ولقد كنتُ حينما وقعت الحادثة طالباً بالسنة الثانية من مدرسة الحقوق ، وكنت أطلع نبأها فى اللواء ، فأدهش لمخالفة منهج التحقيق والمحاكمة فيها لما كنا نتلقاه من أصول المحاكمات الجنائية التى تقضى بها القوانين ، وتساءلتُ ما فائدة ما نتلقاه من الدروس والقواعد القانونية إذا كانت لا تطبق على الناس كافة ، ولما تلوت وصف التنفيذ فى اللواء بقلم أحمد أفندى حلى اقشعر بدنى من هول ما قرأتُ ، وأدركتُ مبالغ هوان المصرى فى نظر الاحتلال ، وتحققت أن لا كرامة لأمة ولا لآى فرد من أبنائها بغير الاستقلال

مصطفى كامل وحادثة دنشواى

كان الفقيد فى أوروبا حين صدر حكم المحكمة المخصوصة فى قضية دنشواى ، وقد بلغته أنباء المحاكمة والتنفيذ وهو فى باريس ، وكانت النفوس فى مصر واجمة ، يحز فيها الألم وهى ساكنة ، كانت تألم ، ولسكن ألم اليأس المستضعف ، أمام جبروت الاحتلال وبطشه

وصف المرحوم (قاسم أمين) هذه الحالة النفسية يوم تنفيذ حكم دنشواى بقوله : « رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلباً مجروحاً وزوراً مخنوقاً ، ودهشة عصبية بادية فى الأيدى وفى الأصوات ، كان الحزن على جميع الوجوه ، حزن ساكن مستسلم للقوة ، مختلط بشىء من الدهشة والذهول ، ترى الناس يتكلمون بصوت خافت ، وعبارات متقطعة ، وهينة بانسة ، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت ، كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة ، ولسكن هذا الاتحاد فى الشعور ببق مكتوماً فى النفوس لم يجد سيلاً يخرج منه فلم يبرز بروزاً واضحاً حتى يراه كل إنسان ،

فهذا اليأس ، وهذا السكوت ، وهذا الاستسلام والوجوم الذي استولى على النفوس بعد حادثة دنشواى ، وهذا الشعور الذي بقى مكتوماً ، على حد تعبير قاسم أمين ، لم يكن لينهض بالامة ، ولا ليوقظ فيها روح الكرامة والإباء ، بل كان من شأنه لو دام أن يزيد بها يأساً وهواناً واستسلاماً ، ولكن عبقرية مصطفى كامل هي التي أبدلت من هذا اليأس قوة ، ومن هذا السكون حياة وثورة

لقد كان لابد من صوت عال يهز قلب الإنسانية، ويشهد العالم على تلك الفظائع، ويستثير الرأى العام فى مصر وأوروبا ضد الاحتلال عامة ، كان ذلك هو صوت الفقيد ، ورغم أنه ذهب إلى أوروبا للاستشفاء ونصح له الأطباء أن يلزم الراحة والهدوء ، فإنه لم يكفد تصله أبناء المحاكمة حتى نارت نفسه وتحرك قلبه الكبير إلى العمل والجهاد ، ونهض بكل قوته لكي يسمع العالم صوت مصر ، ويعلن حرباً شعواء على الاحتلال وسياسته ، فسكتب فى جريدة (الفيجارو) الفرنسية الشهيرة (١) مقالة كبرى نشرت فى صدر الجريدة بعنوان (إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن) ، عرض فيها حادثة دنشواى على الضمير الإنسانى فى العالم ، فكانت من أقوى وأبلغ ما كتب الفقيد بلسان مصر ، وقد استورد فيها إلى جهاد المصريين فى سبيل الاستقلال ، وأبان أن حادثة دنشواى قد قضت على مزاعم اللورد كرومر فيما كان يذيعه من أن الفلاحين المصريين محبون للاحتلال الإنجليزي ، وأسمع العالم صوت مصر ، إذ قال فيها :

« إن مقصدنا الذى نرمى إليه هو استقلال وطننا ، ومحال أن يوجد شىء ينسينا ذلك المقصد ،

ولما كانت هذه المقالة هى فى ذاتها من أهم حوادث الحركة الوطنية ، وكان من نتائجها إقالة اللورد كرومر من منصبه ، فانا نشر ترجمتها هنا كاملة ، قال رحمه الله :

إلى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن

« لقد حدثت حادثة مؤلمة فى قرية من قرى الدلتا بمصر تدعى « دنشواى » تحركت بسببها عواطف الإنسانية فى العالم كله ، وقام رجال أحرار الفكر مستقلو

الأخلاق والأطوار في إنجلترا رافعين أصواتهم سائلين عما إذا كان يوافق كرامة الدولة البريطانية وشرفها ومصحتها أن تسمح بأن يرتكب باسمها أمر ظالم قاس؟
« وإنه لمن الواجب على الذين يشغفون حقيقة بالإنسانية والعدل ، أن يدرسوا هذه المسألة ويصدروا فيها حكمهم العادل وهي المسألة الشاغلة لامة بأسرها !

« فقد ترك ضباط من الإنجليز في يوم ١٣ يونيه الماضي معسكرهم بالقرب من دنشواي بمديرية المنوفية ، وقصدوا صيد الحمام في الأملاك الخصوصية للأهالي ، فأذّر شيخ فلاح المترجم المرافق لهم بأن الأهالي قد استاءوا في العام الماضي من صيد الضباط الإنجليز لحمامهم ، وأنهم ربما زادوا من غضبهم وسخطهم لو عادوا إلى الصيد في هذا اليوم !

« ورغمنا من هذا الإنذار ، فإن الضباط أخذوا يصطادون ، وأطلقت العيارات النارية ، وجرحت امرأة ، وحرقت جرن ، فاجتمع الفلاحون من كل مكان ، ووقعت مشاجرة بينهم وبين الإنجليز ، جرح هؤلاء فيها ثلاثة من المصريين ، وجرح المصريون ثلاثة من الضباط الإنجليز ، وقد تخلص أحد المجروحين وهو السكيتن « بول » من المعركة ، وقطع بكل سرعة مسافة خمسة كيلومترات ، حيث كانت حرارة الشمس بالغّة ٤٢ درجة ، وسقط بعد ذلك ميتاً بضربة الشمس ! وما علم العساكر الإنجليز بما وقع لضباطهم حتى هجموا على قرية سرسنا المجاورة لدنشواي ، وقتلوا فلاحاً بدق رأسه !

« هذه هي الوقائع ، وما عليها أصحاب الأمر من الإنجليز حتى فقدوا الرشيد ، وثاروا من قيام المصريين بالمدافعة عن أنفسهم وعن أملاكهم ! وبدلاً من أن ينظروا إلى الحادثة بسكون جأش ككل المشاجرات والمعارك ، بالغوا فيها وجسموها ، وأعلنت الصحف انخفاصاً للاحتلال قبل المحاكمة بأن العقوبات والعبرة التي ستضرب للناس ستكون هائلة ! فلم يكن العدل هو المنشود في المسألة ، بل الانتقام الفظيع !
« ونشرت نظارة الداخلية بأمر المستر متشل المستشار الإنجليزي ، قبل المحاكمة بأسبوع بلاغاً رسمياً أثقلت فيه كواهل المتهمين بالتهمة ، وقصدت صراحة التأثير في

المحكمة والرأى العام ! وبلغ من احتقار إحدى الصحف القائمة بخدمة الاحتلال للعدالة أنها نشرت خبر إرسال المشانق إلى دنشواى قبل المحاكمة ، وقد راع الشعب كل ذلك ، فأخذ يتساءل عن الحكم الذى ينتظر صدوره بعد مظاهرات كهذه المظاهرة

« وقد اجتمعت المحكمة فى يوم ٢٤ يونيه ، وأى محكمة ؟ محكمة استثنائية لادستور يقيدتها ولا قانون يربطها ! لقضائنا أن يحكموا بكل العقوبات التى تخطر على البال ! محكمة أغليبتها للانجليز ، ولا تستأنف أحكامها ، ولا تقبل العفو ! وان المرسوم الذى صدر بتشكيلها فى عام ١٨٩٥ - بناء على ضغط اللورد كرومر - ذلك الضغط الذى لا يسمح للحكومة الخديوية مطلقاً بإظهار أى مقاومة - يحمل قارئه على الظن بأن الجيش الانجليزى الذى ألقى إليه انجلترا أمر تأييد الأمن فى مصر ، فى خطر مستمر ، جملة فى حاجة إلى محكمة كهذه المحكمة أو لآلة إرهاب

« قضت هذه المحكمة ثلاثة أيام فى نظر القضية ، وتبين أن الضباط الانجليز هم الذين هاجروا الفلاحين بصيدهم فى ممتلكاتهم ، وبجر حرم إحدى نساتهم ، وأن الفلاحين هجموا على الإنجليز بوصف أنهم صيادون يختلسون الصيد ، لا ضباط بريطانيون ! واعترف أمام المحكمة أطباء انجليز بينهم الدكتور نولن الطبيب الشرعى للمحاكم بأن السكبتن « بول » مات بضربة الشمس ، وأن جراحه لم تكن كافية وحدها لإحداث الوفاة !

« ولم تترك المحكمة إلا ثلاثين دقيقة لأكثر من خمسين متهما ليقولوا ما عندهم ، وأبت سماع أقوال أحد رجال البوليس ، حيث أكد أن الضباط الإنجليز أطلقوا العيارات النارية على الأهالى ، وبنت حكمها على تأكيدات الضباط الذين كانوا السبب فى المعركة ، والذين يعتبرهم العدل فى كل بلد خصوماً للبهتمين !

« وفى يوم ٢٧ يونيه صدر الحكم بشنق أربعة من المصريين ، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين ، وبالأشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاماً على واحد ، وبها لمدة سبع سنوات على ستة ، وبالحبس مدة عام مع الجلد على ثلاثة ، وبالجلد على خمسة . وقد جلد كل واحد من هؤلاء خمسين جلدة بكر باج له خمسة ذبول ! !

« وقررت المحكمة في حكمها تنفيذ الحكم في اليوم التالي ! بحيث لم يمض
إلا خمسة عشر يوماً بين الواقعة وتنفيذ الحكم

« ففي الساعة الرابعة بعد نصف الليل من يوم الأربعاء ٢٧ يونيو جىء بالأربعة
المحكوم عليهم بالشنق ، والثانية المحكوم عليهم بالجلد (عفت المحكمة عن واحد
من المحكوم عليهم بالجلد لأن الطبيب قرر ضعف بنيته وعدم استطاعته تحمله)
من شبين مقر مديرية المنوفية إلى قرية (الشهداء) التي تبعد أربعة كيلومترات عن
دنشواى ، ولبثوا هناك تسع ساعات ينتظرون الانتقام المروع ! وفي الساعة الأولى
بعد ظهر يوم الخميس ٢٨ يونيو جىء بهم إلى دنشواى ، وكان أصحاب الأمر من
الانجليز قد أصرروا على تنفيذ الحكم في محل الواقعة وفي الساعة التي وقعت فيها !

« نُصبت المشاقق ، ووضعت آلات الجلد والتعذيب في وسط دائرة مساحتها
٢١٠٠ متر ، وأحاطت عساكر ، الدراجون ، الإنجليز بالمحكوم عليهم ، والتفت
الحياطة المصرية حول الإنجليز ، وتولى المستر متشل مستشار الداخلية ومعه مدير
المنوفية أمر التنفيذ ! وقد تقدم إليهما ابن أول المحكوم عليهم بالشنق سائلاً مقابلة
والده ليتلقى وصاياه الأخيرة ، فرفضاً قبول هذا الرجاء الذي هو أعز ما يرجوه
الانسان ويحتمه الشرع والعدل !

« وفي منتصف الساعة الثانية امتنطت الجنود الإنجليز خيولها وشهت سيوفها
وبدى .. بعد ذلك بدقيقة في الشنق ! ..

« فشنق رجل ، ولبث أفراد عائلته وأقاربه وكل أهالى القرية وهم عن بعد
يملاؤن الفضاء بصراخهم الممزق للقلوب ، وجلد اثنان أمام الجثة !

« وتكرر هذا المنظر ثلاث مرات ، واستمر ساعة من الزمن ! منظر وحشى
مهيج للعواطف ، بكى منه بعض الحاضرين الأوروبيين بدموع الحنان ، وأبدوا
التفور الشديد بما رأوا ! وذهب كل واحد يكرر كلمة أحد المشنوقين :

« لعنة الله على الظالمين ! لعنة الله على الظالمين ! ،

« إن يوم ٢٨ يونيو من عام ١٩٠٦ ، سيقى ذكره في التاريخ شؤماً ونحساً !

وهو خليق بأن يذكر في عداد أيام التناهي في الهمجية والوحشية !

• عمت مصر كلها عواطف الانفعال والسخط عندما استفاضت أنبياء تنفيذ الحكم في دنشواي ، ولقد كان من المستحيل على أعداء انجلترا أن يصلوا إلى النتيجة الحالية بعد جهاد خمسين عاماً ! ولكن من العجيب أن يكون الموجودون لها هم رجال من الانجليز ! وقد أنشأ الشعراء المصريون عن حكم دنشواي أشعاراً تخلد ذكرى المناظر الوحشية التي أهدت فيها المدنية والانسانية والعدل بأقصى الصور المهيجة للضائر والنفوس !

• وإني جئت اليوم أسأل الأمة الانجليزية نفسها والعالم المتمدن ، إذا كان يصح التسامح في إغفال مبادئ العدل وشرائع الانسانية إلى هذا الحد ؟

• جئت أسأل الانجليز الغيورين على سمعة بلادهم وكرامتها أن يقولوا لنا إذا كانوا يرون بسط النفوذ الأدبي والمادى لانجلترا على مصر بالظلم والعسف وصنوف الهمجية ؟

• جئت أسأل الذين يجاهرون في كل آن ذا كرين الإنسانية ، مالتين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط إذا حدثت فظائع في بلاد أخرى دون فظيعة دنشواي ألف مرة أن يثبتوا صدقهم وإخلاصهم بالاحتجاج بكل قوة وشدة على عمل فظيع يكفي وحده لأن يسقط إلى الأبد تلك المدنية الأوروبية في أعين العالم كافة !

• جئت أسأل الأمة الانجليزية إذا كان يليق بها أن تترك الممثلين لها في مصر يلجأون بعد احتلال دام أربعة وعشرين عاماً إلى قوانين استثنائية ووسائل همجية - بل وأكثر من همجية ليحكموا مصر ويعلموا المصريين ماهية كرامة الإنسان ؟

• إني معجب بكل إخلاص وشكر واعتراف بالجميل بالنواب والكتاب الانجليز الذين نادوا بأعلى صوت معلنين مزيد غضبهم من هذه الرواية المحزنة الشنيعة التي مثلت في مصر ! ولكن لما رأى السير إدوارد جراي (١) أن الرأي العام

(١) وزير خارجية انجلترا وقتئذ

انتقاد لهم وانه قضى على سياسة اللورد كرومر ، وقف في مجلس العموم وتكلم عن التعصب الإسلامي المزعوم في مصر ، وسأل النواب بكل رجاء وإلحاح ألا يشتغلوا بمسائل مصر ، حتى لا يضعفوا سلطة الحكومة المصرية ، أو يعسارة أخرى سلطة اللورد كرومر الحاكم المطلق في مصر ، أمام خطر أصرح أنا علناً بأنه موهوم !!

• إن هذا الخطر الموهوم ليس في أيدي أصحاب الأمر من الانجليز إلا وسيلة لتسوية هذه الفضيحة المستنكرة ، وفضائح أخرى تقع في المستقبل !!

• إنه لا وجود لهذا الخطر ! وما الغرض من هذه الفضائح إلا إحدائه !

• وإني أؤكد بحق أقدم شيء في الدنيا أنه لا وجود للتعصب الديني في مصر ، نعم إن الإسلام سائد فيها لأنه دين الأغلبية العظمى ، ولكن الإسلام شيء والتعصب شيء آخر ، لقد انزع السير إدوارد جراي في هذه المسألة ! واني أرجوه أن يفكر لحظة فيما يأتي : هل لو كان في مصر تعصب حقيقة أ كانت تستطيع انجلترا أن تحاكم ٥٢ مسلماً أمام محكمة استثنائية مؤلفة من أربعة قضاة مسيحيين وواحد مسلم ؟

• هل تنفيذ الحكم في دنشواي بتلك الصورة الهمجية لم يكن كافياً وحده لإشعال نار التعصب المدمرة الصاعقة لو كان له وجود ؟

• ألم تسكن كل هذه التحريصات كافية لإخراج الشعب المصري عن أطواره وانفجار ذلك التعصب المزعوم لو كان هناك تعصب حقيقة ؟

• ولماذا لم يثر ذلك التعصب الذي تكلم عنه السير إدوارد جراي معارك كعركة دنشواي أثناء مسألة طابرة ، حيث كانت الأغلبية الكبرى من المصريين في جانب تركيا ، مع أن الجنود الانجليزية كانت تمر دائماً في كل جهة بكل أمان واطمئنان ؟

• ولقد أثبتت المرافعات في قضية دنشواي بكل إفاضة وبيان أنه لا دخل للإسلام فيها وإن الضباط الإنجليز وجدوا عند بعض الفلاحين المسلمين مساعدة وتعصيماً !

• إنه يحق للمصريين أن يطلبوا تحقيقاً دقيقاً كاملاً في المسألة ، وإن مصر على بعد يومين من أوروبا ، فليأت إليها الإنجليز المحبون للعدل الراغبون في عدم نلم الشرف

البريطاني ، وليذهبوا إلى المدائن والقرى ، وليروا بأعينهم كيف يعيش المسيحيون من كل جنس مع الفلاحين والمصريين كافة ، وليقتنعوا بأنفسهم بأن الشعب المصرى ليس متعصباً أبداً والسكنه شعب كريم أبى ، ينشد العدل والمساواة ، ويطلب أن يعامل كشعب حر لا كقطيع من الأغنام وأنه يعمل بكل عزيز لديه لتحقيق هذا المطلب الأسمى . مطلب الحرية والاستقلال !

• أجل ، إن الشعب المصرى شاعر الآن بكرامته ، وذلك أمر لا يمكن إنكاره بأى حال ، إنه يطلب معاملة أبنائه أسوة بالاجانب ، وهو طلب عدل وغير مبالغ فيه أبداً !

• لقد تكلم السير إدوارد جراى فى موضوع حماية الأوربيين ضد المصريين ! ولكن هل له أن يبين لنا الخطر المهدد للأوربيين الفاطنين مصر ؟ الا يعيشون فى أتم ضفاء مع المصريين ؟ ألا تحميهم الامتيازات الأجنبية ؟ ولكن من يحمى المصريين ؟ الا نرى فى بعض الأحيان مجرمين من الاجانب — يحتج الزلاء جميعاً على جرائمهم — يعتدون على المصريين ويقتلونهم ثم يفتنون من عقاب المحاكم المصرية ؟ وأى عقاب ستعاقب به الجنود الإنجليزية التى قتلت الفلاح على مقربة من دنشواى وكذلك الضباط الذين جرحوا امرأة وثلاثة رجال

• إن اللورد كرومر دافع عن نفسه فى تقريره الأخير ضد الذين يطعنون على السلطة المطلقة التى يتصرف بها فى أمور مصر قائلاً : إن البرلمان والرأى العام فى إنجلترا يراقبان أعماله كما أن الصحافة المصرية تراقبها أيضاً

• ولكنها مراقبة باطلة لأنه ما كاد البرلمان البريطانى يعرض ويحتج على أعمال وحشية كهذه ، حتى قال اللورد كرومر للسير إدوارد جراى بأن التعصب يخيف على شواطئ نهر النيل ، وأنه يجب على البرلمان ملازمة الصمت ! وبذلك لا يوجد مانع يمنع اللورد كرومر من حكم مصر بأشد القوازين مخالفة للعدل والإنصاف ! • لذلك يقضى شرف الأمة الإنجليزية عليها بأن توازن بين الأقوال الرسمية وأقوالنا ، وتقوم بإجراء تحقيق دقيق ودراسة القضية المطروحة أمامها الآن بكل استقلال !

« لقد قضى اللورد كرومر الأعوام الطوال وهو يؤكّد بأن الأمراء والسكّبراء في مصر هم وخدمهم المبعوضون للاحتلال ، لأنه سلبهم سلطتهم ، أما الفلاحون فانهم بحبوة حبا جما ويدعون بدوام العصر الحاضر !!

« وبناء على ذلك فانه لم يكن اعتداء فلاحى دنشواي على الضباط الإنجليز إلا لأهم رأوا إحدى نسايمهم مجروحة ، فالحكم والتنفيذ يكونان قد بلغا أقصى درجات البشاعة ، ويحق للعالم كله أن يقابلهما بمزيد السخط ! وإذا كان الأمر على العكس وأتى الفلاحون ذلك طوعا لعاطفة حقد ديني أو وطني فيتحتّم على اللورد كرومر أن يعترف بأنهم يمقتون الاحتلال وأن إدارته أدت إلى إخفاق ليس له مثيل ! ويحق عندئذ للمسترد ديون ، أن يقول مؤكدا : « إن خطبة السير إدوارد جراي هي أتمس شرح لمركز إنجلترا وسياستها في مصر ،

« على أن الذين يقطنون مصر كافة ويحبون الصدق والحقيقة . يعترفون بأن حادثة دنشواي لم تكن مطلقا نتيجة حركة عدائية ضد الأوربيين ، وأن المصريين هم أكثر أم الأرض اعتدالا وتسامحا !

« إن الخطة الوطنية التي يجرى عليها أصحاب النفوذ والتأثير في الرأي العام المصري واضحة جلية ، فنحن نريد بفضل التعليم ونور التقدم إنهاض شعبنا وتعريفه بحقوقه وواجباته ، وإرشاده إلى المقام اللائق به في العالم ، واننا أدركنا من أكثر من قرن أنه لا يمكن للأمم أن تعيش عيشة كرامة إذا لم تسلك طريق المدنية الغربية واننا أول شعب شرقي صافح أوروبا واننا مستمرّون على السير في الطريق الذي سلكناه واننا بالتعليم والتقدم والاعتدال والفسك الحر الرافي ننال احترام العالم وحرية مصر ، ومقصدنا الذي نرمى إليه هو استقلال وطننا ، ومحال أن يوجد شيء ينسينا ذلك المقصد الأسمى !

« إن عطفنا على الشعوب الإسلامية لأمر طبيعي ولا تعصب فيه ، وإنه لا يوجد مسلم مستنير واحد يظن لحظة واحدة أنه من الممكن اجتماع الشعوب الإسلامية في عصبة واحدة ضد أوروبا ، والذين يقولون ذلك إما جاهلون أوراغبون في إيجاد هاوية بين العالم الأوربي والمسلمين !

« إنه لاسبيل لنهضة الشعوب الإسلامية بغير حياة إسلامية جديدة تستمد قوتها من العلم والفكر الواسع الراقى !

« وإن لمصر مكانا خاصا بها في الشرق ، فهي التي وهبت العالم قناة السويس ، وفتحت السودان للمدنية ، وفيها طبقة راقية الفكر ، وتقدم الأمة بالأمة يمشى فيها سراعا ، ومن المستحيل أن تُحكّم مصر وهذا حالها كما تحكّم بلاد بعيدة محتبثة في أعماق أفريقيا وليس بينها وبين أوروبا اتصال ! ألم ير الناس الإنجليز يفعلون ويهيجون ضد مايجرى في جهات الكونغو وغيرها من البلاد ؟ فكيف يسمحون إذن بحدوث أفظع الجرائم في مصر ؟

« إنه من الواجب على أوروبا كلها أن تهتم بمصر فإن صوالحها فيها جسيمة ، والكثيرون من رعاياها جمعوا ثروات كبيرة فيها ، وإن القوانين الاستثنائية والاعتساف لا يؤديان إلا إلى هياج الشعب المصرى وخلق عواطف عنده مخالفة بالمرة لعواطفه الحالية

« إننا نطالب بالعدل والمساواة والحرية ، نطلب دستوراً ينقذنا من السلطة المطلقة ، ولاشك أنه لا يمكن للعالم المتمدن وللرجال المحبين للحرية والعدل في إنجلترا إلا أن يكونوا معنا ويطلبوا مثلنا ألا تكون مصر - تلك التي وهبت للعالم أجمل وأرقى مدنية - أرضا ترح الهمجية فيها ، بل بلادا تستطيع المدنية والعدالة أن يبلغا فيها من الخصوبة والنمو مبلغ خصوبة أرضها المباركة ،

« مصطفى كامل »

دوت المقالة في أوروبا دويا عظيما ، وتناقلتها الصحف في مختلف البلدان ، وكان لبلاغتها وعباراتها المؤثرة ، وصدورها من زعيم الحركة الوطنية ، والتعليق عليها في معظم الصحف الأوروبية والبريطانية ، صدى بعيد في الرأى العام الأوروبي والإنجليزى ، وتزلزل من بعدها مركز اللورد كرومر في مصر وإنجلترا

ونصحت جريدة (التريبون) الإنجليزىة بوجود منح مصر حكومة مستقلة ، وكتبت مجلة المجلات الإنجليزىة بقلم الكاتب الإنجليزى الشهير المستر ستيد مقالة ذكر الإنجليز

فها بوعودهم لمصر منذ بدء الاحتلال ، وأخذت الصحف العالمية الأخرى تنشر
الفصول المسهبة عن مصر والمسألة المصرية

وكان للمقالة والحملة الفقيده عامة صدى في البرلمان البريطاني ، فانبرى بعض النواب
الأحرار يلقون على اللورد كرومر تبعة الحادثة ، ويستنكرون المحاكمة والتنفيذ ،
وتغير الموقف حيال الحادثة ، فقد كان السير إدوارد جراى وزير خارجية إنجلترا
قد أسكت البرلمان بتصريح له يوم ٥ يوليه سنة ١٩٠٦ . إذ طلب بلهجة شديدة عدم
البحث في مسألة دنشواى بحجة أن التعصب الدينى ضارب أطنايه فى مصر وأنه لولاه
لما وقع الاعتداء على الضباط الانجائز ، ومرت فترة جمود بعد هذا التصريح ،
ولكن لم يكده صوت مصطفى كامل يدوى فى أوروبا استنكاراً لفظائع الاحتلال
فى الحادثة حتى أعلن بعض النواب الأحرار أنهم لا يقيدون أنفسهم بالسكوت فى
مسألة نهم الانسانية والعدالة وشرف إنجلترا ، وقد ساعدهم على الخروج من صمتهم
أن مصطفى كامل قد نفى بحجج بليغة نهمة التعصب الدينى عن المصريين

مصطفى كامل فى لندن

بعد أن نشر الفقيده مقالته عن حادثة دنشواى فى جريدة الفيچارو ، قصد لندن
ليستمر فى فضاله ، وليرفع صوت مصر فى عاصمة الدولة المحتلة ، فوصلها يوم ١٤
يوليه ، وكان يقصد مقابلة رجال السياسة وحملة الأفلام ، لتفهمهم الحقائق عن مصر
ودحض المفتريات التى كان يذيعها دعاة السوء عن الأمة المصرية من رميها بالتعصب
الدينى وأخذها بالشدة

كتب فى هذا الصدد تحت عنوان (ارفعوا أصواتكم) (١) قال : ، لقد لبثت
الأمة الإنجليزية عدة سنوات تعتقد فيما تنشره الصحف عنها ويقوله السياسيون لها
ان الأمة المصرية فرحة بالاحتلال ، حتى حدثت حادثة دنشواى واهتزت لها

(١) اللواء عدد ٢٦ يوليه سنة ١٩٠٦

المملكة البريطانية كلها وتساءل القوم في كل ناد ، إذا الأمة المصرية غير فرحة بالاحتلال ، ، نعم إن الأمة المصرية نافرة من الاحتلال ، ومن واجبات المصريين أن يعلنوا أسباب ذلك النفور ويقولوا بأعلى أصواتهم إن أكبرها وأهمها ضياع استقلالنا ، ذلك الاستقلال الذي أخذته إنجلترا وأقسمت أن ترده إلينا قويا مصاناً لا يستطيع أحد أن يمسّه بسوء ، ليقبل المصريون للأمة الإنجليزية إنه إذا كان ساستها قد نسوا أو تناسوا عهودهم ووعدهم فأننا معشر المصريين لم ننسها ، ليقولوا بحرية وصراحة واستقلال كل ما يعتقدون وما به يشعرون ، حتى تعلم الأمم كلها أنهم أحياء يناضلون عن حقوقهم ، ولا يقبلون المذلة والعار ،

وصل مصطفى إلى لندن ، وقابل الكثيرين من رجال السياسة وأعضاء البرلمان البريطاني والصحفيين ، وحادثهم في حادثة دنشواي وحوادث مصر وسياسة إنجلترا فيها ، ومطالب المصريين ، ونفى عنهم تهمة التعصب الديني التي كان يروجها ضدكم دعاة السوء ، واتهز فرصة هذه الحادثة ليرفع صوت مصر عالياً مطالباً باستقلالها ، فهو لم يحصر دعايته في الحادثة بذاتها ، بل وسع نطاق الجهاد ، واتخذها سبيلاً للمناداة بحقوق مصر واستقلالها ، وترجم مقالاته (إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدين) إلى الإنجليزية ، ووزعها على جميع الوزراء وأعضاء البرلمان ورجال الصحافة

حديثه في جريدة الديلي كرونكل

ونشرت جريدة (الديلي كرونكل) حديثاً له في عددها الصادر يوم ٢٠ يولي سنة ١٩٠٦ وقدمت له بمقدمة قالت فيها :

« وفد مصطفى باشا كامل رئيس الحزب الوطني في مصر إلى لندن أخيراً بقصد عرض مقاصد وسياسة مواطنيه المحبين لبلادهم على الأمة الإنجليزية ، وهو شاب مصري متعلم تعليماً أوروبياً عالياً بحيث يصعب تمييز الفرنسي المتعلم تعليماً عالياً والمترقب تربية سامية عنه ، سواء في المعرفة والعلم واللغة أو الأفكار بوجه عام ، وهو صاحب ومحرر جريدة عربية تصدر في القاهرة تسمى (اللواء) وهي أهم الصحف العربية وفي مقدمة الصحف التي تعد لسبب حال السواد الأعظم من المصريين الذين مبدؤهم « مصر للمصريين »

ثم نشرت الحديث ، وهو يدور حول دحض تهمة التعصب الديني التي أراد خصوم الحركة الوطنية أن يصفوها به ، وبرهن على تسامح المصريين الديني ، وعرج على حادثة دنشواي وفضاعة المحاكمة والتنفيذ فيها ، ثم سأله محرر الجريدة عن برنامج الحزب الوطني ، فأجاب : « بأن أول غرض يرعى إليه هو طبعاً العمل لاستقلال مصر ، وقد وعدت الحكومة الانجليزية المرة بعد المرة وعداً مقدساً سواء في البرلمان أو في المسكّنات الرسمية بأن تردّ مصر للمصريين ، وبقطع النظر عن هذه الوعود فإن المصريين عامة متحدون في طلب الاستقلال ، وهل تظنون أن أي انجليزي يستطيع أن يتحمل ضياع حريته وفقدانها كما نتحمل نحن ذلك الآن ؟ لاشك أنه لا يوجد انجليزي يحتمل ذلك » ، وختم حديثه بقوله :

« إننا نطلب استقلالاً أهلياً ودستوراً حراً ، ولقد نالت مصر في عهد الخديو توفيق باشا برلماناً ، وهذا البرلمان قد انحل لما دخل الانجليز بلادنا ، ولسكن اللورد دفرين وعد عام ١٨٨٣ بتشكيل برلمان جديد ، ولم يتم شيء من هذا الوعد إلى الآن ، بل إن اللورد كرومر تمكن من جمع سلطات الحكومة كلها في قبضة يده وأخذ يحكمنا كملك مطلق التصرف بمعناه الحقيقي ، ولا ريب في أن مطالبنا بعملها الانجليز الذين يحبون الحرية » .

احتمفال الشرقيين بالفقيد

في لندن

أعجب الشرقيون عامة بدفاع الفقيد عن قضية مصر واستقلالها وكرامتها ، وأكبروا فيه البطولة والإقدام ، إذ رأوه يجوب العواصم ويرفع صوت مصر جهراً عالياً في أوروبا وإنجلترا ، ورأوا في جهاده مفخرة لكل شرقي ، فلما جاء لندن أقامت جمعية الوحدة الإسلامية الهندية حفلة كبرى لتسكريمه يوم ٢٤ يولييه سنة ١٩٠٦ بفتدق (كريتريون) ، حضرها لفييف من عظام الشرقيين والانجليز ، نذكر منهم السيد عبدالله المأمون السهروردي رئيس الجمعية ، وعبدالحق حامد بك أشهر شعراء الترك ، والمستر بيلس من أعضاء مجلس العموم ، والسير (بهاونجري) من كبار

الهندوكيين ونائب الهنود في لندن ، والمستتر (سويني) رئيس الجمعية الوضعية ،
والمستر (بانديت كرشنا فرما) رئيس جمعية استقلال الهند ، والمستر (كارل بلند)
الكاتب الشهير ، وغيرهم ، وحضرها كثير من صفوة الشبيبة المصرية والشرقية ، وبلغ
عدد الحاضرين نحو ٢٥٠ مدعوا من علية القوم ، فكانت من أفخم الحفلات ،
واستقبل فيها الفقيه بأعظم مظاهر الحفاوة والاجلال

ولما اكتمل الجمع وقف صاحب الدعوة السيد السهروردي وألقى بالعربية خطبة
جيا فيها صاحب الترجمة ، قال :

« إن أفدتنا لم تبتهج فرحا لزيارة أمير أو وال من ولاية الإسلام بمقدار ابناجنا
بزيارة سعادتكم لهذه البلاد ، لأنكم أمير أمراء الوطنية ، وأسد غابة الحرية ، وبطل
المدافعين عن حقوق الانسانية ، ولقد أحسنتم وقدمتم إلى هنا بقصد إيقاف الأمة
الانجليزية على حقيقة الشؤون المصرية وأغراض وآمال ومطالب المسلمين ، وإني أوئل
بل واثق بإصغاء الانجليز لنداء المسلمين ، وأن لا يجعلوا للتعصب الديني والتحامل
سلطانا على شعورهم دون العدالة والاستقامة ، وإذا فرض ولم تصلوا إلى بغيتكم هذه
فإن ذلك لا يثبط من همتمكم ، ولا يفت في عضدكم ، فإن زيارتكم لانجلترا لا تخلو من
فائدة قط ، لأن صوتكم لا يصل من عاصمة هذه الدولة إلى اخوانكم في الدين في أقصى
أنحاء المعمورة فقط ، بل سيجد له صدى في قلوب محبي الأوطان في الممالك الأخرى
الذين هم شركاؤكم في الآلام والمصائب ، ودولة الوطنية أوسع من دولة الإسلام ،
فلتعد إلى بلادك المحبوبة ولتستمر في جهادك في سبيل الحرية ، واذكر في ساعة اليأس
والقنوط والضيق أنك لست منفردا وحدك ، بل إن أسمي آمال القاطنين على ضفاف
نهر الرين والطنونه (الدانوب) والجناح والفرات والبوسفور وقرن الذهب ، تشارك
ابن وادي النيل في مساعيه ، وإن أعينهم لمتجهة نحو أفق مصر ، منتظرة بزغ فجر
الحرية وصدور الإشارة من أرض الفراغة الأولين ، يا نفاذ أبناء اسماعيل (١) ،
ودخول المصريين في الحرية التي وعدوا بها

« ولقد تغلب لساني على جنائي ، فألقيت عليكم أيها السادة خطابي باللغة العربية ، مع العلم بأن السكوت في حضرة ديموستين^(١) مصر هو أفضل بلاغة وأحسن بيان ،

خطبة صاحب الترجمة

فوقف صاحب الترجمة وألقى باللغة العربية كلمة شكر قال فيها :

« أيها السيدات . أيها السادة

« اسمحوا لي أن أشكركم من صميم فؤادي شكراً لا يوفيه اللسان ولا يؤديه البيان على تفضلكم بالاجتماع هذا للتسليم على ومقابلة أعمال الصغيرة بعنايتكم ورعايتكم وانعصافكم ، وإني شعرت في كل وقت بعدم استحقاقي لشيء من ذلك كله ، لأن القيام ببعض الواجب - وما أنا قائم به كله - جزء من فرض مقدس لا يشكر الإنسان عليه ، ولكنكم أردتم أن تحيوا في شخصي المصريين المحبين لبلادهم العاملين لرفعها المشوقين لاستقلالها المغرمين بالدستور والحرية ، ولذلك أستقبل مظاهر تكم السامية بجزيل الشكران ، وأسألكم باسمهم أن تعتقدوا أننا لا ننسى أبد الدهر هذه العواطف التي أبدتتموها بحضوركم إلى هذا النادي ، وازدحامكم إلى هذا الحد الذي لم يكن يخطر لي على بال ، وإني أشكر بنوع خاص حضرة السيد عبد الله المأمون السهروردي الذي رأيت فيه من الحمية والغيرة ما ملأ قلبي سروراً ، وزاد في قوة آمالي ، وأرجوه أن يعذرني في عدم توفيته حق الشكر على ما قاله ، لأن العجز عن الشكر أبلغ شكر

« اني عندما حضرت إلى لندن لم أكن أحلم بحضور اجتماع كهذا ، أرى فيه أمم الإسلام والعرب ممثلة في آن واحد ، وأخاطب فيه الانسانية ، في أبنائها الراقين النابغين ، فتروتني أعد هذه الليلة وحيدة في العمر ، جديرة بالذكر أبد الدهر ،

ثم تسكلم طويلاً عن الأمم الإسلامية والشرقية ، ونوه بواجب المتعلمين في

(١) أحد كبار خطباء اليونان

إنهاضها والأخذ بيدها في سبيل التقدم والحرية ، وعرج على نهضة مصر وأمله في فوزها ، ثم قال : « وإني واثق بفوزها القريب العاجل ، وظهورها بين أمم الأرض بأرقى مظهر ، كما اني على يقين من أن محبي الإنسانية والمدنية الصادقين في جهبا يميلون بكل جوارحهم إلى هذا الفوز ويساعدون على الوصول إليه غير ناظرين إلى الاعتبارات الصغيرة الدنيئة التي يقيمها ذوو الغايات في طريق الأمم الناهضة ، وكرر في ختام خطبته شكره على الحفارة البالغة التي قوبل بها ، ولم يكذبتم خطبته حتى دوت القاعة بتصفيق الإعجاب من كل جانب ، ووقف السيد عبد الله السهروردي فترجم خطابه إلى الإنجليزية

ثم وقف الدكتور بولن من كبار المستشرقين وألقى خطبة أعرب فيها عن مزيد إعجاب به بخطبة صاحب الترجمة ، وقال : « إنه وإن كان الكثيرون من الحاضرين لم يستطيعوا تتبع معاني كلمات الخطيب كلمة كلمة إلا أنهم جميعاً شعروا بأنهم إنما كانوا منصفين لخطيب نادر المثال والقوة والكفاءة ، وأنهم تأثروا من حسن اقتدراه الواضح وشدة إخلاصه ورنات لهجة اللسان الجليل الذي كان يخطب به ، لسان النبي إسماعيل ، وأفاض في ذكر محامد الإسلام وفضائل النبي محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم وقف المستر (بندت كرشنا فارما) أحد علماء الهند وزعيم جمعية استقلال الهند ومحرر صحيفة (انديان سوسولوجست) وأثنى على صاحب الترجمة ثناء كبيراً ، وأعقبه الماجور السيد حسين بلجرامى وألقى كلمة شكره فيها على جهاده

وبعد أن انتهى الخطباء من خطبهم وقف المترجم وألقى باللغة الفرنسية كلمة شكر ثانية قال فيها :

« أيتها السيدات . أيها السادة

« إنى أكرر لكم جزيل شكرى على هذه الرعاية البالغة والإكرام العظيم ، وإنى رغما عن كل ما قاله الخطباء العظام لا أعتبر هذه الحفاوة موجهة إلى شخصى ، بل أعتبرها موجهة إلى أبناء جنسى وإلى الشعور الوطنى الذى يدفعنا على الدوام لخدمة مصر بما فى الوسع والإمكان

« وإن الوطنية لشعور تنحني أمامه الأمم كلها والأجناس على اختلافها ، لأنه الشعور بقيمة الإنسان وكرامته ، الشعور بنعمة الله وعنايته ، الشعور بمعنى الوجود نفسه ، وسواء كان الرجل يابانياً أو صينياً أو هندياً أو جاوياً أو مصرياً أو انجليزياً أو فرنسياً أو ألمانياً ، أو من أى جنس كان ، فإنه يقابل بالإعظام متى كان ممثلاً للشعور الوطنى ، لأنه حامل لأطهر وأشرف شعور رفع الإنسان إلى أعلى مكان ، وإنى لست إلا محاملاً للواء الوطنية ، وقد تفضلتم هذه الليلة بتكريم هذا اللراء وتشريفه فأشكركم باسمه شكراً وافراً ، وأسأل الله أن يوفقنا إلى تحقيق آمالنا العزيزة وإسعاد أوطاننا المحبوبة ، وكانت هذه الحفلة من أعظم ما لقيه الفقيد تكريماً لجهاده فى سبيل مصر

وليمة (كارلتون) وخطبة المترجم

وأقام المترجم وليمة فاخرة بلندن فى فندق كارلتون يوم الخميس ٢٦ يوليه سنة ١٩٠٦ ، دعا إليها بعض الشخصيات ذات النفوذ فى المحيط السياسى البريطانى ، من أعضاء مجلس اللوردات ومجلس العموم والصحفيين ، وبعد أن تناولوا الطعام وقف خطيباً ، وألقى بالفرنسية خطبة جامعة ، بدأها بقوله :

« أيها السادة : اسمحوا لى أن أشكركم على الشرف الذى أوليتمون إياه بقبولكم دعوتى ، وإنى لسعيد حقاً بانتهاز هذه الفرصة لأحدثكم فى شؤون مصر وإعلان الحقيقة عن عواطف المصريين وأفكارهم ، وإن ذوى الأغراض ينشرون على الدوام فى أوروبا عامه وفى انجلترا خاصة الأغلاط والأكاذيب بشأن أحوال مصر ، وإحساسات المصريين ؛ ولسكننا واثقون من أن الحقيقة القادرة القاهرة تغلب فى النهاية دائماً وتفوز وتهدم هذه الأبنية . أبنية الاختلافات والتهم الكاذبة ،

الاستقلال والمال

وبعد أن نفي عن المصريين تهمة التعصب الدينى تكلم عن الاستقلال فقال :
« إن الحركة الموجودة فى مصر حقيقة هى حركة وطنية أهلية لا نزاع فيها ،

فان الشعب المصرى متمسك باستقلال بلاده أشد التمسك ، وإذا كان بعض الساسة الإنجليز يتظاهرون الآن بنسيان الوعود والعهود التى قطعها رجالكم السياسيون علناً ونادوا فيها برد مصر إلى المصريين ، فاننا لم نذهبنا نحن أبداً ، بل لا يزال كل مصرى يكررها وسيكررها على الدوام ، عالماً بأنه لا تسقط العهود المعطاة وكتابة الشرف « بمضى المدة ، قائلاً مع اللورد دفرين : « إن الاستقلال لا ثمن له ،

« ولو فرضنا ولم تكن هذه الوعود والعهود قدمت فعلاً من رجال منياستكم ، فأى مطلب وأى غرض يرمى المصرى إليه ؟ أليس استقلال بلاده ، لقد ألفت الحالة المالية فى مصر على عيون الكثيرين من الناس هنا غشاوة ، فقرام مدهشين من أن المصريين غير سعداء فى عهد الاحتلال ، وإن السامع لأقوالهم ليحسب مصر « سوقاً لاوطناً ، فأرجوهم أن ينظروا إلى الأشياء بامعان ، ويدرسوا الحالة الأدبية لمصر ويدركوا على الخصوص أنه لا توجد ثروة فى العالم ولا رخاء يفتى الإنسان كرامته ومهمته فى الدنيا وحرية بلاده ،

السودان

ثم تكلم عن السودان فقال :

« وإنه لى يدرك الإنسان أسباب تألم المصريين من الاحتلال الإنجليزي يجب عليه أن يتذكر أولاً أن السياسة البريطانية نزعت منا ظلاً السودان ، وهو روح ووطننا ، وكم ضحينا فيه من الأموال والرجال ، فليس لمصر الآن فيه إلا مهمة واحدة ، وهى إعطاؤه جيشاً لتسكينه وتنظيمه ، والمال اللازم لإدارته ، وان فؤاد كل مصرى ليمتلئ حزنًا وأسى عندما يفكر فى هذا الجزء من وادى النيل المحكوم على حدة ، المسلوب من مصر ، السائدة فيه انجائرا ،

ثم تكلم عن نحو الحكومة الأهلية فى مصر ، ورد على اللورد كرومر ، وطعن فى سياسة الاحتلال عامة فى مصر ، وتكلم عن حادثة دنشواى وفضاعة المحاكمة والتنفيذ فيها ، واحتج على وجود المحكمة المخصوصة ، وطلب إعادة النظر فى القضية

الامتيازات الأجنبية

وتكلم عن الامتيازات الأجنبية فقال :

« إن من المسائل المرتبطة بالعدالة مسألة محاكمة المجرمين الأجانب في مصر ، فإن المصريين يفعلون ويسخطون كلها أفلت مجرم أجنبي من يد القانون المصرى بفضل الامتيازات الأجنبية ، وقد اقترح اللورد كرومر بحوها وإنشاء مجلس دولى يعطى سلطة التشريع بحيث تمنح أوروبا الدولة البريطانية وكالة عنها في مصر ، وهذا الاقتراح لا يقبل من أوروبا ، ولكن هناك حلا عملياً للمسألة ، وهو إعطاء المحاكم المختلطة حق النظر في الجنايات والجنح التي يرتكبها الأجانب ، وإن هذه المحاكم حائزة لثقة العموم ، واتي اعتقد أن أوروبا لا تتردد في إجابة هذا الطلب العادل إذا عرض عليها ،

الدستور وحقوق المصريين

« لم ينس أحد من الناس أن مصر طلبت الدستور في خلال ثورة سنة ١٨٨٢ ، وقالته ، ولكن إنجلترا أبطلته ووعدت بلسان اللورد دفرين بأعادته لمصر متى حانت الفرصة ، وقد مضى أربعة وعشرون عاماً ونحن في انتظار هذا الدستور ، ويلاحظ بأشد الألم والحزن أن السلطة المطلقة لمعتمد بريطانيا في مصر تمتد كل يوم وتتمو ، وأنه لا يوجد شيء يضمن للمصريين السكينة والسلام والعدالة والسير الحسن لكافة الأعمال سوى دستور قوى متين يعطى الشعب حق مراقبة الحكومة في أعمالها وتصرفاتها ، وإن مصر لاوفر تقدماً ومدنية من بعض إمارات البلقان التي منحها الدول الأوروبية وإنجلترا على رأسها الحرية ، وإن كل ثروات العالم لا تنسينا أبداً كرامتنا وحقوقنا ، ولقد كان من مصلحة إنجلترا تقديم مصر مالياً لتنال ثقة حملة أسهم الدين المصرى ولتستطيع فتح السودان وتعميره بأموال مصر ، ولكنها لم تنفذ التعهدات التي أخذتها على نفسها بشأن التقدم المعنوى للمصريين

« فعارضه الوطنيين المصريين للاحتلال الطبيعية ولاغرابه فيها ، وإذا كان القوم المتمدنون يجدون من الأمور العادية الطبيعية وجود حزب معارضة في إنجلترا وفي بقية البلاد المتمدنة ، فأى عجب في وجوده في مصر ؟ وإذا كان أنصار التوسع في سلطة إنجلترا ومد نفوذها في الآفاق يريدون جعل سيادتها عامة في كل مكان ، فكيف يجد البعض من الأمور الخارقة للعادة مطالبنا باستقلال وطننا ؟

« إن إنجلترا لم تفتح مصر ولم تغزها ، بل دخلتها كدولة محبة لتوطيد عرش الخديوية ومساعدة الشعب المصرى على أن يعيش عيشة الأمم المتمدنة ، فهى عقدت بارادتها ومحض رغبتها ديناً على نفسها نحو مصر ونحو الإنسانية ، فمصر لا تسأل إحساناً بمطالبتها بحريتها ، بل تطلب حقاً معترفاً به ولا نزاع فيه ، تطلب حقها في الحياة والوجود ، وإنى على يقين من أنكم لو كنتم محلنا لشعرتم بنفس شعورنا ، ولسلكتم مسلكنا ، لأنه لا يوجد إلا مطلب واحد خليق بأن يشغل حياة الإنسان ، ألا وهو استقلال الوطن وعظمته ،

وما انتهى الخطيب من خطبته حتى دوى التصفيق في القاعة كلها ، وقام المستر جون روبرتسن النائب الحر بمجلس العموم الإنجليزى ، ورد على خطبته بكلمة هى مزيج بين تأييد الخطيب والدفاع عن وجهة النظر الإنجليزية ، قال :

« يا حضرة الباشا

« إني أتكلم باسم زملائي وأبناء وطني لأؤكدهم أننا سمعنا خطبتكم باهتمام مزوج بالعطف ، واننا نبحت قبل كل شئ عن معرفة حقيقة الأحوال في بلادكم ولذلك نريد أن نسمع صوت الجهتين (أى المصريين والإنجليز) ، وإننا نؤمل أن أبناء وطنكم يخاطبونا دائماً بصراحة ويعرفوننا أفكارهم وشكاويهم ، لأن مقصدنا وغرضنا هو خير مصر ليس إلا بمراقبة الإدارة العمومية مادام لنا نفوذ فيها ، وما دمنا محتلين البلاد ، ومن رأينا أن المراقبة الإنجليزية أفادت المالية المصرية كثيراً ، وانا نريد أن نفعل مثل ذلك في الحياة الاجتماعية والتربية والإدارة والعدالة ، إذ يجب أن لا تبقى إنجلترا هناك لمصلحتها نفسها

« أما مسألة دنشواي فانكم يا حضرة الباشا تعرفون جيداً مقدار القلق الذي
قوبلت به أخبارها ، واننا لا يمكننا أن نتكلم في هذا الصدد مادنا لم نر التقارير
الرسمية ، ولكن يمكنني أن أؤكد لكم وجود الانعطاف الفعلي الخالص من قبل
العديد الأكبر والأعظم من الشعب البريطاني ، وإننا نقدر آمالكم ومطالبكم حق
قدرها ، ونؤمل على الدوام أن نرى يوماً بفضل التبصر والتدبر تحقيق بغية الإنجليز
والمصريين وأتمنى لها الاستقلال المضمون لمصر ،

وقد كان لهذه الولاية وخطبه الفقيه فيها دوى هائل في مصر ، ونالت إعجاب
الرأي العام ، إذ أكبرت الأمة من زعيمها المجاهرة بحقوق مصر في العاصمة البريطانية
وبين جمع من كبار الإنجليز ، ونفدت نسخ اللواء الذي نشرت فيه الخطبة ، وانهاالت
الطلبات على إدارته بطبعها في كراسه على حدة ، وتوزيعها على الجمهور ، كما تلقى
اللواء تاخرافات ورسائل عديدة بتأييد موقف الفقيه والإعجاب بجهاده ، وزادهم
إعجاباً به أنه قام يناضل بمفرده عن حقوق بلاده ، ويرفع صوت مصر في عواصم
أوروبا ، ويقوم بعمل كان يجب على رجالات الأمة أن يشاركوه فيه ويحتملوا
معه عبثه

مغادرته لندن ، وسفره الى فيشي

أجهد الفقيه صحته في نضاله صيف سنة ١٩٠٦ ، فغادر لندن وقصد إلى فيشي
للاستشفاء ، وهناك استقبله المصريون المصطافون بها بالحفاوة البالغة والحماسة ،
وهناؤه على فوزه في جهاده ، وكان في حاجه إلى الراحة بعد العناء ، على أنه لم يترك
الكتابة والدفاع عن قضيه مصر ، فإ أن رأى في جريدة (الدبلي جرافيك)
الانجليزية مقالة عن المسألة المصرية زعمت فيها أن المصريين يعملون على تغيير النير
الانجليزي بالنير التركي ، حتى انبرى للرد عليها بمقالة عنوانها (مصر للمصريين) ،
نشرت في عدد ١٥ أغسطس سنة ١٩٠٦ ، فند فيها هذه المزاعم ، وصرح بأننا
نريد أن تكون مصر للمصريين ، ونرفض قطعياً كل نير أجنبي وكل سيادة أجنبية
وأن الذين يظنون أن الشعب المصري يمتد انجاترا لأنها دولة مسيحية ليسوا إلا

مخطئين خطأ جسيماً ، فإن الشعب المصرى يمقت المحتل الذى قوض دعائم استقلال
وطنه ، وإذا كانت مصر محتلة بأى دولة أخرى لكان شعور المصريين هو ذاته .
لأن ضياع الاستقلال لا يمكن احتماله بأى حال من الأحوال ،
وقد كتب هذه المقالة وهو فى حاجة إلى العلاج والاستشفاء فى فيشى ، ولكنه
لم يكن يعرف لنفسه راحة وهوادة إلى جانب أداء الواجب نحو الوطن

عودته الى مصر

أكبرت الأمة جهاد المترجم أثناء مقامه فى أوروبا صيف سنة ١٩٠٦ ، فسرت
فى النفوس فكرة الاحتفال به عند عودته تكريماً له ، إذ رفع صوت مصر عالياً
ورفع رأس الأمة فى أوروبا والعالم ، وتألقت لجنة فى أغسطس سنة ١٩٠٦ بدعوة
من المغفور له محمد بك فريد بجمع ا ككتاب عام لهذا الغرض ودعوته إلى وليمة كبرى
عند رجوعه وإهدائه هدية فاخرة إعراباً له عن تكريمه ، وبدأت اللجنة بجمع
الاكتتابات ، فلما علم الفقيد بنبا هذا المشروع أرسل من باريس خطاباً بتاريخ
٢٤ سبتمبر إلى فريد بك يعتذر فيه من عدم قبول هذا التكريم ، ويطلب أن تقوم
اللجنة بدعوة الأمة إلى إنشاء كلية (جامعة) أهلية ، وأن تتحد الجهود لتنفيذ هذا
المشروع ، وهذا الخطاب آية فى الوطنية والشعور الشريف (وقد نشرناه بالزنجير أو
ض ٢٢٧) ، قال فيه :

عزى فريد بك

تحية وسلاماً واحتراماً وإعظماً ، وبعد فقد طالعت اليوم فى اللواء بعد عودتى
من هندى ، أنه تأسست لجنة فى مصر بقصد عمل ا ككتاب عام لدعوتى إلى وليمة
وإهدائى هدية إعلاناً لارتياح المصريين من قيامى بخدمة بلادى العزيزة وأنتك تفضلت
فقبلت أن تكون أميناً لصندوق هذه اللجنة

فاسمح لى أن أرجو منك أن تتنازل بتبليغ أعضاء هذه اللجنة ومن تكرموا
بتبليغ دعوتها أنى أشكرهم من صميم فؤادى على جميل انعطافهم نحو أضعف خدمة

الوطن ، وجزيل رعايتهم نحو رجل لا يرى فيما عمل إلا جزءا من واجب عظيم
جسيم يطالب كل مصري بتأديته

« وإن ما شعرت لحظة واحدة في حياتي بأنى مستحق لشيء من الالتفات
أو الشكر على دفاعي عن حقوق مصر ومطالبتي باستقلالها ومناداتي بوطنية أبنائها ،
لأنى إنما أقوم بفرض مقدس ، وما خطوت إلى اليوم الخطوة الأولى في سبيل
إسعاد مصرنا العزيزة التى امتلأت رحابها بمعظم الآباء والأجداد

« وأى فضل لمثل وأصغر جندى فى الجيوش بلقى علينا جميعا أ كبر درس وأسمى عظة
لأنه الحامل لراية الوطن المدافع عن شرفه ومجده واستقلاله المفدى لحياته صيانة
لحياة الملايين من الشيوخ والنساء والأطفال

« فإذا كان هذا شأن كل فرد من أفراد الجيوش ووظيفة كل جندى من جنودها
فكم تسكون واجباتنا نحو الوطن عديدة وعظيمة نحن الذين استفدنا من نعم الوطن
أكثر من غيرنا وامتزنا بالعلم والعرفان وقدرنا حقوق الديار ورأينا نور الحقيقة
ساطعا أمامنا وشاهدنا عظمة الشعوب الراقية وقارنا بين حالهم وحالنا وتقدمهم وتأخرنا
« شكر الكم وألف مرة شكرا ، ولكنى لا أستطيع أن أقبل ثناء لا أستحقه وإكراما
لم أفعل شيئا لنيله ، ولا يمكننى أن أرضى بأن يكون الشعور الوطنى مما يكافأ الرجل
عليه ، وهو لا يكون رجلا إلا به

« نعم إنى أعلم أنكم تحبون فى شخصى الضعيف الفكرة الوطنية الشريفة ،
وتريدون أن تعملوا شأنها ، وترفعوا لواءها ، كما أن أعدائى والطاعنين على إنما يحاربون
فى الحقيقة هذه الفكرة وذلك الشعور ، لأنى لست شيئا ، على حين أن الوطنية هى
فى حياة الأمة كل شيء

« ولكن ما تبتغون كائن لا ريب فيه ، فقد ارتفع لواء الوطنية المصرية رغما عن
كل معاند ومعارض ، وعلم العالم كله أن المصريين أحياء يشعرون ويرغبون المجد
من السبيل الصالحة المؤدية إليه ، واقتنعت الأمم أننا نطلب الحياة والدستور
والحرية بالعقل والروية ونسعى إلى إسعاد وطننا بالعلم والجهاد القانونى ، وهى نتيجة

ما كان ليصدق أعداء مصر والمصريين أنها تكون بعد أن ظن الجاهلون بأسرار حياة الأمم وارتقاها أن مسألة استقلال مصر قد قبرت واستراح ساسة الانجليز منها ، فخير هدية اقترح عليكم تقديمها للوطن العزيز والامة المصرية المحبوبة هي أن تقوم اللجنة التي شكلت بدعوة الامة كلها وطرق باب كل مصرى لتأسيس كلية أهلية تجمع أبناء الفقراء والأغنياء على السواء ، وتمب الامة الرجال الأشداء الذين يكثرون في عداد خدامها المخلصين ممن لا يخافون في الحق لوما ولا عتابا ، ويعملون لمداواة أدوائها وجمع أمرها وبث روح الوطنية العالية في كافة أبنائها ، لأن كل ملهم يزيد على حاجة المصرى ولا ينفق في سبيل التعليم هو ضائع سدى ، والامة محرومة منه بغير حق

هذه هي الهدية الوحيدة التي يليق بالوطنيين الصادقين اهداؤها لمصر والمصريين ، هذه هي الهدية الفريدة التي تملأ الفؤاد فرحا وانشراحا وفيها أرقى مظاهر الحياة والشعور

«فلتنس الأحزاب انقساماتها ، ولينس الصحافيون خصوماتهم ، ولتلق الأحقاد (ولو يوماً واحداً) في هوة لا يسمع منها لغو ولا دوى ، ولتجتمع الامة لإتمام هذا العمل الفخم ، وتحقيق ذلك المشروع الذي كله خير ونفع عميم

« وليذكر الذاكرون أن بين أبناء الفقراء الذين سدد الاحتلال في وجوههم أبواب العلم والنور رؤوسا لو تحلت بالعرفان لكانت نغار مصر إلى أبد الزمان ، ليذكر ذوو الإحساس والوجدان أن في مصر كنوزاً لم تستخرج للآن وأنها لو أخرجت للناس لمئات الأرض نورا ، وأن هذه الكنوز مدفونة بين مساكن الفقراء ، إن السكينة — الجامعة — هي البناء الذي أدعو المصريين جميعاً إلى تشييده ، وما أكبر سعدي وأعظم هنائي لو ساعدتني الأيام على وضع حجر فيه مع العملة الأبرار الذين يعملون لخير البلاد ليس إلا ، ولا يسألون أحداً (جزاء ولا شكورا) ، هذا وأرجوك أيها الصديق أن تفضل بقبول أصدق سلام واوفى احترام من حبك وأخيك ،

« مصطفى كامل »

باريس في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦

(خطاب الفقيد إلى فريد بك ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦)

باريس في ٢٤ سبتمبر ١٩٠٦

اغنى الاله عن وندكيب

الله قبلة والندى سماع . وبعد فقد سئمت خطابك
 وقراءة اليوم مما لا تكسر وسرته جلاله . والله وارك
 الصادق واخا اركن الرضا . وندكيب الاله لما يكفيني
 في حياة نعمة ونعميا وسعاه . وسعدرا . فانك شكر
 واليك كتابي الذي اهتمت شمس حياة وهذا امر الى
 كانه الراه اى شرتة موعظك المحسن بالوليمة والهدية
 والله شكري نحو موداي يزداد كل يوم ولا يخيب مع الى
 فقول اذ تسبح مع والحمد لله مع انك
 قبيل النبوة من اغنيك الحمد والله حال

عزيزي فريد بك

تحية وسلاما . واهذا ما واعظا ما . وبعد فقد طالعت
 اليوم في ملوار بعد عودتي من " هداي " انما سست لجنة في
 مصر بقصد عمل الكتاب عام لمدونتي الالهية والهداية هدية

اعلمونا لارتياع المصيرية مه قيامي بخدمت بااوي العزيزة . وكنه
تفضلت فقلت انه نكده اميه صندوقه صنف اللمنة
فاسمحي ان ايجوكن ان تتنازل بتبليغ اعصاره صنف
اللمنة . ومن نكرتوا بتبليغ خدمتي اني اشكرهم مه صميم فوادى
مى جميل انظافهم نكده اضعف خدمت الوطن العزيز وجزيل
رعائهم نكده جل لاري فيما عمل الاجزاء من واجب عظيم
جسيم يطالب كل مصرى بتأدية
واني ما شعرت لحظة واحدة في حياتي بانى مسكن لشي
من الالتفات اذى شكر على دشامى عهد عقوده مصر ووطنى
باستقلال وشاراى بوطنية انبساط . لاني انما اقدم بفرض
مقدس . وما خطوت الى اليدى المخطوع الاولى فسيل اسعد
مصرنا العزيزة التى امتلأت بها على بعظام الآبار والهدا
واى فضل لى اى واصفر هبى فى اجيوش بلقى علينا جميعا
اكبر ريس وأسس فطنة . لانه الى لراية الوطن المدافع عن
شرفه وكتب واستقده لى الفدى لحياته صيانة لحياته الملوكة
من الشيوخ والناس وروطنى
فاذا كانه هذا شأن كل فرد من افراد اجيوش ووطنية
كل هبى من هبىها . فكم نكده واجبنا نكده الوطن عهد بيت

وفضيلة؟ نحن الذين استعدناهم نعم الوطن أكثر من غيرنا
 وامتزنا بالعلم والعرفان وقد بنا هتود الديار رأينا نور
 الكفيلة ساطعاً أمامنا وشهدنا عظمتهم بسقوط الرافدة
 وقارنا بيه عالمهم وحالنا ~~و~~ وقد لازم وتأخرنا
 شكراً لكم وألف من شكري! ولكن لا يستطيع أن
 أقبّل ثناراً لا استتمه وأكراما لم افضل شيئاً لنيله. دلوا
 بميلتي أن أفضي بانه كيد السعد الوطني ما يكافأ الرجل
 عليه وهو لا يكدره رعب الأوبه
 نعم اني أعلم انكم تحبون في شخصي الضعيف الفتن
 الوطنية السرية وتريدون ان تفلحوا في دفعها لواجبها
 كما ان أعدائي والاطاعين علي انما يجارون في الكفيلة لهم
 الفكرة وذلك لسعد. لاني لست شيئاً على حبه ان
 والوطنية هي في حياة الأمة كل شيء
 ولكن ما يتفقون ^{لأن} لا يرب فيه. فقد ارتفع لوار الوطنية
 المصرية رغمنا عن كل معان ومعارض وعلم العالم كله ان مصر
 أهيا يسعدون ويرغبون الجبهة السبل الصالحة المؤدية اليه
 ما استفتت الأمم انشاء ~~ال~~ نظمت الحياة والدستور وحرية
 بالعتل والرؤية منسوي اسعاد وطننا بالعلم والجماد
 القانوني. وهي شجرة ما كانه ليصدده الهداء مصر والبرية

انظر تكملة بعد ان ظن ان جلوه باسراء حياة المؤمن
 وانما راعى انه مستعد استقلاله مفرقة فبرت واستراخ
 سنة بالانفيل منظر

خير هدية اقدم عليكم تقدم على العرفان العزيز والامة
 العربية المحببة هي ان تقوم اللجنة التي شكلت بدعوة
 الامة كلاً وطرفي باب كل طرف لتأسيس كلية أهلية
 يجمع أبناء الفقراء والمؤقتين رفق استوار وزوجهم
 الرعي الاشرار الذين ~~يحبون~~ يكثرون في عماد هذا
 المحلقة من لا يخافونه في كنف لومنا ولا عتابا ولا عيبا
 ادوا على وجمع امرها وبث روح الوطنية العالية في كان
 انبا على . لان كل ملليم يزيه عن حافة البحر ولا ينطق
 في سبيل التعليم هو ضامن سدي ~~والله اعلم~~ الامة بغيره
 حيث هي الهدية الوحيدة التي يلبق بالوطنية الصادقة
 اصداؤها للرد العربية . هذا هي الهدية العزيز التي تملأ
 الفؤاد زخا وانسابها ~~والله اعلم~~ وظاهر الحياة وسعد
 فلتسب الاغراب انما ما على وليس كصا ففوه صبرانم
 وتلف الاغراب - ولويدنا واحدا - في صحت لا يسمع منظر لغو
 ولا اوى . ولتجمع الامة لا تمام هذا العمل الفهم . وتحتق
 ذلك السردع الذي كله خير ونفع عميم

ولنذكر المذكره انه بيه انباء الفقراء الذين سدهم
 في وجههم أبواب العلم وكسور دروسا لو تحلت بالعرفانه
 لكانت فخرا مصر الى ابد الزمانه . لنذكر وزر الشاس
 الرجيدان انه في مصر كمنزلاً لم تستخرج مائة . ولرا فرجت
 مناسر لموت الأرض نورا . وانه عند الكنفذ مدفونه
 بيه ما كن القرامه !

وه الكليه من النباء الذي ادمه المبريه فميسا لتشييه
 وما أكبر سعدى وأعظم صنائى لسا عدينى الأيام علم وضع
 حجر فيه مع العده الأبرار الذين لميلوه لخير البلاء ليس
 الا دلايل لونه احدا جزاء أو شكورا

صدا ايهوكن ايرى كصديه ان تتفضل ببندل اهدى سلام
 وادنى اهدامه مدحيك واهيك
 بايس ٤٤٤ ، سبتمبر ١٩٠٦
 عظم كمال

وقد قوبل الخطاب بالارتياح والإعجاب وتحول المشروع إلى المساهمة في جمع
 الاكتابات لتأسيس الجامعة المصرية

ووصل الفقيه إلى الاسكندرية صباح يوم الاثنين ١٥ أكتوبر سنة ١٩٠٦ .
 وقدم توا إلى العاصمة بقطار الساعة التاسعة صباحا ، فاهتزت مصر لمقدمه ، وأخذت
 الوفود والجماعات والأفراد تؤم دار اللواء لتحية الزعيم والإعراب له عن شكر
 الأمة وإعجابها بجهاده

نتائج حادثة دانشواى

أسلفنا القول بأن حادثة دانشواى من الحوادث التاريخية التى لا تنسى على مر السنين ، لما كان لها من الأثر البليغ فى تطور الحركة الوطنية ، ونريد هنا أن ننقل من الإجمال إلى التفصيل ، فنذكر ما هو ذلك الأثر البليغ ، أو بعبارة أخرى ما هى نتائج حادثة دانشواى ، وإذا تكلمنا عن نتائج حادثة دانشواى فكاننا نتكلم عن نتائج (جهاد مصطفى كامل فى حادثة دانشواى) ، لأن من الحق أن يقال إنه لولا هذا الجهاد لما كان للحادثة من نتيجة سوى تغلغل روح الخضوع والرهبة فى نفوس المصريين ، وقد كان هذا ما يقصده الاحتلال إذ أراد أن يضرب الحركة الوطنية بانتقام فظيع يلقى الرعب فى النفوس ويجعل الأمة تستشعر بسوء المصير لسكل من تحدته نفسه بمقاومة الاحتلال ، ولكن جهاد مصطفى فوّت على الإنجليز قصدهم ، فكان للحادثة من النتائج غير ما ظنوا وتوقعوا

(١) اشتداد ساعد الحركة الوطنية

فأولى هذه النتائج أن الحركة الوطنية اشتد ساعدها بانضمام جمهرة المصريين إليها ، إذ شعروا بأن مصطفى كامل كان على حق فى جهاده للاستقلال ، وأن المصرى لا كرامة له حقا يازاء الاحتلال الأجنبى ، ولأمراء فى أن سريان هذا الشعور هو فوز كبير للحركة الوطنية

لقد كان الاحتلال قبل هذه الحادثة مطمئناً إلى ثقة السواد الأعظم من المزارعين والأعيان فى عدله وإنصافه ، حتى أن اللورد كرومر كان يعترف بأنه مؤيد من أصحاب « الجلابيب الزرقاء » - يقصد الفلاحين - ولكن حادثة دانشواى كشفت عن حقيقة نيات الاحتلال وهى أنه لا يرضيه من المصرى سوى الخضوع والاستسلام ولا يرضى منه أن يشعر يوماً بالعزة والكرامة ، وإذا تحرك فيه هذا الشعور كان جزاؤه الظلم والتنكيل ، فالحادثة إذن قد حبت الاستقلال إلى نفوس المصريين ، وجعلتهم يعتقدون أن لا كرامة للأمة ولا لآى فرد منها إلا فى ظل الاستقلال ، وهذا فوز وتأيد للفكرة الوطنية وإخفاق لأنصار الاحتلال وصنائه

(٢) اهتمام الصحف العالمية بالمسألة المصرية

ورثة نتيجة ثانية ، وهي اهتمام الصحف الأوروبية والإنجليزية بالمسألة المصرية ، فقد بدأت تكتب المقالات والرسائل والبحوث المستفيضة عن شؤون مصر ومطالبها كان الرأى العام فى أوروبا قبل أن يرفع مصطفى صوت مصر يعتقد أن مصر من البلاد المتأخرة التى لا تفقه معنى الوطنية والاستقلال ، وأنها لا تختلف عن بقية المستعمرات التى أعدت لأن تحكمها الدول الأوروبية ، وكان الظن أن الاحتلال قد استقر فى مصر ، وأن نظام الحكم الذى وضعه اللورد كرومر قد نجح أيما نجاح ، ولكن حادثة دنشواى قد نهت الأفكار إلى فساد هذا النظام وإلى أن مصر ساخطة عليه ، وأنها تطالب بحريتها واستقلالها ، فعظم بذلك شأن مصر فى نظر العالم ، وازداد المصرى احتراماً فى نظر الأوروبيين ، لأن أوروبا لا تحترم إلا الشعوب التى تحرص على حريتها واستقلالها

(٣) تغيير سياسة الاحتلال

وأدركت الحكومة البريطانية أن سياستها فى مصر تحتاج إلى تعديل وتعديل ، واعترفت بإنفاذ هذا التعديل ، ولكنها أخذت الأمور بسنة التدرج ، كما هى عادتها كلما أرادت تغيير سياستها ، وقوام هذا التغيير أن بقاء اللورد كرومر فى منصبه أصبح أمراً غير مرغوب فيه ، وأن الاعتماد على خضوع وزارة مصطفى فهمى باشا للسيطرة الإنجليزية لا يفيد الاحتلال فى كل الأحوال ، وأنه لا بد من إسناد بعض المناصب الرئيسية إلى المصريين وإطلاق يدهم فى شؤونها ، فلعل ثورة الخواطر تبدأ ، ويخف الضغط البريطانى على الأداة الحكومية ، فيؤدى ذلك إلى تخفيف السخط على الاحتلال

(٤) تأسيس الجامعة المصرية

نعتمد اعتقاداً جازماً أن تأسيس الجامعة المصرية كان إحدى نتائج حادثة دنشواى ، فقد تنهت الأفكار عقب الحادثة إلى وجوب المساهمة فى كل ما ينهض

بالامة ويرقى بها إلى مصاف الأمم الراقية ، لكي تتحرر من العبودية التي وصلت إليها ، فظهر في أكتوبر سنة ١٩٠٦ أي عقب حادثة دنشواي بنحو ثلاثة أشهر جماعة على رأسهم سعد زغلول وقاسم أمين ، وكانا مستشارين بمحكمة الاستئناف ، يسعون في تأسيس جامعة مصرية ، فاذا لاحظت ما كتبه قاسم أمين عن شعوره نحو تنفيذ الحكم في قضية دنشواي (ص ٢٠٣) أممكنك أن تدرك أن نفسه قد اتجهت حين عظم وقع الحادثة إلى المساهمة في عمل عام ينفع الأمة في جهادها فاختر العمل لإحياء مشروع الجامعة المصرية .

وبلغنا تقريراً للحقائق وإنصافاً للعاملين أن نقول إن أول من دعا إلى هذا المشروع ومهدله الأفكار هو مصطفى كامل ، فقد اقترح في عدد ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٠٤ من اللواء إنشاء جامعة مصرية بأموال الأمة ، قال في هذا الصدد ما يأتي :

« بما لا يرتاب فيه إنسان أن الأمة المصرية أدركت في هذا الزمان حقيقة المركز الذي يجب أن يكون لها بين الأمم ، وأبلغ الأدلة على ذلك نهضتها في مسألة التعليم وقيام عظامها وكبرائها وأغنيائها بفتح المدارس وتأسيس دور للعلم بأموالهم ومجهوداتهم ولكن قد آن لهم أن يفسكروا في الوقت الحاضر في عمل جديد ، الأمة في أشد الحاجة إليه ، ألا وهو إنشاء جامعة للأمة بأموال الأمة ،

وأخذ يبين ضرورة إنفاذ هذا المشروع الجليل ، ودعا المفكرين وأصحاب الرأي إلى موافاته بآرائهم فيه ، وطرق الوصول إلى تحقيقه

وفي يناير سنة ١٩٠٥ عاود الدعوة إلى المشروع^(١) ، واقترح أن تسمى الجامعة (كلية محمد علي) لمناسبة مرور مائة سنة ميلادية على ولاية محمد علي الكبير عرش مصر (١٣ مايو سنة ١٨٠٥) ، وكتب عدة مقالات شرحاً وتأييداً للمشروع ، قال فريدبك في هذا الصدد في خطبته يوم ١٧ أبريل سنة ١٩٠٨ : « تعلمون أن المرجوم مصطفى كامل باشا هو صاحب مشروع الجامعة المصرية وقال به من عهد أن شرع في الاحتفال بمرور مائة سنة على تولية محمد علي باشا على مصر ،

(١) اللواء عدد ٨ يناير سنة ١٩٠٥

وقد أيد الأمير (حيدر فاضل) دعوة مصطفى كامل ، فكتب غير مرة سنة ١٩٠٥ في تحييد المشروع ، واستنفض همم الأمراء والأغنياء إلى الاكتتاب له ، وجمعت له فعلا في سنة ١٩٠٥ الاكتتابات لهذا الغرض من بعض الأمراء والسراة بلغت نحو ثمانية آلاف جنيه ، ثم وقف المشروع لعدم تعضيد الخديو إياه وفي سبتمبر سنة ١٩٠٦ حين دعا فريد بك إلى تأليف لجنة للاحتفال بعودة الفقيد إلى مصر عقب جهاده في حادثة دنشواي كتب إليه من باريس لخطاب السالف الذكر بتاريخ ٢٤ سبتمبر يعتذر فيه من عدم قبول هذا الاحتفال ويقترح فتح اكتاب عام لتأسيس الجامعة المصرية

تجددت الفكرة كما أسلفنا عقب حادثة دنشواي ، وكان أول من تبرع للمشروع مصطفى بك كامل الغمراوي أحد سراة بني سويف ، إذ تبرع من تلقاء نفسه بمخمسة مائة جنيه ، ودعا سراة البلاد وأعيانها إلى أن يجود كل منهم بمثل هذا المبلغ ، ثم تألفت لجنة تأسيس الجامعة ، واجتمعت لأول مرة بمنزل المغفور له سعد بك زغلول (وكان لا يزال مستشاراً بمحكمة الاستئناف) يوم الجمعة ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦ ، واختير سعد بك زغلول (باشا) وكيلا للرئيس ، وقاسم بك أمين سكرتيراً للجنة ، وتركت الرئاسة ليتولاها أحد الأمراء ، ونشرت الدعوة إلى الاكتتاب وبدأت به فعلا في أول جلسة ، وكان هذا الاجتماع نواة تنفيذ المشروع

(٥) تعيين سعد زغلول باشا وزيراً للبعارف

بما لاشك فيه أن تعيين سعد بك زغلول وزيراً للبعارف كان من النتائج المباشرة لحادثة دنشواي ، فقد أرادت الحكومة البريطانية تعديل سياستها في مصر ، وكانت تعلم أن من أسباب سخط الأمة على هذه السياسة حصر السلطة في يد المعتمد البريطاني والمستشارين الانجليز ، فأرادت أن تسند بعض المناصب الكبيرة إلى الأكفاء من المصريين ، وتترك لهم جانباً من السلطة ، لعلها بذلك تخفف من سخط الأمة على الاحتلال ، وتجتذب في الوقت نفسه إلى صفها بعض رجالات مصر ، ومن المحقق أن اللورد كرومر هو المقترح تعيين سعد زغلول بك وزيراً للبعارف ، وهذه واقعة مسلم بها من الجميع ، وقد صدر الأمر العالي بتعيينه في ٢٨ أكتوبر

سنة ١٩٠٦ ، فلابسات تعيينه تدل على أنه نتيجة من نتائج حادثة دنشواى ، لأن سعد بك زغلول كان مستشاراً بمحكمة الاستئناف منذ سنة ١٨٩٢ ، واللورد كرومر كان معتمداً لـإنجلترا فى مصر منذ سنة ١٨٨٣ ، ومع ذلك لم يفكر فى إسناد الوزارة إلى سعد بك زغلول المستشار ، الذى كان منقطعاً إلى قضائه فى محكمة الاستئناف ، فالتفكير فى تعيينه بعد وقوع حادثة دنشواى بنحو أربعة أشهر دليل على أنه أثر من آثارها ، وهو جزء من التغيير الذى اتتت الحكومة البريطانية إدخاله فى سياستها بمصر عقب الحادثة ، ومن هنا يمكنك أن تدرك ما لمصطفى كامل من الفضل فى هذا التعيين

(٦) استقالة اللورد كرومر - ابريل سنة ١٩٠٧

كان لحملات الفقيه على سياسة الاحتلال فى حادثة دنشواى وفى شؤون مصر عامة صدى كبير فى الرأى العام الأوروبى والبريطانى ، وألقت حادثة دنشواى على شخصية اللورد كرومر عبئاً كبيراً من التبعات الجسم ، لا من الوجهة السياسية فحسب ، بل من الوجهة الإنسانية ، فرأت الحكومة البريطانية إقصاءه عن منصبه ، إنقاذاً لسمعتها أمام العالم المتمدن ، وتخفيفاً لهياج الشعور الوطنى فى مصر ، وقد استقر رأى الوزارة البريطانية (وكان يرأسها وقتئذ السير هنرى كامبل بانرمان زعيم الأحرار) على هذه النية عقب استفاضة الأنباء عن فظائع التنفيذ ، ولكنها أرجأت تنفيذ نيتها حتى يعود اللورد كرومر إلى مصر استقباء لسكرامة رجالها ، وقد عاد إلى مصر مزوداً بتعليقات جديدة تبعاً لتغيير سياسة الاحتلال كما أسلفنا ، ثم قدم استقالته فى ابريل سنة ١٩٠٧ عقب تقديمه آخر تقرير له عن شؤون مصر سنة ١٩٠٦

كان استعفاء اللورد كرومر انتصاراً كبيراً للحركة الوطنية ، فقد تولى منصبه فى مصر منذ سنة ١٨٨٣ ، وبقى فيه إلى سنة ١٩٠٧ ، أى أنه ظل يشغل هذا المركز مدة أربع وعشرين سنة فى خلالها الحاكم المطلق لمصر ، فلا شك أن إقصاءه عن هذه السلطة بعد هذه المدة الطويلة هو اعتراف بقوة الحركة الوطنية

كتب الفقيه في عدد ١٢ ابريل سنة ١٩٠٧ من اللوام تحت عنوان (استعفاء اللورد كرومر) مقالة افتتحها بقوله :

« ما حدثت حادثة دنشواى ودوى دويها فى العالم كله وقامت لها قيامه الأحرار فى انجلترا وعرف المتمدون فى أنحاء الأرض مقدار بشاعتها وفضاعتها وشدة انفعال المصريين من الحكم والتنفيذ فيها حتى ذاع وشاع أن مدة إقامة اللورد كرومر فى مصر محدودة وأنه لا يلبث أن يترك وظيفته لما أصاب سياسته من الخيبة والفشل ،

وقال ذا كراً خلاصة تاريخ اللورد كرومر فى مصر :

« ماذا نذكر من سياسة اللورد كرومر وخطته فى مصر ؟ نذكر أنه الضارب لعرش الخديوية بيد من حديد ، نذكر أنه الذى فتح السودان برجالنا وأموالنا ثم جردنا من كل حق وسلطة فيه ، نذكر أنه الذى سلب الحكومة المصرية والوزارة الأهلية كل وجود ونفوذ وحياة ، نذكر أنه الذى حرم الفقراء من التعليم فى مدارس الحكومة ، وحارب اللغة العربية ، نذكر أنه الذى قرب الذين يضحون بأشرف العواطف لخدمة المطامع الذاتية ، نذكر أنه الذى رعى المصريين بكل جهل وتقصير ، وأعلن للملأ وجوب سيادة الانجليزى على المصرى ولو كان هذا رئيس ذلك ، نذكر أنه الطاعن على الدين الإسلامى فى تقريره الأخير ذلك الطعن الذى هاجت له عواطف المسيحيين مثل المسلمين ، نذكر أنه الذى عمل بما فى وسعه لمقاومة المطالب الوطنية وإنكار كفاءة الأمة واستعدادها لنيل الحقوق النيابية ، نذكر أنه الذى سعى لقتل العواطف الوطنية بالمال وظن أن الثروة وحدها كافية لإرضاء أمة وشراء ضمائر شعب ، نذكر بنوع خاص أنه الذى أراد الانتقام من شعور الناشئة المصرية فى حادثة إضراب الطلبة ، فرقى دنلوب مستشاراً للعارف ، وأراد الانتقام من عواطف الأمة كلها ، فكان ما كان فى دنشواى بما يذكره الخاص والعام ، نذكر أنه لم يكتف بذلك كله بل تعمد أمام هذه الأمة ، وهى حزينه كئيبة على منكوبى دنشواى ، مكافأة من سلكوا فى هذه الحادثة المشثومة المسلك الذى يحبه جنابه وتنفر منه الأمة كلها ،

وقد كان الفقيه منصفاً فى مقاله ، إذ ذكر للورد كرومر ماله بعد أن ذكر ما عليه ، قال :

« هذا ما نذكره للورد كروم ويذكره كافة المصريين ، ولسكننا نذكر له بكل إنصاف أنه لبث طول حياته مثالا للنزاهة الذاتية ، حتى يصح أن تضرب به الأمثال من هذه الوجهة لكافة الحكام وذوى السلطة ، ولو شاء جنابه لكان أغنى أغنياء الأرض بما في قبضته من جاه ونفوذ ، ولكنه فضل الشرف الذاتي على المال ، وخيراً فعل ،

ثم قال : « ونذكر له أيضاً أنه عمل ما عمل في مصر ليجعلها مستعمرة انجليزية إن لم يكن اسماً ففعلاً ، فهو كان على خلاف تام مع أحرار الانجليز الذين يرون في مصافة المصريين نفعاً لا نجلتراً أكبر وأسمى من معاداتهم بسلب حقوقهم ،

الاتحاد

وختم الفقيه مقالته بقوله :

« مهما كانت الخطة التي تتوى الدولة الانجليزية اتباعها في مصر فاننا لا نرى لبلادنا سلامه ونجاحا الا في اتفاق المصريين واتحادهم وتضامنهم في المطالبة بحقوقهم والمناداة بميولهم بكل هممة وصراحة وبلا خوف ولا حياء ، لأن الأمة لا تبلغ مآربها إلا إذا كانت قادرة على نياله ، وليس في مظاهر القوة مظهر أرقى وأسمى من المجاهرة بالحق والدفاع عن مصالح الأوطان بكل قلم ولسان ، وخلف اللورد كروم في منصبه السير إدون جورست ، وقد اقتتح عهده بالنصح بالإفراج عن مسجون دنشواي

الفصل الثالث عشر

جهاد الفقيه عام ١٩٠٧

خطت الحركة الوطنية سنة ١٩٠٧ خطوات موفقة ، وحفلت بالجهود الجبارة التي بذلها الفقيه في بث روح الوطنية في النفوس والدفاع عن حقوق مصر ، وكانت هذه السنة فوزاً كبيراً ونصراً أميناً للحركة الوطنية

ففيها عظم اهتمام الرأي العام في أوروبا وانجلترا بالمسألة المصرية ، على أثر دعاية الفقيه العظيمة ، وظهر تيار من الاستنكار العام لسياسة الاحتلال في مصر بفضل ما نشره عن فضائع دنشواي ، واشتد تأييد الأمة لدعوته ، وازداد إقبال القراء على اللواء ، إذ رأوا فيه صوت الوطنية الحقة وعلماً الحفاق ، وتضاعفت منزلة الفقيه في نفوس الأمة مما ظهر في الحفاوة البالغة التي قوبل بها عند عودته من أوروبا في أكتوبر من تلك السنة

وفيها أصدر الفقيه جريدتي (ليتندار اجبسيان) و (ذي اجبسيان ستاندرد) بعد أن أسس لها شركة كانت أكبر شركة صحفية تألفت حتى ذلك الحين في مصر والشرق

ظهور ليتندار اجبسيان

وذي اجبسيان ستاندرد

اعتزام مصطفى بعد حادثة دنشواي إصدار صحيفتين يوميتين : إحداهما بالفرنسية والأخرى بالإنجليزية ، للدفاع عن حقوق مصر وإطلاع الرأي العام الأوروبي على حقائق الشؤون المصرية وردّ المفتريات عن مصر ، وقد تولدت عنده هذه الفكرة عقب زيارته للندن في يولييه سنة ١٩٠٦ ، فكاشف بها صديقه وزميله في الجهاد محمد بك فريد في (فيشي) صيف هذا العام ، فبذل المشروع وشجعه على تنفيذه ، وهو مشروع

ضخم يستدعى همة كبيرة وكفاية عالية ومقدرة في الإدارة والتحرير، وقوة في المال، وقد اضطلع الفقيد بهذا العمل الكبير إلى جانب إصداره اللواء وقيادته للحركة الوطنية ومراسلته لأهم الصحف الأوروبية العالمية

وقد أسس من أجل ذلك في نوفمبر سنة ١٩٠٦ شركة مساهمة لإصدار الجريدتين تألف رأس مالها من عشرين ألف جنيه اكتب بها المساهمون فيها ، وكلهم من صفوة المصريين . وقد حنق اللورد كرومر من هذا المشروع، فزعم بلسان الصحافة الانجليزية أن الخديو عباس الثاني هو الذي بذل المال لمصطفى لإنشاء الجريدتين ، فدحض الفقيد هذه المزاعم الباطلة ، ونشر أسماء المساهمين ومقدار ما اكتبوا به وهم : مصطفى كامل باشا . محمد بك فريد . عمر سلطان باشا . محمود بك أنيس . علي بك فهمي كامل . محمد بك أحمد الشريف . اسماعيل بك صادق . ابراهيم بك حلیم . أحمد فائق باشا . حسن حارس باشا . سيف الله يسرى باشا . محمود بك أبو النصر . محمد بك سعاد . مصطفى بك رشيد . يوسف بك حافظ . محمد بك عبد اللطيف الصيدلي . اسماعيل افندي كامل . أحمد بك حجازي . حسن محسن باشا . محمد بك خورشيد . عثمان بك أبو شنب . فؤاد بك المنشاوي . اسماعيل افندي حافظ . خالد بك سعيد . عبد الحميد بك عمار . ابراهيم افندي نيازي . حسن بك جمجوم . يوسف بك ذهني . قليني باشا . فهمي جلال الدين بك عارف . توفيق بك حموده . حافظ افندي مصطفى

واختار لتحرير الصيغتين محررين من خيرة الكتاب الأورويين ، وذهب خصيصاً إلى أوروبا يصحبه المغفور له محمد بك فريد في ديسمبر سنة ١٩٠٦ لاستقدام المحررين واستحضار معدات الصحفيتين ، وبدأ ظهورهما في مارس سنة ١٩٠٧ ، فكانت ليقنذار اجبسيان تصدر في المساء وذى اجبشيان ستاندرد في الصباح ظهرت ليقنذار يوم ٢ مارس سنة ١٩٠٧ ، وذى اجبشيان ستاندرد صباح اليوم التالي ، وفي صدرهما مقالة للفقيد ختمها بقوله :

« ليس في جهادنا لحرية وطننا ما يخيف أحداً من الناس ، فإن التسامح والكرم من الصفات التي تفتخر بها مصر على الدوام ، وان المسكان هنا لمتسع لكل العاملين

ولسكافة الرجال المستقيمين الزهين ، وسيرى جميع الذين يعيشون فوق أرض
مصر البديعة مقدار تمسكنا في الحال والاستقبال بمبدئنا الذي تضمنته هذه الكلمة :
« أحرار في بلادنا . كرماء لضيوفنا ! »

خطبتان لصاحب اللواء

وأقام المترجم بفندق الكوندوتتال يوم ٢ مارس احتفالاً لمناسبة ظهور الجريدتين
جمع صفوة القوم من مصريين وأجانب ، وألقى فيه خطبة بالفرنسية قال فيها :
« إن قصدنا من تأسيس هاتين الجريدتين هو إحاطة العالم المتمدن وكافة الذين
يهمون بشؤون مصر علماً بخطتنا الوطنية التي غير خصومها شكلها وقلبوا حقيقتها ،
فقد مثلونا في أغلب الأحيان كأننا أعداء لأوروبا نريد جمع كافة قوى الإسلام
ضدها ، وإحداث انقلاب عام ؛ وأظهرونا لمن يحملون لغتنا كأننا ننادى بالبغضاء
والتعصب الديني ، فنحن جئنا اليوم نكذب بصورة قطعية هذه التهم الدنيئة ، وثبت
للعالم كله أن مطلبنا الوحيد بل مطلبنا العالی السامى هو أن نرد لمصر مكانة في العالم
تليق بتاريخها وماضيها ومركزها ، وأن كل مجهوداتنا موجهة لهذه الغاية ،

إلى أن قال :

إننا لسنا بشوار ولا أعداء للأوروبيين ، بل إن كل ما نريده هو أن تنال مصر
حريتها واستقلالها ، مصر مهد المدنية والنور ، ومصدر كل تقدم إنسانى ، إننا
الوارثون لمدينتين كبيرتين بديعتين : المدنية الفرعونية والمدنية العربية ، فمن حقوقنا
ومن واجباتنا أن نجلس بين الأمم المتمدنة ونطالب بحقنا في هذه المدنية ،

وختم خطبته بقوله :

« إن العمل الذى نعمل له يرمى إلى جعل مصر بلاداً كبيرة حرة كريمة ، وإن
الاتفاق بين المصريين والأوروبيين هو من أهم مبادئنا الأساسية ، فاسمحوا لى إذن أيها
السادة أن أدعوكم لأن تحيوا معى ذلك اليوم الذى لا بد من مجيئه والذى يرى فيه العالم
طرا شروق شمس الحرية والاستقلال فى مصر ،

وخطب بعده المسيو سانت أوجان أحد محرري ليتندار ، والمستر شارل
رودي المحرر بجريدة ذى اجبشيان ستاندرد

ثم وقف الفقيه وخطب للمرة الثانية باللغة العربية خطبة قال فيها :

« إن إصدار جريدتين بلغتين أجنبيتين في وادي النيل يعد عملاً صغيراً وكبيراً
في آن واحد ، إنه أيها السادة صغير في جانب اهتمامكم به ، ولكنه عظيم لأنه من
الأعمال التي تقوم بها هذه الأمة في سبيل الخدمة الوطنية ، وهو صغير في جانب
آمالنا العظيمة وأمانتنا الكبرى وهي المطالبة بالاستقلال (تصفيق طويل)

« أيها السادة ! اسمحوا لي أن أقول لكم إنكم تخرجونني بهذا التصفيق الطويل لاني
أراني لم أقدم شخصياً لهذه البلاد خدمة وطنية جديرة بهذا الاهتمام ، وإنني أرى
نفسى في (ألف بام) من خدمة تلك الأمة العزيزة ، وأرجوكم أن تطلبوا مني المزيد ،
لأن تصفقوا لي ، فلربما عاقني هذا الاستحسان عن الاستمرار في تلك الخدمة الشريفة .

الآمل

ثم قال :

« إن البلاد إذا أصابتها مصيبة انقسم أهلها إلى فريقين ، فريق الآمل وفريق
اليأس ، فكونوا أيها السادة من الفريق الأول ، واعلموا أنني لا أسألكم سوى
أن تكونوا من هذا الفريق ، أسألكم أيها السادة أن يكون لكم أمل ، أسألكم
أن تقولوا إن لنا أملاً وقوة ثقة بالله وبقينا بالمستقبل ،

الاتحاد

إلى أن قال :

« أيها السادة ، لم يتطلع العالم المتمدن لأحوال هذه البلاد ولم يتنبه لشؤونها مثل
تطلعه وتنهه في هذه الأيام ، فقد ظهرت آثار هذا الاهتمام في سائر المظاهر ولم تخف

على أحد ، فاعلموا أن أول واجب عليكم نحو هذا الوطن العزيز هو واجب الاتحاد ، لأن الاتحاد قوة ليس وراءها قوة ، ليرتك كل وطني الحزازات والضغائن الصغيرة ، لأن هناك شعوراً أقوى وأشرف من تلك الأمور ، ألا وهو إنقاذ الوطن المصري ، اعملوا أيها المصريون الأعزاء أنكم إذا أردتم أن تنالوا غايتكم وتصلوا إلى غرضكم فليس لكم إلا الاتحاد وهو الغرس الذي ينبت ثمره قبل أن تفرغوا من زرعه ، إن الله سبحانه وتعالى خلقكم لتكفونوا أحراراً سعداء ، لا أرقاء تعساء ، فإذا عملتم بأوامره تعالى نلتهم هذه الأمانة الكبرى وفزتم بالنجاح ، فكونوا كلكم أملاً ، واعملوا لهذا الغرض الشريف وتلك الغاية السامية ، وأنا الكفيل لكم بالوصول إلى الاستقلال المنشود لا محالة إن شاء الله ،

وقد قوطعت كلمات الفقيه بالتصفيق الشديد ، وبعد أن أتم خطبته دعا الحاضرين إلى تناول الشاي ولبثوا يتحادثون إلى منتصف الساعة السابعة مساءً ، وانتهت الحفلة في أبهى رونق من الجمال والجلال

حفلة تكريم اللورد كرومر وخطبته - مايو سنة ١٩٠٧

استقال اللورد كرومر كما أسلفنا في أبريل سنة ١٩٠٧ ، وقد قوبل نبأ استقالته من الأمة بالابتهاج العام ، فجهدت الحكومة نفسها في مقابلة هذه الحركة الطبيعية بحركة معارضة لها ، بإقامة حفلة تكريم له ، فتألفت من أجل ذلك لجنة حكومية لإقامة هذه الحفلة ، أعضاؤها وزراء الحكومة وقتئذ وهم : مصطفى فهمي باشا رئيس الوزارة ، وحسين فخري باشا ، وسعد زغلول باشا ، وأحمد مظلوم باشا ، وإبراهيم فؤاد باشا ، ومحمد العباني باشا ، وبعض كبار الشخصيات البريطانية ، ولفيف من كبار الأعيان المصريين الموالين للاحتلال ، مثل رياض باشا رئيس الوزارة الأسبق ، ومحمد شوارب باشا ، ومحمود سليمان باشا ، والشيخ عبد الرحيم الدمرداش

وقد أقيمت الحفلة بالأوبرا مساء ٤ مايو سنة ١٩٠٧ ، وخطب فيها الكونت دي سريون مدير شركة قناة السويس ، ثم مصطفى فهمي باشا رئيس مجلس الوزراء ، وقد شكر اللورد في خطبته « على خدماته لمصر » ، وقال : « إن عملكم المجيد سيخلد

إسمكم الكريم ويدعو مصر اليوم كما يدعوها في مستقبل الأيام إلى الاعتراف لكم بهذا الجليل ، ، وختم كلمته بقوله : « لا غرو إذا اغتتمنا هذه الفرصة لنعرب لكم فيها عن شدة تعلقنا بكم ولنقول إننا لا نزال نعتبركم كواحد منا ،

وخطب اللورد كرومر في هذه الحفلة خطبة طويلة جارحة للكرامة الوطنية ، مؤلمة للنفوس الأبية ، امتدح فيها الخديو توفيق باشا ونوبار باشا ورياض باشا ، ثم مصطفى فهمى باشا ، وقال عنه : إنه خدم بلاده بطريقته الممهودة من السكينة والهدوء والابتعاد عن التعرض لغيره والدخول فيما لا يعنيه ، (يريد بذلك استسلامه المطلق لسياسة الاحتلال) ، وامتدح بطرس باشا غالى ، ثم سعد باشا زغلول ، ورمى المصريين عموماً بنكران الجليل لأنهم لا يعترفون بفضل الاحتلال وقال في هذا الصدد : « إن أولاد العميان يولدون عادة مبصرين ، ، مؤملاً أن الجليل المقبل يعترف بفضل الاحتلال ، وعرج على ماسماه (حقائق الحالة المصرية) ، فقال إن أولها هي أن الاحتلال البريطاني يدوم إلى ما شاء الله . وثانيتها أنه مادام الاحتلال باقياً فالحكومة البريطانية تكون مسئولة عن الخطئة التي تجرى عليها الإدارة المصرية

وقد قوبلت الخطبة من المصريين بالاستياء الشديد والسخط والاستنكار

تعيين المستر هيل

ناظر المدرسة الحقوق - يولييه سنة ١٩٠٧

وقع في تاريخ التعليم في مصر حادث هام صيف سنة ١٩٠٧ لم نفوس المصريين ، ذلك أن الأستاذ إدوارد لامبير العالم القانونى الفرنسى كان يتولى نظارة مدرسة الحقوق الخديوية ، وكان من خيرة النظار الذين تولوا إدارة المدرسة ، ونال من أجل ذلك محبة الطلبة واحترام المدرسين ، وبذل جهده لينهض بالمدرسة إلى المستوى اللائق بها ، فوقع خلف بينه وبين المستر دنلوب مستشار وزارة المعارف ، إذ وقف له بالمرصاد ، وأخرجه وأساء معاملته ، مما أدى إلى استقالته من منصبه ، وكان

الظن أن يسند هذا المنصب إلى عالم مصري ، ولكن المستر دنلوب أملى إرادته في تعيين خلف للسيو لامبيره ، فوق اختيار وزارة المعارف على المستر هيل أحد أساتذة مدرسة الحقوق ، وكانت هذه أول مرة يتقلد فيها إنجليزى هذا المنصب الكبير قابل رأى العام وطلبة الحقوق هذا التبديل باستياء شديد ، وكتب الطلبة المقالات العديدة احتجاجاً عليه ، ذلك أن مستر هيل لم يكن على كفاية تسمح بتقليده هذا المنصب الكبير ، لاسيما وقد كان حديث العهد بالحصول على شهادة الحقوق ، فتعيينه لهذا المنصب الذى كان يوجد من علماء القانون الوطنيين من هو أجدر منه به ، كان ضربه مصوبة إلى التعليم والكرامة الوطنية ، وقد أحدث هذا التغيير ضجة كبيرة فى مصر وفى فرنسا ، وكتب الأستاذ لا مبير مقالة عنه فى جريدة (الظان) الباريسية الكبرى ، كانت بمثابة صحيفة اتهام لسياسة الاحتلال فى التعليم وتصرفات المستر دنلوب ، وقد أذاع فيها من الفصائح ما لم يسبق لعالم أجنبى كبير أن ينشره على الملأ بلسان قومه ، وانا ناشرون هنا هذه المقالة لأهميتها ، قال :

- تركت هذه الوظيفة والأسف يكاد يمزق فؤادى . لأن البقاء فيها لم يعد فى وسع رجل مثلى جعل حياته وقفا على العلم ، ولانى ما كنت بقادر على حفظ هذا المنصب ذى الراتب الضخم ما لم أرض بأن أكون آلة صماء لسياسة غير قومية ومكدره لصفاء العلاقات بين المصريين والأوروبيين

• إن الموظف الإنجليزى القابض فعلا على الإدارة الحقيقية لوزارة المعارف وهو المستر دو جلاس دنلوب كان قبل قدومى إلى مصر بعام قد حارب ناظر مدرسة الحقوق السابق (الأستاذ جرانمولان) بثبات نادر ، فعليه على أمره وسلب منه سلطته ، ثم اغتنم تلك الفرصة التى آلت فيها هذه السلطة إلى العدم ، فأخذ يهيج عواطف الطلبة ويستفزها بإصداره لهم أوامر متناهية فى القسوة والغاظة ولا مسوغ لها ، حتى جرهم إلى الإضراب ، ثم اتخذوا ضرابهم ذريعة للتشنج من سلقى الذى كان حاقداً عليه ، ولم يكن حظى من المعاملة بأسعد من حظ هذا السلف ، إذ كثيرا ما وضعنى المستشار الإنجليزى بسوء تصرفاته ، ولا أدرى إن كانت مقصودة منه أو غير مقصودة فى مراکز جرجة عجزت عن الخروج منها وعن توفى نتائجها ، إذ كنت مقيدا كل التقييد بلوائح

نزاع من يدى كل سلطان حتى فى المسائل الفنية الصرف التى أدخلت أيضاً فى اختصاص أقلام الوزارة ، وقد حارب المستر دنلوب تقدم التعليم الفرنسى فى مدرسة الحقوق بلا تبصر ، على حين أن تعليم الحقوق فى هذه المدرسة لا يزال ويجب أن يبقى تعليماً فرنسياً ، مادامت قوانين البلاد لم تغير تغييراً كلياً ، لأنها عبارة عن ملخص لقوانيننا ، ولأنه لا توجد لها شروح ومؤلفات بالعربية الا فى النادر ، وقد مثل (أى المستر دنلوب) رواية مضحكة للتعليم العالى فى مدرسة الحقوق ، فوقف تعيين ما يحتاج إليه القسم الفرنسى من الموظفين تمييزاً ينقص من عددهم المحدد قانوناً ، وحيثه فى ذلك أن مصير هذا القسم إلى الزوال فى القريب العاجل ، واكتسح من القسم الأكبر وهو الذى تدرس فيه الحقوق الفرنسية باللغة الإنكليزية الأساتذة الأكفاء الذين قاموا بأمره فى مبدأ تأسيسه ، وهم من القضاة الذين أفادتهم إقامتهم الطويلة فى الديار المصرية خبرة بأسرار قوانيننا ، واستبدل بهم شباناً من الإنكليز يعينون بمجرد تخرجهم من الكلية الإنكليزية فيقدمون إلى مصر ، وهم والطلبة المكلفون بتعليمهم سواء فى الجهل بالقوانين المصرية ، بل إن فريقاً من هؤلاء المعلمين لم يبلغ إلى الآن فى معرفة لغتنا حداً يستطيعون معه ترجمة المؤلفات الفرنسية التى يستعان بها على التدريس ترجمة غير مقبولة ، ولقد بذلت كل جهد فى سبيل ترقية شؤون المعلمين ، إما بتخصيصهم لتدريس فرع واحد أو بتقليل عدد الدروس التى يكلفون بها حتى لا يصعب عليهم تحضيرها ، أو توسيع مجال المباراة بينهم بترقية النجباء منهم أو بمنع الأسباب التى تدفع المعلمين الإنجليز إلى ترك المدرسة بمجرد استفادتهم شيئاً من المبادئ القانونية يتمكنون بها من الدخول قسراً فى المحاكم الأهلية ، بذلت كل سعى فى هذا السبيل ، فذهبت مساعى كلها أدراج الرياح بازاء عناد مستر دنلوب وتعنته

• كان هذا الرجوع بالعلم إلى الوراء يقضى التبصر والحكمة ومعاملة الطلبة بالحسنى خشية أن تهيج غضبهم حالتهم السيئة وانحطاط التعليم فيهم ، خصوصاً وفى مصر الآن حركة فكرية ترمى إلى طلب العلوم والعرفان ، ولكن مستر دنلوب وضع لهؤلاء الطلبة الذين بلغوا سن الرجال نظاماً من المنظمات الموضوعية لصغار

تلاميذ المدارس الابتدائية وأخذ يعاملهم بقسوة متناهية ويستعمل معهم سياسة وخز
الإبر ، سياسة اضطهاد دنيء ، فكانت نتيجة ذلك أن انضم إلى الحزب المعارض
للانجليز فئة متعلمة راقية وأن يسود على أفئدة الشبيبة الحقد والبغض للإدارة الانجليزية ،
وإن تتحول مدرسة الحقوق معقلاً للوطنية المصرية بحيث لا تكاد ترى بين الاربعمائة
التلميذ الموجودين بها الآن عشرة لا يؤمنون كل الإيمان بمبادئ مصطفى كامل باشا
« حاولت مراراً أن ألفت نظر المستشار الانجليزي إلى الأخطار التي تنشأ عن
اتباع خطته في نظام التعليم ، فلم أنل منه شيئاً اللهم إلا بعض تجاوز وفتى عن بعض
مسائل ، ولكنه لم يخلص مطلقاً في التنازل نهائياً عن خطة كلها إيلام وإرغام ، ولذلك
كنت أتوقع دائماً من وراء عمل مستر دنلوب واستفزازه للخواطر من هذا القبيل
أن تعصف في مدرستي عواصف جديدة أشد خطراً من العاصفة التي عصفت بها
في سنة ١٩٠٦ وكانت تلقي علىّ مسؤولية ذلك أمام الرأي العام المصري

« انتهى مستر دنلوب أخيراً بالتعرض لكرامتي تعرضاً مؤلماً ، وذلك أنه
أراد أن يجعلني بالرغم عنى شريكاً في الدسائس التي يدبرها ضد وزير وطني هو سعادة
سعد زغلول باشا ، ذلك الذي اختارته الوكالة الانجليزية بفعل تأثير الرأي العام عليها ،
والذي لم يشأ أن يكون آلة لإرادة لها ، فلكي ينزع من هذا الوزير كل سلطة
ويغلبه على كل أمر ، أكره رؤساء الموظفين في الوزارة على أن يتألبوا حزباً واحداً
لهرقة كل عمل لرئيسهم الرسمي ، ولم يكن حظي من هذا الإكراه أقل من حظ
زملائي ، فكنت ألتقي أوامره قبل تحرير تقارير الرسمية ، ثم كان يجبرني على
تقديمها له قبل إرسالها للوزير لينقح فيها ما يشاء ، بل لقد حدث لي أحياناً أني بعد
أن حررت أوراقى وبعد أن خرجت من مكنتي وسجلت في الوزارة عدت فغيرت
وتفحنت منها ما شاء المستشار ، كل ذلك بما لا طاقة لي على احتماله ، لم يكتف مستر
دنلوب بذلك ، بل كان يريد مني أني ما دمت راغباً في البقاء طويلاً بجانبه يجب أن
أندنى إلى حد تضحية ضميري وتعرض نفسي في كل حين للظهور بمظهر الخائن
الاثيم أمام الوزير ، نتج عن هذه الأسباب التي بينتها أن علائقي مع مستر دنلوب
كانت دائماً مشوبة باكدار ، على أنها توترت فجأة إثر خلاف حدث بسبب مسألة تعيين

بعض المعلمين ، فقد ترك ثلاثة من المعلمين وظائفهم ووضعت لائحة جديدة للتدريس تزيد بها عدد الحصص ، فاضطرت والحالة هذه أن أطلب للسنة الدراسية ١٩٠٧ - ١٩٠٨ معلمين اثنين على الأقل ، فبعد أن وعدني مستر دنلوب وعداً صريحاً بإجابة طلبي عاد فنكث وعده قائلاً إن الظروف السياسية لا تسمح باستخدام معلمين أوروبيين زيادة على الموجودين ، ثم هو لا يقبل بحال من الأحوال استخدام الوطنيين للتدريس في مدرسة الحقوق ، إلا أني لم أذعن لهذه النتيجة وتمكنت بفضل مساعدة أحد كبار الموظفين الانجليز من حمل مستر دنلوب على تعيين معلمين من أصل مصري في مدرسة الحقوق ، ولكن بعد أن اضطرت أن أتساهل معه في مسائل كثيرة أخصها تعهدى له بإسائة الشهادة في كل مصري ينتظر أن يتقدم للتدريس بمدرسة الحقوق إجابة للدعوة التي أعلنها وزير المعارف في الجريدة الرسمية ، شدد مستر دنلوب حملته عليّ كما شددتها على سلفي ، فبعد أن استنفدت كل وسائل الدفاع وأيقنت أني أصبحت عاجزاً عن حماية موظفي مدرسة الحقوق وتلاميذها من مظالم مستر دنلوب استخرت الله في السفر إلى وطني ، ثم حدثت بعد ذلك حادثة يستنكرها الذوق السليم ، وقد أبلغها إلى الجرائد بصورة لو احتملتها لضيّعت كل كرامة لي عند زملائي وتلاميذي ، فلذلك أصرت على تنفيذ رغبتى في الاستقالة وقدمتها فعلاً ، فقبلت بمزيد الارتياح ، وفي اليوم التالي عين بدلا عنى مدرس انكليزي لا أجد جملة تصدق عليه خيراً من هذه الجملة التي نسبت بحق أو بغير حق إلى السير إدون جورست وهي :

« إن مستر هل جاهل وإنه خير لنا أن يكون كذلك ليكون أسهل قياداً ،

و لقد عتب على نفر من أبناء وطني في القاهرة وأخذوا على توضحية مصالح فرنسا المهمة في سبيل عواطفى الذاتية ، وقالوا إنى تركت وظيفة من أسمى وظائف التعليم في مصر كانت للآن محفوظة للفرنسيين رغبة في الخلاص من مهمة لم ترق لي ، ولست أرى رأيهم هذا في تقدير المصالح الفرنسية ، فإنه كما كان من اللازم لنشر نفوذ أمتنا في الشرق أن يتولى مدرسة الحقوق الخديوية رجال أمثال فيدال باشا وتستو في وقت كانت أيديهم فيه مطلقة حرة يعملون ما يشاءون لنشر علومنا

القضائية ، كذلك لا يليق بشرف فرنسا ولا يوافق تأييد نفوذها في مصر أن يرضى علماءها بأن يقتل مستر دنلوب روح الأخلاق ويهدم صروح العلم تحت ظلالهم ، ولقد كان لهذه المقالة المهمة ، وصدورها من ذلك العالم الفرنسي الكبير ، ونشرها في كبرى الجرائد الفرنسية ، وتعريبها في اللواء ، أثر كبير في فضح سياسة التعليم التي كان يجري عليها الاحتلال ، وكان للفقيد اليد الطولى في نشر المقالة في جريدة (الطان) لنفوذها الأدي لدى مديرها ، وهو الذي قدم إليه الأستاذ لامبير ، وبوساطته نشرتها الطان في مكان بارز من صحائفها

كتاب المترجم إلى السير هنري كامبل بانرمان

في خريف سنة ١٩٠٧ أرسل الفقيد كتاباً مفتوحاً إلى السير هنري كامبل بانرمان رئيس الوزارة البريطانية بتاريخ ١٤ سبتمبر ، لمناسبة ذكرى احتلال الانجليز القاهرة سنة ١٨٨٢ ، جاهر فيه بالاحتجاج على استمرار الاحتلال ، وطالب الحكومة البريطانية بلغة رصينة متزنة بتحقيق وعودها في الجلاء ، ولما كان هذا الكتاب من الوثائق المهمة في تاريخ الحركة الوطنية فانا ننشر تعريبه ، قال :

• يا حضرة الرئيس

• إن هذا اليوم يوم ١٤ سبتمبر هو يوم مخلص الذكر في التاريخ سواء بالنسبة لمصر أو لانجلترا

• فاسمحوا لي أن أذكركم بأنه في آن واحد تذكّر مرور مائة عام على جلاء الجنود البريطانية عن مصر ، ذلك الحادث الذي وقع يوم ١٤ سبتمبر عام ١٨٠٧ ، والتذكّر الخامس والعشرون لدخولها مدينة القاهرة ، الذي حصل يوم ١٤ سبتمبر عام ١٨٨٢ ، فهذا التذكّر شآنان ، وإذا كان يذكر المصريين بمجد آباؤهم الذين عرفوا كيف يدافعون عن الوطن ويجبرون انجلترا على العدول عن غزو مصر من قرن مضى ، فإنه يحملهم أيضاً على التفكير في تلك التصريحات الرسمية التي صدرت عند حصول الاحتلال الحالي لبلادهم ، وفي كلبة الشرف والتعهدات التي أخذتها على نفسها بريطانيا العظمى

« إن لانجلترا يا حضرة الرئيس في تذكاري ١٤ سبتمبر هذا من الفخار أقل مما لمصر ، فإن الشعب المصري لم يجد في انجلترا فاتحاً غزاً بلاده بقوة السلاح ، بل دولة صديقة أرادت مساعدة الحديد على توطيد الأمن والنظام ووعدت علناً بمغادرة البلاد متى توطدت أركان الأمن ، ولقد مضت خمس وعشرون سنة ولم ينفذ هذا الوعد ، وإن القليل من الانجليز ليفكرون الآن في الأقسام التي فامت بها المملكة فيكتوريا والخطب التي ألقاها وزراؤها وأكادوا فيها أن استمرار الاحتلال الانجليزي في مصر يكون ، عاراً على التاج والشرف البريطانيين ،

« ولسكننا نحن معاشر المصريين نفكر في هذه الأقسام وتلك الخطب ، نفكر في ذلك العهد الذي يسمو على كل المماهات وهذا العقد الذي يعلو كل العقود ، ورغمما عمن يقولون أن السياسة ليست إلا ، كدبا واحتيالاً وخداعاً ، ، فاننا نظن انه لا يمكن لأمة متمدنة كبيرة أن تفكر في تشويه تاريخها باختلاس لا مثيل له ، ولا يمكن تعريفه لجسامته ، وها هو التاريخ يقول بأعلى صوت وبين الخطر لذي تلحقه مصر بالدول الطامعة اللواني حارلن امتلاكها ولم تفلح واحدة منهم في استعبادها بصفة نهائية ، ولكن لعل دروس التاريخ لا تنكفي في نظر أنصار التوسع في الاستعمار من الانجليز لأن ثبت أنه لا يمكن أن يملك مصر أحد سوى المصريين ، إلا أن يقظة الأمة المصرية من شأنها أن تظهر لهم من الآن مستقبلها القائم على الحرية والاستقلال ، وأن مصر تحافظ على آمالها أكثر مما كان ذلك في أي زمان ، وترقب المستقبل بثقة لا يززعها شيء ، وذلك رغماً عن المصائب كافة ، وعن جميع التدابير السياسية والمناورات الدولية ، بل أؤكد أن المصائب قد قوت الروح الوطنية المصرية ، وكل العارفين بأحوال مصر يعترفون بأن « دنشواي » أفادت في تقدم ، الوطنية ، أكثر من المجهودات الكبرى التي بذلها الوطنيون

« وأن المسألة المطروحة اليوم أمامكم يا حضرة الرئيس وأمام الأمة الانكليزية هي معرفة ما إذا كانت انجلترا تريد أن تجعل مصر صديقة أو عدوة لها ، هي معرفة ما إذا كانت انجلترا تدرك مصالحها العالية وتقدر الفوائد التي تسكتسبها من الاتفاق مع أمة تزداد كل يوم عدداً وثروة وقوة ، فتوفى بوعداتها وتحترم شرفها ، أو إذا

كانت تصرّ على العناد وتحارب كرامتها ، وتجاهد ضد أمة تفيض حياة ، ومصرّة على نيل حريتها

• وإنه إذا كانت إنجلترا قد اعتبرت الجلاء ممكنا في عام ١٨٩٠ وحددت هذا الميعاد في اتفاقية «درو مندوولف» ، لانسحاب الجنود البريطانية ، فكيف يمكنها أن تدعى أن وقوع هذا الأمر الموافق للشرف ولحقوق الشعب المصرى غير ممكن الآن؟ أى انجائزى حر يستطيع أن يزعم بجد أن ساعة الجلاء عن مصر لم تأذن بعد ، فى حين أن المستر جلاستون قد اعترف فى خطابه للذين كتبهمالى فى عام ١٨٩٦ أن ساعة الجلاء «أذنت من عدة أعوام»

• يقول السير إدوارد جراى أنه لو تركت إنجلترا مصر للبصريين لسادت الفوضى والرشوة فى البلاد ، وهذا التأكيد لا يفسر إلا بشيء فاضح ، وهو عدم اقتدار إنجلترا بعد احتلال دام خمسة وعشرين عاما على القيام بمهمتها فى مصر ، أو القضاء على الأمة المصرية بأنها ليست أمة قادرة على حكم نفسها بنفسها وخلقها بأن تنال مكانتها بين الشعوب المتقدمة ، ومن المحال أن يقبل رجل عادل مستقل الفكرة هذه النظرية التى هى مسببة مزدوجة لانجلترا وللمصر ، وفضلا عن ذلك فإنه لا يجهل أحد من الناس أننا نطلب لمصر حكومة دستورية حرة ، وأنا لا نقبل حكم الأهواء والاستبداد أبدا ، وأن الإرادة الوحيدة التى نريد أن نخضع لها هى إرادة الأمة ، وأن العتل لا يقبل مطاناً أن السلطة المطلقة المتقلبة حسب الاعراض والاهواء ، التى يتصرف بها المعتمد البريطانى ، تكون أفضل وأنفع من دستور أهلى مؤسس على المبادئ الحرة ، إذ القول بذلك يعادل القول بأن حكومة الصين خير من حكومة إنجلترا ، وانكم قلتم يا حضرة الرئيس فى إحدى خطبكم إنه لا يمكن أبداً أن نعوض حكومة حسنة بحكومة أهلية ، وأقول أنا أيضا إنه لا يوجد شيء فى العالم يبنى الاستقلال لشعب عارف بحقوقه ، وإن حكومة الأجنبي ، ولو كانت مثال اللطف والرفقة ، بخلاف ما هى فى مصر ، مبعوضة وممقوتة على الدم ، لأن سلاسل الاستعباد هى سلاسل على كل حال ، سواء كانت من ذهب أو من حديد ، ولا اظننى مبالغا إذا أكدت يا حضرة الرئيس أن افضل صديق لانجلترا هو الذى

ينصحها باحترام شرفها ووعودها ، ويقول لها بكل إخلاص إن كل ما تستطيع عمله ضد مصر لا يوقف بلادنا في طريق التقدم والحرية الذي سلكته بكل عزم ، وإن أمة كأممتنا، جمعت مدة قرون عدة. قوى من الصبر والهمة والإرادة ، لا تعرف اليأس ولا تقف أمام أى عائق لاسترداد استقلالها ، وإن لانجلترا الحرة أن تقرر إذا كان هذا الاستقلال سيتم إرادتها أو ضدها ، ولقد رأيت من الضروري يا حضرة الرئيس أن أذكركم في هذا اليوم المخلد الذكر بالنسبة لكم وبالنسبة لنا بوعود الحكومة البريطانية وبما تنتظره مصر الوطنية من المستقبل

، وإننا تألمنا كثيراً من « كذب السياسة » ، فلا نلجأ للمهارة والاحتيال والكذب ، وإن كرامتنا وشرف قضيتنا ليحتمان علينا الصراحة والصدق والاستقامة وتفضلوا يا حضرة الرئيس بقبول عظيم احترامي

« مصطفى كامل »

باريس في ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧

نشرت جريدة (الفيجارو) هذا الكتاب في صدر عددها المؤرخ ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧ ، فكان بمثابة بعث جديد للسألة المصرية ، لأن شخصية الفقييد ، وحججه الدامغة ، استرعت الأنظار إلى قوة الكتاب وصاحبه ، وقد تناقلته الصحف الأوروبية ، فنشرت خلاصته الصحف الفرنسية الكبرى كالطان والديبا والإكبير والايكودي باريس وغيرها ، وعلقت عليه باستحسان عام ، ونقلت كبريات الصحف الإنجليزية كالتيمس والستاندرد والمورننج بوست والديلي نيوز خلاصته ضمن الرسائل التلغرافية الواردة إليها من مراسليها بباريس ، وعلقت الديلي نيوز عليه تعليقا مشربا بروح الود والتأييد ، وعارضته التيمس في مقال لها ، وتردد صدها في الصحف الألمانية والنموية والابطالية ، وكان له دوى كبير في مصر ، إذ جاء على أثر نجاح الفقييد في بعث قضية دنشواى في العالم ، فكان حديث الناس في المجالس والصحف ، ووجه الحركة الوطنية ووجه الجلاء ، أى في الطريق الذي رسمه الفقييد من قبل

عظم منزلة الفقيد

استقباله عند عودته إلى مصر - أكتوبر سنة ١٩٠٧

أكبرت الأمة جهاد مصطفى كامل في أوروبا سنة ١٩٠٧ ، بعد جهاده عقب حادثة دنشواى سنة ١٩٠٦ ، فلم يكف يعلم الجمهور بحضوره إلى الاسكندرية وبجيشه إلى القاهرة حتى ذهبت جماهير الوطنيين جماعات ووحداً إلى محطة العاصمة قبيل وصوله إليها يوم ٧ أكتوبر سنة ١٩٠٧ ، دون دعوة أو سابق اتفاق لاستقبال الزعيم ، وأخذ إقبال جماعات المستقبلين يشتد ويتعاضم قبل قدوم القطار ، حتى صار كل من شاهد هذه الجموع الزاخرة يدهش لسكثرة الزحام ، وكأن كلامهم كان على موعد مع الآخرين ، مع أنه لم يسكن ثمة موعد ولا اتفاق ، وهال موظفي المحطة ذلك الزحام الذى لم يسبق له نظير ، ووجد عمال صرف تذاكر المقابلة حيرة كبيرة فى تلبية رغبات طالبي التذاكر ، وقبيل قدوم القطار بلغ الزحام أشده على أرصفة المحطة ، وبلغ عدد المستقبلين نيفا وثلاثة آلاف ، بحيث كان هذا الجمع الزاخر يستوقف النظر لسكثرة عدد المجتمعين ، وحضورهم جميعاً مسوقين بشعور تسكريم صاحب اللواء ، دون أن يدعوهم إلى ذلك داع من لجنة أو جماعة أو أفراد ، وكان معظمهم من عليّة القوم وصفوة الشباب ، يتقدمهم المغفور له محمد بك فريد . وما كاد القطار يصل إلى افريز المحطة حتى دهش الفقيد لسكثرة هذه الجموع التى جاءت لتحيته ، واغرورقت عيناه بالدموع من التأثر ، ولم يكف يقف القطار حتى ضج الجمع بالهتاف : « ليحيى صاحب اللواء ، ليحيى الرئيس ، ليحيى الباشا ، وكرروا هذا الهتاف قبل وقوف القطار وبعد وقوفه ، ولما تقدم أصدقاء الزعيم وأخصاؤه لتحيته تعذر الوصول إليه لأنه كان محوطاً بسور من الجماهير المتلاحمة المتزاحمة ، إلى حد جعل الجباه تنصب عرقاً ، وما زالت الجماهير تحيط به إلى إن وصل خارج المحطة وهناك وقف قائلاً :

« إنى أشكركم من صميم فؤادى على مظاهر تكم السامية ، وأدعوكم لأن تقولوا : « تحيى مصر ، ، إنكم تعرفون جميعاً أنى لست إلا أضعف خادم لهذه البلاد العزيزة ، وأنى إنما أقوم ببعض الواجب لها ، فكل تحية منكم هى موجهة لها بالذات ،

ولا يمكنني أن أقبلها إلا بهذه الصفة ، فاسمحوا لي أن أشكركم باسم مصر شكراً
جزيلاً ، وأسأل الله أن يحقق آمالي وآمالكم وأدعوكم لأن تقولوا معي : ولتحي مصر .
لحيي الاستقلال ، ، فرددت الجموع هذا الهتاف عالياً ، وقد وقفت حركة المحطة
نحو نصف ساعة ، لم يستطع فيها أحد من ركاب القطار على ما فيه من الكبرياء
والعظمة أن يبرح مكانه ، حتى انصرفت تلك الجموع ، وكان هذا الاستقبال هو
الأول من نوعه في الاستقبالات الوطنية الزائفة ، إذ لم يسبق أن قوبل زعيم في
عهد الاحتلال بمثل هذه المظاهرة الكبرى ، وبخاصة لأنها حصلت من غير سابق
اتفاق أو دعوة أو دعاية أو توريط ، بل كانت وحي الشعور الوطني الصادق الذي
انطبع في نفوس المصريين ، تقديراً لجهاد الفقيد ونشعباً بروحه الوطنية

الفصل الرابع عشر

تأسيس الحزب الوطنى

حزب الجلاء

كان اسم (الحزب الوطنى) يطلق منذ بداية ظهور مصطفى كامل على جماعة الوطنيين الذين يناذون بالاستقلال والجلاء ، وكان الفقيه يعتبره موجوداً منذ الساعة الأولى ، والصحف الأوروبية تعبر عن أنصاره بالحزب الوطنى ، على أنه لم يكن ثمة حزب منظم له رئيس وأعضاء ومجاس إدارة ، لكنته كان موجوداً بالفعل كفكرة تضم حولها الأنصار والمجاهدين ، قال مصطفى كامل فى هذا الصدد فى لواء ١٠ أكتوبر سنة ١٩٠٧ : « إن الحزب الوطنى المصرى الذى جعل أول مراميه وأسمى غاياته استقلال مصر ورد حقوقها إليها موجود فيها فعلاً من ثلاثة عشر عاماً مضت ، فهو وإن لم يظهر بشكل نظامى وبلائحة ولجنة إدارة قد ظهر بأعمال اتفق أعضاؤه على خدمة البلاد بكل قوة ، قاوم الاحتلال فى أوروبا ومصر مقاومة شهدها كل المصريين والغربيين ، وارتبط بروابط أكيدة مع جملة من سواس أوروبا ، ولما حدثت حادثة (فاشودة) ضعفت همم بعض رجال الحزب ، كما انفصل عنه بعض أفراد لتمسك اليأس من قلوبهم ، وثبت فى موقفه من اعتقد أن فى نهضة الأمة بنفسها سلامتها وبلوغها كل مآربها ،

وقال فريد بك فى هذا الصدد : « قضى رحمه الله خمس عشرة سنة من حياته أى منذ كانت سنة تسعة عشر عاماً فى تكوين الحزب الوطنى ، فابتدأ بأن جمع حوله بعض إخوانه المختصين وكون منهم جماعة بمخلصة له ولعمله ،

ثم فكر سنة ١٩٠٠ فى جعل الحزب حزبا منظما على غرار الأحزاب الأخرى الأوروبية ، وكتب فى عدد ٢ يوليه سنة ١٩٠٠ من اللواء مقالا بعنوان

(حزب وطنى حر فى مصر) ، أعرب فيه عن أمنيته فى تأسيس هذا الحزب ، كتب مقاله هذا من (بودابست) ، حيث أعجبه مارآه من وطنية الشعب المجرى ، قال فى هذا الصدد :

« إن تاريخ هذا الوطن المجرى هو أكبر مدرسة لرجل مثلى وهب حياته لخدمة وطنه وإعلاء شأنه ، ، وختم مقاله بقوله : « هل يسمح لى الزمان بأن أرى فى مصر هذا الحزب الوطنى الحر الشريف المبادئ ، المتحد الأعضاء الناهض بالامة إلى مراقى النجاح والفلاح ؟ إني أعرف أن اليائسين سيقولون إن (تأسيس حزب كهذا أمر محال) ولكنى إذا كنت لا أياس من خلاص بلادى فمحال على أن أياس من تحقيق هذا الأمر الجليل ،

وفى سنة ١٩٠٧ اعترام تنفيذ فكرته بوضع نظام للحزب الوطنى ، وفى ذلك يقول فى لواء ١٠ أكتوبر سنة ١٩٠٧ : « ولما كان لكل عمل وقت فقد جاء الوقت لأن بوضع للحزب الوطنى نظام تام يجمع كافة رجاله وأنصاره ومحبيه الذين مضوا السنوات وهم مشاركون لنا فى العمل بكل أنواع المشاركة ، وإنى من ساعة وصولى الاسكندرية (١٧ أكتوبر سنة ١٩٠٧) إلى هذه الساعة وكل واحد من رجال هذا الحزب وأبطاله الكرام يطالبنى بوضع هذا النظام بصورة نهائية حتى يتم التعاون بين جميع المخلصين لبلادهم المحبين لأمتهم المتشربين مبادئ الشهامة والإرادة والصدق والإقدام فتكون الخدمة أجل وأكبر ، والعمل أفيد وأعظم ،

خطبته الكبرى بالاسكندرية - ١٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧

وقد اعترم عقب عودته من أوروبا القاء خطبة كبرى بالاسكندرية ، جعلها بمثابة دعوة عامة إلى الانضمام إلى الحزب الوطنى ، واتخذ (الجلاء) مبدأ للحزب ، حتى صار أصح تعريف له أنه (حزب الجلاء)

كانت هذه الخطبة أكبر خطبة سياسية وطنية ألقاها فى حياته ، وأحدثت من التأثير ما لم تحدثه أية خطبة أخرى ، وهى لا تزال ماثلة فى الأذهان أكثر من أية خطابة أو كتابة للفقيد ، وقد حدد لإلقائها مساء الثلاثاء ١٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧

بمسرح زين بيا ، وما ان أعلن اللواء عن موعد القائها حتى انهالت الطلبات من الراغبين في سماعها ، وفي مساء ذلك اليوم ازدحم المسرح على سعته بالحاضرين الذين جاؤوا من كل صوب لسماع تلك الخطبة ، وجلسهم من عليه القوم وفضلائهم وذوى المسكاة الأدبية ، والشباب المثقف ، وكل ذى وطنية صادقة ، حتى زخر المسكان بهم ، ولم يتسع لهم ، فوقف الكثيرون منهم في حديقة المسرح وفي الشوارع المجاورة له ، وبلغ عدد الحاضرين نحو سبعة آلاف ، وهو أكبر عدد اجتمع لسماع الخطيب ، وما ان ظهر على منصة الخطابة في منتصف الساعة التاسعة مساء حتى ضج المسكان بالتلهيل والتصفيق الشديد ، وهتفوا جميعاً : « لتحي مصر . ليحي خدام الوطن . لتحي الوطنية »

ثم أخذ الفقيد يلقي خطبته ، ولم يكن يقف عند موضع يحسن الوقوف عنده إلا دوى المسكان بالتصفيق وإظهار علامات الرضا والاستحسان ، ولما تكرر التصفيق اضطر الفقيد أن يتقدم إلى السامعين بالرجاء ألا يصفقوا ففعلوا ، ثم عادوا إلى التصفيق ، واستغرق إلقاء الخطبة نحو ساعة ونصف

والخطبة هي أقوى خطب الفقيد وأعظمها شأنًا ، بل كانت أعظم خطبة أقيت في مصر والشرق منذ أقدم العصور ، بدأها بشكر الحاضرين ، ثم تكلم عن حياة مصر الوطنية بعد الاتفاق الودى الفرنسى الإنجليزى ، ونوه بالخطوات الواسعة التى خطتها الحركة الوطنية برغم هذا الاتفاق ، بعد أن كان الإنجليز يظنون أنه سيقضى على أمل الأمة ، وأبان أن اعتماد الأمة على نفسها هو سبيلها إلى الإستقلال

قال فى هذا للصدد :

« إن العزلة التى صرنا إليها بعثت فىنا روحاً جديدة وأرشدتنا إلى الحقيقة التى لا قوام لشعب بدونها ولا حياة لأمة بغيرها ولا وجود لنفر من الناس إذا لم يتبعوها ، وهى أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بمجهوداتها ، وأن الشعب كالفرد لا يكون آمناً على نفسه إلا إذا كان قوياً بنفسه مستجمعاً لكل عدد الدفاع وآلات الذب عن الشرف والمال والحياة ،

ودعا الأمة فى خطبته إلى الانضمام إلى الحزب الوطنى

وقد تضمنت الخطبة كلمات رائعة للفقيد لا تزال وستظل مضرب الأمثال في قوة الوطنية والثبات في الجهاد، وسنوردها في الفصل الحادى والعشرين تحت عنوان (كلمته الخالدة)

وصف الاجتماع وتأثير الخطبة

كان للخطبة تأثير بالغ في النفوس وفي الأندية السياسية والدوائر الأوروبية ، قالت جريدة «الريفورم» ، في وصفها ما يأتى :

« لا يتاح للمرء في كل يوم أن يحضر خطبة سياسية في مصر ، والحق يقال أن مصطفى كامل باشا هو الوحيد الذى اتبع طريقة الخطابة ، وهو وحده الذى يسمعنا الخطب السياسية في مصر ، فكما رأيناه منذ عشر سنوات في تياترو زيزينيا يخطب ، رأيناه مساء أمس في التياترو نفسه خطيباً سياسياً ، وبدى أن الصحفى لا يدع فرصة تفوته من هذا القبيل ، بل إن أقل المخبرين والصحفيين مهارة يرى نفسه مضطراً إلى الكتابة عن خطبة رجل تمكن من جمع أكثر من ستة آلاف إنسان في مظاهرة وطنية ، أضف إلى حشد هذا العدد العظيم جمع عدد من رجال الشرطة ، فالصحفى الذى لا يخبر قراءه بمثل هذا الاجتماع هو صحفى مقصر فى واجبات وظيفته

« وعلى هذا نقول لقرائنا أنه ما وافت الساعة الثامنة مساء حتى تقاطرت جماهير الوطنيين إلى تياترو زيزينيا فلاً والألواج والسكرامى وازدحم الملعب بهم أى مزدحم حتى لم يبق موطئ قدم ، بل لقد غصت الماشى والحديقة بالناس يأتون أفواجا حتى امتلأ بهم الشارع ، وقد كان الحاضرون بين باشوات وبكوات عقلاء وافندية متحمسين ، قادمين من جميع جهات الوجه البحرى لسماع خطبة «الرئيس» كما يلقبونه بذلك ، وكان فى الحضور صفوة المحامين والأطباء الوطنيين فى الدلتا والقاهرة ، وكانت نظرات الذكاء تلمع من خلف نظاراتهم الذهبية ، وفيهم كل الشبيبة المصرية من جميع المدارس ، أولئك الطلبة الذين ابتدأوا يشعرون بالحياة وتنطبع فى قلوبهم العواطف الصادقة ، والعقائد السليمة

« كان المنظر فخماً جليلاً ، منظر هذه الطرايدش الحمراء التى ملأت الملعب جميعه ،

وبينها هنا وهناك بعض العهائم البيضاء ، كان المنظر جامعا بين زهور مختلفة من أزهار الإنسانية كان داعياً إلى الدرس الفلسفي والاجتماعي ، وما أجدر منه بذلك وهو يمثل الألوف من العقول البشرية ، ما أجدر منه بالتأمل والتفكير وهو يجمع في جملة طلبة المدارس المصرية هؤلاء الطلبة الذين سيكونون غداً رجال مصر وقوتها ، هم الذين كانوا أشد استحساناً وتصفيقاً لخطبة مصطفى باشا كامل ، وأكبر تحية وإجلالاً له ، إن أذن الأوروبي المتعود سماع الفصاحة الغربية قد لا تألف الفصاحة الشرقية ولا تتأثر كثيراً بنبيرات صوت الخطيب الشرقي وتنقله بين ارتفاع وانحدار وغير ذلك مما يناسب مقام التأثير على السامعين ، ولكن هذا الشأن لا يصدق علينا نحن الذين عشنا في مضر عشرات من السنين وألفنا سماع الفصاحة الشرقية وما فيها من قوة التأثير وحسن الإنشاء والتوقيع وجزالة اللفظ ورقة المعنى ، ولقد كان الخطيب جامعاً لكل ذلك وتأثيره شديداً في الحاضرين يمكن اتباع أثره على وجوههم من دققة إلى أخرى ، كان تأثيره بحيث لم تكف الأيدي عن التصفيق له تصفيقاً صادقاً صادراً من أعماق القلوب خالياً من كل تملق

« إن لهذا الرجل قوة حقيقية على جمهور الوطنيين ، ومن ينكر ذلك فهو ينكر الحقيقة الساطعة ، إن كلامه مؤثر في النفوس تأثيراً عظيماً ، على أننا نرى حقاً علينا مدحه ، لأنه لم يلعب بهذه العقول التي ملسكها ، ولم يستخدم تأثيره في الحاضرين لطبع أثر سيء في النفوس ، بل كان كلامه غاية في الاعتدال ؛ لم يستعمل عبارة حادة ولا استخدم ألفاظاً جارحة ، وقد دامت خطبة رصيفنا إلى الساعة العاشرة ، أي أنه ظل يخطب أكثر من ساعة ونصف دون أن يتولاه أقل تعب ، ولما انتهى من خطابه صفق له الحاضرون تصفيقاً حاداً ، وارتفعت الأصوات قائلة : ليحي مصطفى كامل ليحي الحزب الوطني . ويقدر عدد الذين حضروا هذه الخطبة بنحو سبعة آلاف إنسان ، وقد انصرفوا يهدوء لم تعد معه فائدة للقوة التي حشدتها البوليس ،

وكان للخطبة صدى كبير في أوروبا ، وخصصت لها جريدة (الطان) الفرنسية مقالها الافتتاحي ، وانتبست فقرات منها ، وأفاضت بنوع خاص فيما ورد في الخطبة عن علاقة الإسلام بالمدينة ، وكذلك فعلت جريدة (الفيجارو) ، ووصفت (الإكابر)

الاجتماع وأشار إلى المظاهرة الكبرى التي قوبل بها الفقيد واقتبست فقرات من الخطبة ، ونشرت جريدة الديلي نيوز الإنجليزية مقالة افتتاحية بحثت فيها حركة الإصلاح التي ظهرت في العالم الإسلامي ، وعدت مصطفى كامل باشا الرئيس السياسي للنهضة الإسلامية ، وقالت إنه أقوى صحافي في العالم الإسلامي ، وقالت عن الخطبة إنها غاية في الفصاحة ، واستطردت من ذلك إلى انتقاد السياسة التي ترمى إلى صبغ مصر بالصبغة الإنجليزية ، وطلبت العفو عن مسجون دنشواي وتعليم العلوم في المدارس المصرية باللغة العربية

أول جمعية عمومية للحزب الوطني - ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧

وما ان دعا الفقيد الأمة إلى الانضمام للحزب الوطني حتى انتهت طلبات الانضمام إليه من كل جانب ، وعقدت أول جمعية للحزب بمصر يوم الجمعة ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ بدار اللوام ، وكان اجتماعاً حافلاً تمثلت فيه طبقات الأمة من أعيان ومزارعين وسراة ومحامين وتجار وأطباء ومهندسين وأرباب أعمال وصناع وما إلى ذلك ، وأحصيت تذاكر الدعوة التي قدمها المجتمعون فكان عددها ١٠١٩ تذكرة ، وبلغ عدد الاعتذارات البرقية والبريدية (٨٤٦) اعتذاراً ، وافتتح مصطفى كامل الجمعية العمومية بخطبة نوه فيها بوجود الحزب الوطني من قديم ، ثم أشار إلى ضرورة تنظيمه ، وقال عن أغراض الحزب : «إننا لسنا حزباً سياسياً فقط بل نحن قبل كل شيء حزب حياة للأمة وإنهاض لها ، فلانغفل التعليم بين سائر الطبقات لحظة واحدة ، وهو يرمى إلى الاستقلال أس كل سعادة ، ويعمل لنشر التعليم حتى لا يبقى مصري جاهلاً تحت سماء مصر ، ويسعى للوفاق بين الأمة وتقريب المسافة بينها وبين الشعوب الأخرى ، هو يرمى قبل كل شيء إلى أن يكون المصري إنساناً بأسمى معاني الكلمة ، وأقصد بالمصري ليس فقط ذلك الذي نراه في المدائن يجد ويعمل ، بل أقصد بنوع خاص ذلك الفلاح الذي قضى القرون من السنين وهو يعتقد أنه ملك للحاكم ومتاع لا إرادة له ، فأسمى عمل تقوم به هو إنهاض ذلك الفلاح العزيز وإعلاء مكانته ، فهو هو يمثل النشاط المصري ، ومصدر كل خير ونعيم ؛ فليحي عصر ينطق فيه التاريخ

بأن الفلاح ألقى أثقال القرون الماضية وصار رجلا حراً بفضل أبناء وطنه المتعلمين
المجاهدين في سبيل حريته وسعادته ،

ثم قال :

« إننا إذا دعونا الناس للدخول في هذا الحزب لا ندعوهم باسم سلطة عالية أو
حاكم نافذ الكلمة ، بل ندعوهم باسم وطنيتهم ، باسم شرفهم ، باسم حقوق وطنهم ،
باسم كرامة الانسان ، باسم ذكريات آباؤهم وأجدادهم ، باسم مصالح أبنائهم وأحفادهم ،
ثم نفي تهمة الثورة التي ينسبها بعض خصومه اليه وتشبيهه بحزب العرايين ،
وحمل على سياسة الاستسلام للاحتلال ، واستنكر الحكم المطلق ، ودعا إلى التمسك
بالنظام الدستوري ، وحث على الثبات والاتحاد ، وقد قوبلت الخطبة بالتصفيق
الشديد والاستحسان المتواصل

ثم ألقى محمود بك أنيس كلمة تجدد فيها أعمال الفقيد وجهاده في سبيل مصر ،
وانتخب الحاضرون بالاجماع مصطفى كامل رئيسا للحزب الوطني مدى الحياة ،
فوقف الفقيد وارتجل فيهم الكلمة الآتية :

« أيتها الاخوان

« انكم حملتموني طول حياتي حملا ثقيلا على كاهلي ، فأنا قبل كل شيء ، أشكر
لكم ثقتم بي ، هذه الثقة التي كانت عوناً لي في كل أعمالى ، وأقول لكم انكم أنتم
قوت وساعدي بصفتم من خير أمة أوفت لخدمتها حياتي وقواي وعقلي وقلبي
وقلبي ولساني وصحتي ، وكم من صديق قال لي اشفق على صحتك التي لا تدخر وسعا
في بذلها ، ولكن الواجب لبلادي ووطني ينسيني هذه النصائح الثمينة ، فأنا الآن
إذا قبلت اختياركم لي رئيساً فانما هو لثقتي بأن كل واحد منكم أصبح حياتي وشعوري
واعتمادى ، بل صار كل منكم في الشعور الوطني أكبر من مصطفى كامل ،

ثم وقف فؤاد بك سليم (باشا) وأخذ يتلو لائحة الحزب مادة فمادة والحاضرون

يبدون رأيهم فيها ، وبعد المناقشة صدقوا على نصها النهائي ، وأهم ما جاء فيها أن
رئيس الحزب هو مصطفى كامل مدى الحياة وان الجمعية العمومية للحزب تجتمع
مرة في كل سنة في شهر ديسمبر باسم (المؤتمر الوطني) ، واختصاصاتها انتخاب
اللجنة الادارية والتصديق على ميزانية الحزب وأعماله والنظر في اقتراحات الأعضاء
وتقرير كل أمر نافع للبلاد ، وتناقش الجمعية في كل اجتماع المسائل الحيوية كافة للمقطر
المصرى ، ويبدى الأعضاء آراهم في كل أمر مهم ، وتؤلف من أبحاثهم وأقوالهم
مجموعة سنوية باسم (تقرير الحزب الوطني) ، وتؤلف اللجنة الادارية من ثلاثين
عضواً عدا الرئيس ، وتنتخب لمدة ثلاث سنوات وتجتمع مرة في كل شهر على
الأقل ، وتنتخب وكيلين للحزب وسكرتيراً وأمين الصندوق من بين أعضائها ،
ولجنة تنفيذية من ثمانية أعضاء من بينهم الوكيلان والسكرتير وأمين الصندوق لتنفيذ
قرارات اللجنة الادارية ، وتجتمع مرة في كل أسبوع على الأقل ، وتنشأ ناد للحزب
وفروع له في الأقاليم

وبعد التصديق على اللائحة انتخب الحاضرون الأعضاء الثلاثين للجنة الادارية
الأولى وهم : محمد بك فريد . احمد فائق باشا . حسن حارس باشا . سيد باشا شكري
على باشا آصف . عمر بك سلطان (باشا) . محمود بك أنيس . فؤاد بك سليم
الحجازى (باشا) . الاستاذ ويصا واصف (رئيس مجلس النواب الأسبق) . الدكتور
حسين يسرى بك . محمود بك محرم رستم . يوسف بك ذهني . على بك فهمي كامل
على بك حشمت . محمود بك حسيب . عبد الحميد بك عمار . محمد بك حافظ رمضان
(باشا) . شمس الدين بك حمودة . اسماعيل بك لييب . محمد بك خلوصي . محمد
بك رشوان . عبد الرؤف بك السيوفى . يوسف بك حافظ . ابراهيم بك حفظى .
عبد الله بك طلعت . على بك لهيطه . اسماعيل بك الملوانى . محمد بك عبد اللطيف
محمود بك فهمي حسين . الدكتور أحمد فهمي الجهنى . وانتهى الاجتماع في الساعة
السادسة مساء ، وانتخبت اللجنة الادارية محمد بك فريد واحمد فائق باشا وكيلين
للحزب ، وفؤاد بك سليم (باشا) سكرتيراً ، وعمر بك سلطان (باشا) أميناً للصندوق

وفي ٤ فبراير سنة ١٩٠٨ استقال عمر بك سلطان (باشا) من أمانة الصندوق مع بقائه عضواً باللجنة الادارية ، وانتخب على بك المنزلاوى ومصطفى بك الخادم المحامى عضوين فى اللجنة الادارية بدلا من سيد باشا شكرى وعبد الرؤف بك السبوقى المستقيلين من عضوية اللجنة

الإفراج عن مسجونى دنشواى

ماقتى . الفقيد يطالب بالعمو عن مسجونى دنشواى لىكى يمحق أثر من آثار الظلم الذى وقع بالأبرياء من شهداء هذه الحادثة ، ودعا المصريين إلى تقديم العرائض إلى الخديو بهذا الطلب ، وقد ابنت الأمة دعوته وأقبل المصريون على رفع العرائض الاجماعية إلى الخديو فى هذا الصدد وبلغت عدتها ١٤٨ عريضة وقع عليها ١٢٦٧٠ من المصريين ، وتردد صدى هذه الحركة فى أوروبا وانجلترا ، إذ طالب بعض النواب الاحرار فى البرلمان البريطانى بالإفراج عن مسجونى هذه الحادثة ، وكان من نتائج هذه الحركة المزدوجة أن تقرر فى شهر ديسمبر سنة ١٩٠٧ العفو عنهم ، على أن ينفذ العفو فى يوم عيد الجلوس الخديوى (٨ يناير سنة ١٩٠٨) . وكان اللواء أول من زف إلى الأمة هذه البشرى ، ولما اجتمعت الجمعية العمومية للحزب الوطنى فى يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ بدار اللواء كان من قراراتها ارسال كتاب شكر إلى الخديو على هذا العفو ، وارسال تليفرافات شكر إلى السير هنرى كامبل بازمان رئيس الوزارة الإنجليزية والمستر نورمن النائب بالبرلمان الإنجليزى وإلى مدير جريدة الديلى نيوز على سعيهم فى استصدار هذا العفو

وقد افرج عن المسجونين الباقين يوم ٧ يناير لا يوم ٨ ، لىكى لاتحدث مظاهرات فى اليوم المحدد للإفراج عنهم ، وكان عددهم تسعة ، منهم ثلاثة كانوا فى سجن الدلتا وهم محمد عبد النبى . وأحمد عبد العال محفوظ . وكان محكوما عليها بالأشغال الشاقة المؤبدة ، ومحمد مصطفى محفوظ ، وكان محكوما عليه بالسجن سبع سنوات ، وواحد كان فى سجن أبى زعبل وهو العيشوى محمد محفوظ وكان محكوما عليه بسبع سنوات وخمسة كانوا بليمان طره منهم واحد كان محكوم عليه بالأشغال الشاقة خمس عشرة

فسنه وهو أحمد محمد السيسى ، والباقون كان محكوما على كل منهم بالسجن سبع سنوات
وهم عبده البقلي ورسلان السيد على وعلى على سمك وعلى على شعلان

وقد قبل نبال الافراج عنهم بالاستحسان والابتهاج العام في البلاد ، وهرع الذين
خرجوا من السجن إلى القاهرة قاصدين دار (اللواء) ليقابلوا الفقيد ويقدموا له
شكرهم على دفاعه المجيد عنهم ، ويعربوا له عن اعترافهم بجميله ، إذ كان صاحب
الفضل في اطلاق سراحهم ، ولكن الزعيم كان طريح الفراش في مرضه الأخير ،
فلم يستطيعوا مقابلته وأعربوا للواء عن شعورهم نحو منقذهم العظيم

الفصل الخامس عشر

القضاء المحتوم

(١٠ فبراير سنة ١٩٠٨)

كانت صحة الفقيد يعترها التعب والاعتلال من الجهد الذي حملها اياه ، وتدل رسائله الخاصة على أن صحته كانت في حاجة إلى الراحة والعلاج قبل الوفاة بعدة سنوات ، ولكنه كان ماضياً في سبيله ، لا يبالي أن يحملها ما لا تطيق من التعب والعناء كتب إلى مدام جوليت آدم من فيشي في ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٠٣ يقول :

« يجب أن أقضى معظم هذا الشهر في (التيرول) مع صديقي فريد بك الذي تشرفت بتعريفه اليك منذ سنتين ، لان الأطباء قد رأوا أنه من الواجب أن أمضى في الجبل بعض الزمن ، إذ أخذ التعب يستولى على أعصابي ، ولهم الحق في ذلك فاني لم اشفق على نفسي ،

وكتب اليها في ٢٥ يونيه سنة ١٩٠٥ كتاباً قال فيه :

« إن العمل قد أضناني إلى حد أشعر معه بسرعة الحاجة إلى ترك الوسط الذي أعيش فيه ، وكأن الطبيعة قد خالفت سنتها ، إذ جعلت قوة روحي أكبر من قوة جسمي ، وقد سافر في يوليه من تلك السنة إلى أوروبا وقصد إلى لوزان وعرض نفسه على الدكتور بورجيه ليعالجه من مرض في أمعائه كان يشتد به أحيانا فيؤلمه كثيراً ، وفي صيف سنة ١٩٠٦ ذهب إلى أوروبا للاستشفاء والعلاج ، وكان في حاجة قصوى إلى الراحة ، ولكن حادثة دنشواي جعلته يقطع على نفسه سبيل الراحة والعلاج ، فنهض نهضة الأسد ، وبذل تلك الجهود الهائلة التي لا تصدر الا عن أقوى الناس صحة وجسماً ، ولما سافر إلى باريس ولندن في شتاء سنة ١٩٠٦ يصحبه محمد بك فريد لاختيار محرري جريدتي ليتندار اجبسيان وذى اجبشيان ستندارد عاوده المرض في أثناء الرحلة ، ولزم الفراش بباريس عدة أيام عاد بعدها إلى الجهاد والكفاح

وفي صيف سنة ١٩٠٧ ذهب إلى فرنسا كعادته كل عام للاستشفاء والجهاد ، وكانت هذه آخر رحلة له بأوروبا ، وكان يشعر بديبب المرض بعترية أحيانا ، ذكر المسيو أدولف ادرير (مر اسل الاينندار في باريس) أنه قابله وقتئذ بباريس فكان يقول له : ، انى اشعر أن المرض قد دبَّ إلى ، تُرى هل أعيش حتى أرى أول نجاح للجهودى ؟ ليحصد الآخرون نتائج جهادى ، ولكن ليكن لي وقت كاف للغرس والزرع ، ، وكان هذا القول نذيرا بخطرورة مرضه ، وقد قابله في شهر أغسطس في إفيان على بحيرة جنيف حيث قصدتها للعلاج . وكان يلزمه أن يمكث بها واحداً وعشرين يوماً للاستشفاء بحماماتها ، ولكنه لم يمكث غير عشرة أيام لشعوره بضعف قواه ، فسافر إلى أعلى جبال سويسرا ، ولم يلبث بها غير بضعة أيام ، لأنه لم يسكن يستريح اينما توجه ، قال المسيو ادرير : ، وجاء شهر سبتمبر فعدت وإياه إلى باريس ولم اتركه حتى ساعة سفره ، وكان دائماً متوعك الصحة ، فكنت أرى هذا الوجه الذى زتسم عليه الشجاعة والذكاء والإقدام ممتفعا شاحباً ، وقد سافر منهوكا إلى حيث لا يعود الينا أبداً ،

وقد عاد الفقيد إلى مصر في أكتوبر سنة ١٩٠٧ ، فقابله الشعب بأعظم مظاهرة قبول بها في حياته ، وأخذ يبذل الجهود الجبارة لتنظيم الحزب الوطنى ، حتى إذا لم يكن في عمره متسع ، لا يخشى عليه من الانحلال ، وألقى خطبته الشهيرة بالاسكندرية يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ وعلامات الضعف بادية على محياها ، وقد لمحها أصدقاؤه الأقربون

واشتدت به العلة قبل وفاته بثلاثة أشهر . ولكنه كان يغالب المرض ويجاهد جهاد الأبطال ، ولما حان موعد اجتماع الجمعية التأسيسية للحزب الوطنى يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ ، ترك سرير مرضه ونزل إلى ساحة دار اللواء حيث اجتمعت الجمعية العمومية ، وألقى خطبته كأقوى وأقوى خطيب ، حتى دهش السامعون لبلاغته وبراعة القائه وقوة جنانه ، مع ما كان بادياً عليه من الضعف ، وكانت هذه آخر خطبة ألقاها رحمه الله ، ثم استند به المرض عقب الاجتماع وعاد إلى غرفته مريضاً ، ولم يغادرها ، وقد بلغه في صباح اليوم التالى للاجتماع نبأ وفاة صديقه ونصيره الكبير

لطيف باشا سليم أحد مؤسسى الحزب الوطنى وأحد أعلام الحركة الوطنية ، فجزع لوفاته جزعاً شديداً ، وازداد ما به من المرض حزناً على صديقه العظيم وكان وهو على سرير المرض لا يدع العمل والتفكير ، فقد أرسل وهو طريح الفراش قبل وفاته بخسمة أيام احتجاجاً رقيقاً قوياً ضد تصريحات فاه بها السير إدوارد جراى فى مجلس العموم البريطانى اتهم فيها المصريين بعدم الكفاية للحكم الذاتى ، فرد عليه بأن مصر تماثل فى الاستعداد للحكم الذاتى كثيراً من الأمم الأوروبية ، وأن مصر ستظل تجاهد فى سبيل حريتها واستقلالها حتى تنالهما

الوفاة

وأخذ المرض يشتد ويلاح عليه حتى أعى الطب الأطباء ، إلى أن حُمّ القضاء ، وأسلم الفقيد الروح فى الساعة الرابعة من عصر يوم الاثنين ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ (٨ محرم سنة ١٣٢٦) ، فانتشر نعيه بسرعة البرق فى العاصمة والأقاليم ، وطيرت الأسلاك البرقية خبره إلى الخارج ، وملا البأ الفاجع جنبات وادى النيل ، وبأها من لحظة رهيبه حين فوجئنا بالنمى ونحن فى مدرسة الحقوق ، فقابلناه بالذهول والوحوم ، وفاضت دموعنا حزناً وأسى على الفقيد الذى كان لنا إماماً وطنياً ، وأبا روحياً ، وما كاد يذيع نعيه حتى عم الحزن أرجاء مصر ، فكان له فى كل نفس مناحة ، وفى كل قلب ماتم

جنازة الزعيم

كان الاحتفال بتشييع جنازة مصطفى كامل يوماً مشهوداً فى تاريخ الحركة الوطنية ، كان مظهر أرائعاً لشعور الوطن نحو الزعيم ، انبعثت من القلوب المسكومة والأفئدة الحزينة لفقده ، أرادت الأمة أن تشيعه إلى مقبره الأخير ، وأن تظهر وفاءها لباعث نهضتها الوطنية ، وموقفها من رقدتها ، وأدرك الناس كافة حتى الذين الذين كانوا لا يؤمنون برسالة مصطفى أن بطلها وزعيمها الشاب جدير حقاً بتقدير

الوطن ، ولم يكن هذا الشعور مقصوراً على طبقة دون أخرى ، بل تناول طبقات الأمة كافة ، شمل المتعلمين وغير المتعلمين ، وتناول الكبار والصغار ، والرجال والنساء لم يسكد يذيع خبر الوفاة بين طلبة المدارس حتى قرروا بمحض شعورهم اعتبار يوم تشييع الجنازة يوم حداد عام ، عطلت فيه المدارس كلها حزناً على الزعيم ، وقرروا جميعاً الاشتراك في الجنازة التي حدد لها عصر يوم الثلاثاء ١١ فبراير ، فسرنا فيها جميعاً مدفوعين بشعور واحد ، شعور الحزن للفجعة ، والوداع للراحل العظيم ومع عظم منزلة الفقيه ، لم يكن متوقفاً أن تكون الجنازة بالضخامة والروعة والعظمة التي تجلت فيها ، وكان مقرراً أن تسير من طريق سراي عابدين ومنها إلى باب الخلق فمدافن الإمام الشافعي ، واختير هذا الطريق بدلاً من طريق السيدة زينب ، التماساً لاتساع الشوارع وطولها منعاً للزحام ، ولكن بوادر الحال دلّت على أن هذه الشوارع مهما اتسعت فإنها لا تكفي للجموع الزاخرة والألوف المؤلفة التي قدمت من نواحي العاصمة كافة ، ومن الضواحي والشعور والأقاليم ، واكتظت بها الشوارع المحيطة بدار اللواء قبل الموعد المحدد لتشييع الجنازة بأربع ساعات ، فرؤى إلغاء القرار السابق واختيار أطول طريق للجنازة بين دار اللواء ومدافن الإمام . ليتسنى للجموع الحاشدة الاشتراك فيها ، وهو طريق شارع الدواوين (نوبار باشا الآن) حيث كانت دار اللواء (١) ، فشارع المداينغ فشارع المناخ فيدان الأوبرا فشارع البوستة فيدان العتبة الخضراء . (محمد علي الكبير الآن) فشارع محمد علي فيدان المشية ومنه إلى مدافن الإمام ، وهذه المسافة لا تقل عن اثني عشر كيلو متراً . وخصصت حكمدارية بوليس العاصمة أكبر قوة من العساكر المشاة والفرسان ، وأضافت إليها عدداً كبيراً من جنود الاحتياطى وقلم المرور ، لتنظيم سير الجنازة ، وأوقفت عدداً آخر من البوليس في منافذ الطرق على طول الخط للمحافظة على النظام ، ولكن كل تقدير لعظم الموكب كان أقل من الواقع

(١) مكان مدرسة عابدين الابتدائية الآن

وأخذ العظما والكبراء والمتفقون وطبقات الأمة كافة يفتدون إلى دار اللواء ، حتى غصت بهم على سعتها . وفاض جمعهم المتدفق إلى شارع الدواوين ففلاه ، ثم ضاق بجمعهم الزاخرة ، فامتلات بهم الشوارع المجاورة ، وتعطل المرور من جميع الشوارع التي تتصل بطريق الجنازة ، وأوقفت مركبات الترام في جميع خطوط العاصمة . وما حانت الساعة الثالثة بعد الظهر وهو الوقت المحدد للبدء بسير الجنازة حتى لم يبق موضع لقدم ، وبدأت الجنازة في المسير ، فتقدم المشهد الجنود الفرسان فتلاميذ مدرسة مصطفى كامل ، فتلاميذ المدارس الابتدائية الأميرية والأهلية ، فطالبة مدرسة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي . فالمدارس الثانوية وهي التوفيقية والخديوية والسعيدية وكثير من طلبة مدرسة رأس التين بالاسكندرية ومدرسة عبد العزيز والمدرسة الإلهامية . ومدارس الأقباط الكبرى ، وفيكتوريا والفريز ، ثم المدارس العليا وهي الحقوق والطب والمهندسخانة والزراعة والصنائع ، ثم عساكر البوليس وتلاميذ مدرسة البوليس ، ثم نعش الزعيم مغطى بالراية المصرية ، محمولا على أعناق طلبة مدرسة الحرق . مندوبين لذلك من قبل جميع طلبة المدارس العليا . وكانت كل مدرسة تحمل علما مجللا بالسواد وفيه شارة تدل عليها ، وقد صنعت هذه الرايات خصيصاً للاشتراك في الجنازة . كما أن مدرسة الزراعة رفعت أمامها شجرة بجالة بالسواد ، ثم سار المشيعون خلف نعش ، يتقدمهم المرحوم محمد بك فريد ، وكان عددهم في بدء الجنازة يزيد على عشرات الألوف ، إلا أن ذلك الجمع الهائل لم يكن إلا قطرة من بحر من انضم إلى الجنازة أثناء مسيرها ، حتى زحرت الشوارع بالمشيعين ، ولما تعذر سيرهم في موكب الجنازة وقف معظمهم على جانبي الشوارع من دار اللواء إلى مدفن الفقيد ، وبلغ عدد المشيعين نحو ٢٥٠٠٠٠٠ (ربيع مليون) نفس ، عدا الألوف الذين كانوا على جانبي الطريق ، وفي نوافذ المنازل والفنادق وشرفاتها ، وفوق أسطحها ، وفي المنعطفات المترامية الأطراف ، وجملة القول إن الشوارع الواقعة بين دار اللواء وقبر الفقيد كانت العين لا تقع فيها إلا على أجسام متراصة من المشيعين ، أو كتعبير المسيو ريمون كولوارثيس تحرير جريدة (إيجبت) في وصف الجنازة : « إن شوارع القاهرة فيما بين دار الفقيد وقبره كانت مفروشة ببساط أحمر ، إشارة إلى الطرايش الحمراء . ومع اشتداد هدنا

الزحام الذي لم يسبق له نظير ، كان النظام مستتباً ، والسكون شاملاً رهيباً ، ولم يكن يسمع أثناء سير الجنازة سوى بكاء الباكين والبائكات وزفراتهم ، ونواحهم الصادر من أعماق قلوبهم ، وكلهم يبكي شباب الزعيم ووطنيته ، فكان هذا الاحتفال الرهيب أعظم وأروع جنازة في تاريخ مصر الحديث ، وصفها المرحوم قاسم أمين بقوله : « ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ ! يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل ، هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق ، المرة الأولى كان يوم تنفيذ حكم دنشواي ، أما في يوم الاحتفال بجنازة صاحب « اللواء » فقد ظهر ذلك الشعور ساطعاً في قوة جماله ، وانفجر بفرقة هائلة سمع دويها في العاصمة ووصل صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر ، هذا الإحساس الجديد ، هذا المولود الحديث الذي خرج من أحشاء الأمة ، من دمها وأعصابها ، هو الأمل الذي يتسم في وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذي يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة . هو المستقبل ،

سارت الجنازة حتى جامع « قيسون » بشارع محمد علي حيث أقيمت الصلاة على الفقيد ، ثم تابعت سيرها في بحر زاخر من الجموع والدموع حتى مدفن الزعيم بقرافة الامام الشافعي ، واستمر سيرها أربع ساعات ، ولما وصلت ساحة المدفن كانت على رحبتها غاصة بفريق من المشيعين بمن سبقوا الموكب تفسادياً من الزحام وتعذر دخول الجموع الحاشدة إلى رحبة المدفن ، وأنى طلبه المدارس إلا أن يدخلوا ولما لم يكن ذلك ميسوراً لاشتداد الزحام ، انتدبت كل مدرسة وفدا ينوب عنها ، وكان حملة النعش منهم قد كثر عددهم ، وأبوا إلا أن يظلوا حاملية داخل المدفن حتى حافة الضريح الطاهر ، فأجيبوا إلى طلبهم بعد تذليل الصعاب في إجابته ، إذ كان الزحام المهائل داخل رحبة المدفن يحول دون ذلك

وعندما اجتاز النعش ساحة المدفن وأدخل مكان الضريح ووضع على حافته ، ضج المسكان بالبكاء والنحيب ، وفي هذا الوقت وقف الشاعر الكبير اسماعيل صبري باشا وكان صديقاً حميماً للزعيم ليلقي كلمة الوداع ، فألقى البيت الأول منها وهو :

أداعى الأسي في مصر ويحك داعيا هددت القوى إذ قمت بالأمس ناعيا
ولم يكده يلقيه حتى ظهر عليه التأثر الشديد والإعياء ، ولم يتم رثاءه

قصيدة حافظ ابراهيم

ثم قام شاعر النيل حافظ ابراهيم وألقى قصيدته الرائعة في رثاء الفقيد ؛ قال :

أيا قبرُ هذا الضيف آمالُ أمة فكبرُ وهلل والقَ ضيفكُ جاثيا
عزيزُ عكيننا أن نرى فيك مصطفى شهيدَ العُلا في زهرة العمر ذاويا
أيا قبرُ لو أنا فقدناه وحده لكان التأسي^(١) من جوى الحزن شافيا
ولكن فقدنا كلَّ شيءٍ بفقده وهيهات أن يأتي به الدهر ثانيا
فيا سائلي أين المرؤة والوفا وأين الحِجَا والرأى؟ وَيُحَكْ هاهيا
هنيئاً لهم^(٢) فليأمنوا كل صائح فقد أسكت الصوتُ الذي كان عاليا
ومات الذي أحيا الشعورَ وساقه إلى المجد فاستحيا^(٣) النفوس البواليا

* * *

مدحتك لما كنت حياً فلم أجده وإني أجدُ اليومَ فيك المراثيا
عليك^(٤) ، وإلّا مالذا الحزنِ شاملاً وفيك ، وإلّا مالذا الشعبِ باكيا
يموت المداوى للنفوس ولا يرى لمسا فيه من داء النفوس مداويا
وكنا نياماً حينما كنت ساهداً^(٥) فأشهدتنا حزناً وأمسيت غافيا^(٦)

* * *

شهيدَ العُلا ، لا زال صوتك بيننا يرُنُّ كما قد كان بالأمس داويا
يُهبُّ بنا : هذا بناء أقمته فلا تهمدموا بالله ما كنتُ بانيا
يصبح بنا : لا تُشعروا الناس أنتي قضيتُ وأن الحى قد بات خالياً

(١) التأسي بمعنى الصبر على المصيبة

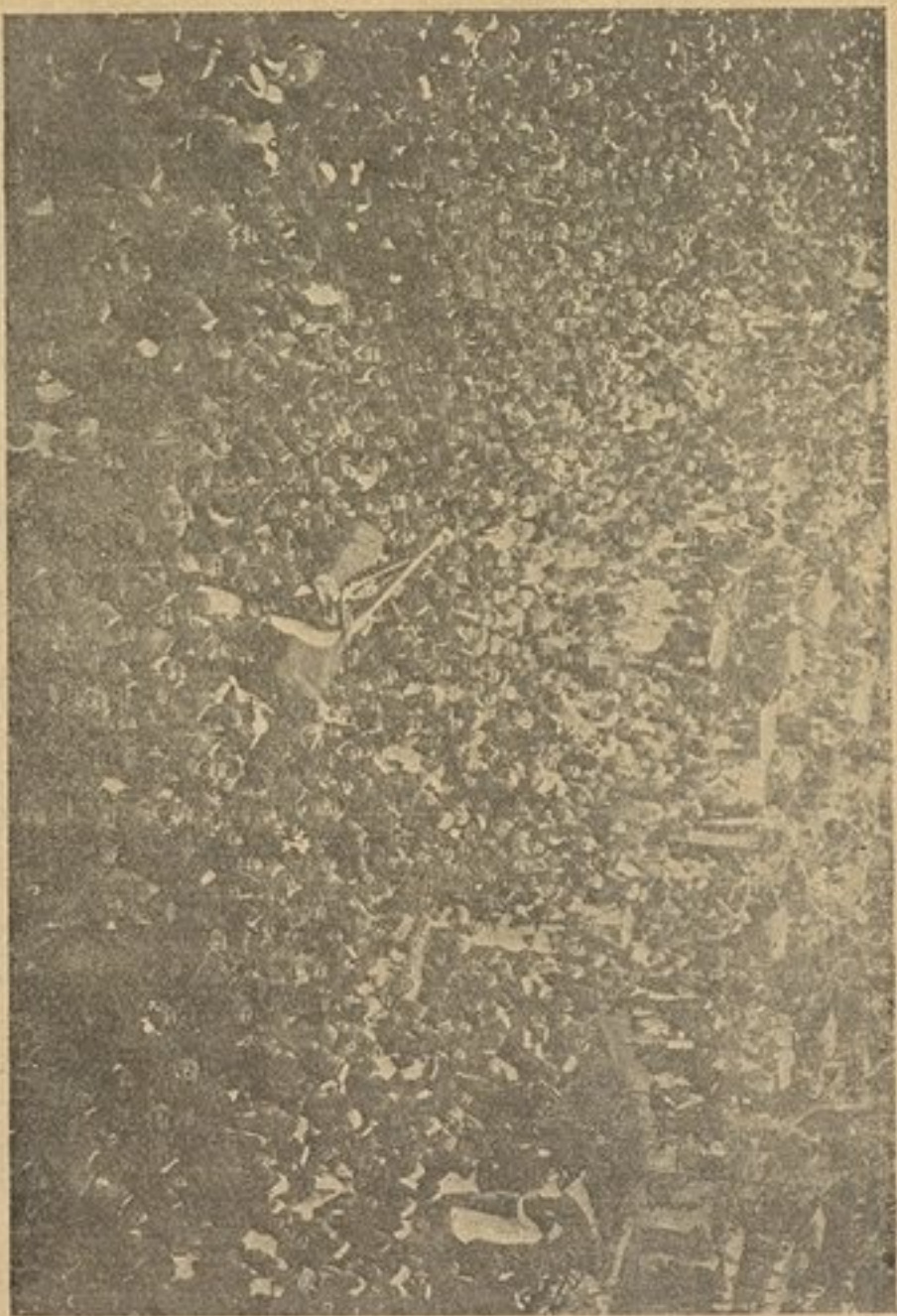
(٢) يريد الانجليز

(٣) استحيا أى نائما

(٤) عليك أى عليك الحزن

(٥) ساهدا ساعرا

(٦) غافيا أى نائما



جنازة المغفور له مصطفي كامل باشا — ١١ فبراير سنة ١٩٠٨

(هذه الصورة وسورتها الاحتفال بافتتاح نادي المبراس العليا أمماها إيتا الأستاذ عبد القصور متولي)
(مضمون اللجنة الادارية للحزب الوطني ومن حقيرة تلاميذ القعيد)

يُفَاشِدُنَا بِاللَّهِ أَلَا تَفَرَّقُوا وَكُونُوا رِجَالًا لَا تَسْرُؤُوا الْأَعَادِيَا
فَرَوْحِي مِنْ هَذَا الْمَقَامِ مِطْلَةً تُشَارِفُكُمْ^(١) عَنِّي وَإِنْ كُنْتُ بَالِيَا
فَلَا تَحْزَنُوهَا بِالْخِلَافِ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ فِي الْخِلَافِ الدَّوَاهِيَا

* * *

أَجَلُ أَيُّهَا الدَّاعِي إِلَى الْخَيْرِ إِنَّا عَلَى الْعَهْدِ مَا دَمْنَا قَتَمَ أَنْتَ هَانِيَا
بِنَاؤُكَ مَحْفُوظٌ وَطَيْفُكَ مَائِلٌ وَصَوْتُكَ مَسْمُوعٌ، وَإِنْ كُنْتَ نَائِيَا
عَهْدِنَا لَا تَبْكِي وَتُنْكِرِي أَنْ يُرَى أَخُو الْبَأْسِ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ بِأَكْيَا
فَرَحَّصْنَا لَنَا الْبِرْمَ الْبِكَاءَ وَفِي غَدِ تَرَانَا كَمَا تَهْوَى جِبَالَا رُوَاسِيَا
فِيَا نَيْلٌ إِنْ لَمْ تَجْرِي بَعْدَ وَقَاتِهِ دِمَا أَحْمَرًا لَا كُنْتَ يَا نَيْلُ جَارِيَا
وَيَا (مِصْرُ) إِنْ لَمْ تَحْفَظِي ذِكْرَ عَهْدِهِ إِلَى الْحِشْرِ لَا زَالَ انْحِلَالُكَ بَاقِيَا
وَيَا أَهْلَ (مِصْرُ) إِنْ جَهَلْتُمْ مِصَابِيكُمْ يَقُوا أَنْ نَجْمِ السَّعْدِ قَدْ غَارَ هَاوِيَا
ثَلَاثُونَ عَامًا^(٢) بَلْ ثَلَاثُونَ دُرَّةً بِجِيدِ اللَّيَالِي سَاطِعَاتِ زَوَاهِيَا
سَتَشْهَدُ فِي التَّارِيخِ أَنَّكَ لَمْ تَكُنْ فَتَنِي مُفْرَدًا بَلْ كُنْتَ جَيْشًا مُغَازِيَا

ثم وقف المرحوم أحمد أفندي حلبي أحد محرري اللواء ومن خاصة تلاميذ
الزعيم، والتي كلمة مؤثرة في وداعه، ثم أنزل جثمان الفقيد إلى مشواه الأخير بين
الضجيج والنحيب، ووضع المشيعون الأزهار والرياحين على قبره، وعادت
الجموع تبكي زعيم الحركة الوطنية، ولبست العاصمة في ذلك اليوم الرهيب
ثوب الحداد العام

رثاء الزعيم وحفلات التأيين

اهتزت البلاد وروعت لوفاة الزعيم، فجادت قرائح الشعراء والأدباء والكتاب
بالمراثي الصادرة من أعماق القلوب، ومن رثاه من أعلام الأدب شوقي بك أمير

(١) تشارفه أي تنظر إليه من علو

(٢) إشارة إلى عمر الفقيد وهو رقم تقريبي لأنه توفي في الرابعة والثلاثين من عمره

الشعراء ، وكان من أصدق أصدقائه وأكثرهم إعجابا به ، وقد حزن عليه حزنا شديدا ، وترجم عن شعوره بقصيدة تجلت فيها حكمة الشعر وروعة البلاغة ، نشرت يوم ٢٣ فبراير سنة ١٩٠٨ عقب وفاة الزعيم بثلاثة عشر يوما ، فأثرت في النفوس تأثيرا عميقا ، وجددت أحزان الأمة ، ونشرها هنا لأنها قطعة من تاريخ الزعيم ، وصورة حية بريشة أمير الشعراء .

رثاء شوقي لمصطفى كامل

(الحياة في الموت)

المشرقان عليك ينتحبان
يا خادم الإسلام أجر مجاهد
لما نعت إلى الحجاز مشى الأسي
السكة الكبرى^(١) حيال رباهما
لم تألها عند الشدائد خدمة
يا ليت مكة والمدينة فازتا
ليرى الأواخر يوم ذاك ويسمعوا
قاصيهما في ماتم والداني
في الله من خلد ومن رضوان
في الرازين ورؤع الحرمان
منكوسة الأعلام والقضبان
في الله والمختار والسلطان
في المحفلين بصوتك الرنان
ما غاب من قس ومن سحبان^(٢)

° ° °

جار التراب وأنت أكرم راحل
أبكي صباك ولا أعاب من جنى
يتسائلون أبا السلال تضييت أم
الله يشهد أن موتك بالحجا
ماذا لقيت من الوجود الفاني
هذا عليه كرامة للجاني^(٣)
بالقلب أم هل مت بالسرطان
والجد والإقدام والعرفان

° ° °

(١) يريد سكة حديد الحجاز

(٢) قس وسحبان خطيبان من أبلغ خطباء العرب

(٣) الجاني إشارة إلى الفقيده ، أى أنه ضحى بحياته وشبابه في سبيل مصر

إن كان للأخلاق ركن قائم في هذه الدنيا فأنت الباني
بالله فتش عن فؤادك في الترى هل فيه آمالٌ وفيه أمانى
وجدانك الحى المقيم على المدى ولربّ حىٍ ميّتٍ الوجدان

* * *

الناسُ جارى في الحياة لغاية ومضللٌ يجرى لغير عنان
والخلدُ في الدنيا وليس بهيّن عليا المراتب لم تُنح لجبان
فلو ان رسل الله قد جبنوا لما ماتوا على دين ولا إيمان
المجد والشرف الرفيع صحيفة جمعت لها الأخلاق كالعنوان
وأحبُّ من طول الحياة بذلة قصرٌ يريك تقاصر الأفران
دقاتُ قلب المرء قاتلة له إن الحياة دقائق وثوان
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمرٌ ثمانى
للمرء في الدنيا وجم شؤونها ماشاء من ربح ومن خسران
فهى القضاء لرأغب متطلع وهى المضيق لمؤثر السلوان

* * *

الناس غادٍ في الشقاوة راحٍ يشقى له الرحماء وهو الهانى
ومنعمٌ لم يلق إلا لذة فى طيها شجنٌ من الأشجان
فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها نعمى الحياة وبؤسها سيبان

* * *

يا طاهر الغدوات والرزوحات والمخاطر والإسرار والإعلان
هل قام قبلك فى المدائن فاتح غازٍ به مهند وسنان
يدعو إلى العلم الشريف وعنده أن المعلوم دعائم العمران
لغوك فى عالم البلاد منكسأ جزع الملال على فقى الفتيان
ما احمر من خجل ولا من ريبة لكنما يسكى بدمع قانى^(١)

يُزجُون نَعْمَكَ فِي السَّنَاءِ وَفِي السَّنَاءِ فَمَكَانَمَا فِي نَعْمِكَ الْقَمْرَانِ
وَكَأَنَّهُ نَعْمُ (الْحُسَيْنِ) « بَكَرِ بَلَاءِ » بِمُخْتَالِ بَيْنِ بَكِيٍّ وَبَيْنِ حَمَّانِ
فِي ذِمَّةِ اللَّهِ الْكَرِيمِ وَبِرِهِ مَا ضَمَّ مِنْ عَرَفٍ وَمِنْ إِحْسَانِ

وَمَشَى جَلالَ الْمَوْتِ وَهُوَ حَقِيقَةٌ وَجَلالَكَ الْمَصْدُوقِ يَلْتَقِيانِ
شَقَّتْ لِمَنْظَرِكَ الْجُيُوبَ عَقَائِلُ وَبَسَكَنَكَ بِالْدمِ الْهَتُونَ غَوَائِي
وَإِخْلُقْ حَوْلَكَ خاشِعُونَ كَهْدِهِمْ إِذْ يَنْصَتُونَ نَخْطَبَةَ وَبَيانِ
يَتَسَاءَلُونَ بِأَيِّ قَلْبٍ تُرْتَقِي بَعْدُ لِمَنْ سَابِرُ أُمِّ بَأَى لِسَانِ
فَلَوْ أَنَّ أوطاناً تُصَوِّرُ هَيْكَلًا دَفَنُوكَ بَيْنَ جِوَانِحِ الأوطانِ
أَوْ كَانَ يُحْمَلُ فِي الجِوَارِحِ مِيتَ حَمَلُوكَ فِي الأَسْمَاعِ والأَجْفانِ
أَوْ صَبِغَ مِنْ غَرِّ الفَضائِلِ وَالْعُلَى كَفَنُ لِبَسْتِ أَحاسِرِ الأَكْفانِ
أَوْ كَانَ لِلذِّكْرِ الْحَكِيمِ بَقِيَّةً لَمْ تَأْتِ بِمَسْدُ رُثِيَّتِ فِي الْقُرْآنِ

وَإِنِّي نَفَرْتُكَ وَلِرَدِي بِكَ مَحْدَقُ وَالْداءُ مَلَهُ مِمَّالِ الْجَمَّانِ
يَبْنِي وَيَطْفِئُ وَالطَّيِّبِ مَضَلُّ قَنِطُ وَساعاتِ الرَّحِيلِ دِوَانِي
وَنَواظِرُ العُودِ عِنْدَكَ أَمالُها دَمْعُ نَعَسِ الْجِ كَتَمَهُ وَتَعانِي
تَمَلِي وَتَكْتَبِ وَالْمِشاغِلِ جَمَّةً وَيَدَاكَ فِي القُرطاسِ تَرْجَمَانِ
فَهَشَّتْ لِي حَتَّى كَأَنَّكَ عَائِدِي وَأَنَا الَّذِي هَدَّ السِّقَامُ كِيانِي
وَرَأَيْتُ كَيْفَ تَمُوتُ آسَادُ الشُّرَى وَعَرَفْتُ كَيْفَ مِصارعِ الشُّجَعانِ
وَوَجَدْتُ فِي ذاكِ الْخِيالِ عِزائِمًا مَا لِلعَنَسُونَ بِدِكَّهِنَّ يَدانِ

وَجَعَلْتَ تَسألِي الرِّثاءَ فَها كِه مِنْ أَدْمِي وَسِراثِرِي وَجِنائِي
لَوْلَا مِغالِبَةُ الشُّجُونِ لَخاطِرِي لِنَظْمَتِ فِئِكَ بِقِيمَةِ الأَزمانِ
وَأَنَا الَّذِي أَرْنِي الشُّمُوسَ إِذا هَوَتْ فَتَعُودُ سِيرانِها مِنَ الدُّورانِ

قد كنت تهتف في الورى بقصائدي وتُجِلُّ فوق النيرات مكاني
ماذا دهاني يوم بَدَتْ فَعَمِي فيك القريضُ وخانني إمكاني
هُونٌ عليك فلا شمات ببيت إن المنية غاية الإنسان
من للحسود بمينة بُلغنها عزت على كسرى أنو شروان
عوفيت من حرب الحياة وحربها فهل استرحت أم استراح الشاني

يا صَبَّ مصرَ ويا شهيدَ غرامها هذا ثرى مصرٍ فم بأمان
إخلع على مصر شبابك غالباً والبس شباب الحور والولدان
فلعل مصرًا من شبابك ترتدى مجدًا تقيه به على البلدان
فلو ان بالهرمين من عزَماته بعضَ المضاء فحرك الهرمان
كحلتَ شبان المدائن والقرى كيف الحياة تكون في الشبان
مصر الأسيفة ريفها وصعيدها قبرٌ أبرُّ على عِظائك حاني
أقسمتُ أنك في التراب طهارةٌ مَلَكٌ يهب سؤاله المَلَكُ

حفلة التابين الكبرى - يوم الأربعاء

أقام الحزب الوطني حفلة تأبين كبرى للفقيد يوم الأربعاء لوفاته (الجمعة ٢٠ مارس سنة ١٩٠٨)، وألف لجنة لتنظيمها برئاسة المرحوم محمد بك فريد، وقد تجدد الحداد على الفقيد في ذلك اليوم، فكنت ترى معظم المحال التجارية مغلقة وعليها علامات الحداد، والأعلام منكسة نجلها شارات السواد، وعربات الركوب موقدة المصابيح مجللة بأشرطة سوداء، والشباب من فتيان وفتيات لا بسين شارات الحداد، وكان محددًا لحفلة التأبين الساعة الثالثة عصر ذلك اليوم بالساحة الواسعة التي تحيط بضرخ الزعيم بمدافع الإمام الشافعي، وكان البرنامج أن يتألف موكب الأربعاء ويسير بنظام من دار اللواء بشارع الدواوين (نوبار باشا الآن) إلى مدفن الزعيم، وهناك ينتظره المدعوون للحفلة، فنذ الساعة ١٢ الظهر أخذت وفود الطلبة وجموع لوطنيين يحشدون في الشوارع المجاورة لدار اللواء، ثم انتظم منهم موكب رهيب

يشبه في عظمتة وعدده موكب تشييع الجنازة ، وسار في نفس طريقها إلى مدافن الإمام ، وتقدمه طلبة المدارس الابتدائية ثم الثانوية ثم الخصوصية ثم العالية ثم الأزهر ، والكل مدرسة عليها ، ثم جمعيات الشبيبة وجماعات الصنائع وجمعيات الأقاليم وجمعية النهضة الوطنية ببو لاق ، تتلوها عربة الفقيد مجللة بالسواد لا يركبها أحد علامة على فقد صاحبها العظيم ، ثم الوفود من أحياء العاصمة والأقاليم ، وبدأ سير الموكب في الساعة الأولى بعد الظهر تماما ، وسار بنظام رهيب حتى وصل إلى المدفن في الساعة الثالثة والدقيقة ٤٥ ، فكانت مظاهرة حداد قومية لم يسبق لها مثيل ، وقد أعد الحزب الوطني مكان الاحتفال بعد أن أزال البناء الذي في تلك الساحة لكي يتسع لعشرة آلاف من المدعوين ، وعند الساعة الثالثة بدأ الاحتفال قبل مجي الموكب ، فافتتح بتلاوة ما تيسر من القرآن الكريم .

خطبة محمد بك فريد

وكان أول الخطباء المغفور له محمد بك فريد رئيس الحزب الوطني ، فألقى الخطبة الآتية

واخوان الأعزاء

• إن اجتماعكم هذا لا كبر دليل وأستطع برهان على أن رئيسنا المرحوم مصطفى كامل باشا لم يميت ، نعم لم يميت من جمعت كلمته هذه الألوف المؤلفة من الناس ، بل هذه الملايين العديدة من الخلائق ، بعد أن كنت لا ترى اثنين يتفقان على عمل ما ، حتى ضرب بتخاذلنا المثل وقالوا إن المصريين اتفقوا على أن لا يتفقوا ، ولكن الفقيد بث هذه الروح الجديدة بين جميع طبقات الأمة المصرية بثباته وعدم تزعزع عزيمته أمام ما صادفه من العقبات ولاقاه من الصعوبات التي أنا أعلم بها من غيري • وضع مصطفى كامل نصب عينيه خدمة مصر وإيقاظها من سباتها منذ كان بمدرسة الحقوق الخديوية بل منذ كان بالمدارس الثانوية ، وسار في طريقه الشريف طريق التفاني في خدمة البلاد ، لا بلوى يمنة أو يسرة ، حتى توج الله أعماله بالنجاح ورأى غرسه يانعاً قبل أن يترك هذا العالم الفاني ، نعم إن مصطفى كامل لم يميت بل روحه ترفرف علينا وتنظر إلينا من المللكوت الأعلى تشجعنا على السير في الطريق

المستقيم الذي رسمه لنا ، ولن نترك هذا الغراس الشريف ، غراس الوطنية الحقة يزول أو يعوقه أى عائق عن النمو ، ولو فعلنا ذلك لارتكبنا أكبر خيانة نحو الوطن المحبوب . إن هذه الفكرة السامية ، فكرة خدمة الوطن حتى الممات ، كانت تملأ جنانه ووجدانه منذ بدأ فى عمله ، فقد كتب لى جواباً فى ٢١ أكتوبر سنة ١٨٩٦ من فيينا قال فى آخره : « إنى مستمر إلى يوم الوفاة على خدمة بلادى ، وإن غيرتى على حقوقها نرداد يوماً بعد يوم ، ولا يتللى من عزمى تهاون بقية المصريين أبداً ، بل إنى سائر إلى الأمام حتى أنزل القبر ، وبعد موتى يكون على روحى واجب الاستمرار وواجب دعوة الأحياء إلى العمل ، أو إن شئت قل واجب إحياء من هم أموات فى قالب أحياء .

• لقد نجح مصطفى فى عمله ، فقد أصبح القوم كلهم أحياء ، أصبح القوم كلهم متفقين على التعاون والتضافر على خدمة هذه البلاد العزيزة ، فاستمروا يا إخوانى فى هذا الطريق السوى ، ولا يقدنكم عن العمل تضييط بعض ضعفاء العزيمة أو انتقاد بعض الجاهلين والمتجاهلين لمقاصدنا الشريفة ، فإن سرنا بعزيمة واتحاد لا يابث أهل القطر أجمعهم أن يصبحوا كالبنين المرصوص يشد بعضنا ونلتنا ما كان يسعى إليه فقيدنا

• وكتب إلى فى جواب آخر من بودابست فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ ردأ على من كانوا ينكرون عليه فائدة عملة قانلا : « ولكنهم جهلوا أن لى روحاً هى من نور الحرية الساطعة لا تستطيع الحياة فى ظلمات الظلم والاستبداد ، جهلوا أن روحى تنادى إلى يوم الممات ما شا كلها من الأرواح الشريفة لتتحد معها على القيام بهذا العمل الشرعى الحق ، وماذا أقول لك وأنت تحس بما لا يستطيع القلم كتابته ، وأنت إذا تلوت هذه الأسطر سألت الدموع من عيذك ، ماذا أكتب وأنا كلما شاهدت هذه البلاد وشاهدت فيها علم الوطنية عالياً مرفوعاً ازداد لهيب فؤادى وتفتت منى السكبد ، هذه أقواله من نحو اثنى عشر عاماً ، فحق لمصر أن تبكيه بدل الدموع دماً ، ووجب عليها أن تقيم له التماثيل فى كل المدن الكبرى ، ووجب على كل مصرى أن

يضع صورته أمامه ليقتبس نور الحرية من خدماته التي كانت أشعتها تخترق الحجب
فتصل إلى أعماق القلوب ، ووجب علينا أن نستنير بما كتبه من المواعظ والحكم
الوطنية ، نعم إن صورته لن تغيب عنا ، بل هي منقوشة على صفحات قلوبنا ، كما
أن أقواله مكتوبة بأحرف من نور على أفئدتنا ، ولكن فائدة التماثيل هي لمن
يأتي بعدنا ولم ير بعينه ذلك الذكاء ولا هاتيك الشهامة التي كانت تنبعث من حياه
فتحرك القلوب الجامدة ، لقد شهد له ألد أعدائه بقوة التأثير بخلاصة منطقته وقوة
حجته ونفوذ روحه إلى نفس المتكلم فيخرج من لدنه مقتنعا معترفا بفضلته إن لم
يكن جهرأ فسرا

• إخواني الأعزاء •

• لقد اجتمعتم هنا لتأبين المرحوم مصطفى كامل وذكر فضائله نظما ونثرا ،
ولكن أتي للشعراء والأدباء أن يوفوه حقه من الثناء والمدح وهو من النوابغ
الذين يبعثهم الله كل حقبة من الزمان لإحياء موات الأمم والقيام بواجب إحياء من
هم أموات في قالب أحياء

• إن أحسن تأبين لفقيدنا المرحوم هو أن نسير في الطريق السوي الذي رسمه
ومهد لنا ، وأن نضم صفوفنا حتى لا يدخل بينها منافق أو مختل ، ونسير كرجل
واحد إلى فتح قلعة الحرية وامتلاك أبراجها ، وتحصينها بالنظام النيابي الدستوري
حتى لا يمكن إخراجنا منها ثانيا ، إن أحسن تأبين لفقيدنا العزيز ترتاح إليها روحه
الشريفة الطاهرة هو أن نبرهن للعالم أجمع أن مصطفى كامل لم يموت وأن روحه
اتحدت بروح كل فرد منا فأصبحنا كلنا مصطفى كامل ونكون بذلك قد حققنا
ما كتبه لي بالجواب السابق ذكره (وبعد موتى يكون على روحى واجب الاستمرار
وواجب دعوة الأحياء إلى العمل)

• فيا أيها الفقيد المحبوب ويا أيتها الروح الطاهرة ، قد تحقق ما كنت تؤمله
وما قضيت زهرة شبابك للوصول إليه ، وأصبحت الأمة بعناصرها الثلاثة مسلمين
ومسيحيين واسرائيليين كلها مجتمعة كرجل واحد متحدة الأفكار والقلوب ،
لا يمنعها من الحصول على وغائبها مانع ، ولا تنقفي في وجهها قوة ، فقوة الأمة فوق

كل قوة ، وأمتنا المصرية قد شعرت بقوتها وتركت اليأس ظهرها اتباعا لقوله رحمه
الله (لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة)

• إخواني •

• قال تعالى في محكم التنزيل : (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا
وتذهب ريحكم) وقال تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا)

قصيدة اسماعيل باشا صبرى

وبعد أن انتهى فريد بك من خطبته تلاه الشاعر الكبير اسماعيل صبرى وطلب
إلى حافظ إبراهيم أن يتلو قصيدته ، فتلاها بصوته الجمهورى قال :

أجل أنا من أرضك خلا موافيا	ويرضيك في الباكين لو كنت واعيا
وقلبي ذاك المورد العذب لم يزل	كما ذقت منه الحب والود صافيا
سوى أنه يعتاده الحزن كلما	رآك عن الحوض المهتد نائيا
ويعثر في بعض الخطوب إذا مشى	إلى بعض ما بهوى فيرجع داميا
وإن رامه مررب المسرات لم يجد	محللا به من لاعج الهم خاليا
ألا عللاني بالتعازي وأقنعا	فؤادى أن يرضى بهن تعازيا
وإلا أعيناني على النوح والبكا	فشانكا شانى وما بكابيا
وما نافعى أن تبكيا غير أنى	أحب دموع البر والمرء وافيا

• • •

أيا (مصطفى) تالله نومك رابنا	أمثلك يرضى أن ينام الليالى
تسكلم فإن القوم حولك أطرقوا	وقل يا خطيب الحى رأيك عاليا
لقد أوشكت من طول صمت وهجرة	تخللك أعواد المنابر فانيا
وتبكيك لولا أن فيها بقية	تعلها من ذلك الصوت داويا
فهل ألفت ما بين جفنيك والكرى	مخالفة أم قد أمنت الأعدايا

• • •

فقدناك فقدان الكمي سلاحه
وبقنا وقد بانت رفاتك في الثرى
ولولا نراث من أمانيك عندنا
طواك الردى طي الكتاب تضمنت
مضاه إذا البيض انتمت لأصولها
ورأى يُجلى اليأس واليأس ضارب
إذا ما تقاضينا ولم تك بيننا
فليتك إذ أعيت كل مساجل
وليتك إذ ناضلت عن مصر لم تفض
وسارى الدياجى كوكب القطب هاديا
سقاها الحيا^(١) تسبطن الدمع هاميا
كريم بكينا إذ بكينا الأمانيا
صحائفه من كل فخر معانيا
غضينا إذا سمالك قوم يمانيا
على الأفق ليلاً فاحم اللون داجيا
ذكرناهما^(٢) حتى تجيد التقاضيا
قويت فلم تعى الطبيب المداويا
مع الحبر قلباً يعلم الله غالبيا

لقد ضاع إخلاص الطبيب وخذقه
ولم تذهز تلك العقاقير فرصة
نحييك سيفاً بات في التراب مغمدا
سدى فبكى الفخر الذى كان راجيا
ترى الناس فيها فضل (بقراط) باديا
تقلده فيما مضى الحق ماضيا

قصيدة حافظ ابراهيم

ثم ألقى شاعر النيل حافظ ابراهيم قصيدته ، قال :

نثروا عليك نوادى الأزهار^(٣) وأتيت أنثر بينهم أشعارى
زَيْنَ الشباب وزَيْنَ طلاب العُلا هل أنت بالمهج الحزينة دارى
غادرتنا والحادثات بمرصدٍ والعيش عيش مذلة وإسارى
ما كان أحوجنأ إليك إذا عدا عادٍ وصاح الصائحون : بدارى
أين الخطيبُ وأين خلأبُ النهى ؟ طال انتظار السمع والأبصار

(١) المطر

(٢) أى ذكرنا المضاء والرأى

(٣) نوادى الأزهار أى الرطبة المبللة بالندى

بِاللهِ مالِكٌ لا تَجِيبُ مَنْادِيَا ماذا أصابك يا أبا المغوار
قُمْ وَاْمَحْ مَاخَطَّتْ يَمِينُ (كرومي) جهلاً بدين الواحد القهار
قد كنتَ تفضبُ للسكنانةَ كلما همتَ وهمَ رجاؤها بعثار
غَضَبَ التَّقَى لِرَبِّهِ وَكِتَابَهُ أو غَضِبَهُ (الفاروق^(١)) للمختار

•••

قد ضاقَ جسمك عن مَدَاكِ فلم يُطِقْ صبراً عليك وأنتَ شُعلةُ نار
أودى به ذاكَ الجهادُ وَهَدَهُ عزمُ يهدُ جلائلَ الأخطار
لعبتَ يمينك باليراعِ فأعجزتَ لعب الفوارس بالقمنا الخطار^(٢)
وجريتَ للعلياءِ تبغى شأوها فجرى القصاهُ وأنتَ في المضار
أو كلما هزَّ الرجاها مهنداً بدرتَ إليه غوائلُ الأقدار

•••

عزَّ القرارُ على ليلةٍ نعيه وشهدتُ موكبهُ فقرَ قرارى^(٣)
وتساقبتُ فيه النعاهُ فطائرُ بالكهرباءِ . وطائرُ بيخار
شاهدتُ يومَ الحشرِ يومَ وفاته وعلمتُ منه مراتبَ الأقدار
ورأيتُ كيفَ تفي الشعوبُ رجالها حقَّ الولاءِ وواجبَ الإكبار
تسعونَ الفأ حولَ نعشك خُشَعٌ يمشون نحتَ (لوائك) السيار
خطوا بأدمعهم على وجهِ النرى للحزنِ أسطاراً على أسطار
أنا يوالون الضجيجَ كأنهم ركبُ الحجيجِ بكعبةِ الزوار
وتخالهمُ أنا لفرطِ خشوعهم عند المصلى يُنصتون لقرارى
غلب الخشوعُ عليهم فدموعهم تجرى بلا كَلْحٍ^(٤) ولا استنثار

(١) الفاروق عمر بن الخطاب ، والمختار النبي عليه الصلاة والسلام

(٢) القنا والرماح

(٣) أى استقرت نفسه بعد أن شهد وفاة الأمة للفقيد في موكب الجنائز

(٤) الكلح العبوس أى تجرى الدموع بطبيعتها بلا عبوس

قد كنت تحت دموعهم وزفيرهم ما بين سليل دافق وشرار
أسمى فيأخذني اللهب فأثني فيصدني متدفق التيار
لو لم ألد بالنعش أو بظلاله لقصيت بين مراجيل وبخار

° ° °

كم ذات خدر يوم طاف بك الردى هتكت عليك حراير الأستار
سافرت تودع أمة محولة في النعش لا خسبراً من الأخبار
أمنت عيون الناظرين فرزت وجه الحمار فلم تلذ بخمار^(١)
قد قام ما بين العيون وبينها ستر من الأحزان والآكدار

* ° °

أدرجت في العلم الذى أصفيتها منك الوداد فكان خير شعار
علمان^(٢) من فوق الرؤس كلاهما في طيه سر من الأسرار
ناداهما داعى الفراق فأمسيا يتعانقان على شفير هارى
تالله ما جزع المحب ولا بكى لنوى مرّوعة وبعد مزار
جزع (الهلل) عليك يوم تركته ما بين حرّ أمى وحرّ أوار^(٣)
متلفتنا متحسراً متخيراً رجلا يناضل عنه يوم فجار
إن الثلاثين التى بك فاخرت باتت تقاس بأطول الأعمار
ضمت إلى التاريخ بضع صحائف بيضاء مثل صحائف الأبرار
شبهتهن ينقطه عطرية وسعت محصل روضة معطار^(٤)
خلقتها كالمشق يحدو حدوها راجى الوصول ومقتنى الآثار

(١) الحمار أى الحجاب

(٢) يريد بالعلمين الفقيه فهو علم الوطنية والثانى علم مصر

(٣) الأسمى الحزن والأوار الظمأ والتعطش أى التعطش إلى الفقيه

(٤) الروضة المعطار هى الكثرة الأزهار والرياحين

ماذا على السارى - وهُنَّ (١) منائر - لو سار بين مجاهل وقفار

o o o

ما زلت تختارُ المواقفَ وعرةً حتى وقفت لذلك الجبار (٢)
وهدمت سوراً قد أجاد بناءه فرعون (٣) ذو الأوتاد والأنهار
ووصلت بين شكاتنا ومشايخ في (البرلمان) أجلة أخيار
كشفوا الغطاء عن العيون فأبصروا ما في الكنانة من أذى وضرار
نبذوا كلام (اللورد) حين تبينوا حنق المغيظ ولهجة الثرثار
ورماهم بمجبلدين (٤) رموهما في رتبة الأصفار لا الأسفار

o o o

واهاً على تلك المواقف إنها كانت مواقف ليث غاب ضارى
لم يَلُوهُ عنها (٥) الوعيدُ ولائسى من عزمه قولُ المريب : حذار
فاهناً بمنزلك الجديد وتم به في غبطة وانعم بخير جوار
واستقبل الأجر الكبير جزاء ما ضحيت للأوطان من أوطار
نعم الجزاء ونعم ما بُلغته في منزليك (٦) ونعم عُقبى الدار

ثم وقف المسبو كولرا رئيس تحرير جريدة الإيجبت وألقى كلمة تأبين بالفرنسية
بالياباة عن الصحافة الأوروبية ، وهنا أقيمت طلائع الموكب . فاشتد الزحام وعظم
التلاحم ، وامتلات المنافذ بالقادمين ، ولما ضاق المكان وعظم تدافع الجماهير قررت

(١) هن إشارة إلى الثلاثين عاماً أى ماذا على السارى فى المجاهل والقفار إذا اهتدى

نور هذه الأعلام

(٢) يريد بالجبار اللورد كرومر الذى كان حكمه مطلقاً فى مصر

(٣) شبه اللورد كرومر بفرعون

(٤) يريد بالمجبلدين كتاب مصر الحديثة للورد كرومر

(٥) أى لم يصرفه عن مواقفه الوعيد والتهديد

(٦) أى الدنيا والآخرة

لجنة التأبين اختتام الاحتفال خوفاً من وقوع حادث من شدة الزحام ، إذ اختلطت
جموع الموكب بالحاضرين ، ونشرت اللجنة خطاب المؤبنين وقصائدهم بحسب
ترتيب ورودهم في البرنامج : محمد فريد بك . اسماعيل باشا صبرى . أحمد لطفى
السيد بك . المسيو كولرا مندوب الصحافة الأوروبية . محمود بك أبو النصر . قصيدة
شاعر النيل حافظ ابراهيم . كلبه الأستاذ أخنوخ فانوس . قصيدة محمد بك أبوشادى
كلبه مندوب طلبة المدارس (الأستاذ محمود خيرت) . كلبه الشيخ مصطفى الفياقى
عن الأزهر . كلبه الأستاذ مرقس بك حنا (باشا) . قصيدة الدكتور السيد بك
رفعت . قصيدة شاعر الفطرين خليل بك مطران (وقد نشرناها فيما بلى) قصيدة
حسن بك حمدى . قصيدة الشيخ سليمان على مطيريد شيخ قبيلة عربان الضعفاء بينى
سنويف . كلبه محمد افندى لمعى المهندس . قصيدة السيدة زينب فواز عن السيدات .
كلبه ابراهيم افندى فهمى عبدالحادى التليذ بمدرسة مصطفى كامل . كلبه على بك فهمى
كامل شقيق الفقيد

هذا وقد أقيمت للفقيد حفلات تأبين عدة في مختلف الأحياء والعواصم والأقاليم

قصيدة خليل مطران

(حق الوطن وحق الإخاء)

أعلى مكانتك الإله وشرفاً فانعم بطيب جواره يا (مصطفى)
اليوم فزت بأجر ما أسلفته خيراً وكل واجد ما أسلفنا
وجزيت من فاني الوجود بخالد ومن الآسى الماضى بمقتبل الصفا

أعظم بيومك فى الزمان ومن له بك واصفاً ذلك الجلال فيوصفاً
حيث الوفود من الملائك اقبلوا حافين حولك فى السرير وعكفاً
ونحملك على الأشعة وارتقوا سيرباً بجوز بك الدرارى موجفاً
فوردت وردك فى الخلود منماً والأرض مائدة عليك تأسفاً

لم تُلّف قبلك أمة في مشهد
يمشون من حول الجنّازة ضائقاً
متشاققين من الوقار وإنما
بحر من الأحياء نعشك فوقه
يبكون في آثاره العَلَم الذي
سعت الخوادر حامراتِ والأسى
ولئن سفرن ولم يَخْلن فانه
فزع الشباب إلى الشيوخ بنارهم
ومن الغضاضة أن دعا داعي العلا
جزع النصارى واليهود لمسلم
بكوا المرحى في خلافٍ عارضٍ
واشدد رُزّه المسلمين وحزّهم
من بعد كتابهم وبعد خطيبهم

من يبرى الإسلام من نهم العدى
يبدى لأعين جاهليه فضله
ويثير من غضب الغضاب لجديه
لكن من أقلام جنديك حوله
ولعل حراً لا يدين به انبرى
قف أيها الناصي عليه جموده
إن يعتر الشمس الكسوف هنيهة
وهل الكسوف سوى تعرض حائل
لم تنزل الأديان إلا هادياً
بشعارٍ حى على الفلاح وما بها
وبكل أمر موجب اصلاحهم

ويردُّ نقد الناقدين مزيفاً
ويزيل ما يلدُّ التناكر من جفاً
هماً تعيد له المقام الأشرفاً
سُمرّاً تهزُّ لكل خطب معطفاً
لينود عنه خصمه المتعسفاً
فلقد تجاوزت الهدى متفلسفاً
أىكون منقصة لها أن تُكسفاً
يثنى أشعتها إلى أن يكسفاً
للعالمين ورا دعاً ومنقفاً
أن قصر الأوقام عنه فأخلفا
أن خالفوه فما استحال ولا انتفى

قد كان للإسلام عهدٌ باهرٌ
ملاً البلاد إنارةً وحضارةً
فالخيرُ كل الخير فيه مقبلاً
يدعو البقاء إلى التكافؤ بالقوى
وانخلقُ جسمٌ إن ألم ببعضه
بشرى البرية بعد مزمنٍ دائها
إن أغضبت تلك السلامة جازراً
يا من نهضت بنصره وأبنته
ما زلت في مصر قديمٍ مناره

مصر العزيزة قد ذكرت لك اسمها
وكأنني بالقبر أصبح منيراً
مصرُ التي لم تحظ من نجباتها
مصرُ التي لم تبغ إلا نفعها
مصرُ التي غسلت يداك جراحها
مصرُ التي كلفت لدد عذاتها
مصرُ التي سقت الجيوش مناقبا
مصرُ التي أحبت بها الحب الذي

حتى مضيت كما ابتغيت مؤلفا
أمنيةً أعبت خلالك دونها
وهي التي لو أقسمت لنما بها

من كان أجراً منك يوم كريمة
من كان أقدر منك تصريفاً لما
من كان أظهر منك خلقاً جامعاً
بالحق لا شكساً ولا متصفا
يعي الحكيم مديراً ومصرفاً
فيه مهيب الطبع والمستظرفاً

من كان أزهـد منك إلا في الذي يجـدى البلاد فتبتغيه ملجأ
من كان أسمع منك منأعاً لما تهوى وميعطاء لغيرك مسرفاً
من كان أصدق منك لا متصلاً مما تقول ولا تعاهد متخلفاً

لطفى على فخر الصبي هادى النهى على اللـواء حتى المرودة والوفا
يا من نعى تلك الفضائل والعلـى أغدت معالمين قاعاً صنفصفاً
لا لا وحقك يا شهيد وفاهـه ورجائه كذـب النعى وأرجفا
ما أنت بالرجل الذى يمسى وقد ملئـه الوجود به ويصبح قد عفا
إنى أراك ولا تزال كـمهدنا بك فى جهادك أو أشد وأشعفا
ثابـر على تلك العـزائم ذائداً عن مصر تضرب فى البلاد مطوفاً
أصدر صحائفك التى تحبى بها نضو الطريق وتدفع المتخلفا
تجرى بها الأنهار وهى دوافق همماً وتوشك أن تطم فنجرفا
وتكاد أسطرها نهب نواطفا ويسكاد يعزف كل حرف معزفا
فاذا حنوت على الحمى متحبيها فهو النسيم وقد ذكا وتلففا
ونكأنا الألفاظ مما خفت نقش المداؤ رسـومها وتخففا
أستام من أئوابها أرواحها وتعاف تحلية لكـلاً تكشفا
قم للخطابة فى الجماع وامتلك تلك النفوس مروعاً ومشففا
أعد القديم من الممالك والقرى ذكرى وعرفنا الحياة لنعرففا
شدد عزائمنا وقاتل ضعفنا حتى نبئت ولا نرى متخوفاً
ما هذه الآيات يرئى لفظها شرراً وتهوى الشهب فيها أحرففا
ما ذلك الترصيع ليس مرصعاً ما ذلك التفويف ليس مفوفاً
وحى بأهـجية إذ ما أطلقت هبطت رواسب عنه والمعزى طفا
تحي حرارتها ويهدى نورها متاهل الإشراق أو متخطففا
تالله ما أنت الخطيب وإنما وقف القضاء من المنصة موقفاً

عن نطقه تقع الصروفُ مواعظاً * وكأمره أمرُ الزمان مصرفاً
يا حيناً لو كلُّ ذلك لم يزلْ * لكنه حُلْمٌ مضى مستطرفاً
والآن نحن لدى نراك نحججه * متلهبين تشـوقاً وتشـوفاً
نثنى وهل يوفى ثناؤك حقه * وبأى الفاظ المحامد يُسكتنى
ماذا يعيضك من شبابك نظمنا * فيك الرثاء منسجماً ومصفاً
ويُعيض منك وكنت جوهرة الحمى * صوغُ الكلام مرصعاً ومزخرفاً
يا أخلص الخالصاء أبكى بعده * كبكاء مصر تحرقاً وتلففاً
هذا مثال لاح برعانا وقد * كشف الجوى عنه الحجاب فأشرفاً
جاد الهلال برسمه تاجاً له * وكسنته ناسجةً الطهارة مطرفاً
كهواك للأوطان فليكن الهوى * لا مفترى فيه ولا متكاففاً
يجرى على قدر المطالب نامياً * ويجلُّ في مجراه عن أن يصدفاً
أنشأت من مصر الشتات بفضله * مصر الفتاة حى يُعز ومألفاً
أحدثت فيها أمة أندى يداً * للصالحات وبالعظام أكلفاً
عرفت أهلها حقيقة قدرهم * وكفاهم من قدرهم أن يُعرففاً
نفحات روحك خامرت أرواحهم * فهم مرامك ساء دهر أو صففاً
حصن أشم تساندت أجزاءه * عرلماً وأمنه النهى أن ينسفاً
فارقذ رقادك إن ربك قد محا * بك ذنب مصر كارجوت وقد عفا

تمثال مصطفى كامل

اتجهت الأفكار منذ وفاة مصطفى إلى إقامة تمثال له تقديراً لجهاد مؤسس الحركة الوطنية، وبدأ الكثيرون بالاكتتاب للتمثال قبل أن تتألف لجنة لإقامته، وقد قدرت الأمة على اختلاف أجزائها فضل الزعيم، فاتجهت الفكرة إلى جعل المشروع قومياً لا يختص به حزب من الأحزاب، لأن مصطفى كامل كان زعيم حركة قومية لا زعيم حزب حسب



تمثال مصطفیٰ کامل
بمیدان مصطفیٰ کامل باشا

فأنلفت لجنة لإقامة تمثاله واجتمعت في ١٦ فبراير سنة ١٩٠٨ برأسة اسماعيل باشا صبرى الشاعر الكبير . ومن أعضائها محمد بك فريد . والدكتور محمد علوى باشا . وحسن بك عبد الرازق (باشا) ومحمود بك أبو النصر . وعلى بك فهمى كامل . ومرقس حنا بك (باشا) والاساذ وبصا واصف . وأحمد بك لطفى السيد (باشا) . ويوسف صديق بك (باشا) . والياس بك عوض (باشا) وفؤاد بك سليم (باشا) . وعبد العزيز فهمى بك (باشا) . وعمر بك سلطان (باشا) . وأحمد بك عبد اللطيف المحامى الشهير ، وأخذت في جمع الاكتتابات للتمثال

وعهد فريد بك نيابة عن اللجنة إلى المسير سافين المثل الفرنسى الشهير بيارىس صنع التمثال من البرونز ، فأتمه في ابريل سنة ١٩١٠ وعرضه في معرض الفنون الجميلة بيارىس لحاز الاستحسان العام ، وهو يمثل الفقيد واقفاً يخاطب مشيراً بيده اليمنى ومركزاً باليسرى إلى تمثال لآبى الهول كأنه يوقفه ، وعلى القاعدة صورة من البرونز تمثل مصر منصبه إلى الخطيب تشير بيدها اليمنى كأنها تطلب من العالم أن ينصت اليه مثلها ، والصورة والتمثال آية في الفن والجمال

ويبلغ ارتفاع التمثال دون قاعدته مترين وثمانين سنتيمتراً ، ويبلغ مع القاعدة ستة أمتار وستين سنتيمتراً ، وقد بلغت تكاليف صنعه ونقله ٢١٢٠ جنيهاً (عشرين ومائة وألفى جنيهه)

وجاء التمثال إلى القاهرة في يناير سنة ١٩١٤ ، على عهد وزارة محمد سعيد باشا . وطلبت اللجنة من الحكومة تخصيص ميدان من الميادين العامة لإقامة التمثال ، ولكن الحكومة صمت آذانها عن تلبية نداء اللجنة ، وظل التمثال سجيناً في مدرسة مصطفى كامل مدة أربع وعشرين سنة ، حتى اقتضت إرادة جلالة الملك العادل فاروق الأول حفظه الله الإفراج عنه وإقامته في ميدان عام من ميادين العاصمة ، فقرر مجلس الوزارة بجلسة أول سبتمبر سنة ١٩٣٨ تنفيذاً للرغبة الملكية السامية إقامة التمثال في ميدان الملكة فريدة (العتبة الخضراء سابقاً) ، وكان لهذا القرار رنة استحسان عام في أرجاء البلاد ، وابتهل الجميع بالدعاء لجلالة الملك أن تم على يديه هذا العمل الجليل ، وعدل مجلس الوزراء مكان التمثال فقرر بجلسة ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٨ إقامته في ميدان (سوارس) مع تغيير اسم الميدان وتسميته ميدان (مصطفى كامل)

حفلة إزاحة الستار

عن تمثال مصطفى كامل - ١٤ مايو سنة ١٩٤٠

وقد بنت الحكومة قاعدة التمثال في ميدان (مصطفى كامل) ونقشت على صدر القاعدة « مصطفى كامل باشا ١٨٧٤ - ١٩٠٨ » ، وعلى الجانب الأيمن منها هذه العبارة المأثورة من كلمات الزعيم « لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة » ، وعلى الجانب الأيسر منها قوله « إن من يتسامح في حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبداً الدهر مزروع العقيدة سقيم الوجدان » ، وعلى الجانب الخلفي هذه العبارة « اكتبتم الأمة بجميع طبقاتها في صنع هذا التمثال سنة ١٩١٠ وفي سنة ١٩٣٨ قررت الحكومة إقامته في هذا الميدان تمجيداً للذكرى » ،

وأقامت الحكومة التمثال على هذه القاعدة ، واحتفلت برفع الستار عنه ، على عهد وزارة علي ماهر باشا ، يوم الثلاثاء ، ١٤ مايو سنة ١٩٤٠ ، في حفلة فخمة تفضل صاحب الجلالة الملك فاروق بحضورها ، وأتى علي ماهر باشا بين يديه الخطبة الآتية

خطبة علي ماهر باشا

« مولاي صاحب الجلالة

« تفضلتم جلالتم بتشريف هذا الحفل بالحضور ، وهذا حادث له مغزاه وروعته . وليست هذه أول مرة نرى فيها ملك البلاد حفظه الله ورعاه ، يعنى بمصالح هذا الشعب ويعمل على مشاركته في عواطفه

« وإذا كانت يد المليك سترفع الستار عن تمثال مصطفى كامل باشا فقد رفعته عن ماجد محض كان سجيناً فأفرجت عنه

« مولاي : جئنا لنحي تمثال مصطفى ، فلنقف هنيهة خاشعين أمام الذكرى

« كلما ذكر مصطفى ، ظهر اسمه في هالة من المجد ، وانتشر ذلك النور الساحر الذي يملأ النفوس رهبة وإجلالا



جلالة الملك يجذب الحبل الحريري الذي يرفع الستار عن تمثال مصطفى كامل - ١٤ مايو ١٩٤٠

« في هذه الساعة يطيب لنا أن نجتمع في ظل المبادئ التي أفتى نفسه وجسمه في سبيلها ، في ظل الإخلاص الذي مات عليه فأحيا أمة ودفع شبابها إلى ميادين الكفاح والعباد ، نجتمع أمام ذلك التمثال الذي يحرك النفس وهو صامت ، لأن جلال التاريخ وجلال الذكرى في شخصه يلتقيان

« كان مصطفى أول من حمل لواء الحرية بعد أن طوى زماناً ، وكان أول من صاح تلك الصيحة في طول البلاد وعرضها ، صيحة التضحية ، صيحة الحرية ، صيحة الحب ، صيحة الحياة : « بلادى بلادى لك حبي وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمي ونفسي ، لك عقلي ولساني ، لك حبي وجناني ، أنت ، أنت الحياة ولا حياة إلا بك يا مصر ، « مولاي : نقرأ اليوم خطب مصطفى ، فلانترى فيها أثر البلاغة والتنميق ، ذلك أن بلاغته كانت روحانية بلا جسم ، ليست بحاجة إلى صلة أو سبب مادي لتصل إلى النفوس وجوها

« ذلك أن حياة مصطفى قصيرة . لم تكن كحياة غيره من الزعماء والقادة ، سلسلة أعمال تو صف وتحال ، وإنما كانت هذه الحياة كلها ، التي تعلو على كل حصر

وتحليل ، صوتاً يخيل إلى سامعيه أنه يهبط من السماء ، صوتاً كصوت الماضي ، رن في الوادي فانتبه ، ولا تزال أصدائه تتجاوب وتمتد بعد الموت

« وقد كان مصطفى يجمع بين إقدام الشباب وازن السكحول في الفسك
« وهذه المبادئ التي استمدتها من وحي الوطن واتخذها شعاراً لجهاده قد دلت
التجارب والمحن على أن راسمها كان بعيد النظر سليم التفكير

« كان مصطفى مقداماً ، يخلق الحماسة ويتعهد لها لأنه يعلم أن الحماسة في حياة
الأمم تنزل منها منزلة الروح من البدن وأن الشعب إذا غابت عنه الحماسة غابت عنه
الحياة ، فكان يعمل ليله ونهاره كاتباً وخطيباً على تغذية العاطفة الوطنية وإيقاظ
الجمهير التي كان يجذبها بشخصه وإيمانه وشجاعته

« كان مصطفى يحمل في قلبه صورة الوطن الحى أنى سار أو أقام ، فكان قلبه
مقتدراً على جمع القلوب ، تخفق كلها خفق ، وتشاطره حمل السراء والضراء وكان
الشباب - شباب الوادي وعدته - جنوده المجندة تأتلف وتلتف حول لوائه ،
وكان هو قائدها وهاديا

« كان مصطفى شعلة ذكاء وحماسة ، وكان خير محام عن خير قضية ، وكان في
دفاعه يهب لنصرة الحق والعدل ، وكان جلدأ على الكفاح ، لا يبرح يناضل حتى
يصرع الباطل ويرمى السهم في مقاتله

« وقد صبر وجاهد واحتمل الأذى في سبيل مصر ، في سبيل النيل وواديه ،
في سبيل تلك القرى والمدائن الجاثمة في حضن الوادي ، في سبيل ذلك الأفق الضاحك
بين جنات النخيل والأعناب ، بين هزج السواقي وأغانى الفلاح

« وقد تغلغل حب مصر في فؤاد مصطفى ، لأن حبه كان صادراً عن عاطفة
وعقل وعلم ، وكان ذلك الحب لا تشوبه شائبة من مطمع في مادة أو جاه

« كان مصطفى مصرياً صميمياً يحب مصر وفلاح مصر حافظ كيانها
« ذلك الفلاح الذي هو نحن وأتم ، الذي هو مصر من طيبة إلى الفسطاط والقاهرة ،
والذي طبع البلاد بطابعه ، وانضمت كتلته على الغزاة ، فأنت شخصيتهم في ثناياها
« وقد كان المصريون في أدوار تاريخهم سلسى القيادة لسكل زعيم يخرج من
صفوفهم ، ويعرف كيف يسوسهم ، ويتخذ لنفسه نقطة ارتكاز في قلوبهم وفي صميم



على قاعدة تمثال مصطفى كامل

يوم إزاحة الستار عنه - ١٤ مايو سنة ١٩٤٠

وترى في الصورة : الدكتور اسماعيل صدق بك . عبد الرحمن الراقعي بك . محمود خيرى باشا .
محمد محمود جلال بك . الأستاذ عبدالمقصود متولى . الأستاذ حسن حسنى كامل . عبدالملاك حمزه بك .
انطون الجليل بك (باشا) . الأستاذ محمود العمري . الأستاذ حسن شافعي الجيزاوى . اسماعيل
العسيلي . على على بسيونى . شعبان الكاتب . على فهمى خليل . حسين رضى . الدكتور يحيى الدردبرى .
الدكتور منصور القاضى . الدكتور نصر فريد بك . محمد على المهندس الخ ..

إحساساتهم وعواطفهم ، وفي شجاعتهم وإيمانهم ، وفي أرضهم ولغتهم ، وقد ولد مصطفى في مصر ، وحك جلده بأرضها الغراء طفلاً ، ونشأ حراً ، وعاش حراً ، وهانحن أولاء نقف أمام تمثاله ويخيل الينا أن الحياة تدب وتتوثب في كل ذرة ساكنة منه ، وأن وراء هذه المادة قوة خفية تدفع الشعب إلى غاياته الكبرى . مولاي : في هذا اليوم الذي تتطاحن فيه الأمم ذوداً عن كرامتها ، وتدعيها لشخصيتها وحرّياتها ، نقف أمام تمثال مصطفى . في حضرة المليك ، وقد اجتمع العرش والأمة في صعيد واحد ، لا يفصلها جدار ، متعاونين متساندين في سبيل إعلاء كلمة الحق . مولاي : مات مصطفى فكان موته أول شاهد على تغلغل الروح الوطنية في مختلف الطبقات ، وأول دليل على أن في هذه الأمة قوة بل قوى حويية كامنة ، إذا وجدت من يحركها ويتعهدا ، أتت بالمعجزات

فلنذكر مصطفى . ولنظف بتمثاله ، ولناخذ من موته معنى الحياة والحرية والأمل . مولاي . انه وان لم يتحقق أمانى مصطفى كلها إلى اليوم ، فإننا لا نشك لحظة في أن هذه الأمانى ستتحقق على أيديكم ، فقد أعلن الاستقلال في عهد والدكم العظيم فؤاد الأول . وستكمل في عهدكم الزاهر بإذن الله دعائم هذا الاستقلال وتتوطد ، إذ يجد من يقظتكم ورعايتكم وإخلاص شعبكم الملتف حولكم كل تضحية وتأييد ، وحسب الشعب في جهاده أن يجد سناده في العرش ، كما يجد العرش في الشعب سناده ، وقد قوبلت هذه الخطبة بالتصفيق في شتى مواضعها ، وعلى أثر إلقائها نهض جلالة الملك ، وسار صوب التمثال ، فجذب شريطاً متصلًا بالستار ، فانشق عن التمثال الزعيم العظيم ، ودوى التصفيق في جنبات سرايق الاحتفال ، قردهته الجماهير المحتشدة التي تجمعت خارج السرايق

مقتطفات من أقوال الشعراء والكتّاب

لمناسبة حفلة إزاحة الستار

قصيدة خليل مطران

تحية الشعر

أمنوا بموتك صولة الرئبال ماذا خشوا من فتنة التمثال
حبسوه عن مقل إليه مشوقة فاضت أسى ودموعهن غوال

حتى أرادت مصر غير مرادهم
أتهى استقلال قومك جاهدا
انصفت بعض الشيء بل هي توبة
فلقد توب وجد غيرك عاثر
ياحسن عودك والسكنانة حرة
أبروعك الحشد الذي بك يحتمى
ماذا بثت من الحياة جديدة
بعث لموطنك العزيز رجوته
خاطرت فيه بالشباب وبذله
سرف لمطلوب بعيد منال

« * »

أي مصطفي ا ولت سنون وما اشتقى
عجب بقائي بعد أكرم رفقة
هم صفوة الدنيا وكانوا صفوها
حزن بعيد الغور في قلبي فإن
ماذا أقول وهذه أسماؤهم
تعتادني في مسمعي أو ناظري
اني لأحفظ عهدهم وأصونه
وكان حسي حسهم فرحا بما
كم في مغارسهم جني ألفيته
سلوى أتاحها مآثرهم وقد
وكذاك مجد العبقريّة والفدى

« * * »

لو كان يتصف امرؤ بكال
غير المسكاره فيه والأهوال
عانيت في الغدوات والأصال
من جهد أيام وسهد ليالي

أي مصطفي ما كنت إلا كاملا
ماذا لقيت من الصبي ونعيمه
اني شهدت شهادة العينين ما
متطوعا تسخو بما يفنى القوى

إذ قمت بالأمر الجسام ولم يكن
حال التورع دون إغراء المنى
والقوم في ظمأ ووعدك مطمع
تسعى ويعترض السبيل قنوطهم
فتظل تضرب في جوانبه وما
لك دون ما تبغى مضام مصمم
حتى إذا وضع اليقين وصدقت
فثويت أظهر ما تكون على عدى
فيمن أهبت بهم مجيب سؤال
زمننا نما من مسعد وموال
لكن يرون له رفيف الآل
في كل حل منك أو ترحال
تلقى إلى نظر الخبيرط بيال
لا ينثنى ، وبلاء غير مبال
دعواك آية ربك المتعالى
مصر بعقبى دائك المغتال

...

هزت منيتك البلاد ولم تكن
فالقوم من جزع عليك كأنهم
كشف الأسى لهم الحجاب فأيقنوا
وتبينوا أن الخنوع مهانة
لله حسن بلائهم لما أبوا
وتوثبوا بعزيمة مصدوقة
يردون حوضا والمنيايا دونه
حتى اتبج الفتح يجلو حسنه
فتح بدا اسمك وهو في عنوانه
أبها شهيد الحب للبلد الذى
أبهج بأوبتك السنية طالعا
المذكر آفاق سحيقات المدى
فاذا دنت منا فتلك عوالم
تطوى من الأدهار مالا ينتضى
أنوار وجهك طالعنا اليوم من
قد اثبتنا مصر بين عيونها
بأشد منها هزة الزلزال
آل وقد رزثوا عزيز الآل
أن الحياة مطالب ومعال
لا يستطال بها مدى الآجال
متضافرين دوام تلك الحال
برئت من الأحقاد والأوجال
مستبسلين ضروب الاستبسال
في يومه إحسان يوم خال
متخضبا بدم الشباب الغالى
لا أنت ساليه ولا هو سال
في أفقه كالكوكب المتلالى
ولزهرها المتألقات مجال
وإذا نأت عنا فتلك لآلى
وتجول في الأفكار كل مجال
برج حلتك به لغير زبال
فالحال متصل بالاستقبال

نعم الثواب لذى مآثر فى الفدى فرضت محبته على الاجيال

...

فتيان مصر وعهدا غير الذى عانت فى الأصفاد والأغلال
حيوا مدبل حياتها من بأسها ومذال الآلام للآمال
حيوا زعيم اليقظة الأولى بها وخطيب ثورتها فى الاستهلال
هدى مواكبها وتلك وفودها فى ماتقى ذى روعة وجمال
حفلت برمز نهوضها ومثاله ما لا تدانى صنعة المثال
لكنها مهج بفته ولم تكن الا ذرائعها فضول المال
وكفاه فخرا أن ذاك المبال لم يك مكس جاب أو تطول وال
رسم يلوح وفيه معنى أصله فيروع بين حقيقة وخيال
لأن الحديد له فصاع لعينه أثرا على الأيام ليس ببال
كم فى بليغ سكوته من عبرة أوفى وأكفى من فصيح مقال
هو خالد ويظل مدره قومه فى كل نازلة وكل نضال
عطف المليك وقد أماط حجابيه رفع المقام إلى مقام جلال
أعلى الملوك مكانة أرقام لمكانة العلياء والأبطال
فاروقنا المحبوب يقرن عهده بالحزم والإنصاف بالإجمال
ليعيش سعيدا بالغنا من دهره ما شاء من عز ومن إقبال

كلمة الأستاذ محمود العمري

رسالة مصطفى كامل

اليوم ، إذ يحتفل المصريون برفع الستار عن مصطفى كامل ، إنما يحتفلون
بصفحة من أجد صفحات تاريخ مصر الحديث

اليوم يسجل المصريون صفحة مصطفى فى تاريخهم الرسمى بعد موته بما يقرب
من ثلث قرن ، وهى مرحلة من الزمن ، إذا أصدر الشعب حكمه ، كان صادقا غير

مؤثر بدعوة من الدعوات ، وإذا حكم التاريخ بعدها لإنسان فأنما يكون ذلك لأنه
صعد بعقيدته إلى مستوى الحقائق الأبدية التي لا يحدها زمان ولا مكان

ولو كان مصطفى رجلا كسائر الرجال الذين كما ينسى المرء أعزاه ، ولو كان
رجل جيل معين أو مرحلة معينة لعصفت به رياح الزمن ، ولسكنه رجل أمة ،
والأمة وحدة تاريخية تشمل الأمس واليوم والمستقبل الذي لانهاية له ، بل هو
رجل جميع الأمم ، إذ لا يصح في إحداها مالا يصح في غيرها من شدياتها مادامت
حديرة بأن تسمى أمة

وكيف يسمع المصري قول « سمجلى ريدز » قبيل الحرب مخاطبا هتلر : « إذا كان
عليك واجب نحو وطنك فلتعلم أن على أيضا واجبا نحو وطني » ، ثم لا يشعر وكأنه
يسمع قول مصطفى كامل إذ يقول : « إذا كان أنصار التوسع في سلطنة إنجلترا ومد
نفوذها في الآفاق يريدون جعل سيادتها عامة فكيف يجد البعض من الأمور الحارقة
للعادة مطالبتنا باستقلال وطننا ؟ »

ثم كيف يشاهد بطولة الفنلندي والبولندي ووطنيتهما ولا يشعر بالفخار لقول
مصطفى في « اللواء » سنة ١٩٠٤ حاثا على حب الوطن : « انظر تجد البولندي وقد
مزق وطنه وعلت فيه كلبة دول ثلاث ، يجد ويعمل مفكرا كل يوم بل كل لحظة في
بولندا ، يذكر تاريخها ويبكي أيامها الحالية ، ويربي ابنه على حبها والتمسك بحقوقها ،
والفنلندي وقد لبس ثوب الحداد هو وبقية ذويه يوم قررت الروسية ضم جيش فنلندا
لجيشها ونحو بقية استقلال هذه الأمة »

لم يجد مصطفى مبلغ حب الوطن بمقدار ما في الإمكان عمله في خدمته ، إذ أن
الوطن صورة روحية ، ولا سبيل للقوى المادية إلى النيل من الوطنية الصحيحة ، فإذا
عجزت الأمة الرشيدة عن الوصول إلى حقها لم تقل عن المرحلة التي لا تتخطاها
جهودها في وقت معين إنها محط آمالها وغاية الوطنية ، على حد قول القائل « إذا لم
يكن ما تريد فأرد ما يكون »

ولم يقف بحق بلاده عند ما يميله عليه إدراك معاصريه ، بل عمل على رفع مستوى

هذا الإدراك إلى مستوى رسالته ، وكان مؤمنا بمنطق الوطنية الذي يجعل حق الوطن كحق الفرد لا ينتهى إلا عندما يكون فيه حد لحقوق وطن آخر

نشرت النيويورك هرالد للسيو سيمون في سنة ١٨٩٧ مقالا عن مصطفى كامل جاء فيه : « إن الوطن بيننا نحن الأورويين الراقين عظيم جليل محترم ، مفضل على الحياة والمال والولد ، فما بالنا نحتقره عند غيرنا ولا نود إلا أن نحتكر العواطف الشريفة لأنفسنا ،

وقد علقت الجريدة على هذه الرسالة بكلمة جاء فيها : « ومن عرف أن مصطفى كامل ليس بغنى كبير ولا وزير حكومة ذات سلطان ، قال معنا إنه نابغة ككل عظماء الرجال الذين يهيمهم التاريخ من حين إلى حين ، إلى الأمم المضطهدة المظلومة لهدوها طريق السداد ، وإنه إذا كان المصريون إلى اليوم في نظر الساسة لا يستحقون ما يتغوننه فأننا نؤكد من جديد أن مصطفى كامل الذى حادثه مرسلنا فى الاستانة فى العام الماضى ، لا يقل علما عن أعظم سياسى فى أمريكا وأوروبا ، ولكن لسوء حظ مصر أنه جاء فى الزمن الذى بلغ فيه حب الحياة المادية مبالغا عظيما

لقد تصدى مصطفى كامل لما لم يتصد له الذين وقفوا موقفه من الأمم الأخرى إذ كان عليه أن يدعو إلى تشييد كل شىء فى صرح الوطنية . لذا كانت دعوته شاملة قام فيها بكل مقومات الحركات الوطنية بما يضطلع به فى تلك الأمم رجال عديدون فى مختلف نواحي نهضتها ، فبعضهم ينهض بالتعليم الوطنى ، وبعضهم الآخر ينهض بالأدب الوطنى وفريق ينهض بالفنون ، وآخرون ينهضون بالإصلاح الدينى أو الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى . ثم تلتقى هذه الجهود جميعها عند غاية واحدة هى النهضة الوطنية العامة

نعم كان على مصطفى كامل أن يقوم بما تقوم به أجيال فى مختلف النواحي . فهو شاعر مصر الوطنى ، يتغنى بجمال منظرها وإعتدال جوها ، ويزداد هيامه بها كلما اشتدت عليها المحن ، وكأنه قرأ ما قاله الشاعر الانجلىزى العظيم : « أحبك يا انجلترا على كل ما فىك من عيوب ، فكان يقول : « هل الوطنية فضيلة هناك ورذيلة هنا ؟ هل انجلترا أحق بحب بنينا من مصر ،

وهو المشبه لمصر بالأم المريضة وحوّلها ابتاؤها تقول لهم : الافاسعفوني ،
وبالدار شبت فيها النيران تنادى بلسان الحال أربابها أن اتحدوا في إطفاء اللهب

وهو مربيتها الوطني بلسانه وقلبه ، وبالذعوة إلى توجيه التعليم إلى المثل العليا التي
لا يسكون بدونها تعلما ، وإلى إنشاء الجامعة والحث على الإكثار من المدارس لتعليم
الشعب ، قائلا : « إن بين أبناء الفقراء الذين سدّ الاحتلال في وجوههم أبواب
العلم والتور ، رؤوسا لو تحملت بالعرفان لسكانت فخر مصر إلى أبد الزمان . وليذكر
ذوو الاحساس والوجدان أن في مصر كنوزا لم تستخرج للآن ، وأنها لو أخرجت
للناس ملأت الأرض نورا ، وأن هذه السكنوز مدفونة في بيوت الفقراء ، وهو
مؤرخ مصر الوطني يذكر أبناءها كل آن بمجدها السالف وبتراث الآباء والأجداد

وقد حصل مصطفى كامل على نصيب وافر من الثقافة الغربية ، أتاح له وهو
شاب أن يخطب ساعات باللغة الفرنسية ويسكتب الافتتاحيات في أمهات صحف
فرنسا ، فلم يدفع به إمامه بمدنية الغرب إلى حب الفناء في دولة من دوله . بل كان
نما قاله : « لاجرم أن أنفع درس يحتاج إليه المصري من أوروبا هو الوقوف على
قوة الإحساس الوطني في البلاد على اختلافها ، فأهل تلك البلاد على تفرق مشاربهم
وأهوائهم يحبون بلادهم حبا شديدا ، ويستقبل الفرد منهم الموت في سبيل خدمة
بلادهم راضيا مسرورا ، ، وهكذا لم يقل في قرارة نفسه : هذه بلاد عظيمة فيجب
أن أكون عبدا لها ، بل قال بلسان الحال والمقال : هذه بلاد عظيمة فلا بلغن بوطني
ما بغلت من رفعة وعلو شأن

ولهذا كان أكبر المناضلين عن الإسلام بقوة بيانه ، وكان فخورا بمصريته
وبأنه « ابن ضابط شهيم من أبناء الفلاحين ، ، وبما قاله في اعترازه بقومه : « يرى
السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصري مما لا يليق ،
يانسان ، ولكن أي شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لإحياء أمة سبقت
كافة الأمم ؟ ، ، وقال أيضا إن الوطنية تظهر فيما يعانیه الوطن من الشدائد
لا في الرخاء

كان مصطفى كامل يملك نفسه في مواقف الشدة . فأقام على من يتهمونه بالتطرف أقوى الحجج ، على أن هذا التطرف لم يكن إلا التمسك بحقوق الوطن وأنهم لم يقصدوا بكلمة الاعتدال إلا التساهل في هذه الحقوق

كان يهيب بالقوم إلى خدمة بلادهم خدمة ايجابية ويحث فيهم أنه لا يسكنى في شرعة الوطنية أن لا يؤذى الانسان وطنه ، بل إن المرء لا يسكون بريئا من ذنب تأخر بلاده إلا إذا عمل على رفعها ، وأن كل مصرى مسئول عن مصر ، وأنه لا يليق بأى انسان أن يقول إن هذا النصح صحيح ولكنه موجه إلى غيرى ، إذ الوطن موجود في ضمير كل شخص

قال رداعلى بعض من خشوا ألا تكون رسالته قد نفذت إلى قلوبهم لانها رسالة عقيدة : « يقول البعض إن المناداة بالوطنية كلام فى كلام ، ونسى ذلك القائل أن أهم الأعمال البشرية وأرقى الجهود الانسانية تنحصر فى إدخال عقائد جديدة فى النفوس ، لأن العقيدة تحرك الجبال ، ومن قال ضد ذلك فقد أنكر الديانات وتأثيرها ، والتاريخ وأحكامه ، والعوامل الفعالة فى الشعوب كلها ،

ولقد أصبحنا اليوم نذكر بذكر مصطفى كامل جميع الحقائق التى لمسناها فى شئوننا ، فاذا نظرنا فى أحوالنا الاقتصادية ، رأينا المصلحة الوطنية ماثلة أمام أعيننا وإذا تصدينا لشئون التعليم وجدناها لا تستقيم فى غير الوضع الوطنى . وإن الفرد إذا أراد فى أية ناحية من نواحي الحياة ، أن يرفع من شأن نفسه لم يجد لذلك سبيلا إلا برفع شأن الوطن .

محمود العمري

قصيدة أحمد محرم

هذا الذى شرع الجهاد لقومه

هتف البشير به ، وحن الحين فأضاء وجهه ، واستنار جبينه
وبدت مواكبه حسانا طلقة فشد اللبيب ، وغرد المحزون
ويحى ، أنت انشق قبرك فانقضى عمت الخطوب ، ورأى المأفون

إن غبت عن نظر العيون هنيهة
ماذا تظن بك البسلاد وأهلها
من أطلق الأفكار من أوهاما
أو لم يقولوا : نكبة نزلت بنا
إله جنود حوله محشودة
فاروق ، ألهمت النفوس رشادها
عرفتك مصر ، لها ، ما ليكا صالحا ،
بك فاروق ، العاني المكبل ، سجنه
هذا الذي بعث الشعور ، وبثه
نادى : بلادي ، فاستجابت أمة
تبغى الحياة عزيزة ، ويغريها
أبت القعود مع الخوالب بعد ما
ومضى ، يذود اليأس عن آمالها
هذا الذي شرع الجهاد لقومه
إن المضلل في الحياة لمن يرى
هي ما رأيت ، فكل شيء دونها
فاروق ، أعطيت الكنانة ، سؤلها
لك في رقاب الناهضين بحقها
إن يبتغوا أمراً ، فأنت محقق
إنا وفينا للبلاد ، فلم نخن
نسخو بأنفسنا ، نريد حياتها
زالت على يدك الظلامه ، فانجلمت

فقلوبنا الحرى عليك عيون
تلك القيامة ، لو يسكون يقين
أيظل طول الدهر وهو سجين
هيات يكشفها ، قتي مفتون ،
وبوارج مبثوثة وسفين
فأرت حياة الجدد كيف تكون
يحمى حقوق حمايتها ، ويصون
فرحا ، وأدرك حقه ، المغبون ،
ملء ، الكنانة ، والشعور دفين
ليست بغير هوى البسلاد تدين
أن يستباح من الليوث عرين
أخذ ، اللواء ، القائد المأمون
ويعلم الأحداث كيف تلين
فهدى الكتائب نهجه المسنون
أن الحياة وساوس وظنون
إن كنت تسكره أن تضام يهون
ولأنت بالصنع الجميل قمين
عند الحفاظ صنائع وديون
أو يطلبوا نصراً ، فأنت ضمير
والدهر يظلم والخطوب تخون
إن صد هباب ، وكف ضنين
لا زال عنا عهدك الميمون

جوائز مصطفى كامل

(١) المباراة الأدبية

لمناسبة حفلة إزاحة الستار عن تمثال (مصطفى كامل) تبرع الوطني الكريم الأستاذ محمد محمود جلال بمبلغ خمسين جنيها تعطى مكافأة لمن يحوزون قصب السبق في مباراة أدبية موضوعها (جهود مصطفى كامل في نواحي النشاط الإنشائي القومي وبخاصة في التعليم والاقتصاد والاجتماع وعلاقة ذلك بدعوته الوطنية) ، وكانت شروط المباراة (١) أن يكون المشترك فيها شابا مصرية لا تزيد سنة عن ثلاثين سنة (٢) أن لا تزيد السكتابة في موضوع المباراة عن عشر صحائف من القطع الكبير (٣) أن تقدم المواضيع إلى لجنة المباراة التي ألفت من : أنطون الجميل بك . عبد الرحمن الرافعي بك . فكري أباطه بك . الأستاذ محمود العمري . في مدة ثلاثة أشهر من تاريخ الإعلان عن المباراة . وقد وزعت الجوائز في حفلة فخمة أقيمت يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٤١ ، وهو يوم الذكرى الثالثة والثلاثين لوفاة الزعيم ، وفاز في المباراة كل من الأستاذ نجيب تاوفيلس الموظف بمصلحة السكك الحديدية . علي منصور الطالب بكلية الحقوق . الأستاذ لييب السعيد الموظف ببنفيتش مراقبة القطن بالدقهلية . الأديب محمد الخالد توفيق بنى مزار

(٢) جائزة كلية الحقوق

وتبرع حفظه الله بجائزة أخرى (سنوية) قيمتها عشرة جنيهات سميت (جائزة مصطفى كامل) تمنح كل عام لأول ناجح الليسانس في الدور الأول لكلية الحقوق وهي الكلية التي بدأ بها الفقيه دراسته العليا ، وأرسل إلى عميد الكلية خطابا بذلك وأرفق به صورة الاعتماد الذي خصصه ببنك مصر عن قيمة الجائزة وبموجبه يصرف المبلغ في شهر مايو من كل عام ، فورد إليه خطاب رقيق من حضرة العميد مع قبول هذه الجائزة الكريمة

(٣) جائزة كلية تولوز

وتبرع أيضا بمبلغ ألفي فرنك لأول الفائزين في سنة ١٩٤٠ بكلية الحقوق

بتولوز ، وهى الكلية التى أتم فيها الفقيد دراسته ونال منها شهادة الليسانس سنة ١٨٩٤ وكتب بذلك خطاباً إلى وزير فرنسا المفوض فى مصر وأرفق به قيمة الجائزة فتلقى خطاباً من الوزير المفوض بقبول الجائزة وشكره على هذه المبرة

كلمة الأستاذ محمد محمود جلال

فى حفلة المباراة

وإنا نأشرون هنا كلمة الأستاذ محمد محمود جلال التى ألقاها فى حفلة المباراة الأدبية . قال :

سادق الأجلال - أيها المتسابقون النجباء

حفظنا عن أستاذنا وزعيم الوطنية مصطفى كامل ، أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بجهودها وأن الروح الوطنية إذا تمسكت من كل مصرى فتحت المدارس العلمية وظهرت آثار النخوة والهمة والتضامن فى كل جهة وناحية ، واتحدت الأمة فى الغايات والمقاصد وازدادت ثروتها فى المال والعلم والوطنية والوثام ، وإذا استجبنا بتوفيق الله إلى هذه الدعوة وهديت لها قلوبنا ، وصبغت عليها أرواحنا ، فإنما إليها يرد الأطراء الذى شرفنى به زملائى وأصدقائى ، لأن ما فكرت فيه وما قمت به نتيجة طبيعية لاستيعاب هذه التعاليم التى مكنتها تضحيات فريد وأخلاق فريد ، فرحمة الله فى كل مناسبة على البطل الخالد الذكر ، مصطفى كامل ، لقد استخرت الله قاصداً من هذه المباراة إلى تسابق الشباب من هذا الجيل إلى كدح أذهانهم وتوجيه أبحاثهم فى سبيل المثل العليا واضحة الصورة فى مصطفى كامل وهى الوطنية الشاملة التى طبع الله عليها روحه

جاءت هذه الكلمات على لسان مصطفى كامل لآخر عهده بخطاب جامع ، فكانت وضية لها قيمتها وخلودها . كشف لنا كيف كانت الوطنية التى دعا لها وطنية عامة شاملة غير مقصورة على ما يسمى بالنشاط السياسى ، ولو قصرت عليه لكانت سطحية غير منتجة ، ولكان تحديد الدعوة به تضيقاً على الطبيعة ومجافاة لحقائق الوطنية وتضييعاً لثمراتها . .

أذكر لأحد كبار كتاب الغرب قوله : إن ما فى الإنسان من قوة ليس ناتجاً عن

اليَد وحدها ، وإنما هو فعل قوة البنية جميعاً ممثلة في اليَد . فإذا استطعت أن تحمل ثقلاً عظيماً في يَدك فإنما تتأق لك القوة لأن القلب يقوم بوظيفته والمعدة تؤدي عملها وكذا سائر أعضاء بدنك تتآزر في سبيل القوة التي كانت يَدك مظهرها وأداة تنفيذها

من أجل ذلك تطرقت الوطنية الممثلة في مصطفى كامل إلى ميادين العلم والتاريخ والاقتصاد وأوضاع المجتمع تحببها وتقومها على الغرار الوطني ، ترأب أصداع القائم منها وتقيم الجريد على الأساس القويم ، محافظة عليها مما تتنوع به محاولات الخصم في هذه الميادين فينشئ بالتعليم جيلاً يسبغ حكمه وبترزييف التاريخ يهدم من ثقة الشعب بنفسه ويهون عليه الوضع المراد كما يوغل في شؤون الاقتصاد يوطئها لغير المصلحة الوطنية ويوجهها إلى نفعه بحيث تعد في الاتاج والاستيراد من تبطة به بفعل الزمن من حيث لا تدري ، ثم يعتمد إلى مصطلحات الاجتماع يهبط كاهلها بتقاليد جديدة منحرفة وإذاعات وصياغات جديدة نجر بضعايف النفوس إلى ناحيته ، وبكل هذه الوسائل مجتمعة يصل إلى خلق الوهم في الشعب ، ثم إلى أن يكون أداة السيطرة عليه ، حتى إذا رجع القوم إلى حال اطمأنوا إليها زمننا ظنوا في حضانتها أنهم غير جدلين بغيرها وظنوا البعض منهم نعمة وطويت صحيفة الثقة بالنفس .

ولنستمع هنا مرة أخرى لوصية (مصطفى كامل) في هذه النتيجة التي كانت أخشى ما أخشى على بلاده : « إن كل قول أو عمل يؤدي إلى إضعاف الروح المعنوية وهدم جزء أو كل من ثقة الأمة بنفسها وبمستقبلها هو أكبر أذى يلحق البلاد ،

فمصطفى كامل حريص لدعوته ولنجاحها على المثل الأعلى للفرد والشعب وادي النيل ، وهو لذلك يضيف على كل ناحية من مسالك الدعوة ما ينفى عنها الأشواك الغربية والهنات التي تسمى إلى المستوى المرتقب لأمته . فالاستقلال عنده إذن غاية تكرس لها الجهود ويعنى بها الفسك وتثمر الظروف بقدر ما هو وسيلة لا بد منها للنهوض بالنواحي المختلفة وتمكين الأمة على الأساس الصحيحة من كل مرافق الحياة على الوضع الذي يلائمها هي دون تعلق بغيرها . على أن مصطفى لم يعلق مطالبته بالاستقلال على بلوغ الغاية في تلك النواحي كما هو الحال في الأمم المستقلة ، لأنه

لا يرتب الحق الطبيعي في الحرية على مستوى معين تكون الأمة ملزمة بإثباته أمام الغير متى كان ذلك الغير هو المتحكم في وسائل نهوضها . وإن لجهاد مصطفى في جميع هذه النواحي معنى لا يسمو عليه أى معنى من المعاني التي يعيش الأبطال لتحقيقها وتمثيلها . إذ كان دليلا على فناءه في المثل الأعلى فناء تاما مع تشعب جهوده في جميع واهي الوطنية على ترمى أطرافها ونفوذ اشعاعها جيلا بعد جيل . أقول إن هذا المعنى المتجلى في ذلك الرجل أو ذلك المثل الأعلى الممثل في رجل دليل على أنه لم يعيش عيشة الرجال المحدودة بأشخاصهم وأعمارهم

سادق : ترون اليوم بينكم هذا الرهط الكريم من الشباب الذي تذبأ به مصطفى كامل وعمل له ، يسكد ويتعب ليضع يده على كنوز الفقيه في جهاده المدخر لأتمته وينفقون من وقته منبئين في نواحي البلاد في زمن عز فيه الميل إلى البحث . إلا إن المرء إذا عظمت قوة روحه فترامت نواحيها وانبعثت أضواؤها في المدى ، تناولت جميع الأرجاء وامتدت في الزمان فشملت آثارها ومراميتها مستقبل الأيام إن رجلا كهذا ليس برجل عادي ولكنه تيار من تيارات التاريخ ، وقوة من قوى البشرية الخالدة . هذا هو مصطفى كامل الذي نحتفل اليوم بذكراه .

ضريح مصطفى وفريد

أقيم ضريح مصطفى كامل القديم في المدفن الذي شيده الزعيم لوالدته بشارع المغامر بمدافن الإمام الشافعي ، وقد شيعها إلى مرقدتها الأخير سنة ١٩٠٧ ، ودفن إلى جوارها سنة ١٩٠٨ ، ومن يومئذ لم تعمل يد في إصلاح هذا المدفن أو تجديده ، حتى أخذ التصدع يظهر في سقفه وجدرانته سنة ١٩٣٩ ، وصار يخشى على الضريح الطاهر أن يستهدف للأمطار والأعراض الجوية في شتاء ذلك العام ، ففكرت مع لفيق من إخواني في تدارك هذا التصدع ، وألفنا في أواخر سنة ١٩٣٩ لجنة لإصلاح الضريح ، وتم لها جمع مبلغ يسير اكتتب به تلاميذ الفقيد وأنصاره والمعجبين به ، فرمنا ضريحه ترميما جزئيا ، ولم يعد مع ذلك في حالة تليق بمكانة الزعيم ، فاقترحت في مجلس الشيوخ بجلاسة ١٠ مايو سنة ١٩٤٤ لمناسبة نظر

ميزانية وزارة الأشغال اعتماد مبلغ خمسين ألف جنيه لتشييد مدفن جديد يضم رفات الزعيم ، وقلتُ في هذا الصدد ما يأتي (نقلا عن مضبطة الجلسة) :

« أرجو أن تسمحوا لي من وقتكم بخمس دقائق لأعرض اقتراحا بمناسبة نظر ميزانية وزارة الأشغال العمومية ، وأريد أن أشرح هذا الاقتراح أولا كي أهد الطريق إلى عرضه

« وضعت الحكومة سنة حميدة في السنوات الأخيرة وهي تخليد ذكرى عظماء الرجال ، ولذلك أقرت فيما يتعلق بتخليد ذكرى المغفور له سعد زغلول باشا عدة مشروعات منها تشييد ضريح له وإقامة تماثيل أحدهما بالقاهرة والآخر بالاسكندرية وأنفقت الحكومة على توالي السنين مبالغ كبيرة لتخليد ذكراه ، وعلى ما أذكر ان الضريح قد تكلف لغاية الآن حوالي ٢٠٠.٠٠٠ ج ، وهذا بالطبع تنفيذاً للسنة الحميدة التي اتبعتها الحكومة ، وأمس فقط عرضت علينا مشروع قانون بفتح اعتماد إضافي بمبلغ ٢٧.٠٠٠ ج في ميزانية هذا العام لشراء منزل المغفور له سعد باشا في مصر « بيت الأمة » ، والمنزل الذي ولد فيه الفقيد بإيانه وضمهما للنفاع العامة ، كل هذا عمل حميد تشكر عليه الحكومة ، وهذا ما شجعتني على أن أتقدم لحضراتكم باقتراح تخصيص مبلغ ٥٠.٠٠٠ ج في ميزانية وزارة الأشغال لتشييد ضريح للمغفور له مصطفى كامل باشا ، لأن ضريحه لا يزال على حالته كما بناه لوالدته سنة ١٩٠٧ إذ توفيت في السنة المذكورة فبنى هذا الضريح لها ، ثم عاجلته المنية في ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ فدفن إلى جوار والدته في القبر الذي بناه لها ، ومن يومئذ لم تفكر حكومة من الحكومات المتعاقبة في أن تشيد الضريح الذي يليق بالزعيم الأول الذي بعث الحركة الوطنية من مرقدتها ، ولعل القدر قد باعد بين الحكومات المتعاقبة وبين القيام بهذا الواجب ، فاتباعا للسنة التي جرت عليها الحكومة في تخليد ذكرى سعد أتقدم باقتراح إضافة مبلغ ٥٠.٠٠٠ ج في ميزانية وزارة الأشغال لتقيم ضريحا للمغفور له مصطفى كامل ، ذلك أن تقدير عظماء الرجال هو فعلا واجب محتم ومقدس ولكن أجمل من هذا الواجب أن يكون تقدير هؤلاء العظماء عاما وشاملا أساسه العدل والإنصاف ، فإذا كانت الحكومة قد أدت واجبها نحو سعد زغلول فأرجو

أن تؤدي واجهها نحو مصطفى كامل ، إن ضريح مصطفى كامل يا حضرات الزملاء
الأعزاء قد آل إلى حالة لا تتفق ومكانة الزعيم الأول للحركة الوطنية ولا تتفق مع
حسن تقدير البلاد لعظمتها الراحلين ، وأرجو إذا كان من حضراتكم من يريد أن
يستوثق من هذه الحال أن يتفضل بزيارة هذا الضريح ، ولعل الوقت قد آن لكي
تعمل الحكومة عملاً ولنعمل نحن أيضاً عملاً يمكن أن نسد به هذا النقص الكبير ،
ولا أريد أن أطيل في التذليل والبيان في هذا المقام ، ولكنني استسمح حضراتكم
في أن أتلو على مسامعكم كلمتين للبخفور له سعد زغلول في تقدير المخفور له
مصطفى كامل

« رئيس المجلس (على زكي العراقي باشا) - لا ينازع أحد في ذلك

« عبد الرحمن الراجحي بك - قال سعد زغلول رحمه الله في خطبته بالسراوق

يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣ :

« لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم ، لا أقول ذلك ولا أدعيه ،
بل لا أتصوره ، إنما نهضتكم قديمة تبتدى من عهد مؤسس الأسرة المالكة محمد علي ،
والحركة العراقية فضل عظيم فيها ، وكذلك للسيد جمال الدين الأفغانى وأتباعه
وتلاميذه أثر كبير ، وللرحوم مصطفى كامل باشا فضل غزير فيها وكذلك المرحوم
فريد بك ،

وقال في خطبته بفندق شبرد يوم ٢٠ ابريل سنة ١٩٢١ :

« إنى أعلم أن البلاد تصبو إلى الاستقلال ، وأن حركتها الاستقلالية بدت من
زمن طويل ، خصوصاً من يوم أن ظهر فيها مصطفى كامل وتلاه المرحوم فريد بك .
هؤلاء الذين أسسوا وأيدوا ما أسسوا في النهضة الحاضرة ،

« فواجب تقدير الزعماء يا حضرات الزملاء الأعزاء . يقتضينا أن نقدرهم جميعاً
وأن يكون تقديرنا مبناه العدل والإنصاف ، فإذا كانت قد مضت هذه السنوات
الطويلة ولم تفكر حكومة من الحكومات في إصلاح هذا الضريح أو تشييده أو
تعميره فأظن أن الوقت الحالى هو أنسب الأوقات لكي تتلافى مافات الحكومات

السابقة ، لذلك أتقدم بهذا الاقتراح ، وأرجو من حضراتكم الموافقة عليه
« وزير الأشغال العمومية (عثمان محرم باشا) - يسرني أن أقرر لحضرة الشيخ
المحترم عبدالرحمن الرافعي بك أنني أول من يحترم ذكرى المرحوم مصطفى كامل باشا
وقد كانت تجمعني به صلوات شخصية وأقرر أن حكومة الوفد التي تسير على سياسة
المغفور له سعد زغلول باشا تعرف فضل مصطفى كامل باشا ، وأقول إنه لا داعي
لإضافة المبلغ الذي يطلبه حضرة الشيخ المحترم عبدالرحمن الرافعي بك لتشييد ضريح
المغفور له مصطفى كامل باشا إلى ميزانية وزارة الأشغال ، لأن في الميزانية الحالية
مبالغ تسمح بتنفيذ ما يطلبه حضرة الشيخ المحترم ، وأعد حضرته بتنفيذ اقتراحه في
ميزانية السنة الحالية فوراً . (تصفيق عام)

وقد وضعت الحكومة من يومئذ تصميم المدفن الجديد ، وأقيم في ميدان صلاح
الدين بجوار القلعة ، وتم تشييده في أواخر سنة ١٩٤٩ (انظر صورة ص ٣١٣)
أما ضريح محمد فريد القديم فهو في مدفن العائلة بجوار مقام السيدة نفيسة رضي
الله عنها ، وقد أقيم القبر على مجل ، وبقى طوال السنين عرضة للعراء والأمطار في
حالة لا تتفق وميزلة الزعيم الشهيد الذي ضحى في سبيل مصر بماله وصحته ونفسه وحياته ،
وقد اقترحت أن ينقل إلى جوار مصطفى كامل . فقرر مجلس الوزراء في ١٨ سبتمبر
سنة ١٩٤٩ نقل رفات المرحوم محمد بك فريد إلى جوار مصطفى كامل بالمدفن
الجديد ، وهكذا يتاح للزعيمين العظيمين والصدّيقين الوفيين أن يلتقيا بعد طول
النوى ، ويضمهما قبر واحد ، بعد أن فرق الزمن بينهما نيفاً وأربعين سنة ، وأصبح
الضريح الجديد « ضريح مصطفى وفريد »



الضريح الجديد ، لمصطفى وفريد - بميدان صلاح الدين ، بجوار القاعة

الفصل السادس عشر

الخديو عباس الثاني

إن تاريخ مصر السياسي في عهد الخديو عباس حلمي الثاني له ارتباط وثيق بتاريخها الوطني في عهد مصطفى كامل ، لذلك كان لزاما علينا أن نفرّد فصلا للخديو عباس ، يكون بمثابة صفحة من تاريخ مصر السياسي في ذلك العهد حتى سنة ١٩٠٨ ، حيث ينتهي هذا الكتاب (١)

نشأة الخديو عباس الثاني

هو ابن الخديو توفيق باشا البكر ، ولد في ١٤ يولييه سنة ١٨٧٤ ، وكانت ولايته الخديوية يوم ٨ يناير سنة ١٨٩٢ ، وهو اليوم التالي لوفاة توفيق باشا . فلم يكن قد بلغ الثامنة عشرة الميلادية ، حين ولايته الأريكة الخديوية ، وكان قد بلغها بالحساب الهجري

ارتقاؤه العرش

وقد بلغه نبأ وفاة والده وهو في (فيينا) عاصمة النمسا حيث كان يتلقى العلم في كلية (التريزيانوم) التي كان يؤمها أبناء الملوك والأمراء ، فبادر بالعودة إلى مصر ، واتخذت إنجلترا من حادثة سنة ذريعة لتسوية بقاء الاحتلال ، كما اتخذت من كل حادثة وكل سبب ذريعة إلى ذلك ، فكتبت الديلي تلغراف تقول : « لقد أصبحت سلطتنا أكثر ضرورة في الوقت الذي يجلس على العرش أمير شاب غير مجرب » ، وقالت البول مول جازيت : « إن ارتقاء الخديو الشاب عرش مصر يجعل بقاء الاحتلال أكثر ضرورة من أي وقت مضى فلا يجوز منذ الآن الكلام عن الجلاء » ، وقالت الجلوب : « إن وفاة توفيق قد هدم آخر حجة للجلاء » .

(١) أما الحوادث التي وقعت بعد ذلك فعوضوها في كتاب (محمد فريد)

وصل الخديو إلى الاسكندرية ثم إلى القاهرة يوم ١٦ يناير سنة ١٨٩٢، وأخذ بضطلع بمهام الأريكة الخديوية، وكان مصطفى فهمي باشا رئيسا للوزارة منذ أواخر عهد الخديو توفيق، فقدم استقالة الوزارة اتباعا للعرف الجارى عند تغيير ولى الأمر، فأقر الخديو بقاءها وبدأ الخديو عباس عهده بالاستمساك بحقوق مصر ومعارضة السيطرة البريطانية

الحوادث المهمة في عهده

أزمة فرمان سنة ١٨٩٢

تأخر ورود فرمان السلطان المنبئ بإسناد الخديوية المصرية إلى عباس الثانى، وراجت الإشاعات المختلفة عن أسباب تأخيره، ثم تبين أن تركيا رغبت في تعديل الحدود بينها وبين مصر من جهة طور سيناء، ودارت المفاوضات بينهما في هذا الصدد قبل تحرير فرمان، على أن تتخلى مصر عن العقبة لتركيا، إذا كانت فى الأصل تابعة لولاية الحجاز وإنما أعارتها تركيا لمصر فى عهد اسماعيل، ورخصت لها بوضع حاميات من الجنود فى (الوجه) والمويلح وضبا والعقبة وشبه جزيرة طور سيناء لتأمين المحمل والحجاج بطريق البر، وقد استمادت تركيا الوجه وضبا والمويلح، ثم أرادت استعادة العقبة، فقبل الخديو ذلك، وأراد بهذا التساهل أن لا يوجد بينه وبين تركيا خلافا فى بداية عهده، مما قد يستفيد منه الاحتلال، فانفجرت أزمة فرمان مؤقتا، وجاءت الأنباء من الاستانة بان السلطان قد أعد فرمان وعهد بالمشير أحمد أيوب باشا أن يحضر به إلى مصر

وصل المندوب السلطانى إلى الاسكندرية ومنها إلى القاهرة يوم الاثنين ٤ أبريل سنة ١٨٩٢، أى بعد أكثر من شهرين من ولاية الخديو، ولكن لم يحبل بحينه الأزيمة، بل تطورت إلى شكل أشد، وتأخرت بسببها تلاوة فرمان. وذلك أن الحكومة البريطانية علمت بأنه قد وضع فى صيغة تدل على رغبة تركيا فى استرداد شبه جزيرة سيناء كلها، ولم يكن السفير البريطانى فى الاستانة قد اطلع على صيغة فرمان، فلما علم بها أبرق الى اللورد سالسبرى رئيس الوزارة الانجليزية بفحواها

وأرسل هذا برقية إلى السير إفان بارنج (اللورد كرومر) بالمعارضة في تلاوة فرمان حتى تصدر إرادة سلطانية بترك إدارة شبه جزيرة سيناء إلى مصر ، فوقت لذلك أزمة خطيرة ، وتدخل السير بارنج في الأمر وبعث إلى تيجران باشا وزير خارجيه مصر في ذلك الحين بخطاب بتاريخ ١١ ابريل يبلغه فيه صورة فرمان وينهى اليه أنه يختلف عن فرمان الصادر إلى توفيق باشا ، إذا كان يتضمن إسناد خديوية مصر اليه طبقا لحدودها القديمة مع ملحقاتها (وهذه الملحقات تشمل شبه جزيرة سيناء) ، أما فرمان الخديو عباس فانه يعين أملاك مصر طبقا لحدودها القديمة المذكورة في فرمان الصادر إلى محمد علي باشا والخريطة الملحقة به والأراضي التي ألحقت بها بموجب فرمان الصادر في ١٤ ذى الحجة سنة ١٢٨١ أي قبل أن تعهد إلى مصر بإدارة شبه جزيرة سيناء ، ولفت اللورد كرومر نظر تيجران باشا إلى هذا التناقض وأنهى اليه أنه مكلف بإبلاغه ذلك تنفيذاً لتعليمات وزارة الخارجية البريطانية ، وسأله إذا لم يكن وصل تفسير لذلك من الباب العالى إلى الحكومة المصرية

ولما بلغ تركيا تشدد إنجلترا في هذا الصدد صدرت إرادة سلطانية بإسناد إدارة شبه جزيرة سيناء إلى الخديو ، فانفجرت الأزمة ، وأرسل تيجران باشا في ١٣ ابريل إلى السير بارنج يبلغه أن الحكومة المصرية تلقت من الصدر الأعظم رسالة تلغرافية بتاريخ ٨ ابريل يبلغها فيه الإرادة السلطانية بترك إدارة شبه جزيرة سيناء إلى الخديو كما كانت لأسلافه من قبل ، فرد عليه السير بارنج بأنه قد أحيط علما بفحوى الإرادة السلطانية ، وأنه بناء على ذلك تستمر شبه جزيرة سيناء كما يحدها الخط الممتد من شرقي العريش إلى رأس خليج العبة تحت إدارة مصر ؛ على أن تكون طابية العقبة الواقعة شرقي الخط المذكور من ملحقات ولاية الحجاز ، وأن حكومة جلالة الملكة قد بلغت الباب العالى قبولها ذلك ؛ وبناء عليه يبلغه بقبول التحديد المذكور والإضافة للذين حصلوا بمقتضى تلغراف الصدر الأعظم المؤرخ في ٨ ابريل الذي تعتبره الحكومة البريطانية ملحقا وجزءاً من فرمان ، وأنه ليس لديه معاضة في اعلانه رسمياً بإضافة التلغراف المذكور اليه ، وعلى ذلك تلى فرمان مع الارادة

السلطانية المصححة له يوم الخميس ١٤ أبريل بسراى عابدين ، وبهذا انتهت أزمة
فرمان سنة ١٨٩٢

أزمة إقالة الوزارة الفهمية

يناير سنة ١٨٩٣

كان مصطفى فهمى باشا يتولى رئاسة الوزارة كما أسلفنا حين ولى عباس الثانى
الحكم ، وهى وزارة موالية وخاصعة للنفوذ الإنجليزى خضوعاً تاماً ، فلم يسكن
مصطفى فهمى يصدر فى أى شأن من شؤون الحكومة الا عن إرادة اللورد كرومر ،
كما أن الموظفين البريطانيين كانوا أصحاب الحول والطول فى الوزارات ، وقد ظهر
ولاء مصطفى فهمى للإنجليز فى محاولته إقصاء الخديو الجديد عن كل سلطة ، فكان
الخديو الحقيقى هو المعتمد البريطانى

سامت هذه السياسة الخديو عباس ، ووجد من ميول مصطفى فهمى الإنجليزىة
ما يجعل تعاونه معه مستحيلاً ، واحتمل بقاءه على رأس الوزارة سنة ، ثم لم يطق
عليه صبرا ، واعتزم إقصاءه عن منصبه ، فأوفد إليه يوم ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ محمود
شكرى باشا رئيس الديوان التركى وأبلغه رغبته فى أن يستقيل مراعاة لصحته (وقد
كان مريضاً حقاً ولكن فى دور النقاهة) ، فأجاب الرسول أنه سيفكر فى الأمر ،
وأن الأوفق لسموه أن يستشير فى ذلك اللورد كرومر (١) ، فلم يكن من الخديو
إلا أن أرسل إليه على الفور كتاباً ياقالته لاعتلال صحته ، وعهد فى اليوم نفسه إلى
حسين فخرى باشا ناظر الحقانية الأصبغ تأليف الوزارة الجديدة ، فألفها فى اليوم
ذاته على النحو الآتى:

حسين فخرى باشا للرئاسة والداخلية . أحمد مظلوم باشا سر تشرىفات الخديو
للحقانية . بطرس باشا غالى للمالية . وبقى تيجران باشا للخارجية . ومحمد زكى باشا

(١) حديث محمود شكرى باشا فى المؤيد — عدد ٢ أبريل سنة ١٨٩٣

للأشغال والمعارف . ويوسف شهدي باشا للحرية ، كما كانوا في الوزارة الفهمية ،
وهي أول وزارة تألفت في عهد الخديو عباس لأن وزارة مصطفى فهمي باشا كانت
مؤلفة في أواخر عهد الخديو توفيق ثم أقرها عباس عند ولايته الحكم

كان لهذا التبديل دوى كبير في مصر وفي الدوائر الأجنبية ، وبخاصة الإنجليزية ،
لأنه تم من غير استشارة اللورد كرومر وإطلاعه ، واكتفى الخديو بإبلاغه نبأ
تأليف الوزارة بعد أن تم تعيينها فعلا ، وقد قوبل هذا الانقلاب من المصريين
بإتهاج كبير ، إذ كان مصطفى فهمي باشا بغیضا إلى الأمة لمآلاته الاحتلال ، وأثار
ثائرة اللورد كرومر ، لأنه كان يعتمد على خضوع مصطفى فهمي وإخلاصه للاحتلال ،
في حين أنه لم يكن يظن في حسين فخري باشا هذه الميول ، وقد رأى من ناحية أخرى
أنه لم يؤخذ رأيه في هذا التبديل ، وأن هذا يعد خروجا على الحماية المقنعة التي ضربتها
انجلترا على مصر ، وعلى التقاليد المتبعة في عهد الخديو توفيق ، فقابل الخديو ،
واعترض على هذا التبديل ، وأبرق إلى اللورد روزبري وزير خارجية انجلترا بما
وقع ، وطلب تعليماته في هذا الصدد ، وفي انتظار هذه التعليمات أمر الموظفين
البريطانيين في الحكومة بعدم الاعتراف بالوزارة الجديدة وعدم التعاون معها

ولما تلقى اللورد كرومر تعليمات حكومته توجه يوم ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ إلى
سراي عابدين وقابل الخديو وأبلغه صورة برقية وردت إليه من وزير الخارجية بأن
الحكومة البريطانية تعارض في تعيين فخري باشا ، وتطالب بحقها في الرقابة على
اختيار الوزراء المصريين طبقا لتغراف اللورد جرانفيل المؤرخ في ٤ يناير سنة
١٨٨٤ ، وبأنه في حالة امتناع الخديو عن العمل بنصائحكم ، فعليه أن يحتمل
أخطر العواقب ،

فأجاب الخديو بأنه يستعمل حقه في اختيار وزرائه ، ولا يحق لأحد أن
ينازعه في هذا الحق الذي يستعمله لمصلحة البلاد ، فأجابه اللورد كرومر متوعداً ،
وحذره عواقب مقاومة انجلترا ، وأنه في هذه الحالة يجازف بسلطته وبشخصه ،
وانصرف بعد أن حدد للخديو مدة أربع وعشرين ساعة ليتدبر الأمر

وقد بدأ التناقص واضحا جليا في موقف الاحتلال بإزاء الخديو ، إذ أن إنجلترا كانت تسوغ احتلالها بدعوى المحافظة على حقوقه ، ثم هاهي ذى تفتات على أساس سلطته ، أى على حقه اختيار وزرائه ، وتفرض عليه الوزراء الذين تريد ، وكان هذا الموقف تحدياً صريحاً لحقوق الخديو وأعتداء صارخاً على استقلال مصر وعلى المعاهدات التي كانت تحدد مركزها الدولي ، وبدأت خطورة الأزمة حينما استفاضت الأنباء عن مقابلة اللورد كرومر للخديو وعن البرقية التي أبلغه أياها ، فاستدعى الخديو رياض باشا ثم نوبار باشا وقابلهما على انفراد ، وكذلك قابل بعض معتمدى الدول الأجنبية ، وذهب تيجران باشا وبطرس باشا غالى إلى الوكالة البريطانية وقابلا اللورد كرومر للوصول إلى حل للأزمة

وقد طلب اللورد كرومر في بداية الأمر إقالة وزارة فخرى باشا وإرجاع مصطفى فهمى باشا . فرفض الخديو هذا الشرط ، وانتهت الأزمة بحل وسط اتفق عليه الطرفان ، إذ استقال فخرى باشا وقبل الخديو استقالته ، على أن يعهد إلى رياض باشا تأليف الوزارة الجديدة وأن يقدم الخديو بلاغا إلى اللورد كرومر وضع هذا صيغته ، يبدى فيه رغبته في أن يوجه عنايته لإيجاد أصدق العلاقات الودية مع الحكومة البريطانية وأن يتبع في المستقبل نصائحها في المسائل المهمة ، وقد بقي أمر هذا البلاغ مكتوما إلى أن انفرجت الأزمة

تأليف وزارة رياض باشا

وعلى ذلك تألفت وزارة رياض باشا في ١٩ يناير على النحو الآتى : رياض باشا للرئاسة والداخلية . محمد زكى باشا للأشغال والمعارف . يوسف شهدي باشا للحربية . تيجران باشا للخارجية . بطرس باشا غالى للمالية . أحمد مظلوم باشا للحقانية

شعور الأمة إزاء هذه الأزمة

كان موقف الخديو في الأزمة موقفا مشرفا . إذ لم يقبل بقاء وزارة عرفت بالخضوع والولاء لإرادة الاحتلال وتنفيذ سياسته . فأقالها واستعمل حقه الشرعى

في تعيين وزارة يرى فيها الاستقلال عن النفوذ البريطاني ، فلا غرو أن أثار موقفه حماسة الشعب وتأييده والتفافه حوله ، وقد بدا هذا الشعور أثناء اشتداد الأزمة حين ذهب الخديو من سراي القبة إلى سراي عابدين في صبيحة يوم الأربعاء ١٨ يناير سنة ١٨٩٣ ، فأقبلت وفود الأمة من الأمراء والعلماء والأشراف وأعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية وقضاة محكمة الاستئناف والمحاكم الابتدائية وكبار الموظفين والأعيان والتجار من العاصمة والأقاليم ، جاؤوا مدفوعين بشعورهم لتأييد الخديو في موقفه ، وقد غصت بهم السراي ، واستقبلهم الخديو طائفة بعد طائفة ، فكان يسمع منهم عبارات التأييد ويشكرهم على عواطفهم ، وبما قاله لرجال القضاء إنه يدافع عن الحقوق الشرعية للبلاد لا لشخصه وإنه لم يعمل غير الواجب عليه ، واستمرت المقابلات منذ الصباح حتى الساعة الثانية بعد الظهر (١) ، فكانت مظاهرة رائعة من الأمة ، وتلقى الخديو المئات من برقيات التأييد والتهنئة من مختلف أرجاء القطر

وفي يوم الجمعة ٢٠ يناير - وكانت الأزمة قد انتهت بتأليف وزارة رياض باشا - أدى الخديو فریضة الجمعة في مسجد الحسين رضي الله عنه ، فاستقبله الشعب بالحماسة والتهليل واجتمعت الألوف في المسجد وعلى جانبي الطريق من السكة الجديدة إلى الموسكى إلى الأزبكية وحتفوا له الهماتات العالية في المسجد وعلى طول الطريق ، وألف طلبة المدارس العالية مظاهرة (٢) حتفوا فيها له وأيدوه في موقفه ، ثم هاجموا إدارة جريدة (المقطم) لنزعها الاحتلالية وانحيازها إلى اللورد كرومر في الأزمة

وفي مساء السبت ٢١ يناير حضر الخديو تمثيل رواية (عابدة) في الأوبرا ، فكانت أيضا مظاهرة رائعة له ، اشترك فيها الوطنيون والأجانب من النظارة ، إذ وقف الجميع حين دخل اللوج الخديوي وصدحت الموسيقى بالسلام وحتفوا له حتافا عاليا

(١) المؤيد عدد ١٨ يناير سنة ١٨٩٣

(٢) هي المظاهرة التي أسلفنا الكلام عنها بالفصل الثاني ص ٣٥

ودوى المكان بالتصفيق المتواصل ، فأجابتهم الموسيقى بالسلام الخديوى ، مثنى وثلاث ورباع ، وكلما عزفت زاد الهتاف والتصفيق طالبين إعادة السلام الخديوى ، حتى أشار الخديو إليهم بالجلوس ، وظلت وفود الأعيان والمهنيين ترد إلى سراى عابدين لتهنئة الخديو وتأييده (١)

موقف الدول

ذاعت أنباء الأزمة في أوروبا ، ولسكن الدول الأوروبية قابلتها بالجمود وعدم الاكتراث ، واحتجت تركيا على هذا التدخل ، فأجابت الحكومة الإنجليزية بأن اللورد كرومر لا يقصد التعدى على حقوق الخديو وأن إسناد رئاسة الوزارة إلى رياض باشا يعتبر حلاً نهائياً للأزمة ، واستفسرت الحكومة الفرنسية من الحكومة الإنجليزية عن موقف اللورد كرومر تجاه التغيير الوزارى ، فأجبتها بأنه من الواجب مراعاة رأيها في تعيين رئيس الوزراء ، على أن الصحف الفرنسية قد ناصرَت مصر في هذه الأزمة وحملت على الحكومة الإنجليزية

أما الصحف الإنجليزية فكانت تحمل على الخديو حملات شديدة لإقالته ووزارة مصطفى فهمى باشا ، ووصفت هذا العمل بأنه إهانة لممثل إنجلترا في مصر ، وقد زادت إنجلترا بعد هذه الحادثة عدد جيش الاحتلال في مصر إجابة لطلب اللورد كرومر وتأييداً لموقفه

أزمة الحدود سنة ١٨٩٤

لم تسكد تنتهى أزمة إقالة الوزارة الفهمية حتى ظهرت أزمة أخرى أبلغ في الدلالة على الضغط الإنجليزي ، ونعنى بها أزمة الحدود ، وبيانها أن الخديو كان منذ تولى العرش شديد العناية بأمر الجيش ، وكان كثيراً ما يرتدى الشوار العسكرى كأحد ضباط الفرق ويمر على وحدات الجيش وقت التعليم وفي المناورات ، ويعنى بحالة الجنود والضباط ونظامهم وتعليمهم ومعيشتهم ويوجه عنايته إلى تدريب

(١) المؤيد عدد ٢١ يناير سنة ١٨٩٣

الجند وتلاميذ المدرسة الحربية، فتعلقت به قلوبهم، فنقم الضباط الإنجليز من الخديو هذه الخطة، وتألقت منهم لجنة برئاسة سردار (اللورد كشنر)، وعرضوا شكواهم على اللورد كرومر المعتمد البريطاني، فأضمرُوا انتهاز أقرب فرصة لاذلال الخديو والنيل من مهابته أمام الجيش، لكي تعود لهم السيطرة الكاملة عليه، وقد رأوا في حادثة الحدود الفرصة المربحة لتنفيذ وعيدهم، ذلك أن الخديو اعتمر السياحة بطريق النيل في اوجه القبلي في شتاء سنة ١٨٩٣ - ٩٤، وبدأ الرحلة يوم ٩ يناير سنة ١٨٩٤، فكان يقابل أينما توجه بحماسة الشعب وابتهاجه، ووصل في سياحته إلى (وادي حلفا) يوم ١٨ يناير سنة ١٨٩٤، وهناك عرض فرقة من الجيش المصري كان يتولى قيادتها ضابط بريطاني، ولاحظ نقصاً في نظام الجنود وتدريبهم، فأبدي ملاحظته في هذا الصدد إلى وكيل وزارة الحربية وقتئذ (محمد ماهر باشا، وكان يرافقه في سياحته)، وندد بالجيش ونظامه، وذاعت هذه الملاحظة، فثارت ثائرة اللورد كشنر، وعدها إهانة له، وجعل منها أزمة تتعلق بالكرامة الإنجليزية، فبادر بتقديم استقالته من منصبه، وأبلغ الأمر إلى اللورد كرومر، فاستشاط هذا غضباً من مسلك الخديو، وأرسل إلى حكومته يستطلع رأيها فيما يجب عمله، فكان جوابها أن يطلب من الخديو إصدار أمره بشكر السردار وامتداح الضباط الإنجليز، وإبعاد ماهر باشا من منصبه، ومعنى ذلك اعتذار الخديو عن ملاحظاته، وقد اتخذت الصحف البريطانية لهجة التهديد والوعيد حيال هذه الحادثة، واعتبرتها أزمة خطيرة لا يحلها إلا الاعتذار، وكان رياض باشا رئيساً للوزارة، فبادر إلى نصح الخديو بالاعتذار والإذعان لمطالب الاحتلال، وانتهت الحادثة بالتسليم، وأصدر الخديو من مدينة الفيوم أمراً بمثابة خطاب إلى السردار كتب باللغة الفرنسية ثم عرب ونشر في الجريدة الرسمية، هذا نصه:

• مدينة الفيوم في ٢٦ يناير سنة ١٨٩٤

« قبل أن أترك الوجه القبلي للعودة إلى مصر أريد أن أكرر ما أظهرته من العناية وحسن الالتفاف للجيش عند زيارتي الحدود وأؤيد حسن رضائي الذي أبديته لكم من جهة حسن حالة الجيش ونظامه، وإني لمسرور من أن أهني الضباط

الذين يرأسونه مصريون كانوا أو انجليز ، وإني لمرتاح أيضاً بأن أقدر الخدمات التي أدتها الضباط الإنجليز لجيشنا حق قدرها وأملنا أيها السردار أن تعلنوا أمرنا هذا للضباط والعساكر ،

« عباس ملمي »

وبعد مدة وجيزة أبعده ماهر باشا عن وكالة الحربية وعين محافظاً للقنال ، فتم بذلك إذعان الخديو لمطالب الانجليز في هذه الأزمة ، وأصيب نفوذه بضربة شديدة من جراء تسليمه ، وفقد هيئته في نفوس الجيش ، وأدرك الضباط والجنود ان سلطة أى ضابط بريطاني أكبر من سلطة الخديو ، فكان لهذه الحادثة أثر سيء في حالة الجيش المعنوية ، إذ شعر الضباط المصريون أن خضوعهم للسيطرة الإنجليزية هو السبيل إلى الترقى والاطمئنان على مراكزهم ، وتصدعت هيبة الخديو ، فلم يعد يرى في الطواير والمناورات إلا قليلاً

استقالة وزارة رياض باشا

وتأليف وزارة نوبار

اشتد الجفاء بين الخديو ورياض علي أثر موقفه من أزمة الحدود ، واعتقد أنه لو وقف موقف الحزم والإخلاص له لما نصحه بهذا الاعتذار المبهين ، وانتهى الأمر باستقالة رياض باشا وتأليف وزارة نوبار باشا في ١٦ أبريل سنة ١٨٩٤ على النحو الآتي : نوبار باشا للرئاسة والداخلية. مصطفى فهمي باشا للحربية والبحرية . حسين فخري باشا للأشغال والمعارف ، بطرس غالي باشا للخارجية ، احمد مظلوم باشا للبالية ، ابراهيم فؤاد باشا للحقانية

كانت هذه الوزارة ذات ميول إنجليزية ، فكان أول عمل لها تعيين أول مستشار بريطاني لوزارة الداخلية ، إذ أنشئ هذا المنصب بموجب المرسوم الصادر في ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٤ ، وأسند إلى السير إلدون جورست (الذي صار سنة ١٩٠٧ قنصل بريطانيا العام في مصر بعد استقالة اللورد كرومر) ، وصار المستشار البريطاني صاحب الحول والسلطة في الوزارة، وعين مفدشون انجليز بوزارة الداخلية تضاء لت بجانبهم سلطة المديرين

وفي عهد هذه الوزارة صدر المرسوم الخديوى فى ٢٥ فبراير سنة ١٨٩٥ بإنشاء المحكمة المختصة لمحكمة من يتهم بالتعدى على ضباط جيش الاحتلال وجنوده ، وهى المحكمة التى كان لها الشأن الكبير فى حادثة دنشواى كما تقدم بيانه (ص ١٩٧)

وزارة مصطفى فهمى باشا

الوزارة الطويلة : نوفمبر سنة ١٨٩٥ - نوفمبر سنة ١٩٠٨

ثم وقع الجفاء بين الخديو ونوبار على أثر موقف الأخير فى مسألة رجوع اسماعيل باشا الخديو الأسبق إلى مصر ، فقد ساءت حالته الصحية فى أوائل سنة ١٨٩٥ وأرسل إلى حفيده الخديو عباس لى بأذن له بالعودة إلى مصر مراعاة لصحته وشيخوخته ، وكان عباس يميل إلى تحقيق هذه الرغبة . ولكن وزارة نوبار وجدت أن رجوع اسماعيل من منفاه غير مرغوب فيه من جانب الاحتلال ، فرفضت الموافقة على عودته بحجة أنها تخلق لمصر عقبات من جانب الدول التى اشتركت فى خلعه ، فأسرها عباس فى نفسه ، وأخذ المرض يلح على اسماعيل حتى توفى يوم ٢ مارس سنة ١٨٩٥ ، وقد رغب عباس فى أن يتخلص من وزارة نوبار فى تلك السنة ، ولكن نوبار كان مؤيداً من الاحتلال ، فلم يفكر فى الاستقالة ، فأسرها عباس فى نفسه مرة أخرى ، وأخيراً توصل إلى تنفيذ أميته فى إقصاء نوبار ، بأن أعرب للورد كرومر عن رغبته فى إعادة مصطفى فهمى باشا المشهور بولائه للاحتلال إلى رأسه الوزارة ، وكان الخديو قد أخذ من ذلك الحين يمنح لمسألة الاحتلال ويختم عهد المقاومة والأزمات ، فلقبت الفكرة ارتياحاً فى نفس اللورد كرومر الذى كان لا يفتأ يترقب الفرص لعودة مصطفى فهمى إلى رأسه الوزارة ، لأن الإنجليز لا ينسون صنائعهم ، فلما أحس نوبار بهذا الموقف قدم استقالته يوم ١١ نوفمبر سنة ١٨٩٥ ، وألف مصطفى فهمى باشا الوزارة الجديدة فى اليوم التالى ، واحتفظ ببقية الوزراء الذين كانوا مع نوبار ، وأضاف إليهم محمد العبانى باشا وزيراً للحربية ، فصارت مؤلفة كما يأتى : مصطفى باشا للرأسه والداخلية . حسين فخرى باشا للأشغال والمعارف . بطرس غالى باشا للخارجية . أحمد مظلوم باشا للبالية . ابراهيم فؤاد

باشا للحقانية . محمد العباني باشا للحرية والبحرية ، وهي وزارة الاستسلام والولاء المطلق للإنجليز ، وقد بقيت في الحكم حتى نوفمبر سنة ١٩٠٨ ، أي أنها دامت ثلاثة عشر عاما ، كانت كلها خضوعا وتسليما للاحتلال البريطاني ، وقد سميناها الوزارة الطويلة ، ، إذ كانت أطول الوزارات عمرا

أهم الحوادث في عهدها

هي حلقات متصلة مترابطة من التسليم في حقوق البلاد ومرافقها ففي سنة ١٨٩٧ طلب اللورد كرومر تعيين انجليزى نائبا عموميا بدلا من حمدالله بك أمين ، فأذعن مجلس الوزراء للأمر ، وعين المستر كوربت في هذا المنصب الخطير ، وصارت سلطة النيابة وهيئتها تحت تصرف النائب العمومى الإنجليزى ، كما كانت وزارة الحقانية تحت سيطرة المستر سكوت المستشار القضائى البريطانى

إنشاء البنك الأهلى

وفي سنة ١٨٩٨ صدر المرسوم بتأسيس البنك الأهلى وأعطته الحكومة امتياز إصدار أوراق النقد المصرى ، فصار بمثابة بنك الحكومة ، وهو بنك أهلى شكلا وأجنبى فعلا ، ومؤسسه وحمله أسهمه الأولى هم السير ارنست كامبل المالى الإنجليزى الشهير ، والمسيو سلفاجو وشركاؤه ، والخواجه روفائيل سوارس وإخوانه

بيع البواخر الخديوية

وفي تلك السنة ذاتها (سنة ١٨٩٨) عقدت الحكومة صفقة كانت وبالا وخسرانا على مصر ، ونعنى بها بيع البواخر الخديوية بأبخس الأثمان إلى شركة (ألن والدرسن) الانجليزية

وبيان ذلك أنه كان للحكومة بواخر تعرف ببواخر مصلحة البوستة الخديوية ، عددها إحدى عشرة باخرة كبيرة ، منها ثلاث بواخر اشترتها الحكومة حديثا من مصانع إنجلترا وهذه البواخر هي : الشرقية . الفيوم . المحلة . الرحمانية . شبين . توفيق ربانى . البرنس عباس . القاهرة . مصر . النجيلة ، وهذه البواخر كانت قوام

الأسطول التجارى لمصر فى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ، والبقية الباقية للبحرية المصرية ، وكانت تنقل المسافرين والمتاجر بين مصر و ثغور هذين البحرين ، حاملة العلم المصرى ، مؤدية مهمتها فى بعث النشاط الاقتصادى التجارى وبسط نفوذ مصر التجارى والبحرى فى هذين البحرين ، ويتبع هذه البواخر حوض الاسكندرية الكبير ، وحوض الاسكندرية الصغير ، وحوض السويس ، وهذه الأحواض معدة لإصلاح البواخر ، ويتبعها أيضا مستودعات المصاحبة ومخازنها ومعاملها ومحلات الإدارة والزوارق البخارية والمنشآت ، وقد قدرت قيمة البواخر وهذه الملحقات جميعها بثلاثة ملايين جنيه ، فباعته الحكومة جميع هذه المنشآت إلى شركة (ألن والدرسن) بثمن بخس ١٥٠٠٠٠٠ جنيه ، فكانت صفقة خاسرة من جميع الوجوه ، لأنها أضاعت على البلاد ثروة قومية ضخمة ليس من السهل أن تستردها ، وقعت على أسطولها التجارى الذى بذلت هذه الملايين فى سبيل إنشائه وتكويته ، وانطوت بذلك صفحة البحرية المصرية إلى وقت طويل ، وقد تم البيع دون مزايده أو إشهار ، بل حصلت اختبارة بشأنه فى الخفاء بين السير إلوين بالمر المستشار المالى البريطانى للحكومة المصرية وشركة (ألن والدرسن) الانجليزية ، وأقر مجلس الوزراء هذه الصفقة الخاسرة ، دون بحث أو تحقيق ، واكتفى بالبيانات التى أفضى بها المستشار المالى ، ووقع على العقد أحمد مظلوم باشا وزير المالية ، وبما يجدر ملاحظته لتقدير مبلغ الغبن الذى أصاب الحكومة من هذه الصفقة أن ثلاث باواخر من الإحدى عشرة باخرة المبيعة اشترتها الحكومة من مصانع انجلترا ب ٢٠٠٠٠٠٠ جنيه ، أى أن ثمن الصفقة كله أقل من ثمن هذه البواخر الثلاث ، وكانت غلة الحكومة الظاهرة فى بيع هذه البواخر والمنشآت أن مصر وفاتها تزيد على إيراداتها ، وفضلا عن أن هذا ليس مسوغا لاضاعة ثروة البلاد القومية ، فقد ثبت من مراجعة حسابات المصلحة أن صافى إيرادها السنوى بعد جميع المصروفات هو ٢٢٢٠٠٠٠ ج ، فاذا لوحظ أن الحكومة تعهدت بأن تعطى الشركة سنويا ستة آلاف جنيه فى السنة فيكون صافى ربح البواخر كله ٢٨٠٠٠٠ جنيه سنويا ، ويكون البيع قد وقع بقيمة الربح مدة خمس سنوات تقريبا ، وهذا أفضح مظهر للغبن الفاحش

كان في بيع هذه البواخر القضاء على الأسطول التجارى لمصر ، بعد القضاء على أسطولها الحربى ، وظهر الفرق جلياً بين حالتها في عهد الاحتلال وحالتها في عهد محمد على حين زارها الكاتب الإيطالى (بنديتى) سنة ١٨٤٠ ، فراعته منظر السفن الحربية مصفوفة على أتم نظام فى ميناء الاسكندرية ، حيث قال فى وصفها :
لما دخلنا الميناء الكبير مررنا بين قوات بحرية حربية تأخذ باللب وتذهل العقل ، وكان ضمن هذه القوات الأسطول العثمانى الذى استولت عليه مصر ، وفى يقيننا أننا لم نر ولا نظن أننا نرى فى المستقبل عدداً من السفن الحربية يوازى ما شهدناه على اختلاف الأنواع والأحجام ، ومنظماً بمثل ذلك التنظيم البديع ، وبما زاد فى رواء المنظر وهيجته أن يوم وصولنا إلى نجر الاسكندرية كان يوافق عيداً من الأعياد الإسلامية ، فألفينا تلك السفن كلها التى لا تقع تحت حصر رافعة أعلامها بشكل بديع ومنظر أنيق ، تطلق مدافعها فى الفضاء ساعة الغروب . فكانها تودع الشمس وتحيبها ، فيجاربها صدى الألقى بلسانها ، وصفوة القول أن المنظر كان من المناظر التى لا مثيل لعظمتها ،

بيع أملاك الدائرة السنية

وباعت الحكومة فى هذه السنة تفاتيش الدائرة السنية ، وكانت أملاكها الزراعية تبلغ نحو ثلثمائة ألف فدان ، يتبعها تسع معامل كبيرة لعصير القصب وصناعة السكر ، باعها إلى شركة سوارس مقابل ثمن قدره ستة ملايين وأربعمائة ألف جنيه ، وهو قيمة الدين الذى كان على الدائرة فى ذلك الحين ، وكانت صفقة خاسرة لما فيها من الغبن الفاحش على الحكومة والريح الهائل للهابيين الأجانب

الشروع فى بيع سلك حديد السودان

والظاهر أن سنة ١٨٩٨ كانت بمثابة سنة التصفية ، ففضلاً عن انشاء البنك الأهلى وبيع البواخر الحديدية والدائرة السنية ، شرع المستشار المسالى البريطانى فى بيع سلك حديد الحكومة فى السودان إلى شركة انجليزية ، بحجة حاجة الحكومة

إلى المسال لتدبير نفقات الحملة على السودان ، فاعترض الخديو على هذا البيع ، ولما رأى إصرار اللورد كرومر على عقد الصفقة استنجد بتركيا بحجة أن هذه السكك الحديدية هي من أملاك مصر التي نص فرمان توليته على عدم جواز التصرف فيها أو التنازل عنها ، وأبرق إلى سلطان تركيا يعرض عليه الأمر ويطلب منه النجدة . فجاء الرد بشكره وإقراره على موقفه باعتبار أن السكك الحديدية أنشئت للجيش ، وأن بيعها مخالف للسيادة التركية ، فراجع اللورد كرومر وتقرر عدم البيع .

حوادث السودان

وفي عهده وزارة مصطفى فهمي باشا حصلت التجريدة على السودان لاستعادته ، وتم استرداده ، ورفعت الراية البريطانية عليه ، ثم أبرمت اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ ، مما نوجزه فيما يلي

حملة دنقلة سنة ١٨٩٦

بقيت الحكومة المصرية ملتزمة موقف الجود حيال السودان ، حتى ترامى للحكومة البريطانية سنة ١٨٩٦ استرداده بالاشتراك مع مصر ، فقررت الحملة على دنقله ، وأوعزت إلى الحكومة المصرية تجريدتها بقيادة اللورد كاتشنر سردار الجيش المصرى ، ولم تكن الحكومة المصرية الا منفذة لإرادة الحكومة البريطانية ، وقد بلغ بها الخضوع والاستسلام أن رئيس الوزارة لم يعلم شيئا عن أمر هذه الحملة الا في اليوم الذى ذهب فى مسائه إلى الخديو وأخبره بأن اللورد كرومر أفضى إليه بأن الحكومة الإنجليزية قررت إرسال حملة إلى السودان ، فلم يكن من الحكومة المصرية الا أن قررت فى اليوم التالى تجريد هذه الحملة

أقرت الحكومة المصرية فى ١٢ مارس سنة ١٨٩٦ الحملة على دنقله ، وكانت حملة جديدة منظمة ، إذ حشدت على الحدود جيشا مؤلفا من ١٦٦٨٠ مقاتل منهم سبعمائة ضابط ، وهو مجموع الجيش المصرى إذ ذاك ، وأمدته بكل وسائل الزحف والتموين والنقل ، ولكنها حصرت الأعمال الرئيسية فى القواد والضباط الإنجليز ،

فكان منهم قائد عموم الحملة (اللورد كتشنر^(١)) ، ورئيس أركان الحرب ، ومدير قلم المخبرات ، وحكيمباشي التجريدة ، والحكيمباشي البيطري ، ومدير المهمات ، ومدير حملة النقل ، ومدير سكة الحديد ، وأركان حرب التلغراف وقواد الفرسان والطوبجية والهجانة والمشاة ، وقواد اللوآت جميعاً

وكان إسناد القيادة العليا والأعمال الرئيسية على النحو المتقدم إلى الانجليز من الأسباب التي أفقدت الحملة حماسة الشعب ، إذ رأوا فيها ظهراً من مظاهر السيطرة البريطانية ، فقوبلت الحملة بالفتور ، وعدوها حاققة من سلسلة التداير الإنجليزية ، بدأت بالاحتلال العسكري سنة ١٨٨٢ ، ثم إلغاء الجيش المصري سنة ١٨٨٣ ، وتغلغل الإنجليز في شؤون الحكومة ، ثم إجبارها على إخلاء السودان سنة ١٨٨٤ ، وترك الثورة تستفحل في نواحيه ، ثم اعتزام فتحه سنة ١٨٩٦ لحساب انجائرا بالاشتراك مع مصر ، وكان معروفاً أن انجائرا لم توقع على الحكومة المصرية بتجريد الحملة على السودان في تلك السنة الا تقاوم مشروع الفرنسيين في الوصول إلى أعلى النيل وقد أبدى الجيش المصري في وقائع استعادة السودان من الشجاعة والكفاية والصبر واحتمال المشاق ما جعل تاريخ هذه الوقائع صفحة مشرقة لمصر ، وإن كانت ثمرتها قد استأثر بها الاحتلال

وأول عمل منهك قام به الجنود هو مد السكة الحديدية في صحراء النوبة (انظر الخريطة ص ١٢١) ليتسنى للجيش أن يزحف ويحتفظ باتصاله بقواعده العسكرية ، وقد عانى الجنود المصريون ضروب المشاق والأهوال في اشتغالهم بإنشاء السكة الحديدية في تلك الصحراء المقفرة ، إذ كانوا يعملون إبان القيظ الشديد ، وكثيراً ما كان يعوزهم الماء في شدة الحر ، فسقط منهم العشرات موتى من وطأة الحر وشدة ما عانوه من التعب والإعياء في الشمس المحرقة

(١) كان وقتئذ السر هربرت كتشنر ، ونال لقب (لورد) بعد فتح الخرطوم سنة

١٨٩٨ ، وسمى لورد كتشنر أوف خرطوم

واقعة فرکه (٧ يونيه سنة ١٨٩٦)

كان أول عمل تمهيدى للحملة مد السكة الحديدية إلى آبار (امبقول) بصحراء
النوبة وقد كانت شراذم الدراويش تصل إلى تلك الآبار وتحاول عرقلة العمل في مد
السكة الحديدية ، فاعتزم السردار إقصاءهم عن (فرکه)^(١) ، فزحف الجيش من (عكاشة)
في ٦ يونيه وهاجم معسكر الدراويش في (فرکه) فجر اليوم التالي (٧ يونيه) ،
و دار قتال شديد انتهى باستيلاء الجيش على المعسكر وفر الدراويش جنوباً
وقد لاقى الجيش المصرى في هذه الحملة عناءً كبيراً من شدة الحر وهبوب
الاعاصير في الصحراء ، وقطع المراحل الشاسعة ، ثم ظهور الكوليرا والحمى
التيفودية في الجيش

واقعتا الحفير ودنقله (سبتمبر سنة ١٨٩٦)

وزحف الجيش برا وبطريق النيل حتى بلغ (الحفير) حيث كان الدراويش
ممتنعين ، فأجلاهم عنها وعبر النيل في فجر يوم ٢٠ سبتمبر واحتل دنقله عاصمة المديرية
يوم ٢٣ سبتمبر ، وتقدم الجيش فاحتل (الدبة) ثم (مروى) على النيل ، ودانت
مديرية دنقله كلها للجيش المصرى ، وكان الأهليون يستقبلونه أينما حل بالترحيب
والتهليل ، إذ رأوا من مظالم التعايشى وفساد حكومتهم ما جعلهم يتوقون إلى رجوع
الحكم المصرى

استرجاع (أبى حمد) و (بربر) - ١٨٩٧ - ١٨٩٨

استقرت الحملة في دنقله حتى تم مد السكة الحديدية ويتم تنظيم الحكم في مديرية
دنقله ، وقد عمل الجند في الخط الحديدى إلى (السكريمة) بحرى دنقله ليتفادى
الجيش شلالات (المحس) و (سكوت) ، ثم مد خطاً حديدياً آخر من حلفا إلى
أبى حمد رأساً مخترقاً صحراء النوبة ، وفي غضون ذلك استأنف الزحف ، فالتقى

(١) بين وادي حلفا ودنقله

بالدراويش في (المتمة) يوم أول يونيه سنة ١٨٩٧ ، إذ نشبت المعركة بينهما وانتهت
بهزيمة الدراويش ، وهزم الدراويش أيضا في واقعة (أبي حمد) واحتل المصريون
البلدة يوم ٧ أغسطس سنة ١٨٩٧ ، واسترجع الجيش المصري (بربر) في ٦ سبتمبر
ثم (شندی) في ٢٦ مارس سنة ١٨٩٨

واقعة عطبره (ابريل سنة ١٨٩٨)

وواصل الجيش المصري الزحف فالتقى بجموع الدراويش في (عطبره) قريبا
من ملتقى نهر عطبره بالنيل يوم ٨ أبريل سنة ١٨٩٨ ، فهزمهم ثم هزيمة وأسر
قائدهم الأمير محمود ، وقتل منهم في هذه الواقعة نحو ثلاثة آلاف قتيل وأسر منهم
ألفان ، وكانت هذه المعركة إيذانا بسقوط دولة الدراويش

واقعة أم درمان واسترجاع الخرطوم (١ - ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨)

ثم شرع الجيش المصري بعد واقعة عطبرة يستعد لانزحف على الخرطوم فزاد
السردار عمال السكة الحديدية ، ومدت من أبي حمد إلى عطبره ، وجاءه مدد من
الجنود زاد به عدد الجيش فبلغ نحو ٢٥ ألف مقاتل ضم اليه نحو ألفي مقاتل من
العربان المواليين للحكومة ، وبدأ الزحف في أغسطس سنة ١٨٩٨ ، وما ان علم
التعايشي (خليفة المهدي) بهذا الزحف حتى أخذ يستعد للقتال وحشد الجموع والمقاتلة
في أم درمان وأقام الطوابي للدفاع عنها فضلا عن الطوابي القديمة ، وكان عنده من
المدافع التي غنمها الثوار من الجيش المصري في وقائع الثورة ٦٣ مدفعا ، وأمر
بصنع الألغام لمقاومة وابورات الجيش في النيل

وفي فجر أول سبتمبر سنة ١٨٩٨ زحف الجيش المصري تصحبه البواخر
النيلية على (أم درمان) ، فتجاوز جبل (كرري) ظهر ذلك اليوم ووقف بمكان
يدعى (العبيجة) على بعد نحو ثمانية أميال من أم درمان ، ثم تقدمت البواخر
والعربان الموالية للحكومة واستولوا على بعض الطوابي الامامية للخرطوم ، وسارت
البواخر حتى وصلت الخرطوم فاستولت عليها عصر ذلك اليوم ، وكان التعايشي ممتعا في

(أم درمان) ، فأخذت بطاريات المدافع ترميها بالقنابل ، وخرج التعايشي بجميع جيوشه من أم درمان لملاقاة المصريين غربى المدينة ، وكان معه من المقاتلة ٥١٧٨٩ ، منهم ٨٦ أميراً (قائداً) و ٥٤٩٥ فارساً و ١٤٣٠٠ راجلاً مسلحين ببنادق الرمتون التى غنموها فى المعارك السابقة ، والباقون مسلحون بالسيوف والحراب ، زحف بهذه الجموع لملاقاة الجيش المصرى يوم الجمعة ٢ سبتمبر ، ف وقعت المعركة المعروفة بواقعة (أم درمان) ، إذ هجمت جموع التعايشي فى هيئة هلال على معسكر الجيش المصرى على شاطئ النيل ، فسكانت المدافع تصدهم حصداً ، وهم لا يهابون الموت ، وانتهت الواقعة بهزيمة التعايشي ، فتقدم الجيش المصرى واحتل أم درمان ظهر يوم ٢ سبتمبر ، وبلغت خسائر الدراويش فى هذه الواقعة عشرة آلاف قتيل ، والجرحى والأسرى مثل هذا العدد. أما خسائر الجيش المصرى فبلغت ٤٩٠ قتيلًا وجرحيًا وقد فر التعايشي جنوباً بعد الواقعة واستقر فى جبل أبى قدير ، فسارت إليه حملة بقيادة السير ونجت باشا وكيل السردار انتهت بقتله بواقعة (جديد) فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩ ، وبموته سلم البقية من أتباعه ، وتقلص ظل الفتنة المهدوية من السودان

رفع الراية البريطانية على السودان

وفى يوم الأحد ٤ سبتمبر ، بعد واقعة أم درمان بيومين ، عبر السردار النيل إلى الخرطوم ، ورفع الرايتين المصرية والانجليزية على أطلال سراى الحاكم العام ، فقبول رفع الراية الانجليزية على الخرطوم بالدهشة والسخط فى مصر ومن الضباط المصريين فى السودان ، إذ كان المفهوم أن السودان أرض مصرية وأن استرداده كان لحساب مصر ، وبجنودها وأموالها وجهودها ، ولسكن ولاء وزارة مصطفى فهمى باشا للاحتلال واستسلامها للغاصب جعل الانجليز يعمنون فى الاعتداء على حقوق مصر ، فان رفع الراية الانجليزية على الخرطوم كان إيذاناً بوضع السودان تحت الحماية البريطانية ، ولم تحرك الوزارة ساكناً أمام هذا الحادث الجلل ، بل مر كأنه حادث عادى !

اتفاقية ٩ يناير سنة ١٨٩٩

وأعقب رفع الراية البريطانية على الخرطوم توقيع اتفاقية السودان في ٩ يناير سنة ١٨٩٩ ، وقد سبق الكلام عنها في الفصل الثامن (ص ١٣٠) ، وتنفيذا للاتفاقية عين اللورد كيتشنر حاكما عاما للسودان ، مع بقائه سرداراً للجيش المصري ، ثم تخلى عن منصبه سنة ١٨٩٩ حين اختارته حكومته لقيادة الجيش البريطاني في حرب البوير فصدر الأمر العالي بتعيين السير ريجنالد ووجت باشا سرداراً للجيش المصري وحاكماً عاماً للسودان تعديل الحدود بين مصر والسودان

وتنفيذاً لاتفاقية السودان أصدرت الحكومة المصرية قراراً في ٢٦ مارس سنة ١٨٩٩ بتوقيع وزير الداخلية (مصطفى فهمى باشا) جعل نهاية الحدود بين مصر والسودان خطاً يمتد غربى النيل على مسافة ٢٠٠ متر شمالى البربة السكائنة بناحية (فرص) وشرقى النيل إلى البربة السكائنة بناحية (ادنجان) ، ووضعت هناك علامتان مكتوب على وجهة كل منهما الشمالية (مصر) والجنوبية (السودان)

تمرد فى الجيش المصرى

وفى يناير سنة ١٩٠٠ حصل تمرد فى فرقتين بالجيش المصرى فى السودان على أثر صدور أمر نائب الحاكم العام بتجريد الجيش من سلاحه وذخيرته ، فأبت الفرقتان إطاعة هذا الأمر لما فيه من الامتهان لسكراتهما وعدم الثقة فى الجيش ، وقد سجن الضباط المتهمون بالتحريض على التمرد وأحيلوا إلى مجلس تحقيق لمحاكمتهم وانتهت المحاكمة بطرد سبعة من الضباط من خدمة الجيش ، وهم اليوزباشى محمود افندى مختار . واليوزباشى حسن افندى لبيب . والملازمون الأول مصطفى لطفى وصالح زكى . ومحمد افندى توفيق يوسف . والملازمان الثانىان عبد الحميد شكرى . وادريس افندى عبدالله . وإحالة اليوزباشى محمود افندى حلى إلى المعاش . والملازم الثانى أحمد افندى شاكر (بك) إلى الاستيداع . وتوبيخ الملازمين الثانىين عثمان افندى عارف (بك) ومصطفى افندى محمود الشامى (١)

(١) تلقينا هذا البيان من حضرة الأميرالامى محمود بك حلى اسماعيل . فلهنا جزيل الشكر

وقد استحضرتهم الخديو وعنفهم على ما وقع منهم ، وأبدى تأييده للسردار
ونجحت باشا

زيارة الخديو للسودان

وفي أواخر سنة ١٩٠١ زار الخديو السودان ، فوصل الخرطوم في ٣ ديسمبر ،
واستقبل استقبالاً رسمياً حافلاً ، وأقيمت له حفلة ترحيب أمام سراي الحاكم العام
حضرها كبار الضباط والموظفين ونخبة علماء البلاد وأعيانها ، وألقى السير ريجنالد
ونجحت باشا سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام خطبة ترحيب بمقدم الخديو ،
فرد عليه بالخطبة الآتية :

« إنى أشكر لكم الخطاب الذى حيتمونى به وأؤكد لكم بأنى أعد من أعظم
مسرأتى رؤيتى إياكم فى هذه البلاد الشاسعة التى قربتها منا سكة الحديد العجيبة التى
ملأتى ارتياحاً وابتهاجاً

« الآن وقد رأيت هذه البلاد عرفت الصعوبات والمشقات التى لاقاها من كانت
لهم يد فى الحملات التى كانت نتيجتها محو سلطة عبدا لله التعايشى وإعادة العدل والراحة
والسكون فى جميع أنحاء السودان

« العلىسان الانجائزى والمصرى اللذان يخفقان الواحد بجانب الآخر هما إشارة
إلى الحكومة المشتركة التى أخذت على عاتقها حماية الأهالى من الوقوع فى شرك
أهل الظلم والفساد . وابتداء عصر هدوء وسعادة فى هذه الديار ، ولقد سررتى أيضاً
ما أشاهده من تقدم مدينة الخرطوم فى العمران ، واعتقدوا أنى سأحفظ لكم
أحسن ذكرى لا حتفائكم فى هذه الزيارة الأولى ، وإنى ليشملى السرور كلما
سمعت بتحسين أحوالكم وتقدمكم فى الرفاهية التى أرى شواهدا بدت فى كل الأرجاء .
هذا وإنى أنعم الآن بكل ارتياح ببعض النياشين على بعض كبار علماء الدين وسأأنعم
بها فيما بعد على الضباط والموظفين والأهالى الذين يعرض لى عنهم سعادة السردار
والحاكم العام بناء على التقارير السنوية التى ترد له من المديرىات ، ثم أكرر شكرى
لا حتفائكم فى احتفاء صادراً عن حسن نية وخلوص طوية ،

وتعد الخطبة في مجموعها إقراراً لاتفاقية السودان ولنظام الحكم المشترك الذي
قضت به ، وقد صعد الخديو في النيل الأبيض ثم النيل الأزرق ، وعاد إلى الخرطوم
وبرحها إلى مصر في يوم ٧ ديسمبر سنة ١٩٠١

افتتاح سكة حديد بورسودان (يناير ١٩٠٦)

بورسودان هو ثغر قائم على شاطئ البحر الأحمر على مقربة من سواكن ، وقد
عمل الإنجليز على إنشائه لكي يكون ميناء السودان ، ويعرف قبلاً باسم (الشيخ
برغوث) وكان مرفأً صغيراً لا يصلح لإيواء سفن الملاحة ، ثم زاره المستر ويليم
جارستن مستشار وزارة الأشغال واقترح جعله ثغر السودان بدلاً من سواكن ،
فأقرت الحكومة الإنجليزية رأيه ، وأخذت حكومة السودان (بأموال مصر) تصلحه ،
وشيدت فيه المباني والمنشآت ، وأسمته (برر سودان) ، واحتفلت يوم ٢٧ يناير
سنة ١٩٠٦ بافتتاح السكة الحديدية التي تصله بالنيل ، وكان الاحتفال برأسه اللورد
كرومر معتمد إنجلترا في مصر ، ولم يحضره أحد عن الحكومة المصرية ، وقد ناب
اللورد كرومر عن الخديو في هذا الاحتفال . . . فكانت الحفلة الإنجليزية محضنة
تجلت فيها السيطرة الإنجليزية في السودان ، واستبعدت فيها مصر وحكومتها
بشكل مهين

الفصل السابع عشر

مصطفى كامل والخديو عباس

بدأت نشأة مصطفى كامل الوطنية عام ١٨٩٠ كما أسلفنا ، وتقع هذه السنة في أواخر عهد الخديو توفيق ، قبل وفاته بعامين ، فتاريخ هذه النشأة يدل على أنها غرس إلهام الفقيه وعبقريته ، إذ لم يكن في ذلك الحين عوامل أخرى تساعد على ظهورها ، ثم تولى عباس الثاني مسند الخديوية في يناير سنة ١٨٩٢ ، وهو في الثامنة عشرة من عمره ، وقلبه مملوء آمالا كبارا في أن تسترد مصر استقلالها في عهده ، وسماه أن رأى الانجليز قد وضعوا أيديهم على وزارات الحكومة ومصالحها ، فاعتزم وضع حد لهذا التدخل غير المشروع ، ورسم لنفسه في أول عهده بالحكم سياسة مقاومة التدخل البريطاني ، وفي الحق إنها سياسة قومسية بمدوحة تدل على ميول وطنية طيبة وشجاعة نادرة جعلته وقتنا ما يغامر بعرضه

وجد الخديو عباس في مصطفى كامل الزعيم الوطني الشاب الذي استطاع على حداثة سنه أن يحمل علم الجهاد ، فأعجب بهذه الشخصية الفذة ، إذ وافقت ميوله وآماله في بداية حكمه ، فأمدّها بالمال والتأييد وقتاً ما ، ومن هنا توثقت روابط الود والتعاون بين مصطفى كامل والخديو عباس ، في السنوات الأولى من حكمه ، ومن واجب المؤرخ المنصف أن يذكر هذه الحقيقة ، ويعدّها مآثرة لعباس الثاني ، فإنه قام من هذه الناحية بقسط محمود في تأييد الحركة الوطنية ، والملوك والأمراء في كثير من المواطن لهم فضل على النهضات القومية في مختلف نواحيها ، الوطنية والسياسية والاقتصادية ، أو العلمية والاجتماعية ، أو الأدبية والفنية

ساهم إذن الخديو عباس في الحركة الوطنية وقتاناً بماله ونفوذه الأدبي ، على أن العلاقة بينه وبين مصطفى كامل قد اعترأها الفطور بعد ذلك ، ثم التقاطع ، بسبب عدم ثبات الخديو على خطة واحدة ، واستماعه إلى الوشائيات والدسائس ، وكانت

مينة الفقيه أنه احتفظ باستقلاله وعلو نفسه تجاه الخديو ، ورأى في استقلال الحركة الوطنية عنه ما يزيد قوة وروعة ، كتب في هذا الصدد إلى صديقه وزميله في الجهاد محمد بك فريد ضمن كتاب له بتاريخ ٥ أغسطس سنة ١٨٩٨ يقول :

« باريس في ٥ أغسطس سنة ١٨٩٨ »

« أخى الأجد الفريد أعزه الله »

وأقبلك ألف قبلة ، وأهديك أطيب تحية ، وصلني بالأمس خطابك الكريم كما وصلني يوم الجمعة الماضية ما طلبته منك ، فلك الشكر مزدوجاً ، شرف العزيز وسافر ، وتشرفت بمقابلته جملة مرات — هذا الخبر لك وحدك — وعلمت منه أموراً جمة سرّتها للغاية ، وشرحت صدرى ، وحققت لى أن الأمل ملء فؤاده ، وأن ليس لليأس عليه سلطان ، وسأقبله مرة أخرى في الشهر الآتى ، وقد قابل هنا وهناك كل ذى شأن وكل عظيم ، واستمال من لا يستمال ، فله منا الود والإخلاص والحب الحقيقي ، وإنه لجدير بأن تتفانى في محبته ، ولم أكلفه مدة وجوده ولم أطلب منه شيئاً ، ولو أن سفرى لألمانيا سيكلفنى كثيراً ، وذلك لأنى لا أود أن أجعله يرتاب فى إخلاصى الخالص له ، وسأبذل جهدى بعد عودتى للوطن المحبوب فى أن أكون مستقلاً غاية الاستقلال لنزداد عنده مكانة ونفوذاً ،

وهذا الخطاب (الذى نشرنا صورته بالزنسكجراف ص ٢٣٨) يلقى شيئاً من الضوء على علاقة مصطفى كامل بالخديو ، ويدل على إخلاص الفقيه وإبائه وعلو نفسه ، وليس يخفى أن الخديو قد فترت صلته بالحركة الوطنية ، وتزعزت ثقته فيها بعد حادثة فاشودة ، وضعف أمله فى الجلاء ، فأخذ فى التجيب إلى الاحتلال والنزول على إرادته ، وبعدت الشقة تبعاً لذلك بينه وبين الفقيه ، على أن مصطفى كامل كان يرى بثاقب نظره ألا يقع الانقسام بين الأمة والخديو فيستفيد الاحتلال من هذا الانقسام ، كما استفاد من الخلاف الذى شجر بين توفيق باشا والعرابين ، لذلك كان يعمل دائماً على إيجاد جو من التفاهم بين الخديو والأمة ، ويدعو إلى تعلق الأمة بالعرش ، على الرغم من اختلاف وجهتى نظرهما

(كتاب الفقيد إلى فريد بك في ۵ أغسطس سنة ۱۸۹۸)

بإني في ۵ أغسطس ۱۲۹۸

أخي الأحمق العزيز

اشكك العاقبة واحمدك لحيث نجيت . ومن الجوس صحتك
 الكرم كما وصلني يوم كريمة بالاسم - ما طلة منك بشكر سرودها
 شرف الصابرة وسار وشرقت تقاليد عمارات - هذا المنزلك
 مدرك - ولما في امد اعمى سرتي فعاقبة وشرقة صبره وعصفه في
 انه لا أمل من فؤاده وانه ليس ~~للبئاس~~ للبئاس على سلطان وساقبم
 من اخرى في استمالان وقد خال صديقك كل ذي شأن وكل
 مطيع في انك من لا يستمال فدمما الودود جنة من دالح المستنير
 كبرياءه تقاني في محبة . ولم اكله من وعده اوله اظهره في سبيا دلالة
 سفره للامانيا سكلتو كثيرا كرا - وذلك لان لا اود انه اجه برتابه في جنتك
 المالكه وسائل عودك بعد عودك للوطن الحمد في انك كونه مستنير في
 الاستقلال لتزداد عنده مكانة وشفرة

اخترت في احوال الملكيت وبلغت حاله من رخصتك المحبوب اجمع
 بك والاشترى ان كسر داله حبه صاعبه لانه

ارجو ان ياتي المنزل كل يوميه مرة واحدة في رحمة بعلمه وخبائه
 تقبل العاقبة منك ولا تقمرا في اف نواحيه طلبات

دور في مملكتك ولتدافع

قطع علاقته بالخدوي

خطاب ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٠٤

ثم جاء الاتفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا في أبريل سنة ١٩٠٤، وظهر انحياز الخديو بشكل واضح إلى الاحتلال، فرأى أن يقطع علاقته به، وأعلن في اللواء^(١) أنه اعتزم الابتعاد عنه حتى لا يظن أحد أن عليه شيئاً من المسؤولية في جهاده السياسي. قال في هذا الصدد: «إن المخلص في عمله يجب أن يؤدي الواجب عليه ولو ضحى في سبيله، واصلحته الذاتية وأعز ما تميل إليه نفسه»، وقال: «وإني لا أشك في أن كل قارىء بل كل مصرى عرف خطتي وخبر مبادئي يدرك حقيقة مسعاه ومقصدي، ويعلم أنني لم أطلب بذلك إلا خدمة البلاد وعرش الخديوية بالثبات الذي لا تغلب عليه الأيام، والعقيدة الراسخة التي قد تتحول الجبال وهي لا تتحول».

وقال في حديث له في جريدة (البول مول جازيت) الإنجليزية في ديسمبر سنة ١٩٠٦: «لما رأيت رغبة سموه في توطيد الصلات الحسنة بينه وبين ملك الإنجليز وحكومته، وجدت من واجباتي أن أكون بعيداً عن سموه»^(٢)، وقد أرسل عقب عودته من أوروبا سنة ١٩٠٤ الكتاب الآتي إلى الخديو، يصارحه فيه بموقفه حياله. قال:

مولاي

«تشرفت في ديفرون بالمشول بين يدي سموكم يوم ٢٧ أغسطس الماضي (سنة ١٩٠٤) ورفعت إلى مقامكم السامي أن الحالة السياسية الحاضرة تقضي عليّ بأن أكون بعيداً عن فخامتكم، وأن أنحمل وحدي مسؤولية الخطبة التي أتبعها نحو الاحتلال والمحتلين، منعا لتكدير خاطركم الشريف، ودفعاً لما عساه يقع من الخلاف والنزاع». وقد رأيت يا مولاي بعد التفكير أنه صار من المحتم على القيام بهذا الواجب،

(١) عدد ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٠٤

(٢) اللواء عدد ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٠٦

وأنه أول عمل يلزمني تأديته عقب عودتي إلى الوطن العزيز لأن الإنجليز أظهروا في
خلال السنوات الأخيرة من التضيق على جنابكم العالي ما يجعل وجود رجل ينتقد
سياساتهم في الصباح والمساء بجانب سموكم داعياً لاعتدائهم على حقوق ذاتكم السنوية
وحجة لتدخل جديد غير محمود

« وإني بعد أن رأيت احتجاجهم على جنابكم الرفيع بمناسبة المقابلة التي تفضلت
بجلالة ملكة البرتغال بمنحى إياها ، ومعارضتهم الغنيمة لفخامتكم بسبب الاستقبال
الودي الذي نالته مدام جوليت آدم من لديكم ، وتصريحهم بأن إنجلترا لا تسمح
لجنابكم العالي يا كرام من يعادياها ، وادعاءهم بأن كل ما يكتب أو يقال ضدكم موعز
به من سموكم ، أعد نفسي مقصراً تقصيراً حقيقياً في تأدية الواجب نحو مقامكم
الرفيع إذا أبقيت صلتى بسموكم على حالها وفضلت نعمة التقرب منكم على القيام
بواجب تدعو إليه الوطنية والسياسة

« وإني أرجو أن يعتقد مولاي حفظه الله أني لم أقصد إلا محض خدمته بماقلته
لسموه بشأن أولئك المفسدين الذين يلتصقون بالمعية ويضرون بها أكثر من أعدائها
الظاهرين ، ويدخلون اسمكم الكريم في كل حادث ، غير حاسبين لرأى العام حساباً ،
وغير ذاكرين أن عرش الخديوية هو البقية العزيرة لاستقلال البلاد ، وأنه يجب
أن يكون على الدوام محاطاً بالاحترام التام والإجلال العام ، ليقاوم القوتين المحاربتين
له ألا وهما الاحتلال والزمان

« وإنه ليحلولى أن أبقى إلى آخر لحظة من حياتى خادماً لتلك المبادئ الوطنية
العالية التي كنتم سموكم أول الداعين إليها والمنادين بها ، وأن تزداد كل يوم اتساعاً
الهوة التي بيني وبين الذين ادعوا خدمة الوطن ليخدموا مصالحهم ثم انقلبوا عليه
بلا خجل ولا حياء

« وإني أتشرف يا مولاي بأن أرفع إلى سدتكم العلية واجبات الشكران على
جليل التفاتكم وسامى رعايتكم ، وأقدم إلى المقام الرفيع أسمى ما يليق من التجلة والإعظام ،

مصطفى كامل

مصر في ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٠٤

وهذا الكتاب يدل على إخلاص الفقيه في جهاده ، وهو لعمرى صفحة مشرفة من الشجاعة الأدبية ، لأن مجاهرة الخديو وهو وقتئذ سيد البلاد الشرعى بقطع علاقته به ، ومقاومة الاحتلال وهو فى أوج سلطانه ، كل أولئك عمل يقتضى حظا كبيرا من الجرأة والاستقلال ، ولا يقدم عليه إلا من تغلبت فيه الشجاعة والوطنية ، على كل اعتبار للمصلحة الشخصية

وفى الحق إنه لم يكن ممكنا أن يستمر مصطفى كامل على اتصاله بالخديو ، لأن عباس الثانى قد عرف عنه عدم الاستقرار فى الميول والخطط والآراء ، وقد تغيرت نفسه كثيرا من يوم أن تراجعت فرنسا فى حادثة فاشودة ، وبخاصة حين عقدت وانجلترا ذلك الاتفاق الودى الذى تعهدت فيه بأن لاتضع العقبات أمام انجلترا فى مصر ، فهذه الصدمات السياسية التى لم تنل من مصطفى كامل قد كان لها تأثير عكسى فى نفس الخديو ، وألقت اليأس فى قلبه من نجاح سياسة مقاومة الاحتلال ، فانصرف إلى حياة المال والمتاع ، والمال كثيرا ما يفسد النفوس ويغير من الطباع

وقد ظهر استقلال مصطفى عن الخديو فى استهجانه إحالة حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديوى الى المعاش ، إذ أظهر أسفه على حرمان هذا المنصب السامى من رجل اشتهر بالنزاهة والكفاية ، وقد كانت إحالته إلى المعاش بأمر الخديو بسبب موقفه الشريف فى الحادثة المعروفة بحادثة مشتهر ، وخلاصتها أن أحد المالىين اليونانيين الذين لهم صلة بالخديو (وهو المسبورز فودا كى) عرض على ديوان الأوقاف أخذ أطيان له بالجيزة مقابل تفتيش مشهر التابع للأوقاف ، والذى كان اتفق مع الخاصة الخديوية على شرائه ، وعرضت صفقة البدل على مجلس الأوقاف الأعلى ، وكان حسن باشا عاصم من أعضائه ، فرفض إقرار الصفقة برغم أنها كانت تمم الخديو ، فكان موقفه وهو رئيس الديوان الخديوى دليلا على استقلاله ونزاهته^(١) ، وكان انتقاد الفقيه إحالته إلى المعاش تحديا للخديو ومعالجة له بالعند.

وانتقد أيضا وقوفه تحت العلم البريطاني في حفلة استعراض الجيش الإنجليزي بميدان عابدين في نوفمبر سنة ١٩٠٤ ، ولم يسكن يحضرها من قبل ، حتى اضطرت المعية إلى إصدار بلاغ رسمي تنسب فيه حضور الخديو هذه الحفلة إلى المصادفة (انظر ص ١٨١) ، وانتقد انصرافه إلى مصالحه الخاصة في مقالة له بعدد ١٠ أبريل سنة ١٩٠٤ من اللواء ، بمناسبة اعتراضه على طلب المجلس النيابي من الإنجليز ووجوب طلبه من الخديو ، إذ قال :

« إن سمو الأمير هو المطالب وحده بإعطاء مصر مجلسا نيابيا ، ورفع صوته في هذا الشأن ، والجهاد في سبيله حتى تناله الأمة ، أما الذين يعلنون بأعمالهم وقرانهم أن سمو الأمير أصبح عديم الحول والقوة وأن لاملجأ للمصريين إلا إنجلترا والإنجليز وأنه يجب عليهم ألا ينتظروا من أميرهم شيئا ، ويشيرون على سموه بإصمالاته وصراف أرقائه وكل مجهوداته لمصالحه الخاصة دون المصالح العامة ، فهم ألد أعداء البلاد ، هم الذين يمسكون المحتل فعلا ويهددون عرش الخديو حقيقة ،

ومن يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٩٠٤ وهي آخر مقابلة له بالخديو ، انقطعت علاقته به ، وكان انقطاعه عنه مما زاده منزلة ورفعة ، إذ ظهر استقلال الحركة الوطنية عن الخديو أكثر من ذي قبل ، ولما أصدر العقيد جريدتي ليقنطار اجبشيان الفرنسية وذي اجبشيان استاندرد الإنجليزية في أوائل سنة ١٩٠٧ حنقت الصحف الإنجليزية من ظهورهما واتهمت الخديو بالمساهمة في رأس مالهما ، فنشر العقيد ردا على هذه المفتريات أسماء المساهمين في رأس مال الجريدتين ومقدار ما اكتسبوا به ، فكان هذا الإعلان قاطعا في إثبات أن لا علاقة للخديو بظهور الجريدتين ، ولا صلة له بهما

ولما استقال اللورد كرومر في أبريل سنة ١٩٠٧ وخلفه السير إلدون جورست اشتد انحياز الخديو عباس إلى السياسة البريطانية ، وظهر هذا التحول في حديثه مع المستر ديسي الذي نشرته جريدة الديلي تلغراف في مايو سنة ١٩٠٧ ، إذ نفى عن نفسه تهمة العمل ضد الاحتلال ، وذكر اللورد كرومر بالخير ، وصرح بأن المعتمد البريطاني لا يستطيع حكم مصر وحده ، وأنه مستعد للتعاون معه ، وأنه لا فائدة للمصريين

من استبدال احتلال باحتلال ، وأن الاحتلال البريطاني أفضل من أى احتلال آخر
ومعنى هذا الحديث فى مجموعته أن الخديو يصرح بأنه يرغب مشاركة المعتمد
البريطانى فى حكم البلاد حكما مطلقا ، فلم يحجم الفقيه عن انتقاد هذا الحديث انتقاداً
حازماً ، برغم صدوره من الرئيس الأعلى للدولة ، قال فى هذا الصدد :

« بما يجب علينا إعلاناه والجمهور به أمام الملأ كله أن تصريحات الجناب العالى
لا تقيدنا بأى حال من الأحوال ، لأن مركز سموه غير مركزنا ، على أن كل مصرى
صادق اوطنية لا يقبل مطلقاً أن يكون حكم مصر بيد سمو الخديو بمفرده أو بيد
المعتمد البريطانى ، أو بيد الاثنين معاً ، بل يطلب أن يكون حكم هذا الوطن العزيز
بيد النايعين والصادقين من أبنائه ، وأن تكون نظامات الحكومة دستورية
ونسائية (١) ، »

وقال فى موطن آخر :

« قد قلنا مراراً إن سمو الأمير بعيد عن الحركة الوطنية ، وإن المجاهدين ضد
الاحتلال مستقلون عن سموه كل الاستقلال ، فهو إن قال كلمة فى صالح الحركة
الوطنية خدم نفسه وعرشه ، واستمال أمته إليه ، وإن عمل ضدها أضر بنفسه
ويعرشه ، ونفر أمته منه ، ولكنه فى الحالتين لا يستطيع الإضرار بهذه النهضة ،
لأنها نهضة المطالبين بالحياة والوجود ، ومثل هذه النهضة لا يضرها إنسان مهما
كان قويا وعظيماً (٢) ، »

وقال : « إن مصلحة الشعب المصرى تقضى بأن تكون الحركة الوطنية بعيدة
عن الجناب العالى ، حتى يعلم العالم كله أن المصريين يطلبون بأنفسهم وطوعاً لعواطفهم
وشعورهم إصلاح حالة بلادهم وترقية شؤونهم ومنحهم الدستور ، وأن هذه المطالب
ليست صادرة بإيعاز من كبير أو أمير ، »

(١) اللواء ٢٦ مايو سنة ١٩٠٧

(٢) اللواء ٢٧ مايو سنة ١٩٠٧

وقال في مقال آخر :

و لقد اتهموا الحزب الوطنى تارة أنه موحى إليه من الدولة العلية ، وطورا
من ألمانيا ، وتارة أخرى من سمو الخديو ، وقد سقطت التهمتان الاوليان من قبل ،
وهذه الثالثة قد سقطت الآن معها ، فخان الأوان أن نهى أنفسنا ،

وكتب من (نيوهوزن) في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٠٧ كتابا إلى المغفور له محمد
بك فريد (نشرناه بالزئسكجوجراف فى هذه الصفحة) يدل على مبلغ استيائه من
خطة الخديو ، وتحييده الابتعاد عنه ، قال :

(خطاب الفقيه إلى فريد بك فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٠٧)

نيوهوزن فى ٢٣ أغسطس ١٩٠٧

أخ الامن حرسه

ألف قبلة والناسلام . ولله منة حينئذ استلام
فكك بك العزيز المذرف فى ١٥ اكتوبر سنة ١٩٠٧
من شكك فى الكار بشار

انما صار الآن مع عنائه بكه علكه الى باريس
احسبك عدم كفتينم الكديرون فى كتابك فنة عملت
عنه ما لا يسر . ولابه أن نقره السيكه زانه الوجدية
ضرة كبيرة . وكلما كان عند الوطنيه بعيداً عنه فان
الندوع محققا

دمت رافيك الملك
مخلصك

• نيوهوزن في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٠٧

• أخي الأعز حرسه الله

• ألف قبلة وألف سلام ، وبعد فقد حظيت باستلام خطابك العزيز المؤرخ
١٥ الشهر الجاري ، وسأقرأ مقالتك في القطار بإمعان لأنى مسافر الآن إلى باريس
• أرجوك عدم تفخيم الحديدو في كتاباتك ، فقد علمت عنه مالا يسر ، ولا بد
أن تضره السياسة ذات الوجهين ضرراً كبيراً ، وكلما كان عمل الوطنيين بعيداً عنه
كان الفلاح محققاً ،

فهذه الأقوال التي كتبها في الصحف أو في رسائله الخاصة تدل على عقيدة راسخة
في الواجب الوطنى الذى اضطلع به ، وترسم لنا صورة رائعة لتلك النفس الكبيرة
التي سمت بالحركة الوطنية ، وجعلتها قوية بذاتها ، مستقلة بمبادئها ، محتفظة بكرامتها ،
قوامها الإخلاص لمصر والنهوض بها إلى الاستقلال والحرية

الفصل الثامن عشر

مصطفى كامل وتركيا

أساء بعض الكتّاب تصوير خطة مصطفى كامل نحو تركيا ، فزعموا أنه كان من أنصار السيادة العثمانية ، لذلك نرى لزوماً علينا أن نضع الأمور في نصابها ، ونبين حقيقة خطته في هذه المسألة المهمة

إن مركز مصر الشرعي لغاية الحرب العالمية الأولى كانت تحدده معاهدة لندن المبرمة سنة ١٨٤٠ ، والتي تعتبر صكاً دولياً التزمت الدول باحترامه ، وأهم أحكام هذه المعاهدة الاعتراف باستقلال مصر المكفول من الدول ، وضمان عرش مصر في أسرة محمد علي ، وبقاء السيادة العثمانية عليها . وفي سنة ١٨٨٢ وقع الاحتلال البريطاني ، فعصف بالاستقلال المعترف به لمصر في تلك المعاهدة ، ونزل بها إلى مرتبة المستعمرات التي للحاكم العام البريطاني فيها مطلق التصرف في شؤونها ، فلما قام مصطفى كامل يدعو دعوته الوطنية كان واجبا عليه أن يحرص جهاده ضد الاحتلال البريطاني ، لأنه رأى بحق أن الجلاء هو الرمز الحقيقي للاستقلال ، أما السيادة العثمانية فإن التخلص منها من أيسر الأمور بعد التخلص من الاحتلال ، وبخاصة لأن هذه السيادة قد تراخت مع الزمن وكانت سائرة من نفسها نحو الفناء ، إذ لم يكن بقي من مظاهرها سوى الجزية التي كانت مرهونة للبيوت المالية الأجنبية من دائني تركيا وتحولت إلى هذه البيوت لغاية سنة ١٩٥٥

من أجل ذلك لم يجد مصطفى كامل من الحكمة أن ينادى في وقت واحد بجلاء الاحتلال البريطاني وبإلغاء السيادة العثمانية معا ، لأن معاداة تركيا في ذلك الوقت من أجل مسألة شكلية ستحل من نفسها ، كانت تؤدي حتماً إلى انضمام تركيا إلى جانب إنجلترا ، وتنازلها لها عن سيادتها ، وهذا ما كانت تبغيه إنجلترا ، فانها ما فتئت تسمى لدى تركيا لتتفق وإياها على أن تنازل عن سيادتها على مصر ، فلا تبقى أمام

انجلترا عقبة دولية تمنعها من إعلان حمايتها عليها ، ولقد سمي اللورد دفرين المندوب السامي البريطاني الذي أوفدته إنجلترا إلى مصر عقب الاحتلال مباشرة في أن تشتري الحكومة البريطانية من تركيا الجزية التي كانت تدفعها اليها مصر ، لتحل إنجلترا محلها في سيادتها القديمة ، فاعرضه شريف باشا الوزير الكبير ، كما رفضت تركيا هذا الحل ، وفي الواقع إن سيادة تركيا الإسمية هي التي حالت دون إعلان إنجلترا حمايتها على مصر من سنة ١٨٨٢ حتى سنة ١٩١٤ ، ولذلك لم تعلن إنجلترا هذه الحماية إلا في ديسمبر سنة ١٩١٤ بعد دخول تركيا في الحرب العالمية وسقوط السيادة العثمانية على مصر ، ويبدو هذا المعنى جليا في تبليغ الحكومة البريطانية إلى المغفور له السلطان حسين كامل في ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤ ، على أثر إعلان الحماية ، فانها قد صارحته بأن حقوق السيادة العثمانية قد آلت اليها بعد سقوطها ، قالت في هذا الصدد ما يأتي :

و بذلك تكون الحقوق التي كانت لسلطان تركيا وللخديو السابق على بلاد مصر قد سقطت عنهما وآلت إلى جلالة ملك بريطانيا العظمى ، ولما كان قد سبق للحكومة جلالته أنها أعلنت بلسان قائد جيوش جلالته في بلاد مصر أنها أخذت على عاتقها وحدها مسؤولية الدفاع عن القطر المصري في الحرب الحاضرة ، فقد أصبح من الضروري الآن وضع شكل للحكومة التي ستحكم البلاد بعد تحريرها كما ذكر من حقوق السيادة وجميع الحقوق الأخرى التي كانت تدعيها الحكومة العثمانية ، للحكومة جلالته الملك تعتبر ودبعة تحت يدها لسكان القطر المصري جميع الحقوق التي آلت اليها بالصفة المذكورة ، (١)

ومدلول هذا التبليغ أن زوال السيادة العثمانية ، والاحتلال البريطاني قائم ، معناه أيلولة هذه السيادة إلى الدولة المحتلة ، ومن ثم ازدياد مالها من القوة والسلطان في مصر

فهذه النتيجة التي وقعت سنة ١٩١٤ ، هي التي كان يتفادها مصرا لني كامل منذ

(١) التبليغ الوارد إلى المغفور له السلطان حسين كامل من قبل الحكومة البريطانية -

الوقائع المصرية عدد ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤

قام بجاهد في سبيل الاستقلال ، كان يتجنب اتفاق تركيا وانجلترا على تنازل الأولى
للثانية عن سيادتها ، لأن هذا الاتفاق كان ولا ريب يجعل له من النتائج أسوأ مما
كان للاتفاق الودي بين فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٤ ، ولو هو سعى ونجح في إلغاء
السيادة العثمانية والاحتلال قائم ، لسكان ذلك ربما حقيقيا لانجلترا ، إذ بذلك كان
يتسنى لها إعلان حمايتها على مصر ، فتزداد حالة البلاد سوءا ، ويصبح مركز الاحتلال
أقوى مما كان ، ففكرة عدم التعرض للسيادة العثمانية وقتئذ كانت هي الخطة الحكيمة
لمن يريد أن يجاهد الاحتلال ، ويعمل للجلاء ، أي يعمل للاستقلال الحقيقي ، لأن
التخلص من هذه السيادة كان أمرا هينا بعد التخلص من الاحتلال ، وقد سقطت
هذه السيادة من تلقاء نفسها خلال الحرب العالمية الماضية (الأولى) ، أما أنصار الاحتلال
الذين كانوا في خاصة أنفسهم لا يريدون الجلاء ، فهم الذين استشكلوا على الفقيه أنه
أقر السيادة العثمانية ، يضاف إلى ذلك أن أقوى حجة لمصطفى كامل على الاحتلال
أنه نقض لمعاهدة دولية أبرمتها انجلترا والدول جميعا ، وهي معاهدة لندن سنة
١٨٤٠ ، فكان بذلك يلزم الانحياز الحجة استناداً إلى هذه المعاهدة ، ويطالبهم باحترام
شروطها وأحكامها ، وقد اتخذ منها وسيلة شرعية ودولية لإقامة الحجة على الاحتلال
والمناداة بعدم مشروعيتها ، وكانت هذه الحجة أقوى الحجج التي أكسبت قضية مصر
الأنصار والأعوان في مصر وفي الخارج ، فلم يكن منطقياً ولا معقولاً أن يحتاج
الاحتلال بمعاهدة لندن ، ويطلب في الوقت نفسه نقضها فيما يتعلق بالسيادة العثمانية ،
لأن انجلترا كانت تعتبط بهذا الطلب ، إذ أنه يفتح لها الباب للتخلص من أحكام
هذه المعاهدة جميعها

فوقف مصطفى كامل من السيادة العثمانية كان موقفا قوميا حكما ، وهو يشبه
موقفه تجاه الامتيازات الأجنبية ، فلم يكن ينادى بإلغائها ، بل كان يقول باحترامها ،
لسكى لا يستعدى الدول والجاليات الأجنبية في الوقت الذي يجاهد فيه الاحتلال ،
وهو بذاته موقف الوفد المصري ، تجاه الامتيازات الأجنبية

فقد تألف الوفد المصري في نهاية سنة ١٩١٨ بعد إلغاء السيادة العثمانية فعلا ،
فلم يسكن هناك إذا من معنى للبطلية بإلغائها ، ومع ذلك فقد تمسك الوفد بهذه السيادة

للاحتجاج على اتفاقية السودان ، إذ اعتبرها باطلة لأن مصر ما كانت تملك إبرامها بحكم السيادة العثمانية ، ثم إنه فيما يتعلق بالامتيازات الأجنبية (وهي أشد وطأة من السيادة العثمانية) قد صرح في مطالبه ومذكرته إلى مؤتمر السلام أن مصر تعتبر أن واجبها يحتم عليها أن تضمن للأجانب التمتع بامتيازاتهم بكل دقة ،

وأعلن في مطالبه ، أن مصر تعلن أن امتيازات الأجانب فيها ستحترم بشكل دقة ، وإذا كان العمل أظهر أن بعضها يدعو إلى تحويل ألبق بمقتضيات الأحوال فإنها تعرض ما يعن لها من وجوه التعديل التي من شأنها المساعدة على تقدم البلاد مع صيانة المصالح المنظور فيها ، وتكون فيما تعرضه من ذلك واسعة الصدر ، غاية في الإخلاص والمجاهلة ، وتتعهد بالبحث في وضع طريقة للمراقبة المالية لا نقل في أهميتها بالنسبة للبلاد الأجنبية ذوات المصلحة عما كان متبعاً قبل اتفاقية سنة ١٩٠٤ ، ويكون أهم قائم بها هو صندوق الدين العمومي ،

ولم ينتقد أحد على الوفد المصري هذا الموقف الذي اتخذته بإزاء الامتيازات الأجنبية ، بل سوغه الجميع بحق ، إذ كان المنطق السياسي يقتضى ذلك ، وهو ذات المنطق فيما يلومون على مصطفى كامل من عدم الجهر بإلغاء السيادة العثمانية والاحتلال قائم ، فانه ما كان ليستطيع الوصول إلى إلغاء السيادة العثمانية وإلى الجلاء في وقت واحد ، بل كل ما كان يصل إليه لو جمع بين الأمرين أن يجعل تركيا وانجلترا صفا واحدا في مقاومة الأمة المصرية ، ولو تحتمق الجلاء فان إلغاء السيادة العثمانية ليس بالمطلب العسير على السياسة المصرية

فالمنطق في الحالتين واحد ، مع هذا الفارق الظاهر بين السيادة العثمانية ، والامتيازات الأجنبية ، فان الأولى كانت عقبة شكلية ، وكانت سائرة إلى الفناء من تلقاء نفسها ، بينما الامتيازات الأجنبية تنشئ حكومات أجنبية مستقلة داخل الحكومة الأهلية تغل يدها في التشريع وفرض الضرائب وإدارة الأمن العام ، وتقتضى بذلك على سلطانها وعلى سيادتها القومية في الداخل والخارج

يخلص من ذلك أن الدعوة الصادقة إلى الجلاء كانت تقتضى محاسنة تركيا وعدم مطالبتها وقتئذ بإلغاء سيادتها على مصر ، وإرجاء هذا المطلب حتى تنجو البلاد من

العقبة الكؤود التي تحول دون استقلالها وهي الاحتلال ، كانت محاسنة تركيا هي إذن السياسة القومية الرشيدة لمن يريد مقاومة الاحتلال ، وبخاصة لأن تركيا منذ وقع الاحتلال كانت لا تفتأ تطالب انجلترا بالجملاء ، وكانت هي الدولة الوحيدة التي انفردت بمطالبة انجلترا باحترام عهودها في المسألة المصرية ، وكان لها مندوب في مصر وهو أحمد مختار باشا الغازي ، جاء سنة ١٨٨٥ ليفاوض الانجليز في جلاهم عن البلاد ، وقد قدم تقريراً سنة ١٨٨٦ اقترح فيه تنظيم الجيش المصري والاستغناء عن الضباط الانجليز والسردار الانجليزى ، وجهر بضرورة استرداد السودان ، ولما أخفقت مفاوضاته في الجملاء بقى في مصر ، وكان شعاره « أنه احتجاج حتى على الاحتلال » ، فتركيا كانت تؤيد مصر في الجملاء ، فكان طبيعياً أن يعطف عليها المصريون الراغبون حقاً في الجملاء .

والآن نورد هنا ما قاله مصطفى كامل في أحاديثه أو خطبه ومقالاته توضيحاً لخطته نحو تركيا ، فلقد عرض لهذه المسألة في حديث له مع مراسل جريدة (نيويورك هرالد) في خريف سنة ١٨٩٦ ، وهو الحديث الذي اقتطفنا بعض فقراته في الفصل الخامس (ص ٨٥) إذ سأله المكاتب عن علاقة مصر بتركيا وخطتها حيالها ، فأجابته المترجم في صراحة وجملاً بما يأتي :

« إن سياسة مصر نحو الدولة العثمانية وهي السياسة التي يجرى عليها الوطنيون الصادقون هي سياسة حسن التقرب منها ، وتوطيد العلاقات الحسنة معها ، والتاريخ يعلمنا ألا ننبع حيالها غير هذه السياسة ، لأنه إذا كان الانجليز قد احتلوا مصر فالسبب في ذلك ولا شك هو النفور والحضام اللذان كانا مستحكما قبل الاحتلال بين السلطان والخديو السابق توفيق باشا وقد نجح الانجليز في التفريق بينهما باتباع سياسة ذات وجهين ، فأفهموا السلطان وقتئذ أن خديو مصر عدو له يعمل لإسقاطه عن عرش الخلافة ليجلس هو عليه ، كما سعى لذلك من قبل جده الأكبر (محمد علي) وأفهموا المرحوم توفيق باشا من جهة أخرى أن السلطان يعمل ضده ويسعى لخلعه عن كرسي الخديوية ليعيد مصر ولاية عثمانية كما كانت قبل الأسرة الخديوية ، فلما قامت الحركة العراقية رأى الانجليز من تمام المهارة وتوسيعا لهوة الشقاق أن

يبرهنوا للخديوي على كراهية السلطان له ، فسعوا عند السلطان سعي الصديق حتى حملوه على تقليد عرابي الوسام العثماني الأول ، وعرابي هو الذي كان يدعى يؤمئذ بأنه المدافع عن حقوق السلطان في مصر ، وقد أوغر هذا الأمر صدر توفيق باشا ، وألقاه في أحضان الانجليز ، وهما هم الانجليز الآن يعملون جهد استطاعتهم للتفريق بين الخديو والسلطان ، ولكن ما نعهده في أميرنا الحالي (عباس الثاني) من التبصر والحكمة والوطنية يحقق لنا أنه يعمل دائماً لتأييد سياسة المحاسنة والتقرب من الدولة العثمانية ، وهي السياسة التي في اتباعها سلامة الكرمي الخديوي والوطن المصري ، وأبان الفقيد أيضاً هذه الخطة في خطبته التي ألقاها بالاسكندرية في يونيه سنة ١٨٩٧ لمناسبة الحرب اليونانية التركية واقتطفنا بعض محتوياتها (ص ٩٩) ودافع فيها عن موقف مصر حيال هذه الحرب وما أبدته من العطف على تركيا

وكتب إلى مدام جوليت آدم من الاسكندرية يلخص آراءه في هذه الخطبة وقال في كتابه اليها : « إنك تعلقين خطتي نحو تركيا وما أراه واجباً نحوها ، فقد أفصحت عن ذلك في خطبتي ، واعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأن من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلاقة مع تركيا ما دام الانجليز محتلين وطننا العزيز ، ، وقد أقرته مدام آدم على هذه الخطة بالرغم من أنها لم تكن تعطف على الأتراك لحبها لليونان

ووصف شعور المصريين في حديثه بجريده (برلينرتا جبلاط) في أبريل سنة ١٨٩٧ بقوله : « إنه وإن كان المصري لا يعرف الاوطنا واحداً وهو مصر فن الأمور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون جيش دولة الخلافة ويظهروا بذلك امتنانهم لها لأنها لم ترد أن تكون آلة في يد الانجليز ،

وأثيرت المناقشة حول هذه الخطة سنة ١٩٠٦ ، لمناسبة الخلاف الذي قام بين انجلترا وتركيا في حادثة طابية (انظر ص ١٩٥) فقد أيد الفقيد فيها موقف تركيا واتهمه أنصار الاحتلال بأنه يبغى نقل مصر من حكم الاحتلال إلى الحكم العثماني ، فرد عليهم في عدد ٢ مايو سنة ١٩٠٦ من اللوآء بمقالة قال فيها مخاطباً لإياهم :

« أما دعواكم أن الوطنيين المصريين يريدون الانتقال من استبداد إلى استبداد وأنهم إنما يطلبون خروج الإنجليز من مصر ليدخلوا تحت حكم جديد، فهي دعوى لا يقبلها ذولب ولا يسلم بها أحد من العقلاء ، فإننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا، وتمسك بهذا المطلب إلى آخر لحظة من حياتنا ،

« إلا أن هذا الاعتقاد الذي خدمناه ونخدمه لا يمنعنا من النظر إلى وجهة أخرى للمسألة المصرية ، وهي الوجهة الدولية ، فإن كل إنسان له إلمام بسيط بالسياسة والتاريخ يعلم أن مسألة مصر كانت دائماً (دولية) لأن مركز مصر يقضى على الدول كلها بالاهتمام بها ، وما على الكتاب الطاعنين علينا إلا أن يراجعوا كتاب المسيو (فريسينيه) السيامي الفرنسي الشهير وغيره من أكابر السياسيين ليعرفوا أنهم يطالبون ألمانيا بتغيير خطتها في المسألة المصرية (١) ، ويذكرونها بأهمية قناة السويس وما يكون للدولة التي تضع يدها عليه من القوة والنفوذ ، ليتذكر هؤلاء الكتاب بأن أوروبا لم تعمل شيئاً في مصر إلا بالاتفاق مع السلطان ، وأنه لو كان عارض في عزل الخديو اسماعيل باشا لبقى أميراً على مصر إلى آخر لحظة من عمره ، رغماً عن كل الدول المبغضة له ، وأن إنجلترا تود من صميم فؤادها الاتفاق مع جلالتنا على مسألة مصر اتقبرها ، ولكنها تعلم أن ذلك هو الحال ، فاهتمام المصريين بالوجهة الدولية للمسألة المصرية أمر طبيعي وواجب ، ولو كانت أرقى الأمم شأنًا وأعلاها مكاناً في موضعنا لفعلت فعلنا واتبعت خطتنا وسلكت مسلكنا ، وقال عنها المنصفون إنها مدركة لمعنى الوطنية الحقة ،

وكتب في جريدة الطان بالعدد الصادر يوم ٨ سبتمبر سنة ١٩٠٦ عقب حادثة دنشواي مقالة جاء فيها أيضاً لخطته نحو تركيا ما يأتي :

« إن اتفاقنا مع تركيا كان دائماً أساساً من أسس سياستنا ، وإن الخلاف الذي كان مستحكماً بين قصر يلدز وسراي عابدين إبان الحركة العرابية كان السبب في مصابنا وفي الاحتلال البريطاني ، ولما كانت تركيا هي الدولة صاحبة السيادة على

(١) كانت خطتها الجمود وعدم الاهتمام بها

مصر فان عملها وشأنها في المسألة المصرية هما بلا نزاع كبيران ، واني أسأل الذين ينكرون هذه الحقيقة أن يفكروا لحظة فيما يؤول إليه حال مصر لو عقدت تركيا في يوم من الأيام اتفاقا مع انجلترا مشابها للاتفاق الودي الفرنسي الإنجليزي ؟ ألا تفقد بلادنا عندئذ البقية الباقية من استقلالها ؟ فكيف مع هذا يندهش البعض من الروابط التي تربط مصر بتركيا ، أو ليس هذا الارتباط في ذاته أحسن احتجاج على استمرار الاحتلال يغير حق ؟ إني أسأل الذين لا يكتفون بانتقاد سياستنا بل يتحاملون علينا أن يجيبوني : لماذا يجدون من الأمور المعقولة الطبيعية تحالف فرنسا مع روسيا واتفاقها مع انجلترا ، ويعتبرون من الجنايات ومخالفة الوطنية الحقبة اتفاقنا مع تركيا ، وقال في خطبة ألقاها يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٠٧ بمناسبة عيد تأسيس الدولة العثمانية :

« يستحيل علينا أن يطلب واحد منا مالكا أجنبياً عنا ، فنحن لا نود إلا أن نكون قوة محالفة للدولة العلية ، نصرها ونصيرنا ونعتز بها وتعتز بنا ،

وقال في لواء ٦ أكتوبر سنة ١٩٠٧ ردأ على جريدة (لاند بندنس بلج) :

« إن المحرر أخطأ كثيراً بقوله إننا نريد حرية مصر لإعادتها إلى حكم الأتراك ، فقد صرحنا ألوف المرات بأننا نريد مصر للمصريين ، وبأن انعطافنا أو نفورنا من دولة لا يؤثر شيئاً على هذا المبدأ الرئيسي لحياتنا وأفعالنا ، ولست أجد لإخام خصوصي إلا طرح هذا السؤال البسيط عليهم : ماذا يكون مصير البلاد المصرية لو تنازلت تركيا عن حقوقها لانجلترا أو تعاهدت معها على ذلك بمعاهدة شبيهة بالمعاهدة الفرنسية الإنجليزية ؟ ألا تصير ولاية انجليزية ؟ إذن فلماذا يندهش الكاتب من كوننا نجعل علاقتنا مع تركيا حسنة ونسعى لنيل الوسائل التي قد تفيدنا وتنفعنا ؟ وإذا كانت الدول العظمى قد اتبعت الآن سياسة التحالف فن ينسكرك على مصر المظلومة المهضومة اتباعها هذه الخطة ؟ ،

وقال في خطبته الكبرى بالإسكندرية يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ : « فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى صوتنا ، وعلى مسمع من أمم الأرض كلها ، واننا إذا أخلصنا الود لامة أو لدولة فانما نعمل كغيرنا وتببع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون

وإذا كانت إنجلترا تسعى الآن للتقرب من الدولة العلية وتغير سياستها نحوها تغييراً محسوساً فمن الذى يلوم المصرين على أن يكونوا أقرب الناس من تركيا قولاً وفعلاً وأن يحافظوا على هذه الصلة ما استطاعوا ،

فهذه الأقوال والبيانات صريحة الدلالة على أن خطة الفقيه نحو تركيا هي الخطة القويمة التي قضت بها الوطنية الحققة وافتضاها الجهاد الصحيح للاستقلال التام

هذا ، ولقد زالت السيادة التركية على مصر من تلقاء نفسها بقبول تركيا مبادئ الرئيس ويلسن سنة ١٩١٨ وبأدر الحزب الوطنى إلى إعلان مبادئه الأساسية وهي :
أولاً - استقلال مصر مع سودانها وملحقاتها استقلالاً تاماً غير مشوب بأية حماية أو وصاية أو سيادة أجنبية أو أى قيد يقيد هذا الاستقلال

ثانياً - إيجاد حكومة دستورية في البلاد بحيث تكون السيادة للأمة وتكون الهيئة الحاكمة مسئولة أمام مجلس نيابى تام السلطة

ثالثاً - احترام المعاهدات الدولية والاتفاقات المالية التي ارتبطت بها الحكومة المصرية لسداد الديون احتراماً لا يمس سيادة البلاد

رابعاً - تعهد الشعور الوطنى وتنميته والمحافظة على تضامن الأمة واتحاد عناصرها

خامساً - السعى في تحسين الأحوال الصحية والعمل على ترقية الأحوال الاجتماعية

سادساً - العمل على نشر التعليم في جميع البلاد على أساس وطنى صحيح بحيث ينال الفقراء منه نصيبهم ، والحث على تأسيس معاهد العلم وإرسال الرسائل العلمية وفتح المدارس الليلية للصناع والعمال

سابعاً - ترقية الزراعة والصناعة والتجارة وكل مرافق الحياة

ثامناً - نقد الأعمال الضارة بكل صراحة والاعتراف بالأعمال النافعة والتشجيع عليها وإرشاد الحكومة إلى خير الأمة ورغباتها والإصلاحات اللازمة لها

تاسعاً - المحافظة على روابط المحبة والصفاء بين الوطنيين والأجانب

عاشراً - إحكام العلاقات الودية وتبادل الثقة بين مصر وجميع الدول الأخرى

الفصل التاسع عشر

مجلس شورى القوانين

من الواجب أن نقول كلمة عن المجلس الذى كان بمثابة الهيئة التشريعية الممثلة للبلاد فى ذلك العهد ؛ وهو مجلس شورى القوانين ، ويجدر بنا أن نبادر بالقول إن هذا المجلس لم يكن يمثل الأمة تمثيلاً نيابياً صحيحاً ، فقد كان مؤلفاً من ثلاثين عضواً منهم أربعة عشر عضواً تعيينهم الحكومة ، وفيهم الرئيس وأحد الوكيلين ، وأعضاء منتخبين وعددهم ستة عشر ، ومنهم أحد الوكيلين ، وكان انتخابهم على ثلاث درجات ، إذ كان مجلس المديرية هو الذى يتولى انتخاب عضو مجلس شورى القوانين عن المديرية ذاتها ، ولم يكن لهذا المجلس سلطة قطعية فيما يعرض عليه من الشؤون ، ولكنه مهما يكن نظامه وسلطانه فإن له صفة رسمية جعلت له شأناً يرتبط بحالة البلاد السياسية ، والكلام عنه يكمل تصوير العصر الذى نكتب عنه ويمكننا أن نلخص تاريخه فى ثلاثة أدوار تعاقبت عليه

الدور الأول

هو دور الخضوع والاستسلام ، ويبتدىء منذ إنشائه سنة ١٨٨٣ ، ثم يستمر حتى سنة ١٨٩٢ ، وقد بقى موقفه طول هذه السنوات سلبياً محضاً ، ولم تبد منه ظواهر تدل على الحياة والوجود ، ولم يكن له أى أثر فى تطور الحوادث ، بل لم يسمع له صوت ما فى الأحداث الجسام التى تعاقبت على البلاد فى ذلك الحين

الدور الثانى

ثم تغير موقفه منذ سنة ١٨٩٢ بتأثير تطور الأفكار وتبناها ، فأخذت تدب فيه بعض ظواهر الحياة ، ووقف من الاحتلال غير مرة موقف المعارضة ، ففى جلسة ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٩٢ رفض مناقشة ميزانية سنة ١٨٩٣ التى أعدها السير إلوين بالمر

المستشار المالى البريطانى ، بحجة أنها لم تعرض عليه قبل الموعد المحدد لصدورها بوقت كاف يسمح بفحصها ، ومع أن هذا القرار لم يمنع الحكومة من إصدار الميزانية طبقا للقانون النظامى القديم ، إلا أن فيه معنى الاحتجاج على الحكومة ، ولم يكن هذا مألوفاً من قبل فى هيئة المجلس

وفى ديسمبر سنة ١٨٩٣ ظهرت فى المجلس حركة استياء من اتصال المعتمد البريطانى ببعض أعضائه ، ورفض اعتماد نفقات جيش الاحتلال فى ميزانية سنة ١٨٩٤ ، ومقدارها ٨٥٠٠٠٠ جنيه ، فكان هذا القرار بمثابة احتجاج على بقاء جيش الاحتلال ، وقد ساء هذا القرار الصحف الإنجليزية وصنائع الاحتلال فى مصر فردت الحكومة على ملاحظات المجلس رداً كان بمثابة انتصار لوجهة نظره ، إذ أنها أقرت عن مشاركتها إياه فى احساساته الوطنية ، وأبانت أن المبلغ الذى كانت تؤديه الخزانة المصرية لجيش الاحتلال إلى سنة ١٨٨٥ وهو ٢٠٠٠٠٠٠ جنيه فى السنة قد خفض بالتدريج إلى ٨٥٠٠٠٠ جنيه ، وأن الحكومة تؤمل أن هذا المبلغ يخفف تدريجاً حتى يمحى بالسكينة اعتماداً على عهود ووعود دولة بريطانيا العظمى القاضية بالجلاء عن القطر المصرى (١)

ودلّ تقرير المجلس عن ميزانية سنة ١٨٩٤ على ظهور روح جديدة من الحياة والشعور بالواجب ، إذ تعرض لحالة البلاد الاقتصادية ، وألمع إلى ما يثقل كاهل الأهلى من أعباء الديون ، فكان تقريره أبلغ رد على أنصار المحتلين فيما ادعوه من أن الاحتلال قد جاء للأهلى باليسر والرخاء

وفى ديسمبر سنة ١٨٩٤ اعترض على بعض ما قرره الحكومة فى ميزانية سنة ١٨٩٥ ، ورفض اعتماد مصاريف جيش الاحتلال ، وانتقد سياسة الحكومة فى التعليم ، وفى ديسمبر من السنة التالية وقف بالنسبة لمصاريف جيش الاحتلال موقفه فى السنوات الماضية

(١) تقرير الحكومة الذى تلاه رياض باشا فى مجلس شورى القوانين بجلسة ٢٣

وفي أبريل سنة ١٨٩٦ قرر الاحتجاج على الحكومة لعدم أخذها رأى المجلس أو الجمعية العمومية في تقريرها مبلغ خمسمائة ألف جنيه لإنفاقها على حملة دنقلة التي قررتها في تلك السنة

وفي ديسمبر سنة ١٨٩٦ كان موقفه بالنسبة لمصاريف جيش الاحتلال أصرح من موقفه في السنوات الماضية إذ ورد عنها في تقرير اللجنة المالية الذي أقره عن ميزانية سنة ١٨٩٧ ما يأتي :

« مقدر لمصاريف جيش الاحتلال مبلغ ٨٤٨٢٥ جنيها ، واللجنة لا ترتاب مطلقا في أن للحكومة عظيم الثقة بأمانة جيشها وكفاءته ، وباستعداده الذي برهن عليه في كل المواقع التي دعى إليها ، وباستتباب الأمن في داخلية البلاد وأطرافها بما لا يدعو للاستعانة بجيش أجنبي ، ولذا فهي ترى عدم المصادقة على المبلغ المقرر لهذه المصاريف ، فكان هذا القرار بمثابة احتجاج من الهيئة النيابية القائمة في البلاد ضد الاحتلال ، واستمر موقفه من مصاريف جيش الاحتلال على هذا النحو في السنوات التالية وفي ديسمبر سنة ١٨٩٩ نظر في ميزانية سنة ١٩٠٠ وفيها مبلغ ٤١٧ ألف جنيه نفقات عجز إيرادات السودان عن مصروفاته ، فقرر التصديق على هذه النفقات ، باعتبار أن بلاد السودان جزء متمم لمصر غير منفصل عنها بحال من الأحوال ، فكان هذا القرار بمثابة تأكيد لاتصال السودان بمصر وعدم الاعتراف بانفافية »
١٩ يناير سنة ١٨٩٩

وكان يتولى رئاسة المجلس منذ نوفمبر سنة ١٨٩٩ اسماعيل باشا محمد (١) وهو من خاصة أصدقاء مصطفى كامل وأنصاره ، وكانت تربطهما روابط الود الأكد ، يدل على ذلك حضوره حفلة مدرسة مصطفى كامل في فبراير سنة ١٩٠٢ كما تقدم بيانه (ص ١٥٥) ، فكانت رياسته حافزة روح المعارضة في المجلس ، وبدت هذه

(١) بقي يتولى رئاسة المجلس إلى أن توفي في ٧ أبريل سنة ١٩٠٢ وخلفه عبد الحميد باشا

صادق الذي شغل هذا المنصب حتى استقال في ٣٠ يناير سنة ١٩٠٩

الروح فيما طلبه من الحكومة في ديسمبر سنة ١٩٠٠ لمناسبة عرض مشروع الميزانية،
وتتلخص هذه المطالب فيما يأتي :

أولاً - زيادة المبلغ المخصص لوزارة المعارف ، وقد لفت المجلس نظر
الحكومة إلى ما وصل إليه فساد البرامج وسد أبواب المدارس في وجوه المتعلمين
والبحث في الأسباب التي دعت لا استعفاء الكثيرين من المدرسين

ثانياً - زيادة ما خصص للمحاكم الشرعية

ثالثاً - طلب المجلس من الحكومة أن تدرج في ميزانية السنة المقبلة إيرادات
ومصرفات السودان

رابعاً - طلب ألا تنقص المصروفات والمرتببات المتعلقة بالكسوة والمحمل
إن لم يمكنها زيادتها

وقد طلب أيضاً من ناحية أخرى مراعاة حرية الحجاج الشخصية في ذهابهم
إلى الأقطار الحجازية وإبابهم منها ، وإلغاء احتكار المؤن التي تباع عليهم في المحاجر
الصحية

وفي سنة ١٩٠١ اختلفت الحكومة في أمر الدكريتو الصادر في أبريل سنة
١٩٠١ بربط رسوم على الخيوط والمنسوجات والأقمشة القطنية المصنوعة بالفطر
المصري ، واحتج على إصدار هذا الدكريتو دون مباحثة الجمعية العمومية وإقرارها ،
مستنداً في ذلك إلى المادة ٣٤ من القانون النظامي التي توجب تصديق الجمعية العمومية
على كل ضريبة أو أموال أو رسوم على عقارات أو أشخاص ، وقد أجابت الحكومة
على هذا الاحتجاج بأن المادة المذكورة لا تنطبق على هذه الرسوم ، وأنها تنصرف
إلى الضرائب على العقارات فقط ، واستشهدت بنصها الفرنسي ، وطلبت في الوقت
نفسه أن يستبدل بالمادة ٣٤ من القانون النظامي النص التفسيري الوارد في ردها ،
ورد المجلس على هذا الجواب رداً سديداً ختمه بقوله : « يرى المجلس أنه ليس من
اختصاصه النظر في هذا المشروع ويتجنب التدخل في موضوع تبديل أو تغيير
المادة ٣٤ وكل مادة في القانون النظامي لأن ذلك من حقوق الجمعية العمومية ،

وقد اعتبر اللواء هذا الموقف حسنة في تاريخ مجلس شورى القوانين

الدور الثالث - دور التراجع

ولكن المجلس قد تراجع تحت تأثير حملات اليأس التي كانت تنشرها الصحف المالية للاحتلال وإبرام الاتفاق الانجليزي الفرنسي في ابريل سنة ١٩٠٤ ، فأخذ ينجح للخضوع والاستسلام للاحتلال ، وابتغاء الزلفى لديه ، فمن ذلك أنه صدق على ميزانية سنة ١٩٠٥ في صيغة شكر للحكومة ، فانتقده مصطفى كامل في لواء ١٣ و ١٤ ديسمبر سنة ١٩٠٤ ، إذ قال : « إن أعضاء المجلس لم يُسمعوا الأمة والعالم كله ذلك الصوت المحبوب صوت المطالبة بأعز ما تريد البلاد ألا وهو الاستقلال ، ثم قال : « إنكم يا حضرات الأعضاء طلبتم هذا الطلب الغالى مرتين ، وحسبتم أن الإشارة تكفى ، وكأنكم نسيتم أن الإلحاح في الحق ليس بعيب ، وأن الإشارة مع المتعمد النسيان هي دون القليل ، فهل فانكم أن مطالبكم بالجلالة بما بقوى العقيدة الوطنية في نفوس الخاصة والعامة والناشئة بنوع خاص ، وأنكم إذا لم تبلغوا إلا هذه الغاية لسكفكم شرفاً وأجرأ ، ثم ضرب الأمثال بما كان من المجالس الشورية في البلاد الصغيرة من التمسك بحقوق شعوبها في وجه السلطة الغاشمة

وانقضت سنة ١٩٠٥ والفتور نجيم على المجلس ، وبخاصة إذا كان المقام متعلقاً بأمر تود الحكومة تنفيذه

ولما وقعت حادثة دنشواى في يونيه سنة ١٩٠٦ طالب الفقيه المجلس بأن يرفع صوته بالاجتجاج على الفظائع التي ارتكبتها الحكومة في هذه الحادثة ، ولكن ذهب نداؤه عبثاً ، فكان هذا الموقف مظهرآ لروح الاستكانة التي شاعت بين جوانب المجلس

الفصل العشرون

مصطفى كامل ومعاصروه

إن روابط الانسان بمعاصريه وعلاقته بهم هي قطعة من حياته ، وجزء من شخصيته ، ولا مراء في أن التحدث عنها يلقي جانباً من الضوء على تاريخه ، لذلك رأيت أن أخصص هذا الفصل بالكلام عن مصطفى كامل ومعاصريه ، سواء كانوا من أصدقائه وأنصاره ، أو مخالفيه ، أو من تلاميذه وحواريه

أصدقاءه الأقربون

محمد بك فريد

إذا ذكر أصدقاء الفقيد وأنصاره الأقربون كان في طليعتهم المغفور له محمد بك فريد ، فهو زميله المخلص ، وصديقه الوفي ، وعضده الأكبر في بعث الحركة الوطنية ، لازمه وأيده في جهاده ، وبذل له ما بذل من العون الأدبي والمادي ، وأمدته بماله ، وظل وفيها له طول حياته ، ثم حمل الراية بعد وفاته ، فكان خير خلف ، لأعظم سلف

رسائل مصطفى كامل إلى محمد فريد

تدل رسائل مصطفى كامل إلى فريد بك على ما بينهما من الود الصادق والحب الخالص الثابت على مر السنين ، فكلاهما كان يؤثر صاحبه على نفسه ، ويضحى نفسه من أجله ، وتلك دلائل الإخلاص الحقيقي ، وتطالعنا هذه الرسائل بما كان يعمر قلوبهما السكبيرين من الوطنية الصادقة ، والعواطف النبيلة السامية ، وهي وإن لم تنشر من قبل ، ولم تكن معدة للنشر ، لسكنها صارت قطعة من تاريخ الزعيمين العظيمين ، لذلك رأيت أن أنشر بعض نماذج منها مع طبع بعضها بالزنجيراف



محمد سعيد أفندي
رمز الاخلاق والتضحية

١٨٦٧ - ١٩١٩

أول كتاب عثرتُ عليه أرسله إليه من فيينا بتاريخ ٢١ أكتوبر سنة ١٨٩٦ ،
وهو يدل على الود القديم بينهما ، وفيه أفضى إليه بما بذل في ألمانيا والنمسا من الجهود
لتعريف الرأي العام الأوروبي بالقضية الوطنية ، وقد أشار إليه المغفور له محمد بك
فريد في خطبته في تأييد الفقيه ، واقتبس بعض فقرات منه (انظر ص ٢٧٩)
والكتاب الثاني أرسله إليه من بودابست في ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ ، قال فيه :

« أخي الفريد حفظه الله

بعد التحية والتسليم ، والإعراب عن شوق عظيم ، لا بد أنك استلمت كل ما
أرسلت إليك وطالعت صدى ما عملت ، وعلمت بكل ماجرى وكان ، ولا بد أنك
سررت وفرحت ، وأن روحك الطاهرة الشريفة الممتلئة حباً لمصر التعيسة وإخلاصاً
رضيت عن روح لا تقل عنها حباً للوطن وإخلاصاً ، وإخالك تفكر كثيراً في
وتود لو تكون معي تطوف البلدان مثادياً بنصرة المظلوم رافعاً صوتك ضد عدو
الوطن الأسيف ،

وقد أشار فريد بك إلى هذا الخطاب أيضاً في خطبته سالفة الذكر ، واقتبس
منه فقرات أخرى (ص ٢٧٩)

وكتب إليه ضمن خطاب له من الأستانة (استانبول) في ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦
يقول :

« كنت أحس بواجب مراسلتك ، ويسهل شوقى إليك قيامى بهذا الواجب نحوك ،
وأتلذذ حقاً لمكاتبة صديق مثلك أساس مودته محبة الوطن العزيز ، أى أشرف
وأجل إحساس عند الإنسان ،

وكتب إليه من باريس في ١٩ يولييه ١٨٩٨ كتاباً قال فيه (نشرنا صورته
ص ٣٦٦)

« أخي الأعز حرسه الله

« بعد تقبيل وجنتك وإهدائك أعطر السلام ، وصلنى هذا الصباح كتابك

السكريم فتقبلته بالترحاب والتسكريم ، وكنت في شغف شديد لاستلامه ، لغياب
أخبارك عنى ثلاثة أيام ، وليس ذلك بالزمن القليل

« لقد أدهشني في كتابك شكرك لى على مبادرتى بإجابة طلبك ، إن هذا الشكر من
غيرك جميل وواجب ، ولكنه منك غريب وعجيب ، فما بيننا من الود والإخاء يجعل
مالك مالى ، ومالى مالك ، وحياتى حياتك ، وحياتك حياتى ، هذا ما أعتقده وما تعتقده
أنت ، فروحى تناجى روحك بالود والإخلاص فى كل لحظة وفى كل آن ، دمت لى
أخا وفاقاً صادقاً ، ودمت معى خادمين صادقين للوطن المحبوب ،
وختم الخطاب بقوله :

« أكتب لى باكر من فيشى وأطلُ كتابك ، واذهب يوم الخميس إلى كوك قبل
الظهر تجد منى كتاباً أكتبه إليك باكر ليكون فيه وداعك ، وبعض أمور أريد منك
عملها فى مصر ، تقبل ألف قبلة من صديقك الأول وأخيك الثانى ،

مصطفى كامل

وكتب إليه من باريس فى ٢٢ يوليه سنة ١٨٩٨ كتاباً قال فيه (نشرنا صورته
ص ٣٦٧) :

« أخى الأعز حرسه الله

« أقبل وجنتيك الفأ ، وأهديك سلاماً عاطراً ، وأسأل لك الصحة الدائمة والسرور
الكامل ، وأدعو الله أن يسرك بشفاء حرمك المصون وسلامة نجلك الأمين (١) .
إنه سميع مجيب ،
إلى أن قال :

(١) هو المرحوم عبدالله فريد نجله الأول وقد توفى وله من العمر ستتان ، أما نجله الثانى
فهو الشاب النجيب الأستاذ عبدالحالق فريد وكيل النيابة الآن (١٩٥٠) ، بارك الله فيه ، وهو
الذى تسلمنا منه رسائل مصطفى باشا كامل إلى والده المغفور له محمد بك فريد ، كما استودعنا
مراسلاته ومدكراته ، فله منا جزيل الشكر

« أرجوك أن ترسل لي عدد المؤيد المؤرخ ٩ يناير من هذه السنة وهو المشتمل على الخطبة التي ألقيتها على شبيبة المدارس يوم احتفالها بعيد جلوس الخديو لآني في حاجة إلى ترجمتها ووضعها مع المجموعة

« سأكتب لك كل أسبوع مرة على الأقل ، ولا تنس العائلة ، ارسل سلامي لسلك أفرادها ، دمت ألف مرة لأخيك المخلص

بامل

« قبل لي وجنات الشقيق ابراهيم بك (١) ، وسلم لي على الفاضل حسن أفندي عبد الرازق (٢) واسأله أن يبلغ سلامي العاطر لوالده العزيز (٣)

« وإذا قابلت شوقي بك (٤) قبله لي مرتين ، وقل له أن يرسل لي ما طبع من ديوانه مع صورته ، وأعطه عنواني ،

وقال في ختام خطاب إليه من باريس في ١٠ أغسطس سنة ١٨٩٨ :

« أقبلك في الختام ألف قبلة ، وأرجوك ألا تحرمني أخبارك ، وأن تعرفني عند وصول هذا إليك ، دمت لمصر العزيزة ولخادمها الضعيف أخيك ،

« مصطفى بامل »

وقال في خطاب آخر من باريس في ١٩ أغسطس سنة ١٨٩٨ (٥) :

« وغاية رجائي من الله — إن لم يسمع نداءنا ويخلص أو طائنا — أن يحفظ لي ودك الصادق ، وحبك الطاهر ، تقبل ألف ألف سلام من خير صديق لك ومن أخيك الشاكر العارف للجميل ،

بامل

وقال ضمن خطاب إليه من باريس في ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٨ :

(١) المرحوم ابراهيم بك فريد

(٢) المرحوم حسن باشا عبد الرازق ، وكان محاميا بمكتب محمد بك فريد

(٣) المرحوم حسن باشا عبد الرازق الكبير

(٤) أمير الشعراء ، وكان صديقا حميا للفقيد

(٥) نشرنا صورته ص ١٢٥

« لك منى جزيل الشكر وعظيم الامتنان ، فحقاً انت الاخ الصادق الذى يضحى نفسه فى محبة إخوانه ، قدم لى يامثال الوفاء ، واعتقد أبد الدهر أن لك فى أصدق الناس كافة ، وأوفاهم اليك ، فحياتى وروحي لك بعد الوطن العزيز ،

وختم هذا الخطاب بقوله :

« سلامى العاطر لأخيك العزيز ، ودم أنت ألف مرة وألف عام لأخيك المخلص ،

« مصطفى كامل »

وقال ضمن خطاب له من باريس فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦ (١) :

« أخى الأعز فريد بك

« ألف قبلة وألف سلام . وبعد فقد استلمت خطاباتك ، وقرأت اليوم مقالاتك وسررت بها للغاية ، وإن ودك الصادق ، وإخائك الطاهر ؟ ووطنيتك العالية . لما يسكفينى فى الحياة نعمة ونعمياً وسعادة وسعوداً .

وقال فى خطاب من نابولى فى ٢٩ يونيه سنة ١٩٠٧ :

« إنى لو أردت أن أشكرك على صدق إخوانك وتفانيك فى خدمة المبدأ الذى وهبنا حياتنا له لما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، وحسبى أن أقول إنك خير سلوى لى فى هذه الحياة التى كثرت أتعابى وهمومى فيها فكسنت الاخ الممتاز والعون فى الشدائد ،

هذه الرسائل التى تفيض إخلاصاً وحناناً ونوراً ، قد كتبها الفقيد على تعاقب السنين ، وهى تصور لنا مقدار حبه لفريد بك ، ومبلغ ما كان يجمع بينهما من الروابط الأخوية والوطنية التى دامت بين الصديقين طوال سنى الجهاد ، وجعلت منهما البطلين العظيمين اللذين بعثا فى نفوس الجيل روح الوطنية والإخلاص

(١) نشرنا صورته بالزنسكراف ص ٢٢٧

(خطاب الفقيد إلى فريد بك في ۱۹ يولييه سنة ۱۸۹۸)

باريس في ۱۹ يولييه ۱۸۹۸

سردى محضى الى الدكتور احمد احمد على
دايدوك اعطاهه عن ان المدير كما انك
قطبه ايضا الى سعادة حسنه شاه محمد اوله
اهداسه من لائيس بك

أخي الاف سرى

بعد تقبل وحيثك واهدائك اعطاهه وسلم وعلى صدق الصبح فتأبى
الكرم فقبله الزحابة والتكريم وكنت في شفق سوية كاسته بعبه
اضربك من فخره ايام ليس ذلك بالرضى بتقبل
احمدى به وعودك بالصحة والسلام واشكره على ما اولاهى صفاه كرامه وكلمه
فانى سمع باجده من وسيله العلم نستلم الله ونجدى من اجابا على الاستعمال بالدار
البدو حب اركبكم كل صباح وقد ورت جسمى بالوسى فوجدت قد زارعا
فانه بعد يقبلى كليلو وضيف

قد ادهنت في كتابك شكرى الى على سارة باجابه ملكك اهدا الشكرية
بجمل وداجبه وكنت منك عرسه مجيبه مما بيننا سرده ومرحبا بجمل ما لك
ما زار ما لك وحياته ما لك وحياتك هيا هذا ما عفته وما عفتك
انت فزودنى تاجه بدمك بابدو والحمد لله في كل لحظة وكل آنا دست
في افان نيا صادقاً ودست من خاديه صادقاً ليرضى المحبوب

الكتب الى باكر من ييسى والمثل كتابك - يوم الخميس ارضى بالبوكة
قبل ظهر بعد من كتابا الكبة الكية باكر ليوكة في دو اعكى وعضن
احمد اريد منك علهاه على تقبل الفقيهه من سده فبكت لاولد وحيثك بشارف
صلى على كمال

خطاب الفقيه ليرد بك في ٢٢ يو . سنة ١٨٩٨

باريس في ٢٤ يوليو ١٨٩٨

بهي ال تحت حرسكم

اتن وعشركم انما ، بغيرك سلاما عافرا ، وما أدركت
الصحبة الائمة ، كسر الكمال ، وارتولة ان سيرك شفا حركت
الاصون وسنة تحفك الائمة ، اوسيم محجب

سأعمل بأمرك واقابل نفوذ خصيت احسن مقابلة فلو
ارهبوك انه رتل ، عهد المؤية المرفخ ٩ ببار مره
السنه ، وهدو المشغل مع الخطبة الى الفسحة سنية
الباريس يوم احتفالاً بعبه هبوك المحذون لاني وها
ترجمتها ودرست مع الجمع

ساكنت لك كل اسوم من بيم ان قل من تنس لغاند
ارسل سله من لطفك ارادها ، اجن في سيرة احسن
داخلة ، وقت الفاتح لاجنك ، انك
قبل ، وحنك اسقية بكم كمال

وسلم لي ، انفس حسدا صعدك ازنه ، وياك ان
يلع سدي لعاقل لوالك انفر
اراقا طبت سوني كج فبله لي مرته ، وتك ارسل
بي ما طبع منه ديوان مع صورة ، واطل عسوان

هدت Rue Balzac



لطيف باشا سليم

من أعلام الحركة الوطنية، وهو نجل المرحوم سليم باشا الحجازى أحد قواد الجيش المصرى فى عهد محمد على، تخرج فى مدرسة أركان الحرب، وتثقف ثقافة علمية وحرية عالية، ثم تولى مهمة التدريس فى المدارس الحربية، فكان خير معلم وأستاذ، ثم عين مفتشاً بوزارة المعارف، ثم مديراً للفيوم، ثم رئيساً فخرياً للحكمة المختلطة، واشتهر بأخلاقه العالية، ووطنيته الصادقة، وشجاعته واستقلاله، كان عالماً واسع الاطلاع، شغوفاً بالعلم والأدب، ترك مكتبة حوت نفائس الكتب قديمها وحديثها، وكان من زعماء الضباط الذين ثاروا بوزارة نوبار باشا على عهد الخديو اسماعيل فى فبراير سنة ١٨٧٩، وكان وقتئذ استاذاً بالمدرسة الحربية، وقد انتهت هذه الثورة بسقوط وزارة نوبار الأولى (١)، وكان من أكبر أنصار الفقيه ومعضديه، عرفه منذ كان طالباً بمدرسة الحقوق، وكان واسطة التعارف

(١) راجع تفصيل ذلك فى كتابنا (عصر اسماعيل) ج ٢ ص ٢٠٢ وما بعدها

بينهما نجله فؤاد باشا سليم ، صديق مصطفى الحميم ، وقد آنس فيه الاستعداد لبعث الحركة الوطنية ، فكان يقول عنه لنجله قبل أن يعظم شأنه : « إنه الشعلة الوطنية المنتظرة ، ، وقد صححت نبوءته ، وحققت الأيام فراسته وصدق نظره ، وظل طول حياته معضداً ومؤيداً له في جهاده ، وقد حزن الفقيه لوفاته حزناً عميقاً كان له أثر شديد في انتكاس صحته أثناء مرضه الأخير

كتب في هذا الصدد إلى مدام جوليت آدم بتاريخ ٧ يناير سنة ١٩٠٨ يقول : « إنى مريض جداً منذ السابع عشر من شهر نوفمبر ، وقد بذلت مجهوداً فوق الطاقة لإلقاء خطبتي في الجمعية العمومية للحزب الوطني ، ، إلى أن قال : « أما صحتي فهي بين اليأس والرجاء ، والأطباء مطمئنون الآن ، والسبب في انتكاسي بعد خطبتي راجع إلى مفاجأة المنون صديقاً لي حميماً كان من أشد وأكبر نصراني وهو المرحوم لطيف باشا سليم ،

وكانت وفاته قبيل فجر يوم ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٠٧ ، ولم يبلغ الخامسة والخمسين ، وقد نعاه مصطفى وهو مريض فقال عنه : « أخانا رحمه الله على صغر سننا ، فكان أخارؤوفاً ، وصديقاً حميماً ، ومواطناً محباً لبلاده حبالقادرة لكاتب أن يصفه ، ، وقد انتقلت صداقته للفقيه إلى نجله فؤاد باشا سليم رحمه الله ، فكان حافظاً لوده وعهده على مر السنين

على بك نخري

من أوائل علماء القانون في النهضة الحديثة ، انتظم في سلك المناصب القضائية وتدرج فيها إلى أن عين رئيساً لنيابة الاسكندرية الأهلية ، فكان بحكم منصبه عضواً بمجلسها البلدي ، وظهرت هنالك مواهبه من الذكاء والقريحة الوقادة والاستقلال في الرأي ، والغيرة على شؤون الوطن ، وقد برزت شخصيته الساطعة في المجلس البلدي ، وكان يساجل الأعضاء الأوربيين الرأي ويناقشهم مناقشات ظهرت فيها قوة حجته واحتفاظه بكرامته ، فمثل العنصر الوطني في المجلس خير تمثيل ، ونال احترام زملائه الوطنيين والأجانب ، وارتقى في المناصب القضائية فعين قاضياً بالمحاكم المختلطة ، ثم مستشاراً لها ، وكسب احترام القضاة والمستشارين الأجانب ، حتى



على بك فخري

صاروا يرجعون إلى رأيه في المشكلات القانونية ، وكان من أصدق أصدقاء مصطفى كامل ،
ومن أكبر نصرائه ، توفي في شهر يونيو سنة ١٩٠٦ ولم يكن يبلغ الخمسين من عمره ،
وقد نعاه مصطفى في اللواء نعيًا مؤثرًا دل على أنه من أقطاب الحركة الوطنية ، وسماه
(فقيد الوطن والبلاد) ، وبعده عليه صفحة حية من التاريخ الوطني ، ومن أبلغ ما كتب
المرجع ، قال : « إن الفقيه كان أخالنا ، نسترشد برأيه ، ونعتمد على فكره ،
ونعتز بوجوده ، ونفتخر بعلمه وفضله ، ووطنيته وحميته ، وعواطفه الحية السامية ،
وإحساساته الراقية ، فقد نبهت ذلك الفقيه العظيم واحداً يفدى بآلاف من الرجال ،
إذا ذكر العلم كان حامل رايته ، وإن ذكر الحق كان أكبر ناصر له ، وإن ذكر العدل
كان أكبر مشيد لأركانه ، وإن ذكرت مكارم الأخلاق كان انسانها ، وإن ذكرت
الوطنية كان مثالها ، وإن ذكرت البلاد وحقوقها كان أشرف وأصدق خادم لها ،
فكيف لا يكون مآتمه مآتم القطر وبنيه ، والأسف على وفاته في كل قلب ، والحداد
على موته في كل دار ، ارتبطنا بالفقيه من سنوات طوال برابطة الصداقة والإخاء

والاتحاد في الرأي والفكر والشعور ، وهي أمين الروابط وأقواها ، فعرفنا فيه مصر يا لا تهزه الحوادث ولا تثبط عزيمته النواب ، ولا تضعف آماله المصائب ، يتقد غيرة على مصالح وطنه ، ويمسى ويصبح وهو مفكر في استقلاله وعزه ونعيمه ، إذا تكلم عنه سمعت الوطني الحر الذي امتلا فؤاده حبا لبلاده وحنانا عليها ، كان الفقيه البرهان الحى على كفاءة المصري وسمو مداركه واستعداد هذا الشعب الكريم لأن يخرج النابغين من الرجال ، كان رحمه الله على جانب عظيم من الدعة ورقة الأخلاق ، مع ما اشتهر به من الاستقلال التام في فكيره والمجاهرة برأيه مع كل انسان وأمام كل انسان ، كنا إذا حادثنا الفقيه شعرنا بارتياح هائل لمحادثته ، وأسف عظيم على حالة هذا الوطن العزيز ، نرتاح لكلام نابغة على الفسك سامى الشعور ، طاهر القلب شريف الميول ، ونأسف على حالة الوطن لأن الفقيه مع ما أراده له من الخدمات الجليلة النادرة كان يستطيع خدمته أكثر من ذلك لو كانت مصر مستقلة ، وأمرها بيدها ، إن الفقيه كان مؤهلا بفطرته وعالومه وأخلاقه وآرائه وهمته واقتداره لأن يكون من أكبر قادة الأمم وباعثى روح الحياة والنهوض فيها ، فلذلك كان موته مصابا جسيما . مصابا لنا بالذات نعزى فيه ، لأننا فقدنا أبا حقيقيا لا يعوض ، ومصابا لكل مصرى ، لأن الوطن فقد بموته واحدا يشرفه ويرفع قدره ويسليه بعلمه وعمله على همومه ومصائبه الجسام ،

أصدقاؤه وأنصاره

لا سبيل إلى أن نحصر هنا بقية أصدقاء الفقيه وأنصاره جميعهم ، وإنما نذكر على سبيل المثال من وعظهم الذاكرة ، وهم (عدا من ذكرنا) : الأمير محمد ابراهيم (انظر ص ١٥٧) الأمير حيدر فاضل . فؤاد بك سليم (باشا) . عمر بك سلطان (باشا) على بك فهمى كامل شقيق الفقيه . اسماعيل بك شيمى . الدكتور محمود بك لبيب محرم . على بك حسنى المصرى . عمر بك لطفى . محمود بك سالم . عبد المجيد بك رضوان رئيس نيابة مصر (توفى في يناير سنة ١٩٠٤) . الأستاذ ويصا واصف (رئيس مجلس النواب الأسبق) . مرقص بك حنا (باشا) . رضوان بك شريف

أحمد فائق باشا . حسن باشا حارس . اسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شورى
القوانين . عبد الحميد صاق باشا رئيس مجلس شورى القوانين . يوسف صديق
باشا . الفريق حسن باشا رضوان . الدكتور حسن باشا محمود . محمد بك طلعت
حرب (باشا) . عزت بك شكري . أحمد بك الصوفاني . عبد اللطيف بك الصوفاني .
عبد الحميد بك عمار . عبدالرحيم بك أحمد . أحمد بك يحيى (باشا) . أمين بك يحيى (باشا)
عبد الفتاح بك يحيى (باشا) . حسين بك القرشوللى . مصطفى بك سرى . عثمان
بك لبيب . محمود انيس . مصطفى بك نجيب (مؤلف كتاب حماة الاسلام)
عبد الخالق بك ثروت (باشا) . حسين رشدى باشا . محمد بك سعيد (باشا) . حسين
بك حسنى العمرى . عبد الباقي بك العمرى ، الشيخ عبد العزيز جاويش . الشيخ
عبد المجيد اللبان . محمد ماهر باشا . اسماعيل بك صدقى (باشا) . سيد باشا شكري
على باشا آصف . الدكتور محمود بك ناشد . الدكتور حسين يسرى بك . سيف الله
باشا يسرى . الدكتور اسماعيل صدقى بك . الدكتور محمود عبد الوهاب بك . حسن
باشا عاصم . حسين باشا واصف . الشيخ عبد الوهاب النجار . اسماعيل بك حافظ .
الدكتور على بك سلام (الاسكندرية) . مصطفى بك عزت . الأستاذ دافيد حزان .
الأستاذ محمد بك توفيق . عبدالقادر بك الغريانى . محمد بك أسعد . محمد بك حسنى
يكن . عثمان باشا ماهر . عبد العزيز بك فريد . الدكتور أحمد على . محمود بك
حسيب ، شمس الدين بك حموده ، اسماعيل بك لبيب . محمد بك فهمى حسين . محمود
بك أبو النصر . محمد خلوصى بك . عبد الله بك طلعت . ابراهيم أفندى حافظ .
يوسف بك ذهنى . على بك حشمت . محمد بك رشوان . الشيخ مصطفى القاياتى .
الشيخ محمود أبو العيون . على بك لهيطة . يوسف بك حافظ . ابراهيم بك حفظى .
اسماعيل بك الملوانى . محمد عبد اللطيف الصيدلى . الدكتور محمد بك على دويدار .
محمود بك فهمى حسين . الدكتور أحمد فهمى الجهينى . الدكتور نصر فريد بك .
الحسينى أفندى العسقلانى . على بك المنزلاوى . محمود بك الشيشينى . حسن بك
خيرى (باشا) . محمد توحيد بك السلحدار . محمد بك أحمد الشريف .
مصطفى بك الخادم . محمد بك توفيق زاهر . الدكتور عبد العزيز نظمى بك . الأستاذ
محمد بك رمضان . محمد على علوبه باشا . اسماعيل أفندى كامل . مصطفى بك رشيد .
أحمد بك حجازى . حسن محسن باشا . عثمان بك أبو شنب . حسن بك جمجوم .

توفيق بك حموده . حافظ أفندى مصطفى . سعيد بك طلهمات . الدكتور السيد بك
رفعت . محمد أفندى لمعى المهندس . عبد الخالق مدكور باشا . محمد بك على دلاور .
حسن بك حمدي . الدكتور محجوب ثابت . الشيخ محمد رفعت . محمد بك حبيب المهندس .
الأستاذ محمود بك بسيوني (رئيس مجلس الشيوخ الأسبق) . حسن بك نبيه المصرى
(وكيل مجلس الشيوخ الأسبق) . الدكتور أحمد بك السعيد (أسبوط) . الأستاذ محمد كامل
مرتجي . أمين بك اسماعيل . الأستاذ حسن عبد المعطى . الأمير الاى محمود بك حلمي
اسماعيل . الأمير الاى على بك اسماعيل . محمود بك محرم رستم . محمد بك ايوب البتانوفى .
حسن بك رضا . بشاره باشا تقلا . الأستاذ داود بركات . جبرائيل تقلا بك (باشا) .
فؤاد بك حسيب . انطون بك الجميل . حافظ بك المنشاوى . محمد بك فؤاد المنشاوى .
يوسف بك المنشاوى . السيد رضوان جلال وأخوه عثمان أفندى جلال رئيس قلم
قضايا السكة الحديد . على بك أبو الفتوح (باشا) . محمد أبو الفتوح باشا . اسماعيل
بك العسيلي . خليل بك محمود الفلكي . اسماعيل بك صادق . مصطفى بك الشوربجي
من أعيان برهم . الشيخ على الغاياتى . محمد كامل بخاتى بك . محمد أفندى السكره .
محمود أفندى حمدي السخاوى . المرحوم محمود أفندى على منصور . الشيخ حسن
خفاجي (الاسكندرية) . سينوت بك حنا . عزيز بك خانكي . الياس بك عوض .
سليمان بك العباني . الأستاذ احمد الصدر . ييوى أفندى محمد . محمود أفندى على ناصر .
الشيخ صالح الشهابى . ابراهيم عبد الواحد . الشيخ محمود عبد الغنى . محمد عبد الكريم
(سيدى جابر) . حسن أفندى سيف . عبدالله بك محمد الصيدلى . شعبان أفندى خليفه .
أحمد أفندى ابراهيم القويضى . محمود أفندى كمال . محمد عبد القادر القط . محمد أفندى
عبد اللطيف التاجر . عبد الرازق أفندى الحبشى . صالح بك القاضى . السيد أفندى
الشنيطى . ابراهيم أفندى انيس . محمد أفندى بسيونى طنش . على أفندى ابو النظر .
محمد أفندى رشدي . السيد أفندى الخطيب . محمد أفندى مرسي النحاس . عبداللطيف
أفندى الصاوى . اليوزباشى محمود لطفى الأزميرلى . شيخ العرب سليمان على مطير يد الخ

تلايمه

نقصد بتلايمه من أدركوه واعتنقوا مبادئه أو اقتبسوا من روحه الوطنية
(ولو إلى وقت محدود) ، وهم أيضا لا سيديلا إلى حصرهم ، ولكننا نذكر من

تحضرننا أسماؤهم ، وسنرتبهم قدر ما استطعنا بحسب طبقاتهم وهم :

أحمد أفندى حلى المحرر باللواء . مصطفى بك النحاس (باشا) (١) . الأستاذ
عبد القادر حمزة (باشا) . محمد بك حافظ رمضان (باشا) . على بك الشمسى (باشا)
أمين أفندى عمر . سيد أفندى على . الأستاذ محمد صادق عنبر . الأستاذ حسين
فهمى بهجت . محمود خيرى باشا . الأستاذ محمد لطفى جمعة . أمين بك الرافعى .
الأستاذ أحمد وجدى . عبد الرحمن بك الرافعى . الدكتور عبد الحميد سعيد .
الأستاذ أحمد وفاق . الدكتور حافظ عفيفى باشا . مصطفى بك الشوربجى . محمد زكى
على باشا . الأستاذ عبد المقصود متولى . الدكتور عبد الغفار متولى . ابراهيم بك
راتب . الدكتور فؤاد بك سلطان . الدكتور منصور بك فهمى . الأستاذ محمود
عزمى . الأستاذ أحمد فايق . الدكتور عبد الحميد أبو هيف بك . عبد السلام بك
ذهنى . محمد بك صادق جلال . إمام واكد . حامد بك العلابى . الأستاذ
حسن حسنى . محمد بك فؤاد حمدى . الدكتور أحمد فؤاد . عبد الملك بك حمزة .
اسماعيل بك كامل . اسماعيل بك شيرين . حسين بك شيرين . كمال بك الحشن .
الأمير أفندى العطار . أحمد بك فهمى القطان . محمد على المهندس . عوض بك
البحراوى . عبد الرحمن عزام باشا . الدكتور سيد عبد الحميد سليمان باشا أحمد
مختار المهندس . الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى . الأستاذ على فهمى خليل .
الأستاذ حسن شافعى الجيزاوى . الدكتور منصور رفعت . ابراهيم بك دسوقى
أباظة . الأستاذ عبد الحالى عطية . الدكتور شفيق منصور . الأستاذ محمود خيرت .
الدكتور عبد العزيز عمران . الأستاذ عبد الوهاب البرعى . الدكتور يحيى الدرديرى .
عمر بك عارف . الدكتور منصور القاضى . الدكتور حسين همت . الدكتور أحمد
توفيق . الأستاذ اسماعيل مظهر . الأستاذ محمود العمري . على بك مراد . هاشم بك

(١) كان مصطفى بك النحاس (باشا) وهو قاض بالمحاكم الأهلية بفخر باعتناق مبادئ
الحزب الوطنى ، وقد انتخب من أجل ذلك وكيلا لنادى المدارس العليا ، وفى سنة ١٩١٨
اختاره الوفد المصرى عضوا فيه باعتباره ممثلا للحزب الوطنى هو والدكتور حافظ بك عفيفى (باشا)

مهننا . الأستاذ محمد عرار جى . الأستاذ سليمان حافظ . أحمد أفندى رمضان زيان .
محمد أفند فهمى بشير . الشيخ عبد الباقي نعيم سرور . الأستاذ محمود رمزى نظيم .
محمد أفندى عوض جبريل ، الأستاذ عيد الوهاب على . عبد الله أفندى حسن عوض .
الدكتور منصور القاضي . المرحوم على أفندى صادق (الإسكندرية) الخ

معاصروه من الشعراء والأدباء

كان لظهور الدعوة الوطنية التي بثها مصطفى كامل أثر كبير في تطور الشعر في
مصر ، واتجاهه إلى الناحية الوطنية ، التي لم يطررها الشعراء من قبل ، وبدا هذا الاتجاه
في قصائد فحول الشعراء المعاصرين للترجم ، فإن قرائنهم ، بتأثير دعوة الفقيه .
قد فاضت بالشعر الوطني ، وسارت النهضة الأدبية إلى جانب النهضة الوطنية ، تغذيها
وتؤيدها ، وتسجل حوادثها ، وتعبّر عن آلامها وآمالها ، وردد الشعر صدى الحركة
السياسية في الحوادث الهامة

حافظ إبراهيم

فمن ذلك أن حادثة دنشواي لقيت صداها في شعر حافظ إبراهيم ، فأنشأ في
يوليه سنة ١٩٠٦ قصيدته المشهورة عن الحادثة ، ندد فيها بسياسة الاحتلال ، وقال
في مطلعها مخاطباً المحتلين

قصيدة حافظ في حادثة دنشواي

أيها القائمون بالأمر فينا هل نسيتم ولاءنا والودادا
خففوا جيشكم وناموا هنيئاً وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
وإذا أعوزتكم ذات طوق^(١) بين تلك الربا فصيدوا العبادا

(١) ذات طوق أى الحمامة

إنما نحن والحمامُ سواء لم تفادر أطواقنا الأجيادا^(١)
لا تظنوا بنا العقوقَ ولكن أرشدونا إذا ضلنا الرشادا
لا تُقيدوا من أمة بقتيل صادت الشمس نفسه حين صاد^(٢)

وقال يصف الحادثة وفضائع المحاكمة والتنفيذ :

جاء جبالنا بأمرٍ وجئتم ضعفَ ضعفيه قسوةً واشتدادا
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أقصاصاً أردتم أم كيدا
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أنفوساً أصبتم أم جمادا
ليت شعري أتلك محكمة النفيتش عادت أم عهد (نيرون) عادا
كيف يحلوا من القوى القشفي من ضعيفٍ ألقى إليه القيادا
إنها مُثَلَّةٌ تَشْفُ عن الغيظ ولسنا انيظكم أندادا
أكرمونا بأرضنا حيث كنتم إنما يكرم الجوادُ الجوادا

وقد كان الفقيه شديد الإعجاب بشعر حافظ وأدبه ، وعندما ظهر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠١ ، قرظه في اللواء^(٣) تقریظاً يدل على عظم تقديره لشاعر النيل ، وأسهب في الثناء عاينه حين عرب كتاب « البؤساء » سنة ١٩٠٣

قصيدة حافظ

في حفلة مدرسة مصطفى كامل

وكان حافظ معجبا بوطنية مصطفى ، رغم صداقته وصلاته بخصوصه السياسيين ، وظهر إعجابه به وتأيينه له بكل جوارحه في قصيدته التي ألقاها يوم ٢٩ نوفمبر

(١) يريد بالأطواق هنا سلاسل الأسر والاستعباد ، والأجياد الاعناق جمع جيد
(٢) أي لاتأخذوا الأمة بقتيل ثبت أنه مات بضربة الشمس وهو السكتان بول
(انظر ص ١٩٩) ، وأقاد الحاكم القاتل بالقتيل أي قتله به قودا
(٣) عدد ٩ أكتوبر سنة ١٩٠١

سنة ١٩٠٦ في احتفال مدرسة مصطفى كامل ، تعليقا على خطبة الفقيه ، قال في مطلعها :

سمعنا حديثاً^(١) كقطر الندى فجدد في النفس ما جددا

وأضحى لآمالنا منمشاً وأمسى لآلامنا مرُقدا

وقال يستثير في النفوس روح الأمل والحياة وهي الدعوة المحيية الى الفقيه :

فدينك يا شرق لا يجزعن إذا اليوم ولى فراقب غدا

فكم محنة أعقت محنة وولت مبراعاً كرجع الصدى

فلا يئسناك قيل العداة وإن كان قبلا كحز المدي^(٢)

أتودع فيك كنوز العلوم وبمشى لك الغرب مسترفدا^(٣)

وتبعث في أرضك الأنبياء ويأتى لك الغرب مسترشدا

وتقضى عليك قضاة الضلال طوال الليالى بأن ترقدأ؟

أتشقى بعهد سما بالعلوم فأضحى الضعيف بها أيدياً^(٤)

إذا شاء بز الشها سيره وأدرك من جزيه المقصدا^(٥)

وإن شاء أدنى إليه النجوم فجاجى المجرة والفرقدأ^(٦)

وإن شاء زعزع شم الجبال فخرت لأقدامه سجدأ

وإن شاء شاهد فى ذرة عوالم لم تحى فيها سدى

زمان تسخر فيه الرياح ويغدو الجأذ به مُنشدأ^(٧)

وتعنو الطبيعة للعارفين بمعنى الوجود ومير الهدى

(١) يقصد خطبة مصطفى كامل فى الحفلة

(٢) المدي بالضم جمع مديّة وهى السكين

(٣) مسترفدا أى يطلب الرقد وهو العطاء

(٤) الايد بتشديد الياء القوى من الايد بمعنى القوة

(٥) بز سلبه والسها الكوكب المعروف، أى إذا شاء ذو العلم سلب من السها سره وأظهره للناس

(٦) المجرة والفرقد نجوم فى السماء

(٧) يشير إلى الطيران والفونوغراف

إذا ما أهابوا أجابَ الحديدُ وقام البخسارُ له مُسعداً^(١)
وطارت إليهم من الكهرباء برُوقٍ على السلك تطوى المدى

* * *

أيجملُ من بعد هذا وذاك بأن نستكين وأن نجمداً؟
وها أمة (الصفير) قد مهّدت لنا النهج فاستبقوا للموردا^(٢)
وقال فيها مخاطباً الشباب :

فيا أيها الناشئون اعملوا على خير مصر وكونوا بندا
ستظهر فيكم ذوات الغيوب^(٣) رجالاً تكون لمصر الفدا
فيآليت شعري من منكم إذا هي نادت يلبي النداء
وقال في ختامها مخاطباً مصطفى كامل :

لَكَ اللهُ يا (مصطفى) من فتى كثير الأيادي كثير العدا
إذا ما حمدتكَ بين الرجال فأنت الخليقُ بأن تحمدا
سيُحيى عليه سجلُ الزمان ثناءً يُخلد ما خُلدا
ويهتف باسمك ابناؤنا إذا آن للزرع أن يُحصدا

والقصيدة من أبلغ شعر حافظ ، وتأمل في البيت الأخير منها تجد حافظاً يقر لمصطفى بأنه الموجد للحركة الوطنية ، وأنه الجدير بأن تعرف الأمة له هذا الفضل عند ما تجنى ثمار هذه الحركة ، وقد ظل على هذا الرأي بعد وفاة الفقيه وبعد ظهور زعامة سعد باشا زغلول للحركة سنة ١٩١٨ ، وجهر به في رثائه للمغفور له محمد فريد في ديسمبر ١٩١٩ ، إذ قال مناجياً روح فريد بك :

(١) مسعداً أي معينا

(٢) أمة الصفير أي اليابان

(٣) ذوات الغيوب أي الاقدار التي في عالم الغيب

قُلْ (لَصَبَ النَّيْلِ ^(١)) إِنْ لَاقَيْتَهُ فِي جِوَارِ الدَّائِمِ الْفَرْدِ الصَّمَدِ
إِنْ مِصْرًا لَأَتِيَنِي عَنْ قِصْدِهَا رَغَمَ مَا تَلَقَى وَإِنْ طَالَ الْأَمَدُ
جِثَّتْ عَنْهَا أَحْمَلُ الْبَشْرَى إِلَى (أَوَّلِ الْبَانِينَ) فِي هَذَا الْبِلَدِ
فَاسْتَرْخِ وَاهِنَا وَنَمِّ فِي غِبْطَةٍ قَدْ بَذَرْتَ الْحَبَّ وَالشَّعْبُ حَصَدَ
حَافِظٌ يَعْتَرِفُ هُنَا أَيْضًا لِمُصْطَفَى بِأَنَّهُ أَوَّلُ الْبَانِينَ فِي صَرْحِ الْحُرُوكَةِ الْوَطْنِيَّةِ ،
وَبِأَنَّهُ بَذَرَ الْحَبَّ وَأَنَّ الشَّعْبَ حَصَدَ وَجَنَى ثَمَارَ مَا بَذَرَ ، وَرَأَى حَافِظٌ سَنَةَ ١٩١٩ هُوَ
تَأْيِيدٌ وَتَوْكِيدٌ لِرَأْيِهِ سَنَةَ ١٩٠٦

وَاقْتَبَسَ حَافِظٌ مِنْ رُوحِ مُصْطَفَى ، وَأَيْدَهُ فِي دَعْوَتِهِ الْوَطْنِيَّةِ ، وَرَدَّدَ صِدَاهَا فِي
شِعْرِهِ ، أَعْتَبَرُ ذَلِكَ فِي قِصِيدَتِهِ عَنْ حَادِثَةِ دَنْشَوَايَ (ص ٣٧٦) وَقِصِيدَتِهِ فِي حِفْظِ
مَدْرَسَةِ مُصْطَفَى كَامِلٍ (ص ٣٧٧) ، ثُمَّ قِصِيدَتِهِ فِي اسْتِقْبَالِ الْوَرْدِ كِرُومَرٍ عِنْدَ
عُودَتِهِ إِلَى مِصْرَ فِي أَكْتُوبَرِ سَنَةِ ١٩٠٦ . بَعْدَ حَادِثَةِ دَنْشَوَايَ ، قَالَ :

قِصِيدَةُ حَافِظٍ فِي اسْتِقْبَالِ الْوَرْدِ كِرُومَرٍ بَعْدَ حَادِثَةِ دَنْشَوَايَ

(قَصْرُ الدُّوبَارَةِ ^(٢)) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُنَا فَالْشَّرْقُ رِيْعٌ لَهُ وَضَجُّ الْمَغْرِبِ
أَهْلًا بِسَاكِنِكَ الْكَرِيمِ وَمَرْحَبًا بَعْدَ التَّحِيَّةِ إِنِّي أَتَعَبْتُ
فَقَلْتُ لَنَا الْأَسْلَاكُ عَنْكَ رِسَالَةٌ بَاتَتْ لَهَا أَحْشَاؤُنَا تَهَلَّبُ
إِلَى أَنْ قَالَ :

إِنْ ضَاقَ صَدْرُ النَّيْلِ عَمَّا هَالَهُ يَوْمَ الْحَمَامِ ^(٣) فَانْ صَدْرُكَ أَرْحَبُ
أَوْ كَلِمًا بِأَحِ الْخَزِينِ بِأَنَّهُ أَمْسَتْ إِلَى مَعْنَى التَّعَصُّبِ تُنْسَبُ ^(٤)
رَفَقًا عَمِيدَ الدُّوَلَيْنِ بِأَمَةٍ ضَاقَ الرَّجَاءُ بِهَا رِضَاقُ الْمَذْهَبِ
رَفَقًا عَمِيدَ الدُّوَلَيْنِ بِأَمَةٍ لَيْسَتْ بِغَيْرِ وَلَا مَهَا تَتَعَذَّبُ
إِنْ أَرْهَقُوا صَيَادَكُمْ فَلَعَلَّهُمْ لِلْقَوَاتِ لَا لِلْمُسْلِمِينَ تَعْصَبُوا

(١) يريد مصطفى كامل

(٢) يريد قصر المعتمد البريطاني

(٣) يوم الحمام يوم صيدا الحمام في حادثة دنشواي

(٤) يشير إلى ما زعم اللورد كرومر من أن التعصب الديني هو سبب حادثة دنشواي

ولربما ضنَّ الفقيرُ بقوته وسخا بمهجنه على من يَغصب
في (دنشواي) وأنت عنا غائب لَعِبَ القضاء بنا وعزَّ المهرب
حَسِبُوا النفوسَ من الحمامِ بديلةً فتسابقوا في صـبـدهنِ وصوِّبوا
نُكِبُوا وأقفرَت المنازلُ بعدَمهم لو كنتَ حاضرَ أمرهم لم يُنكبوا
خَلَّتْهم والقاسطون^(١) بمرصدي وسيطهم وجبالهم تتأهب
جُلِدُوا ولو مَنِينهم لتعلقوا بحبال من شُنُقوا ولم يتهيَّبوا
شُنِقُوا ولو منحوا الخيارَ لأهلوا بلغى سياط الجالدين ورحبوا^(٢)
يتحاسدون على المات وكأسه بين الشفاهِ وطعمه لا يعذب
موتان : هذا عاجلٌ متنمَّرٌ يرنو ، وهذا آجلٌ يترقب
والمستشار مَكَاثِرٌ برجاله ومُعَاجِزٌ ومنَاجِزٌ ومُحزِب^(٣)
يختالُ في أنحائها متبسماً والدمع حول ركبته يتصب
طاحوا بأربعة فأردوا خامسا هو خير ما يرجو العميد ويطلب
حبٌّ بمحاولِ غرسه في أنفُس يُجَنِّي بمفرسها الثناء الطيب
كن كيف شئتَ ولا تكلُّ أرواحنا للمستشار فان عدلك أخصب
وأفِضْ على (بُندِ) إذا ولى القضا رفقاً يهشُّ له القضاء ويطرَب
وقصيدته في شكوى مصر من الاحتلال وقد نشرت في يناير سنة ١٩٠٧ قال :

قصيدة حافظ في شكوى مصر من الاحتلال

لقد كان فينا الظلمُ فوضى فهذبَتْ حواشيه حتى بات ظلماً منظماً

(١) القاسطون الظالمون

(٢) أهلوا ورحبوا أي قالوا أهلاً ومرحباً

(٣) يربد الكبين متشل مستشار وزارة الداخلية وكان يشرف على تنفيذ الحكم ،
ومعاجز من عاجزت الرجل إذا أتيت بما يجعله عاجزاً ، وحزب أي جمع أعوانه وأحزابه
فبعضهم يتولى الشنق والبعض يتولى الجلد

تَمَنُّ عَلَيْنَا الْيَوْمَ أَنْ أَخْصِبَ التَّرِي وَأَنْ أَصْبِحَ الْمَصْرِيُّ حُرًّا مَتَعَا
أَعِدُّ عَهْدَ (اسْمَاعِيلَ) جَلْدًا وَسَخْرَةً فَأَنِي رَأَيْتُ الْمَنَّ أَنْكِي وَالْمَا
عَمَلْتُمْ عَلَيَّ عِزَّ الْجِمَادِ وَذَلُّنَا فَأَغْلَيْتُمْ طِينًا وَأَرْخَصْتُمْ دَمَا
إِذَا أَخْصَبَتْ أَرْضٌ وَأَجْدَبَ أَهْلِهَا فَلَا أَطْلَعَتْ نَبْتًا وَلَا جَادَهَا السَّمَا
نَهَشْتُ إِلَى الدِّينَارِ حَتَّى إِذَا مَشَى بِهِ رَبِيهِ لِلسُّوقِ الْفَاءُ دَرَمًا
فَلَا تَحْسَبُوا فِي وَفْرَةِ الْمَالِ لَمْ تَفُذْ مَتَاعًا وَلَمْ تَعْصَمِ مِنَ الْفَقْرِ - مَغْنَا
فَإِنْ كَثِيرَ الْمَالِ - وَالْخَفْضُ وَارْفٌ - قَلِيلٌ إِذَا حُلَّ الْفَلَاةُ وَخَبِيًا^(١)

وقصيدته التي قالها عند استقالة اللورد كرومر في أبريل سنة ١٩٠٧ ، قال فيها :

قصيدة حافظ في استقالة اللورد كرومر

فَتَى الشَّعْرَ هَذَا مَوْطِنَ الصَّدْقِ وَالْهُدَى فَلَا تَكْتُمِ التَّارِيخُ إِنْ كُنْتَ مَنشِدَا
لَقَدْ حَانَ تَوْدِيْعُ الْعَمِيدِ وَإِنِّه حَقِيقٌ بِتَشْيِيعِ الْمَجْبِينِ وَالْعِدَا
فَوَدِّعْ لَنَا الطَّوْدَ الَّذِي كَانَ شَاخِحَا وَشَيِّعْ لَنَا الْبَحْرَ الَّذِي كَانَ مَرْبِدَا
إِلَى أَنْ قَالَ :

يَنَادِيكَ قَدْ أَزْرَيْتَ بِالْعِلْمِ وَالْحِجَا وَلَمْ تُبْقِ لِلتَّعْلِيمِ يَا (لُورْد) مَهْدَا
وَأَنْكَ أَخْصَبْتَ الْبِلَادَ تَعْمُدَا وَأَجْدَبْتَ فِي مِصْرَ الْعُقُولِ تَعْمُدَا
قَضَيْتَ عَلَى أُمَّ اللِّغَاتِ وَإِنِّه قَضَاءُ عَلَيْنَا أَوْ سَبِيلٌ إِلَى الرَّدَى^(٢)
وَوَافَيْتَ وَالْقَطْرَانَ فِي ظِلِّ رَايَةٍ فَمَا زِلْتَ (بِالسُّودَانِ) حَتَّى تَمْرَدَا^(٣)

(١) الخفض سعة العيش . يريد أن كثرة المال مع غلاء الأسعار لانغني شيئا
(٢) أم اللغات أي اللغة العربية ويشير إلى محاربة الاحتلال للغة العربية وجعل دراسة
العلوم في أكثر المدارس باللغة الانجليزية
(٣) وافيت أي جئت . والقطران أي مصر والسودان

فطاح كما طاحت (مصوع) بده
حجبت ضياء الصحف عن ظلماته
وأودعت تقرير الوداع منامزاً
غمزت بها دين النبي وإننا
يناديك أين النابغون بهدكم
فأعهد (اسماعيل) والعيش ضيق
يناديك وليت الوزارة هيئة^(٢)
فليس بها عند التشاور من قى
بربك ماذا صدنا ولوى بنا
أشرت برأى في كتابك لم يكن
وحاولت اعطاء الغريب مكانة
فياويل مصر يوم تشقى بندوة
ألم يكفنا أنا سلينا ضياعنا
وزاحنا في العيش كل ممارس
وما الشركات السود في كل بلدة
ويبدو مبلغ تقدير حافظ للفقيد في قصيدته التي ألقاها على قبره يوم تشييع
جنازة الزعيم ، وقصيدته في حفلة الأربعين (وقد نشرناهما ص ٢٧١ و٢٨٢)
وله قصيدة نالمة ألقاها عند قبره يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٩ في الاحتفال بإحياء
ذكره الأولى ، وهي من أبلغ روائع الشعر العربي ، قال فيها :

(١) ظلماته أى ظلمات السودان وحجبت المؤيد أى منعتة عن دخول السودان

(٢) وزارة مصطفى فهمى باشا

(٣) يشير إلى مشروع اللورد كرومر فى انشاء مجلس تشريعى مختلط

قصيدة حافظ في الذكري الأولى للفقيد

طُوفُوا بِأَرْكَانِ هَذَا الْقَبْرِ وَاسْتَلَمُوا^(١) واقضوا هنالك ما تقضى به الذمُّ
هنا جَنَانُ تَعَالَى اللَّهِ بِأَمَلِهِ ضاقت بآماله الأقدارُ والهَمُّ
هنا فَمٌّ وَبَنَانٌ لَاحَ بَيْنَهُمَا في الشرقِ فَجْرٌ تَجِيءُ ضَوْءُهُ الْأَمُّ
هنا فَمٌّ وَبَنَانٌ طَالَمَا نَثَرَا نثرًا تَسِيرُ بِهِ الْأَمْثَالُ وَالْحِكْمُ
هنا السَّكِيَّةُ^(٢) الَّتِي شَادَتْ عَزَائِمَهُ لطلب الحق رُكْنًا لَيْسَ يَنْهَدُمُ
هنا السَّهِيدُ ، هُنَا رَبُّ اللُّوَاءِ ، هُنَا حامِي الدِّمَارِ ، هُنَا الشَّهْمُ الَّذِي عَلِمُوا

* * *

يَا أَيُّهَا النَّائِمُ الْهَانِي بِمُضْجَعِهِ لَيْهِنَكَ النَّوْمُ لَا نَمٌّ وَلَا سَمٌّ
بَاتَتْ تَسَائِلُنَا فِي كُلِّ نَازِلَةٍ عَنْكَ الْمُنَابِرُ وَالْقِرطاسُ وَالْقَلَمُ
تَرَكْتَ فِينَا فَرَاغًا لَيْسَ يَشْغَلُهُ إِلَّا أَبِي ذَكِيُّ الْقَلْبِ مُضْطَرِمُ
مَنْفَرَّ النَّوْمِ^(٣) سَبَاقُ لَغَايَتِهِ آثَارُهُ عَمٌّ - آمَالُهُ أُمٌّ

* * *

إِنِّي أَرَى وَفُؤَادِي لَيْسَ يَكْفِي بَنِي رُوحًا يَحْفُ بِهَا الْإِكْبَارُ وَالْعِظَمُ
أَرَى جَلَالًا ، أَرَى نُورًا ، أَرَى مَلَكًا أَرَى مُحِبًّا بِحَمِينِنَا وَيَتَسَمُّ
اللَّهُ أَكْبَرُ ، هَذَا الْوَجْهُ أَعْرِفُهُ هَذَا قِي النَّيْلِ ، هَذَا الْمُفْرَدُ الْعَلَمُ
غَضُّوا الْعَيُونَ وَحَيَّوهُ نَحْيَتِهِ مِنْ الْقُلُوبِ إِذَا لَمْ تُسْعِدْ^(٤) الْكَلَمُ

(١) استلم القبر قبله أولسه يده

(٢) الشجاع

(٣) منفر النوم أي مسهد

(٤) أسعده أعانه

وأقسّموا أن تدودوا عن مبادئة فنحن في موقف يحلو به القسم

لبيك ، نحن الأولى حركت أنفسهم
جئنا نؤدى حساباً عن مواقفنا
قيل اسكتوا فسكنتنا ثم أنطقنا
قد اتهمنا ولما نطلب جلاً
قالوا لقد ظلموا بالحق أنفسهم
إذا سكنتنا تناجوا : تلك عادتهم
قد مرّ عامٌ بنا والامرُ يحزُّ بنا (٣)
فالناسُ في شدّةٍ والدهرُ في كلب (٤)
وللسياسة فينا كل آونة
بيننا نرى جمرها تُخشي ملامسه
تصنئ لأصواتنا طوراً لتخدعنا
فمن ملاينةٍ أستارها خدع
ماذا يريدون (٥) ؟ لا قرت عيونهم
كم أمة رغبت فيها فما رسخت
ما كان ربك رب البيت تاركها
لما سكنت ولما ظلك العدم
ونستمدُّ ونستعدي (١) ونحتم
عسف الجفأة (٢) وأعلى صوتنا الألم
إن الضعيف على الحالين منهم
والله يعلم أن الظالمين هم
وان نطقنا تنادوا : فتنة عم
آناً وآونةً تفتابنا النقم
والعيش قد حار فية الحاذق النهم
لونٌ جديدٌ وعهدٌ ليس يحترم
إذا به عند لس المصطلح فحم
وتارة بزدهيها الكبر والصمم
الى مصالبةٍ أستارها وهم
ان الكنانة لا يطوى لها علم
لها - على حولها (٦) - في أرضها قدم
وهي التي بجبالٍ منه تعتم

(١) نستمد نطلب المدد ونستعدي نستنصر

(٢) يريد بالجفأة المحتلين

(٣) حزه به الامر اشتد عليه

(٤) الكلب الشدة

(٥) يريد المحتلين

(٦) الحول القوة

لبيك إنا على ما كنت تعهده حتى نسود وحتى تشهد الأمم
فيعلم النيل أنا خير من وركدوا ويستطيل اختيالاً ذلك الهرم
إلى أن قال :

يا أيها النشء سيروا في طريقتة
فكلكم (مصطفى) لو سار سيرته
قد كان لا وانياً يوماً ولا وركلاً^(٢)
وانت يا قبر قد جئنا على ظمأ
أين الشباب الذي أودعت نضرة
وما صنعت بآمال لنا طويت
ألا جواب بروى من جوائننا ؟
نم أنت ، يكفيك ما عانيت من تعب
هذا (لواؤك) خفاق يظللنا
وثابروا ، رضى الأعداء أو نعموا
وكلكم (كامل) لو جازه^(١) السأم
يستقبل الخطب بساماً ويقنم
فجد لنا بجواب ، جادك الدميم^(٣)
أين الخلال - رعاك الله - والشيم ؟
يا قبر فيك وعنى رسمها القديم ؟
ما للقبور اذا ما نوديت نجم ؟^(٤)
فنحن في يقظة والشمل ملتئم
وذاك شخصك في الأكباد مرسم^(٥)

شوقي

أما شوقي بك ، أمير الشعراء ، فقد كان صديقاً حميماً للفقيد ، وكلاهما معجب
بصاحبه أيما إعجاب ، ولا غرو فهما صنوان ، وفرسا رهان ، هذا في ميدان الوطنية
والجهاد ، وذاك في دولة الشعر والبيان ، وكان الفقيد يصف شوقي بأنه « الغدير
الصافي في ألقاف الغاب ، يسقى الأرض ولا يبصره الناظرون ، ، وكان يخصص
لقصائده أسمى مكان في اللواء ، وفي ذلك يقول في مرثاته الخالدة :

(١) جازه أى جاوزه

(٢) الوكل العاجز الذى يكل الأمر إلى غيره

(٣) الدميم جمع ديمة السحاب

(٤) وجم يحم سكت عن الكلام

(٥) توفي حافظ إبراهيم « شاعر النيل » في ٢١ يولييه سنة ١٩٣٢

قد كنت تهتف في الوري بقصائدي ونجل فوق النيرين مكاني
وزار الفقيد وهو على فراش مرضه الأخير ، فطلب إليه أن يرثيه ، وفي
ذلك يقول :

وجعلت تسألني الرثاء فهماكه من أدمعي وسرايري وجناتي
وكان لدعوة مصطفى أثرها في شعر شوقي ، فمن ذلك أنه لما دعا الأمة سنة
١٩٠٢ إلى الاحتفال بالعيد المئني لولاية محمد علي (ص ١٥٨) ، لبي شوقي نداه ،
وأنشأ في مايو سنة ١٩٠٢ قصيدة من غرر قصائده ، تخليداً لهذا العيد (١) ، قال
فيها مناجياً روح محمد علي :

قصيدة شوقي في الاحتفال

بالعيد المئني لولاية محمد علي

علم أنت في المشارق مفرد	لك في العالمين ذكرٌ مخلد
حبذا دولةٌ وملكٌ كبير	أنت باني ركنيهما يا محمد
ولولا في البر والبحر يعطى	مظهر الشمس في الوجود وأزيد
تدخل الأرض فيه قطراً فقطراً	مدخل الناس في شريعة أحمد
تملاً الأرض صافناتٍ وتجرى	لك في البحر كلّ برج مشيد
هكذا فلينزل سماء المعالي	من سعي في الوري لمجد وسؤدد
همةً تبتني الممالك شما	ء ورأى يسوسهن مسدد
وثبات في الحادثات وعزم	مثل ريب الزمان لا يتردد
تضع السيف موضعاً يرتضيه	ومن البأس ما ينمّ ويحمد
وتصون النوال عن حسن صنع	لك ينسى ونعمة لك تجحد
لا تبالي بحاسدٍ وعدو	آية الفضل أن تُعادي وتحسد

(١) نشرها اللواء في عدد ٢٢ مايو سنة ١٩٠٢

همةُ الفاتحين حكمٌ وقهرٌ ولكَ الهمة التي هي أبعد
ليس من يفتح البلاد لتشي مثل من يفتح البلاد لتسعد
علمت مصرُ والحجاز وأرض النوب والشام أن عهدك عَسجد
أنت إن أحصى النوايح في الملا لك كريمُ الثنا على الدهر أوجد
أيتهم قرابةٌ وقبيلٌ وأرى الله وحده لك أيد
فتولاك والليالي حبالى وتولاك والحوادثُ تولد
ورمى عنك والملوكُ رماة نصفهم واجدون^(١) والنصفُ حسدُ
ركنَ مصرٍ أقت بعد انقضاضي أمةٌ بُجّعت وأمر توحد

o o o

يا مُديم الرقاد في خير مرقد
وأنظر الشرق كيف أصبح بهوى
وتأمل ممالكا وبلاداً
كنتَ تحميه^(٢) والسيوفُ عوارٍ
ينشر النور والحضارة فيه
وترى الأمر بين قلبٍ دكى
يا عصامَ الملوك هل كنت تسلو
صغرَ الجاهلون بالنفس مسعا
ما سمعنا بفتح سلّ سيفاً
حالةٌ سامها (الأمين) أخوه
ثبت في فتنة الحجاز إليهم
وأناهم بعنره لك بيتٌ
يحفظ الملك ملك مصر عليهم

(١) غاضبون

(٢) أى الشرق

زعموا الشرق من فعالك قَلْقَمًا وأرى الشرق في يمينك أقعد^(١)
جنته بالحياة والنور والتمسدين والرأى والقنا والمهند
كان بين الورى بركن فعزّز تَ بثنان والركن بالركن يشند

٥٥٥

شرفاً في الزمان آل على جدّكم سيّدُ الملوك المسود
ارجعوا في العُلا إليه وروموا نهجه ، نهجه الذي كان أقصد
أبسوه كما كساكم فخارا كلما رثت الثياب تجدد
واملاوا مسمع الزمان حديثاً كدوى الخضم أرغى وأزبد
إنما الناس أمة لا يموتون وأخرى تمر مرّاً وتنغد
وأرى جدّكم على الدهر حيّاً خالدَ الذكر والثناء المرّد

قصيدة شوقي في وداع اللورد كرومر

وقال سنة ١٩٠٧ ضمن قصيدته المشهورة في وداع اللورد كرومر

أيامكم أم عهد اسماعيلاً أم أنت فرعون يسوس النيل
أم حاكم في أرض مصر بأمره لا سائلاً أبداً ولا مستولاً
يا مالسكا رقب الرقاب بيأسه هلاً اتخذت إلى القلوب سبيلاً
لما رحلت عن البلاد شهدت فسكأنك الداء العياء رحيلاً
أوسعتنا يومَ الوداع اهانةً أدبٌ لعمر ك لا يصيبُ مثيلاً
إلى أن قال :

أندرتنا رقاً يدوم وذلةً تبقى وحالا لا ترى نحويلاً
أحسبت أن الله دونك قدرةً لا يملك التغيير والتبديلاً
الله يحكم في الملوك ولم تكن دولٌ تنازعه القوى لتدولاً

(١) أقعد أى أمكن وأثبت

فرعونُ قبلك كان أعظمَ سطوةً وأعز بين العالمين قبلاً
اليومَ أخلفت الوعدَ حكومةً كنا نظن عهدَها الإنجيلاً
دخلت على حكم الوداد وشرعه مصراً فكانت كالسلال دخولا
هدمت معالمها وهدت ركنها وأضاعت استقلالها المأمولا
وقال :

قد مدَّ اسماعيل قبلك للورى ظلّ الحضارة في البلاد ظليلاً
إن قيس في جود وفي سرف الى ما تنفقون اليوم عدّ بخيلاً
أو كان قد صرع المفتش مرةً فلكم صرعتَ بدنشواى قتيلاً
لا تذكر السكر باج في أيامه من بعد ما أنبت فيه ذيولاً
قصيدته في ذكرى دنشواى

وقال سنة ١٩٠٧ عن (ذكرى دنشواى) بعد مرور عام على حادثتها في سبيل طلب العفو عن سجنائها (١)

يا دنشواى على ربك سلامُ ذهبت بأنس ربوعك الأيامُ
شهداء حُكمت^(٢) في البلاد تفرقوا هيات للشمل الشقيت نظام
مرّت عليهم في اللحد أهلةً ومضى عليهم في القيود العام
كيف الأراملُ فيك بعد رجالها وبأى حال أصبح الأيتام
عشرون بيناً أفقرت وانتابها بعد البشاشة وحشة وظلام
يا ليت شعرى في البروج حمامُ أم في البروج منيةً وجمام
(نيرون) لو أدركت عهد كرومي لعرفت كيف تنفذ الأحكام

نوحى حمام دنشواى ورّوى شعباً بوادى النيل ليس ينام
إن نامت الأحياء حالت بينه سحراً وبين فراشه الأحلام

(١) اللواء عدد ٢٧ يونيه سنة ١٩٠٧

(٢) أى حكم المحكمة المختصة في قضية دنشواى

متوجع يتمثل اليوم الذي ضجت لشدة هوله الأقدام
وتدل مرثاة شوقي على مبلغ ما يكنه للفقيد من الإعجاب والإكبار ، وتعد
قصيدته أعظم مرثاة في تاريخ الأدب العربي ، وكان لا يفتأ يذكره بعد وفاته في
قصائده ، فمن ذلك قصيدته التي نظمها بمناسبة ذكراه السابعة عشرة بعنوان (شهيد الحق) ،
تناول فيها وصف ما أصاب البلاد في سنة ١٩٢٤ من انقسام وتشاحن وتناحر ، ثم
انتقل من ذلك إلى ذكرى الفقيد فوفاه حقه ، قال في مطلعها :

قصيدة شوقي في ذكرى الفقيد سنة ١٩٢٥

إلام الخلف بينكمو إلاما ؟ وهذي الضجة الكبرى علاما ؟
وفيم يكيد بعضكمو لبعضي وتبدون العداوة والخصاما ؟
وأين الفوز ؟ لا مصر استقرت على حال ولا السودان داما
إلى أن قال :

ولينا الأمر حزبا بعد حزب فلم نك مصالحين ولا كراما
جعلنا الحكم تولية وعزلا ولم نعد الجزاء والانتقاما
وسننا الأمر حين خلا إلينا بأهواء النفوس فما استقاما
وقال ذا كرا مناقب الفقيد :

شهيد الحق قم تره يقما بأرض ضيقت فيها اليتامى
أقام على الشفاه بها غريبا ومر على القلوب فما أقاما^(١)
سقيمت فلم تبت نفس بخير كان بمهجة الوطن السقاما
ولم أر مثل نعشك إذ تهادي ففطى الأرض وانتظم الأناما
تحمل همة ، وأقل ديناً وضّم مروءة وحوى زماما
وما أنساك في العشرين لما طلعت حياها قرأ تماما
يشار إليك في النادى وترمى بعيني من أحب ومن تعامى
إذا جئت المنابر كنت (قساً) إذا هو في عكاظ علا السناما
وأنت الذُّ للحق اهتزازاً وألطف حين تنطقه ابتساما

(١) أي أن الحق تنطق به الأفواه ولا يستقر في القلوب

وتحمل من أديم الحق وجهاً صراحاً ليس يتخذ اللثاما

•••

أتذكرُ قيل هذا الجيل جيلاً سهرنا عن معلّمهم وناما
مِهارُ الحقِ بقضنا إليهم شكيمَ القيصرية واللجاما^(١)
لواؤك كان يسقيهم بجام وكان الشعر بين يديّ جاما^(٢)
من الوطنية استبقوا رحيقاً فضضنا عن معتقها اللثاما
غرسنا كرمها فزكا أصولا بكل قرارة وزكا مداما
جمعتمو على نبرات صوت كنفخ الصور حركت الرجاما^(٣)
لك الخطبُ التي غص الأعدا بسورتها وسافت للندامى^(٤)
فكانت في مرارتها زئيراً وكانت في حلاوتها بغامام^(٥)
بك الوطنية اعتدلت وكانت حديثاً من خرافة أو مناما
بنيت قضية الأوطان منها وصيرت (الجللاء) لها دعاما

قصيدته في ذكرى الفقيه سنة ١٩٢٦

وله قصيدة ألقيت في الاحتفال بذكرى الفقيه في فبراير سنة ١٩٢٦ قال :

لم يمت من له أثرٌ وحياةٌ من السّير
أدعه غائباً وإن بعدت غاية السفر
آيب الفضل كلما آبت الشمس والقمر^(٦)

(١) مهار جمع مهر والمراد بالمهار هنا الشباب ، والمراد بشكيم القيصرية واللجاما بطش

الاحتلال وجبروته

(٢) اللجام الإناء من الفضة

(٣) الرجام القبور

(٤) السورة الحدة والشدة ، والندامى جمع نديم والمراد بهم الأنصار والأصدقاء

(٥) البغام صوت الظبي

(٦) أى يعود للفقيه فضل ويتجدد له ذكر كلما آبت الشمس وعاد القمر

رُبُّ نوري مُتَمِّمٌ قد أُنانا من الحُفَرِ
إنما الميِّت من مشي ميِّت الخُبْرِ والخَبْرِ
من إذا عاش لم يُفد وإذا مات لم يضر
ليس في الجِساء والغنى منه ظلُّ ولا نمر
قَبْحُ العزِّ في القصر ور إذا ذَلَّت القُصْرُ

أَعُوذُ الحَقِّ ذائِدٌ وإلى (مصطفى) افتقر
وتَمَنَّت حياضه هبة الصارم الذِكر
الذي يُنقذ المَدَى والذي يركب الخطر
أَيُّهَا القوم عَظُمُوا واضع الأَسِّ والحجر
أذكروا الخُطبة التي هي من آية السكبر
لم ير الناس قبها منبراً تحت محتضر
لست أنسى لواءه وهو يمشي إلى الظفر
حَسَرَ الناسَ نَحْتَهُ زُمراً إثرها زمر
وترى الحَقَّ حوَلَهُ لا ترى البيضَ والسُمْرُ^(١)
كلما راح أو غدا نفخ الروح في الصور

يا أبا النَّفْسِ في الصبا لذة الروح في الصَّغَرِ
وخليلاً ذَحْرَتَهُ لم يُقوِّم بِمَدْحَرِ
حال بيني وبينه في فجاءاته القَدَرِ

(١) البيض السيوف والسمر الرماح

كيف أجزي مودة لم يشب صفوها كدر
غير دمع أقوله قل في الشأن أو كثر
وفؤاد معلق بالخيالات والذكر
لم ينم عنك ساعة في الأحاديث والسمر
قم تر القوم كتلة مثل مكمومة الصخر
جددوا ألفة الهوى والإخاء الذي شطر
ليس للخلف بينهم أو لأسبابه أثر
ألفتهم روائح غايات من الغير
وصحوا من منوم وأفاقوا من الخدر^(١)
أقبلوا نحو حجتهم ما لهم غيره وطر
جماعه خلية شرعوا دونها الأبر
وتواصوا بخطبة وتداعوا لمؤتمر
وقصارى أدلى النهى يتلاقون في الفسك
آذونا بموقف من جلال ومن خطر
نسمع الليث عنده دون آجابه زار
قل لهم في نديهم^(٢) مصر بالباب تنتظر^(٣)

اسماعيل صبرى

وكان الشاعر الكبير اسماعيل باشا صبرى صديقاً صدوقاً للفقيد، أيده في جهاده منذ الساعة الأولى، كان محافظاً للاسكندرية سنة ١٨٩٦ - ٩٩، وأراد مصطفى أن يلتقى بها خطبة من خطبه الوطنية الكبرى، فأوعزت الحكومة إليه أن يمنع إقامة

(١) الحدر الكسل

(٢) يريد البرلمان

(٣) توفى أحمد شوقي أمير الشعراء في ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢

الاجتماع الذى أعد لإلقاء الخطبة . بحجة المحافظة على الأمن والنظام ، فأبى صبرى على الحكومة ما أرادت ورخص باقامة الاجتماع ، وصارح الحكومة بأنه مسئول عن الأمن والنظام^(١)

ولما عين وكيلا لوزارة الحفانية (نوفمبر سنة ١٨٩٩) ظل على مودته للفقيد ، وكان يخرج فى غالب الأيام من الوزارة ويعرج بدار اللواء المقابلة لها ليزور صاحب اللواء ، ويقضى معه الوقت الطويل ، ولم يمنعه منصبه من المجاهرة بصداقته له فى الوقت الذى كان الكبراء من الموظفين وغيرهم يخشون عواقب الاتصال به ، وإلى ذلك يشير شوقى فى رثائه لاسماعيل صبرى^(٢) إذ يقول :

ويح الشباب وقد تخَطَّرَ بينهم هل مُتَّعُوا بتمسُّحٍ وطواف
لو عاش قُدوتهم وربُّ (لوائهم) نَكس (اللواء) لثابت وقَّاف^(٣)
فلكم سقاه الودَّ حين ودَّاه جَرَبٌ لأهل الحكم والأشراف
وتجد فى شعر اسماعيل صبرى انسجام مع روح الفقيد ، قال فى قصيدة له وجهها إلى الخديو عباس الثانى يوم عيد جلوسه سنة ١٩٠٨ ، يدعو إلى الدستور :

سَدَّدَ سِهَامَ الرأى بالشورى يُحِطُ بكَ منه فى ظَلَمَ الحوادث فيلقُ
واسبقُ به واضربُ به وافتحُ به ماشئت من بابِ أمامك يغلُقُ
وقال فيها يذكر حادثة دنشراى والعمو عن مسجونها :

وأقلتَ عنرة قرية حكم الهوى فى أهلها وقضى قضاءً أخرقُ

(١) ذكر هذه الواقعة الأستاذ الأديب أحمد الزين فى مقدمته لديوان اسماعيل صبرى باشا

(٢) توفى اسماعيل باشا صبرى سنة ١٩٢٣

(٣) قُدوتهم أى قدوة الشباب ، ورب اللواء هو الفقيد صاحب اللواء ، أى لو عاش

مصطفى حتى شهد وفاة اسماعيل صبرى لنكس اللواء حدادا عليه

إن أن فيها بأئس مما به
وا رحمتا لجناتهم ماذا جنوا
ما زال يُقذى كل عين مارأوا
حتى حكمت فجاء ححك آية
نزلت ترفرف حول كاتب نصها
شكرتك مصر على سلامة بعضها
ذكرت لك الصفح الجميل ولم نزل
قانون دنشاواى ذاك صحيفة
هل يُتجى صنو ويهدأ خاطر
ومضاجع القوم النيام أو اهل
لن تبلغ الجرحى شفاء كاملا
فاحكم بغير العنف واكسر سيفه
وقال سنة ١٩٠٨ يندد بسياسة مصطفى فهمى باشا حين سقطت وزارته :

عجبت لهم قالوا «سقطت» ومن يكن
فأنت امرؤ ألصقت نفسك بالثرى
فلو اسقطوا من حيث أنت زجاجة
وقد جزع لو فاة الفقيد جزعا شديدا ، وشيع جثمانه إلى مرقده الأخير، ووقف
على قبره يلقي قصيدته فى وداعه ، ولم يكذب يلقى البيت الأول منها وهو :
أداعى الأسمى فى مصر ويحك داعيا هددت القوى إذ قتت بالأمس ناعيا

(١) رن الرجل رنيناً صاح ورفع صوته بالسكاء ، والمطوق السجين

(٢) قضائهم أى قضاة المحكمة المختصة (انظر ص ١٩٩)

(٣) يريد الدستور

(٤) أى أن مصطفى فهمى باشا كان فى منزلة دانية لا يؤله السقوط منها بحيث لو اسقطوا

زجاجة من ذلك المكان المنخفض لم تنكسر

جنى ظهر عليه التأثير الشديد والإعياء ، ولم يستطيع أن يتم القصيدة ، وتدل
قصيدته في حفلة تأييده (ص ٢٨١) على مبلغ حبه له وإخلاصه لصداقته ، وإعجابه
به وشدة حزنه عليه ، فجاءت آية في البلاغة ورقة التعبير ، وكان كل بيت منها
دمعة وفاء تذرهما عين الصديق على صديقه الحميم

خليل مطران

وكان بين الفقيه وشاعر القطرين خليل مطران صداقة وود داما طول العمر ،
ويبدو مبلغ إعجابه به وتقديره لعبقريته في قصيدته في حفلة الأربعين (ص ٢٨٦) .
وقد نشرها في ديوانه ، وصدرها بهذه الكلمة التي تعد في ذاتها قصيدة من النثر
المنظوم . قال : « مصاب الشرق في رجله المفرد ، وبطله الأوحد ، مصطفى باشا
كامل ، أيتها الروح العزيزة ؛ إن في هذا الديوان الذي اختتمه برثائك ، نفحات من
نفحاتك ، ودعوات من دعائك ، وإلى هيكلك المدفون بالتسكريم ، تحية الأخ المخلص
للأخ الحميم ، ووداع المجاهد المتطوع للقائد العظيم ،

وظل خليل مطران (رحمه الله) على تعاقب السنين ، يحفظ عهد صديقه العظيم ،
ويشيد بذكراه ، وله في سنة ١٩٣٣ قصيدة عصماء ألقاها بمناسبة مرور عام على
وفاة حافظ إبراهيم ، ضمنها وصفاً رائعاً للنهضة القومية التي كونت حافظاً وجعلته
الشاعر المطبوع المترجم عن أمالها وآلامها ، وكيف أن هذه النهضة هي غرس مصطفى
وكيف تعهدا بجهاده إلى أن مات ، وبموته كانت الآية التي تم بها استقرارها ، قال فيها :

طرأت حالةٌ تَبْقُظُ فيها لدعاة الهدى ضمير السواد^(١)
فاذا (حافظ) وقد بثَّ ما في نفسه من تَجْهِتٍ وارِباد
وبدا للسنى الجلائل فيها أفقٌ واسعُ المدى لارتِياد
ما تَسْجَلِي نبوغه كَتَجْلِيه وقد هبَّ (مصطفى) للجهاد

(١) يريد الجمهور

يوم نادى الفتى العظيمُ فلبى^(١) من نَبَا^(٢) قبله بصوت المنادى
وورى^(٣) ذلك الشعور الذى كان كيناً كالنار تحت الرماد
فتأتى بعد القنوط الدجوجى^(٤) رجاء للشاعر المجواد
مس منه السواد فانبجست نار ونور من طى ذلك السواد
أكبر الدهر وثبة وثبتها مصر مفنكة من الأصفاد
وثغناء^(٥) غدا هزيماً^(٥) فأتى رغبته في مرابض الآساد
ما الذى أخرج الشجاعة من حيث طوتها قرون الاستبداد
وجلا غرة الصلاح فلاحت زدهى من غياهب الإفساد
فاذا أمة أيبة ضيم مالها غير حقها من عتاد
نهضت فجأة تنافح في آ نِ عدوين أسرفا في اللداد
أجنبياً ألقى المراسى حتى تفلح الراسيات في الأطواد
وهواناً كأنما طبع الشعب عليه تقادم الإخلاق
حلبة يُعذرُ المقصر فيها والخواتيم رهن تلك المبادئ
ليس تغيير ما يقوم يسيراً كيف ما عودوه من آ ماد
غير أن الإيمان كان حليفاً لقلوب الطليعة الأنجاد
فاستعانوا به على ما ابتغوه غير باغين من بعيد المراد
إلى أن قال :

بعد وثب في إثر وثبٍ عنيف وارتداد في الشوط رغب ارتداد

(١) نبا تجافى وتباعد

(٢) ورى الزند خرجت ناره

(٣) المظلم

(٤) الثغناء صوت الشاة والمعز

(٥) الهزيم صوت الرعد

ساور الأمة الترددُ والتناث^(١) عليها في السبر وجهُ الرشاد
لا تسل يومذاك عن جلد القا دة في ملتقى الخطوب الشداد
كلما ازدادت الصعاب أبوا ! لآ كفاحاً وعزمهم في ازدياد
يبدلون القوى وفوق القوى غير مبالين أنها لنفاد
و (الزعيم الأبرئ) أطيبيهم نفساً عن النفس في صراع العوادي
هل ينجى شعباً من اليأس إلا حدث من خوارق المعتاد
مصطفى مصطفى بحسبك إن يد كز فدايه أن كنت أول فاد
مصطفى مصطفى ليهنئك أن احبييت قوماً بذاك الاستشهاد
دب فيهم روحٌ جديد له ما بعده في القلوب والأخلاق^(٢)
تنقضي الحادثات بعدك والزو ح مقبم فيهم على الآباد
كاد يوم شيعت فيه يريهم لحظة من جلال يوم المعاد
صدروا عنه بالتعارف فيما بينهم وهو قوة الأعداد^(٣)
واستشفوا لبأسهم فيه سرا كم نحامي أن يدركوه الأعداى
هذه مصر الفتية هبت في صفوف فتية للذباد
رجل مات مُخلفاً منه جيلاً رابط الجأش غير سهل المقاد
عهد نور من الحفاظ ونار بعد طول الجود والإخاد
تخذت عبقرية الشعر فيه سلماً للعروج والإصعاد
أبلغت (حافظاً) من الحظ أوجاً زاد منه العلياء كل مراد^(٤)

(١) التناث عليه الأمر اختلط والتبس

(٢) العقول

(٣) أى قوة الاتحاد

(٤) توفي خليل مطران « شاعر القطرين » في ٣٠ يونيو سنة ١٩٤٩

وكان الفقيه يعجب أيضا بقصائد أحمد محرم ويشيد بها في اللواء ، ويسميه ،
(نابغة البحيرة) ، وبقي أحمد محرم على صلته بالفقيه ووفاته له ولذكراه ، وكذلك
كان معجبا بشعر أحمد الكاشف ، ثم بشعر أحمد نسيم
وقد أدرك في بداية عهده الشاعر الأديب المشهور الشيخ علي الليثي ، وأحبه
حب الوالد لولده ، ولمح فيه النبوغ والعبقرية ، وكان يقول له : . إنك أوتيت ذكاء
يقرب منك البعيد ويظهر لك الخفي ، وحجة بها تسكت من ناقشك وتفهم
من جادلك ،

ومن تلاميذه من الأدباء والشعراء الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني ، كان
حين وفاة الزعيم طالبا بمدرسة المعلمين العليا ، وقد رقت أسبوعا من المدرسة جزاء
له على خطبة وطنية ألقاها تلك السنة في حفلة الطلبة بدار التثيل العربي . وبدأت
كتابات الوطنيه تظهر في صحف الحزب الوطني عقب وفاة الزعيم

أصدقاءه وأنصاره في الشرق والغرب

أولهم مدام جوليت آدم ، فهي التي عرفت بأقطاب السياسة في فرنسا ، وأيدته
في جهاده بما تراه مبسوطا في فصول هذا الكتاب
ومن أصدقائه من كتاب الغرب (بيير لوتي) الأديب الفرنسي المشهور ، كانت
بينهما صلة ود وثيقة ورسائل متبادلة ، وكان لوتي يمد الاتيندار اجبسيان
بالمقالات الممتعة

ومن أصدقائه الشعراء شكري غانم الشاعر اللبناني الشهير ، نبغ في الشعر
الفرنسي ووضع باللغة الفرنسية مسرحية (عنقرة) التي مثلت في فرنسا ومصر وحازت
استحسانا كبيرا ، وقد خطب الفقيه في الاحتفال الذي أقيم تكريماً له بالقاهرة في
يناير سنة ١٩٠٦ خطبة بليغة ، أثنى فيها على شعر المحتفل به وأدبه ، وصرح شكري
غانم بأنه هو الذي وجهه إلى وضع رواية (عنقرة) بالفرنسية . لكي تكون فيها
دعاية للبطولة العربية في الأوساط الفرنسية المثقفة

وكان له في أوروبا أصدقاء وأنصار عديدون ، نذكر منهم الكولونل مارشان



مصطفى كامل بين جمع من أصدقائه في سفح الأهرام
وترى إلى يساره مدام جوليت آدم ، فحمد بك فريد ، فعلى فهمى كامل بك
والى يمينه مدام يونج لحين واصف باشا

بطل حادثة فاشودة، وإرنست جوديه وكلاهما من تلاميذ مدام آدم، والمسئوفلورانس
وزير خارجية فرنسا السابق ، والمسئو بللتان وزير بحريتها السابق ، ولها في الايتندار
اجبسيان مقالات عدة ، والمسئو تارديو الذي صار رئيس وزارة فرنسا ، والسكونت
روشفور ، وكان معظم مديري الصحف الفرنسية الكبرى ومحريها من أصدقاء
الفقيد والمعجبين به وبجهاده

مصطفى كامل وطلعت حرب

كان الفقيد صديقا لطلعت حرب باشا ، وامتدحه في لواء ١٠ يناير سنة ١٩٠٠ ،
لمناسبة ظهور كتابه في تربية المرأة ، ووصفه بأنه ، الكاتب الفاضل محمد أفندي
طلعت حرب ، ، ولما ظهرت كفاءته المالية أثني عليه وكتب عنه في لواء ١٠ يولييه
سنة ١٩٠٥ تحت عنوان (مصري فاضل) ما يأتي :

من الأشياء التي تسر كل مصري بحب بلاده وأبنائها العاملين ما يكون منها شاهداً على كفاءة المصري في الأعمال الجسيمة وتقدير الأوربيين له حق قدره ، فعزت لو حضرة المقدم العامل محمد طلعت بك حرب مدير قلم قضايا الدائرة السنية سابقاً هو أول مصري تقدمه اليوم للقراء انتخب مديراً لشركتين عظيمتين ، هما شركة العقارات المصرية ، وشركة كوم امبو ، خلفاً لحضرة عاداه بك مديرها السابق ، وان من يعلم أن أصحاب هاتين الشركتين ومؤسسيهما هم من كبار المالين المعدودين كالسيو ارنست كامل والسيو سوارس وشركائه ، لا يرتاب في أن الثقة بهذا المصري الجليل عظيمة ، كما لا شك في أن هاتين الشركتين ستصلان إلى شأو بعيد من الرقي والفلاح بما أوتيته حضرة مديرهما الجديد من سمو الإدراك وسعة الاطلاع في المسائل المالية ، فتهنيء الشركتين به ، ونسأل العلي القادر أن يهبنا الكثيرين من أمثاله ،

فكان الفقيد كان يستشف ما وراء الحُجب ، ويلمح في الأفق ما كان لطلعت حرب باشا - رحمه الله - من الشأن العظيم في نهضة مصر الاقتصادية ، وأنه سيتولى زعامتها في ميدان الاقتصاد والمال ، فأثني عليه هذا الثناء المستطاب

مصطفى كامل ومصطفى فهمي باشا

كان الفقيد شديد الحملة على مصطفى فهمي باشا رئيس الوزارة في ذلك الحين ، وعلى الوزراء عموماً ، ولا عجب فمصطفى فهمي كانت سياسته تمثل الخضوع التام للإحتلال الأجنبي ، ولم يكن من أنصار الإحتلال فحسب ، بل كان من المخالفين له ، العاملين على تحقيق مآربه ، وقد نشر المسيو دجرفيل حديثاً له في كتابه (مصر الحديثة) سنة ١٩٠٥ ، تغنى فيه بفضل الإحتلال قال فيه : « ان عمل إنجلترا في مصر لهُو عمل مجيد يشهد لها بالفخار ، انظر إلى حالة مصر سنة ١٨٨٢ وما صارت إليه الآن سنة ١٩٠٥ ، لقد كان يسودها الخراب والفوضى والشقاء ، والآن يعمها النظام والعدل والرخاء ، إن التغيير كان سريعاً واسع المدى لدرجة اني في بعض الأحيان أغمض عيني وأتساءل : هل أنا في يقظة أم في منام . . . وفي الواقع لا توجد في العالم



مصطفى كامل وبيبرلوى (ص ٣٩٩)

حكومة أخرى تسير بانسجام مثل حكومتنا ، إنك تسألنى إذا كانت مصر تستطيع يوماً أن تنحرر من إنجلترا ، هذه مسألة دقيقة متروكة للمستقبل ، أما مايمكننى أن أؤكدك الآن فهو أننا لانستطيع ذلك فى الوقت الحاضر ، فان عملها لم يتم بعد ولا يزال تمامه بعيداً ، لقد شيدت دعائمه القوية ، ولكن لا يزال البناء غير تام يبشر بالآمال الزاهرة ، على أنه فىم يحق لنا أن نشكو إنجلترا؟ إننا مدينون لها بثروتنا وسعادتنا وهنائنا ، انظر إلى هذه الأرض المقامة عليها الفنادق والقصور ، أنها كانت منذ عشرين سنة لا تساوى شيئاً والآن بلغت قيمتها ملايين من الجنيهات ، فإذا تسكون قيمتها لو جلت إنجلترا عن مصر ؟ ،

فهذه الأقوال تعبر عن روح مصطفى فهمى باشا ، وكل أعماله فى الوزارة كانت تصدر عن هذه الفكرة ، فكرة تمجيد الاحتلال والولاء له ، فكان بديها أن يخاصمه زعيم الحركة الوطنية الاستقلالية

مصطفى كامل وسعد زغلول

حينما بدأ مصطفى كامل حياته الوطنية سنة ١٨٩٠ كان سعد زغلول لا يزال المحامي النابه (سعد افندى زغلول) ، وكان منصرفاً إلى أعماله في المحاماة . ثم عين سنة ١٨٩٢ قاضياً (مستشاراً) ، فانقطع إلى قضاائه بمحكمة الاستئناف

وكانت علاقة مصطفى بسعد ودية حتى سنة ١٩٠٦ ، حدثني فؤاد باشا سليم أن سعد بك زغلول كان يتردد على دار والده لطيف باشا سليم ، وهناك عرف مصطفى كامل إذ كان لا يزال طالباً بمدرسة الحقوق ، ثم تخلف سعد عن جماعة لطيف باشا ، لما ظهر عليها من طابع المعارضة ضد الاحتلال ، على أن علاقته بمصطفى ظلت ودية كما أسلفنا ، وحين صدر اللواء سنة ١٩٠٠ ، كان سعد زغلول لا يزال مستشاراً بمحكمة الاستئناف ، وشقيقه أحمد فتحى بك زغلول رئيساً لمحكمة مصر الابتدائية ، ولما ظهر كتاب (المحاماة) لأحمد فتحى زغلول بك كتب عنه الفقيه فى عدد ١٩ أكتوبر سنة ١٩٠٠ مقالة افتتاحية بتوقيعه ، أثنى فيها ثناءً كبيراً على الكتاب وصاحبه ، وليس يخفى أن مجرد تخصيص المقالة الافتتاحية لتقريظ الكتاب هو دليل فى ذاته على التقدير والود الكبير ، قال فى مقاله :

« لست بمن يزفون المدائح زفا أو يبجلون الناس حبا فى مرضاتهم ، وطمعاً فى استرضائهم ، ولكنى أكون مقصراً أمام الله والناس إذا لم أشكر أمام الملائكة مؤلف كتاب (المحاماة) صاحب العزة المفضل أحمد بك فتحى زغلول رئيس محكمة مصر الابتدائية الخ ،

ويبدو وده لسعد مما كتبه اللواء فى عدد ٧ فبراير سنة ١٩٠٦ عن مرضه ، قال تحت عنوان (شفاه الله) : « انحرفت صحة حضرة الأصولى المفضل سعد بك زغلول المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية ، وقضت بإجراء عملية جراحية بسيطة له ، وقد تمت على غاية ما يرام ، وأخذت صحته تتحسن تحسناً عظيماً ، مما سر أصدقاءه ومحبيه العديدين الذين يتوافدون كل يوم على منزله لعيادته ، فسأل له الشفاء التام والصحة والعافية ، حتى تنتفع البلاد بعلمه الغزير ومعارفه الواسعة » ، فهذه الكلمة

تدل على تقدير الفقيه لسعد ، ونشر اللواء في ٢٨ فبراير نبأ شفائه في غبطة وسرور على أن علاقة الفقيه بفتحى باشا زغلول قد انقطعت وانقلبت إلى خصومة شديدة بعد أن اشترك في الحكم على المتهمين في حادثة دنشواى ، إذ كان أحد قضاة المحكمة المختصة (انظر ص ٢٠٠) ، وهو الذى كتب الحكم بقلبه ، وازدادت صلته بالوكالة البريطانية ، ورتقى بعد الحكم وكيلا لوزارة الحفانية ، فحمل عليه مصطفى حملة شديدة ، وسماه (قاضى دنشواى) وقال له فى منزل سعد باشا يوم ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٠٦ ان حكمه فى قضية دنشواى يحول بيننا وبينك إلى آخر لحظة من الحياة ، من ذلك ترى أن صداقة الفقيه وخصومته كانتا خالصتين لوجه الحق والوطن ، فإذا مدح مدح بحق ، وإذا انتقد انتقد بحق ، غير متأثر بصلات شخصية ، أو مآرب ذاتية ، وكانت علاقته الشخصية تتبع المصلحة القومية

ولما عين سعد باشا وزيراً للمعارف فى أكتوبر سنة ١٩٠٦ امتدح صفاته ، وأمل الخير على يده ، وكتب فى لواء ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٠٦ تحت عنوان (سعد بك زغلول وزير المعارف) يقول : « لما قابل جناب اللورد كرومر أول البارحة سمو الخديو المعظم فى سراى رأس التين عرض عليه تعيين سعادة سعد بك زغلول المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية وزيراً للمعارف المصرية ، فارتاح سمو الخديو لهذا الطلب لما يعهده فى سعادة سعد بك من الفضل والعلم والأخلاق القويمة ، وإن ما يعرفه الناس فى أخلاق وصفات سعد بك زغلول وهو فى المحاماة أولاً ، وفى القضاء ثانياً ، يحملهم جميعاً على الارتياح لهذا التعيين الذى صادف مصرياً مشهوراً بالكفاءة والدراية والعلم الغزير ، وحب الإنصاف والعدل ، ولكن لما كانت الوزارة من سنوات مضت إلى اليوم منصباً لا عمل فيه ، وكان المستشارون الانجليز أصحاب السيطرة التامة فى النظارات ، حق للناس أن يتساءلوا عما يعمل سعادة سعد بك زغلول فى وزارة المعارف ، هل يكون كبقية الوزراء — أمره وأمر المعارف بيد المستر دنلوب — أم يكون وزيراً اسماً وعملاً ويحى سلطة الوزراء المصريين ؟ اللهم إنا عرفنا سعد بك زغلول فى ماضيه وحاضره أشد الناس تمسكاً باستقلاله وحقوقه ، وأكثرهم انتقاداً على الذين تركوا سلطة مناصبهم لغيرهم ،

وسمعه يقرع بلهجة حادة الكسالى والمقصرين كباراً كانوا أو صغاراً ، فإذا بقي
سعد بك في وظيفته الجديدة كما هو وكما كان - وهو ما نعتقد - أملنا خيراً كبيراً
للمعارف ، ورجونا سريان هذه الروح إلى بقية النظائر وعودة الحياة المصرية ،
إلى الوزارة ، على أنه إذا كان جناب اللورد كرومر اختار سعد بك زغلول وزيراً
للمعارف تقديراً لعلبه وإعلاناً لتغيير جنابه للسياسة الاحتلالية الماضية ، واتباعه
لسياسة جديدة قاضية بإعطاء المناصب لمستحقيها وتشريف الكفاءة ، فإن هذه
السياسة تقضى قبل كل شيء بأن يكون الوزير وزيراً حقيقياً ، وأن يكون العامل
عاملاً مؤدياً لوظيفته ، متمتعاً بكل حقوقه ، لا أن يكون آلة في يد الموظف
الانجليزي ، ولو جب أن يكون سعد بك زغلول المدير الفعال لدفة المعارف المصرية
والمصلح لخللها الكثير ، والمحقق لآمال الأمة في نظارة خابت فيها مع المستردنلوب
كل الآمال ، فنحن لا نبتهج اليوم بتعيين سعادة سعد بك زغلول وزيراً للمعارف
إلا بأمل أن يكون كما كان على مبارك باشا والفاسكى باشا وأمثالهما من خدموا العلم
في هذا القطر خدمات خالدة ، وكانت لهم في مناصبهم الكلمة النافذة ، والرأى المتبع ،
ونظالته قبل مطالبتنا للاحتلال بأن يكون كذلك ، وأن يكون في مستقبله كما هو
في حاضره وكما كان في ماضيه ، الرجل المستقل الذى لا يتخذه منصب ولا مال ،
ولسكن الفقيد أخذ ينتقد سعد باشا حين انسحب من لجنة مشروع الجامعة المصرية
عقب تعيينه وزيراً للمعارف (وكان نائب الرئيس أو الرئيس الفعلى لها) انظر
ص ٢٣٥ - فانه لم يسكد يتولى وزارة المعارف فى ٢٨ أكتوبر حتى وقف اجتماع
اللجنة ، وكانت تجتمع فى داره ، ثم اجتمعت يوم ٣٠ نوفمبر بدار حسن بك كجمجوم
أحد أعضائها ، وحضر سعد باشا الاجتماع فأعلن انسحابه من اللجنة ، بدعوى أن
كثرة أعماله فى الوزارة لا تسمح له بالاشتراك فى مشروع الجامعة ، مع أن تعيينه
وزيراً للمعارف كان ادعى لاضطلاعه بعمل هو من أخص واجبات وزارة
(التعليم) ، وكتب الفقيد فى هذا الصدد يقول : « كيف يهتم المستشار فى الاستئناف
بمشروع علمى ولا يهتم به ناظر المعارف ؟ » ، وقال فى مقالة أخرى : « إن تخليه يظهر
للأخطار الذى يحيق بالمشروعات العامة إذا كان لرجال الحكومة دخل فيها ،

واعتقادنا أن أقوى ضمانة لأمثال مشروع الجامعة المصرية أن يكون القائم بها هو الأمة دون سواها ،

وتبين أن انسحابه من رئاسة اللجنة كان تحقيقا لرغبة الاحتلال ، لكي يحبط المشروع ، وقد أصابه الفتور والركود فعلا بعد انسحابه من اللجنة وبخاصة لأن الحكومة خلقت في ذلك الحين ، بإيعاز من الاحتلال أيضا ، حركة إنشاء السكتاتيب واستحثت الأعيان في مختلف الجهات على التبرع لها ، معارضة بذلك مشروع الجامعة ، وبقى المشروع راكدا حتى دبت فيه الحياة حين تولى رئاسة لجنته الأمير أحمد فؤاد (المغفور له الملك فؤاد الأول) في سنة ١٩٠٨

واشتد الفقيد في نقد سعد باشا حين طلبت الجمعية العمومية من الحكومة في مارس سنة ١٩٠٧ جعل التعليم في المدارس الأميرية باللغة العربية ، وكان وقتئذ باللغة الانجليزية ، فاعترض سعد باشا وكان وزيراً للمعارف على هذا الاقتراح ، وألقى خطبة طويلة في هذا الصدد ، سوغ فيها جعل التعليم باللغة الانجليزية ، قائلا : « إن الحكومة لم تقرر التعليم باللغة الأجنبية لمحض رغبتها أو اتباعا لشهوتها ، ولكنها فعلت ذلك مراعاة لمصلحة الأمة ، ، وقال : « إذا فرضنا أنه يمكننا أن نجعل التعليم من الآن باللغة العربية ، وشرعنا فيه فعلا فانتنا نكون أسأنا إلى بلادنا وإلى أنفسنا إساءة كبرى ، لأنه لا يمكن للذين يتعلمون على هذا النحو أن يتوظفوا في الجمارك والبوستان والمحاكم المختلطة والمصالح العديدة المختلفة التابعة للحكومة الخ ، ، على أن الجمعية العمومية رفضت اعتراضات سعد باشا على هذا الاقتراح وأقرته الأغلبية العظمى ، وقد كانت خطبته دفاعا عن سياسة الاحتلال في التعليم ، لأن الاحتلال هو الذي أحل اللغة الانجليزية محل اللغة العربية في التدريس بالمدارس الأميرية ، فأحدث هذا الموقف ضجة استياء عند الرأي العام

وكتب مصطفى كامل مقالا في الاينندار اجبسيان عربيه اللواء في عدد ٩ مارس سنة ١٩٠٧ تحت عنوان (فشل وزير) ، قال فيه :

« إن الناس قد فهموا الآن بأوضح مما كانوا يفهمون من قبل ، لماذا اختار اللورد كرومر لوزارة المعارف العمومية صهر رئيس الوزارة (مصطفى فهمى باشا)

الأمين على وحيه ، الخادم لسياسته ، وفهموا أيضا لماذا قامت الصحف الانجليزية
والصحف المتحيزة للانجليز وذرت الرماد في العيون قائلة إن الوزير الجديد هو من
الحزب الوطني ، في حين أن كل شيء من أحواله وشؤونه يدل على شدة ميله إلى
السلطة ، فسعد باشا زغلول قد فشل فشلا عظيما في الجمعية العمومية ، ولو كان وزيراً
أوروبيا يتكلم أمام برلمان لكان قد استقال في الحال ، ولكنه وزير في مصر ، يعتقد
أن ثقة اللورد كرومر به كافية وحدها لحمايته ، الا أن الذين كانوا يحترمون الوزير
كقاضي لياسفون على حاضره كل الأسف ، وليخافون على مستقبله كل الخوف ،
ويفضلون ماضيه كل التفضيل ، ذلك لأن الوزير قائم الآن على منحدر هائل مخيف ،
وزاد في انتقاده إياه امتداح اللورد كرومر له في خطبة الوداع التي ألقاها قبل
رحيله عن مصر ، على حين أنه طعن في المصريين جميعا ورماهم بنكران الجميل
وصفوة القول ان موقف مصطفى كامل من سعد زغلول كان وديا حتى انسحابه
من لجنة مشروع الجامعة ، ثم تحول إلى موقف انتقاد نزيه وخصومة شريفة ، تبعاً
لما اقتضاه الدفاع عن الصالح الوطني العام

الفصل الحادي عشر

شخصية الزعيم

لا نزاع في أن مصطفى كامل هو من عظماء الرجال ، ومن زعماء الشعوب وقادتها الأبطال في ميادين الحرية والاستقلال ، ولا مرأى في أنه باعث الحركة الوطنية التي ظهرت في مصر عقب الاحتلال البريطاني

لقد أوضحنا في الفصل الأول من الكتاب كيف ظهر واضطلع بأعباء الدعوة الوطنية ، في عصر لم يكن موافقاً لها ولا مستعداً لمناصرتها ، فهذه الشخصية الكبيرة التي حملت عبء الجهاد ، ودعت الأمة إلى الانضواء تحت لواء الحرية والاستقلال ، في وقت تحالفت فيه أسباب اليأس والجمود ، يجب أن تكون شخصية بالغة منتهى القوة ، لكي تستطيع أن تشق لدعوتها طريقاً وسط هذه العوامل المثبطة للعزائم ، فما هي العوامل التي تألفت منها هذه الشخصية الفذة ؟

إن شخصية مصطفى كامل تتركز في قوى ثلاث ، هي التي ساعدته على النجاح في عمله العظيم ، وهي إيمانه برسائله ، وأخلاقه وصفاته ، ثم وطنيته الصادقة

إيمانه برسائله

فإيمانه برسائله ، هو أبرز الجوانب في شخصيته ، ويبدو لك هذا الإيمان من ذلك الكتاب الذي بعث به إلى مدام جوليت آدم في ١٢ سبتمبر سنة ١٨٩٥ ، وهو بعد في الحادية العشرين من عمره ، إذ يقول فيه :

« إنى لا أزال صغيراً ، ولكن لي آمالاً كباراً ، فإنى أريد أن أوقف في مصر الهرمة مصر الفتاة ، هم يقولون إن وطني لا وجود له ، وأنا أقول ياسيدتي إنه موجود ، وأشعر بوجوده بما آنس له في نفسي من الحب الشديد الذي سوف يتغلب

على كل حب سواه ، وسأجود في سبيله بجميع قواي ، وأفديه بشبابي ، وأجعل حياتي وقفاً عليه ،

فهذا الكتاب الوجيز في عبارته ، الرائع في أسلوبه ، يطالعك بقوة الإيمان الذي يملأ قلب صاحبه ، فهو مؤمن بحياة الوطن ، ولو خالف الناس جميعاً ، مؤمن برسائله إيماناً جعله يجود في سبيلها بشبابه وحياته ، وقد لازمه هذا الإيمان طول حياته ، على تعاقب السنين ، وهذا هو سر نجاحه ، قال في سنة ١٩٠٤ : « سأبقى حتى الممات حاملاً لواء الاستقلال ، إذ أجد حياتي في هذه العقيدة ، وبغير هذه الشعلة الوطنية لا أستطيع الحياة »

وكتب إلى مدام آدم في ١٣ أغسطس سنة ١٩٠٦ يقول : « غداً تذكرك ميلادي إذ أبلغ الثانية والثلاثين ، وما عساي أن أعيش أيضاً لأخدم مصرنا العزيزة ؛ وعلى كل حال فإني لا أترك لحظة تمر من حياتي دون أن أغرس فيها في قلوب مواطني ، وأتمم عملي إلى النهاية »

فهذا الإيمان هو قوام شخصيته ، ومصدر قوته ، ولولاه لما تابع الجهاد رغم العوامل المثبطة ، وهو الذي يسر له تذليل كل عقبة اعترضته في جهاده ، وجعله يضطلع بأعباء الجهاد المضني ، ويسير بالأمة في طريق الحرية والاستقلال ، قال صديقه الأستاذ داود بركات في هذا الصدد : « اعتقد في نفسه القدرة على العمل ، فصغر كل كبير في نظره . وأذكر من أقواله يوماً : ان أغسطس قبصر لم يكن كبيراً لأن أمته كبرته ، بل لأنه سار أمامها فعرفت أنه كبير »

صفاته وأخلاقه

كان الفقيد شاباً في مقتبل العمر ، قمحي اللون ، جميل الطلعة ، متوسط القامة ، نحيف الجسم ، عريض الجبهة ، براق العينين ، يشع منهما الذكاء وقوة العزيمة إن الجانب الأخلاقي هو بلامراء من أعظم مميزات هذه الشخصية الفذة ، ولا غرو ، فالأخلاق هي سياج الوطنية ، وحصنها الحصين ، وهي قوامها وغذاؤها الدائم

ولقد كان مصطفى كامل زعيماً أخلاقياً ، وزعيماً وطنياً معاً ، فلا جرم أن كانت وطنيته ثابتة كالطود ، راسخة كالجبال

وأبرز أخلاقه وصفاته الشجاعة الأدبية ، والصدق ، والصراحة ، والإخلاص والصبر وقوة العزيمة ، والثبات ، ثم الوفاء وعلو النفس ، وعلو الهمة ، والجود ، والكرم ، هذه الأخلاق هي قوام وطنيته ، وبها استطاع أن يقوم على دعوته ، ويثابر عليها ، ويناضل عنها طول حياته ، ولولا قوة أخلاقه لما أمكنه أن يغالب العقبات ، ويقاوم المؤثرات والمغريات

كان شديداً في الحق ، يحب الصدق والصراحة ، ويكره النفاق والرذيلة ، يجاهر بما في ضميره بشجاعة أدبية كبيرة ، لا يهاب في الحق كبيراً ، وكان مع ذلك وديعاً يخفض جناحه للأصاغر وأواسط الناس ، ويعطف عليهم

كان شديد الذكاء ، سريع الخاطر ، قوى الذاكرة ، بالغ الحجة ، عظيم النشاط محبا للممل ، لا يكمل منه ، ولا يعرف الملل والهواذة

وكان وفياً لأصدقائه ، باراً بأهله وذويه ، يعطف عليهم ويعبد نفسه أباً لهم جميعاً ، لم يتزوج في حياته قط ، وانحصر حبه العائلي في والدته وإخوته وأقاربه وذويه ، ظهر وفاؤه لوالدته حين مرضت ، فكان مشغول الفؤاد بمرضها ، شديد العناية بأمرها ، يكتب عن أنبيائها إلى مدام جوليت آدم في رسائله إليها ، وقد حزن عليها حزناً شديداً حين أدركتها الوفاة (١) ، كتب في هذا الصدد إلى مدام آدم يقول :

« قد رزئت أكبر رزء في الحياة ، فان والدتي العزيزة ، مالكة فؤادي ، قد فارقت الدنيا يوم الأحد الماضي ، إن حزني لشديد ، وحياتي كادت تنقضي ! »

فهذا التعبير يدل على مبلغ وفائه لوالدته ، وحبه لها ، وتعلقه بها ، وحزنه عليها . وهذا لعمري أبلغ مظهر لوفاء الإنسان في هذه الدنيا

ويبدو وفاؤه لأهله وذويه من رسائل إلى صديقه وزميله في الجهاد محمد بك فريد

(١) توفيت يوم الأحد ١٢ مايو سنة ١٩٠٧

فانه لا يكاد يخلو كتاب منها من سؤاله عنهم ، وعنايته بهم ، واهتمامه بكل صغيرة وكبيرة من شؤونهم ، على كثرة مشاغله ومهامه الجسام

كان جوادا كريما ، يعطف على الفقراء والمعوزين ويحبهم ، فكان لهم نصيب وافر في مدرسته ، إذ خصص للجانبة قسما كبيرا للتعليم أولادهم ، وإليه ينسب فضل كبير في مبدأ الإسعاف ، فقد عطف على قتيل حادثة الهاميل بالاسكندرية ، فاسعف أهله بماله ومساعيه ، وعنى بتعليم ابنه بفضل ذلك المبدأ الكريم

وطنيته

أما وطنيته فلا زانا في حاجة إلى التحدث عنها ، فلقد خصصنا لها هذا الكتاب جميعه ، إذ هو سجل لوطنيته الكبرى ، فالوطنية تبدو في كل ظاهرة من ظواهر حياته ، وفي كل حركة من حركاته ، وكل خاطرة من خطرات نفسه ، ولا غرو فقد ملكت عليه لبه ومشاعره وتفكيره ، فكانت حياته هي الوطنية ، واقتبست منها الأمة نهضتها الوطنية ، وهو الشعلة التي انبثق نورها في أرجاء وادي النيل منذ ثمان وأربعين سنة ، فأضاءت النفوس وأحيت فيها الشعور الوطني ، وحفزتها إلى الحياة والكرامة والجهاد القومي ، بعد سنوات طويلة من الانحلال الوطني العام

كانت وطنيته أسبق وأقوى من الجيل الذي ظهر فيه ، وأقوى من الحوادث التي اعترضته ، فليس يخفى أن هذه الحوادث كانت في مجموعها سلسلة هزائم ، مشبطة للعزائم ، على أنه قد تغلب عليها بقوة الوطنية والأخلاق ، وكان يزداد ثباتا في الكفاح والنضال ، كلما ازدادت في طريقه العقبات ، وهنا وجه البطولة في تاريخه

وتبدو قوة وطنيته في مثابرته على الكفاح ، وفي هذه الحركة الدائمة التي لم ينقطع عنها ، والتي بيّنا أدوارها ومرآحله في فصول هذا الكتاب ، فهذه الحركة التي لم يعترها الكلال فترة ما خلال الثماني عشرة سنة التي قضّاها في الجهاد ، هي عنوان وطنيته ، وثمة عنوان آخر لها ، وهو أن جهاده كان خالصا لله والوطن ، إذ كانت الحركة الوطنية لا ترمي في ذلك الحين إلى الحكم والمناصب ، أو الجاه والمنافع ، بل كانت سلسلة متصلة الحلقات ، من المتاعب والتضحيات ، ومن هنا ، تتجلى بطولتها ،

ويسطع نورها وروعها ، فهذه الروح ، روح التضحية والإخلاص ، هي رأس مال الشعوب في حياتها القومية ، لأن الأمم إنما تتميز في ميادين الرقي والعظمة بمقدار إخلاص أبنائها لأوطانهم ، وتفانيهم في خدمتها ، وإيثارهم الصالح العام على منافعهم الشخصية

سبيله إلى الوطنية

كان الفقيد لا يهتم طول حياته إلا بالوطنية يبثها في نفوس النشء والجيل ، وكانت سبيله إلى غرسها في النفوس الدعوة والخطابة والصحافة والتأليف ، والقذوة الصالحة في الاستمسك بالعروة الوثقى ، كان معلما للجيل ، أرشد الأمة إلى المثل العليا في حب الوطن والإخلاص له ، ولذلك كان يعنى بالتاريخ الوطنى لجميع الشعوب ، يستخلص منه دروس الوطنية الصادقة ، ويلقنها لبني مصر ، كتب في هذا الصدد إلى مدام جوليت آدم في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٩٩ حين اعتزم إصدار اللواء يقول : « أشكرك كثيرا إذا تفضلت بإرشادى إلى المؤلفات الخاصة بالتاريخ القومى والقصص الوطنية عن كل البلاد ، لكي ألقن الشعب إياها ، فإنه يجب أن أنشر المثل العليا في الوطنية . وكتب إليها في ٢٨ ديسمبر من تلك السنة يقول :

« إنى أعمل الآن كثيرا ، وأمل أن يصير (اللواء) أول جريدة في الشرق ، فاني أريد له أن يكون في وقت واحد عاملا للوطنية المصرية ، وواسطة بين العالم الأوروبى والعالم المصرى ، ولهذا رجوت منك أن تسكتبى لنا بين آن وآخر مواعظ وطنية بما جرى في عصرك أو في بطون التاريخ ،

وكان في دعوته وجهاده ، في مقالاته وخطبته وأحاديثه ، يسمو بالوطنية ، ويوجهها إلى المثل العليا ، وينزهها عن الخصومات والأحقاد الشخصية ، ويربأ بها عن الطعن في أعراض الناس وشخصياتهم ، كان عفاً القلم عفاً للسان ، وفي ذلك يقول في خطبته بالاسكندرية سنة ١٨٩٦ : « إنى أترفع عن أن أدافع عن بلادى بالطعن والسباب » وكان يحب النفوس في الحرية ، ويرغبها في الاستقلال الشخصى ، ليمهد الجيل إلى الاضطلاع بأعباء الاستقلال القومى ، ومن هنا جاء استحثائه الشبان على العمل

الحر والاعتماد على النفس ، وترغيبهم عن التواكل والتطلع إلى الوظائف ، وله في ذلك خطب ومقالات عدة ، أهمها خطبته بالاسكندرية يوم ٨ يونيه ١٨٩٧ إذ قال فيها :

« اتركوا الأبناء معشر الآباء في الحياة الحرة ، اتركوهم يخدموا الوطن ويخدموا أنفسهم في غير دائرة الوظائف ، اتركوهم أحرارا غير مقيدين بقيود الرواتب ، ابعثوا بهم إلى الخارج ليدرسوا التجارة والصناعة ، ويؤسسوا في البلاد المصانع والمعامل ، تزدادوا بذلك شرفا ونفرا وتزدادوا أمام الله وأمام الوطن مشوبة وأجرأه وكان كثير الحث على الاستقلال الاقتصادي ، قال في هذا الصدد في خطبته سالفة الذكر : « إذا أهملت تربية الأمة وبقي الكبراء منعكفين على إدارة شؤونهم الخاصة واستمر الآباء يلقون بالأبناء إلى مهاوى التوظف في الوظائف وبقيت التجارة والصناعة في كساد ، ودامت الأمة في حاجة إلى استجلاب لوازمها الضرورية من غير بلادها ، دام الانحطاط ودام التأخر ودام الخطر ،

بعض كلماته الخالدة في الوطنية

للفقيد كلمات خالدة دلت على تأصل الوطنية في فؤاده ، وسارت سير الحكم والأمثال ، وقد مرّ بك بعضها في فصول الكتاب ، وسنجمع هنا أهمها شأنا ، وأدلها على شخصيته ، مع بيان تاريخ كل كلمة منها :

- « أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا ، سنة ١٨٩٥ »

- « إن لي روحا هي من نور الحرية الساطعة لا تستطيع الحياة في ظلمات

الظلم والاستبداد ، من خطاب له إلى فريد بك سنة ١٨٩٦ »

- « إني أترفع عن أن أدافع عن بلادى بالطعن والسباب ، سنة ١٨٩٦ »

- « كل احتلال أجنبي هو عار على الوطن وبذيه ، من خطبته بالاسكندرية

يوم ٨ يونيه سنة ١٨٩٧ »

- « في الرضا بالاحتلال الخيانة والعار ، وفي العمل ضد الاحتلال الشرف
والفخار ، من خطبته المذكورة

- « قد يكون الرجل صادق الوطنية فقيرا في المال ، ولكنه يعيش ويبقى في
التاريخ من أكبر سراة الوطنية ، من خطبته بالقاهرة يوم ٨ يناير سنة ١٨٩٨

- « إذا لم نفتطف ثمرة عملنا وجهادنا في حياتنا ، فاننا على الأقل نضع الحجر
الأول لمن يأتي بعدنا ، من رسالة له سنة ١٨٩٨ إلى أخيه على بك فهمى كامل

- « لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة ، من خطبته بالقاهرة
يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٩٨

- « الحياة جهاد ، والعمر قصير ، وخير الناس من جاهد في سبيل بلاده وعمل
لخيرها وناضل عن حقوقها ، من خطبته المذكورة

- « ليست الحرية بعزيزة على قوم يعملون للحصول عليها ويجهدون في نوالها ،
وليس بعزيز على المصريين أن يفكوا قيود بلادهم ويعيدوا إليها استقلالها
ومجدها ، فالصخرة الضخمة تذوب وتتفتت بسقوط المياه عليها نقطة بعد نقطة ،
من خطبته المذكورة

- « الأمل دليل الحياة ورائد الحرية ، (اللواء ٨ أبريل سنة ١٩٠٠)

- « إن قيام كل رجل حي الشعور شريف الميول بواجباته نحو هذه البلاد العزيزة
برد إليها حريتها ومجدها وعزها ، (اللواء ٢٣ أبريل سنة ١٩٠٠)

- « سأستمر بمشيئة الله طول حياتي ، ولو بقيت وحيدا أخطب في الصحراء
وأكتب على صفحات الماء ، ذلك الذي عرف فيه المصريون الخادم الأمين للوطن
العزیز ، - اللواء ١٣ أغسطس سنة ١٩٠٣

- « الوطنية شعور ينمو في النفس ، ويزداد لهيبه في القلب ، ويرسخ في الفؤاد
كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه ، من خطبته سنة ١٩٠٤

- « إن روجي تتغذى من حب الوطن ؛ وبغيره لا أستطيع الحياة ، إذ لا قيمة

للحياة بغير هذا الحب الرائع العظيم الذى يفيض على المرء كل سلوى وكل سعادة حتى فى شقائه ، وبخاصة فى الشقاء ، حيث لا يجد الانسان القوة والامل الا فى هذا الحب ، سنة ١٩٠٤

- و ما دامت هذه الشعلة الوطنية تغذيني وتوازرنى فاني لا أهاب شيئا ولا أحدا فى الوجود ، سنة ١٩٠٤

- من أشق الأعمال أن يجاهد المرء ضد الزمن والحوادث والناس ، سنة ١٩٠٤

- سأبقى حتى الممات حاملا لواء الاستقلال ، إذ أجد حياتى فى هذه العقيدة ، وبغير هذه الشعلة الوطنية لا أستطيع الحياة ، سنة ١٩٠٤

- لو انتقل فؤادى من الشمال إلى اليمين ، أو تحولت الأهرام عن مكانها المسكين ، لما تغير لى مبدأ ولا تحول لى اعتقاد ، بل تبقى الوطنية رائدى ونبراسى ، ويبقى الوطن كعبتى ومجده غاية آمالى ، اللو ١٨ مايو سنة ١٩٠٦

- ان سلاسل الاستعباد هى سلاسل على كل حال ، سواء كانت من ذهب أو من حديد ، من كتابه إلى السير هنرى كامبل بانرمان سنة ١٩٠٧

مختارات من خطبته بالاسكندرية سنة ١٩٠٧

- اننا لا نعمل لأنفسنا بل نعمل لوطننا ، وهو باق ونحن زائلون ، وما قيمة السنين والأيام فى حياة مصر وهى التى شهدت مولد الأمم كلها وابتكرت المدنية والحضارة للنوع الانسانى كله ؟ ان العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع ، ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصرى ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة ، وسيكون كذلك لا محالة ، فهما تعددت الليالى وتعاقبت الأيام ، وأتى بعد الشروق شروق وأعقب الغروب غروب ، فإننا لا نمل ولا نقف فى الطريق ولا نقول أبدا : لقد طال الانتظار ،

- اننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم فى ماضى الأيام وحاضرها ، وأعلى مطلب ترمى إليه فى مستقبلها ، فلا الدسائس

تخيفنا ، ولا التهديدات توقفنا في طريقنا ، ولا الشتائم تؤثر علينا ولا الحيوانات
ترعبنا ، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التي تصغر بجانبها كل غاية ،
نعم لو أخذنا الموت من هذه الدار واحدا بعد واحد لكأنت آخر كلباتنا لمن بعدنا :
كونوا أسعد حظا منا ، وليبارك الله فيكم ويجعل الفوز على أيديكم ، ويخرج من
الجمهير المئات والآلاف بدل الآحاد للمطالبة بالحقوق الوطنية والحريّة الأهلية
والاستقلال المقدس !

- « بلادى بلادى ! لك حبي وفؤادي ، لك حياتي ووجودي ، لك دمي
ونفسي ، لك عقلي ولساني ، لك لبي وجناتي ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة إلا
بك يا مصر ! »

- « إني لو لم أولد مصريا لوددت أن أكون مصريا ،

- « إن أمة دبت فيها روح الوطنية ، وطمحت نفسها للاستقلال لا تموت
أبداً ، وإن صواعق السياسة كلها لا تحول ضميراً لاذ بالوطن عن وجهته ،

- « نحن مسلوبون ، والإنجليز هم السالبون ، ونحن طلاب حق مقدس هم
مغتصبوه ، فلا سبيل إلى الاتفاق بيننا وبينهم إلا باعترافهم بحقنا ورده إلينا ،

- « هل يستطيع مصري أن يتهور في حب مصر؟ مهما أحبا فلا يبلغ الدرجة
التي يدعو إليها جماها ووجلاها وتاريخها والعظمة اللاتفة بها ، ألا أيها اللامون انظروها
وتأملوها وطوفوها ، واقروا صحف ماضيها ، واسألوا الزائرين لها من أطراف
الأرض ، هل خلق الله وطناً أعلى مقاما ، وأسمى شأناً ، وأجمل طبيعة ، وأجل
آثاراً ، وأغنى تربة ، وأصفى سماء ، وأعذب ماء ، وأدعى للحب والشغف من هذا
الوطن العزيز؟ اسألوا العالم كله يجيبكم بصوت واحد إن مصر جنة الدنيا ، وإن شعباً
يسكنها ويتوارثها لا كرم الشعوب إذا أعزها ، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا
تسامح في حقها وسلم أزمته للأجنبي ،

- « قد يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب مستعبد كالشعب
المصري مما لا يليق بإنسان ، ولكن أي شرف يطمع الحرف فيه أكبر من العمل

لإحياء الأمة التي سبقت الأمم كافة في العلم والمدنية والأدب ؟ أي رفعة يسعى الشريف إليها أسمى من إنهاض شعب كان أستاذ الشعوب البشرية ومرتب العالم كله ؟ ،

— « إن مصر جديرة بأن تحب بكل قوة ، بكل عاطفة بكل جارحة ، بكل نفس ، بكل حياة ،

— « لاقوام لأمة ولا سلامة لبلاد إلا بقوة العقيدة الوطنية ،

— « إن من يتسامح في حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان ،

— « الدعوة للاستقلال ، وبت الروح الوطنية ، هما المؤديان إلى تحقيق آمال الأمة المصرية ، فليكن معتقد المصريين جميعاً ، أن نجاة مصر لا تكون إلا بهم المصريين ، وإن ارتقاءنا موكول إلى عزائمتنا ، فلنطلب النهوض من أنفسنا ، ولنعمل له بالهمة ، والصدق والاتحاد ،

عقريته ومكاته السياسية

لم يكن مصطفى كامل زعيماً وطنياً خصباً ؛ بل كان زعيماً سياسياً ناضج الفسرك صادق النظر ، واسع الاطلاع ، ملماً بأسرار السياسة الدولية ، وهذه ميزة له على كثير من الزعماء الذين سبقوه (في الثورة العرابية) ، أو تولوا الزعامة بعده ، ويضارعه في الاطلاع السياسي المعفور له محمد بك فريد ، فكلاهما درس القضية المصرية دراسة عميقة قبل أن يضطلع بأعباء الزعامة ، ولعلك تلحظ أنه حين عاد إلى مصر عقب حصوله على شهادة الحقوق من فرنسا ، جاء ومعه صندوق من الكتب المؤلفة في القضية المصرية ، ليتزود منها بالحقائق والبيانات اللازمة لخدمة هذه القضية

وظهر بعد نظره السياسي في المبدأ الذي اتخذته شعاراً لدعوته ، وهو الجلاء ، إذ رأى بثاقب نظره أنه الرمز الصحيح للاستقلال التام ، وأن الاستقلال والاحتلال ضدان لا يجتمعان ، قال في هذا الصدد : « كل احتلال أجنبي هو عار

على الوطن وبنيه ، واطرح المبادئ الملتوية والنظريات الخيالية جانباً ، وخالف الكثيرين من معاصريه الذين كانوا يرون مصانعه الاحتلال والتقرب إليه ، وجعل الجلاء شعاراً للحركة الوطنية ، فهو أول من علم الأمة أنه صخرة النجاة لمصر ، وأن الاحتلال الأجنبي هو مصدر العبث باستقلال مصر وكرامتها القومية ، وقد أثبتت الحوادث قديماً وحديثاً صحة هذا المبدأ القويم ، لأن الاحتلال مهما كانت صفته لا يمكن أن يتفق مع الاستقلال والكرامة القومية (١)

ويبدو بعد نظره في تجنبه أخطاء زعماء الثورة العراقية ، فقد أدرك من دراسته العميقة للمسألة المصرية أن اصطدام العراقيين والحديو توفيق كان من أسباب إخفاق الثورة ، ومن العوامل التي تذرعت بها انجلترا لاحتلال البلاد ، فكان يعمل دائماً على إيجاد جو من التفاهم بين الأمة والحديو عباس الثاني ، ويدعو إلى تعلق الأمة بالعرش ، ولما وقع الخلف بينهما ، بعد أن جنح الحديو للاستسلام والخضوع للاحتلال ، اجتنب هو الاصطدام به ، حتى لا يتخذ الاحتلال من هذا الاصطدام وسيلة لإضعاف الحركة الوطنية ، أو محاربتها باسم الحديو

وكذلك رأى من الحكمة السياسية توثيق الروابط الودية بين مصر وتركيا ، لكي يتخذ من موقف تركيا وسيلة لمقاومة الاحتلال وإقامة الحجج عليه ، وأدرك من مطالعته التاريخية أن انجلترا كانت تعمل دائماً على تعكير العلاقات بين الحديو توفيق والسلطان ، مما أدى إلى إطلاق يدها في مصر ، وأن جفاء العلاقات بين مصر وتركيا في عهد إسماعيل ، كان من العوامل التي جنحت بتركيا إلى خلعها ، إجابة لرغبة انجلترا وفرنسا ، فعمل على اكتساب ود تركيا ، ما دام الاحتلال في مصر ، لكي يضمن ألا تتفق الدولتان على إقرار الاحتلال ، كفعلت فرنسا في الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤ وقد فصلنا الكلام عن هذه المسألة في الفصل الثامن عشر

أما سياسته بإزاء فرنسا ، فقد كان إلى ما قبل حادثة فانشودة يتوقع تدخلها لصالح مصر ، ولذلك كان يأمل العون من ناحيتها حتى سنة ١٨٩٨ ، وكل من كان

(١) قال مصطفى النحاس باشا في خطبته التي ألقاها يوم أول يولية سنة ١٩٣٨ : « ان

جوهر المسألة المصرية هو الاحتلال والجلاء »

في موقفه كان محقاً في هذا الأمل ، ولكن بعد أن وقعت حادثة فاشودة سنة ١٨٩٨ وتراجعت فرنسا أمام إنجلترا ، أدرك أن لا فائدة تترجى منها ، وجعل الاعتماد على قوة الأمة وجهادها أساس الحركة الوطنية ، وأخذ يطعن على فرنسا وسياستها منذ تلك الحادثة ، كتب في هذا الصدد يقول في لواء ١٥ مايو سنة ١٩٠٠ : « إننا انتقدنا دائماً السياسة الفرنسية وقلنا غير مرة إنها لا تليق بحكومة الجمهورية ولولا هذه السياسة العوجاء لما كانت إنجلترا في مصر ولما كنا فيما نحن فيه ،

ثم فقد أمله في عدالة فرنسا خاصة وأوروبا عامة منذ أن رأى جمود أوروبا أمام مأساة (البوير) وتركها إياهم يسحقون أمام القوات الإنجليزية دون أن تأبه بهم ، قال في هذا الصدد في عدد ٢٨ أغسطس سنة ١٩٠٠ من اللواء : « إن المعتمد على أوروبا واقف على هاوية عميقة القرار ، وإن الوطنية تحتاج إلى أسلحة عدة إذا كانت الشهامة والفضيلة والإقدام أهمها وأزورها ، فالخذر والدهاء والتبصر ضرورية لها بل وحيوية لكل أمة تطلب الحياة أو تريد الزيادة في المجد والسؤدد ، وإذا كانت أمة بلغت من الشهامة وحب الوطن مبلغ أمة البوير وهذا حالها مع أوروبا فكيف بنا ونحن نحتاج لسنين عديدة وأعمال مجيدة لبلوغ مبلغها والحصول على مالها من المحامد والمزايا ،

وكتب إلى مدام جوليت آدم في رسالة له بتاريخ ٢١ يونيو سنة ١٩٠٠ يقول : « إنى لا أجد كلمات تسع إعرابي لك عن استيائى من أوروبا والمدنية الإنسانية التي قضت بهجر البوير البواسل ! أى عار وأى درس لنا نحن الذين طالما كنا نعتمد على أوروبا ! »

فصطنى كامل قد دعا الأمة منذ سنة ١٨٩٨ إلى الاعتماد على النفس في جهادها ، ومن الخطأ ما يظنه بعض الكتاب أنه ظل يتعلق بالآمال من ناحية فرنسا حتى سنة ١٩٠٤ ، وهى السنة التي أبرم فيها الاتفاق الودى بين فرنسا وإنجلترا ، فإنه على العكس فقد أمله في فرنسا منذ حادثة فاشودة ، ولم يفاجئه الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ ، بل زاده قوة على قوته في الكفاح والجهاد

على أنه مع فقدانه الأمل في تدخل فرنسا وأوروبا في المسألة المصرية ، كان

يؤمن بقوة الدعاية ، وأثرها في إحراج مركز الاحتلال وشد أزر الحركة الوطنية ، فكان لا يفتأ يبذل الجهود الجبارة ليسكسب لمصر الأنصار والأعوان في صحافة أوروبا وفي دوائرها السياسية والأدبية ، وقد وفق من هذه الناحية توفيقاً عظيماً يدل على حظ كبير من المكانة الشخصية والمقدرة السياسية ، فليس من السهل على أي إنسان مهما كان كبيراً أن يدرك تلك المكانة التي جعلت الفقيد ينشر مقالاته وأحاديثه في أهم الصحف الأوروبية

لقد كانت كبرى الصحف الفرنسية كالفيجارو والإكبر والطان والديبا وغيرها ترحب بمقالاته وأحاديثه ، وكان ينشر بعضها أيضاً في الصحف الإنجليزية ، وكان في صيف كل عام يقصد إلى أوروبا وتشرله كبريات الصحف الأحاديث والمقالات عن مصر وشؤونها ، وتخصص لها مكاناً بارزاً في أعمدها . وتناقشها الصحف الأخرى ، وكان لا يحل يبلى إلا وتتجه إليه الأنظار ليدلى إلى الجمهور بآرائه عن الحركة الوطنية المصرية التي كان زعيمها وممثلها في الداخل والخارج بلا منازع

ومن دلائل مكانته السياسية أنه لما وقعت حادثة دنشواي استطاع أن ينشر مقالته الشهيرة (إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن) في صدر جريدة (الفيجارو) ، فكانت بمثابة صحيفة اتهام للسياسة الإنجليزية في جريدة من أكبر الصحف العالمية ، وفي وقت كانت السياسة الفرنسية متجهة وجهة الاتفاق الودي مع إنجلترا ، وهذا يدل على عظم المنزلة التي نالها الفقيد في العالم السياسي

ولما نشرت له (الفيجارو) في سبتمبر سنة ١٩٠٧ كتابه المفتوح إلى السير هنري كامبل بازمان رئيس الوزارة البريطانية الذي احتج فيه على الاحتلال وطالب الحكومة البريطانية بتحقيق وعودها في الجلاء ، تناقلته جرائد الطان والديبا والإكبر والإيكودي باريس والجلولو وغيرها ، وعلقت عليه تعليقات تدل على عظم مكانته ، وأنشأت الطان في صدره مقالة افتتاحية قائلة ان العلاقات الأدبية والمادية بين فرنسا ومصر تعادل ما عند فرنسا من الميل والانعطاف نحو المصريين ، وتردد صدق الكتاب في معظم الصحف البريطانية كالتيمس والستاندارد والديلي نيوز والمورتنج

بوست والمورنج ليدر وغيرها ونشرته ضمن رسائلها التلغرافية الواردة من مكاتبها بباريس ، كارددت صداه شركة روتر في أرجاء العالم

وعندما استقال الأستاذ ادوار لامبير من منصب ناظر مدرسة الحقوق الخديوية (ص ٢٤٤) التقى بالفقيه بفرنسا ، وهو الذي قدمه إلى المنيو نارديو مدير جريدة الطان (والذي صار رئيس وزراء فرنسا فيما بعد) لينشر له مقالته عن أسباب استقالته ، وقد نشرت بها فعلا ونشرها الفقيه بأكمها في الايتندار اجبسيان وذى اجبسيان ستاندرد ، ونشر تعريها كاملا في اللواء في اليوم التالي لظهورها في الطان ، وقد ذكر العلامة لامبير هذه الحقيقة في حديث له بجريدة الجهاد عدد ٨ مارس سنة ١٩٢٧ حين حضر إلى مصر لإلقاء محاضراته القانونية تلبية لطلب كلية الحقوق المصرية

وقبلت جريدة الفيجارو الشهيرة أن تنشر ليتندار اجبسيان كل المقالات التي يكتبها الكاتب الطائر الصيت (بييرلوتي) عن مصر في يوم واحد معا ، على حين كانت تنقده المبالغ الطائلة على ذلك

ولما أوفد الفقيه إلى باريس سيد افندي على أحد محرري اللواء في بعثة صحفية ليتلقى علوم الصحافة في مدرسة العلوم السياسية بها ، زوده بكتب توصية إلى أقطاب السياسة والصحافة في فرنسا ، فكان كلما قابل أحدهم وسلبه كتاب التوصية قابله بعناية واحترام ، لاحترامهم شخصية الفقيه ، وقصد إلى إدارة جريدة (الطان) ، وهي كبرى صحف فرنسا ومعه خطابان أحدهما لرئيس تحريرها ، والآخر لمحررها الأول ، فلما أخبرهما أنه رسول مصطني كامل قابله بالحفاوة البالغة ، وأخذ رئيس التحرير يقدمه إلى زملائه مبتسما ، قائلا : « هذا مندوب صديقنا الجليل مصطني كامل » ، ولما تلا كتابه أقبل عليه وقال : « إني أحب الباشا من أعماق قلبي ، وأود أن أقوم له بخدمة ولو صغيرة ، فاعلم أن أبواب الطان مفتحة أمامك في كل وقت وساعة ، وأن أبواب غرفتي لاتقفل في وجهك أبداً ، وقد كلفني رئيسك أن أحقك بمدرستي العلوم السياسية والصحافة ، ومن رأي أن تقتصر على الأولى ، لأنك لاتستفيد من الثانية شيئا ، فاذا أنمت العلوم السياسية فعد إلى مصر وتعلم الصحافة

في مدرستها الكبرى التي يديرها مصطفى كامل باشا ، فهذه المنزلة التي نالها الفقيد لدى أقطاب السياسة والصحافة في فرنسا لا يمكن أن يناهها إلا الرجل العظيم الذي رفعته كفايته الممتازة وشخصيته الفذة إلى ذلك المستوى الكبير ، ولا غرو فقد كان معروفا في أوروبا بأنه بطل الاستقلال المصري ، وبذلك على سمو مكانته في نفوس عظماء الغرب أن السكاتب الفرنسي الشهير بييرلوتي ، وكان صديقا حميما له وضع كتاباً سنة ١٩٠٩ عن مشاهداته في مصر ، وقدم له بكلمة إهداء إلى روح الفقيد قال فيها : « إلى ذكرى صديقي المجيد العزيز مصطفى كامل باشا الذي استشهد يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ في ميدان الجهاد الشريف عاملاً على رفعة شأن مصر والإسلام ، ، وهي كلمة لا تصدر الا عن تقدير عظيم ، من أديب كبير

سياسته نحو النزلاء

وكان شديد الحرص على اكتساب ثقة النزلاء الأجانب واطمئنانهم إلى الحركة الوطنية ، وفي ذلك قال كلمته المشهورة (أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا) ، وقد وفق توفيقا كبيرا في كسب ثقة الأجانب واحترامهم ، مما كان يبدو أثره في الصحف الأوروبية المحلية ، ولا شك أن ظهور زعيم وطني شاب مثقف ثقافة أوروبية قد أفاد كثيراً في الدعاية للحركة الوطنية سواء في أوروبا أو في الأوساط الأوروبية المحلية ، ولذلك كان له أنصار وأصدقاء ومعجبون كثيرون من أعيان الجاليات الأوروبية ، ومن أقطاب الصحافة والسياسة والقضاء والمحاماة ، وقد كان أول زعيم مصري سمعت منه أوروبا صوت مصر الحديثة ، وكان له من الصحفيين الأجانب في مصر أصدقاء شخصيون عديدون ، كالمسيو هيكاليس باشا صاحب جريدة الفارد الكسندري ، والمسيو برشيه صاحب الجورنال اجبسيان . والمسيو راوول كانيفيه مدير جريدة الريفورم ، والمسيو جورج فيسييه مدير الجورنال دي كير وغيرهم

سياسته الشرقية والإسلامية

كان مصطفى كامل عالماً على الوطنية المصرية ، وكان في الوقت نفسه رسول الحرية والجهاد للأمم الشرقية ، شديد الغيرة على توثيق عرى الروابط والتعاون

بينها ، وكان قوى العقيدة الدينية ، قوى الإيمان ، ولقد كانت قوة إيمانه من أسباب رسوخ العقيدة الوطنية في فؤاده ، قال في هذا الصدد رداً على حملات الصحف الأوروبية على الاسلام لمناسبة مقالات هانوتو : « قد يظن بعض الناس أن الدين ينافي الوطنية ، أو أن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية في شيء ، ولكنني أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان ، وأن الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حبا صادقا ويفديه بروحه وما تملك يده ، (راجع ص ١٤٦)

ويبدو اتجاهه إلى تقوية الروابط بين الشعوب الاسلامية من إصداره جريدة أسبوعية باسم (العالم الإسلامي) كان ينشر بها كل ما يهم الإسلام من المقالات والأنباء .

وكتب في جريدة (الطان) الفرنسية — عدد ٨ سبتمبر سنة ١٩٠٦ — مقالة ردا على مقالة نشرتها عن الجامعة الإسلامية قال :

« لقد فسرت كلمة الجامعة الإسلامية في أوروبا تفسيراً لا يتفق ومعناها الحقيقي ، وإني أعيد هنا ما كتبت في « الفيجارو » و « اللواء » وما قلته في كل مكان من أنه لا يوجد مسلم متنور يعتقد لحظة واحدة أن الشعوب الإسلامية يمكنها أن تؤلف عصبة ضد أوروبا . وإني أتساءل من الرجل العاقل السليم الإدراك الذي يصدق إمكان تغلب الشعوب الإسلامية على كافة الدول الأوروبية ، إن الحقيقة الساطعة الخالصة من كل شيء هي أن حركة الجامعة الإسلامية بالمعنى المقصود منها في أوروبا — أي الحرب الدينية — لا وجود لها بالمرّة ، لأن المسلمين أدركوا من زمان بعيد أنه يستحيل على أية أمة أن تعيش في معزل عن العالم ، وإن الأمة التي تحاول ذلك تقضى على نفسها بالموت ، أما الشعور الموجود حقيقة وبلا نزاع عند كافة الشعوب الإسلامية فهو شعور انعطافها وحنانها لبعضها البعض ، فكل مسلم يرغب من صميم فؤاده أن يرى أبناء دينه معاملة أحسن من المعاملة الحالية ومعتبرين كجزء حي من الإنسانية ومحترمين في كل مكان ومن كل إنسان ، وإنه لما كان لتأخر الشعوب الإسلامية أسباب واحدة ، فإن نهضتهم تكون بوسائل واحدة ، وإن هذه النهضة لا تصير حقيقة تشاهد بالعيان بفضل أو هام تأليف عصبة إسلامية ضد المسيحية ، بل بالتعليم

والنور ، وبما أن الإسلام ليس عقيدة دينية فقط بل قانون اجتماعي ، فإن إحياء الأفكار ونشر المعارف لا يتمان الا بإظهاره على حقيقته ، وإن ميل كل مسلم لأبناء دينه أمر طبيعي وشرعي ، ولا يوجد رجل منصف ينتقد ذلك الميل ، أما عن تهمة التعصب الإسلامي المزعوم في مصر فإني أؤكد أن بلادا كثيرة في أوروبا تعرف التعصب العنيف الممقوت ، في حين أن مصر لا تعرفه ، فليس عندنا أحزاب ضد اليهود ، ولا اشتراكيون ولا فوضويون ، ولا شيء من تلك الفرق التي يأكل بعضها بعضا ،

مقدرته الخطابية

هو أعظم خطيب أنجبته مصر الحديثة ، وأول خطيب سيامي جهر بالاستقلال في عهد الاحتلال ، وأول زعيم اتخذ الخطابة وسيلة لبعث الحركة الوطنية ، ولاشك أن الحركة الوطنية مدينة لخطبه الجليلة الرائعة في ظهورها واتساع مداها ، وكانت هذه الخطب من الحوادث الهامة في تاريخ الحركة القومية ، كان خطيبا مفوها ، يجيد الخطابة باللغتين العربية والفرنسية ، والخطابة بعد الوطنية كانت أبرز الجوانب في شخصيته ، كان إذا جلس في محفل خاص وتكلم مع الحاضرين يدوى صوته كأنه يلقي على السامعين خطبة من خطبه الرنانة ، كان جهورى الصوت ، يتكلم من أعماق قلبه المملوء يقينا وإيمانا ، وكان له سلطان روحي على من حوله من السامعين أو المخاطبين ، وقد بدأت مواهبه الخطابية في الظهور وهو بعد في المدرسة الثانوية ، إذ كان يخطب في جمعية الصليبية الأدبية وجمعية الاعتدال بمدرسة الأمريكان (ص ٢٥) ، فكان يسترعى الأنظار بفصاحة لسانه وصوته الرنان ، وقد اختار مدرسة الحقوق ، لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ، كما يقول في خطابه إلى شقيقه في ١٢ يولييه سنة ١٨٩١ ، مما يدل على ميوله الخطابية وهو في هذه السن المبكرة ، وإنك لتلحح مقدرته الخطابية في بداية حياته الوطنية من قول علي مبارك باشا له سنة ١٨٩٠ وهو بعد طالب في المدرسة الثانوية : « إنك امرؤ القيس » ، ومن وصف الأستاذ محمد مسعود بك إياه سنة ١٨٩٦ (ص ٧٣) بخطيب مصر المصقع ، وأنه الذي إذا ارتقى منبر الخطابة بذلل له القول وسخر له الخطاب ، وتابعه الكلام متفق القرائن مطرد السياق

وقد كان في مواقفه الخطابية الكبرى يضع خطبه ويكتبها ، ولسكنه كان يلقيها على السامعين دون أن يقرأها ، وكان له من قوة ذاكرته المدهشة ما يغنيه عن الرجوع إلى التلاوة في خطبه ، وكانت مقدرته الخطابية باللغة الفرنسية لا تقل عنها في خطبه العربية ، ولذلك نال إعجاب الأوروبيين من سمعوه يخطب بالفرنسية ، وكان هذا الإعجاب من أسباب علو منزلته السياسية والاجتماعية في أوروبا وبين النزلاء الأوروبيين في مصر

مقدرته الصحفية

هو من عباقرة الصحافة في مصر والعالم ، خلق صحفيا بفطرته ، فأسس مجلة المدرسة وهو بعد في المدرسة الثانوية ، فكان أول طالب مصري مارس الصحافة ، كما أنه كان أول طالب خطب في الوطنية ، وقد ولع بمراسلة الصحف في هذه السن المبكرة ، وكتب في كبريات الصحف ، من مصرية وأوروبية قبل أن ينشئ اللواء ، ولما أنشأه سنة ١٩٠٠ بعث في الصحافة روح التجديد والنشاط ، فكان اللواء نموذجا للفن الصحفي ، متنوع المقالات والأبحاث والأخبار ، وكان أول ما صدر في أربع صفحات ، ثم ما زال يرقى به حتى جعله في ثمان ، بعد أن استحضر له من أوروبا آلة الطباعة الكبرى (روتاتيف) ، وكان يفيض بالآباء البرقية الواردة إليه من الخارج على يد مراسليه ، فضلا عما كان ينشر من رسائل كبار الكتّاب في مصر وأوروبا ، وصار كما قالت (الاجبسيان جازيت) ، « أكثر الجرائد العربية انتشارا ليس في مصر فقط بل في جميع العالم على الأرجح » ، ولم يكتب بإصدار اللواء اليومي ، بل أصدر إلى جانبه (مجلة اللواء) الشهرية ثم جريدة العالم الإسلامي سنة ١٩٠٥

وبلغت مقدرته الصحفية أوجها حين أصدر جريدتي ليتندار اجبسيان وذى اجبسيان ستاندرد اليوميتين ، فصار يصدر ثلاث صحف يومية كبرى ، بثلاث لغات مختلفة ، وهي مهمة تنوء بها العصبية أولو القوة من الرجال والجماعات ، وقد كان يشرف بنفسه على تحريرها وإدارتها ، وتمشى روحه في كل كلمة منها ، بحيث لم يؤخذ على أية صحيفة منها أنها نشرت يوما مقالة أو نبذة تخالف روحه ومذهبه

وكان للاقتدار اجبسيان وذى اجبسيان ستاندرد محررون اختارهم الفقيه من صفوة الكتاب الفرنسيين والإنجليز ، ومراسلون في باريس ولندن برسولون إليهما تلغرافياً خلاصة كل ما ينشر في الصحف الأوروبية عن مصر في حينه ، فكانت الأولوية الثلاثة تطالع قراءها يومياً بكل ما يهم مصر في الخارج

ولما نشرت (الديلي تلغراف) حديثاً للخديو عباس (ص ٢٤٢) في مايو سنة ١٩٠٧ ، عقب استقالة اللورد كرومر علم به الفقيه تلغرافياً من مراسل ذى اجبسيان ستاندرد في لندن ، فطلب إليه أن يوافيه بنصه حرفياً ، فجاء نصه بالتلغراف في ١٤٤٥ كلمة ، وكانت هذه أول مرة في تاريخ الصحافة المصرية والشرقية جاء فيها تلغراف بهذا الطول وهذه الأهمية

وقد بلغ من تعلق الفقيه بترقية الصحافة ورفع شأنها أن أوفد بعثة صحفية إلى أوروبا في أكتوبر سنة ١٩٠٧ لدراسة فن الصحافة وإتقانه ، وبدأ بإرسال سيد افندي على أحد محرري اللواء وقتئذ إلى باريس ، وانتظم على نفقة صاحب اللواء في سلك مدرستي العلوم السياسية وفن الصحافة بباريس لمدة ثلاث سنوات ، ولكن لم يطل مكثه هناك لمرض اعتراه ، وقد عرض على الفقيه في تلك السنة ، وكنت إذ ذاك طالباً بمدرسة الحقوق ، أن يوفدني في هذه البعثة الصحفية بعد حصولي على شهادة الحقوق ، فقبلت هذه الثقة شاكرآ ، ولكن المنية عاجلته قبل تخرجي من المدرسة كان مصطفى يتولى عمله الصحفي المنهك ، إلى جانب إشرافه على إدارة مدرسة مصطفى كامل ، إلى جانب خطبه الرنانة التي كان يلقاها من آن لآخر ، وأحاديثه ومقالاته في كبريات الصحف الأوروبية ، وإطلاعه على الصحف والمؤلفات التي تكتب عن مصر وعن المسائل السياسية الكبرى العالمية ، وإلى جانب ذلك يجتمع بأصدقائه وأنصاره وتلاميذه ، ويفيض عليهم من أحاديثه وتعاليمه ما يملأ نفوسهم ووطنية وإيماناً ، وكان إذا خلا إلى راحته يكتب الرسائل الخاصة إلى كبار السياسيين والكتّاب في أوروبا ، مما لو جمع لصار عدة مجلدات ، وقد جمع شقيقه على بك فهمي كامل رسائله إلى مدام آدم ، فجاءت كتاباً قيماً ممتعاً ، كان الفقيه يضطلع بهذه الأعباء كلها مجتمعة بهمة وكفاية ومقدرة منقطعة النظير

فضله على الحركة الوطنية

هو رسول الوطنية والحرية لمصر والشرق جميعاً ، وإن قيامه ضد أكبر دول الاستعمار وهي في أوج قوتها هو مثال خالد للبطولة والإخلاص والتضحية ، جدير بأن تحتذبه الأمم الشرقية في جهادها للحرية والمجد ، وقد بينا كيف أنه كان باعث الحركة الوطنية الحديثة وموجدتها ، فلا نعود إلى هذا البيان ، ولقد ظهرت هذه الحقيقة رائعة يوم الاحتفال بجنائزته ، إذ كانت إجماعاً من الأمة على الاعتراف بأن الحركة الوطنية هي غرس جهاده المتواصل طوال سني حياته ، وسندعم هذه الحقيقة هنا بأقوال معاصريه في مصر وفي الشرق والغرب ، فإن هذه الأقوال تسطع منها شخصية الفقيد العظيم

قال المغفور له الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد ، في رثائه :

« كان في عمله كقائد الجيش يسير به إلى ميدان القتال ، للحياة الفاخرة ، أو للدار الآخرة ، ذلك كان مبدأ صديقي القديم ، وهذا شأن رصيفي العظيم ، فكان من مبدئه يافعاً ، إلى أن صار في الرابعة والثلاثين رجلاً كاملاً ، مثال الهمة الشماء ، والذكاء والعزيمة ذات المضاء ، والحركة الدائمة التي لا تنسى ، ذاهباً في طريق الآمال ينشد لوطنه الاستقلال ، فإليك أيها الصديق القديم ، والرصيف العظيم ، تحية محزون يعرف لك أكثر من كل إنسان خدمتك العظيمة التي خدمت بها وطنك ، فأيقظت من شعور المصريين ما قامت مظاهرات الأمس أكبر برهان على مقدار ما كان لك فيه من حسن الأثر وبد بيضاء ، ويقدر جهادك العظيم في أوروبا في سبيل الدفاع عن حقوق الأمة المصرية حق قدره ، وأتى لمصر أن تجد بعدك صوتاً عالياً إذا قال أسمع أوروبا بأسرها وتردد صدها في الخافقين ، بل أتى لمصر بمن يملك إحساس شبيبتها كما كنت تملك ، ويستفز شعورها كما كنت تستفز ، والأمة في حاجة كبرى إلى تنمية مثل هذه العواطف الشريفة ،

وقال المرحوم مرقس حنا باشا (عضو الوفد المصري) في حفلة تأييده : « إن العظمة والمهابة التي أحاطت بنعش المرحوم مصطفى كامل باشا يوم ١١ فبراير

المنصرم ذات دلالة صادقة أكيدة على أنه لم يكن صديقاً لفريق من المصريين ، بل كان صديقاً لجميع الوطنيين على السواء ، بكاه كل ساكن من سكان هذا البلد ، لأنه قضى حياته كلها في بث روح الوطنية الحقيقية بين أهله وقاطنيه ، بكيته أنا شخصياً لأنني عرفته مثالا للرجولة والشهامة والصدقة بكل معاني الكلمة ، كان الرجل شفاء لغلتنا ، وإرواء لظمئنا ، جئت أقول لكم كلمة واحدة هي حياة مصطفى كامل كلها إن الأمة نمت وسمت وتغارست أغصانها حول جذع واحد هو مصر ، هو الوطن العزيز ، تلك الحقيقة التي لا ريب فيها. الفخر في إحيائها راجع إلى مصطفى كامل باشا ، وقال الشيخ مصطفى القاياتي في مارس سنة ١٩٠٨ : « هذه الحياة القومية المدهشة والنهضة المصرية الفاتحة إنما هما أثر من آثاره ، ونتيجة من نتائج أعماله ، سيتوارثها الأبناء عن الآباء ، وتبقى ما بقيت صفحات التاريخ ،

وقال سعد باشا زغلول في خطبته بفندق شبرد يوم ٢٠ أبريل سنة ١٩٢١ : « أعلم أن البلاد تصبو إلى الاستقلال وأن حركتها الاستقلالية بدت من زمان طويل ، خصوصاً من يوم أن ظهر فيها المرحوم مصطفى كامل وتلاه المرحوم فريد بك ، هؤلاء الذين أسسوا وأبدوا ما أسسوا في النهضة الحاضرة ،

وقال في خطبته بالسرايوق يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣ : « لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم ، لا أقول ذلك ولا أدعيه ، بل لا أتصوره ، إنما نهضتكم قديمة تبتدىء من عهد مؤسس الأسرة المسالكة محمد علي ، وللحركة العراقية فضل عظيم فيها ، وكذلك للسيد جمال الدين الأفغاني وأتباعه وتلاميذه أثر كبير ، وللرحوم مصطفى كامل باشا فضل عظيم فيها أيضاً ، وكذلك للرحوم فريد بك ، وقال الأستاذ أخنوخ فانوس من خطبته في حفلة تأييده :

« انه أنهض روحاً شريفة عامة بين طبقات وعناصر الأمة المصرية ، روحاً وطنية شريفة ، بل زهرة زاهرة عابقة نمت وعلت فوق هامة الأشرار المذهبية بناموس الرقي ، فسامات مصطفى حتى أطلقت عبرها بين الملأ ، فأنعشت كامن الحب القومي الوطني الطبيعي ، وكشفت في مصر عن حلقة وطنية صحيحة شريفة ، وقالت « الأهرام ، في رثائه - بقلم الأستاذ داود بركات :

ذهب « قتي مصر » ، فكل قلم « مصري » ، كسكل لسان مصري ، وقف « اليوم » على تأيينه وورثائه ، ومات مصطفى كامل ، فالأمة التي كانت أقواله وسياسته وأفكاره شغلها الشاغل ، هي الآن رهن الفجعية به ، والمصاب بفقده ، بل إن أقلام خصومه الحادة التي كانت تناوله كل حين بالغمز ، وكل آونة بالتجريح واللمز ، هي اليوم أمام نعشه خاشعة تقطر بالرثاء ، بعد أن أتادت ، والداء يفت من جسمه ، لا تقلق « ضجعه ولا تشوك سريره » ، بل هي اليوم مثلها بالأمس ، تعرف أنها كانت تنازل في منازلته فكراً يؤلف به الأفسكار ، لاشخصاً في عقر الدار ، ومذهباً في السياسة هو صدى آمال أمة عظيمة ، لا مذهباً في العمل ينحصر في دائرة ضيقة ، فلو لم يكن في مصر قوة ما جردت عليه قوات ، إن الطريقة التي كانت عنوان عمل مصطفى كامل هي الحرية في القول ، والمجاهرة بما يضمن ، والتذرع بالشجاعة في العمل ، لأنه لا يمت الحقوق في الأمم مثل الجبن عن المطالبة بها ، أو التطوح إلى ما وراء الغاية من الشجاعة ، لحسبه مجداً أن يسجل له في تاريخ أمته تلك الشجاعة وتلك الحرية ، بل حسبه أن يكون مثالا للناشئة ، فهو أكبر معلم بما عمل ، وقالت مدام جوليت آدم في مقدمة كتاب رسائل الفقيد إليها :

« إن في نشر رسائل صديق و ابني مصطفى إحياء له بعض الشيء ، عل أن مواطنيه لذكروه لحافظون ، هل مات « مصطفى » ؟ كلا ، لأن أعماله وكتابات و أقواله حية في أعماق قلوب أنصاره ومحبيه ، وهو يحيا في تلك الشبيبة المصرية التي أخرجها من الظلمات إلى النور ، ووقف نفسه على مستقبلها جسماً وروحاً ، لقد صار من رجال التاريخ ، وهو حي في شخص السكل ، والسكل حي في شخصه ، وما يجي من الحوادث لن يغير شيئاً من صورته وعنوان مجده ، وإن الفخر في تحقيق آماله حين تتحقق يعود عليه ويرجع إليه كله ، لأنه لا شيء ينقص من فضل أول باعث لفكرة استقلال مصر ، لقد قامت عند وفاة « مصطفى كامل » ، مظاهرات لم يصدر من أمة أخرى أعظم منها ، وقد صار عمله كله حياً في قلب كل مصري ، لأن كل مصري يفهم أن « مصطفى كامل » قد أحيا مصر إذ نفخ فيها من روحه ، وعند ما كان يقول متباهياً بلسان المغرم : أمي ! لم يكن يقو لها بلسان الملك عن رعاياه ، بل كان

يحي في نفسه بلاده ووطنه ، وكان يحيي معهما ، لأنه كان يحب أمته حباً لا يقوى عليه الموت !

« وإن ما اخترته من رسائله امدال على أنه جدير حقاً بلقب « الوطني » الذي أسبغته عليه أمته في كل شيء : الخطيب الوطني ، ورئيس الحزب الوطني ، ومثل هذا اللقب أعظم فخر يطمع فيه خادم الوطن ، لقد كان « مصطفى كامل » يقول إن هذا اللقب يحييني بحياة بلادى كلها وهو جزائى الأعظم ، واليوم يبعثه هذا اللقب حياً في نفس كل وطنى مصرى ،

وقالت جريدة (الديبا) الفرنسية الشهيرة في أبريل سنة ١٩٠٨ :

« إن مصطفى كامل لم يوظف أمته فقط وإنما رباها أيضاً ، بل يمكن القول بأنه هو الذى أنشأ الروح المصرية من العدم ، لم تسكن مصر قبله إلا قسماً من الأقسام الجغرافية ، ولم يكن سكانها إلا فرقاً منقسمين بعوامل الجنس والدين ، متفرقين شيعاً على قدر ما فى مصر من الأديان وما كان فيها من إختلاف المذاهب والمشارب والمطامع ، لقد تولى محمد على شؤون مصر ، فبعد بذله الجهد الجهد نصف قرن من الزمن تمسك من إنشاء جنسية مصرية متميزة عن الجنسية العثمانية ، ولكنه لم يبدئ أمة مصرية ، أما مصطفى كامل فقد خرج من بين هذه الجموع المتنافرة المتخاذلة التى لم تعرف معنى للتضامن القومى ولم تتذوق نعمة الوحدة الوطنية ، وكان أول من نطق بنداء الوطن ، نطق بهذا النداء ولم يكن قد تجاوز عشرين عاماً ، ثم ما زال يبيت هذه الفكرة السامية والروح الشريفة مدة أربعة عشر عاماً متتالية ، تارة بالصحافة وطوراً بالخطابة ، وأخرى بالمدرسة ، ظل يبيت هذه الفكرة بجهد عظيم أضعف صحته وقرب منيته ، لقد أنشأ مصطفى كامل الوطن المصرى ، فهو بذلك قد أتم أشرف عمل أدبى يخلد له الذكر الحسن على مر الأجيال ، وأضاف إلى هذا العمل الأدبى عملاً سياسياً ، وهو السعى فى تحرير مصر من رق الاحتلال الانجليزى وجعلها أهلاً لهذا التحرير ، فعمل مصطفى كامل كان اذن أدبياً وسياسياً معاً ،

ووصفه الكاتب الفرنسى (لويس برتران) فى مجلة العالمين ، وكان قد زاره وهو فى أوج مجده ، قال :

وقصدت شيخ الوطنيين مصطفى كامل باشا وزرته في داره ، وقد كانت مدام جوليت آدم أعطتني كتاب توصية اليه ، فاستقبلني رئيس الحركة الوطنية ومدير سياسة جريدة اللواء في غرفته بإدارة الجريدة ، فأحسن وفادتي وأكرمني ، دخلت غرفة الرئيس فعرتني دهشة ، لأنني وان كنت لا أنتظر أن ألاق شيخاً عربياً ذا لحية بيضاء ، ولكن كنت أحسب أني ملاق رجلاً كبير السن قوى الجسم ساكناً كما هو المعمود في الطبقة العالية من المسلمين ، نعم عرتني دهشة لأنني وجدت فتى شديد العارضة عظيم النشاط ، لا يدل ظاهره على أن عمره يتجاوز الخامسة والعشرين ، مع أنه في الحقيقة قد بلغ الثانية والثلاثين ، رأيت رجلاً صغير الجسم ، شاحب اللون خفيف اللحم ، تدل ملامحه على أنه رجل رقيق عصبي المزاج ، لكنه مع هذا الجسم الضئيل كان جمهوري الصوت خطيباً فطرياً ، فكلمني عن شيء من تاريخ حياته ، ومن عجيب ما لاحظته أنه بالرغم من حبه وبغضه كان يحكم على الناس بفراصة عجيبة من غير أن تخدعه صلة النسب أو رفعة الرتب ، ثم إنه فوق ذلك خبير بدخائل السياسة الأوروبية كل الخبرة ، وبالرغم من أني كنت وإياه وحدنا في غرفة ، فإنه كان يخاطبني وكأنما هو يخاطب في جمع عظيم ، ومن مزاياه العجيبة أن له تأثيراً في النفوس يضطرها إلى الاقتناع بما يقول حتى إنني لم أتركه إلا وقد انقسم فؤادي بين الميل الغريزي اليه ، وما سمعته من قبل من خصومه ، على أني كنت شديد الرغبة في مقابلته مرة ثانية ، قابلته مراراً وتحدثت معه كثيراً ، فعرفت فيه السياسي الحكيم الذي يعرف كيف يستخدم الظروف والفرص ، وكيف يلين وكيف يقسو ، وكان من رأيه ألا يعتمد على أوروبا إلا قليلاً ، وأن الثورة الحربية جنون ، وكل عمله ينحصر في تقوية روح الوطنية والاتحاد بين مواطنيه ، والمقاومة السلمية ، وكان يحترق مدنية لا غاية لها إلا الرقي المادي دون عناية بتحرير النفس أدياً ، فما كان أجمل جهاد ذلك الشاب المخلص الذي نصب نفسه لمحاربة خصم قوى عنيد مع أنه لا سلاح له إلا قلبه ولسانه !

فضله على الوحدة الوطنية

إن الفقيه هو أول من أسس الوحدة الوطنية وجعل لواء الوطنية يضم المسلمين والأقباط على السواء ، كثيرون من الكتّاب ينسبون هذا الفضل إلى سعد زغلول ، وهذا خطأ تاريخي وإجحاف لا مسوغ له ، والحقيقة أن مصطفى كامل هو صاحب الفضل في تأسيس هذه الوحدة ، اعتبر ذلك في اصطفاائه الأستاذ ويصا واصف ومرقص حنا باشا ، وهما من خيرة الوطنيين الأقباط ، وضمهما إلى الحركة الوطنية ، فكانا من أكبر أنصاره وأعوانه في الجهاد ، وقد كان في خطبه ومقالاته يدعو إلى ارتباط المسلمين والأقباط في الجهاد الوطني

قال في خطبته بالاسكندرية يوم ٨ يونيو سنة ١٨٩٧ : ان المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ، ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد ، (ص ١٠١)

وقال في خطبته بالاسكندرية يوم ٢ يونيو سنة ١٩٠٠ : كيف يستطيع رجل وطني أن يدعو للشقاق والبغضاء وهذه الدعوة مناقضة للوطنية الصحيحة ، فالأقباط إخوة لنا في الوطن تجمعنا بهم أشرف رابطة ، وقد عشنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق وأكمل اتفاق ، (ص ١٤٧) ، وتبدو هذه الروح الوطنية في كل أقواله وأعماله

وليس أبلغ في الدلالة على أنه الموجد للوحدة الوطنية من شهادة المرحوم مرقص حنا باشا في حفلة تأييده يوم ٢٠ مارس ١٩٠٨ ، إذ قال عنه :

ليس الأبطال قائدى الجيوش والقابضين على دفة الأساطيل ، إنما الأبطال هم أولئك المتمسكون بالمبدأ القومي وأهدابه ، الدائبون على السير في سبيله ، حتى رفعوا قومهم إلى أوج الرقى والعلو ، سار الفقيه في سبيله هذا ثابت الجأش ، شديد المراس ، لا يلوى على أحد ولا يقف به أمر ، حتى فاز كما نوى ، وأراد فكون الوحدة الوطنية ، وأرانا طريق الإخاء والحرية ، وهدانا إلى السعادة الحقيقية

رسم لنا طريق الوفاق والتآلف ، طريق الحرية والاستقلال ، وهذا الجمهور العظيم الذي نراه اليوم التف حول قبره وقد ضم بينه جميع العناصر المصرية يقول لكم بأفصح لسان وأجلى بيان وأقوى حجة وأعظم بلاغة : « ان التآلف بيننا أصبح قاعدة ثابتة ، ان الشبيبة المصرية لا تعرف غير أنها الشبيبة المصرية ، وألا واجب عليها سوى خدمة مصر والمصريين بلا تخصيص ولا تقسيم ، هذا بناء مصطفى كامل ، هذا عمل مصطفى كامل ، وقد بدا لنا جنى ثمره من الآن ، لأن الاتحاد هو السلم الأول للوصول إلى الحرية والاستقلال ،

تضحياته

سيظل اسم مصطفى كامل علماً للوطنية المنزهة عن الأهواء ، ومثالا للإخلاص والتضحية لا يمحوه الزمان ، وتبدو روح التضحية في تاريخه من الطريق الذي سلكه في الحياة ، لم يسلك الطريق السلطاني الموصل للرخاء والراحة ، والآهة والجاه ، ونعني به طريق المناصب ، ولو هو اختاره كما فعل معاصروه لبذم جميعاً بذكائه وكفاءته ونشاطه ، ولضمن لنفسه ولأهله وذويه طبقة بعد طبقة رغد العيش ، والثروة الطائلة ، والمراكز الممتازة ، ولكنه على عكس ذلك ، اختار الطريق الشائك ، طريق الجهاد ضد الاحتلال وضد الحكومة معا ، ولم يكن هذا الطريق ليجلب لصاحبه نفعاً ولا جاهاً ، بل هو طريق العقبات والمصاعب ، والجهد والحربان ، فهذا الاختيار في ذاته يدل على مبلغ ما فطرت عليه نفس الفقيد من الإخلاص والتضحية ، والعمل لوجه الله والوطن فقط ، وفي ذلك يقول في محاجة خصومه سنة ١٩٠٠ : « يمكنني اليوم أن أقول أمام الملا كاه انه لا يستطيع انسان في العالم أن يدعي اني خالفت مبدأ من مبادئ لحظة واحدة ، مع تغير الظروف وتقلبات الأحوال ، وموت الآمال عند كثير من الرجال ، ولا يوجد من يقول اني عملت ما عملت طمعا في عز أو ثروة ، لأن الطامع فيهما لا يقف موقفى ، ولا يجاهد ضد الاحتلال ، تحت سماء مصر ، ولا يخطب ضد المحتلين حتى في الوقت الذي كان أخي في قبضتهم يعاملونه بالذل والاستبداد وينديقونه أنواع العذاب وصنوف البلاء ويهددونه بالموت والإعدام في كل آن ،

لقد ضحى إذن بمنافعه وراحته ومصالحه الشخصية في سبيل حياة الجهاد التي اختارها لنفسه ، ولم يتحول عنها طول حياته ، كما ضحى بمصالح أقرب الناس إليه وأعزهم عليه

ذلك أول مظهر للتضحية في تاريخه ، وهناك التضحية الكبرى التي تتضامن بجانبها كل تضحية ، وهو بذله حياته وشبابه في سبيل مصر

فلقد رأيت مما بيناه في الفصل الخامس عشر (ص ٢٦٥) كيف كانت جهوده أقوى مما تحتمل صحته ، ذكر المرحوم فريد بك أنه رافقه في سفره إلى باريس ولندن في شتاء سنة ١٩٠٦ ، لاختيار محرري جريدة ليتندار اجبسيان وذى اجبسيان استندارد ، وأن المرض غاوده أثناء تلك الرحلة ، ولزم الفراش بباريس عدة أيام عاده فيها الدكتور روبان الطبيب الشهير ونصح له بحضور فريد بك بعدم إجهاد قواه في العمل ، وأن يترفق بصحته فلا يحملها فوق طاقتها من العناء ، وبترفق كذلك بأتمه فلا يجرمها وجوده حتى يتم مهمته التي وقف حياته عليها ، قال فريد بك : ولكن النصيحة أتت بعكس ما كنا ننتظره ، فانه رحمه الله لما أحس بضعف قواه واستعداده للأمراض الفتاكة أسرع الخطى وضاعف الجهود ، فأتم معدات اللوامين الفرنسي والانجليزي ، حتى ظهرا في مارس سنة ١٩٠٧ ، واستمر يجاهد ويبدل الجهود الجبارة طيلة سنة ١٩٠٧ ، كما تراه مفصلا في الفصل الثالث عشر والفصلين التاليين

مضى الفقيد في جهاده لا يلوى على شيء ، ولا يسكتثر للأخطار التي تهدد حياته ، فكان كالبطل المجاهد في حومة الوغى ، يرى الخطر مائلا أمام عينيه ، ومع ذلك لا يهاب الموت ، ويتقدم الصفوف ويجود بحياته في سبيل الوطن ، وهذا لعمرى أقصى درجات التضحية في الجهاد ، فهو بحق باعث الحركة الوطنية ومحبيها ، ثم هو شهيدها وأكبرها وأعظم ضحية لها ، وإنه ليجدر بنا أن ننقش على قبره هذا البيت من قصيدة شوقي في رثائه :

يا صَبَّ مصر يا شهيدَ غرامها هذا ترى مصرٍ فتم بأمان

الفصل الثاني والعشرون

نماذج

من خطب الفقيد

رأينا أن نختم الكتاب بنماذج من خطب الفقيد ، لتتسكون منها صورة بارزة من حياته الخطائية ، في مختلف مراحل جهاده ، وقد اخترنا هذه النماذج من أربع من هذه الخطب : الأولى والثانية في إبان حياته السياسية سنة ١٨٩٦ ، والثانية سنة ١٩٠٢ ، في منتصف سني جهاده ، والثالثة سنة ١٩٠٧ في أوج مجده الوطني

(١) خطبته بالاسكندرية

يوم ٣ مارس سنة ١٨٩٦ (انظر ص ٦٧)

سادتي وأبناء وطني الأعزاء

ما اقتربت من مدينتكم الزاهرة حتى شعرت من نفسي بارتياح زائد وانسراح خاص ، لأنني عهدتها وأعهدتها مدينة الحياة الحقيقية ومهد الرجال المشهورين بالشجاعة والبراعة والإقدام ، والمقابلة الودية التي قوبلت بها من كرمائها وساداتها قبل أن أقف بينكم الليلة خطيبا زادتنى حبا لها وميلا لأهلها ، وإنني أحمل كل ذلك الإكرام من أهل الاسكندرية على عظيم رغبتهم في إعزاز مبدأ الوطنية الشريف لا على إكرام شخصي الضعيف

ويسرني أن أحادثكم اليوم في شؤون الوطن العزيز ، هذا الوطن الذي تحبونه حبا مفرطا ، وتعملون لحيره وسعادته ، وأراني موقفا لحصولي على هذه الفرصة الثمينة التي أتبادل معكم فيها ما يمتلج في نفوسنا من الآمال والأمانى التي هي معنى الحياة والباعث القوي على العمل بجد ونشاط

ويلزمني أن أقول لكم إن قبل مبارحة القاهرة أخبرت بعض أصدقائي بأمر هذه الخطبة ، فأشار عليّ فريق منهم بعدم إلقائها ، معللين ذلك بقولهم ، إنك إذا ذهبت إلى الاسكندرية واجتمعت بأهلها وحادثتهم في مصائب مصر وآلامها ربما نتج عن ذلك شيء من هياج الأفكار ، الأمر الذي لا تحمد عقباه لأنهم شديديو الوطنية وأنت شديدها وقد تدعو شدة الشعور بالواجب إلى ما يتجاوز الحدود أحيانا ، وزاد بعضهم على ذلك قوله ، ولربما انتهز خصوك وخصوم الوطن العزيز هذه الفرصة لإحداث ما يقلق ويضر لتلقى التبعة عندئذ على أهل الاسكندرية وعليك أيضا ، يخالفهم في الرأي وجئت نغركم بالاسم معتمدا على حكمتكم ، اعتمادى على هممكم وشجاعتكم ، وإن أفضل صفة اتصف بها أهل الاسكندرية هي ولا غرو معرفة الواجب والشعور الصادق بحقيقة الحوادث ، والواحب اليوم على المصريين كافة إنما هو التمسك بالصبر والاعتدال أكثر من ذى قبل

وقد اتخذتم يا أبناء الاسكندرية في كل بلاد مصر مثالا للهمة والحماسة ، فلتكونوا كذلك مثالا صادقا للدعة والسكون والاعتدال لتصبحوا وتمسوا أساندة لمصر كلها في تأدية الواجب نحو الوطن المحبوب

ولقد أشاع عنكم بعض كثيرى الظنون أن غيرتكم وحميتكم يستعملان أحيانا ضد صالح البلاد ، وأنكم تفتدون من حيث لا تشعرون مآرب ذوى الغايات بإحداث القلاقل ، وكنت كلما أسمع مثل هذه الإشاعات أستغربها كل الاستغراب ، ولى الحق فى ذلك الاستغراب ، لأن الغيرة التى نستعمل فى غير موضعها تكون دواما أضر من البلادة والخول ، فلذا أنادىكم — وإن كنتم أعلم منى بالواجب — مناداة بحب لبلادكم ولمدنيتكم بنوع خاص ، أن تنفوا باعتدالكم وسكونكم تهمة من يرمونكم بحب الهياج والاضطراب

ومثل مصر اليوم وهى على باب السعادة المقبلة مثل مريض قارب الشفاء ينصحه الطبيب بزيادة التحفظ وعدم التعرض للهواء لتلاينتكس بالعلة فتعود

عليه بويل أشد من ويلها الأول ، فلنحترس جميعها معشر المصريين من التعرض إلى ما وراءه تعرض الوطن نفسه إلى خطر عظيم

وإن صفى التسامح والغفران اللتين اشتهرت بهما الأمة المصرية كانتا من أعظم الأسباب التي استمالت قلوب الأوروبيين نحوها ، وجعلتهم يعتبرون مصر كقطعة أرض من أوطانهم فهم يقطنونها آمنين مطمئنين ، ممتعين براحة البال والبعد عن اليبال ، ولذا وجدنا منهم على اختلاف جنسياتهم ومللهم نصراء أشداء البطالة بحقوق مصر وتحقيق رغائب أبنائها ، ويفرحني كثيراً أن أرى اليوم من أكابر وأعظم القوم فيهم قد حضروا هذا الاحتفال ولبوا الدعوة بلطف وتكرم ، وهو ما يدلنا على اشتراكهم معنا في الإحساسات نحو هذه البلاد العزيزة

وأول مدينة في مدائن القطر سكنها الأوروبيون ووجدوا من أهلها بشراً وائتلافاً ولا جرم مدينة الاسكندرية ، ولكم الحق يا أهلها وأعز أبنائها أن تفتخروا بذلك أعظم الافتخار ، فداوموا أيها الوطنيون الأعزاء على إكرام وفادة ضيوفكم ونزلائكم الذين يشتركون معكم في الإحساسات نحو هذا البلد الأمين ، وليسكن مبدؤنا دنماً ، أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا ،

وقد يفهم بعض الناس بالاعتدال الكف عن كل عمل يخدم البلاد ويسبب سعادتها ، فتراهم مقصرين كل التقصير عن واجباتهم ، وهؤلاء يخطئون الاعتقاد ، لأن الاعتدال لا يفيد النهاون والإهمال ، وما أجمل الاعتدال مع العمل على خدمة الأوطان

وإن في مصر فئة من الناس نسيت أن الأمل داعي العمل ، فلبست ثياب اليأس وقضت بظنونها على مستقبل الوطن العزيز ، وجعلت مهمتها في الأمة تثييط الهمم وإقعاد العزائم ، فلا تنادى في المحافل والأندية إلا بأنه ليس لمصر حظ في المستقبل من الحرية والسعادة الاجتماعية ، وإن شعبها قد مات من زمن طويل وليس لمفكر عاقل أن يؤمل له مستقبلاً جديداً ، وترى رجال هذه الفئة اليائسة يرمون كل رجل بالدفاع عن حقوق البلاد المقدسة بعدم الخبرة وقصر النظر

وعندى أن الرجال اليائسين وإن كانوا أقل من القليل يضررون بلادهم أعظم ضرر بما يقولونه ويكررونه ، إذ أن قتل العواطف الشريفة وإخماد نار الغيرة الوطنية هما ولا محالة أكبر جناية تجنى على الوطن وأهله ، فليكن من واجباتنا أن نترك هؤلاء اليائسين في سفن يأسهم تصعدهم أمواج الأفكار وتهبطهم حتى تصل بهم إلى شاطئ الخير وبر الرفاهية فنذكرهم عندئذ بفساد مزاعمهم وخطأ آرائهم

ولا تظنوا أيها الإخوان الأعزاء أن عملكم خير بلادكم يقابل من الانجليز بالازدراء والاحتقار ، كلا ثم كلا ، الانجليزى الذى يحتقر مصر يا يحب بلاده ويدافع عنها بصدق وإخلاص يكون محتقراً لنفسه ولقومه ، لأنه هو وكل مواطنيه أول العاملين فى الأمم على تقدم بلادهم ، ولا يرضيهم أن تبقى سعيدة فى داخلها فقط ، بل يبذلون كل ما فى وسعهم لاتساع نطاق مستعمراتها واستدرار الخير من موارده لها وحدها لا غيرها

وإذ ولجت موضوع الوطنيين المصريين إزاء الانجليز فأراني فى حاجة لأن أستميحك الإذن فى التكلم عن مسألة الاحتلال وإبداء رأى فيها بكل صراحة وليس من غرضى أن أطعن على الحكومة المحلية أو أنتقد على أعمالها ، فكلمكم تعرفون مثلى مواضع الخلل فى الإدارة ومواضع السكالم والانتظام ، وبديهى أن نوايس الوجود قاضية بسوء إدارة كل مصلحة وطنية يتداخل فى شؤونها تداخلا فعلياً رجال غرباء لا يفقهون لغة البلاد ولا يعرفون شيئاً من عوائد أهلها وأخلاقهم وليس غرضى كذلك أن أندد بحكومة جلالة الملكة أو بالامة الانكليزية ، لأنى أترفع عن أن أدافع عن بلادى بالطعن والسباب ، فضلاً عما أحس به دائماً من وجوب احترام الشعب الانكليزى ، وإنما الذى أريد ذكره وإيضاحه هو أن الخلاف حقيقة الخلاف بيننا معشر المصريين وبين بعض الانكليز هو : هل زمن الجلاء عن مصر حان أو لم يحن ، فدول أوروبا ذوات المصالح فى مصر تقول معنا إن زمن الجلاء قد حان منذ أعوام ، والمستر غلادستون زعيم الأحرار وأكبر سياسي انكلترا يقول ذلك القول بعينه غير خائف لوما أو تعنيفاً ، وبعض أبناء التاميز يقولون ضد ذلك إن زمن الجلاء لم يحن وإن مصر فى حاجة إلى وصى عليها

وقد نرى بعض المتحزبين للاحتلال الأبدى — وهم ليسوا من الانكليز ،
والانكليز لا يستطيعون أن يكونوا على رأسهم — يقابلون مطالبنا الشرعية بالسباب
والشتائم ، فهل يستطيعون اليوم أن يقولوا عن المستر غلادستون إنه عدو لبلاده
كما يتموننا بنكران الجميل ؟

وبعيد عن ذهني أنه يوجد على الأرض رجل انجليزي يحب وطنه حباً حقيقياً
ويستطيع القول بأن انكلترا تريد وضع يدها على وادي النيل ، فان ذلك الأمر
بل هذا الجرم العظيم مناقض كل المناقضة لمصلحة انكلترا نفسها ولشرفها العالى الشأن
والإفهل يرضى أبناء انكلترا أن يستعمل شرفهم آلة دينية لامتلاك بلاد حرة
واستعباد أمة حرة ؟ وهل ترضى الأمة البريطانية الغيورة على مقامها واحترامها أن
يقال عنها إنها لا شرف لها ولا احترام لكلماتها العلنية وعمودها الصريحة ؟ إنى لأظن
ذلك وأعتقد انكم كلكم على رأي

وهل تسمى المروءة مروءة إذا كان معناها أن أمة أوروبية استغاث بها أمير
شرقي فأغاثنه ونصرته ، ثم عملت لضياع ملكه واسترقاق أمته وشعبه ؟

إذن فنقطة الخلاف الوحيدة بيننا وبين بعض الانكليز هي أن زمن الجلاء على
رأينا حان ، وعلى رأيهم لم يحن إلى الآن ، وعهد كل عاقل بالأمة الانجليزية أنها
إذا وقفت على الحقيقة وأرشدت إلى الصواب كانت في مقدمة أمم أوروبا مطالبة
بالجلاء

وعسير على الأمة الانجليزية الوقوف على الحقيقة إلا إذا قام فيها خطباء من
أفرادها ومن المصريين أنفسهم يبطلون ما نذيعه التيمس واخوانها من ذوى الأغراض
السافلة من أن الانجليز لم يقوموا في مصر إلى الآن بالواجب عليهم ، ولقد سألنا
شيخ الأحرار غلادستون أن يكون لأبناء جنسه المرشد لأمته عن حقيقة مسألة
مصر وعن ضرورة الجلاء ، وأملنا أن يجيب طلبنا ويحقق أمنيئتنا

ولسكن إرشاد الأمة الانجليزية إلى ما ينتظره المصريون منها وما يعتقدونه في
شرفها لا يكون إلا برجال من أبناء مصر يقومون وينادون في كل بلاد أوروبا

بحقيقة أحوال مصر وأمانها وآمالها ليزيدوا من أنصارها . ويكون للوطن المصرى من الأمم الأوروبية نصراء عند مطالبته الأمة الإنجليزية بإجبار حكومتها على الجلاء ويكفيها لاستمالة الأمة الإنجليزية نحو مطالبنا الشرعية أن نقول لها بكل صراحة : لقد صار الشرقيون إلى ريب في احترامك لشرفك وشك في محافظتك على الوفاء بعهودك ، فهل لك أن تطالبي بالجلاء عن مصر لتحقيق للعالم كله بقاءك على عهدك الأول الشريف ، ولقد غرر بك أيتها الأمة الخطيرة بعض ذوى الغايات وقالوا لك إن الأمن لا يستتب في مصر وإن الخديو لا يستطيع حكم بلاده برجاله ، ليجبروك على الحكم بلزوم الاحتلال ، فاعتقدى أن ذلك محض اختلاق وأن الأمن مستتب والأمة كلها مخلصه لأميرها معجبة به محبة له وإلا فهل يرضى الانجليز بأن يقال عنهم إنه ليس في إمكانهم إعادة الأمن إلى ديار مصر بعد احتلالهم لها أربعة عشر عاماً ؟

إذا قلنا ذلك للأمة الإنجليزية وعرفناها أننا لا نبغض الإنجليزى ، بل نبغض المحتل من حيث هو محتل ، ولو كان من أقرب الناس إلينا ، لأننا أمة حية متمدنة نريد أن نحكم أنفسنا بأنفسنا ولا نرضى أن نبقى قصر آتحت حكم وصى ننظر إلى تقدم الأمم الأخرى نظرة الكئيب التعيس دون أن نستطيع محاكاتها ومجاراتها ، إذا قلنا لها ذلك وأسمعناها هذا الصوت ، صوت الحق ، كانت ولا ريب أول أمة قاضية على الاحتلال ، أمرة حكومتها بالإسراع بالجلاء ، لأن من شأن كل أمة متمدنة تمدناً عظيماً كالأمة الإنجليزية أن تحترم الشعوب المطالبة بحقوقها العارفة بواجباتها وإذا كان صالح مصر يقضى كما قلت بوجوب وجود خطباء من أبنائها يطوفون العواصم والمدائن في أوروبا معلنين آراءهم مجاهرين بإحساساتهم مطالبين بحرية بلادهم فوجود خطباء مثلهم في مصر نفسها يرشدون الأمة إلى الخير ويحذرونها من الوقوع في الشر أصبح أمراً محتماً

وغنى عن البيان أن الصادق في حب بلاده لا يعرف إلا عند الحاجة ، والوطنى لا يسمى وطنياً إلا إذا خدم وطنه في شقائه ، أكثر من خدمته له في رفعة وهنائه ولا ريب عندى في أنكم كلكم تودون مشلى أن تكون مصر بلاداً حرة ،

منتشرة في سائر أرجائها من الاسكندرية إلى منابع النيل أنوار العلوم والمعارف ،
وتصبح كما كانت مهدياً للفضائل والآداب ، مشرقاً لشمس المدنية في بلاد الشرق ،
مرسحاً للتنافس في الصناعة والتجارة ، مجمعة آمناً للأجانب ذوى المصالح فيها ، طريقاً
سهلاً للرائدين ، لا ريب عندي في أنكم كلكم تحبون أن تنتسبوا لمصر إذ يكون هذا
شأنها ، يفخر عندئذ كل منكم أن ينادى بأعلى صوته (أنا مصرى)

ولكن ألا تحبون كذلك ، مصر ، خيم عليها الشقاء وحل بها البلاء وسبقتها
الأمم وأصبحت تعد في مصاف الشعوب القاصرة ، تناديكم وأتم حولها : « ألافانصروني
يا أعز البنين ، ألافافعوا شأني بين الأمم واجعلوا لي مكاناً فسيحاً بين الشعوب
المتقدمة الحية ، ، أجل ! أجل ! تحبونها ويجب عليكم أن تحبوها وتحنوا عليها كما
يحن المرء على أمه الشفوق إذا اعتلت ويسمى في خدمتها ويبحث عن دوائها
ولا يكن حبكم واقفاً عند حد الحب وحنانكم عند الحنان ، بل ليتجاوزا ذلك
إلى العمل لخيرها واعلاء شأنها

وثقوا أيها الوطنيون الأعزاء بأن المستقبل لكم ولها ، فاعملوا لسعادتها ، وتذكروا
دائماً قول غمبنا الشهير ، ليس المستقبل بمستعص على أحد ، ، نعم لنعمل لسعادة
الحال والاستقبال ، وننفذ ناموس الطبيعة لئلا نخرج أنفسنا من نوع الإنسان ،
ذلك الناموس القاضى على كل فرد بالعمل حتى تستريح النفس في السكينة والظلام
ولقد كنت أحضر في أوروبا مجتمعات يتردد عليها كثير من الغربيين ذوى
الجنسيات المختلفة ، فكان كل يفاخر القوم ببلاده وذويه ، الأمريكانى بحرية أوطانه
وشرف تاريخها وحسن نظامها وكبار رجالها ، والفرنساوى بشهامة أبناء وطنه وفضل
جنسه على النوع الإنسانى وحرية مبادئه وشرف تاريخ بلاده العظيم ، والألمانى
والإنجليزى وغيرهم كذلك ، وأنا أنظر الجمع وأسمع الجميع وقلبي فائض حزناً وفؤادى
متلىء كآبة وعيناي مغرورقتان بالدموع ، وأيس يجرى على لساني غير ذكر مصائب
مصر وآلامها ، فهل لنا أن نفاخر الأمم يوماً من الأيام ببلادنا وأوطاننا ؟ هل لنا
أن نكون أمة حية قوية محترمة ؟

إني أومل ذلك ، وأؤمله من صميم فؤادي

ومستحيل علينا أن نصل إلى السعادة النامة ونفوز برغائبنا الوطنية إلا إذا اتحدت
كلماتنا واجتمعت قلوبنا على محبة البلاد بصدق وتجرد عن الشخصيات ، فلتتحد قلباً
ولساناً ، ولا يكن مثلنا مثل عائلة اشتعلت النار في دارها وأفرادها متباغضون ، فبدلاً
من أن يجتمعوا لإطفائها أخذوا يتنازعون ما أبقته يد النار من المتاع ، غير ناظرين
إلى أن النار تصل إليهم فتحرقهم وتحرق متاعهم وتقضي على دارهم القضاء الأخر
إذا لم تزل آثار الشقاق من بينهم ويجتمعوا على إطفائها

وإن يوماً تجتمع فيه قلوبنا على محبة البلاد وخدمتها وتتحد فيه كلماتنا يكون يوم
تحقيق الآمال وعنوان سعادة الحال والاستقبال ، ويحق لنا فيه أن نقف أمام الأمم
كافة وننادى بأعلى صوتنا وبكل نفار (نحن بنو مصر الأحرار)

(٢) خطبته بالفرنسية في الاسكندرية

يوم ١٣ أبريل سنة ١٨٩٦ (انظر صفحة ٧١)

(تعريب الخطبة)

أيها السيدات ، أيها السادة

إني أقف بينكم متكلاً وانفعال نفسي عظيم ، ولقد كان بودي أن أعتذر للذين
شرفوني بدعوتي إلى إلقاء هذه الخطبة لو لم يكن إحساسي بالواجب على دعائي لإطاعة
أمرهم والانصياع لرغبتهم ، فجئت إلى هذه الحفلة وفؤادي منشراح لأنني أخاطب نخبة
نزلاء الأثوريين ، أولئك العاملين بالنشاط ، الذين هم بيتنا طليعة المدينة الغربية
(تصفيق شديد) (١)

وبما يزيدني سروراً أنني واقف أمام جمعية أصدقاء لبلادي أوفياء لها ، لم يقصدوا

(١) لم يتيسر في غير هذه الخطبة معرفة المواضع التي صفق فيها بالضبط الحاضرون أو

التي أظهروا فيها علامات الاستحسان

بمجيئهم هذه الليلة سماع خطيب بليغ بل جاؤا ليظهروا علامة ودھم لوطنى ضعيف
ولمسألة مصر الشريفة الحققة

أجل أيها السادة ، يتكلم الإنسان أمامكم بكل ارتياح وافتخار عن الأوطان .
ويدافع عن حقوقها المهضومة ويطلب لها مستقبلا سعيداً ، فانكم كلكم تُنسبون إلى
أوطان شريفة حرة سعيدة ، وتحبون هذه الأوطان وتعشقونها عشفاً صحيحاً ولا
استطاعة لكم غير الموافقة للذين يحبون أوطانهم مثلكم (تصفيق متضاعف)

وإننا معشر المصريين نحب مصرنا الأسيفة بكل إخلاص ولا نود لها شيئاً
آخر غير يقظتها وسعادتها ، ولكن من سوء الحظ يوجد في هذا البلد طغمة من
الرجال يطعنون أشد الطعن على الوطنيين ، ويدعون مع ذلك أنهم المدافعون عن
الاحتلال الانجليزى ، على أنهم لو كانوا حقيقة المدافعين عنه لحسبوا عارا عليه
وخجلا ، فإن انجلترا نفسها لا تستطيع أن تبغض أو تحقر مصر يا وطنيا ، إذ من
ضمن الأسباب التى تنتحلها لنفسها للإقامة فى مصر تربية المصريين ، فهل من الجائز
أن يكون المصريون حسنى التربية من غير أن يكونوا وطنيين محبين لبلادهم؟ كلا !
(علامات استحسان)

ولقد كان أولئك الذين يدعون الدفاع عن الاحتلال الانجليزى يزعمون أنهم
أوقفوني إلى الأبد ، إذ يظنون بسذاجة لا مثيل لها أن الإجحاف الذى لحق أخيراً
بأحد أخوتي (١) يضعف قواى أو يوهن عزيمتى أو يقلل مجاهدتى فى سبيل سعادة
بلادى ، فأخطأوا الظن لأننى بعيد عن أن أمل ، وسأستمر بقدر استطاعتى فى المدافعة
عن وطنى العزيز ، سأستمر - ولا يوقفنى فى طريقى إلا الموت - فى وصف
مصائب مصر وآلامها والمناداة فى كل مكان بحقوقها المقدسة ، والمطالبة بحريتها
واستقلالها (تصفيق شديد متواتر)

وإننا نعلم حق العلم أننا بدافعنا عن مسألة بلادنا الشريفة وبتقديسنا لها نعرض

(١) يشير الفقيده إلى اضطهاد الانجليز شقيقه على فهمى كامل (بك) وكان وقتئذ ضابطاً
بالجيش المصرى (انظر ص ٦٩)

أنفسنا للضرر والخطر ، ولكن اعتقدوا جيداً أيها السادة أن همتنا لا تفتر أبداً ،
لحق بنا ضرر أم لا (تصفيق واستحسان)

فليس هناك من شيء أجل في عين الوطني من المجاهدة في سبيل بلاده ، فضلاً عن أن
المجاهدة بالنسبة لنا ليست أمر أصعباً ، إذ ضد من نجاهد نحن ؟ أضد الأمة الإنجليزية ؟
كلا ليس جهادنا ضدها ، إنما هو ضد فريق من الناس يعملون لتأييد الاحتلال
الإنجليزي في مصر إلى الأبد قضاء لأغراض شخصية أو أملا في تحقيق مآرب ذاتية
أجل ! إنا نجاهد ضد هذه الفئة التي اعضاؤها اعداء للحقيقة ، وضدهم وحدهم
نبذل كل قوانا فانهم وحدهم الآثمون الحقيقيون في مسألة مصر ، فهم ينشرون في
كل مكان عن حالتها الأخبار الكاذبة ويخلقون كل يوم حججاً سافلة واهية لإطالة
امد الاحتلال البريطاني وهو الحمل الثقيل الذي لا يستطيع تحمله (تصفيق)

ومن سوء حظ اولئك المشهورين بالمبالغة في الدفاع عن انجلترا ان اعمالهم
توصلهم غالباً إلى نتائج مخالفة للغرض الذي يعملون له ، لأنه كما قال حقاً فيكتور
هو جو : للحقيقة والحرية مزية خاصة بهما ، وهي ان ما يعمل ضدهما وما يعمل لهما
يخدمهما على السواء . (تصفيق شديد)

أما فيما يختص بالأمة الانكليزية فلا نستطيع إلا احترامها ، ومهما وقع فانا
نحترمها دائماً ، كما نحترم كل الأمم الأخرى ، إذ أنه لا يصح بغض أية أمة ولا يقضى
على شعب من الشعوب بخطأ بعض أفراد من أبنائه ، وإنا نعلم حق العلم أنه إذا
كانت الأمة الانكليزية موافقة على الاحتلال راضية به ، فذلك إنما هو لكونها
جاهلة لحقيقة إحساس المصريين لأنها لو كانت تعلم إحساسنا لأظهرت عدم رضاها
باحتمال ضار كهذا الاحتلال ولكانت ولا محالة قضت عليه (تصفيق) ولكن
وأسفاه قد تساق الأمم غالباً في أجهل السبل على يد من تثق به أكثر من غيره !

ولئن قالوا ليس في السياسة شيء من الشرف وإنما ليست شيئاً آخر غير الكذب
والخيانة ، فانا لانستطيع أن نتصور طرفة عين أن أمة بلغت من العظم والمدنية
مبلغ الأمة الانكليزية تجسر يوماً من الأيام على أن تخون علناً سريرتها وتحتمر أمام

الناس شرفها (تصفيق شديد متواتر) ، فانها على نسق كل الأمم غيورة على كرامتها التي يهدرها ولا محالة أن تطيل الاحتلال الانجليزي إلى أمد غير محدود وكل الذين يعرفون للشرف معنى يعتقدون مثل غامبتا ، أن ليس هناك سياسة حقيقية فعلية مشمرة إذا اعتدت القوة ولو لزمن مؤقت سربع الزوال على المبادئ الراسخة للعدالة والانسانية (تصفيق عظيم متواتر)

وإن هذه السياسة المؤسسة على مبادئ العدالة والانسانية هي السياسة الحقيقية بالأمة الانجليزية ، هذه الامة التي لاتزال محترمة معتبرة عند جماعة مقهورين مثلنا ، عند الذين يريد بعض سواسها أن يضحوهم هم ومستقبلهم في سبيل نجاح آمالهم الباطلة لقد رأينا من عام ١٨٨٢ أشد المناظر وقعاً على النفوس ، رأينا أكثر من ٦٠ ألف مصري ماتوا في التسجيلات التعيسة لأعوام ١٨٨٣ و ١٨٨٤ و ١٨٨٥ ، رأينا تقهر التعليم والتربية ، رأينا انحطاط الآداب العامة وفقر الفلاح والوطن نفسه ، وكم رأينا من أشياء مؤلمة ومناظر مفتتة للأكباد ، ومع ذلك كله قد حافظنا على سكينتنا وبقيت ثقتنا عظيمة بالأمة الانجليزية وبوعودها وبشرفها (تصفيق طويل) واليوم يسيئون مقابلة تساهلنا وصبرنا وسكينتنا ، ويخاطرون بالقاء البلاد وأبنائها في هاوية

أجل أيها السادة . يخاطرون بإلقاتنا في أعماق الهاويات وأخطرها ، إنى أريد أن أتكلم على حملة السودان

أما من جهة استرجاع السودان فكلنا نريده وكلنا يجاهر بذلك علنا كل يوم . فاننا نعتقد اعتقاداً صحيحاً أن مصر بدون السودان تكون أحقر أرض وأفقر بقعة في الدنيا ، وبطلبنا جلاء الجنود الانجليزية عن بلادنا لانطلب فقط تحرير مصر من الاسكندرية إلى وادي حلفا ، بل نطلب تحرير كل وادي النيل إذ لا يمكن أن يحكم النيل كله إلا بحكومة واحدة (علامة استحسان)

وإننا نود من صميم أفئدتنا أن نسترد المقاطعات السودانية التي هي لبلادنا روحها نفسها ، وإنتى قد أعلنت من جهتي هذا الإحساس عدة مرات ، وقلت منذ خمسة

أساييح لأبناء وطني من أهل الاسكندرية إن أعظم واجب على سمو الخديو عباس باشا هو إعادة أملاك مصر المفقودة اليها ، وأنا أعيد هذه الليلة ما قلته وما أقوله دائماً أبداً ، ولكننا ما أردنا قط ولا نريد أبداً أن نسترجع السودان تحت قيادة الانجليز (تصفيق شديد)

فإن وجود الانجليز على رأس جيشنا يكفي وحده لعدم نجاح الحملة ، يكفي لتحقيق مصيبة عظيمة ، وبوجودهم على رأس الجيش يحفرون بيننا وبين السودانين هوة من أعماق الحفر تؤخر لزمن مديد صلحنا معهم ، أولئك الذين كانوا من رعايا الخديوية المصرية

وفضلاً عن ذلك فإن الذي يجعل المصريين ناقلين من حملة دنقلة إنما هو سوء المقصد الذي يبدو عند كثير من رجال انجلترا السياسيين عند ما تتكلم الدول بشأن الجلاء عن مصر ، فإنا لانسکر هذه الحملة فقط لسكونها داعية لتعريض كل جنودنا لخطر عظيم ، وإن من إحدى نتائجها التي لسوء الحظ تبدو لنا مؤكدة إنشاء جيش جديد وجعل العساكر الانجليزية تحتل مصر كلها في الحدود كما في المدائن ، ولكننا نسکر هذه الحملة بنوع خاص لأنها تؤخر لزمن طويل تحرير بلادنا (تصفيق شديد) أجل أيها السادة ، انها تؤخر تحرير بلادنا وهو التحرير الذي نتمناه من كل قلوبنا والذي طالما وعدنا به

ذلك لأن انجلترا قد كشفت بيدها الغطاء عن مقصدها ، وليس هذا من الوقت الحاضر فقط ، بل من سنة ١٨٨٧ عند ما أراد السير درومند وولف أن يعقد مع جلالة السلطان اتفاقية المشهورة ، فإن جملة من المادة الخامسة كانت تشير إلى ذلك بالعبارة الآتية :

« إذا ظهر في ذلك الوقت - يشير إلى الوقت الذي عين للجلاء أي عام ١٨٩٠ - خطر داخل مصر أو خارجها ، وكان ذلك الخطر يستوجب تأجيل الجلاء تنسحب الجنود الانجليزية من مصر بعد زوال ذلك الخطر . . . »
فيهم إذن من اتفاقية وولف أنه كان يخشى ظهور خطر ما في وقت الجلاء .

وبعبارة أخرى كان في الحسبان أمر مسألة السودان وما يجري بيننا اليوم ، إذ أن خلق الاضطرابات وإيجاد الأخطار ليسا بالنسبة للسياسة الإنجليزية إلا أقل ما تنتججه يد التصنع (تصفيق مستمر)

وإذا كانت إنجلترا تريد بصدق نية وكرم أخلاق أن ترد السودان إلى مصر فكان يكفيها بلوغ هذه الغاية أن تنجلي عن القطر ، فإن الجلاء وحده يعيد لنا السودان

لماذا بقي السودانيون مصريين على عصيانهم ضد مصر؟ لما ذا لا يقبلون أى اتفاق معنا؟ لا ينكر أحد في العالم أن وجود الإنجليز في مصر هو الذى جعلهم بهذه الحالة (علامات استحسان)

(وبعد أن فند الخطيب الحجج التى يتذرع بها أنصار الاحتلال لبقائه ، رد على تهمة التعصب الدينى المزعوم للمصريين قال) :

اجل لتتكلم قليلا عن هذا التعصب الخيالى الذى يقول اعداؤنا إنه فى نفوسنا ، إن اعداء مصر يريدون ان يمثلونا امام اوروبا بهيئة قوم متوحشين مستعدين لافناء كل اوروبى ساكن بلادنا متى رحلت العساكر الإنجليزية عنا ، ولقد تطرف فى هذا الادعاء اولئك الأعداء ، فأرادوا ان يغشوكم اتم انفسكم ويسخروا من سلامة نيتكم ، حيث يكررون امامكم فى الجرائد وفى كل مكان هذه الأكاذيب وهذه الوشائيات ، كيف ذلك ، أيتجاسرون على ان يقولوا امامكم هذه الأقوال اتم ياوفى اصدقاء مصر وأعز ضيوفها؟ كيف يستطيعون ان يغشوكم بدناءة كهذه عن صفات أمة مودتها لكم علانية؟ أمة قابلتكم — ونقول ذلك بأعظم فخر — بأوسع كرم وسخاء ، إن القول بتعصبنا إنما هو ادنا أكذوبة

الأمة المصرية متعصبة ! وامصيتهاه ! اما ترون بأنفسكم ايها السادة انه إذا كانت فى العالم أمة صفتها الخصوصية اللطف والوداعة فانما هى ولا شك الأمة المصرية ، فإن الكثير من الأوروبيين يعيشون بأعظم سكينه فى القرى محتلطين اختلاطا دائما مع الفلاحين ، اى مع أكثر الناس تمسكا بالدين ، والبعض منها

يتاجرون في تجارتي الربا والخمور المحرمتين في الدين الإسلامي ، كل ذلك مع
ما لهم من الفلاحين من حسن العلائق ، فهل هذا من التعصب ؟

هل احتجتم مرة من المرات إلى عضد عسكري انجليزي ضد مصرى ما ؟ هل
يستطيع خصومنا ان يثبتوا ان جيش الاحتلال يحميكم ضدنا ؟ وان وجود
العساكر الإنجليزية ضرورى لسلامة حياتكم بيننا ؟ كلا ايها السادة . كلا . ؟
(تصفيق شديد جداً)

ليفقش أولئك الذين يتهموننا بالتعصب في كل تاريخنا ، وليبحثوا إذا كان الأوروبي
في زمن من الأزمان أسئث معاملته ، من الجائز أن يذكرنا الخصوم بالذكرى
التعيسة للثورة العسكرية المشنومة التي كانت سيداً في مصائب عديدة ، ولكن كل
رجل عاقل عادل يقول معنا إن تجاوز الحدود يقع كثيراً في المظاهرات الأهلية
الكبيرة ، والدليل على ذلك الثورة الفرنسية ، ولقد حصلت في كل البلاد اضطرابات
وهي حاصلة الآن وتحصل في المستقبل وفضلاً عن ذلك فإن التاريخ سيوضح لنا إذا لم
تسكن هذه الاضطرابات حدثت بأعمال رجال كان لهم قصد مخصوص (تصفيق)

ولماذا نذهب للبحث في التاريخ برهانا على تسامحنا الدينى ؟ أليس أمام أعينكم
اليوم أسطع البراهين على هذا التسامح الدينى الجميل ، أتظنون أنه إذا كانت أمتنا
متعصبة ، اما كانت تنهز الآن فرصة غياب كل قوة عسكرية ذات شأن لكي تقوم
وتحدث أى اضطراب ؟ أتظنون أنه إذا كانت الأمة المصرية متعصبة ، هل كانت
تسمح أبداً لأبنائها أن يذهبوا لمحاربة أمة أشد تمسكاً بالاسلام منها ؟ اليس الذين
يدعون اننا متعصبون في الدين يظهرون انفسهم بمظهر السخرية عندما يقولون
كذلك إن الأمة المصرية يزداد تعلقها بالاحتلال ؟ كيف إذن تكون الأمة في آن
واحد متعصبة في الدين ومحبة للانجليز ! (تصفيق عظيم جداً)

إن لأعدائنا مقصدين من القول بأننا متعصبون في الدين ، إهاجة الأمة ، وإلقاء
بذور الشقاق بين الأوروبيين والمصريين ، ولكن من حسن حظ مصر ان الأمة
حافظت على السكينة عارفة بقيمة الاعتدال الدينى وحسن معاملة الأوروبيين (تصفيق)
فلقد تعارفت أوروبا ومصر منذ قرن وأحبنا بعضهما فاعتبرت أوروبا مصر

قطعة منها — كما قال ذلك وأحسن القول الخديو اسماعيل — ومصر اعتبرت كذلك وجود الأوربيين بيننا كضمانة للتقدم والرفاهية (تصفيق طويل)

وإننا نعلم جيدا أيها السادة أنكم أحسن نصراء الجلاء ، لأنه من جهة موافق للعدالة والشرف الدولي ، ومن جهة أخرى لأن مصالحكم قاضية به ، أجل إن من صالح الأوروبيين النازلين في مصر أن يتحقق الجلاء لأنه إذا صارت إنجلترا مالكة لمصر تصير حياة الأوروبيين على شواطئ وادى النيل من الأمور المستحيلة ، فانكم هنا وكلاء المدنية الأوروية في العلوم والفنون ، كما أنكم وكلاؤها في التجارة والصناعة (استحسنان عام) ، واليوم الذى تصير فيه إنجلترا صاحبة مصر تضع يدها على كل شيء غير تاركة شيئا ما لأحد وتدعى عندئذ أنها الوكيله الوحيدة للمدينة أمام وادى النيل

إننا معتقدون كل الاعتقاد أن اليوم قريب حيث نترك وراءنا ماضيا مملوا بالحوادث لنسير سواء وبدنا في يديكم على طريق التقدم نحو أسطع مستقبل (تصفيق عظيم)

ومتى تخلصنا من هذا النظام الإدارى الذى وجهته فائدة بريطانيا العظمى وخرجنا من هذا الشتاء الطويل الذى استمر أربعة عشر عاما والذى كاد يميت أعضائنا نعيد السير ثانيا واثقين من حقنا ومن عطف الشعوب كافة وعدالتها (تصفيق شديد) وفى ذلك اليوم يكون تقدم مصر باهرا

ومتى تخلصت التجارة من الملل الذى يسببه لها الاحتلال الإنجليزي فستفتح لنا ولكم آفاقا ذهبية (تصفيق)

ومتى تخلصت الصناعة من العوائق التى يخلقها لها الانجليز فى الجمارك لغاياتهم فسترتقى الصناعة الأهلية وتعود فائدة رقيها على أبناء مصر وعلى ضيوف مصر (تصفيق شديد)

عندئذ يعقب الأزمات الكثيرة المتوالية السلام ، وتعقب الريب والشكوك الثقة ، ويعقب الموت الحياة (تصفيق متواتر)

فلنتمن جميعاً أيها السادة تحريراً عاجلاً لوادى النيل وسعادة أبدية لهذه الأرض
العزيزة ، أرض الفراعنة الأتجاد (تصفيق شديد متواصل وتهليل عظيم)

(٣) - خطبته في العيد المئني

لولاية محمد على

(٢١ مايو سنة ١٩٠٢ - انظر صفحة ١٥٨)

د عمل محمد على وواجبات المصريين نحو وطنهم ،

سادق وبناء وطني الأعراء

إني إذا وقفت الليلة أمامكم لأذكركم بمجد مضي وعظمة خلت ، وأحيي معكم
أكبر تذكاري في حياة مصر والمصريين ، فاني أعلم أنكم جئتم مرتاحين لسماع هذا
الخطاب ، وأنكم ترون مثلي أن خير احتفال يقام لأكبر عامل من عمال المجد
لمصرى ، هو المقارنة بين أيامه وأيامنا ، وأعماله وأعمالنا ، واستنباط عبر التاريخ
النافعة ، وعظاته البالغة ، وتمثيل الوطن في مجده وعظمته ، وإظهاره للعبون والابصار
على حقيقة الحالة الحاضرة ، أسيفاً كئيداً حزيناً ، مرتدياً ثياب الحداد ، باكياً على
أيام كان فيها حامل لواء الشرف والفخار بين الممالك والأقطار ، أى حال مصر
في هذا اليوم بعد مرور مائة عام هجرية على الحادث الخطير والأمر العظيم الكبير ،
على اجتماع الأمة واتفاقها حول رجل واحد واختيارها له أميراً عليها يدبر شئونها
ويرفع شأوها ويعلى مقامها ، أى حال حالها وأى موقف موقفاً وهي التي ملأت
الدنيا دويماً ونافتت أقوى الممالك في جلالها ، ثم انحدرت انحدار السيل من قمة ذلك
الموقف العالى حتى هوت إلى هاوية ذل وانحطاط وصارت مثالا للسكنة والهوان !

صبراً أيها الوطن المحبوب على بلواك ! فما ازدحم بنوك اليوم إلا ليفشدوا
أكبر العصور واجلّ الأيام ، ويجمعوا أمرهم بينهم على إحيائها بالجد والعمل
والوفاق والونام ، صبراً أيها الوطن العزيز صبراً ! فقد ناجت الضمائر الضمائر ،

وتفاهمت النفوس والخواطر ، وشعر كل مصرى بأنه الوارث لأفضل الأوطان
وأعز البلدان

صبراً صبراً ! فن الذى يرى ذلك الظل الممدود ، ظل مؤسس العائلة الحاكمة
(محمد على الكبير) ويبصر بعين بصيرته روحه الطاهرة ترفرف فوق الرؤس ،
ويسمع صوته العالى يذكر المصريين بأقدس الواجبات نحو الوطن وأهله ، وينظر
بعين الحقيقة إلى يده القادرة العاملة ، مشيرة إلى سبيل الفلاح والرقى ، من ذا الذى
يرى ويبصر ويسمع ذلك ولا يعتبر ؟ من ذا الذى ينتسب بدمه أو بماله أو بعلبه
إلى ذلك الرجل العظيم ولا تصغر نفسه فى عينه إذا رآها نفس رجل دون الرجال ؟
من ذا الذى يذكر منا مجد مصر فى عهد ذلك الأمير ولا يذكر أنه مسئول عن
زواله مطالب باسترداده ؟

أسمع المعترضين يقولون : عجياً عجياً ! أيؤمل الخطيب أن تنال مصر فى حاضر
الأيام أو فى مستقبلها ما نالت فى غابرها ، وتلبس من جديد ذلك الثوب الباهر
الفاخر الذى حسدتها عليه الليالى والحوادث وسلبته منها يد الغدر والانتقام ؟

أجل أيها السادة ! إن للمصرى أن يؤمل لبلاده مجداً كمجدها الماضى وعزاً
وسؤدداً وجلالاً ، كيف لا وحياة (محمد على) وأعماله كلها دروس ترشد المصريين
إلى أن تاج المجد لا يوضع إلا على رأس العامل المجد ، وان رايات الفخار لا تنال
إلا بالعمل والجهاد . وان أمة فتحت البلاد والأمصار يوم كانت لا تتجاوز ثلث
عدها اليوم قادرة على بلوغ غاية العز والرفاهية ونيل أسى مايرام من الحضارة
والعمران

كيف سار (محمد على) بمصر وكيف أنقذها من مهاوى الهلاك ، وكيف أخرجها
من عالم الظلمات إلى النور ، وكيف فتح بها وضرب وغلب وكيف ساد ولم يُسَدَّ ،
وكيف ملا من جنودها الديار وأخضع لسلطانها البحار والأنهار ، وكيف
رفع ذكرها إلى اعلى منار وجعلها عاصمة الشرق ومصدر الأنوار ، وكيف ابهج
هذا الثغر بتزاحم الجوارى فى ثغره ، وعمم المعامل والمصانع فى المدائن والقرى ،

ونشر المدارس والمسكاتب في انحاء البلاد ، واخرج من ابناءها نجوم علم وعرفان
يهتدى بهم ولا يضل بنورهم ؟

كيف وفق هذا الرجل العظيم لهذه العظام ؟ كيف اباد المفسدين والظالمين وجمع
القطر تحت لواء واحد وكان الف قطر في وطن واحد ؟ هل استعان بغير المصرى
على تحقيق غاياته أم استعار أمة من حديد ورجالا من صلب وأرواحا شبت بين
الموت والنار حتى ارتقى ذلك الجلال ونال من العظمة ما نال ؟

كلا ! لم يصل إلى ذروة المعالي راقصى غايات الرجال إلا بعقلك وبأسك ايها
المصرى العزيز ، فسلا ما والف مرة سلاما على هذا العزم المقبور وهذه الهمة
المدفونة ، سلاما على من نسى نفسه بعد أن أنسى العالم كل إنسان سواه

سلّمت الأمة المصرية أمرها لمحمد على والبلاد ممزقة بين المالكين يذيقونها أنواع
العذاب والنكال ، والشرع في أيديهم شرع الجور والاعتساف ، والقانون في قبضتهم
قانون الظلم والاستبداد ، والبلاد منقسمة على نفسها . اسمها مصر وهي ألف قطعة
وقطعة ، لا جامعة بين أهلها ولا رابطة بين بنها ، ولا راحة ولا نعيم ، ولا حرية
ولا عمل !

تولاها الرجل العظيم وهي عليه ضئيلة لا حراك بها ، فقطع دابر المفسدين
والأشرار وأزال دولة المالك كما يزول الغبار ، وانقضت تلك السلطة المريعة التي
قوضت أركان الدين والعقيدة وهدمت بنيان الوطن والأمة وما تركت فضيلة حتى
جنت عليها ولا رذيلة حتى مجدتها ، انقضت وكأنها ظل زائل أو سحابة صيف لم تدم إلا
قليلًا ، انقضت والعالم بين مصدق ومكذب يتساءل كيف أتيج لرجل واحد أن يحول
مجرى الليالي والأيام ويغير تيار الحادثات العظام

مضت أيام المالك ووقف (محمد على) ناظرًا إلى هذه الأمة ليرى أى أمر
تقدر عليه وأى عمل تستطيع ، فرآها بعد عهد الشقاء وزمن البلاء وأيام المحن والفتن
قادرة على القيام بأعظم الأعمال ، فيها من روح الحياة وقوة النهوض ما يزحزح الجبال
الراسيات وتخر أمامه الشم الثابتات ، فجنّد من أهلها الجنّد ، وأى جند جند ؟ جند
الغزاة الفاتحين حملة النصر والفخار ، جند من المصريين قوما لا تراهم أمة حتى تسلم

وتستسلم ، جند من أعلوا مكائنه ورفعوا رايته وجعلوا اسم مصر في كافة الأرجاء
والآفاق عنوانا للمجد الرفيع والشرف الصحيح

أخرج من أولئك الفلاحين الذين طالما تصرفت فيهم السكوارث كما شأت
أبطالاً وشجعاناً اهزت الأرض تحت أقدامهم إجلالاً واعظاءً ، وعجزت جيوش
العالم عن مجاراتهم ومناظرتهم ، بعث (محمد علي) من السكينة عزماً ، ومن السكون
همة واقداماً ، وسار جيشه من مكان إلى مكان حاملاً لواء الظفر والغلبة ، فائزاً في
كل بقعة بالنصر والفخر ، فما هذه الروح العجيبة التي نقلت بني مصر من حال إلى
حال حتى صار الجريح يأبى أن يغيب عن ميادين القتال ، والطفل ولوعاً بمناظر الحرب
والنزال ؟ ما هذا التغير الفجائي الذي اندهش لآثاره العالم طراً ؟ وأي سر جعل الأمة
المهضومة الحقوق المسلوقة الإرادة أمة فتوح وغزو وفوز ونصر ؟

السر في هذا الانقلاب وذلك التغير أن الرجل العظيم الذي تولى أمر مصر أدرك
أبواسع عقله أن في أمته كنوزاً من الشهامة والذكاء مدفونة فكشف عنها الغطاء
وأظهرها للعالمين ساطعة بهية تخطف الأبصار ، السر في ظهور المصريين على مسرح
العالم بمظهر القادريين أن (محمد علي) لم يترك لليأس سلطاناً على نفسه ولم يقف
في طريقه لأول عائق حاول منعه عن العمل ، بل اجتاز المصاعب والعقبات بعزيمة
ماضية وثبات دونه الحديد قوة وبأساً

اجتاز المصاعب ولم يرضه أن تكون مصر قوية في البر ضعيفة في البحر ، فوهبها
أسطولا ضخماً فخماً لم يمض على إنشائه وتكوينه أكثر من أربع سنوات ، وهبها
أسطولا كان في الصف الأول من أساطيل العالم تباهى به الاسكندرية تغور الأرض
وهو يباهى بها وبوادي النيل الدنيا ومن عليها

كان الغربيون إذا جاؤوا مصر زائرين يقفون أمام هذا الأسطول حائرين
مندهبين^(١) بهرتهم عظمة مصر وارتقاؤها سلم المعالي في قليل من الأعوام

(١) انظر تأييداً لذلك ص ٣٢٧

ما عساي أقول اليوم عن جيش مصر وأسطولها ، ولو نقلت إليكم كتابات
المنشئين والمؤرخين وآراء جماعات الكتاب عنها لخلتم هذا الوطن غير ذلك الوطن
ومصر غير مصر ، ولظننتم ان حادثنا استثنائيا محامة عاداها الزمان فلم يترك لها إرادة
ولم يلبسها غير لباس الوهن والاستسلام

رددوا الطرف معاشر المصريين في صحف التساريخ ، تروا أن مصر لم تكن
ميداناً للجنود والبحارة الممثلين لرفعة قدرها ليس إلا ، بل تبدوا لكم مصر المحبوبة
فوق ذلك في مصاف الأمم الصناعية ذات الشأن الأول ، تبدو لكم المدائن والقرى
مزدهمة بالصناع والعمال يحيون أطيب حياة ويخدمون الأوطان أشرف خدمة ،
تبدو لكم بولاق والخرنقش وشبرا وقلوب وشبين والمحلة الكبرى وزفتى
وميت غمر وفوه ومنوف وبيار والأشمونيين والمنصورة ودمياط ودمهور ورشيد
والاسكندرية والروضة والجيزة وبنى سويف والمنيا واسيوط وأبوتيج وفرشوط
وملوى ومنفلوط والفشن وطهطا وجرجا وقنا ، ميدانا للعمال والمصانع والورش
على اختلافها ، تبدو لكم بحلبها وحلبها زاهرة عامرة تسعد مصر والمصريين وتكفي
البلاد حاجاتها وتوفر لأهلها ثروتهم ولا تعطي الأجنبي من خيراتها إلا بمقدار

ارجعوا البصر كرة أخرى إلى مصر قبل عهد (محمد علي) وقارنوا بين حالها في
ذلك الحين وما صارت إليه في عهده ، تجدوا أرضاً بلقعا تحولت إلى رياض وجرنان
وفضاء واسعاً صار فيه الألوف والملايين يحرثون الأرض ويزرعون ويستثمرون ،
وشقاً تولى ونعياً أقام ، وفوضى زالت وأمناً استتب ، وزراعات جديدة دخلت
إلى البلاد فأحييتها وأمنت ثروتها وملأت نواحيها رغداً وسعداً

ومن ذا الذي يستطيع أن يقف أمام هذه الأمة موقف المحقق المدقق وينسكرك
على (محمد علي) فضله في إحياء اراضى القطر ونقل زراعة اليها وأياديه البيضاء على
كل من يعيش من الزراعة ويعكف عليها ؟ من ذا الذي ينسكرك اصلاحاته العديدة
في الري ، والقناطر البديعة التي أقامها والمصارف التي أنشأها والمشروعات التي
لاتزال قاعدة لكل اصلاح ؟ من ذا الذي يحارب الحقيقة والتاريخ ليتجاهل أن
مصر تجنى اليوم من ثمرات أعمال (محمد علي) عشرات الملايين من الجنيهات وأنه

صاحب الفضل الأكبر على كل فرد من أهلها والنزلاء المستوطنين بها
محال أن تخرج مصر واحداً من أبنائها يأنى على الحقيقة والوطنية إعلان فضل
(محمد على) والاعتراف بأعماله الجسام وأفعاله العظام ، ومحال أن ينسى مصرى تربي
في مهد العلم والأدب إحسان هذا الأب الكبير والمحسن البار العظيم ، وهو الذى
تعلم القراءة الكتابة بعد الأربعين ليسكون خير قدوة للبصريين ، وهو الذى فتح
المدارس والمكاتب وملاّ الديار نوراً وعرفانا ، وتولى تربية صغار الفلاحين
فبهر العالم المتمدن بفرط ذكائهم وعظيم استعدادهم للتعلم والانتقال من شأن إلى شأن
دعوا الصانع والمزارع ، وأسألوا كل متعلم في مصر : ماذا كان يسكون حالك
لو لم يعلم (محمد على) أبك من قبل ؟ أما كنت تسكون في ظلمات الجهالة بعيدا عن مشارق
النور والحياة والوجود ؟

أجل ، إن كل مصرى شب وتعلم وتهذب وعرف أن حياة الفسك والجد هي
الحياة الصحيحة وأدرك أن أسمى الهبات هبة العقل وأن أجمل حلية لهذه الهبة الغالية
تتقيفها بالعلوم والمعارف ، مدين لمؤسس العائلة الخديوية بما هو فيه من نعمة ونعيم
وانه لخلق بكل مصرى نال العلم بفضل (محمد على) أن ينتسب إليه بالروح والوجدان
انتساب بنيه وذويه إليه ويسلك السبيل الذى وجه الهمم والعزائم إليه ليلبغ
بالوطن والبلاد الشأل الأولى والمقام المحمود

أيها السادة : مهما بحث الباحث في حياة (محمد على) ومهما حكم على عصره
فانه لا يستطيع الا الاعتراف بانه أحاط مصر بسور من القوة والرهبة ، ورمى
إلى انشاء حكومة منتظمة فيها تدير أمورها على قواعد راسخة وأصول ثابتة ،
وجمع شملها فبعد أن كانت مفرقة موزعة على الممالك يتصرف كل واحد منهم في
الأموال والأرواح والأعراض كما يشاء وتشاء الأهواء صارت وطناً واحداً
لأمة واحدة يجمعها لواء واحد تحت سيادة أمير عظيم لا يذكر اسمه الا مقروناً
بالاحترام والاعظام

ومهما اختلف الناس في اعتبار نتائج أعمال (محمد على) فلا مرأى في أنه وهب

مصر عقلاً مدبراً وقلباً شاعراً وساعداً شديداً ومجداً تليداً ، وأنه وهب المصريين
وطناً وأمة وحكومة ولساناً ، وطبع على قلوبهم وأفندتهم محبة الوطن والشهامة
والإقدام وحبب إليهم الفتح والنصر ورفع الراية المصرية على كل صقع ومكان

انظروا معاشر المصريين إلى سياسته في حكومته تجددوها قائمة على مبادئ
ثلاثة لا تدوم دولة بغيرها ولا تحيا مملكة بغير إحيائها : وهي أولاً حماية الوطن
من اعتداء الأجنبي وسلطته ، ثانياً ترقية المصري إلى أسمى الوظائف وترشيحه إلى
استلام مقاليد الأمور حتى لا تحتاج البلاد لأجنبي يزاحم بينها ، وتدريب المصريين
على كل عمل وصناعة حتى تحفظ الثروة الأهلية في البلاد ويزداد الوطن عزاً ورغدًا
ونعيمًا ، ثالثاً الامتناع عن الدين واجتنابه كل الاجتناب

بأى قلب أم بأى ضمير أم بأى لسان أحدثكم عن حماية الوطن وصيانتها ومنع
اعتداء الأجنبي على ربوعه وصدده عن منازله ، ومصر اليوم تمثل الاستسلام
للانجليزى والرضوخ لسلطته ، والامثال لإرادته ، وهى التى ردتته عن الديار تحت
إمارة (محمد على) وفى ظل رايته ، وقالت له : مكانك أيها المهاجم ! مكانك أيها
الداخل ! مكانك أيها المزاحم ، إني أمة حية تأبى الضيم والهوان ولا تدرك
للحياة معنى بغير الحرية والاستقلال !

بأى قلب أم بأى ضمير أم بأى لسان أحدثكم اليوم معاشر المصريين عن
حماية آباءنا للوطن ودفاعهم عنه ونضالهم عن حوزته أيام (محمد على الكبير) وقد
حاولت انجلترا أن تقضى على هذا الملك الجديد وهذه الدولة الناشئة وتزيل من سماه
المجد والإقبال هذه الشمس المشرقة فأراها يومئذ بنو مصر أى أمة هم ، وأراها
(محمد على) أى امير هو ! فتركت الثغور والبلاد ، أسفة على فشلها ، معجبة بهذا
المجد الباهر والعزم القاهر والوطنية الحقة والهمة الحديدية

اعجبوا ايها المصريون لهذا الحادث الخطير ولتصرفات الليالى كيف افرحت مصر
وابكتها فى يوم واحد ، افرحتها فى يوم ١٤ سبتمبر من عام ١٨٠٧ حينما جلست
الجنود الانجليزية عن ثغر الاسكندرية بعد احتلال دام ستة اشهر ، وابكتها فى يوم
١٤ سبتمبر من عام ١٨٨٢ حينما دخلت الجنود الانجليزية عاصمة الديار المصرية

كوفت مصر في يوم بأ كبر مجد وأشرف نثار ، وعوقبت في مثل ذلك اليوم بعد خمسة وسبعين عاما باحتلال جر عليها العار والشنار ، كوفت لأنها صانت الوطن والديار ، وعوقبت لأنها سلبت البلاد وانشقت على نفسها ونسيت تاريخها وتناست مطاعم أعدائها وامتلات نفوس دعاة الثورة فيها بالانانية والأغراض الذاتية والآمال الشخصية ، فذهب الوطن فريسة ، وفدّمت الأمة على هيكل الدنيا ضحية ، وتولى المجد القديم والعز التليد وأقام الذل والهوان .

هذه عبرة العبر في التاريخ وموعظة المواعظ ، فالتقطوها معاشر المصريين الراغبين في خير البلاد ورفعها ، واذكروها في كل وقت وآن ، اذكروها ، وتأملوا في تاريخ ذلك الرجل العظيم ، تأملوا كيف كان يفتدب علماء الغرب وحكامه وسادات أدبائه وفضلائه ليعلموا المصريين العلوم والصناعات ، حتى إذا صاروا من رجالها وتحلّوا بنجالها سلمهم مقاليد الأعمال وكافأ المعلمين الغربيين على عملهم وزودهم بالشكر والإحسان

رأى محمد على أن الدين (بفتح الدال) أساس الاستعباد ، وأن أسى المبادئ الجديرة بالاتباع مبدأ القائلين « أدن تستعبد واستدن تُستعبد » ، فلم يستدن لأنه خطب السيادة ولم يخطب الاستعباد ، وطلب القوة ولم يطلب الضعف والمذلة حقاً انها لآية الآيات ومعجزة المعجزات ، كيف يشيد (محمد على) المدارس والمعامل ويقيم الأبنية للجنود والعساكر ، وينظم الري والفلاحة ، ويشكل جيشاً بلغ عدد رجاله مائتين وثمانين ألف جندي (٢٨٠٠٠٠) وأسطولا كان البحارة فيه لا يقل عددهم عن ستة عشر ألف بحري (١٦٠٠٠) وكانت إيرادات مصر إذذاك لا تتجاوز مليونين ونصف مليون من الجنيهات ، ثم لا يستدين عزيز مصر ولا يعرف الدين ولا الدين يعرفه !

اتتوني بعظماء الرجال وكبراء الأمم وفحول السياسة ، واعرضوا عليهم هذا العمل المدهش وهذه الآية الكبرى ، وأنا كفيل بأنهم لا يصدقون به ولا يؤمنون بها ، هل في طاقة رجل مهما بلسخ من العظمة وقوة الإرادة ان يقوم بهذه العظام ولا يتعثر في ذيله بالديون الثقالة؟ من هذا الرجل الذي تعدى حدود الطاقة البشرية حتى

استطاع أن يخرج أمة من الجهالة والظلمات إلى العلم والنور ، ويشيد فيها ملكاً قائماً على جيش عديد وأسطول قوى رهيب ومعامل ومصانع ومداس ، ثم لا يستمد بمال الغير ولا يستعين على أعماله بغير قوة البلاد وهي التي حملها الزمان من قبل ما يدك الجبال ويقل الإرادة الماضية ويودي بعزائم الرجال ؟

ما هذا المجد الفخيم الذي يحدثنا عنه التاريخ ؟ أين ذلك المصري الذي كان إذا جاب المدائن والممالك تحولت عن غيره الأنظار والتفتت إليه الشعوب بعيون الإعجاب والاعتبار؟ أين ذلك الذي إذا فاخر القوم ببلادهم أعطى المقام الأول ونال الشرف الأعلى وُعد وطنه في مقدمة الأوطان ومصره في الصف الأول من مصاف الأمصار والبلدان

أين عصره ، نقل عنه الناقلون أن الدول غدرت بمصر وحرقت أسطولها في ثغر (ناورين) وأماتت من بحارتها البواسل ستة آلاف رجل وتقدم ضابط فرنساوي بالخبر إلى رجل الحروب وبطل المواقع ابراهيم باشا ، فهز الأمير رأسه ساخراً وقال : « ما أنشئت السفن والبواخر إلا لتسكون فريسة النار أو البحار فلست بأسف عليها ، وإن أبي لقادر ان يجدد مثلها في عام او بعض عام ! »

أين ذلك العهد البعيد ليتعزى به المصري الحزين الأسيف ؟ أين هو ليعث في القلوب المستميتة شيئاً من الحياة القوة ، ويدل المصري على حقيقة موقفه وقيمه ومكاته ؟ أين هو ليخطب فيكم بلسان الحال فيبلغ من نفوسكم ما لا يبلغه لسان المقال ؟

أين كانت اليابان يومئذ ؟ أين كانت هذه المملكة الناشئة والدولة الفاخرة ؟ كانت — وكأنها لم تكن — في دياجى الظلمات وغياهب الجهل ، تعد إذا ذكرت في عداد الأموات . فقفاً أيها المصري فوق أطلال التاريخ وارقب الحوادث ، وانظر إلى أي حال صارت اليابان وإلى أي حال صرنا ، وما ذا كنا نبلغ من الشأن والشأ لو سلكنا ذلك السبيل الذي وجهنا إليه محمد على الكبير

ليس الموقف موقف حزن يميت النفوس بل موقف عظة واعتبار ، وان العبرة
الكبرى في حياة (محمد علي) والدرس المفيد الذي يلقيه التاريخ على أبناء هذه
الديار ، انهم لم يفقدوا العصبية والوحدة المليية ، ولم يقفوا في طريق التقدم على حين
استرسال غيرهم في السير إلى الامام إلا لانهم فقدوا الثقة بأنفسهم ونسوا ما قاموا
به من جلائل الاعمال

ثقة الأمة بنفسها هي الأساس الذي يبني عليه مجدها ويشاد عزها وسوددها .
ترى الأمة إذا اعتقدت الخير والقدرة في مجموعها وأفرادها تغلبت على الحوادث
والأيام وقهرت ألد أعدائها واجتازت المصاعب غير هيابة ولا وجلة

هذه أمم الغرب يترك الفرد من أبنائها بلاده ويطوف الأرض من جانب
إلى جانب ، وهو في كل مكان ينزل به قوى الجنان شاعر بأنه الممثل لوطنه الدال
عليه ، معتقد أنه رايته التي إذا أهيت أهين وإذا مُست بسوء قامت لاجلها بلاد
وقعدت ، وما هذا الاعتقاد وذلك الشعور إلا لأن الأمة وثقت ببعضها وارتبط
كل فرد ببقية أفرادها ، فصارت كتلة واحدة لا يعتدى عليها زمان ولا يجرؤ على
المساس بها إنسان

أما الأمة التي ظنت السوء بنفسها وتركت هذا الظن الفاسد ميراثا لأبنائها
وأحفادها فقل عليها السلام وأدعها أمة الموت والفتنا

لا يؤلم المصري المحب لبلاده مثل ما يسمعه ذات اليمين وذات الشمال من سوء
مظنة المصريين بأنفسهم وتناقض هذه الأقوال المميته للخواطر القائلة لسكل حركة
واردة من الكبير إلى الصغير وشيوعها حتى بين الأطفال الناشئين

ما هذا السم القاتل الذي تناولته الأمة عن طيب خاطر ؟ ما هذا البلاء المدمر
للبلاد الذي حل بها وتساقط على رؤوس أهلها وهم إليه ناظرون ؟ كيف تنسى هذه
الأمة العزيزة انها هي التي فتحت وقهرت وضربت وانتصرت وبهرت العالمين
بقدرتها وشدة بأسها ؟

لا ريب أن أصل هذا البلاء وجرثومة ذلك الداء إهمال أمر التربية الوطنية ،

ومحو آثار التاريخ المهذب للعقول والأرواح من المدارس والمكاتب ، التاريخ
التاريخ ! هو المدرسة الجامعة لكل طبقات الأمة والمعلم الذي يتأدب بأدبه الأمير
الخطير والوزير الشهير والعالم والطالب ، والفقير الصغير ، من ذا الذي يقرأ تاريخ
محمد على ويرى على صفحاته آيات الشهامة والبسالة التي حُلِّي بها المصريون أيامهم
وأسماءهم وأوطانهم ولا يشعر بأنه ينتسب لأمة عالية إن أهانها الزمان أياما فلسوف
يرغم على احترامها وإكرامها ورد سؤددها إليها ، من ذا الذي يسمع بتلك السفن
الجارية والجيوش الجرارة والمعامل العديدة والمدارس الجمّة والحياة العسامة
والاستقلال المصان ولا يرى نفسه من سلالة قوم فاتحين متمدنين جديرين بأن
يخلد مجدهم وتدوم أيامهم

يقول الجاهلون إن الزمان لم يترك من آثار محمد على شيئاً مذكوراً ، ولا يدرون
نه ترك شيئاً كبيراً ، ترك بذور المجد والمدنية ، ترك المواد الحيوية لإحياء الأمم
وإعلاء قدرها ، ترك العلوم والآثار

إن لم يكن إلا هذا الأثر - أثر العلوم والمعارف - فحسب العصر الماضي
شرفاً وفخاراً ، لأنه ألقى البنا السلاح الذي ما حارب الجمل والرديلة حتى تغلب
عليهما ، ألقى البنا مفتاح الرقي والتقدم وآلة المجد والغلبة وسُلّم السؤدد والمعالي
ونبراس الكمال ، ألقى البنا معدات الحياة ، فإن استخدمناها كما استخدمها سدنا
كما ساد وسادت الديار ، وإن أسأنا استعمالها أسأنا إلى أنفسنا وقضينا على الحاضر
والمستقبل شر قضاء

قد ينسى بعض المصريين أن (محمد على) تولى أمر البلاد باختيار أهلها وانتخابهم ،
وأن علماء مصر وأعيانها رفعوه إلى الإمارة بأيديهم في مثل هذا اليوم من مائة
سنة هجرية مضت ، وأن هذه رابطة أكيدة بين الأمة والعائلة الحاكمة لا يصح لأحد
أن ينساها ولا يلبق بمصرى أن يتناساها ، هذا إخاء بين الشعب والأمير لا تنفصم
له عرى ولا ينحل له رباط

إذا كانت مصر لم تذكر في بعض حوادثها الماضية وأيامها السالفة هذه الرابطة

وهذا الإخاء مما أودى بها وساقها إلى مهاوى الدمار والشقاء ، نخليق بها أن تذكر
الآن وفي كل آن هذا العهد المتين وتزداد بعرش الخديوية ارتباطا وتعلقا كلما مضت
الأيام وتوالت الأعوام

وكيف لا يذكر المصريون ذلك العهد ويبذلون الأرواح والأموال في سبيل
تأييده وصيانه وهو هو الحامي لبقايا المجد والاستقلال

في أي موقف يرى المصري بلاده الآن ؟ في موقف البلاد المستعبدة التي تنتظر
من وقت إلى آخر تحقيق وعود دولة متمدنة عظمى ولا تزف لها الأيام إلا مطالبا
في الوعد وبلاء على بلاء

دخلت انجلترا هذه الديار مدعية إصلاحها وتأييد عرش الخديوية المصرية
فيها ونشر أوية الامن والعدل في نواحيها وإعداد المصريين إلى إدارة شئون
بلادهم بأنفسهم ، ثم الجلاء عنها وتركها لأهلها ، فإذا عملت وأي طريق سلكت
وإلى أي نتيجة وصلت ؟

كان أول عمل للدولة الإنجليزية أنها قدمت الوعود والعهود للعالم كله بالجلاء
عن مصر ولو بعد حين ، وتركها لأهلها المصريين ، فاعتقد صدق أقوالها الكثيرون
من الشرقيين وقالوا :ه محال أن يكذب القوم المتمدنون ! ، لأنهم لم يكونوا ليعلموا
أن السياسة الغربية قائمة على مخالفة الوعود والنكث بالعهود ، وأن المدنية البريطانية
تطلب سيادة الامم من مثل هذا الطريق حتى صرح الساسة الإنجليز أنهم لم يقدموا
هذه الوعود وتلك العهود إلا للسذج والبسطاء ، وأنهم ينزهون العقلاء والحكماء
عن التصديق بوعد في السياسة أو بعهد في تدبير امتلاك الامم واغتتيال حقوقها ، فعلم
المصري يومئذ ما لم يكن يعلم ، علم أن انكثرا احتلت بلاده لتقيده بقيود الذل
والاستعباد ، لا لتضع على رأسه تاج الحرية والاستقلال ، علم أن وطنه صار مرمى
السهم البريطانية ، وأن حياته ومجده على خطر ، وسمع صوت البلاد يناديه الحذار
الحذار !

ولكن صوت الإنجليزى ارتفع ليدله على سائل الرضوخ للمذلة والاستماتة ،
ارتفع ذلك الصوت ، صوت العاملين على ابتلاع مصر مناديا بأن المصريين
لا يزالون أمة طفلة محتاجة لمرب حكيم ومرشد عليم ، فهل هم المرئي وذلك المرشد ؟
دلّ سلوك إنجلترا في مصر ويدل على أنها لا تريد لعرش الخديوية قوة ولا
للبلاد خيرا ، ولا للمصريين تقدما وارتقاء ، ونحن لانقول هذا القول جزافا بل نقدم
عليه ألف برهان وبرهان ، وما دام الانجليز يفاخرون ويفتخرون بحرية القول
والكتابة فانا نناقشهم الحساب ونسألهم امام الملاّك كنه عن نتائج سياستهم بعد عشرين
عاما ، نسألهم أين الأمن الذى ادعوا توطيد أركانه ؟ هل ازدياد الجرائم والجنح
والمخالفات وتعدد السرقات وكثرة اللصوص واعتراف النائب العمومى بذلك كله
وتفنى الأشرار فى اشعال النيران وحرق القرى والبلدان بما تفاخر به إنجلترا وتعدده
آية يحق لها أن تمن بهاعلى مصر والمصريين ؟ هل انتقال الوظائف من ايدى المصريين
شيئا فشيئا وخروج السلطة من قبضتهم وإماتة كل نفوذ لهم بما يرشحهم لاستلام
مقاليد الأمور والسير بالبلاد إلى الأمام ؟ هل محو كل روح وطنية فى المعارف
وقلب مدارس الحكومة حتى صار عاليها سافلها ، يؤهل المصريين للتقدم فى ميادين
الحضارة والعمران ؟ هل إنشاء المحكمة المخصوصة وتعالى المحتلين على المصريين
واعتمادهم على القانون والعدالة والنظام العام بما يؤيد المساواة فى البلاد ويزيد
القطر ارتقاء وانتظاما ؟ هل رفع العلم البريطانى على عاصمة السودان واخراج العدد
العديد من الضباط المصريين من الجيش بعد أن أبلوا ضد الدراويش احسن بلاء وقاموا
بأعمال تخلد لهم المجد والفخر مما يؤيد عرش الخديوية المصرية ويستوجب حمد المصريين ؟
هل بقاء الحكومة بغير سلطة مراقبة عليها من الأمة كما يشاء المحتلون مما يجعل مصر
فى بحبوحة الراحة والأمن ويوطد اركان الدستور فيها ؟

ذكرتُ الدستور وطالما ذكره الذاكرون من أنصار الاحتلال ورجاله ، فأين هو
الدستور ؟ أين ذلك الدستور الذى يلجم الحكومة بلجام من جديد ويهب الأمة حرية الرأى
والفكر وحق المراقبة على أعمال الحكام وسن القوانين والشرائع ومناقشة الوزارة
عن الصغائر والكبائر ؟ أين ذلك الدستور ونحن لا نرى الامستشارين من الإنجليز

يجركون الحكومة يمينا ويسارا ، ويتلقون الأوامر من رجل واحد ولا يحاسبون أمام أحد من أبناء هذه الأمة ؟ هل معنى الدستور سقوط السلطة المصرية وقيام السلطة البريطانية مقامها ؟

كلا ثم كلا ! إنما الدستور هو منح الأمة حق الاشراف على كافة الأعمال ومراقبة ما تجريه الحكومة لخيرها أو لضررها ، وسؤال الوزارة عن كل صغيرة وكبيرة ، وتغييرها بغيرها إذا أساءت استعمال السلطة أو تهاونت في خدمة البلاد ، الدستور هو ألا يستطيع أحد ، مهما كان عظيما ، وطنيا أو أجنبيا ، أن يمس القوانين والنظامات بشيء ، فهل يوجد رجل واحد في هذه الأمة يجرؤ على القول بأننا اليوم متمتعون بنعمة الدستور وأن المحتلين لو شاؤا تغيير أى نظام موجود أو خرق سياج أى قانون لا يستطيعون ؟

لعمري إن ما يسميه المحتلون وانصارهم بالدستور هو الفوضى في لباس النظام ، والاختلال في قالب الاحتلال ، والافان الضمانة التي تطمن لها القلوب والخواطر ؟ أين مجلس النواب المصرى الذى يقف في وجه كل طامع ويرد كل ظالم ، أين ذلك المجلس الذى وعدت به بريطانيا على لسان اللورد دفرين ؟ أين هو لتعتقد الأمة المصرية أن الدولة البريطانية لم تحتل بلادها الا لتسعد حالها وتعل شأنها وتوقف المصرى على مكائته وتعرفه أنه انسان له حقوق الانسان ؟

يظهر بعض الإنجليز اندهاشا من قيامنا ضدهم ، ولست أدري كيف أكيف هذا الاندهاش ؟ كيف أكيفه وهم أبناء أمة متمدنة تعرف معنى الوطن والوطنية وتدرك أن الحرية هي أسمى نعيم وأن صيانة البلاد من اعتداء الأجنبي أقدم فرض على أهلها ، كيف أكيفه وقد قال اللورد دفرين : « إنه يحق للمصريين أن يبغضونا من عميق قلوبهم إذا أقننا طويلا ببلادهم مهما أسعدناها واسبغنا عليهم من النعم ، لأن الاستقلال لا ثمن له ! »

نحن نرى من العار والخيانة عدم المطالبة بالجلاء ، نحن نرى من الجبن والاستماتة عدم المطالبة بالدستور أى بالنظام الذى تتمتع به الأمم المتمدنة ، ونحن نرى من موت الشعور وفقدان الوجدان السكوت عن حقوقنا الشرعية التى يعترف بها كل

انسان ، و نعتقد أن الانجليز أنفسهم يحترقون كل مصرى لا يرى هذا الرأى ولا يجاهر به ، لأنهم إن احبوا أن يخون الرجل وطنه لأجلهم ، لا يحبون الخائنين ، وإن كرهوا القائمين في وجوههم المدافعين عن بلادهم لا يستطيعون الا تعظيم الوطنية ورجالها أنى كانت وأنى كانوا !

أيها السادة ، أصبحنا بعد مائة عام قضينا جانبا منها في الجد والعمل وغرس بذور المدنية وفتح أبواب مصر والسودان للعالم المتمدن في آخر مصاف الأمم ، تمتاز عنا الصرب والبلغار وشعوب صغيرة لم تسكن في الحسبان ؛ بالحرية والاستقلال والاحترام العام ، فن البلية والشقاء والموت الأذن أن نقف متفرجين على حركة العالم ونترك الأمم الأخرى ترتقى منصة السمو والجلال !

هذه حياة (محمد على) لنا أن نستنبط منها ما يفيد البلاد في الحال والاستقبال ، لنا أن نضربها مثلا للأبناء والناشئين ليعلموا ان مصر كانت من القوة والبأس بمكان ، وانها تسكون كذلك لو طرقتوا ابواب الاتحاد والوثام وسلوكوا مسالك العزم والإقدام

لا تقوم مدينة مصر في مستقبل الأيام ولا يدوم لها شأن إلا إذا شيدت على الأمة وبالأمة وعرف الفلاح والصانع والتاجر والمعلم والمتعلم وكل فرد من افرادها ان للانسان حقوقا مقدسة لا يصح المساس بها ، وانه لم يخلق ليكون آلة بل ليعيش عيشة الأحياء ، وان حب الوطن هو اسمى شعور تتحلى به نفس بشرية ، وان امة ضاع استقلالها لامقام لها ولا شأن لابنائها

الوطنية ايها السادة ، هي العماد لكل مملكة والاساس المتين لكل دولة ، الوطنية هي الروح العاملة في كل بلاد العالم المتمدن ، الوطنية هي ام المعجزات وأصل كل تقدم وارتقاء ، الوطنية هي التي تنقل الشعب الجبلى إلى الحضارة والعمران والاقتدار وسمو القدر في قليل من الأعوام ، الوطنية هي الدم في عروق الأمم والحياة لكل ذى حياة

الوطنية هي الغذاء الذى يحتاج إليه جسم مصر وروحها قبل كل غذاء ، فقدموها

للأبناء في غدواتهم وروحاتهم وحركاتهم وسكناتهم ، واطبعوها على قلوبهم
أيها السادة ، إن الرجل العظيم الذي غير أحوال مصر وكساها حلة من المجد
والفخار وفق عمله بين مبادئ المدنية العصرية ومبادئ الدين الإسلامي الكريم ،
لأنه رأى ان في الإسلام كافة المواد الحيوية لا ترقى مدنية يشتهها بنو الإنسان ،
وانه الدين الذي يؤهل اهله وذويه إلى اسعد حالات الحياة وأتم نعيمها ، فاذا اقتدينا
به واعتمدنا على الإسلام وقواعده وأوامره وإرشاداته واخذنا من المدنية الغربية
فوائدها ومنافعها واعتبرنا بعبء التاريخ فتركنا النزاع الذي اضر بمصر والإسلام واجتنبنا
كل افتراق وشقاق بلغنا أقصى ما يرام من مجد وعز وسؤدد ومقام رفيع

وإننا لا نبغى في هذا الطريق الذي يدعونا لسلوكه كل محب لمصر معاداة أحد
من النزلاء أو الخروج عن خلة إكرام الغريب التي اشتهرنا بها ، بل إننا نشكر كل
أجنبي يساعدنا على خدمة الأوطان كما شكر أبائنا من قبل وكما شكر تاريخ مصر
سليمان باشا ، وفارين ، وسيجرا ، وكلوت بك ، ودي سيريزي ، وبسون بك ،
وجومار ، وجومل^(١) ، الا أننا نطلب الاحترام المتبادل والاشتراك في المنفعة
اشتراك إخاء ، لا اشتراك شحنا وبغضاء ، وإنه يسرني أن أعلن شكر الأمة المصرية كلها
لأولئك السكراء من النزلاء الذين شاركوها في مصابها بالخراتق الاخيرة والنوازل
المؤلمة ، جادوا بالأموال عن كرم وسخاء ، وخففوا بها وبصادق العواطف الآلام
عن المنكوبين

يحلولى أيها السادة أن اختم خطابي بكلمة قالها نابليون يوم دخل مصر ، قال
ذلك الرجل الكبير : « لا تُسكرون الأسماء العظيمة إلا في الشرق » ، فالشرق كان ولا
يزال ميدانا واسعا للجهودات الكبيرة والهمم العالية ، لا يزال الشرق مهداً لعظماء
الرجال وكبراء الشعوب ، وإذا كان قد حُرّمهم حيناً من الدهر طويلاً فما علة ذلك
الحرمان إلا اليأس والقنوط

(١) هم من المستشارين الذين استعان بهم محمد علي في نهضة مصر — انظر تفصيل

ذلك في كتابنا (عصر محمد علي)

فانزعوا اليأس من قلوبكم معاشر المصريين ، وطهروها من القنوط وسوء
الظن بالله وقدرته ، وابنوا مجدكم المقبل على الترية الوطنية السليمة الصحيحة ،
وضموا صفوفكم واجمعوا أمركم ليخرج من بينكم رجال عظاما يدلون ليسل
الأوطان بالنهار ويردون لها ما فقدت من استقلال ومجد وفخار !

(٤) - خطبته بالاسكندرية

يوم ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ (انظر ص ٢٥٦)

سادتي وابناء وطني الاعزاء.

بأى لسان اشكركم على مظاهر تنكم الودية لى وانعطافكم العالى على ، وليس
لى مطمع فى هذه الحياة إلا أن أراكم متفقين معى شعورا ورأيا ، وقد حققتموه
فأبلغتمونى اقصى ما أتمنى

(المبدأ وخادمه)

ألا إنى أعلم أنكم أردتم بمظاهر تنكم هذه أن تجيبوا اولئك الاعداء الظاهرين
والمستترين وتسمعوهم أصواتكم جهيرة وتقولوا للملأ كله إنكم أعوان الشعور
الوطنى وأنصار النهضة المصرية ، وأن خدام هذه البلاد يجدون منكم على الدوام
كل مؤازرة ورعاية

إنى أعلم انكم تعتقدون كما أعتقد أن الذين يهبون قواهم وأعمارهم لبلادهم لا يحسبون
لأشخاصهم وجودا مستقلا عن المبدأ الذى يعملون لنصرته ، بل يندمجون فى المبدأ
نفسه فشكل تحية اليهم فهى تحية اليه

ولذلك استقبل دلائل الحب والميل التى تظهرونها نحوى على أنها أكرام لأشرف
مبدأ قام ويقوم فى خدمة الانسان ، الا وهو مبدأ إحياء الوطن ورد مجده
واستقلاله اليه .

(حياة مصر بعد الاتفاق عليها)

أيها السادة ! إن مصر خطت فى الثلاث السنوات الاخيرة خطوات واسعات
فى سبيل النهضة الاهلية وأسمنت الامم والدول صوتا ما تعودن سماعه من قبل

ظن الساسة الانجليز أنهم إذا تفقوا مع فرنسا على مسئلة مصر طويت أوراق هذه القضية الخطيرة وخفت كل صوت ومات كل أمل وحل اليأس محل الرجاء ، وصار الشعب المصرى أثراً ككتلك الآثار القديمة التى يأتى السائحون لرؤيتها فى كل عام

ولكنهم أخطأوا خطأ كبيراً ، نعم أخطأ أولئك الساسة الذين يظنهم العالم كله أمهر الناس فى تدبير الشؤون وإعداد الحوادث ومعرفة المستقبل

أخطأوا لأن العزلة التى صرنا إليها بعثت فينا روحاً جديداً أرشدنا إلى الحقيقة التى لا قوام لشعب بدونها ولا حياة لأمة بغيرها ولا وجود لنفر من الناس إذا لم يتبعوها ، وهى : أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بجهودها ، وأن الشعب كالفرد لا يسكون آمناً على نفسه إلا إذا كان قوياً بنفسه مستجمعا لكل عدد الدفاع وآلات الذب عن الشرف والمال والحياة

نعم فقهنا أن الشعوب التى لا ترجو الرقى إلا بمعونة جيرانها وأصدقائها ولا تحفظ استقلالها إلا بالاعتماد على حلفائها ، هى شعوب فى خطر ، وحياتها مهددة فى كل وقت

دهش الذين كانوا لا يرون فينا إلا أمواتاً تتحرك كما بُهت أعداء الوطنية المصرية من هذه الروح الجديدة التى دبّت فى الأمة وقالوا : عجبا أيحيا هذا الشعب ؟ أتنهض مصر بنفسها ؟ أتعمل للاستقلال وحدها ؟ أتقدر على تحقيق مطالبها بمحض إرادتها ؟ أتقاتل اليأس والقنوط وتتغلب على الحوادث والكوارث ؟

أجل وألف مرة أجل ! إن مصر بالغة آمالها ومحقة أمانها بإرادتها وهمتها ، انكم تقولون يا أعداء مصر اننا عشنا القرون الطوال أذلاء تعساء يحكمنا الغير وتبديل السلطة الأجنبية ، ولا يتبدل شقاؤنا ، وتجعلون هذا القول حجة علينا ودليلاً على أننا خلقنا للذل والهوان ، وأن السيادة الأهلية لن تسكن وادى النيل أبد الزمان ! كذبتهم وحق مصر يا أعداء مصر ! كذبتهم على الله والناس ، فما بقاء هذه الأمة بعد اشتداد الإحن والمصائب وتعدد الإهانات والنواب ووجود الروح الوطنية فيها

بعد كل ما كان ، إلا دليل قاطع على أنه قدحان الوقت لأن تسترد حقوقها المسلوقة
وتسترجع مكاتها في الوجود ، تقولون يا أعداء مصر انها لبثت زمنا طويلا مكبلة
بقيود الذل والاستعباد ، وتساءلون كيف تعيش بعد ذلك في سؤدد واستقلال ؟
وفاتكم أن ذلك الماضي المظلم يزيدنا تمسكا بحقنا في مستقبل مضي باهر ، نسيتم أن
الشقاء المديد أدعى إلى هناء مثله مديد ، وأن شعبا قضى القرون وقواه لا تنصرف
إلى خير الوطن يكون أقوى شعوب الأرض يوم يوجهها إلى هذه الغاية السامية
تقولون يا أعداء مصر أننا لو أفلحنا لما نلنا هذا الاستقلال إلا بعد حين طويل ،

فنجيكم أننا لو سلطنا بقولكم لما جاز لنا أن نتأخر لحظة واحدة عن العمل
لأننا لا نعمل لأنفسنا ، بل نعمل لوطننا ، وهو باق ونحن زائلون ، وما قيمة
السنين والأيام في حياة مصر وهي التي شهدت مولد الأمم كلها وابتكرت المدنية
والحضارة للنوع الانساني كله !

إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع ، ونحن نرى من
الآن هذا الاستقلال المصري ونبتهج به وندعوه له كأنه حقيقة ثابتة ، وسيكون
كذلك لا محالة !

فمهما تعددت الليالي وتعاقبت الأيام ، وأتى بعد الشروق شروق وأعقب الغروب
غروب ، فاننا لانمل ولا نقف في الطريق ولا نقول أبداً : لقد طال الانتظار !
إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم
في ماضي الأيام وحاضرها ، وأعلى مطلب ترمى إليه في مستقبلها ، فلا الدسائس
تخيفنا ولا التهديدات توقفنا في طريقنا ولا الشتائم تؤثر فينا ولا الحيانات تزعجنا ،
ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التي تصغر بجانبها كل غاية

نعم إننا لو تخطفنا الموت من هذه الديار واحداً بعد واحد لسكانت آخر
كلماتنا لمن بعدنا : كونوا أسعد حظا منا ، وليبارك الله فيكم ويجعل الفوز على
أيديكم ويخرج من الجماهير المئات والالوف بدل الأحاد للبطالة بالحق الوطني والحرية
الأهلية والاستقلال المقدس !

بلادى ! بلادى ! لك حبي وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمي ونفسي
لك عقلي ولساني ، لك لبي وجناني ، فأنت أنت الحياة ولا حياة إلا بك يا مصر !

(حب مصر وإحيائها)

يقول الجهلاء والفقراء في الإدراك إنى متهور في حبها ، وهل يستطيع مصرى
أن يتهور في حب مصر؟ إنه مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التي يدعو إليها جمالها
وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها

ألا أيها اللامعون انظروها وتأملوها وطوفوها واقروا صحف ما ضيها ، واسألوا
الزائرين لها من أطراف الأرض هل خلق الله وطناً أعلى مقاماً وأسمى شأناً وأجمل
طبيعة وأجل آثاراً وأغنى تربة وأصفى سماء وأعذب ماء وأدعى للحب والشغف
من هذا الوطن العزيز ؟

اسألوا العالم كله يجكم بصوت واحد أن مصر جنة الدنيا وأن شعباً يسكنها
ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها ، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح
في حقها وسلم أزمته للأجنبي

إنى لو لم أولد مصرياً لوددت أن أكون مصرياً !

قد يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصرى بما
لا يلبق بانسان ، ولكن اى شرف يطمع الحرف فيه اكبر من العمل لإحياء الأمة
التي سبقت الأمم كافة في العلم والمدنية والأدب؟ اى رفعة يسعى الشريف إليها
أسمى من إنهاض شعب كان استاذاً لشعوب البشرية ومربي العالم كله؟ اى سؤدد
ترمي النفوس الأبية إليه أعلى من إخراج الوطن المصرى من الظلمات إلى النور
وإحلاله المحل الأول بين الاوطان الأخرى التي كانت في الدجنة الحالكة يوم
كانت بلادنا مشرقاً للعرفان ؟

ليت شعرى ، أى لذة وسعادة ومكافأة يطلبها الوطنى المصرى أكبر من اشتراكه
في هذا العمل الخطير الذى هو أجل عمل يراه العالم في القرن العشرين ، إن المكسب
الأدنى للوطنى المصرى من هذه الخدمة يربى على اتعابه ومجهوداته بكثير

(متطرفون !)

أيها السادة ! يروق لبعض الجهلاء والمسخرين لخدمة الإنجليز ان يلقبونا « بالمتطرفين، ويقسموا الامة فرقا راقساما، وما دروا أنه لا يصح ان يوجد في البلاد الفاقدة استقلالها المتحكم فيها الاجنبي إلا حزب واحد هو حزب الوطن، حزب الحرية، حزب الاستقلال، وقد جهلوا او تجاهلوا انه ليس للبلاد التي يحتلها الاجنبي إلا سياسة واحدة: وهي سياسة المطالبة بالاستقلال، وان كل قول او عمل يؤدي إلى إضعاف الروح الوطنية وهدم جزء او كل من ثقة الامة بنفسها وبمستقبلها هو اكبر اذى يلحق بالبلاد، نسوا أن قانون الحاكم في معاملته للحكوميين خاضع لدرجة احترامه لهم، فان رأهم امواتا في ازياء احياء يقولون مالا يعتقدون ويطلبون منه الإصلاح كما يطلب السائل الإحسان لا كما يطلب صاحب الحق حقه، استبد فيهم وسخرهم للسلطة كما تسخر الانعام !

نلقب بالمتطرفين ! ولماذا ؟ لأننا نطالب بحقوق مصر واستقلالها ! لأننا نذكر انجلترا بشرفها وعهودها ووعودها ! لأننا نقول لها بصوت الحق والاعتقاد القوي إن المستقبل يكفل ذلك الاستقلال وإنه خير لها ألا تقاوم الحوادث فيما بعد، وألا تحاول إعدام أمة خلقها الله للحياة والعمل !

متطرفون ! لأننا نعلن ثقتنا الكاملة بمستقبل بلادنا، ونقول لهذه الامة في الصباح والمساء: اليوم عسر وغدا يسر، واليوم أسر وغدا فخر، اليوم احتلال وغدا استقلال، اليوم عناء وشقاء وغدا رخاء وهناء !

متطرفون ! لأننا نقول للامة اعلمي وحافظي على السكينة، إياك والقلاقل، فهي تخدم العدو وتضر بالوطن، إياك والانقسامات فانها منشأ الخراب والدمار، إياك وهوس العداوات الدينية فانها آفة الآفات وجالبة المحن، إياك وسوء ظن الملا المتمدن بك فان الشعوب في المدينة متضامنة ويا شقاء من سار ضدها !

متطرفون ! لأننا نقول للامة خذي من العلم أوفر قسط وتسلحي بأسلحته واملائي وادي النيل من نوره، وردى إلى الفقير حقه ونصيبه من هذا المنهل العذب !

متطرفون ! لأننا نردد تهمة العدو ونثبت للعالم كله أننا متمدون وأنه ليس للتعصب
بيننا وجود وأن الإسلام عامل قوى لترقية الأمة ونشر أنوار المدنية فيها
متطرفون ! لأننا رفعنا أصواتنا محتجين على فظيعة الفظائع في دنشواي
وعارضنا السياسة الإنجليزية في دعاوينا ووقفنا في وجوه أعدائنا والحق سلاحنا
والصراحة عدتنا والإقدام مطيتنا

متطرفون ! لأننا نمثل مصر للأمم تتدفق حياة ونشخصها قوية ناهضة شريفة
المقاصد أية لا ترضى المذلة ولا تعرف الكذب والخداع

متطرفون لأننا لانطلب استعمار بلاد الغير ولا استعباد شعب من شعوب
الأرض ، بل نقنع بطلب الاستقلال لوطننا

فان كنا نعتبر متطرفين لأننا نعلن ذلك كله ولأن هذه خطتنا ، فأكرم بالتطرف ،
ويا فخارنا بأن نلقب بالمتطرفين !

من منكم لا يفخر بأنه متطرف ، وأيكم لا يريد أن يسكون سائر المصريين
متطرفين ؟

وهل يسكون الاعتدال في هذه الحالة شيئاً آخر سوى الخوف والجبن والرياء
واستعمال خطتين واتساع سياستين ومخاطبة الناس بلسانين ؟ ومن ذا الذي يرضى
لنفسه ولقومه بهذا الاعتدال وما هو في الحقيقة إلا المذلة في أبشع مظاهرها والموت
الشنيع الموجب لاحتقار الأمم جمعاء

عجبا ! عجبا ! أنلقب نحن بالمتطرفين لأننا نطلب استقلال وطننا من أشرف السبل
وبأكمل الوسائل ولا نريد أن نتعدها بالاعتداء على أحد ، على حين أن الإنجليز لم
يسكتفوا باستقلال وطنهم بل احتجبوا الأمم وتوسعوا في الاستعمار وملكوا
البحار ولا يزال أكثرهم يقول : هل من مزيد ؟

هل هم يلقبون بالعقلاء المدبرين لأنهم انجليز ونلقب نحن بالمتطرفين لأننا
مصريون ؟ هل الوطنية التي تروق وتعجب هناك تؤذى وتؤلم هنا ؟

هل مصر دون بريطانيا في الجمال حتى تحدد محبة المصريين لمصر ولا يعرف لحب
الإنجليز لبريطانيا حد ؟

كلا وإيم الحق كلا ، إن مصر جديرة بأن تُحسب بكل قوة ، بكل عاطفة ، بكل جارحة
بكل نفس ، بكل حياة !

لا عجب إذا وقف من لا يعرف هذا الحب باهتاً أمام من يعرفونه ، لا عجب إذا
دهش الذي لا يتألم لمصاب وطنه ولا يشعر بأوجاع بلاده عن يتألمون ويشعرون
لا عجب إذا كان الذين خلقوا وقلوبهم من صخر يعدون وطينة من ولدوا ولهم
قلوب إنسانية جنونا في جنون

(أعداء الوطنية)

أيها السادة ، لا يجمل أحد منكم أن الحركة الوطنية المصرية أزججت محبي
الاستعمار من الإنجليز فخاربوها بدنشواى فخابوا ، وبزيادة جيش الاحتلال
فأخفقوا ، وبتهمة التعصب الدينى ففشلوا وأضحكوا العالم طراً ، وهام الآن يحاربونها
بالخونة والمنافقين بعد أن عهدوا الأمر للدخلاء طويلاً فلم يبلغوا منا مأرباً ، وإنهم
لمخفقون أيضاً في هذه السياسة الجديدة ، إنهم لو جردوا جيوشاً من أعداء الحركة الوطنية
المصرية فإنها لا تزداد أمامهم إلا قوة وحمية وثباتاً واقداماً

ليقلبوا نظام التعليم ما استطاعوا وليحاربوا الناشئين ما أرادوا ، فإن رجال
الغد لا يسكونون إلا مصريين ووطنيين متشربين بمحبة بلادهم متطلعين لأن ينيلوها
من المجد والسؤدد أسمى مما نالت الأمم الأخرى ، لينفقوا الأموال ذات اليمين
و ذات الشمال لشراء الضمائر الخربة والنفوس المنحطة ، فانهم إن كسبوا فرداً واحداً
قام من الوطنيين الصادقين العشرات لهدم ما يبنون ودك ما يقيمون

إن أمة دبّت فيها روح الوطنية وطمحت نفسها للاستقلال لا تموت أبداً ، وإن
صواعق السياسة كلها لا تحول ضميراً لا ذ بالوطن عن وجهته !

أيها السادة ، إن الوطنية واحدة لا تعدد ! وقد يضل الإنسان في أمور كثيرة
ويخطئ في مسائل عدة ، ولكن إذا كان هناك شعور لا يضل الرجل فيه ولا يخطئ .
أبدأ في تقديره وتكليفه وإظهاره بكل مظهره فهو الشعور الوطنى ، لا يحتاج المرء
إلى علم ولا إلى فلسفة ولا إلى خبرة وتجارب ليقول إذا سأله سائل : ما رأيك

في مسألة احتلال الإنجليز لبلادك ؟ : « إن خروجهما غاية آمالي وإن العمل له
أقدس الفروض المحتمة عليّ » ،

إن أجهل الشعوب وأبعدها عن العلم والحضارة والمدنية تشعر بهذا الشعور
لأنه طبيعي ولا يكون الإنسان إنساناً إلا به

لذلك كانت ضجة الأمم شديدة ضد من قالوا بإماتة هذا الشعور ونادوا بأن الوطن
خيال وأن الراية قطعة من قماش وأشاروا باعتصاب الجنود لو قامت الحرب ودعت
الأمّة أبناءها الأشداء للذب عنها

انظروا إلى فرنسا وهي الدولة التي امتلأت صحف تاريخها بذكر الوطنية وآثارها
الفخمة وورث الأبناء عن الآباء فيها حب الوطن والدفاع عنه حتى صار هذا
الشعور مقدساً لا يقربه أحد بسوء ، كيف تهتز الآن من شمالها إلى جنوبها ويقول
خدامها الأمتاء بأعلى أصواتهم :

« حذار حذار من «هرفي» وأنصاره فانهم يريدون هدم بناء الوطنية الفرنسية ،
أي بناء المجد الحقيقي والحياة العالية ، وإن عدوى أفكارهم أضرت بفرنسا من كل
جيش فاتح ،

فاذا كان هذا مبلغ سخط الشعوب القوية الراقية على أعداء الوطنية ، فكيف
يجب أن يكون سخطنا شديداً عليهم ونحن أحوج شعوب الأرض إلى هذا
الشعور الذي لانال حقاً إلا به ولا نبلغ مأرباً إلا بفضل

إننا ما رأينا وما سمعنا ولا روى لنا التاريخ أن أمة سلبت حقوقها واختلس
استقلالها وضربها الأجنبي ضربة الاستبداد والاستعباد يقوم من أبنائها من يجد
هذا الأجنبي ويقول له :

« أنت السيد وأنت المنعم فافعل ما شئت ؟ »

أسمعتم أن ارلنديا واحداً قال هذا القول ؟ أوصل إليكم أن بولونيا من أجهل
بولونيين طأطأ رأسه أمام الحاكم الأجنبي ؟ أم علمتم أن صغار البولونيين أدهشوا
العالم كله بتمسكهم بوطينتهم ؟

إن من يظن أن الإنجليز يحبون الخونة يخطئ خطأ كبيراً ، نعم إنهم

يستخدمونهم لأغراضهم ولسكنهم يحترقونهم أشد الاحتقار ، لأن شعباً ينشأ الفتي فيه وهو يرى امتلاك الارض ومن عليها حقاً من حقوق أبناء جلدته لا يعتبر الحياة إلا جناية الجنايات

أين كانت تكون عظمة انجلترا وسلطانها لو كان فيها من الخائنين من ترى مصر ، هل كانت تسود الأمم وتملك رقاب الشعوب وتبلغ من الثروة والسؤدد هذا المبلغ ؟ كلا وأيم الحق كلا ، إنها كانت تكون ممزقة الوجود متفرقة الكلمة متباينة الآراء يلعب بها الأجنبي ويسيرها في الطريق الذي يختار

فلا قوام لأمة ولا سلامة لبلاد إلا بقوة العقيدة الوطنية ، ولاتدرك الشعوب هذه القوة إلا إذا كانت شديدة الحكم على من يتلاعبون بالوطنية ، قاسية في تأديبهم ومعاقبتهم

سمعت البعض يقول عنى إني شديد في تقريع من خالفوا الواجب الوطني ومالوا عن مصلحة البلاد ، فأجيبهم اليوم بأنه إذا صح التسامح في بعض الأمور وفي ظروف معينة فإن التسامح في الوطنية إعدام لها وقضاء عليها ، وإن من يتسامح في حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان

(سياسة المغالطة)

ينادى البعض في هذه الأيام بأن كلمة الاستقلال توجع الإنجليز وأنه أشير عليهم من بعض أنصار مصر في انجلترا بأن الأصح والأوفق الاكتفاء بطلب الإصلاح وإهمال مسألة الجلاء والاستقلال ، أو على الأقل تأجيلها إلى حين ، ويعمل ذلك البعض لترويج هذا الرأي ويندفع في طريقه طاعنا في المطالبين بالاستقلال قائلاً إنهم منطرفون !

وإني لمفصح الآن أمام الأمة كلها عن رأي في هذه السياسة التي يتوهم ذلك البعض أنها أكبر ضرب من ضروب الدهاء

(أحرار الإنجليز ومصر)

إن العمل بآراء الإنجليز الذين يشتغلون بمسألة مصر في إنجلترا ليس مما يطالب به مصرى ، لأن هؤلاء الإنجليز يعملون لخدمة إنجلترا بالذات ، فهم يريدون أن تكون سياسة بلادهم سياسة لين ومهارة بدلًا من أن تكون سياسة شدة وصلابة ، وهم أن اتفقوا معنا في بعض المسائل قد يختلفون في الجوهر ، ولذلك نرى بعضهم يرى بمزيد الاستياء الحركة الوطنية الداعية إلى الاستقلال

فنحن مسلوبون والإنجليز هم السالبون ، ونحن طلاب حق مقدس والإنجليز هم معتصبو هذا الحق ، فلا سبيل إلى الاتفاق بيننا وبينهم إلا باعترافهم بحقنا وردّه إلينا أما القائلون بأنه يتم الاتفاق بين المصريين والإنجليز على أساس تضحية الشرف البريطاني ، وتضحية استقلال مصر ، أى خيانة المصريين لوطنهم وخيانة الإنجليز لشرفهم ووعودهم وعمودهم ، فانما يوجهون إلى الأمتين أكبر مسبة ويطلبون اتفاقًا باطلا ، وأى احترام لعقد أساسه الخيانة الصريحة ؟ إننا نشكر كل إنسان ينصف مصر ويعترف بحقوقها كلها أو بعضها ، ولكننا لا نتقيد برأى أحد ولا نتأثر بسياسة خاصة ، بل يجب أن نكون خدام العقيدة الصحيحة السليمة ، خدام العقيدة الوطنية

فان قال المنتصرون لمصر في بعض أمورها من أحرار الإنجليز إن المطالبة بالاستقلال تؤلم قومهم وطالبونا بالعدول عنها ، وجب على كل مصرى أن يجيبهم قائلا : « لكم دينكم ولى دين ،

(فساد سياسة المغالطة)

يتوهم أنصار سياسة المغالطة أنهم مهرة قادرين وسياسيون نحنكون ، فلذلك هم يريدون أن يخذعوا الدولة الإنجليزية ويغلبوها بقوة الدهاء ، هم يقولون : « لنهجر طلب الاستقلال ولنطالب الإنجليز بالإصلاحات الداخلية مثل تأسيس مجلس نيابى ونشر التعليم حتى إذا صرنا أصحاب الحول والطول في البلاد قلنا لهم : « انجلوا عنها ، فلا يستطيعون إلا أن ينجلوا خاضعين ممثلين

اللهم إني أعتز بأني لست من المهرة في السياسة حتى أدبر مثل هذا التدبير وأصرح بأنه لم يخطر لي لحظة واحدة على بال بأني قادر على أن أصرع السياسة الانجليزية بمثل هذه المهارة الفائقة ، كما أني مع عداوتي الأكيدة للاحتلال ، لأرى الانجليز قد تحولوا بسرعة البرق أطفالاً صغاراً حتى تدخل عليهم هذه الحيلة المضحكة باطلاً يعتقد البسطاء أن الإنجليز مع كونهم ينوون البقاء في مصر يقبلون منح أهلها حكومة دستورية ، لأنه لو كان جاز ذلك لكان وجودهم في هذا الديار يوم يؤسس فيها مجلس نيابي تام السطة واهم السلطان نافذ السكامة لغواً ، ولأصبحوا في هذا القطر لاعبين

إن إعطاء المصريين مجلساً نيابياً حقيقياً - لا صورة يراد بها السخرية وذر الرماد في العيون - هو تجريد للاحتلال من كل سلطة ، فلا يستطيع المعتمد البريطاني إبقاء مثل دنلوب في نظارة المعارف مع سحق الأمة كلها عليه ، ولا يمكن تعيين مثل المستر هيل في مدرسة الحقوق والأحكام من المصريين يعدون بالعشرات إن لم نقل بالمئات ، ولا يقدر أن يطلب أربع مائة ألف جنيه لبناء ثكنات للجيش البريطاني والبلاد في أزمة شديدة وحاجتها للمال ظاهرة للعيان ، ولا يتيسر له صرف تلك الاعتمادات الطائلة للسودان ومصر في أشد الحاجات إليها ، ولا يجد سيلاً لمسح الحكومة الأهلية وتمكين الإنجليز من كل فروعها ومحاربة الأمة في كل ميولها وسلبها جميع حقوقها

إنما تساعد انجلترا بكل قوتها على تأسيس حكومة دستورية في هذه الديار يوم تنوى حقيقة الجلاء عن مصر : ولذلك طلبت دائماً المجلس النيابي مقروناً بطلب الاستقلال

إلا أن الخطة التي وضعتها الحكومة الإنجليزية عند ما احتلت هذا القطر هي ترشيح المصريين لأن يحكموا أنفسهم ، وإقامة معالم الدستور بينهم ثم الجلاء عن بلادهم ، هي خطة متماسكة كل التماسك ولا يمكن تنفيذ مبدأ من مبادئها دون المبدأين الآخرين ، فترشيح المصريين لأن يحكموا أنفسهم يجعلهم أقوياء أشداء راقين في

الشعور الوطنى فلا يرضون بحكم الأجنبي ، ومنحهم مجلساً نياياً يحصر السلطة فى أيديهم فلا يبقى الإنجليز بجانبهم عمل ما

لذلك صرحتُ أيها السادة بفساد سياسة المغالطة وبضررها الشديد على مصر والمصريين ، لأنها تؤدى إلى اعتراف فريق من الأمة بقبول الاحتلال وتظهره بمظهر الضعف الشديد ولا تثمر ثمرة ما ، هذا فضلاً عن كونها قاتلة للروح الوطنية بإبعادها المصريين عن ذكر الاستقلال والتعلق به

(سياستنا)

أسمع المعارضين يقولون : وبم نمتاز سياستكم على سياستهم وما ثمراتها ؟ فأجيب بأن سياستنا هى سياسة الصراحة والمناداة بالحق والدعوة للاستقلال ، وهى وحدها الموصلة إلى كل الغايات الحسان ، فالصراحة وقول الحق من الخلال التى تحمل الحاكم على احترام المحكوم

فالإنجليزى لا يشك فى أن كافة المصريين يودون الاستقلال من أعماق قلوبهم ، فإذا رأى بعضهم يقول عكس ذلك ويتحجب إليه ويطعن فيمن يخالفونه فى خطئه عرف أنه منافق واحتقره ورمى الأمة بعدم الاستعداد للاستقلال

وقد قال غمبتا حقاً وصدقاً : « لاجل أن تنال محبة الإنجليز يجب أن تنال احترامهم ، إن الإنجليز أنفسهم فى حاجة لمن يسمعونهم الحقيقة الصارخة ، وهى إن أساءتهم وآلمتهم فى الظاهر فإنها أفيد لهم فى الواقع من نفاق المنافقين وكذب الكاذبين

أليس أولئك المنافقون هم الذين أدخلوا فى نفس اللورد كرومر اعتقادات كاذبة بشأن الأمة المصرية فاعتدى عليها قولاً وفعلاً وحفر بيده هاوية بينها وبينه بفضيحة دنشواى وبسببها فى وطنها ودينها حتى فارقها وقلوبها وألسنتها تشيعه بالسخط الشديد ؟

فن من الإنجليز يرضى لشرف بلاده ومصحتها أن يكون كل عهدا فى مصر كرومر يا ؟ ألا يقول معنا بضميره إن لم يقل بلسانه إن الصراحة والصدق هما أمتن أساس لأشرف سياسة

(الاستقلال والوصول اليه)

إن الذين يطالبوننا بعدم ذكر الاستقلال إنما يريدون أن تموت الروح الوطنية في مصر ، أى أن تموت الأمة المصرية ، لأن حياة هذه الأمة ومستقبلها مرتبطان بمقدار قوة هذه الروح في الشعب

يتساءل البعض عن الوسيلة الموصلة إلى الاستقلال ، وهذا تاريخ الشعوب البشرية يدلهم على أن الوسيلة الموصلة إلى الاستقلال تنحصر في بث روح للوطنية الصحيحة والشهامة والإقدام في الأمة ، وإعلاء مملكتها ، وإيجاد حب السؤدد والرفعة ، ومسابقة الأمم الراقية فيها ، وجعل الاستقلال رائدها

فإذا تمكنت هذه الروح وتلك الميول من كل مصرى فتحت المدارس العلمية والصناعية والتجارية والزراعية في كل مكان ، وظهرت آثار النخوة والهمة والتضامن في كل جهة وناحية ، واتحدت الأمة في الغايات والمقاصد وازدادت ثروتها في المال والعلم والوطنية والوئام ، وقضت على كل عمال الخصام والانقسام وصارت أمة من أقوى الأمم فعلا ، واضطرت إنجلترا يومئذ لأن تتفق معها على الجلاء والاستقلال ، تفضيلا لمودتها على عداوتها ، لأن أمة تبلغ هذا الشأن لا تلبث أن تستخدم الحوادث — وما الحوادث مسيرة بارادة دولة أو برغبة إنسان — فتتال استقلالها رغما من كل معارض فيه

فالدعوة للاستقلال وبث الروح الوطنية الطاهرة هما المؤديان إلى تحقيق آمال الأمة المصرية ، فليكن معتقد المصريين جميعا أن نجاة مصر لا تسكون إلا بهمهم المصريين ، وان ارتقاء ناموكول إلى عزائنا . فلنطلب النهوض من أنفسنا ولنعمل له بالهمة والصدق والاتحاد

يقول البعض ان المناداة بالوطنية كلام في كلام ، ونسى ذلك القائل أن أهم الأعمال البشرية وأرقى الجهود الإنسانية تنحصر في إدخال عقائد جديدة في النفوس ، لأن العقيدة تحرك الجبال

فإدخال الروح الوطنية في نفوس المصريين لتجتمع كلتهم حول الوطن العزيز
ويتفوقوا في المطالبة بمجده واستقلاله ، هو أكبر الأعمال
ومن قال ضد ذلك فقد أنكر الديانات وتأثيرها والتاريخ وأحكامه والعوامل
الفعالة في الشعوب كلها

(العالم ومصر)

أيها السادة ، عرف المصريون أجمعون أن اعتقاد العالم فيهم قد تغير وأنه أصبح
يرى فيهم أمة حية رشيدة بعد أن كان يعتقد فيهم ضد ذلك ، ولماذا ؟ أليس لأنه علم
أنهم محبون لوطنهم راغبون في خيره واستقلاله وأن الحركة الوطنية المصرية في
نمو مستمر

ليقل لنا الطاعنون فينا أكانت تبلغ هذه الحركة الوطنية شأوها الحال لولم تكن قد
سيرت بقوة وصراحة صارمة لا محاباة فيها ؟ أليس من الحقوق الطبيعية لمن سلب
حقه أن يعلو صوته بدرجة صوت سالبه ، إن لم يرتفع فوقه ؟

فأي لوم يوجه إلينا أننا في كل أقوالنا وكتاباتنا وأفعالنا نذكر الأمة الإنجليزية
بالكرامة والاحترام ، فهل فعل المحبون للاستعمار من الإنجليز فعلنا ؟ هل قالوا
مثل قولنا ؟ هل كتبوا مثل ما كتبنا ؟

كلا وألف مرة كلا ، إنهم ما سمعونا إلا الشتائم والمطاعن البذيئة والتهم الباطلة ،
هذا شيخ ساستهم لورد كرومر أبت عليه آدابه وتجاربه وخبرته أن يترك مصر دون
أن يسب أهلها جميعاً ويلقبهم بالعميان ويقضى عليهم بالذل إلى أبد الزمان ، فهل
قام مصري واحد يسب الأمة الإنجليزية كما سب لورد كرومر الأمة المصرية ؟
هل خالف واحد منا الأدب والسكال أو نسي سمو القضية التي نخدمها وقلد
اللورد فيما قال

لا ريب في أن العدو نفسه يجيب سلباً أمام ضميره ويعترف بأن المطالبين
باستقلال مصر ساروا في طريقهم والحمة والحكمة عندهم متلازمان

(المعارضة الوطنية والحكومة الإنجليزية)

أيها السادة ، إن الحكومة الإنجليزية التي نخارها في وطنها الجدل والمناقشة والسمي وراء الحقيقة. تعلن عجزها في مصر إذا جارت أولئك المضطربين من الحركة الوطنية الناديين سوء حظهم لوجود أفراد في هذه الأمة يقولون الحق جهاراً ولا يخافون فيه لومة لائم . لأن الحكومة القوية تزداد قوة بفضل المعارضين الواقفين لها بالمرصاد المنادين بسياستها المشهرين باغلاطها الدالين لها على عيوبها ، فما بالك بسلطة الرجل الفرد . بسلطة الأجنبي الجاهل بأخلاق الأهالي وميولهم ومطالبهم ورغائبهم ؟

أليست هي أحوج السلطات إلى قوة معارضة تقف أمامها موقف الخصم العنيد الذي لا ينزل عن حق ولا يسكت على عيب ولا يستر نقصاً ولا يجامل في خطأ . بل ينادى بما يراه ويعتقده وينتقد الأعمال بصراحة وبطش شديد ؟

ألا إن حكومة كحكومة مصر لا يزال شكلها ونظامها أبعد الأشكال والنظم عما يرجوه المصريون لبلادهم ويطلبونه في الصباح والمساء ، لأجدر حكومات العالم بأن تسمع أصوات المخالفين لها وتنظر في انتقاداتهم بعناية ، لا تبغضت وغيط ، فان لموقف موقف خدمة عامة وعمل للصالح العام لا موقف خصام وعناد

يقول بعض الصحف إن الحكومة تأنى تقرير ذلك الأمر النافع وهذا المشروع المفيد لأن المعارضين أو المتطرفين أو المتحمسين أو أعداء إنجلترا في مصر طلبوا ذلك الأمر وهذا المشروع ، وأن المسألة صارت إلى المشاكسة والعناد والمبالغة في النكابة بالخصم

ومثل هذا القول هو أكبر مسبة توجه إلى رجال الحكم !

إن الحكومة الصالحة العاملة خير الرعية هي التي تلتقط الحقيقة أنى وجدتها ، وتعمل بالرشد والصواب ولو كان خصمها هو مرشدها ، فهي تزداد قوة على قوتها ونفوذاً عند الرعية إذا اتبعت رأى خصمها متى كان حقاً ، لأنها تثبت بذلك أنها حكومة خير ورشاد لا حكومة طيش وأهواء

أما إذا اعتقد الجمهور في الحكومة أنها لا تعمل إلا ما تريد وأنها تهمل كل صوت يرتفع بالحق ما دام قائله ليس من مملقيها فإن مقامها يسقط في نظر الناس ويسىء الكل الاعتقاد فيها وتكون قد أوجدت بنفسها وإرادتها الشقاق والافتراق بينها وبين المحكومين

أى معنى لافتخار الانجليز بسيادة حرية القول وحرية الأقلام في مصر إذا كانت هذه الحرية لا تفيد الحكومة شيئاً ولا تصلح المعوج من أمورها ؟ وهل القصد من هذه الحرية أن يسمح للمصريين بأن يبيكوا استقلالهم وينادوا بالويل والثبور على ساليه ليس إلا؟

اللهم إن حرية لا تعطى الأمة حقاً في إدارة شئون البلاد ، ولا تجعل للناطقين باسم الشعب سلطاناً أدياً محترماً عند الحاكمين ، لحرية أجنبية عن حرية الشعوب المتمدنة وإهانة حقيقية للأمة تقدم إليها في شكل نعمة

(سينات المحتلين وفساد حكمهم)

ماذا يريد الإنجليز منا ؟ أريدون أن نسمى سيناتهم حسنات ونصفق لضياح حقوقنا واستيلائهم على بلادنا وتجريدهم إيانا من كل سلطة ونفوذ ؟ هل كانوا يسرون بمثل هذا الحال لو كانت بلادهم محتلة بدولة أجنبية ؟

(اتفاقية السودان)

من من المصريين يذكر اتفاقية السودان ويشكر المحتلين ؟ وكيف يشكرهم وهم قد ضغطوا على حكومة في قبضتهم فأنت ما أرادوا مع مخالفة الأمر للفرمانات السلطانية وبطلانه من الوجهة القانونية ؟

من ذا الذى يمدح هذه السياسة ، سياسة القوة والجبروت التى أنكرت حقوق مصر في السودان فعلا بعد أن روينا أرضه بدمائنا الغالية وأنفقنا عليه الأموال الطائلة

(ابن العدل ؟؟)

أى مصرى يرضى عن قوم لا يعرفون العدل والإنصاف والمساواة وتلك

الكلمات الضخمة والمعاني الفخمة إلا إذا كان الأمر متعلقاً بمصرى ، أما إذا كان له
مساس بالإنجليزية فلا عدل ولا إنصاف ولا مساواة !

أليست الوكالة البريطانية هي التي أقامت الدنيا وأقعدتها يوم ادعى أمامها أحد
الأرمن بأن أخاه سجين في سراى رأس التين وأنه يعذب بغير حق ؟ ألم تنتدب
يومئذ المستر شامبن للتحقيق وتفتيش السراى أى القيام بعمل لم نسمع بمشله في
حكومة أخرى ؟ ألم تقل يومئذ في الجرائد الخادمة لسياستها إن هذا أكبر مظهر
من مظاهر العدل وإنه يحق للمصريين أن يشكروا المحتلين ليلاً ونهاراً ويرتلوا آيات
الثناء عليهم ؟

فأين هذا العزم اليوم ؟ أين تلك الهمة العالية في تأييد العدل وعدم التمييز بين
الصغير والكبير ؟

كيف سكنت عواطف المدنية والإنسانية والإنصاف والمساواة مرة واحدة
في قلوب السادة الإنجليز لما اتهم عالم من كبار العلماء الفرنسيين مستر دنلوب بتهم
شنيعة بأبى الحر قبولها والسكوت عليها

أين المظهر العادل أيها المحتلون ؟ أين أبناء الأمة التي تعد من أكبر مفاخرها
عدم النستر على مرتكب أثيم ؟ أين اختفوا !

أين هم لنسمعهم الحق الذى لا ريب فيه ونقول لهم بصوت جهير إن عدم
محاكمة دنلوب بعد الفضائح التي أعلنها المسيو لامبير معرة كبرى على الاحتلال
والمحتلين !

ينسب البعض سكوتهم أمام هذه التهم الصريحة إلى أنهم لا يريدون إرضاء الرأى
العام أو الظهور أمامه بمظهر الضعف

حقاً إنها لحجة تضحك ، وإنها لسياسة لا ترضاه لنفسها حكومة « بهنزين » ،
أيظن المسيطرون من الإنجليز أن إخراج دنلوب من المعارف أضر بالسياسة
الإنجليزية من بقائه !

إننا كنا نعتقد أنهم أذكي وأفظن من أن يقولوا ذلك ، وإلا فكيف فاتهم أن

بقاء دنلوب هو أكبر وصمة للاحتلال ، وأنا لو كنا نريد تحقير الحكم البريطاني في مصر لما طلبنا منهم أكثر من بقاء دنلوب بعد تهتم الأستاذ لمبير ، أليس بقاؤه أكبر دليل تقدمه للأمة على أنه أن لها أن تترك مدارس الحكومة خاوية لا يقصدها طالب وتؤسس هي مدارس لأبنائها بأموالها وهمم القادرين من رجالها لتتسال الاستقلال العلي والأدبي وتستريح من أعمال دنلوب ومساغيه !

إذا كان الأستاذ لامبير يقرر أن خطة دنلوب هي التي دفعت بطلاب الحقوق إلى صفوف الوطنيين فصاروا في مقدمتها ، فكيف لا يدرك الانجليز أننا لو كنا لا نرمى إلا إلى جمع كافة القوى الحية ضدهم وأن هذه طلبتنا الوحيدة ، وأنا لا نريد الخير لبلادنا ولا نطلب الإصلاح ، لا بتهجنا ببقاء دنلوب عاملاً على زيادة الوطنيين المصريين ومجدداً في بث روح العداوة في قلوب الناشئين للانجليز واحتلالهم ! إن الأمة المصرية تنظر اليوم بمزيد الاهتمام إلى ما تنوى الوكالة البريطانية عمله مع دنلوب ، فإن هي تركته وشأنه علم من لم يكن يعلم في هذا القطر وفي غيره من الأقطار أن العدل خيال في مصر لا حقيقة وأن الانجليز يغفرون لرجالهم كل السيئات ويتربصون للمصريين فيعاقبونهم على أصغر صغيرة

فإذا كانت هذه هي النتيجة التي يعمل لها المعتمد الانجليزي الجديد فليفعل ، فأنما هو يهدم بيمينه البقية الباقية من نفوذ بلاده عند المغرورين الذي لم يسيئوا بها الظن تماماً ويقوى عقيدة الذين لا يرون في نواياها ومرامياها شيئاً من الخير لمصر والمصريين
(محاربة الأكفاء من المصريين)

كيف يطالب المصريون بأن يحسنوا الظن بالمحتلين وهؤلاء هم الذين يدعونهم كل يوم إلى إساءة الظن بهم

كيف يصدق العلماء والفضلاء والأكفاء من المصريين أن الانجليز يريدون حقيقة لهذه البلاد التقدم والارتقاء وهذا مستر دنلوب يأمر كل مدير لمدرسة عالية بأن يطعن في كفاءة المصريين الذين يطلبون وظائف التدريس !

وإذا تركنا المستر دنلوب وارتقينا إلى رئيسه الأعلى معتمد انجلترا في مصر ،

فماذا نجد من نياته ! نجد أن السير إدوارد غورست قد عين المستر هيل مديراً لمدرسة الحقوق وسخر بذلك من المصريين عامة ومن الأكفاء خاصة

ألم يقل لهم بلسان الحال : « إنى لأسخر من معارفكم وآدابكم وكفاءتكم واستعدادكم وخبرتكم وشهادتكم لانكم مصريون وأقدم عليكم من هو دون أصغركم علماً وفضلاً وخبرة لأنه إنجائزى ؟ »

فهل بعد هذا يطالب المصريون بأن يحسنوا الظن بالإنجائز ؟ وهل هناك عداوة صريح من قوم لآخرين أكبر من هذا العداوة ؟ وهل يليق بشرف دولة كبرى كالدولة الانجليزية أن تحارب المصريين بمثل هذه الصغائر وهي التي أقسمت أمام العالم كله أن جل رغائبها إعداد المصريين لأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ؟

ومنى يتسنى لهم ذلك والقاعدة السائدة في السياسة الانجليزية بمصر ، هي تجريد المصريين من كل سلطة ، وإبعادهم عن كل منصب ذى عمل ، والاستعانة بالضعفاء والمارقين منهم على تمثيل مصر في المناصب التي يشغلونها بأسوأ صورة

(دنشواى)

يقول سير إدوارد غراى بأعلى صوته فى مجلس العموم الإنجائزى إن لورد كرومر لم يعامل المصريين كأمة منحطة ، فإذا كان يريد أن يعمل اللورد ليعترف بأنه عاملهم كذلك ؟

أليست دنشواى وحدها بكافية لأن تثبت مدى الدهور والأجيال أن الإنجائز أهانوا المصريين إهانة قاسية لا تنسى أبداً ولا يمكن اختلاف اثنين من المنصفين فى الحكم عليها ؟

ينادى الساسة الإنجائز بأن الحكم فى دنشواى كان سياسياً وكان يقصد به تأديب الأمة ، وإذا طلبت الجماهير العفو عن المسجونين بسبب هذه الحادثة قالوا : « إنما أتم تطلبون العفو لتعدوه انتصاراً على السياسة الانجليزية ،

فهل هذا هو العدل الذى تجود به علينا المدنية البريطانية ؟ هل هذا هو الإنصاف

الذي تريد أن تعلمنا إياه الدولة الانجليزية ؟ أيعاقب أهالي دنشواى بتلك الشدة المتناهية لأن الأمة لم تسكن مع الانجليز في حادثة العقبة ، وهل الحكومة التي تخطط بين السياسة والعدل إلى هذا الحد فتعاقب البرى . وتكافئ المجرم تستحق أن يمدحها مادح ويثنى عليها إنسان ؟ وكيف يدهشها قيام المعارضين في وجهها واعتراضهم عليها بكل شدة وقوة ؟

إننا لو كنا نريد دوام العداة والنفور واستحكام الشقاق والتنازع لطلبنا بقاء مسجونى دنشواى فى سجونهم الأعوام الطوال ، لأنه كما مرت السنون وهم على حالهم تجددت آلام الأمة بما لا يكفى وجرى ذكر دنشواى على كل لسان ، وهكذا سياسة العناد لا تثمر إلا عكس المقصود منها ولا تؤدى إلا إلى ضد الغاية المطلوبة

إن الرجال لا يحكمون بمثل هذه السياسة ولا تدبر شؤونهم بمثل هذا الاعتساف إذا كان الانجليز يجهلون أحوال المصريين وما يدور بينهم ، فليعلموا أن فى هذه الأمة رجالا مستنيرين رشيدين يعادلون أكفأ العقلاء من الانجليز وأنهم بغارون على الحق والعدل ولا يرضون بأن تسكون الأحكام فى البلاد قائمة على الغايات والأهواء ، وهؤلاء الرجال هم القوة المفكرة التى تحترمها كل حكومة فى العالم وتسترشد بأرائها فى المواقف الحرجة .

إننا نقدم العدل والرحمة على السياسة ، ولذلك طلبنا ونطلب بأعلى أصواتنا العفو عن مسجونى دنشواى ، ونقول بكل صراحة إن السياسة الرشيدة هى التى تعمل لتخفيف الآلام الناشئة من هذه الحادثة الموحجة ، لا العمل على تقويتها وزيادتها بدعوى أن طلاب العفو ليسوا من أنصار الاحتلال !

ألا فاقروا معاشر الانجائز التاريخ الإسلامى وانظروا فى أعمال أولئك الخلفاء العظام الذين كان الواحد منهم ينشد الحقيقة فى كل وقت وفى كل مكان ويمثل للحق ولو كان قائله من أحقر الناس

فخليق بالانجائز وهم الذين يدعون أن مدينتهم سادت كل مدينة أن يذكروا

أن رجال المدنية الاسلامية لم يكونوا ليقولوا : «السياسة فوق الحق» ، بل كانوا يقولون
ويؤيدون هذا القول بألف دليل ودليل : الحق فوق كل شيء .

(الثروة والأزمة)

أيها السادة ، يفاخرنا الانجليز على الدوام بأنهم أغنوا البلاد وملاؤها ذهباً حتى
حدثت الأزمة الأخيرة وخفت هذا الصوت الذي صمت من سماعه الأذان أعواماً
طوالاً

فما قيمة الثروة التي يفاخرون بها بجانب الحرية الشخصية والحرية العمومية وسيادة
المصري في بلاده واستقلاله في وطنه ؟ ومن من المصريين لا يفضل أن يكون أقر الناس
جميعاً وحكومة بلاده قائمة على العدل الصحيح على أن يكون أغناهم وأثراهم ويهدد
من المحتلين بعقوبات دنشواي ؟

وإذا كان من المسلم أن ارتفاع أثمان أراضي الزراعة تابع لثمن القطن ، وأن
هذا خاضع لطلبات العالم ولحاجة الناس للقطن المصري بنوع خاص ولقلة المحصول
الأمريكي والمضاربة ، فما أثر الانجليز في هذه الثروة ؟

لاشك أنه جرت إصلاحات جمّة في الري وأن الأعمال التي بدى بها في عهد
الخدويين السابقين تقدمت في العهد الحاضر ، ولما كان هذا الإصلاح في الري ليس
مزية خاصة للحكم البريطاني ، ثم ألم يكن هذا من فائدة الانجليز أكثر مما هو في فائدتنا ؟
ألم يكن من مصلحتهم إرضاء دائي مصر وفتح السودان وإصلاحه بأموال مصر

ومن الذي يتنكر اليوم أن الأزمة المالية الحاضرة ناشئة عن فوضى البورصة
وعن كثرة الشركات التي دبرتها اليد التي قيدت الشركات المؤسسة بمقتضى القانون
المصري بقيود جمّة لإيجاد أسهم للتأسيس حتى تؤسس الشركات كلها بمقتضى القانون
الانجليزي

من الذي يتنكر أنه كان في استطاعة الانجليز أن يطلبوا من الدول وضع قانون
للبورصة ويقيدوا السماسرة والشركات بقيود متينة صيانة لمصالح البلاد
وأى خلل في المالية المصرية أكبر من الذي فضحه المستشار المالي السابق نفسه

حين أعلن أن مصر خسرت ٧٠٠٠٠ جنيه في كل مليون اشترت به أسهم الترنسفال أو القونصليد الإنجليزي ، فهل كانت تجرى هذه الأمور كلها لو كان للأمة مجلس نيابي يراقب أعمال الحكومة وكانت الحكومة مؤلفة من عناصر أهلية وليس للأجنبي عليها سيطرة ، ومن ذا الذي يتغنى بعد الآن بالإصلاح المالي البريطاني في هذا القطر

إن الذي يفاخر بزيادة الثروة وبوصول مالية الحكومة المصرية إلى مركز سام يجب عليه قبل كل شيء أن يعدد الأعمال العامة والمنافع المختلفة التي عادت على القطر من هذه الزيادة

فهل يستطيع الانجليز أن يدعوا أنهم رقوا الفلاحين أصحاب الجلابيب الزرقاء ، ونشروا أنوار المعارف بينهم ، وهم الذين سدوا أبواب المدارس في وجوههم وقالوا لهم : « حكمنا على أولادكم بأن يكونوا فقراء تعسعين وأن لا يتسلحوا أبداً بسلاح العلم » ،

هل من مفاخر العهد البريطاني أن ينفق على المجانية ابتداء من هذا العام ١٦٠٠ جنيه ليس إلا ، وميزانية الحكومة بلغت خمسة عشر مليوناً من الجنيهات ، على حين أن التعليم كان مجاناً في كافة مدارس مصر يوم لم تكن ميزانية الحكومة تزيد عن المليونين ؟؟؟

هل يقدر الانجليز أن يدعوا أنهم أصلحوا الحالة الصحية في البلاد وغيروا من معيشة الأهالي وأن مدينة العاصمة صارت نظيفة فاخرة لا يجدر المتنقل فيها محلاً للانتقاد في فصل من فصول السنة ؟ هل لهم أن يدعوا أنهم حموا الأطفال من الأمراض المختلفة التي تقتلهم مئات وألوفاً ؟

فما فائدة الأموال التي تجمع والخزينة التي تملأ بالذهب الوهاج إذا كانت الأسوار قائمة بين الفقراء والعلم ، والأحوال الصحية على أسوأ حال ، والعدل مزعزع الأركان ، والمصري لا يملك في بلاده نفوذاً ولا يسمع له صوت ، والأمن محتل أي اختلال ؟

(الامن العام)

دعا الانجليز حب نزع السلطة من المصريين إلى تدمير الإدارة المصرية تدميراً حقيقياً بإحلال سلطة المفتش محل سلطة المدير، فصار الأشقياء لا يخافون الحكومة لأن قوتها الحقيقية تلاشت من أمامهم ، وصرنا نسمع بحوادث القتل والقتل في كل بلد ، مما أذهل الناس جميعاً ، وقد اضطرب المحتلون في التشريع اضطراباً عجيباً فتراهم يغيرون القوانين ويقلبون المبادئ التشريعية بسرعة فائقة كأنهم يبدلون في مواد لا تخطئ من لوأح البوايس والمخالفات لا في قوانين أساسية يُساس بها شعب كبير ، وهم اليوم يطلبون تقرير النفي الإداري الأمر الذي أسخط الأمة كلها وأظهر فشلهم الفاضح

وهذا خلل كبير في إدارة شؤون مصر ، فان كل بلاد حرمت قوة تشريعية حقيقية تكون خاضعة لسياسة الأهوا.

(الحكومة الأهلية)

لذلك قلنا إن المصريين لا يرضون بإصلاحات سطحية يعطونها ذراً للرماد في العيون، بل إنهم لا يطمثون على أنفسهم وبلادهم إلا إذا عادت الحكومة الأهلية بسلطتها وسطوتها ورهبتها وكانت الحكومة دستورية خاضعة لمبادئ التمدن الحديث ومستمدة قوتها من الشعب وعامة برغائبه ممثلة لأوامره

وإذا كان بعض الانجليز يرون أن ما عمل في مصر في الخمسة والعشرين عاماً الأحيرة كافياً لتشريف إنجلترا ولائقاً بمدنيتها وبما ينتظر منها ، فإننا نعتقد أن إنجلترا قادرة على أن تعمل أحسن مما عملت وتحترم شرفها وعمودها وتاريخها وتقاليدها بخطة أخرى غير الخطة التي اتبعتها

إن الانجليز الذين يتألمون لمطالبتنا باحترام تعهدات الملكة فيكتوريا وتصريحات كبار وزرائها ينسون أن مخالفة هذه التعهدات وتلك التصريحات أشد إيلا ما لهم في الحقيقة من كل انتقاد يوجه إليهم ، وأن الذي يدعوهم لاتباع سياسة العدل والمدنية إنما يدعوهم لما هو أليق بهم ويشرف دولتهم وعظمتهم

كيف لا ومطاعن الطاعنين وشتائم الشائمين لا تؤثر في شرف انجلترا وسمعتها عشر معشار ما يؤثر قول العالم المتمدن عنها إنها تعادى الوطنيين المصريين وتحاربهم لأنهم يطلبون اتباع مبادئ الوطنية وتعميم التعليم وإقامة الدستور مقام الظلم والاعتساف — وينادى بأنهم لا يرضون بحكومة الرجل الفرد سواء كان مصرياً أو أجنبياً ، وأن مداركهم ارتقت إلى حد أنهم يعتبرون أنفسهم من «عائلة الشعوب المتقدمة» ، ويطلبون أن يعاملوا كذلك

لذلك كان من المؤكد عندنا نجاحنا عاجلاً أو آجلاً ، لأن الزمان يكفل النجاح لصاحب الحق على الدوام !

(أعداء الحزب الوطنى والنزلاء)

هذه خطتنا أيها السادة وهذه مطالبنا التي نرمى إلى تحقيقها ، فهل يقول منصف عادل بأنها غير موافقة لصالح مصر والمصريين

كلا ، ولكن عصابة من الكتاب الأوروبيين في هذه الديار حملت علينا حملة شعواء ووجهت إلينا من السباب ما لا يتصور صدوره من رجال متمدنين ، ورمتنا هذه العصابة بهم شنيعة لو كان لها نصيب من الحقيقة لكننا من المجرمين

ولقد يتوهم البعض منا أن هؤلاء الكتاب يعبرون عن أفكار النزلاء الأوروبيين في هذه الديار ونزعاتهم ، ولكن هذا الوهم باطل ، لأن أولئك النزلاء يحبون مصر على ما اعتقد ، ويعترفون لها بالجليل ويرجون لها الخير ولا ينسون أنها البلاد التي لاقوا فيها الإكرام التام والحفاوة الزائدة ووجدوا تحت سمائها ما يطلبون من كسب عميم وخير وفير

إن النزلاء الأوروبيين يقدرون الوطنية حق قدرها لأنهم يحبون بلادهم حباً جما ويظهرون هذا الحب في كل آن ، فمن منا يصدق أن أولئك الذين يعيشون وفخارهم استقلال أوطانهم ويعتقد الواحد أنه راية بلاده يمثلها أنى كان وأن الاعتداء عليه اعتداء عليها يجاهدون ضد أمة تنهض مطالبة بالاستقلال وتعمل لزوال الاحتلال !

إنى أعتقد اعتقاداً جازماً أن لنا فى النزلاء الأورويين أصدقاء عديدين وأن عدد أولئك الأصدقاء يزداد كلما أثبتنا لهم بالدليل والبرهان أننا نريد أن تكون مصر عضواً عاملاً فى جسم الأمم المتعدنة ، وأنا نطلب الاستقلال لتكون بلادنا مصدر النور والعرفان فى الشرق كله ، وأنا لا نريد مطاردة أحد من الناس ، بل نعد من شرف مصر وامتيازها على غيرها من البلاد أنها ترحب بكل قادم إليها وتوسع له فى ديارها غير خائفة على أبنائها من مزاحمة أو منافسة بل مسرورة بكثرة العاملين وهم الساعين المجدين

(تهمة الثورة)

بماذا طعن الطاعنون فىنا !

قالوا إننا نريد إحداث ثورة دينية فى البلاد وأنه أوعز إلينا من الأستانة بها ؟ وهو قول الجاهل أو المتجاهل المتعنت الذى يريد أن يحارب خصومه بكل سلاح ، إذ كيف يقبل العقل السليم أو يتصور إنسان ذولب وإدراك أن قادة الأفكار فى مصر يعملون لهدم البقية الباقية من استقلال هذه البلاد ويحزبون أوروبا بأسرها على مصر والمصريين ، ألم نقل مراراً وتكراراً إن كل فتنة تحدث فى مصر لاتفيد إلا المحتلين ؟ ألم نسكن أول الداعين للسكينة المطالبين أبناء وطننا بأن يعملوا بعزم وهمة وصرامة ولسكن مع السكينة والمحافظة على الأمن العام ؟ ألم نجعل أساس سياستنا وقاعدة خطتنا وروح أعمالنا استخدام الوسائل السلمية لتبيل حقوقنا والتمسك بالطرق القانونية دون غيرها ؟

ومن الذى يستطيع أن يقول إن للاستانة منفعة فى إحداث ثورة فى مصر ؟ وما الذى يدفعها إلى ذلك ؟ أعداوتها للمسيحيين وأسمى وظائف الدولة فى قبضتهم ؟ وماذا يكون مركز الدولة العلية لو ثارت مصر وضربت أوروبة الضربة القاضية ؟ ألا تكون هى المسؤولة بالذات عن ذلك إذا صح أنها تحرض ثورة فيها ؟ أ وليس التحريض داعياً إلى المؤازرة ؟ فأى مؤازرة ترضى تركيا أن تقوم لنا بها على أوروبا كلها ؟

إن القائلين بذلك أعداء متعنتون أو جهلاء لا يدركون معنى ما يقولون ، لأن
المصرى الذى يدعو إلى فتنه أو يعمل لها يكون عدوا لبلاده ، وإذا وجد فى العالم
دولة تنصح للمصريين باستعمال السكينة وملازمة الحكمة والتبصر فهى الدولة العلية،
لأنها بلا نزاع أشد الدول غيرة على سلامة مصر وأكثرهن فائدة من عدم ازدياد
مصائبها وبلاياها

(تهمة خيانة مصر)

رمانا الطاعنون أيضاً بأننا نريد أن نخرج الانجليز من مصر لنعطيها لتركيا
كولاية عادية ، أى اننا نريد تغيير الحاكمين لا طلب الاستقلال والحكم الذاتى
وما هذه التهمة إلا تصريح بأن علوم الغرب وآدابه التى نقلت إلى مصر من مدة
قرن من الزمان ما زادتنا إلا تمسكا بالعبودية والمذلة ، وأن معرفتنا لحقوق الأمم
وواجباتها لم ترشحنا إلا أن نكون عبيدا أرقاء

فهذه التهمة هى مسبة للمدنية والمتمدنين وقضاء على الأمة المصرية بأنها لا ترقى
أبدا ولا تبلغ مبلغ غيرها من الشعوب ، لأنه إذا كان المتعلمون من أبنائها يطلبون
إحلال نير محل نير واستبدال استعباد باستعباد فكيف يطمع طامع فى تقديمها
وارتقاؤها ووجود ضمير أهلى لها ؟

إن القائلين بذلك يدعون الناس لأن يسخروا من عقولهم ومداركهم لأن
الصومالى والحبشى وكافة الأمم التى هى دون الأمة المصرية بمراحل فى العلم والأدب
والشعور دافعت عن استقلالها أجمل دفاع وبرهنت للعالم طرا أن حب الوطن فطرة
فطر الناس عليها وأن الإنسان لا يحتاج إلى علم ولا إلى أدب ليحس بهذا الشعور

فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى
أصواتنا ، وعلى مسمع من أمم الأرض كلها ، واننا إذا أخلصنا الود لأمة أولدولة
فانما نعمل كغيرنا وتبضع ناموس الطبيعة بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون
ويتناصرون

وإذا كانت انجلترا تسعى الآن للتقرب من الدولة العلية وتغير سياستها نحوها
تغيرا محسوسا ، فمن الذى يلوم المصريين على أن يكونوا أقرب الناس من تركيا
قولا وفعلا وأن يحافظوا على هذه الصلة ما استطاعوا

(تهمة التضيق فى الوطنية)

قال اعداؤنا فيما قالوا : إننا ضيقو الفكر صغار الآمال ، واتنا نأبى على الذين
ولدوا فى مصر واستوطنوها أن يكونوا مصريين ، وهذا قول لا يقوم عليه برهان

إننا إذا قاومنا بكل قوانا تلك الفئة التى قابلت إحسان مصر بالنكران وأعلنت
على البلاد وأهلها حربا عوانا فاننا نميز بينها وبين بقية الشرقيين من ترك وعرب
وسوريين الذين اختاروا مصر وطننا لهم وأحبوها وشاركونا فى الآلام والآمال
وصاروا مصريين فعلا

إننا نستقبل بمزيد السرور والانشراح كل راغب فى الدخول فى جنسيتنا ،
معترف بحقوقنا ، مقدر لشرف جهادنا ، عامل على بلوغ الاستقلال ، لأننا نريد
زيادة قوى الوطن والاستزادة من الأيدى العاملة لخيرته ولنفعه ومجده وعظمته

وإن الأمم التى تخاف دخول الغريب فيها واتناه إليها هى الأمم الضعيفة فى
وطنيتها المضطرب فؤادها على جامعتها ، ونحن اليوم بحمد الله أمة قوية الشعور
راقية الإحساس لا تخاف على وطنيتها ، فليدخل فى الجنسية المصرية من أراد فانه إن
لم يزددها قوة زادته هى حمية وإقداما ، وملأت قلبه بحب الحرية والاستقلال

(تهمة التعصب الدينى)

قال اعداؤنا أيضا : إننا نخلط الاسلام بالوطنية ، وتكلم دائما عن المسلمين
ونطلب إدخال الدين فى التعليم ، وفسروا ذلك بأنه تعصب ذميم

فكيف لا تكون انجلترا وألمانيا متعصبتين وهما الدولتان المتمسكتان بالتعليم
الدينى فى مدارسهما وتتهم نحن بالتعصب الدينى ؟ لماذا يكون الانجليزى وطنيا

وبروتستانتياً في آن واحد ولا يكون المصرى المسلم وطنياً ومسلماً ؟ ألا تكون
الوطنية صحيحة سليمة إلا إذا قضت على الدين ومحبه ؟
ألا إن الحقيقة الساطعة التي لا ريب فيها هي أن الوطنية والدين يتفقان بل وقد
يكونان متلازمين

نحن إذا طلبنا إرشاد أمتنا إلى الحقيقة الدينية ، فما ذلك إلا لأن الأضاليل
والأكاذيب والخزعبلات التي راجت بين العامة باسم الدين قلبت حقيقة هذا الدين ،
فصار الجهل والتأخر والانحطاط وكل الآفات بما يلقي على الدين وينسب إليه
والدين منه براء

لذلك كان من المستحيل إحياء الأمة وإنهاضها بغير الحقيقة الدينية ، لأنه لا سبيل
لإبادة جيش الباطل الذي ألف ونظم باسم بالدين إلا بالدين نفسه

فالتعليم الدينى ليس فرضاً من الوجهة الدينية فحسب ، بل هو كذلك أيضاً من
الوجهة الوطنية ، لأنه لو وقف المرشد أمام الأهالي ونبههم إلى واجباتهم باسم الوطن
والعلم والمصلحة وأجابه الضالون منهم بما عندهم من الاعتقادات الباطلة بأن الدين
يتنافى ما يقول لما قهرهم واستمالهم إلى فكره إلا إذا أثبت لهم أن الدين ليس ما اعتقدوا
بل إن الدين مخالف لتلك الخزعبلات التي آمنوا بها وأنه متفق مع العلم والوطن
تمام الاتفاق

على أن بث الحقيقة الإسلامية بين المسلمين من أكبر الأسباب الموجدة للتسامح
والتقرب من الشعوب الأخرى ، إذ لا تعصب مع علم ولا نفرة من نور ورشاد ،
فمن منفعة العناصر كلها أن يعرف المسلمون دينهم على حقيقته وأن تزول أوباء
الجهالات والخرافات من بينهم

(تهمة تحريض المسلمين على الدول)

لم يكتف الطاعنون فينا بنسبة التهم المتقدمة إلينا بل قالوا إن الحزب الوطنى آلة
في يد ألمانيا تحركها ضد فرنسا وانجلترا لإحداث فتنة في البلاد الإسلامية التابعة لها ،
وما قصدوا بهذه التهمة إلا جمع كلمة الدولتين ضدنا وتنفير أصدقائنا العديدين في أوروبا منا

إننا نعلن للبلا كلّه أن الحزب الوطنى مستقل عن كل الدول والحكومات والملوك
والأمراء ، وأنه إنما يطلب سعادة مصر واستقلالها من كل طريق يجده مساعد أعلى
الوصول إلى الغاية ، وليس هناك برهان على أفك أعدائنا أ كبر وأقطع من أننا
انتقدنا السياسة الألمانية مراراً وقلنا لها إن المسلمين لا يصدقون بمحبتها إلا إذا غيرت
خطتها فى مصر وطلبت حل المسألة المصرية فى مؤتمر دولى كما فعلت بشأن مراکش
وشتان ما بين مصر ومراكش فى الأهمية ووفرة المصالح الأوروبية

إن المسلمين يمدعون أنفسهم كثيراً ويسيثون إلى بلادهم حقيقة إذا اعتقدوا
أن سلامتهم فى الاعتماد على دولة من الدول وأن لهم أن يناموا على وسادة الأمان
والاطمئنان إذا جاملتهم هذه الدولة بكلمة حب وانعطاف لغاية يجهلونها

إنما سلامتهم فى أن يعملوا بأنفسهم لصيانة بلادهم وحمايتها بالعلم والعدل والنظام
والدستور ، فإن البلاء فى أن يكون الإسلام سلاحاً بيد الجاهل الغيبي يقتل باسمه
البرىء من المسلمين وغير المسلمين ويخرب البلاد ويؤذى العباد قائلاً ، إن هذا من
عمل الإسلام ،

إن الإسلام برىء من هذه الفضائح ، إن الإسلام يقضى بكل قوة على هذه
القبائح ، الإسلام والجهل عدوان لا يتفقان ، فلا إسلام بغير علم وفضل وعدل
ومدنية وإنسانيه ، فلترفع الأمم الإسلامية التى لا تزال قادرة على حماية بلادها وصيانة
استقلالها ورايته ، ولتعمل عمل اليابان فتعتمد على الجد وحده وتطلب الحياة والسودد
من جهودها ومساعدتها لا من تعضيد دولة ورعاية حكومة أجنبية

فإن السياسة التى تدفع بهذه الحكومة لمساعدة أمة إسلامية فى ساعة من ساعات
حياتها قد تتغير بتغير الظروف والأحوال فلا تساعدها فى ساعة أخرى

وأنه خير لمرشدى المسلمين والناصحين لهم أن يحملوا على أسباب الفشل والسقوط
التي نشأت بينهم ويحاربوا الجهلاء والأغبياء منهم قبل توجيه الملام إلى الهاجمين عليها ،
فإنما الجهل هو الذى دعا الأجنبي لأن يطمع فيهم ، ولو نظم المسلمون بلادهم وأثبتوا

للعالم أن الإسلام دين مدينة وعمران وقوة ورفعة لما اعتدى عليه أحد ولخطب
ودم كل إنسان !

(الاتحاد والعمل)

أيها السادة ، دعا لورد كرومر قبل سفره كافة العناصر الأجنبية للاتحاد ضد
المصريين تنفيذاً لسياسة التفريق التي عمل لها طول حياته ، فاسمحوا لي أن أدعوكم
للاتفاق والاتحاد وإزالة كل سبب للنفور والشقاق بينكم وبين النزلاء ، فإن الاتحاد
هو القوة الكبرى ، ولولاه ما قام شعب في العالم وما وجد التضامن بين أفراد الهيئة
الاجتماعية

إنه ليحزنكم كثيراً أن تجدوا المنافقين والخائنين من أبناء البلاد ، وهو حال
يحزن ولكنّه ليس خاصاً بمصر ، بل هو عام في الدنيا كلها ، وإذا أحزن الوطنيين
الصادقين من جهة فانه يسرهم من جهة أخرى ، لأنه يبعد العناصر الفاسدة من الحركة
الوطنية ويجعلها ظاهرة خالصة من كل شائبة

فضموا صفوفكم وأجمعوا أمركم واعملوا بحمد وهمة واثبتوا للأعداء والأصدقاء

أنا أحق الأمم بالدستور والاستقلال ، إن الوطنية الحقّة تقضى على صاحبها بأن
يصحى حياته خدمة لوطنه لو دعت الحاجة لذلك ، فلنضع جميعاً أحقادنا الذاتية
وخصوماتنا الشخصية ، ولننس عداواتنا واختلافاتنا أمام المصلحة الوطنية وأمام
الوطن المقدس ، لننس أشخاصنا ولنترك الطمع في الرعامات والرئاسات وتتبع
أحقرنا إذا كان على الحق ، فإننا إذا نصرناه نصرنا الوطن والأمة ، وإذا خذلناه
خذلناهما معا

أيها السادة ! إن العالم كله ينظر إلى مصر وما سيكون من أمر حركتها
الوطنية ، وإن أعداءنا يدبرون ألف تدبير لهدم دعائم هذه الحركة ومحو آثارها

فاذكروا ذلك على الدوام ليزداد الاتفاق بيننا وليوجد الإخاء بأسمى معانيه
بين صفوفنا

وإني لأدعو كل واحد منكم للدخول في الحزب الوطني ، حتى تتسع دائرة
العمل لخدمة مصر ، ويزداد الطالبون للاستقلال ، الممثلون للأمة في هممتها ونخوتها
واجتماع كلمتها ، العاملون على إنالتها شرف الأحياء ومجد الراقيين !



فهرست الكتاب

صفحة	
٥	إهداء الكتاب
٦	مقدمة الطبعة الثالثة
٨	مقدمة الطبعة الثانية
١١	مقدمة الطبعة الأولى
١٦	اقسام الكتاب

الفصل الاول

١٨	نشأة الفقيه والعصر الذي ظهر فيه
٢٣	في المدرسة الثانوية
٢٢	في مدرسة الحقوق
٢٣	نشأته الأخلاقية
٢٤	نشأته الوطنية
	العصر الذي ظهر فيه
٢٧	مصطفى كامل
١٨	نشأته العائلية
١٨	والد المترجم
٢٠	والدة المترجم
٢١	نشأة الفقيه المدرسية
٢١	وفاة والده
٢٢	حصوله على الشهادة الابتدائية

الفصل الثاني

المرحلة الأولى من الجهاد

٢٣	في المدرسة الثانوية وفي مدرسة الحقوق
٢٨	رواية (فتح الأندلس)
٢٩	امتحان السنة الثانية
٤٠	حصوله على شهادة الحقوق
	إنشاء مجلة المدرسة
	اتصاله بعبد الله نديم
	سفره إلى باريس لإتمام امتحان الحقوق

الفصل الثالث

المرحلة الثانية من الجهاد

صفحة

٤١	بعد نيله شهادة الحقوق	٤١	شعبوره بواجبه نحو مصر
٤٣	جهاده بعد عودته إلى مصر	٤١	حديثه في جريدة (جازيت دي تولوز)
٤٤	دراسته المسألة المصرية		

الفصل الرابع

جهاده سنة ١٨٩٥

٤٥

خطبته في تولوز (أول خطبة سياسية له	٤٥	حديثه مع السكولونل بارنخ
في أوروبا)	٤٦	نشر الدعوة الوطنية
في فيينا	٤٦	احتجاجه على تأليف المحكمة المختصة
رسائله في أخطار الاحتلال البريطاني	٤٧	حضور النائب الفرنسي دلونكل
أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا	٤٧	سفر المترجم إلى باريس ودعايته للقضية
تعرفه إلى مدام جوليت آدم	٤٧	المصرية في أوروبا
حديثه في جريدة (الكلير)	٥٠	نداؤه إلى مجلس نواب فرنسا
خطبته في الجمعية الجغرافية بباريس	٥٢	حديثه في جريدة الجورنال

الفصل الخامس

جهاده سنة ١٨٩٦

٦٢

أول خطبة وطنية له بالاسكندرية	٦٢	خطابه إلى جلادستون في شأن الجلاء
هدية الثغر إلى المترجم	٦٣	رد جلادستون
برهان الإخلاص من أهالي الاسكندرية	٦٥	خطابه الثاني إلى جلادستون
للوطى الغيور مصطفى كامل	٦٦	عودته إلى مصر
كتاب المترجم إلى أهالي الاسكندرية	٦٦	كتابه إلى مدام جوليت آدم

صفحة	صفحة
٧٧	٦٩
٧٨	٧١
٨٠	٧٢
٨٣	٧٤
٨٧	٧٤
٨٧	٧٦

الفصل السادس

جهاده سنة ١٨٩٧

١٠٢	٩٠
١٠٣	٩٠
١٠٥	٩١
١٠٦	٩٣
١٠٦	٩٤
١٠٧	٩٥
١٠٨	٩٦
١٠٨	٩٧
١٠٨	٩٧
سفره إلى برلين ثم عودته إلى	اقتراحه على تركيا اشتراط الجلاء
باريس	٩٨
١١٠	٩٨
١١١	١٠٢

الفصل السابع

صفحة

١١٣	حادثة فاشودة وجهاد الفقيد سنة ١٨٩٨		
١١٩	الوطنية	١١٣	خطبته في حديقة الأزبكية
١٢٢	ثبات مصطفى كامل في الجهاد	١١٤	تمجيد الوطنية
	خطاب الفقيد إلى فريد بك في ١٩	١١٥	الوطنية والمال
١٢٥	أغسطس سنة ١٨٩٨	١١٥	الدعوة إلى الحياة الحرة
	خطاب الفقيد إلى فريد بك في	١١٦	الرد على الحملات الاحتلالية
١٢٦	٤ سبتمبر سنة ١٨٩٨	١١٧	ظهور كتابه عن المسألة الشرقية
١٢٧	خطبته بالقاهرة	١١٧	جهاده في أوروبا
			حادثة فاشودة وتأثيرها في الحركة

الفصل الثامن

١٣٠	جهاده سنة ١٨٩٩		
١٣٩	إنشاء مدرسة مصطفى كامل	١٣٠	اتفاقية السودان
١٤١	سفره إلى أوروبا	١٣٢	نص اتفاقية السودان
١٤١	الإعانة عليه برتبة المتمايز		احتجاج الفقيد على اتفاقية
١٤٢	عودته إلى مصر	١٣٦	السودان
١٤٢	خطبته بالقاهرة	١٣٩	دعوته إلى نشر التعليم القومي

الفصل التاسع

١٤٣	ظهور اللواء والجهاد الأكبر		
١٤٩	دعوته إلى إحياء الصناعة	١٤٣	ظهور اللواء سنة ١٩٠٠
١٤٩	إحياء ذكرى الرجال العاملين	١٤٥	خطبة الفقيد بالاسكندرية
١٥١	خطبته في افتتاح مدرسة الشوربجي	١٤٧	سفره إلى أوروبا
١٥٣	في باريس	١٤٨	دعوته إلى الاعتماد على نفسها

صفحة		صفحة
١٥٩	خطبة الفقيد في الاحتفال	احتفال مدرسة مصطفى كامل برآسة
١٦١	وصف الخطبة وتأثيرها	الأمير محمد ابراهيم
١٦٤	دعوته إلى الدستور	محاربة اليأس ، والثقة في الأمة
١٦٥	بحي . مدام آدم إلى مصر	الثقافة الوطنية
١٦٨	الإنعام على الفقيد بالباشوية	خطبة الأمير محمد ابراهيم
		الاحتفال بالعيد المئني لولاية محمد على ١٥٨

الفصل العاشر

١٦٩	الاتفاق الودي بين فرنسا وانجلترا	١٦٩	ابرام الاتفاق سنة ١٩٠٤
١٧٨	سياسة الاحتلال	١٧٠	تأثير الاتفاق في مصر
١٧٩	الوطنية والجهاد والدعوة إلى الاتحاد	١٧١	أثر الاتفاق في نفس المترجم
١٨١	ظهور كتابه عن اليابان		خطبة رياض باشا في احتفال مدرسة
	الاحتفال بعرض الجيش الانجليزي	١٧٢	محمد على الصناعية
١٨١	في ميدان عابدين	١٧٥	خطبة الفقيد بالاسكندرية
١٨٨	زيارات اللورد كرومر للأقاليم	١٧٦	التضحية والثبات
١٨٥	تقارير اللورد كرومر	١٧٦	الوطنية لانثي أمام العقبات
١٨٥	تعيين ياور انجائزي للخدوي	١٧٧	الاستقلال والاحتلال
١٨٥	ظهور كتاب (المصريون والانجليز)		

الفصل الحادي عشر

نادي المدارس العليا

١٨٨	وتطور الأفكار سنة ١٩٠٥ و ١٩٠٦	١٨٨	التفكير في إنشاء النادي
١٩٢	إضراب طلبة الحقوق سنة ١٩٠٦	١٨٩	أول جمعية عمومية للنادي
١٩٥	حادثة العقبة سنة ١٩٠٦	١٩١	افتتاحه
١٩٦	زيادة جيش الاحتلال		

الفصل الثاني عشر

صفحة	صفحة
١٩٧	حادثة دنشواي
٢٢١	الدستور وحقوق المصريين
٢٢٣	مغادرة الفقيه لندن وسفره إلى فيشي
٢٢٤	عودته إلى مصر
٢٢٧	خطاب الفقيه إلى فريدريك في سبتمبر سنة ١٩٠٦
٢٣٢	نتائج حادثة دنشواي
٢٣٢	(١) اشتداد ساعد الحركة الوطنية
٢٣٣	(٢) اهتمام الصحف العالمية بالمسألة المصرية
٢٣٣	(٣) تغيير سياسة الاحتلال
٢٣٣	(٤) تأسيس الجامعة المصرية
٢٣٥	(٥) تعيين سعد زغلول باشا وزيراً للبعارف
٢٣٦	استقالة اللورد كرومر
٢٣٨	الاتحاد
١٩٧	تفاصيل الحادثة
١٩٩	المحاكمة
٢٠١	الحكم
٢٠١	كيف قوبل الحكم
٢٠٢	تنفيذ الحكم
٢٠٣	مصطفى كامل وحادثة دنشواي
٢٠٤	إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن
٢١٣	مصطفى كامل في لندن
٢١٤	حديثه في جريدة الديلي كرونكل
٢١٥	احتفال الشرقيين بالفقيه في لندن
٢١٦	خطبة السهروردي
٢١٧	خطبة صاحب الترجمة
٢١٩	ولية (كارلتون) وخطبة المترجم
٢١٩	الاستقلال والمال
٢٢٠	السودان
٢٢١	الامتيازات الأجنبية

الفصل الثالث عشر

٢٣٩	جهاد الفقيه عام ١٩٠٧
٢٤٢	ظهور ليتندار اجبسيان وذى اجبسيان
٢٤٢	الاتحاد
٢٤٣	حفلة تكريم اللورد كرومر
٢٤٣	تعيين المستر هيل ناظراً لمدرسة الحقوق
٢٤٤	استاندرد
٢٤١	خطبتان لصاحب اللواء
٢٤٢	الأمل

صفحة		صفحة
٢٤٩	• • • بازمان	٢٤٥
٢٥٢	• • • عظم منزلة الفقيد	كتاب المترجم إلى السير هنري كامبل

الفصل الرابع عشر

تأسيس الحزب الوطني

٢٥٥

(حزب الجلا)

٢٦٠	خطبة الفقيد في الجمعية العمومية	٢٥٦	تاريخ الحزب الوطني
٢٦٢	أول لجنة إدارية للحزب الوطني	٢٥٦	خطبة الفقيد الكبرى بالاسكندرية
٢٦٣	الإفراج عن مسجونى دنشواى	٢٥٨	وصف الاجتماع وتأثير الخطبة
		٢٦٠	أول جمعية عمومية للحزب الوطني

الفصل الخامس عشر

القضاء المحتوم

٢٦٥

	حفلة إزاحة الستار عن تمثال	٢٦٦	• • • مرض الفقيد
٢٩٣	مصطفى كامل	٢٦٧	• • • • الوفاة
٢٩٣	خطبة على ماهر باشا	٢٦٧	• • • جنازة الزعيم
	مقتطفات من أقوال الشعراء والكتاب	٢٧١	• • • قصيدة حافظ إبراهيم
٢٩٧	لمناسبة حفلة إزاحة الستار	٢٧٣	• • • رثاء الزعيم وحفلات التابين
٢٩٧	• • • قصيدة خليل مطران	٢٧٤	• • • رثاء شوقي لمصطفى كامل
٣٠٠	• • • كلية الأستاذ محمود العمري	٢٧٧	• • • حفلة التابين الكبرى يوم الأربعاء
٣٠٤	• • • قصيدة أحمد محرم	٢٧٨	• • • خطبة محمد بك فريد
٣٠٦	• • • جرائز مصطفى كامل	٢٨١	• • • قصيدة اسماعيل باشا صبرى
٣٠٦	• • • (١) المباراة الأدبية	٢٨٢	• • • قصيدة حافظ إبراهيم
٣٠٦	• • • (٢) جائزة كلية الحقوق	٢٨٥	• • • بقية المراثى
٣٠٦	• • • (٣) جائزة كلية تولوز	٢٨٦	• • • قصيدة خليل مطران
٣٠٧	• • • كلية الأستاذ محمد محمود جلال	٢٩١	• • • تمثال مصطفى كامل
٣٠٩	• • • ضريح مصطفى وفريد		

الفصل السادس عشر

الخديو عباس حلمي الثاني

٣١٤

صفحة

٣٢٥	بيع البواخر الخديوية
٣٢٧	بيع أملاك الدائرة السنية
٣٢٧	الشروع في بيع سكك حديد السودان
٣٢٨	حوادث السودان
٣٢٨	حملة دنقلة سنة ١٨٩٦
٣٣٠	واقعة فركة
٣٣٠	واقعة الحفير ودنقله
٣٣٠	استرجاع أبي حمد وبربر
٣٣١	واقعة عطبره
	واقعة أم درمان واسترجاع
٣٣١	الخرطوم
٣٣٢	رفع الراية البريطانية على السودان
٣٣٣	اتفاقية ٩ يناير سنة ١٨٩٩
٣٣٣	تعديل الحدود بين مصر والسودان
٣٣٣	تمرد في الجيش المصري
٣٣٤	زيارة الخديو للسودان
٣٣٥	افتتاح سكة حديد بورسودان

صفحة

٣١٤	التاريخ السياسي والتاريخ الوطني
٣١٤	نشأة الخديو عباس الثاني
٣١٤	ارتقاؤه العرش
٣١٥	الحوادث المهمة في عهده
٣١٥	أزمة فرمان سنة ١٨٩٢
٣١٧	أزمة إقالة الوزارة الفهمية
٣١٩	تأليف وزارة رياض باشا
٣١٩	شعور الأمة إزاء هذه الأزمة
٣٢١	موقف الدول
٣٢١	أزمة الحدود سنة ١٨٩٤
٣٢١	استقالة وزارة رياض باشا وتأليف
٣٢٣	وزارة نوبار
	وزارة مصطفى فهمي باشا (الوزارة
٣٢٤	الطويلة)
٣٢٥	أهم الحوادث في عهدها
٣٢٥	إنشاء البنك الأهلي

الفصل السابع عشر

مصطفى كامل والخديو عباس الثاني

٣٣٦

٣٤١	استقلاله عن الخديو
	خطابه إلى فريدريك في ١٣ أغسطس
٣٤٤	سنة ١٩٠٧

٣٣٦	صلة الخديو بالحركة الوطنية
	خطاب الفقيد إلى فريدريك في ٥
٣٣٨	أغسطس سنة ١٨٩٨
٣٣٩	طع علاقته بالخديو سنة ١٩٠٤

الفصل الثامن عشر

٣٤٦ مصطفى كامل وتركيا

الفصل التاسع عشر

٣٥٥ مجلس شورى القوانين

٣٥٥	الدور الثاني - المعارضة	٣٥٥	أدوار المجلس
٣٥٩	الدور الثالث - التراجع	٣٥٥	الدور الأول : دور الخضوع والاستسلام

الفصل العشرون

٣٦٠ مصطفى كامل ومعاصروه

٣٦٠	قصيدته في شكوى مصر من الاحتلال	٣٦٠	أصدقاؤه الاقربون
٣٨٠	قصيدته في استقالة اللورد كرومر	٣٦٠	محمد بك فريد
٣٨٣	قصيدته في الذكرى الاولى للفقيد شوقي	٣٦٠	رسائل مصطفى كامل إلى محمد فريد
٣٨٥	قصيدة شوقي في الاحتفال بالعيد المئني لولاية محمد علي .	٣٦٨	لطيف باشا سليم
٣٨٦	قصيدته في وداع اللورد كرومر	٣٦٩	علي بك نغرى
٣٨٨	قصيدته في ذكرى دنشواى	٣٧١	أصدقاؤه وأنصاره .
٣٨٩	في ذكرى الفقيد سنة ١٩٢٥	٣٧٣	تلاميذه
٣٩٠	قصيدته في ذكرى الفقيد سنة ١٩٢٦	٣٧٥	معاصروه من الشعراء والادبا .
٣٩١	اسماعيل صبرى باشا .	٣٧٥	حافظ ابراهيم
٣٩٣	قصيدته في عيد جلوس الخديو سنة ١٩٠٨	٣٧٥	قصيدة حافظ في حادثة دنشواى
٣٩٤			د في حفلة مدرسة مصطفى كامل
		٣٧٦	قصيدة حافظ في استقبال اللورد كرومر
		٣٧٩	كرومر

صفحة		صفحة	
٤٠٠	مصطفى كامل وطالعت حرب	٢٩٦	تخليل مطران . . .
٤٠١	مصطفى كامل ومصطفى فهمي باشا		قصيدته عن النهضة الوطنية سنة
٤٠٢	مصطفى كامل ويبرلوتي	٢٩٦	. . . ١٩٢٣
٤٠٣	مصطفى كامل وسعد زغلول	٢٩٩	أصدقاء الفقيد في الشرق والغرب

الفصل الحادي والعشرون

٤٠٨	شخصية الزعيم		
٤٢٢ . . .	سياسته نحو النزلاء	٤٠٨ . . .	دراسة شخصية الفقيد
٤٢٢ . . .	سياسته الشرقية والاسلامية	٤٠٨ . . .	إيمانه برسالاته
٤٢٤	مقدرته الخطابية	٤٠٩ . . .	صفاته وأخلاقه
٤٢٥	مقدرته الصحفية	٤١١ . . .	وطنيته
٤٢٧	فضله على الحركة الوطنية	٤١٢ . . .	سبيله إلى الوطنية
٤٢٢	فضله على الوحدة الوطنية	٤١٣	بعض كلماته الخالدة في الوطنية
٤٢٣ . . .	تضحياته	٤١٧ . . .	عبقريته ومكانته السياسية

الفصل الثاني والعشرون

٤٢٥	نماذج من خطب الفقيد		
	(٤) خطبته بالاسكندرية يوم ٢٢ أكتوبر		(١) خطبته بالاسكندرية يوم ٣ مارس
٤٦٦ . . .	سنة ١٩٠٧	٤٣٥ . . .	سنة ١٨٩٦
٤٩٧ . . .	فهرست الكتاب		(٢) خطبته بالفرنسية في الاسكندرية
٥٠٧ . . .	فهرست الصور	٤٤٢	يوم ١٣ ابريل سنة ١٨٩٦
٥٠٨ . . .	فهرست هجائي للكتاب		(٣) خطبته في العيد المنيني لولاية
		٤٥٠ . . .	محمد علي

فهرست الصور

صفحة	مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية
٢٤	٤
خطاب الفقيه إلى فريد بك في ٢٤	المنزل الذي ولد فيه الفقيه
٢٢٧	١٩
سبتمبر سنة ١٩٠٦	مصطفى كامل في السابعة عشرة
٢٧٢	من عمره
جنازة الفقيه	٢٤
تمثال مصطفى كامل	خطاب الفقيه إلى شقيقه علي بك
٢٩١	٢٦
جلالة الملك يزبح الستار عن التمثال	مصطفى كامل في التاسعة عشرة
٢٩٤	من عمره
على قاعدة تمثال مصطفى كامل	٣٩
يوم إزاحة الستار عنه	الصورة الرمزية التي قدمها مصطفى
٢٩٦	كامل إلى مجلس نواب فرنسا
صورة الضريح الجديد لمصطفى وفريد بميدان صلاح الدين	سنة ١٨٩٥
٣١٣	٥١
بجوار القلعة	مصطفى كامل في الحادية والعشرين
كتاب الفقيه إلى فريد بك في ٥	من عمره
٣٣٨	٥٣
أغسطس سنة ١٨٩٨	مدام جوليت آدم
خطاب الفقيه إلى فريد بك في ٢٣	٥٧
٣٤٤	مصطفى كامل في الثالثة والعشرين
أغسطس سنة ١٩٠٧	من عمره
٣٦١	٧٥
محمد بك فريد	السودان المصري في عهد اسماعيل
خطاب الفقيه إلى فريد بك في ١٩	١٢١
٣٦٦	خطاب الفقيه إلى فريد بك في ١٩
يوليه سنة ١٨٩٨	١٢٥
خطاب الفقيه إلى فريد بك في ٢٢	أغسطس سنة ١٨٩٨
٣٦٧	خطاب الفقيه إلى فريد بك في ٤
يوليه سنة ١٨٩٨	سبتمبر سنة ١٨٩٨
٣٦٨	١٢٦
لطيف باشا سليم	١٥٧
٣٧٠	الأمير محمد إبراهيم
علي بك فخري	افتتاح نادي المدارس العليا
٤٠٠	١٩٠
مصطفى كامل بين جمع من أصدقائه	صورة أخرى للحنلة
٤٠٢	١٩٢
مصطفى كامل وبيرلوت	

فهرست هجائی للکتاب

صفحة		صفحة	(أ)
٢٢	احمد بك حمدى	٢٧٢	ابراهيم افندى أنيس
١٦٥	احمد بك خشبة	٢٧٢	ابراهيم افندى حافظ
٢٧٤	احمد افندى رمضان زيان	٢٠١	ابراهيم حسنين السيسى
٤٠٣ و ٢٠٠	احمد فتحى زغول باشا	٢٧٢ و ٢٦٢	ابراهيم بك حفظى
١٩	احمد افندى زكى	٢٤٠	ابراهيم بك حلیم
٢٣٤	احمد افندى شاكر (ملازم ثان)	٢٧٤	ابراهيم دسوقى أباطه باشا
١٤٤	احمد شوقى بك (أمير الشعراء)	٢٧٣	ابراهيم بك راتب
٢٧٤ و ٢٦٤ و ٢٧٢ و ٢٨٦ و ٢٨٨		٢٠	ابراهيم افندى صبرى
٢٩٠ و ٢٨٩		٢٧٣	الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى
٢٠١	احمد عبد العال محفوظ	٢٩٩ و	
٢٩٢	احمد عبد اللطيف بك	٢٧٢	ابراهيم عبدالواحد
١٨٩	احمد عزى بك	٢٦٤	ابراهيم بك فريد
٢٧٢	الدكتور احمد على	٢٤٣	ابراهيم فؤاد باشا
٢٧١ و ٢٦٢ و ٢٤٠ و ١٥١	احمد فايق باشا	٢٨٦	ابراهيم افندى فهمى
٢٢٣	الاستاذ احمد فايق	٢٤٠	ابراهيم افندى نيازى
٢٧٢ و ٢٦٢	الدكتور احمد فهمى الجبهى	٣٢٠	ابو حمد
٣٧٣	احمد بك فهمى القطان	١٦٩	الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤
٢٧٣	الدكتور احمد فؤاد	١٨٩	احمد امين بك
٢٤	احمد بك كمال	٢٧٢	احمد افندى ابراهيم القويضى
٢٧١	احمد بك لطفى	٤٢٩	الدكتور احمد توفيق
٢٩٤ و ٢٨٦	احمد اطفى السيد باشا	١١٣	احمد حافظ بك عوض
٢٠٤ و ٢٩٩	احمد محرم (الشاعر)	٢٧٢ و ٢٤١	احمد بك حجازى
٢٠١	احمد محمد السيسى	٢٠٢ و ١٤٤	الاستاذ احمد حلى
٢٧٣	احمد مختار المهندس	٢٧٣ و ٢٧٣	
٢٥٠ و ٨٣	احمد مختار باشا الغازى		

صفحة		صفحة	
٤٠٠	إرنست جوديه ٥٩	١٧٤	احمد منشاوى باشا
٣٢٤	إرنست كاسل (السير)	٢٤٣ و ٣١٧ و ٢٤٣	احمد مظلوم باشا
١١٩	اريتريه	٣٧١ ١٤٤	احمد بك نجيب
٤٤٨ و ٣٢٣	اسماعيل باشا (الخدوي)	٣٩٩	احمد نسيم (الشاعر)
٣٧٢	اسماعيل العسيلي	٣٧٣	الاستاذ احمد وجدى
٢٦٢	اسماعيل بك الملوانى	٣٧٣	الاستاذ احمد وفيق
٢٦٣ و ٢٤٠	اسماعيل افندى حافظ	٣٧٤ ٣٧٣	الدكتور احمد بك السعيد
١٨٩	اسماعيل بك زهدى	٣٧١	احمد بك الصوفانى
٣٧٤	اسماعيل بك شيرين	٣٩٩	احمد الكاشف (الشاعر)
٣٧١ و ١٤٤ و ٦٧	اسماعيل بك شيمى ٢٣	٣٧٣	احمد يحيى باشا
٣٧٢	اسماعيل بك صادق	٢٨٦	الاستاذ اخنوخ فانوس
٢٧٠ و ١٤٤ و ٢٣	اسماعيل صبرى باشا	٢٦٥	المسيرو أدولف ادير الاسكندرية
٢٩٣ و ٢٨١ و ٢٧٠		٣٧٣	الامير افندى العطار
٣٧٢	الدكتور اسماعيل بك صدق	٣٧٢	الحسينى افندى العسقلانى
٣٧٢	اسماعيل صدق باشا	٣٧٣	السيد افندى الخطيب
٢٤٠	اسماعيل كامل	٣٧٣	السيد افندى الشنيطى
٢٢	اسماعيل افندى فهمى	٣٧٢	الدكتور السيد بك رفعت
٣٧٢ و ٢٦٢	اسماعيل بك لييب	٢٠١	السيد عيسى سالم
٣٧٢	اسماعيل بك كامل	٢١٥	السير افلن بارنج
٢٥٨ و ١٥٥ و ١٤٨	اسماعيل باشا محمد	٢٩٢	الياس بك عوض
٣٧٢ و		٣٢٥	أن وألدرسن
٣٧٥	الاستاذ اسماعيل مظهر	٣٢٦	لويين بالمر (السير)
١٩٣	إضراب طلبة الحقوق	٢٤٢ و ٢٢٨	الدون جورست (السير)
٢٣٠	ام درمان (واقعة)	٢٣٤	ادريس عبد الله (الملازم الثانى)
٢٧٤	امام واكد	١٦٩	إدوارد السابع (الملك)
٢٢٩	امبقول	٢٠٨	إدوارد جراى (السير)
		٢٤٥ و ١٩٣	الاستاذ ادوار لامبير

صفحة		صفحة	
١٩٧	بوستك (الطبيب)	٢٤٨ و ٢٢٠	امتيازات أجنبية
١٩٩ و ١٩٧	بول (الكاتب)	٢٧٢	أمين بك اسماعيل
٢١٨	بول (الدكتور)	٢٧٤ و ١٩٢	أمين بك الرافعي
٢٨٠ و ٢٠٠	المستر بوند	١٨٩	أمين سامي باشا
٢١٨	المستر بيلس	٢٧٤ و ١٤٤	أمين عمر
٢٠٠ و ١٩٧	بين كرفن (الميجر)	٢٣	أمين باشا فكري
٤٩٢ و ٣٩٩	بييرلوت	٢٧١	أمين يحيى باشا
٤٢٢ و ٤٢١ و		٢٧٢ و ٣٠٥	انطون بك الجميل
١١٩	بتي شنقول	١٢١ و ١٢٠	اوغنده
٣٤٣ و ٣٢٥	البنك الاهلي		
٩٠	البوير	(ب)	
(ت)		٤٥	بارنج (الكدولونل)
١١٩	تاجوره	٢١٨	بانديت كرشانفرما
٤٠٠	المسيو تارديو	٢٢٠	بربر
١٣٦	ترايبا (ميناك)	١٢٠	بربره
٣٤٦	تركيا (مصطفى كامل و)	٥٠	المسيو بريسون
٢٩٢ و ١٥١	تمال مصطفى كامل	١٥١	بريم
٣٤٤	توفيق باشا (الخدوي)	٢٧٢ و ٣٤	بشاره تقلا باشا
٢٧٢ و ٢٤٠	توفيق بك حموده	٢٦٥ و ٢٠٠ ١٤٣ و ١٣٦	بطرس باشا غالي
٣١٧ و ٣١٥	تيجران باشا	٤٠٠	المسيو بلتان
(ث)		١٦٥	بليغ باشا (اللواء)
١٥	ثورة سنة ١٩١٩	٢١٥	بها ونجري (السير)
٢٦ و ٢٨	الثورة العراقية	٢٢٥	بواخر خديوية
١١٩	الثورة المهدية	١٩٨ و ١٩٧	بورثر (الملازم)
(ج)		٢٦٤	الدكتور بورجيه
٤١	جازيت دي تولوز (جريدة)	٢٣٥	بور سودان

صفحة		صفحة	
٢٤٠	جلال الدين بك عارف	٤٤٣ و ٤٣٩ و ١٦٧	جامبنا
٢٥	جمعية الاعتدال	١٠٨	جان دارك
٢٣ و ٢٥	جمعية الصليبية الأدبية	٢٧٢	جبرائيل تقلا باشا
٦١	جول سيمون	٢٤٧ و ٢٤٥	المسيو جرانمولان
٨١ و ٨٠	جوزيف بويوسكي	١١٩	چردفون (رأس)
٩١	جولد بنك	١١٩	جيبوتى
٩٤ و ٦٦ و ٥٦	مدام جوليت آدم	٨٢ و ٥٤	جريدة اكسترا بلاط
١٦٥ و ١٦٤ و ١٤١ و ١١٨		١٦٣	جريدة الكوريري اجبسيان
٤١٠ و ٤٠٠ و ٣٦٩ و ٣٥١ و ١٨٥		٩٦	جريدة برلينر بوست نخرختن
١٦١ و ١٤٣ و ٩١ و ٤٥	جريدة الأهرام	٩٠ و ٧٨	جريدة برلينر تاج بلاط
٤٢٨		٢٩٤ و ٩٦ و	
١٦٤ و ٩٧	جريدة الإجبسيان جازيت	٧٨	جريدة ذى بوست
١٠٦ و ٧٤ و ٦٠ و ٥٢	جريدة الإكلير	١٤	جريدة الاجبسيان استاندرد
٢٥٢ و ١٥٣ و ١١٩ و		٢٣٩ و ٢٣٩	
٢٧٠	جريدة الايجبت	٨٤	جريدة فرنكفور تركوريه
٢٥٢	جريدة الايكو دى باريس	١١٠	جريدة فوسيشه زيتنج
٥٦	جريدة البنى مارسلية	١١٦	جريدة لاكوريري
١٠٢	جريدة مستر لويد	١١٧	جريدة لانترانسيجان
١٨٠ و ١٦٢	جريدة البصير	٨٧	جريدة لاندبانديس بلج
٢٢٩	جريدة البول مول جازيت	٧٤	جريدة ليبر بارول
٢١٢	جريدة الترييون	٢٢٩ و ١٤	جريدة ليتندارد اجبسيان
٤٢٩	جريدة الشمس	٤٠٦ و ٣٩٩ و ٢٨٦ و	
٥٢	جريدة الجورنال	١١٦	جريدة لوريان
٨٩	جريدة الجورنال اجبسيان	١٠٢	جريدة ماجنايوك لاجبا
١٨٦	جريدة الجورنال دى كير	١٠٢ و ٨٥	جريدة نيويورك هرالد
١٦٨ و ١٣٦ و ٦٠	جريدة الجولوا	٣٥٢ و ١٠٣	
٢٧٢ و ٧٧	جريدة الديبا	٧٧ و ٧٦ و ٦٤ و ٦٣ و ٦٢	جلادستون

صفحة		صفحة	
٢٧٢	حامد بك العلالي	٤٥	جريدة الديبش
٢٧٢	حافظ باشا المشاوي	٢٢٣	جريدة الديبش جرافيك
٢٠١	حسن اسماعيل السيسى	٢١٤	جريدة الديبش كرونكل
٢٢١	حدود (أزمة)	٢٥٢	جريدة الديبش نيوز
٢٨٤ و ٢٤٠	حسن بك جمجوم	٢٥٧ و ٩٨	جريدة الريفورم
٢٧١ و ٢٦٢ و ٢٤٠	حسن حارس باشا	٤٥٩ و ٢٥٢ و ٢٤٥	جريدة الطان
٢٧١	الاستاذ حسن حسنى	٥٥	جريدة الستاندرد
٢٠	الاستاذ حسن حسنى كامل	١٤٥	جريدة العالم الاسلامى
٢٧٢ و ٢٨٦	حسن بك حمدى	جريدة الفار دالكسندرى ٦٨ و ٧٢	
٢٧٢	الشيخ حسن خفاجى	١٠٠ و ١٦٢	
٢٧٢	حسن خيرى باشا	جريدة الفيجارو ٢٥٢ و ٢٠٤ و ١٨٥	
٢٧١	حسين رشدى باشا	٢٥٩	
٢٧٢	حسن بك رضا	٩٧	جريدة الليبرتيه
٢٧٢	حسن رضوان باشا	١٤٣ و ٦٠ و ١٤	جريدة اللواء
٢٧٢	حسن افندى سيف	١٩٩	جريدة المقطم
٢٧٣	الاستاذ حسن شافعى الجزاوى	جريدة المؤيد ٥٤ و ٤٨ و ٤٣ و ٣٧ و ٣٠	
٢٦٧ و ٢٤١ و ١٥٥	حسن باشا عاصم	٦٧ و ٧٤ و ٩٩ و ١٠٣ و ١١٣	
٢٧٢ و ٣٦٤ و ٢٩٢	حسن عبدالرازق باشا	١٤٣ و ٣٢١	
٢٧٢	الاستاذ حسن عبد المعطى	١٠٠	جريدة الوطن
٢٠١	حسن على محفوظ	٤٢٨	جمال الدين الأفغانى
٢٢٣	حسن لبيب (اليوزباشى)	٢٢٣ و ٢٢٤	الجمعة المصرية
٢٧٢ و ٢٧١ و ٢٤٠	حسن محسن باشا	٦١	الجمعية الجغرافية بباريس
١٤٩	حسبوك محمد	(ح)	
٢٧٢	حسن بك نبيه المصرى	حافظ ابراهيم (شاعر النيل) ٢٨٢ و ٢٧١	
٢٧٢	حسن فهمى بهجت	و ٣٧٤ و ٣٧٥ و ٣٨٠ و ٣٨١ و ٣٩٧	
٢٧١ و ١٥١	حسين بك القرشولى	٢٧٣ و ١٨٦	حافظ عفيفى باشا
		٣٧٢	حافظ افندى مصطفى

صفحة		صفحة	
٢٤٧ و ٢٤٤	دانلوب (المستر)	٣٧٤	حسين بك شيرين
١٦٦	دائينوس باشا	٣٧١	حسين بك حسنى العمرى
٣٢٦	دائرة سنية	٢٤٣ و ٢٤٢	حسين فخرى باشا
٣٧١	الاستاذ دافيد حزان	٣٧٤ و ١٦٥	حسين بك فهمى
٣٧٢	الاستاذ داود بركات	٣٧٤	الدكتور حسين همت
٤٧	المسيو دلونكل	٣٧٥	السلطان حسين كامل
	دنشواى (حادثة) ١٩٧ و ٣٧٤ و ٣٨٩		حسين باشا واصف (اخو الفقيد) ١٩ و ٢٢ و ٣٧١ و ٤٢٣
	٣٩٥ و		حسين باشا واصف ١٦٥ و ١٦٨ و ٤٠٠
٣٢٧	دنقلة (حملة)		الدكتور ١٦٤ و ٢٢١ و ٤٩٤
٤٠	المستر ديروزاس		الدكتور حسين يسرى ٢١٢ و ٣٧١
٣٤٣	المستر ديسى		حفيفة (السيدة) ٢٠
١٦٧	الكونتس دى كولتور		حمد الله بك أمين ٣٢٤
٢١١	المستر ديللون		الأمير حيدر فاضل ١٦٥ و ٢٣٥ و ٣٧١
	(ر)		الحزب الوطنى ٤٠٥ و ٥٥٥ و ٢٧٧ و ٣٩٩ و ٤٢٩
٢٠١	رسلان السيد		الحفير (واقعة) ٧٠ و ٣٢٠
٣٧١	رضوان بك شريف		(خ)
٣٧٢	السيد رضوان جلال		خالد باشا لطفى ١٤٤
٩٣	رزير (الدكتور)		خالد بك سعيد ٢٤٠
٢٢٢	روبرتسن (المستر)		الخرطوم (واقعة) ٣٢٠
٣١٧	روزبرى (اللورد)		خط الاستواء (مديرية) ١٢٠
٤٠٠	الكونت روشفور		خليل بك محمود الفلكى ٣٧٢
	رياض باشا ٢٠ و ١٧٢ و ٢٤٣ و ٣١٨		خليل مطران ٣٤ و ٦٤٤ و ١٦١
	٣٥٦ و ٣٢٣ و		٢٨٦ و ٢٨٧ و ٢٩٧ و ٣٩٧
٢٨٦ و ٣٦٨	المسيو ريمون كولرا		(د)
	(ز)		دار التمثيل العربى ٣٩٠
٣٤٢	زرفودا كى		
(٣٣)			

صفحة		صفحة	
	السودان (اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩)	١٦٣	زيزنيا (مشرح)
	١٣ و ١٢ و ١٣ و ١٣ و ٣٣٢	١١٩	زِيلَع
٣٢٧	السودان (حوادث)	٢٨٦	زينب فواز (السيدة)
٣٣٣	السودان (حدود)		(س)
١٢١	السودان المصري في عهد اسماعيل		
١٦٥	السيد بك خثيمة	١١٧ و ١٠٢	اللورد ساسبري
٢٨٦	السيد بك رفعت (الدكتور)	١٨٩	شامى عصمت بك
٢٠١	السيد العوفي	٢٣٦ و ٢٣٥ و ٣٠	سعد زغلول باشا
٢١٢	المستر ستيد	٤٠٥ و ٤٠٤ و ٣٠٣ و ٢٤٤ و ٢٤٣	
١٠٣	المسيو سيمون	٤٢٨ و ٤٠٦	
	(ش)	٣٧٣	سعيد بك طلحات
		٣٢٣	سلفاجو
١٩٩	شحاته عبد النبي	١٥٥	الشيخ سليم البشرى
٣٧٢	شعبان افندى خليفه	٣٧٣	سليم باشا الحجازى
٣٧٥	الدكتور شفيق منصور	٣٧٥	الأستاذ سليمان حافظ
٤٠٠	شكرى غانم (الشاعر)	٣٧٣ و ٢٨٦	سليمان على مطيريد
٣٧٢ و ٢٦٢	شمس الدين بك حموده	١٩	سليمان افندى علوى
١٨١	الشمس المشرقة (كتاب)	٢٠١	السيد سليمان خير الله
١١٠	الدكتور شيو نفرت	٤٠١ و ٣٢٣	المسيو سوارس
	(ص - ط)	٢١٦	المستر سوينى
		١٩٨ و ١٩٧	سميث ويك (الملازم)
		١٩٩	سيد أحمد سعيد
٣٧٢	الشيخ صالح الشهابى	٣٧١ و ٩٢	سيد باشا شكرى
٣٧٣	صالح بك القاضى	٣٧٤ و ١٤٤	سيد على
٣٣٤	صالح افندى زكى (الملازم الأول)		الدكتور سيد عبد الحميد سليمان باشا
١٩٥	طابة (حادثة)	٣٧٤	.
١٩٦	طور سيناء	٣٧١ و ٢٤٠	صيف الله يسرى باشا

صفحة		صفحة
٢٦٢	عبد الرؤوف بك السيوفى	(ع)
٣٧٤	عبد السلام بك ذهنى	٤٠١
١٥٥	عبد السلام باشا المويلحى	٣٤١
٣٧١	الشيخ عبد العزيز جاويش	٢٠
٣٧٥	الدكتور عبد العزيز عمران	٣١٤ و ١٨١
٣٧١	عبد العزيز بك فريد	٢٨١ و
١٨٩	عبد العزيز نظمى بك (الدكتور)	٣٧١
	٣٧٢ و ١٩١ و	عبد الباقي بك العمرى
٢٩٢	عبد العزيز فهمى باشا	٣٧٥
٣٧٣	الدكتور عبد الغفار متولى	٢١٦
١٩	عبد الفتاح فتحى (الدكتور)	٣٧٣
٣٧١	عبد الفتاح باشا يحيى	٣٧٣
٨١	عبد القادر (الأمير)	عبد الحميد افندى شكرى (الملازم الثانى)
٣٧٣ و ١٤٤	عبد القادر حمزة باشا	٢٣٥
٣٧١	عبد القادر بك الغريانى	٣٧١ و ٣٥٦ و ١٥٥
١٦٦	عبد الكريم بك الهامرى	٣٧١ و ٢٦٢ و ٢٤٠
١٦٦ و ١٦٥	عبد اللطيف بك أبو ستيت	٣٧١ و ١٨٩
٣٧٣	عبد اللطيف افندى الصاوى	٣٧٥
٣٧١	عبد اللطيف بك الصوفان	٣٦٤
٢١٨ و ٢١٧	عبد الله المأمون السهروردى	٣٧٢
٣٧٠	عبد الله افندى حسن عوض	٣٧٣
٣٧٢ و ٢٦٢	عبد الله بك طلعت	عبد الرحمن الرافعى بك ١٧ و ١٤٥ و ١٩٠
٣٧٢	عبد الله بك محمد الصيدلى	٣٧٤ و ٣١١ و ٣٠٦ و ٢٩٦ و
٣٦٤	عبد الله فريد	٣٧٤
٣٦ و ٣٥	السيد عبد الله نديم	٣٧١
٣٧١	الشيخ عبد المجيد اللبان	٢٤٣
		عبد الرحمن عزام باشا
		عبد الرحيم بك احمد
		السيد عبد الرحيم الدر داش

صفحة		صفحة	
٣٧٢	على بك اسماعيل (أميرالاي)	٣٧١	عبد المجيد بك رضوان
٣٧١ و ١٨٩	على بك حسنى المصرى	٢٤٠	عبد المجيد بك سلطان
٣٧١	على بك سلام (الدكتور)	١٨٩	عبد المجيد بك محمود (الدكتور)
٣٧٣	على افندى صادق	٢٧٢ و ١٩٢	الاستاذ عبدالمقصود متولى
٣٧٢ و ٢٦٢	على بك لطيفة	٣٧٣	عبد الملك بك حمزة
٣٩٩ و ٣٣	الشيخ على الليثى	٣٧٥	الاستاذ عبد الوهاب البرعى
٣٧٣ و ٣٣	على بك فخرى	٣٧١	الشيخ عبد الوهاب النجار
٣٧٢ و ٢٦٢	على بك حشمت	٣٧٤	الاستاذ عبد الوهاب على
٢٠١	على على شعلان	٢٢	عثمان بك أنور
٦٩ و ٣٦ و ٢٠ و ١٨ و ١٤	على بك فهمى كامل	٣٧٢ و ٢٤٠	عثمان بك أبو شنب
٢٦٢ و ٢٤٠ و ١٤٧ و ١٤٢ و ١٢٣		٣٧٢	عثمان افندى جلال
٤٠١ و ٣٧١ و ٢٩٢ و ٢٨٨		١٤٤ و ٢٠	عثمان افندى صبرى
٣٧٤	الاستاذ على فهمى خليل		عثمان افندى عارف (الملازم
٢٩٣	على ماهر باشا	٣٣٤	(الثانى)
٤٠٥ و ١٥٠ و ١٢	على باشا مبارك	٣٧١	عثمان باشا ماهر
٣٧٣	على مراد	٢٤٢	عثمان بك مرتضى
	على افندى محمد (والد الفقيد)	٣٧١	عثمان بك لبيب
	٣١ و ٢٠ و ١٨	٢٠١	عزت عمر محفوظ
٣٧١ و ٢٦٢	على باشا آصف	٣٧١	عزت بك شكرى
٤٢٧ و ٢٣٠	الشيخ على يوسف	٣٢٠	عطبره (واقعة)
٢٦٢ و ٢٤٠ و ١٦٥	عمر باشا سلطان	٣١٩	عكاشة
	٣٧١ و ٢٩٢	٣٧٣	على الشمسى باشا
٣٧٤	عمر بك عارف	٣٧٢ و ٢٦٢	على بك المنزلاوى
٣٧١ و ١٩٠ و ١٨٩	عمر بك لطفى	٣٧٤	على افندى أبو النظر
١٦٥	عمر مكرم (السيد)	٣٧٢	الاستاذ على الغاياتى
٤٠٠	عنتره (مسرحة)	٣٧٢	على بك أبو الفتوح (باشا)
٢٠٤	العقبه (حادثة)		

صفحة		صفحة	
	(ك)	٢٠١	العیسوی محمد محفوظ
٢١٦	المستر كارل بلند	٣٧٣	عوض بك البحر اوى
٣٢١ و ٧١	كثشتر (اللورد)		(غ)
١٨٥ و ١٨٤ و ١٨٣ و ١٧١ و ٢٩	كرومر	١٢٨	غردون
٢٤٣ و ٢٣٧ و ٢٣٦ و ٢١٦ و ٢١٠			(ف)
٤٠٤ و ٣٨١ و ٣٧١ و ٣٣٥ و ٣١٧		٢٩٣ و ٢٩٢	فاروق (جلالة الملك)
٩٥	كرونزوت	٢٩٧ و	
١٢	كريستوف كولومب	١١٩ و ١١٣ و ١٣	فاشودة (حادثة)
٣٧٤	كجال بك الخشن	٤٠٠ و ١٣٠	
١٩٧	كشوش	٣٨	فتح الاندلس (رواية)
١٣١	كودوك	٣١٩ و ٧٠	فرکه (واقعة)
٣٢٢	كوربت (المستر)	٣١٥	فرمان سنة ١٨٩٢
١٠٨	كوشوت	٤٠٠	مسيو فلورانس
	(ل)	٢٤٠	فؤاد بك المنشاوى
	اللواء (انظر جريدة)	٣٧٢	فؤاد بك حسيب
٤٠٤ و ٢٠٠	لادلو (القائمقام)	٣٧٣	فؤاد بك سلطان
٣٦٩ و ٣٦٨ و ٣٣	لطيف باشا سليم	١٤٤ و ٤٩ و ٣٣	فؤاد سليم باشا الحجازى
٤٠٤ و		٣٧١ و ٣٦٨ و ٢٩٢ و ٢٦٢ و ٢٦١	
	(م)	٤٠٣ و	
٤٠٠ و ١٤٠	مارشان (السكبتن)	١٨٩	فؤاد صدق
٢٠٠	متشل (المستر)	١٥٥	فيضى باشا
١٦٦	متولى بك حزين	٣٤٤	فيكتور هيجو
٣٥٥ و ٣٠	مجلس شورى القوانين		(ق)
٣٦١ و ٣٥٧		٢٦٨ و ٢٣٥ و ٢٠٣	قاسم أمين
		٢٤٠	قلبنى فهمى باشا

صفحة		صفحة	
١٥٧ و ١٥٥ و ١٥٤	الأمير محمد ابراهيم	٥٨	المجلة الحديثة
٣٧١ و		٢١٢	مجلة المجلات الانجليزية
٢٨٦	محمد بك أبو شادي	٣٥	مجلة المدرسة
٣٧١	محمد بك أسعد	٣٥	مجلة الأستاذ
٣٧٢	محمد باشا أبو الفتوح	١٤٥	مجلة اللواء
٢٠٢	محمد أحمد السيسى	٤٢٩	مجلة العالمين
٣٧٢ و ٢٤٠	محمد بك أحمد الشريف	٣٢٢ و ٢٠٠ و ٤٦	محكمة مخصوصة
٢٢	محمد بك ادريس	١٦٦	مدني حزين
٢٤٣	محمد العياني باشا	٣٧١ و ٢٩٢ و ٢٨٦	مرقص حنا باشا
٢٠١	محمد الغباشي	٤٣٣ و ٤٣٢ و ٤٢٨	
٣٢٣ (ملازم أول)	محمد توفيق يوسف	٣٧٢	مصطفى بك الخادم
١٦٥ و ١٥٥	الشيخ محمد نجيت	٣٣٤	مصطفى محمد الشامي (ملازم ثان)
٣٧٢	محمد افندي السكره	٣٧٣ و ٢٨٦	الشيخ مصطفى القاياتي
٣٧٤	محمد افندي بسيوني طنش	٤١٨ و ٣٧٤	مصطفى النحاس باشا
٣٧٣	محمد توحيد بك السلحدار	٣٧٢ و ٢٤٠	مصطفى بك رشيد
٣٧٢	محمد بك توفيق	٣٧١	مصطفى بك سري
٣٧٢	محمد بك توفيق زاهر	٣٧١	مصطفى بك عزت
٣٧٣ و ٢٦٢ (باشا)	محمد بك حافظ رمضان	٣٧٣ و ٣٧٢ و ١٢٩	مصطفى بك الشوربجي
٣٧٢	محمد بك حبيب المهندس		مصطفى كامل (معظم صحائف الكتاب)
٣٧١	محمد بك حسني يكن	١٥٤ و ١٣٩	مصطفى كامل (مدرسة)
٣٧٢ و ٢٦٢	محمد بك خلوصي	٣٧٥ و	
٢٤٠	محمد خورشيد بك	٢٣٥	مصطفى كامل الغمراوي بك
٢٠١	محمد درويش زهران	٣٣٤	مصطفى لطفى (الملازم الأول)
٣٧٤	محمد افندي رشدي	٢٣٣ و ١٧٦ و ٣٧	مصطفى فهمي باشا
٣٧٢ و ٢٦٢	محمد بك رشوان	٤٠٢ و ٣٤٣ و ٢٤٣ و ٢٤٣	
٣٧٢	الشيخ محمد رفعت	١١٩	مصوع
٣٧٣	محمد بك رمضان	٣٧٢	الدكتور محبوب ثابت

صفحة		صفحة	
٣٧٣	محمد افندي عوض جبريل	٨٩ و ٨٨	محمد زايد
١٤٤ و ١٢٦ و ١٢٥ و ١٢٤	محمد بك فريد	٣١٧	محمد زكي باشا
٢٤٠ و ٢٣٤ و ٢٢٧ و ٢٢٤		٣٧٤	محمد زكي على باشا
٢٩٢ و ٢٧٨ و ٢٦٤ و ٢٦٢ و ٢٦١		٢٤٠	محمد بك سعاد
٣١٤ و ٣١٦ و ٣٤٤ و ٣٦٢ و ٣٦٧		١٣٩	محمد سعيد التومي
٤٠٠ و		٣٧١	محمد سعيد باشا
١٤٤	الاستاذ محمد فريد وجدي	٢٤٣	محمد شواربي باشا
٣٠٦	محمد فكري أباطه باشا	٣٧٣	محمد بك صادق جلال
٣٧٣	محمد افندي فهمي بشير	٣٧٣ و ١٤٤	محمد صادق عنبر
٣٧٢	محمد بك فهمي حسين	٤٠١ و ٣٧١	محمد طلعت حرب باشا
٣٧٢	محمد بك فؤاد المنشاوي	٣٧٢	محمد عبد القادر القط
٣٧٣	محمد بك فؤاد حمدي	٣٧٢	محمد عبد الكريم (سيدي جابر)
٢٢	محمد بك كامل الكفراوي	٢٧٢ و ٩٢ و ٢٤	محمد عبد اللطيف
٣٧٢	محمد بك كامل بخاتي	٣٧٣	محمد افندي عبد اللطيف التاجر
٣٧٢	الاستاذ محمد كامل مرتجي	٢٠١ و ١٩٩	محمد عبد النبي
٣٧٢ و ١٤٤	محمد بك لبيب البتانوني	١٥٥	الشيخ محمد عبده
٣٧٣ و ١٤٤	الاستاذ محمد لطفى جمعة	٣٧٥	الاستاذ محمد عراجي
٣٧٢ و ٢٨٦	محمد افندي لمعي	٢٠١	محمد علي أبو سمك
٣٨٢ و ٣٢٢	محمد ماهر باشا	١٤٤	محمد علام
١٨٣	محمد محب باشا	٢٩٢	محمد علوي باشا
٣٠٧ و ٣٠٦	الاستاذ محمد محمود جلال	١٩	محمد افندي علي
٣٧٤	محمد افندي مرسي النحاس	٤٣٠ و ٤٢٨ و ١٦٠	محمد علي الكبير
٧٢	محمد بك مسعود	٣٧٤	محمد علي المهندس
٢٠١	محمد مصطفى محفوظ	٣٧٢ و ١٨٩	محمد علي دلاور بك
٣٧٣	الشيخ محمود أبو العيون	٣٧٣	الدكتور محمد بك علي دويدار
٢٩٢ و ٢٨٦ و ٢٤٠	محمد بك أبو النصر	٣٧٢	محمد علي علوية باشا
٣٧٢ و			

صفحة		صفحة	
٣٢٩	محمود افندي مخنار (اليوزباشى)	٣٧٢	محمود بك الشيشينى
٣٧١	الدكتور محمود بك ناشد	٣٠٤ و ٣٠٠ و ٣٧٤	الاستاذ محمود العمرى
٣٧٤	الدكتور منصور القاضى	٤٠٥	محمود باشا الفلكى
٣٧٢	رفعت	٣٧١ و ٣٦١ و ٢٤٠	محمود بك انيس ١٤٤ ر
٣٧٢	فهمى باشا	٣٧٢	الاستاذ محمود بسوينى
٤٠	المسيو موللر	٣٧٢	محمود بك حسيب
١٢٠	موتنى (القومندان)	٨٢٤	محمود افندى حلى (اليوزباشى)
١٠٠	ميخائيل بك عبد السيد	٣٧٢	محمود بك حلى اسماعيل (المير لاي)
	(ن)	٣٧٢	محمود حمدى السخاوى
١٨٨	نادى المدارس العليا	٣٧٥	الاستاذ محمود خيرت
١٨٩	نجيب مرتضى	٣٧٤	محمود خيرى باشا
٣٧٢	الدكتور نصر فريد بك	٣٧١ و ١٤٤ و ٣٣	محمود بك سالم
٣٦٩ و ٣٢١	نوبار باشا	١٤٤	محمود افندى سلامة
٢٠٠	نولن (الدكتور)	٣٤٣	محمود سليمان باشا
٣١٩	النوبة (صحراء)	٣١٧ و ١٥٥	محمود شكرى باشا
	(ه)	٣٧٢	الدكتور محمود عبد الوهاب بك
٣٧٤	هاشم بك مهنا	٣٧٢	الشيخ محمود عبد الغنى
١١٩	هرر	٣٧٤	الاستاذ محمود عزمى
٨٦	هفهان زنيفر	٣٧٢	محمود افندى على منصور
٢٤٩ و ٢٣٦	السير هنرى كامبل بانرمان	٣٧٢	محمود افندى على ناصر
	٤٢٠ و	٣٧٢ و ٢٦٢	محمود بك فهمى حسين
٢٤٢	المستر هيتير	٢٢	محمود بك فوزى الحكيم
٢٤٤	المستر هيل	٣٧٢	محمود افندى كمال
	(و)	٣٧٢	اليوزباشى محمود لطفى الازميرلى
٦٣	وادنجتون	٣٧٢ و ٣٧١ و ٢٦٢	محمود بك محرم رستم

صفحة		صفحة	
٣٧٣	الدكتور يحيى الدرديرى	١٨٥	وطسن باشا
١٦٦	يسى بك اندراوس	٢١٠	ونجيت باشا
٣٧٢	يوسف بك المنشاوى	٤٤٦	رولف (انفاقية)
٣٧٢ و ٢٦٢ و ٢٤٠	يوسف بك حافظ	٢٩٢ و ٢٦٢ و ١٤٤	الاستاذ ويصا واصف
٣٧٢ و ٢٦٢ و ٢٤٠	يوسف بك ذهنى	٤٣٢ و ٣٧١	
٢٠١	يوسف حسن سليم	٣٣٥	السير ولیم جارستن
١٣٧	يوسف شهدى باشا	٣٤٨	الوفد المصرى
٣٧١ و ٢٩٢	يوسف صديق باشا	(ى)	
٤٠٠ و ١٦٦	يونج (مدام)	١٦٦ و ١٥٥	يحيى افندى (قاضى مصر)

تصحيح خطأ

صواب	خطأ	سطر	صفحة
والأخرى	وأخرى	٢١	١٤
إذا بلغ الولد	إذا بلغ	٨	٢٠
التلميذة	التلميذة	٤	٢٥
١٨٩٥	١٨٩٤	السطر الأخير	٥١
١٨٩٥	١٨٢٩	»	٥٥
جاهر	هاجر	٢٢	٧١
استقلالاً	استقلال	١٣	٨١
تذكر	يذكر	السطر الأخير	٨٦
مواطنيك	مواطنيك	١٤	٩١
تكرر	تكرر	١٤	١٦٨
والثبات	والثبات	١٠	١٧٦
المتعددة	الستمة	٦	١٨٦
يجب	تجب	السطر الأخير	٢٢٢
كروم	كروم	»	٢٣٧
الصيفتين	الصيفتين	١٨	٢٤٠
حظ	حظر	٢٣	٢٤٥
تزع	تزع	١	٢٤٦
وروعت	وروعت	١٩	٢٧٣
أسطع	استطع	١٤	٢٧٨
كتبه	كتبه	٢	٢٨٠
الحب	الحب	١١	٢٨٤
لا يفصلها	لا يفصلها	٧	٢٩٧
غر	عر	٦	٢٩٨
بعض تلاميذ	تلاميذ	٢٢	٣٠٩
العفة	العبه	١٩	٢١٦
دوى	دوى	٤	٣١٨
حقه في	حقه	٣	٣١٩
لا يحلها	لا يحللها	١٧	٣٢٢
الاعتذار	الاعتذا	١٥	٣٢٣
السودان	السوان	السطر الأخير	٣٢٧
الجملة	الجملة	١٨	٣٣٠
على	على	٤	٣٨٨

حقوق الشعب

يتضمن شرح المبادئ والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الإنسان ؛

طبع سنة ١٩١٢

نقابات التعاون الزراعية

يتضمن تاريخ التعاون الزراعي ومنشأته في أوروبا ، ونشأة التعاون في مصر

و تاريخه ونظامه وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية ، طبع سنة ١٩١٤

الجمعيات الوطنية

صحيفة من تاريخ النهضات القومية ، يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية

والنهضات القومية في طائفة من البلدان ، مع شرح أصول الدساتير والنظم البرلمانية

البرلمانية فيها ، والمقارنة بينها ، طبع سنة ١٩٢٢

تاريخ الحركة القومية

الجزء الأول : يتضمن ظهور الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث ، وبيان

الدور الأول من أدوارها ، وهو عصر المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية

في مصر ، وتاريخ مصر القومي في هذا العهد

الجزء الثاني : من إعادة الديوان في عهد نابليون إلى ولاية محمد علي الكبير

عصر محمد علي

يتناول تاريخ مصر القومي في عهد محمد علي

عصر اسماعيل

الجزء الأول : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد اسماعيل

الجزء الثاني : وفيه ختام الكلام عن عهد اسماعيل

الثورة العراقية
والاحتلال الإنجليزي

مصر والسودان
في أوائل عهد الاحتلال

تاريخ مصر القومي من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢

مصطفى كامل

باعت الحركة الوطنية

تاريخ مصر القومي من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٩٨

محمد فريد

رمز الاخلاص والتضحية

تاريخ مصر القومي من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩

ثورة سنة ١٩١٩

تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١

الجزء الأول : يشتمل على شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة ، وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى شوب الثورة في مارس سنة ١٩١٩ ، ثم وقائع الثورة في القاهرة والإقليم .
الجزء الثاني : وفيه الكلام عن مهادنة الثورة ، واستمرارها ، ومحاکات الثورة .
ولجنة ملتر ، والحوادث التي لابستها . ومفاوضات ملتر . واستشارة

الامة في مشروع ملنر ، والتبليغ البريطاني بأن الحماية علاقة غير
مرضية ، ونتائج الثورة في حياة مصر القومية

في أعقاب الثورة المصرية

الجزء الأول: تاريخ مصر القومي من أبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة المغفور له
سعد زغلول ، في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧

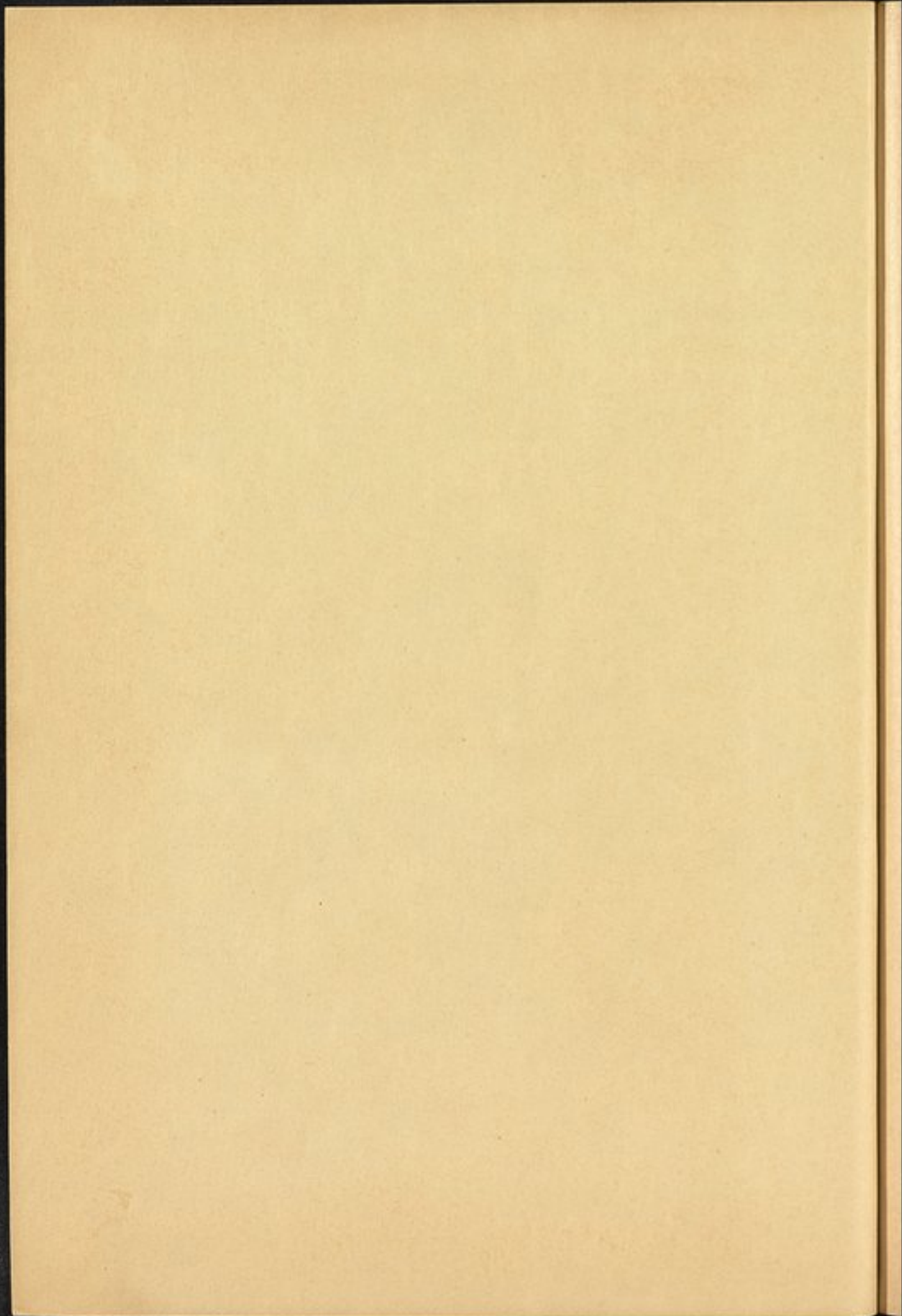
الجزء الثاني : تاريخ مصر القومي من وفاة سعد زغلول في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧
إلى وفاة الملك احمد فؤاد في ٢٨ ابريل سنة ١٩٣٦

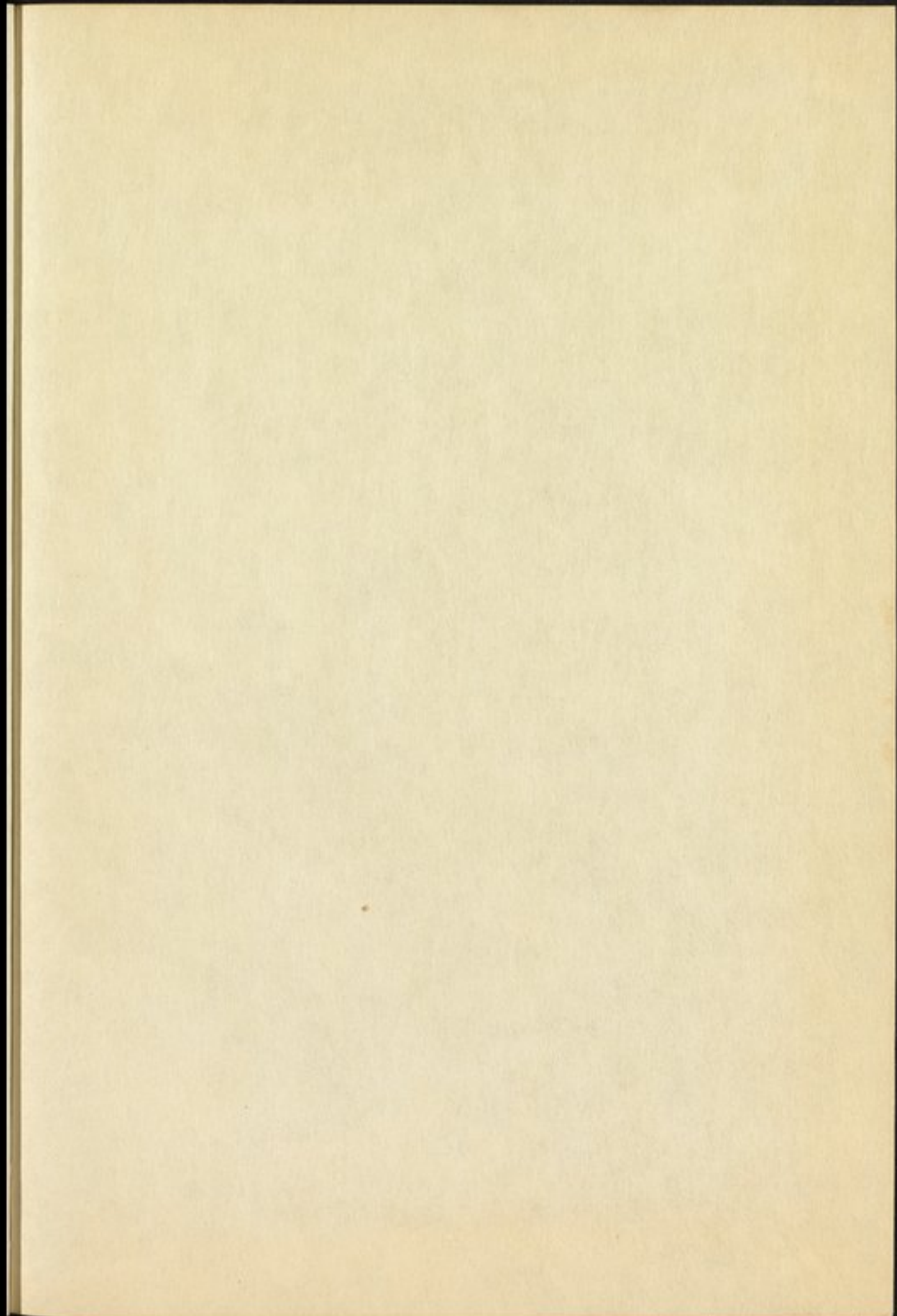
1871
1872
1873
1874
1875
1876
1877
1878
1879
1880
1881
1882
1883
1884
1885
1886
1887
1888
1889
1890
1891
1892
1893
1894
1895
1896
1897
1898
1899
1900

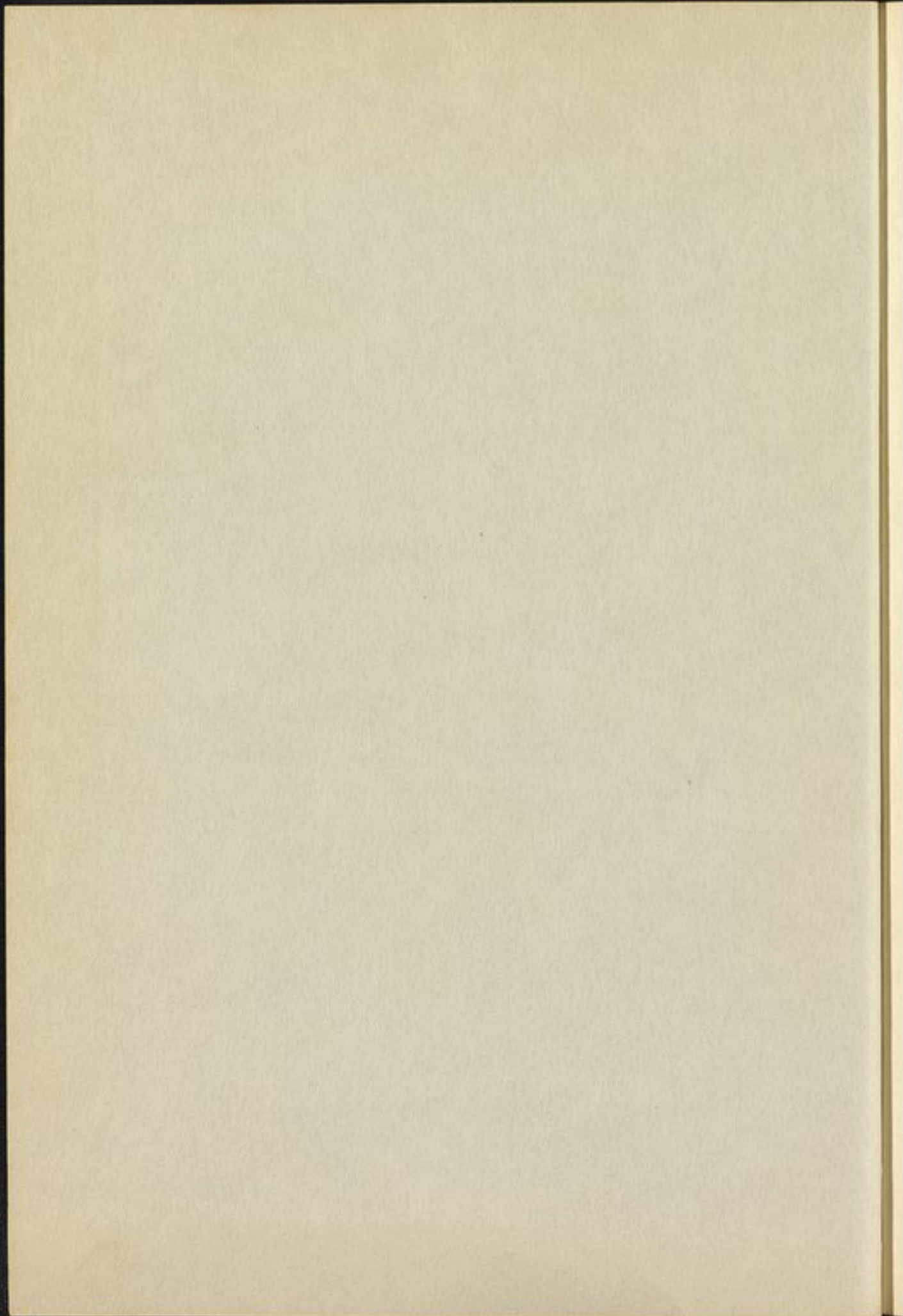
1870

مطبعة السعادة بمصر

١٩٥٠







1897

COLUMBIA UNIVERSITY



0026811952

962
R124

06760430

962.
R124 C1

MUSTAFA KAMIL

BOUND
JUL 19 1957

